فايز بن سياف السريع

التناسب بين الآيات



الجزء الثاني

من سورة المائدة
إلى سورة يونس

تقديم
جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

التناسب بين الآيات

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح
التناسب بين الآيات: الجزء الثاني. /
فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي - ط١ - الرياض ١٤٤٣هـ
٧٨٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩-٠٦-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٩٨٧٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٨٧٧

ردمك: ٩-٠٦-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٠٧٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

فَايِزُ بْنُ سَيَّافٍ ٱلسَّرِيحِ

التَّنَاسُبُ بَيْنَ الآيَاتِ

الجُزْءُ الثَّانِي

من سورة المائدة إلى سورة يونس

تقديم

جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّفْسِيرِ

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

لمَّا استثنىٰ بعضَ ما أحَل علىٰ سبيل الإبهام، شرع في بيانه، ولمَّا كان منه ما نهىٰ عن التعرُّض له لا مطلقًا، بل ما يبلُغُ مَحِلَّه: بدأ به لكونه في ذلك كالصيد، وقدَّم علىٰ ذلك عمومَ النَّهي عن انتهاك معالم الحج المنبَّهِ عليه بالإحرام، أو عن كل محرَّمٍ في كل مكان وزمان، فقال مكررًا لندائهم - تنويهًا بشأنهم، وتنبيهًا لعزائمهم، وتذكيرًا لهم بما ألزموه أنفسَهم -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

اعتراضٌ بَيْنَ الجُمَلِ التي قبله وبين جملة ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾؛ ولذلك أعيدَ الخطابُ بالنداء بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وتوجيهُ الخطاب إلىٰ الذين آمنوا مع

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٧، ٨).

أنَّهم لا يُظَنُّ بهم إحلالُ المحرَّمات: يدل علىٰ أنَّ المقصودَ النَّهيُ عن الاعتداء علىٰ الشعائر الإلهيَّة التي يأتيها المشركون كما يأتيها المسلمون[1].

لمَّا حرَّم الصيدَ علىٰ المُحرِمِ في الآية الأولىٰ، أكَّد ذلك بالنَّهي في هذه الآية عن مخالفةِ تكاليفِ الله تعالىٰ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: لمَّا بيَّن حرمةَ إحلال الإحرام الذي هو مِن شعائر الحج، عقَّب ذلك ببيان حرمةِ إحلال سائر الشعائر، وإضافتِها إلىٰ الله ﷻ لتشريفها، وتهويلِ الخَطْبِ في إحلالها[3].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

لمَّا أتم الكلامَ علىٰ احترام أعظمِ المكان وأكرمِ الزمان وما لابَسَهما؛ فهذَّب النفوسَ بالنَّهي عن حظوظها، وأمر بعد تخليتِها عن كل شر بتحليتِها بكل خير: عدَّد

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٨١).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣).

-علىٰ سبيل الاستئنافِ- ما وعَد بتلاوته عليهم ممَّا حُرِّمَ مطلقًا إلا في حال الضرورةِ، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قولـه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ فهو بيان لِما ليس بحلالٍ مِن الأنعام(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ قال في أول السورة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ثم ذكَر فيه استثناءَ أشياءَ تتلىٰ عليكم؛ فههنا ذكَر الله تعالىٰ تلك الصورَ المستثناة مِن ذلك العمومِ؛ وهي أحدَ عشرَ نوعًا(٣).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

لمَّا تقدَّمَ إحلالُ الصيد وتحريمُ الميتة، وختم ذلك بهذه الرخصةِ، «وكان النبي ﷺ قد أمَر بقتلِ الكلاب»(٤)، وكان الصيدُ ربما مات في يد الجارحِ قبل إدراك ذكاته: سأل بعضُهم عمَّا يَحِلُّ مِن الكلاب، وبعضُهم عمَّا يحل مِن مَيْتةِ الصيد إحلالًا مطلقًا لا

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١١).
(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٨٨).
(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٨٣).
(٤) أخرجه أحمد (٢٧١٨٨).

بقيد الرخصةِ؛ إذ كان الحالُ يقتضي هذا السؤالَ؛ روىٰ الواحديُّ في أسباب النزول بسنده عن أبي رافع رضي الله عنه، قال: «أمَرني رسولُ الله ﷺ بقتل الكلاب، فقال الناس: يا رسول الله، ما أُحِلَّ لنا مِن هذه الأمَّة التي أمرتَ بقتلها؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[1]»[2].

إن كان الناسُ قد سألوا عمَّا أُحِلَّ لهم مِن المطعوماتِ بعد أن سَمِعوا ما حُرِّمَ عليهم في الآية السابقة، أو قبل أن يَسمعوا ذلك، وأريد جوابُهم عن سؤالهم الآن: فالمضارِعُ مستعمَلٌ للدلالة علىٰ تجدُّدِ السؤال؛ أي: تكرُّره، أو توقُّع تكرره؛ وعليه فوجهُ فصلِ جملة ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾: أنَّها استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن جملة ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، وقولِه: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾، أو هي استئنافٌ ابتدائي؛ للانتقال مِن بيان المحرَّمات إلىٰ بيان الحلال بالذات، وإن كان السؤال لم يقَعْ، وإنَّما قُصِد به توقُّعُ السؤال، كأنَّه قيل: إن سألوك، فالإتيانُ بالمضارِع بمعنىٰ الاستقبال لتوقُّعِ أن يَسألَ الناسُ عن ضبط الحلال[3].

لمَّا ذكَر ما حُرِّم مِن الميتةِ، وما عُطِف عليه مِن الخبائث: سألوا عمَّا يَحِلُّ لهم؟ ولمَّا كان ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ الفاعلُ فيه ضمير غائب، قال: ﴿لَهُمۡ﴾ بضمير الغائب[4].

هذا أيضًا متصلٌ بما تقدم مِن ذِكْرِ المطاعم والمآكل[5].

---

(١) أخرجه الطحاوي في "شرح معاني الآثار" (٤/ ٥٧ رقم٥٧٢٦).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١١٠).

(٤) البحر المحيط (٤/ ١٧٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٩٠).

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥ ﴾

لما كان قد تقدَّمَ النَّهيُ عن نكاح المشركات، والمنافرةُ لجميع أصناف الكفار، وبيانُ بُغْضِهم وعداوتهم، والحثُّ على طردِهم ومنابذتهم؛ لضعفِ الأمر إذ ذاك، وشدةِ الحاجة إلى إظهار الفظاظة والغِلْظة لهم؛ لتعظيم دِينِ الله، حتى كانت خُلْطتُهم مِن أمارات النفاق؛ كما سيأتي في كثيرٍ مِن آيات هذه السورة، وكان الدِّينُ وصَل عند نزولها مِن العظَمةِ إلى حدٍّ لا يحتاج فيه إلى تعظيمِ معظِّم، وكانت مخالَطةُ أهل الكتاب لا بد منها عند فتوح البلاد التي وعَد الصادقُ بها، وسبق في الأزل علمُها، فكانت الفتنةُ في مخالطتهم قد صارت في حدِّ الأمن: وسَّع الأمرَ بحِلِّ طعامهم ونسائهم، فقال تعالى مكرِّرًا ذِكْرَ الوقت الذي أنزَل فيه هذه الآيات - تنبيهًا على عِظَمِ النعمة فيه بتذكُّرِ ما هم فيه مِن الكثرةِ والأمن والجَمع والأُلْفة، وتذكُّر ما كانوا فيه قبل ذلك مِن القلةِ والخوف والفُرْقة، فقال معيدًا لصدرِ الآية التي قبلها؛ إعلامًا بعِظَمِ النعمة فيه، ومفيدًا بذِكْرِ وقت الإحلال أنَّه إحلال مقصودٌ به الثباتُ؛ لكونه يومَ إتمام النعمة، فهو غير الأول -: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾(١).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٣، ٢٤).

ومناسبةُ ذكرِ ذلك عقب قولـه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾، و﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾: أنَّ هذا أيضًا مِنَّةٌ كبرىٰ؛ لأنَّ إلقاءَ الأحكام بصفة كليةٍ نعمةٌ في التفقه في الدِّين، والكلامُ علىٰ الطيبات تقدم آنفًا، فأعيدَ ليبنىٰ عليه قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وعطَفَ جملةَ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ علىٰ جملة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ لأجلِ ما في هذه الرخصة مِن المِنَّةِ؛ لكثرة مخالطةِ المسلمين أهلَ الكتاب، فلو حرَّم اللهُ عليهم طعامَهم، لشَقَّ ذلك عليهم(١).

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: فائدةُ إعادة ذكرِ إحلال الطيبات: التنبيهُ بإتمام النعمة فيما يتعلق بالدنيا؛ ومنها: إحلال الطيبات؛ كما نبَّه بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ علىٰ إتمام النعمة في كلِّ ما يتعلق بالدِّين(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أخبَر في هذه الآية المتقدمةِ أنَّه أحَلَّ الطيبات، وكان المقصودُ مِن ذِكْرِهِ الإخبارَ عن هذا الحُكْمِ، ثم أعاد ذِكْرَه في هذه الآية، والغرضُ مِن ذكره: أنَّه قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ فبيَّن أنَّه كما أكمَل الدِّينَ وأتَمَّ النعمة في كل ما يتعلق بالدِّين، فكذلك أتم النعمةَ في كل ما يتعلق بالدنيا؛ ومنها: إحلال الطيبات، والغرضُ مِن الإعادة: رعايةُ هذه النكتة(٣).

كرَّر تعالىٰ إحلالَ الطيبات؛ لبيانِ الامتنان، ودعوةً للعباد إلىٰ شكره، والإكثار مِن ذكرِه؛ حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجةُ إليه، ويحصل لهم الانتفاعُ به مِن الطيبات(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١١٩).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٨٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٩٣).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٢١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾

لَمَّا خصَّ به كتابَها مِن البيان الأتمِّ في النَّظْمِ المعجِز، مع شرَفِ التذكير بما أفاضه مِن شرفٍ جليلِ الأيادي، فافتتَح هذه السورةَ بالأمر بالوفاءِ بحقِّ الرُّبوبية، وأتبَعه التذكيرَ بما وفىٰ به سبحانه مِن حقِّ الرُّبوبية مِن نوعِ المنافع في لذةِ المَطعَم وتوابعه، ولذة المَنكِح وتوابعه، وقدَّم المَطعَمَ؛ لأنَّ الحاجةَ إليه فوق الحاجة إلىٰ المَنكِح؛ فلمَّا أتَمَّ ما ألزَمه نفسَهُ الأقدسَ مِن عهدِ الرُّبوبية فضلًا منه، أتبَعه الأمرَ بالوفاء بعهدِ العبودية، وقدَّم منه الصلاةَ؛ لأنَّها أشرَفُه بعد الإيمان، وقدَّم الوُضوءَ؛ لأنَّه شرطُها، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

إذا جرَيْنا علىٰ ما تحصحَصَ لدينا وتمحَّصَ؛ مِن أنَّ سورةَ المائدة هي مِن آخرِ السُّوَر نزولًا، وأنَّها نزَلتْ في عامِ حَجَّةِ الوداع: جزَمْنا بأنَّ هذه الآيةَ نزَلتْ هنا تذكيرًا بنعمةٍ عظيمة مِن نِعَمِ التشريع؛ وهي: منَّةُ شرعِ التيمُّم عند مشقَّةِ التطهُّر بالماء؛

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٩، ٣٠).

فجزَمْنا بأنَّ هذا الحُكمَ كلَّه مشروعٌ مِن قبلُ؛ وإنَّما ذُكِر هنا في عِداد النِّعم التي امتنَّ اللهُ بها على المسلمين؛ فإنَّ الآثارَ صحَّت بأنَّ الوُضوءَ والغُسْلَ شُرِعَا مع وجوب الصلاة، وبأنَّ التيمُّم شُرِع في غزوة المُرَيْسِيعِ سنة خمسٍ أو ستٍّ[(١)].

لما افتتَح بالأمرِ بإيفاء العهود، وذكَر تحليلًا وتحريمًا في المَطعَم والمَنكِح، واستقصى ذلك، وكان المَطعَمُ آكَدَ مِن المَنكِح، وقدَّمه عليه، وكان النوعانِ مِن لذَّاتِ الدنيا الجسمية، ومهماتِها للإنسان، وهي معاملاتٌ دنيوية بَيْنَ الناس بعضهم مِن بعض: استطرَد منها إلى المعامَلات الأُخْروية التي هي بَيْنَ العبدِ وربِّه ﷻ، ولمَّا كان أفضَلُ الطاعات بعد الإيمانِ الصلاةَ، والصلاةُ لا تُمكِن إلا بالطهارة: بدأ بالطهارةِ، وشرائط الوُضوء، وذكَر البدلَ عنه عند تعذُّر الماء. ولمَّا كانت محاولةُ الصلاةِ في الأغلب إنَّما هي بقيامٍ، جاءت العبارةُ: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾؛ أي: إذا أردتم القيامَ إلى فعل الصلاة[(٢)].

لمَّا كان أعظَمُ الطاعات بعد الإيمانِ الصلاةَ، وكانت الصلاةُ لا يُمكِن إقامتُها إلا بالطهارة: لا جرَمَ بدأ تعالى بذكرِ شرائطِ الوُضوء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[(٣)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: شروعٌ في بيانِ الشرائع المتعلقةِ بدِينهم بعد بيانِ ما يَتعلَّقُ بدنياهم[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٢٦).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٨٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٩٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٠).

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

لمَّا كان في هذه المأموراتِ والمنهيَّات خروجٌ عن المألوفات، وكانت الصلاةُ أوثَقَ عُرَىٰ الدِّين، وكان قد عبَّر عنها بالإيمانِ الذي هو أصلُ الدِّين، وأساسُ الأعمال: عطَفَ عليها قولَه -تذكيرًا بما يوجِبُ القَبولَ والانقياد-: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(1).

عطَفَ علىٰ جملةِ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ الآيةَ الواقعة تذييلًا لقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآيةَ. والكلامُ مرتبطٌ بما افتُتِحت به السورةُ مِن قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾؛ لأنَّ في التذكيرِ بالنعمة تعريضًا بالحثِّ علىٰ الوفاء(2).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أوامرَ ونواهيَ، ذكَر وعدَهُ مَن اتَّبَعَ أوامرَه، واجتنَب نواهيَه(3).

لما ذكَر هذا التكليفَ، أردَفه بما يوجِبُ عليهم القَبولَ والانقياد(4).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾

لمَّا تقدَّمَ القيامُ إلىٰ الصلاة، وتقدَّم ذِكْرُ الأزواج المأمورِ فيهنَّ بالعدل في أولِ النساء وأثنائها، وكان في الأزواج المذكوراتِ هنا الكافراتُ: ناسَبَ تعقيبُ ذلك

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٢).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٣١٨).

بعد الأمر بالتقوىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

لمَّا ذكَّرهم بالنعمة، عقَّب ذلك بطلبِ الشكر للمُنعِم، والطاعةِ له؛ فأقبَل علىٰ خطابهم بوصفِ الإيمانِ الذي هو منبعُ النِّعَمِ الحاصلة لهم؛ فالجملة استئنافٌ نشأ عن ترقُّبِ السامعين بعد تَعْداد النِّعم[2].

هناك بُدِئ بالقِسط، وهنا أُخِّر؛ وهذا مِن التوسُّعِ في الكلام، والتفنُّن في الفصاحة، ويَلزم مَن كان قائمًا لله أن يكونَ شاهدًا بالقِسْطِ، ومَن كان قائمًا بالقِسْطِ أن يكونَ قائمًا لله، إلا أنَّ التي في «النساءِ» جاءت في مَعرِضِ الاعترافِ علىٰ نفسه، وعلىٰ الوالدين والأقربينَ؛ فبُدِئ فيها بالقِسْطِ الذي هو العَدْلُ والسَّواء مِن غيرِ محاباةِ نفسٍ، ولا والدٍ، ولا قرابةٍ، وهنا جاءت في مَعرِضِ تركِ العداوات والإِحَنِ؛ فبُدِئ فيها بالقيامِ لله تعالىٰ أولًا؛ لأنَّه أردَعُ للمؤمنين، ثم أُردِفَ بالشَّهادةِ بالعدل؛ فالتي في مَعرِض المحبَّة والمحاباة بُدِئ فيه بما هو آكَدُ؛ وهو القِسْطُ، وفي مَعرِضِ العداوةِ والشَّنَآنِ بُدِئ فيها بالقيامِ لله؛ فناسَبَ كلَّ مَعرِضٍ بما جِيءَ به إليه[3].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ هذا أيضًا متصلٌ بما قبله؛ والمرادُ حثُّهم علىٰ الانقيادِ لتكاليف الله تعالىٰ، واعلَمْ أنَّ التكاليفَ وإن كثُرتْ إلا أنَّها محصورةٌ في نوعينِ: التعظيمُ لأمرِ الله تعالىٰ، والشفقةُ علىٰ خَلْقِ الله، فقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾: إشارةٌ إلىٰ النوعِ الأول؛ وهو التعظيمُ لأمر الله، ومعنىٰ

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٩٦).

القيامِ لله: هـو أن يقـومَ لله بـالحقِّ في كـلِّ مـا يَلزمـه القيـامُ بـه؛ مِـن إظهـارِ العبوديـة، وتعظيمِ الرُّبوبية، وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾: إشارةٌ إلىٰ الشفقةِ علىٰ خَلْقِ الله[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ شـروعٌ في بيـانِ الشـرائع المتعلقةِ بما يَجري بَيْنَهم وبين غيرِهم إثرَ بيانِ ما يتعلقُ بأنفسهم[(٢)].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾

لمَّا أمَر سبحانه ونهىٰ، بشَّر وحذَّر، فقـال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[(٣)].

عقَّب أمرَهم بالتقوىٰ بذِكرِ ما وعَد اللهُ به المتقين؛ ترغيبًا في الامتثالِ، وعطَفَ عليه حالَ أضداد المتقين؛ ترهيبًا، فالجملةُ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا، ومفعولُ ﴿وَعَدَ﴾ الثاني محذوفٌ؛ تنزيلًا للفعلِ منزلةَ المتعدي إلىٰ واحد[(٤)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أوامرَ ونواهيَ، ذكَر وَعْدَهُ مَن اتَّبَعَ أوامرَه واجتنَب نواهيَه، و﴿وَعَدَ﴾ تتعدىٰ لاثنينِ، والثاني محذوفٌ؛ تقديره: الجنَّةُ، وقد صرَّح بها في غيرِ هذا الموضع[(٥)].

ذكَر الكلامَ الذي يكون وعدًا مع المطيعين، ووعيدًا للمذنبين؛ وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ يعني: أنَّه عالِمٌ بجميعِ المعلومات؛ فلا

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٦).

(٥) البحر المحيط (٤/ ١٩٧).

يَخفَىٰ عليه شيءٌ مِن أحوالِكم، ثم ذكَر وعدَ المؤمنين، فقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾؛ فالمغفرةُ: إسقاطُ السيئات[١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

لمَّا قدَّم الوعد لأنَّه في سورةِ الذين آمنوا، أتبَعَه الوعيدَ لأضدادهم، وهو أعظَمُ وعدٍ لأحبابه المؤمنين أيضًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٢].

لمَّا ذكَر ما لِمَن آمَن، ذكَر ما لِمَن كفَر[٣].

ثم ذكَر بعد ذلك وعيدَ الكفار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي مِن جملتِها ما تُليت مِن النصوصِ الناطقة بالأمرِ بالعدلِ والتقوىٰ[٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾

لمَّا كان مِن الأجرِ ما يحصُلُ مِن أسبابِ السعادة في الدنيا، قال تعالىٰ ذاكرًا لهم بعضَ ذلك مذكِّرًا ببعضِ ما خاطَبهم به؛ ليُقدِموا علىٰ مبايَنةِ الكفرة، ويَقِفوا عند

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٠).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٤٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢١).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢).

حدودِه كائنةً ما كانت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ أُعِيدَ تذكيرُهم بنعمةٍ أخرىٰ عظيمةٍ علىٰ جميعِهم؛ إذ كانت فيها سلامتُهم، تلك هي نعمةُ إلقاءِ الرُّعب في قلوبِ أعدائهم؛ لأنَّها نعمةٌ يحصُلُ بها ما يحصل مِن النصرِ دون تجشُّمِ مشاقِّ الحرب ومَتالِفِها. وافتتاحُ الاستئنافِ بالنداء؛ ليحصُلَ إقبالُ السامعين علىٰ سماعِه. ولفظُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وما معه مِن ضمائرِ الجمع: يؤذِنُ بأنَّ الحادثةَ تتعلقُ بجماعةِ المؤمنين كلِّهم[٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكيرٌ لنعمةِ الإنجاء مِن الشرائرِ إثرَ تذكيرِ نعمةِ إيصال الخيرِ، الذي هو نعمةُ الإسلام، وما يَتبعُها مِن الميثاقِ، و﴿عَلَيْكُمْ ﴾ متعلِّقٌ بنعمةِ الله، أو بمحذوفٍ وقَع حالًا منها[٣].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ مِن مقتضىٰ الإيمانِ ملازمةَ شكرِه علىٰ ذكرِ نِعَمِه، فقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣).

(٤) محاسن التأويل (٤/ ٧٨).

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

وحينئذٍ حسُنَ كلَّ الحُسْنِ تعقيبُها -مع ما تقدَّم مِن أمرِ العقَبةِ، وأمرِ بني النَّضير؛ في نقضِهم عهدَهم، وغدرِهم؛ بما هَمُّوا به مِن قتلِ النبي ﷺ بإلقاء الرَّحىٰ عليه مِن سطحِ البيت الذي أجلَسوه إلىٰ جانبه-: بقوله -إشارةً إلىٰ أنَّ اليهودَ ما زالوا علىٰ النقضِ قديمًا؛ تحذيرًا للمؤمنين مِن أن يكونوا مثلَهم في النقضِ؛ لئلا يحُلَّ بهم ما حَلَّ بهم مِن الصَّغار، وإعلامًا بأنَّ عادتَهُ سبحانه في الإلزامِ بالتكاليف قديمةٌ، غيرُ مخصوصةٍ بهم، بل هي عامةٌ لعباده، وقد كلَّف أهلَ الكتاب تشريفًا لهم بمثلِ ما كلَّفهم به، ورغَّبهم ورهَّبهم؛ ليسابِقوهم في الطاعة؛ فإنَّ الأمرَ إذا عمَّ هانَ، والإنسان إذا سابَق اجتهد في أخذِ الرِّهان، وأكَّد الخبرَ بذلك؛ لئلا يُظَنَّ لشدةِ انهماكهم في النفس أنَّه لم يَسبِقْ لهم عهدٌ قبل ذلك-، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).

ناسَب ذكرُ ميثاقِ بني إسرائيلَ عَقِبَ ذكرِ ميثاق المسلمين مِن قوله: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾؛ تحذيرًا مِن أن يكونَ ميثاقُنا كميثاقهم(٢).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٩).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه أمَر بذكرِ الميثاق الذي أخذه الله علىٰ المؤمنين في قوله: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، ثم ذكَر وَعْدَه إياهم، ثم أمَرهم بذكرِ نعمته عليه إذ كَفَّ أيديَ الكفار عنهم؛ ذكَّرهم بقصةِ بني إسرائيلَ في أخذِ الميثاق عليهم، ووعدِهِ لهم بتكفيرِ السيئات، وإدخالِهم الجنَّةَ؛ فنقَضوا الميثاقَ، وهَمُّوا بقتلِ الرسول، وحذَّرهم بهذه القصةِ أن يسلُكوا سبيلَ بني إسرائيلَ في نقضِهم ميثاقَ اللهِ الذي أخَذه اللهُ تعالىٰ عليهم، وأخذُ ميثاقِ بني إسرائيلَ هو بالإيمانِ والتوحيد(١).

اعلَمْ أنَّ في اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها وجوهًا: الأول: أنَّه تعالىٰ خاطَب المؤمنين فيما تقدَّم، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾، ثم ذكَر الآن أنَّه أخَذ الميثاقَ مِن بني إسرائيلَ، لكنَّهم نقَضوه، وترَكوا الوفاءَ به؛ فلا تكونوا -أيُّها المؤمنون- مثلَ أولئك اليهودِ في هذا الخُلُقِ الذميم؛ لئلا تَصيروا مثلَهم فيما نزَل بهم مِن اللَّعْنِ والذِّلة. والثاني: أنَّه لمَّا ذكَر قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾، وقد ذكَرْنا في بعضِ الرواياتِ: أنَّ هذه الآيةَ نزَلتْ في اليهودِ، وأنَّهم أرادوا إيقاعَ الشرِّ برسول الله ﷺ، فلمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ ذلك، أتبَعه بذكرِ فضائحهم، وبيانِ أنَّهم أبدًا كانوا مواظِبينَ علىٰ نقضِ العهود والمواثيق. الثالث: أنَّ الغرَضَ مِن الآياتِ المتقدمة ترغيبُ المكلَّفين في قَبولِ التكاليف، وتركِ التمرُّد والعصيان؛ فذكَر تعالىٰ أنَّه كلَّف مَن كان قبل المسلمين كما كلَّفهم؛ ليَعلَموا أنَّ عادةَ اللهِ في التكليفِ والإلزام غيرُ مخصوصة بهم، بل هي عادةٌ جارية له مع جميعِ عباده(٢).

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٢).

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مشتمِل على ذكرِ بعض ما صدَر عن بني إسرائيلَ مِن الخيانةِ، ونقضِ الميثاق، وما أدىٰ إليه ذلك مِن التَّبِعات، مسُوقٌ لتقريرِ المؤمنين علىٰ ذكرِ نعمة الله تعالىٰ، ومراعاةِ حق الميثاق الذي واثَقهم به، وتحذيرِهم مِن نقضِه، أو لتقريرِ ما ذُكِر مِن الهمِّ بالبطش، وتحقيقِه علىٰ تقدير كونِ ذلك مِن بني قُريظة، حسبما مرَّ مِن الروايةِ ببيانِ أنَّ الغدرَ والخيانة عادةٌ لهم قديمة، توارَثوها مِن أسلافهم[(١)].

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما أخَذ علىٰ اليهودِ مِن الميثاق، ووعيدَه لهم إن كفَروا بعد ذلك: ذكَر أنَّهم نقَضوا مرةً بعد مرة - كما تقدَّم في سورةِ «البقرة» وغيرِها كثيرٌ منه عن نصٍّ ما عندهم مِن التَّوراة -؛ فاستحَقُّوا ما هم فيه مِن الخِزْيِ، فقال تعالىٰ مسبِّبًا عمَّا مضىٰ، مؤكِّدًا بـ«ما» النافيةِ لضدِّ ما أثبته الكلامُ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[(٢)].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾، وفي نقضِهم الميثاقَ وجوه: الأول: بتكذيبِ الرسل، وقتلِ الأنبياء. الثاني: بكتمانِهم صفةَ محمَّدٍ ﷺ. الثالث: مجموعُ هذه الأمور[(٣)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٤).

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾

لمَّا دخَل النصارىٰ فيما مضىٰ؛ لأنَّهم مِن بني إسرائيلَ: خصَّهم بالذكرِ؛ لأنَّ كفرَهم أشَدُّ وأسمَجُ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[(١)].

ذكَر بعد ميثاقِ اليهود ميثاقَ النصارىٰ. وجاءت الجملةُ علىٰ شِبْهِ اشتغالِ العامل عن المعمول بضميرِه؛ حيث قُدِّمَ متعلِّقُ ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ وفيه اسمٌ ظاهر، وجِيءَ بضميرِه مع العامل؛ للنُّكتةِ الداعيةِ للاشتغال مِن تقريرِ المتعلِّقِ وتثبيتِهِ في الذهن؛ إذ يتعلقُ الحُكْمُ باسمِه الظاهر وبضميرِه؛ فالتقدير: وأخَذْنا مِن الذين قالوا: إنَّا نصارىٰ ميثاقَهم[(٢)].

الظاهرُ أنَّ «مِن» تتعلقُ بقوله: ﴿أَخَذۡنَا﴾، وأنَّ الضميرَ في ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ عائدٌ علىٰ الموصول، وأنَّ الجملةَ معطوفةٌ علىٰ قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّه تعالىٰ أخَذ مِن النصارىٰ ميثاقَ أنفسِهم؛ وهو الإيمانُ بالله والرسل، وبأفعالِ الخير. وقيل: الضمير في ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ عائدٌ علىٰ بني إسرائيلَ، ويكونُ مصدرًا شبيهًا؛ أي: وأخَذْنا مِن النصارىٰ ميثاقًا مثلَ ميثاق بني إسرائيلَ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٤٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٠٧،٢٠٨).

المراد أنَّ سبيلَ النصارىٰ مثلُ سبيل اليهود في نقضِ المواثيقِ مِن عند الله؛ وإنَّما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، ولم يقُلْ: ومن النصارىٰ؛ وذلك لأنَّهم إنَّما سمَّوْا أنفسَهم بهذا الاسمِ ادعاءً لنصرةِ الله تعالىٰ، وهم الذين قالوا لعيسىٰ عليه السلام: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فكان هذا الاسمُ في الحقيقةِ اسمَ مدحٍ؛ فبيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّهم يدَّعُون هذه الصفةَ، ولكنَّهم ليسوا موصوفين بها عند اللهِ تعالىٰ، وقولُه: ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾؛ أي: مكتوبٌ في الإنجيلِ أن يؤمنوا بمحمَّدٍ ﷺ، وتنكيرُ الحظِّ في الآية يدل علىٰ أنَّ المرادَ به حظٌّ واحد؛ وهو الذي ذكَرْناه مِن الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، وإنَّما خصَّ هذا الواحدَ بالذِّكر مع أنَّهم تركوا الكثير ممَّا أمَرهم اللهُ تعالىٰ به؛ لأنَّ هذا هو المعظَّمُ والمهِمُّ[(١)].

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ بيانٌ لقبائحِ النصارىٰ وجناياتهم إثْرَ بيانِ قبائحِ اليهود وخياناتهم[(٢)].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾

لمَّا عَلِم بذلك كلِّهِ أحوالَ الفريقين، أقبَل عليهم واعظًا مناديًا متلطفًا، مستعطِفًا مرغِّبًا مرهِّبًا، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٦٢).

بعد أن ذكَر مِن أحوالِ فريقَيْ أهلِ الكتاب وأنبائهم ما لا يَعرِفه غيرُ علمائهم، وما لا يستطيعون إنكارَه: أقبَل عليهم بالخطابِ بالموعظة؛ إذ قد تهيَّأَ مِن ظهورِ صدقِ الرسول ﷺ ما يسهِّلُ إقامةَ الحجةِ عليهم؛ ولذلك ابتُدئ وصفُ الرسول ﷺ بأنَّه يبيِّنُ لهم كثيرًا ممَّا كانوا يُخْفُون مِن الكتاب، ثم أعقَبه بأنَّه يعفو عن كثيرٍ(١).

الخطابُ لليهود والنصارىٰ الذين يُخْفُون صفةَ رسول الله ﷺ، والرَّجْمَ، ونحوَه. وأكثرُ نوازلِ الإخفاء إنَّما نزَلتْ لليهود؛ لأنَّهم كانوا مُجاوِرِي الرسولِ ﷺ في مُهاجَرِه(٢).

لمَّا حكىٰ عن اليهودِ وعن النصارىٰ نَقْضَهم العهدَ، وتَرْكَهم ما أُمِروا به: دعَاهم عَقِيبَ ذلك إلىٰ الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾؛ والمراد بأهلِ الكتاب: اليهودُ والنصارىٰ، وإنَّما وحَّد ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ﴾؛ لأنَّه خرَج مَخرَج الجنسِ(٣).

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ التفاتٌ إلىٰ خطابِ الفريقَين -علىٰ أنَّ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ جنسٌ شامل للتوراةِ والإنجيل- إثرَ بيانِ أحوالهما مِن الخيانةِ، وغيرِها مِن فنون القبائح، ودعوةٌ لهم إلىٰ الإيمانِ برسول الله ﷺ والقرآنِ، وإيرادُهم بعنوانِ أهليَّةِ الكتاب؛ لانطواءِ الكلام المُصدَّر به علىٰ ما يتعلقُ بالكتابِ، وللمبالغةِ في التشنيع؛ فإنَّ أهليَّةَ الكتاب مِن موجِباتِ مراعاته، والعملِ بمقتضاه، وبيانِ ما فيه مِن الأحكامِ، وقد فعَلوا مِن الكَتْمِ والتحريف ما فعَلوا وهم يَعلَمون(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٥٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٠٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٨).

﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾

لمَّـا كانـت هدايتُـه مشـروطةً بشـرط صـلاح الجِبِلَّـة، بيَّن ذلـك بقولـه واصـفًا لـه: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1].

ضمير ﴿بِهِ﴾ راجعٌ إلى الرسولِ ﷺ، أو إلى الكتابِ المبين[2].

الضمير في ﴿بِهِ﴾ ظاهرُه أنَّه يعود على كتابِ الله، ويحتملُ أن يكونَ عائدًا على الرسول ﷺ. قيل: ويحتمل أن يعودَ على الإسلام[3].

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ ﴾

لمَّا تمَّ ذلك موضَّحًا؛ لأنَّ مَن لم يتَّبِعِ الكتابَ الموصوف كان كافرًا، وعن الطريقِ الأَمَمِ جائرًا حائرًا، وكان محصَّلُ حالِ اليهود -كما رأيتَ فيما تقدَّم ويأتي مِن نصوصِ التَّوراة- أنَّهم لا يعتقدون على كثرةِ ما يرَوْنَ مِن الآيات أنَّ اللهَ مع نبيِّهم دائمًا، وكان أنسَبَ الأشياء بعد الوعظِ أن يُذكَرَ حالُ النصارى في نبيِّهم؛ فإنَّه مباينٌ لحالِ اليهود مِن كل وجهٍ؛ فأولئك على شكٍّ في أنَّه معه، وهؤلاء اعتقدوا أنَّه هو:

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٥١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٠٩).

فقال تعالىٰ مبينًا أنَّهم في أظلَمِ الظلام، وأعمىٰ العمىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

هذا مِن ضروبِ عدم الوفاء بميثاقِ الله تعالىٰ. كان أعظَمَ ضلالِ النصارىٰ ادعاؤُهم إلهيَّةَ عيسىٰ عليه السلام؛ فإبطالُ زعمِهم ذلك هو أهَمُّ أحوالِ إخراجِهم مِن الظُّلمات إلىٰ النور، وهديِهم إلىٰ الصراطِ المستقيم؛ فاستأنَف هذه الجملةَ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ استئنافَ البيان(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أخذَ الميثاقِ علىٰ أهل الكتابين، وأنَّهم لم يقُوموا به، بل نقَضوه: ذكَر أقوالهم الشنيعةَ؛ فذكَر قولَ النصارىٰ، القولَ الذي ما قاله أحدٌ غيرُهم، بأنَّ اللهَ هو المسيحُ ابن مريم، ووجهُ شُبْهتهم: أنَّه وُلِدَ مِن غير أبٍ؛ فاعتقدوا فيه هذا الاعتقادَ الباطل مع أنَّ حواءَ نظيرُه، خُلِقتْ بلا أمٍّ، وآدمُ أولىٰ منه؛ خُلِق بلا أبٍ ولا أم؛ فهلَّا ادَّعَوْا فيهما الإلهيَّةَ كما ادَّعَوْها في المسيح؟! فدل علىٰ أنَّ قولَهم اتباعُ هوًىٰ مِن غير برهانٍ ولا شبهة. فردَّ اللهُ عليهم بأدلةٍ عقلية واضحة، فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، فإذا كان المذكورون لا امتناعَ عندهم يَمنَعُهم لو أراد اللهُ أن يُهلِكَهم، ولا قدرةَ لهم علىٰ ذلك: دلَّ علىٰ بطلانِ إلهيَّةِ مَن لا يمتنعُ مِن الإهلاكِ، ولا في قوَّتِه شيءٌ مِن الفَكاك(٣).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٥١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٢٦).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

لمَّا عَمَّ سبحانه في ذكرِ فضائحِ بني إسرائيلَ تارةً، وخصَّ أخرىٰ: عَمَّ بذكرِ طامَّةٍ مِن طوامِّهم، حمَلهم عليها العُجْبُ والبَطَرُ بما أنعَم اللهُ به عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[(١)].

مقالٌ آخَرُ مشترَكٌ بَيْنَهم وبين اليهود يدل علىٰ غباوتِهم في الكفر؛ إذ يقولون ما لا يَلِيقُ بعظمةِ الله تعالىٰ، ثم هو مناقِضٌ لمقالاتهم الأخرىٰ. عُطِف علىٰ المقالِ المختص بالنصارىٰ، وقد وقَع في التَّوراةِ والإنجيل التعبيرُ بأبناء الله؛ ففي سِفْرِ التثنية أول الفصل الرابع عشر قولُ موسىٰ: "أنتم أولادٌ للرب أبيكم". وأمَّا الأناجيلُ فهي مملوءةٌ بوصفِ الله تعالىٰ بأبي المسيحِ، وبأبي المؤمنين به، وتسميةُ المؤمنين أبناءَ الله في متَّىٰ في الإصحاح الثالث: "وصوت مِن السماء قائلًا: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، وفي الإصحاح الخامس: "طوبىٰ لصانعي السلام؛ لأنَّهم أبناء الله يدعون"[(٢)].

لمَّا زعَموا أنَّ عُزَيرًا ابنُ الله، والنصارىٰ زعَموا أنَّ المسيح ابن الله، ثم زعَموا أنَّ عزيزًا والمسيحَ كانا منهم: صار ذلك كأنَّهم قالوا: نحن أبناءُ الله[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٥٦، ١٥٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٢٩).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ حكايةٌ لِما صدَر عن الفريقينِ مِن الدعوىٰ الباطلة، وبيانٌ لبطلانِها بعد ذكرِ ما صدَر عن أحدهما، وبيانِ بطلانه[(١)].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

لمَّا دحَضتْ حُجَّتُهم، ووضَحتْ أكذوبتُهم: اقتضىٰ ذلك الالتفاتَ إلىٰ وعظِهم علىٰ وجهِ الامتنان عليهم، وإبطالِ ما عساهم يظنُّونه حُجَّةً، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٢)].

كرَّر اللهُ موعظتَهم ودعوتهم بعد أن بيَّن لهم فسادَ عقائدهم وغرورَ أنفسهم بيانًا لا يدَعُ للمنصِفِ متمسَّكًا بتلك الضلالاتِ، كما وعَظهم ودعاهم آنفًا بمثلِ هذا عَقِبَ بيان نقضِهم المواثيقَ. فموقعُ هذه الآية تكريرٌ لموقعِ قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات، إلا أنَّه ذكَر الرسولَ ﷺ هنا بوصفِ مجيئه علىٰ فترةٍ مِن الرسل؛ ليذكِّرَهم بأنَّ كتبَهم مصرِّحةٌ بمجيءِ رسولٍ عقب رسلِهم، وليُرِيَهم أنَّ مجيئَهُ لم يكُنْ بِدْعًا مِن الرُّسل؛ إذ كانوا يَجيئون علىٰ فَترات بينهم[(٣)].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تكريرٌ للخطابِ بطريق الالتفات، ولُطْفٌ في الدعوة، وقيل: الخطاب هنا لليهودِ خاصةً[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢١٣).

(٤) روح المعاني (٣/ ٢٧٤).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

لمَّا ذكَر سَعةَ مملكتِه، وتمامَ علمِه، وشمولَ قدرتِه: أتبَعَ ذلك الدلالةَ عليه بقصة بني إسرائيلَ في استنقاذِهم مِن أَسْرِ العبودية والرِّق، وإعلاءِ شأنهم، وإيراثِهم أرضَ الجبَّارين بعد إهلاكِ فِرْعونَ وجنودِه، وغيرِ ذلك ممَّا تضمَّنته القصةُ؛ إظهارًا - بعدم ردِّهم إلىٰ مصرَ التي باد أهلُها - لتمامِ القدرة، وسَعة المُلك، ونفوذ الأمر، وهي مع ذلك دالَّةٌ علىٰ نقضِهم الميثاقَ، وقساوتهم، ونقضِ ما ادَّعَوْهُ مِن بنوَّتِهم ومحبتهم؛ وذلك أنَّها ناطقةٌ بتعذيبِهم، وتفسيقهم، وتبرُّئِهم مِن الله، ولا شيءَ مِن ذلك فعلُ حبيبٍ ولا ولدٍ؛ فقال عاطفًا علىٰ ﴿نِعْمَةَ﴾ في ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ -تذكيرًا لهذه الأمَّةِ بنعمةِ التوثيق للسمع والطاعة التي أبَاها بنو إسرائيلَ بعدما رأوا مِن الآياتِ، وبما كَفَّ عنهم علىٰ ضعفِهم، وشجَّع به قلوبهم، وألزمهم الطاعةَ، وكرَّه إليهم المعصيةَ بضدِّ ما فَعَل ببني إسرائيلَ، وغير ذلك ممَّا يُرشِد إليه إنعامُ النظرِ في القصة-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

عطَفَ القصةَ علىٰ القِصص والمواعظ. ومناسبةُ موقعِ هذه الآيات هنا: أنَّ القصةَ مشتمِلةٌ علىٰ تذكيرٍ بنِعَمِ الله تعالىٰ عليهم، وحثٍّ علىٰ الوفاء بما عاقَدوا اللهَ عليه مِن الطاعة؛ تمهيدًا لطلبِ امتثالهم[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٥٧).

أنَّه تعالىٰ بيَّن تمرُّدَ أسلافِ اليهود علىٰ موسىٰ عليه السلام، وعصيانَهم إياه، مع تذكيرِه إياهم نِعَمَ الله، وتَعْدادِه لِما هو العظيم منها، وأنَّ هؤلاء الذين هم بحضرةِ الرسول هم جارُونَ معكم مَجرىٰ أسلافِهم مع موسىٰ عليه السلام(١).

اعلَمْ أنَّ وجهَ الاتصال هو أنَّ الواوَ في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ واوُ عطفٍ، وهو متصلٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، كأنَّه قيل: أخذ عليهم الميثاقَ، وذكَّرهم موسىٰ نِعَمَ الله تعالىٰ، وأمَرهم بمحاربة الجبَّارين؛ فخالَفوا في القولِ في الميثاق، وخالَفوه في محاربة الجبَّارين(٢).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ جملةٌ مستأنَفة مسُوقةٌ لبيانِ ما فعَلتْ بنو إسرائيلَ بعد أخذِ الميثاقِ منهم، وتفصيلِ كيفية نقضِهم له، وتعلُّقِه بما قبله؛ مِن حيث إنَّ ما ذُكِرَ فيه مِن الأمور التي وُصِف النبيُّ ﷺ ببيانها، ومن حيث اشتمالُه علىٰ انتفاءِ فترة الرُّسل فيما بينهم(٣).

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ هو الغرَضُ مِن الخطاب؛ فهو كالمقصدِ بعد المقدِّمة؛ ولذلك كرَّر اللفظَ الذي ابتدأ به مقالتَه -وهو النداء بـ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾-؛ لزيادةِ استحضارِ أذهانهم(٤).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢١٤،٢١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٦٢).

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ كرَّر النداءَ بالإضافة التشريفية اهتمامًا بشأنِ الأمر، ومبالغةً في حثِّهم علىٰ الامتثالِ به[(١)].

واعلَمْ أنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا ذكَّرهم هذه النعمةَ وشرَحها لهم، أمَرهم بعد ذلك بمجاهدةِ العدو، فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[(٢)].

ثم أتبَعه ما يقيِّدُ به هذه النِّعَمَ مِن الشكرِ؛ بامتثال الأمرِ في جهاد الأعداء؛ في سياقٍ مؤذِنٍ بالنصر، مُعلِمٍ بأنَّه نعمةٌ أخرىٰ يجب شكرُها؛ فلذلك وصَله بما قبله وَصْلَ المعلولِ بالعلةِ، فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[(٣)].

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

لمَّا كان هذا السياقُ محرِّكًا للنفس إلىٰ معرفةِ جوابِهم عنه، أورَده علىٰ تقديرِ سؤالِ مَن كأنَّه قال: إنَّ هذا لترغيبٌ مشوِّقٌ، وترهيب مُقلِق، فما قالوا في جوابه؟ فقال: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[(٤)].

ثم أخبَر اللهُ تعالىٰ عنهم أنَّهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣٣).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٧٤).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٧٥).

(٥) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣٣).

فقالوا قولًا يدل على ضعفِ قلوبِهم، وخَوَرِ نفوسهم، وعدمِ اهتمامهم بأمرِ الله ورسوله المذكورِ في الآية السابقة.

لمَّا قال في الآية السابقة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾، قالوا هنا: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

كأنَّه قيل: إنَّ هذه لسَقْطةٌ ما مثلُها، فما اتفق لهم بعدها؟ فقيل: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[١].

فُصِلتْ هذه الجُمَلُ الأربع جريًا على طريقةِ المحاوَرة[٢].

لمَّا رأيا بني إسرائيلَ قد عصَوُا الرسولَ في الإقدام على الجهاد مع وعدِ الله لهم السابقِ، استرَابَا في إيمانِهم؛ فأمَراهم بالتوكل على الله؛ إذ هو الملجأُ والمَفزَع عند الشدائد، وعُلِّقَ ذلك بشرطِ الإيمان الذي استرَابَا في حصولِه لبني إسرائيلَ[٣].

جزَمَ هذان الرجُلانِ في قولهما: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾؛ لأنَّهما كانا جازمينِ بنبوَّةِ موسى عليه السلام، فلمَّا أخبرَهم موسى عليه السلام بأنَّ الله قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ لا جرَمَ قطعَا بأنَّ النُّصرةَ لهم، والغَلَبةَ حاصلةٌ في جانبِهم؛ ولذلك ختَموا كلامهم بقولهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ يعني: لمَّا وعَدكم الله

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٦٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٢٠).

تعالىٰ النصرَ، فلا ينبغي أن تَصيروا خائفين مِن شدةِ قوتهم، وعِظَمِ أجسامهم؛ بل توكَّلوا علىٰ اللهِ في حصول هذا النصرِ لكم إن كنتم مؤمنين(١).

﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ استئنافٌ كما سبق، كأنَّه قيل: هل اتفقوا علىٰ ذلك، أو خالَفهم البعضُ؟ فقيل: قال رجلان(٢).

فلمَّا نكَل بنو إسرائيلَ عن طاعةِ الله ومتابعةِ رسول الله موسىٰ عليه السلام، حرَّضهم رجلانِ، للهِ عليهما نعمةٌ عظيمة، وهما ممَّن يخاف أمرَ الله، ويخشىٰ عقابَه(٣).

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾

فكأنَّه قيل: لقد نصَحَا لهم وبرَّا، واجتهَدَا في إصلاحِ الدِّين والدنيا فما خدَعَا ولا غرَّا؛ فما قالوا؟ فقيل: لم يَزِدْهم ذلك إلا نِفارًا، واستضعافًا لأنفسِهم لإعراضهم عن اللهِ واستصغارًا؛ لأنَّهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٤).

خاطَبوا موسىٰ عَقِبَ موعظةِ الرَّجُلينِ لهم؛ رجوعًا إلىٰ إبايتِهم الأُولىٰ التي شافَهوا بها موسىٰ إذ قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾، أو لقلةِ اكتراثِهم بكلام الرَّجُلين، وأكَّدوا الامتناعَ الثانيَ مِن الدخول بعد المحاورةِ أشَدَّ توكيدٍ دلَّ علىٰ شِدَّته في العربية بثلاثِ مؤكِّدات: [إنَّ]، و[لن]، وكلمةِ [أبدًا](٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٦).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٧٧).

(٥) التحرير والتنوير (٦/ ١٦٦).

لمَّا كرَّر عليهم أمرَ القتال، كرَّروا الامتناع علىٰ سبيلِ التوكيد المؤتنَفِ، وقيَّدوا أولًا نفيَ الدخول بالظرفِ المختص بالاستقبال، وحقيقتُه التأبيد، وقد يُطلَق علىٰ الزمان المتطاوِلِ، فكأنَّهم نفَوُا الدخولَ طُولَ الأبد، ثم رجَعوا إلىٰ تعليقِ ذلك بديمومة الجبَّارين فيها؛ فأبدَلوا زمانًا مقيدًا مِن زمانٍ هو ظاهرٌ في العموم في الزمانِ المستقبَل؛ فهو بدلُ بعضٍ مِن كلٍّ[(١)].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ استئنافٌ كما سبق؛ أي: قالوا غيرَ مبالِينَ بهما وبمقالتهما، مخاطِبين لموسىٰ عليه السلام؛ إظهارًا لإصرارِهم علىٰ القول الأول، وتصريحًا بمخالفتِهم له عليه السلام.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾

كأنَّه قيل: فما قال موسىٰ عليه السلام؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ -لمَّا أَيِسَ منهم، مُعرِضًا عنهم، شاكيًا إلىٰ الله تعالىٰ-: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[(٢)].

لمَّا عصَوْا أمرَ الله، وتمرَّدوا علىٰ موسىٰ عليه السلام، وسَمِع منهم ما سمع مِن كلمةِ الكفر وسُوءِ الأدب مع الله، ولم يَبقَ معه مَن يثقُ به إلا هارونُ: قال ذلك؛ وهذا مِن الكلامِ المنطوي صاحبُهُ علىٰ الالتجاءِ إلىٰ الله، والشكوىٰ إليه، ورقَّةِ القلب التي تَستجلبُ الرحمةَ، وتَستنزل النُّصرةَ[(٣)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٢٠).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٧٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٢١).

ثم إنَّه تعالىٰ حكىٰ عن موسىٰ عليه السلام: أنَّه لمَّا سَمِع منهم هذا الكلامَ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾(١).

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ﴾

قولُ اللهِ تعالىٰ له: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ إلخ، جوابٌ عن قول موسىٰ: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وهو جوابٌ جامع لجميعِ ما تضمَّنه كلامُ موسىٰ عليه السلام؛ لأنَّ الله أعلَمَ موسىٰ بالعقابِ الذي يصيبُ به الذين عصَوْا أمرَه؛ فسكَن هاجسُ خوفه أن يصيبَهم عذابٌ يعُمُّ الجميعَ، وحصَل العقاب لهم على العصيانِ انتصارًا لموسىٰ عليه السلام(٢).

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: قال اللهُ تعالىٰ، فأُضمِر في ﴿ قَالَ ﴾ ضميرُه، ﴿فَإِنَّهَا﴾؛ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: محرَّمٌ دخولُها، وتملُّكُهم إياها(٣).

لما قال في دعائه على القومِ: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لم يَقصِدْ بدعائه هذا الجنسَ مِن العذاب؛ بل أخفَّ منه. فلمَّا أخبَره اللهُ تعالىٰ بالتِّيهِ، عَلِم أنَّه يَحزَن بسبب ذلك؛ فعزَّاه وهوَّن أمرَهم عليه؛ فقال: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، قال مقاتلٌ: إنَّ موسىٰ لمَّا دعا عليهم، أخبَره اللهُ تعالىٰ بأحوال التِّيه، ثم إنَّ موسىٰ عليه السلام أخبَر قومَه بذلك، فقالوا له: لِمَ دعَوْتَ علينا؟ ونَدِم موسىٰ علىٰ ما عَمِل؛ فأوحىٰ اللهُ

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٦٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٢٢).

تعالىٰ إليه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وجائزٌ أن يكونَ ذلك خطابًا لمحمَّد ﷺ؛ أي: لا تَحزَنْ علىٰ قومٍ لم يزَلْ شأنُهم المعاصيَ، ومخالفةَ الرسل(١).

لمَّا دعا موسىٰ عليه السلام ربَّه، استجاب اللهُ دعاءه، وعاقَبهم في التِّيه أربعين سنةً.

لمَّا أُمِروا بدخول القريةِ المقدَّسة فعصَوْا، جُوزُوا بالتِّيه الذي هو نقيضُ ذلك.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾

لمَّا كانت قصتُهم هذه - في أمرِهم بالدخول إلىٰ الأرضِ المقدسة لِما فيها مِن نقضِ العهود، والتبرؤِ مِن الله، والحُكْمِ عليهم بالفسقِ والتعذيب - ناقضةً لِما ادَّعاه اليهودُ مِن البُنوَّة، كان ذلك كافيًا في إبطال مُدَّعَىٰ النصارىٰ لذلك؛ لأنَّهم أبناءُ اليهود، وإذا بطَل كونُ أبيك ابنًا لأحد، بطَل أن تكونَ أنت ابنه؛ لمَّا كان ذلك كذلك، ناسَب أن تُعقَّبَ بقصةِ ابنَيْ آدم؛ لِما يُذكَر، فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

عطَف نبأً علىٰ نبأٍ؛ ليكونَ مقدمةً للتحذير مِن قتلِ النفس، والحرابةِ، والسرقة، ويُتبَع بتحريمِ الخمر، وأحكامِ الوصية، وغيرِها، وليحسُنَ التخلصُ ممَّا استُطرد مِن الأنباءِ والقِصص التي هي مواقعُ عبرةٍ، وتُنظَم كلُّها في جرائرِ الغرور. والمناسبةُ بينها وبين القصة التي قبلها مناسبةُ تماثُل، ومناسبة تضادٍّ؛ أمَّا التماثل: فإنَّ في كلتيهما عدمَ الرضا بما حكَمَ اللهُ تعالىٰ؛ فإنَّ بني إسرائيلَ عصَوْا أمرَ رسولِهم إياهم بالدخولِ إلىٰ الأرض المقدسة، وأحدَ ابنَيْ آدم عصىٰ حُكْمَ الله تعالىٰ بعدم قَبول قُرْبانه؛ لأنَّه لم

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣٥).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١١٢).

يكُنْ مِن المتقين، وفي كلتيهما جرأةٌ علىٰ الله بعد المعصية؛ فبنو إسرائيلَ قالوا: اذهَبْ أنت وربُّك، وابنُ آدم قال: لأقتُلَنَّ الذي تقبَّلَ الله منه. وأمَّا التضادُّ: فإنَّ في إحداهما إقدامًا مذمومًا مِن ابنِ آدم، وإحجامًا مذمومًا مِن بني إسرائيلَ، وإن في إحداهما اتفاقَ أخوَينِ - هما موسىٰ وأخوه - علىٰ امتثالِ أمرِ الله تعالىٰ، وفي الأخرىٰ اختلافُ أخوين بالصلاحِ والفساد(١).

لمَّا ذكَر تمرُّدَ بني إسرائيلَ وعصيانَهم أمرَ اللهِ تعالىٰ في النهوضِ لقتال الجبَّارين، ذكَر قصةَ ابنَيْ آدم، وعصيانَ قابيلَ أمرَ اللهِ، وأنَّهم اقتفَوْا في العصيان أولَ عاصٍ لله تعالىٰ، وأنَّهم انتهَوْا في خَوَرِ الطبيعةِ وهَلَعِ النفوسِ والجُبْنِ والفزَعِ إلىٰ غايةٍ بحيث قالوا لنبيِّهم الذي ظهرت علىٰ يديه خوارقُ عظيمةٌ -وقد أخبَرهم أنَّ الله كتَب لهم الأرضَ المقدسة-: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وانتهىٰ قابيلُ إلىٰ طرَفٍ نقيضٍ منهم؛ مِن الجسارةِ والعتوِّ وقوة النفس وعدم المبالاة؛ بأنْ أقدَمَ علىٰ أعظَمِ الأمور وأكبَرِ المعاصي بعد الشرك؛ وهو قتلُ النفس التي حرَّم اللهُ قتلَها، بحيث كانَ أولَ مَن سَنَّ القتلَ، وكانَ عليه وِزْرُهُ ووِزْرُ مَن عَمِل به إلىٰ يوم القيامة؛ فاشتبَهتِ القصتان مِن حيث الجُبْنُ عن القتلِ والإقدامُ عليه، ومن حيث المعصيةُ بهما(٢).

في تعلُّقِ هذه الآية بما قبلها وجوهٌ: الأول: أنَّه تعالىٰ قال فيما تقدَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، فذكَر تعالىٰ أنَّ الأعداءَ يريدون إيقاعَ البلاء والمِحنة بهم، لكنَّه تعالىٰ يَحفَظهم بفضله، ويَمنَع أعداءهم مِن إيصالِ الشر إليهم، ثم إنَّه تعالىٰ لأجلِ التسلية وتخفيفِ هذه الأحوال علىٰ القلب ذكَر قِصصًا كثيرةً في أنَّ كلَّ مَن خصَّه اللهُ تعالىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٦٨).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٢٧،٢٢٦).

بالنِّعَم العظيمة في الدِّين والدنيا، فإنَّ الناسَ ينازعون حسدًا وبغيًا؛ فذكَر أولًا قصةَ النُّقباء الاثني عشر، وأخذَ اللهِ تعالىٰ الميثاقَ منهم، ثم إنَّ اليهودَ نقَضوا ذلك الميثاقَ حتىٰ وقَعوا في اللَّعن والقساوة، وذكَر بعده شدةَ إصرارِ النصارىٰ علىٰ كفرِهم وقولهم بالتثليث بعد ظهورِ الدلائل القاطعة لهم علىٰ فسادِ ما هم عليه، وما ذاك إلا لحسَدِهم لمحمَّدٍ ﷺ فيما آتاه اللهُ مِن الدِّينِ الحق، ثم ذكَر بعده قصةَ موسىٰ عليه السلام في محاربةِ الجبَّارين، وإصرارَ قومِه علىٰ التمرُّد والعصيان، ثم ذكَر بعده قصةَ ابنَيْ آدم، وأنَّ أحدهما قتَل الآخَرَ حسدًا منه علىٰ أنَّ الله تعالىٰ قَبِل قربانَه، وكلُّ هذه القِصص دالةٌ علىٰ أنَّ كلَّ ذي نعمة محسودٌ، فلمَّا كانت نِعَمُ الله علىٰ محمَّد ﷺ أعظَمَ النِّعم، لا جرَمَ لم يبعُدِ اتفاقُ الأعداء علىٰ استخراجِ أنواع المكرِ والكيد في حقه؛ فكان ذكرُ هذه القِصَصِ تسليةً مِن الله تعالىٰ لرسوله ﷺ لمَّا هَمَّ قومٌ مِن اليهود أن يمكُروا به، وأن يُوقِعوا به آفةً ومحنة. والثاني: أنَّ هذا متعلِّقٌ بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، وهذه القصةُ وكيفيةُ إيجاب القِصاص عليها مِن أسرارِ التَّوراة. والثالث: أنَّ هذه القصةَ متعلِّقةٌ بما قبلها، وهي قصةُ محاربةِ الجبَّارين؛ أي: اذكُرْ لليهودِ حديثَ ابنَيْ آدم؛ ليَعلَموا أنَّ سبيلَ أسلافهم في الندامةِ والحسرة الحاصلة بسبب إقدامِهم علىٰ المعصية كان مثلَ سبيلِ ابنَيْ آدم في إقدامِ أحدهما علىٰ قتلِ الآخَر. والرابع: قيل: هذا متصلٌ بقولِه حكايةً عن اليهود والنصارىٰ: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: لا يَنفَعهم كونُهم مِن أولادِ الأنبياء مع كفرِهم؛ كما لم ينتفِعْ ولدُ آدم عند معصيتِه بكونِ أبيه نبيًّا معظَّمًا عند الله تعالىٰ. الخامس: لمَّا كفر أهلُ الكتاب بمحمَّدٍ ﷺ حسَدًا، أخبَرهم اللهُ تعالىٰ بخبر ابنِ آدم، وأنَّ الحسدَ أوقَعه في سوءِ العاقبة، والمقصودُ منه التحذيرُ عن الحسد(١).

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٣٧).

وجهُ اتصال هذه الآيةِ بما قبلها: التنبيهُ مِن الله تعالىٰ علىٰ أنَّ ظُلْمَ اليهود ونقضَهم المواثيقَ والعهود كظُلْمِ ابنِ آدم لأخيه[١].

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

لمَّا وعَظه بما يَمنَعه مِن قتلِه، ويُقبِل به علىٰ خلاص نفسه: أعلَمَهُ ثانيًا أنَّ الخوفَ مِن الله منَعَه مِن أن يمانِعَهُ عن نفسه، مُلِينًا لقلبه بما هو جديرٌ أن يرُدَّه عنه؛ خشيةَ أن تجرَّه الممانعةُ إلىٰ تعدِّي الحد المأذون فيه؛ لأنَّ أخاه كان عاصيًا لا مشركًا، فقال مؤكِّدًا بالقسَمِ -لأنَّ مثلَ ما يُخبِرُ به عظيمٌ لا يكاد يُصدَّق-: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ موعظةٌ لأخيه ليذكِّرَه خطرَ هذا الجُرْمِ الذي أقدَم عليه. وفيه إشعارٌ بأنَّه يستطيع دفاعَه، ولكنَّه منَعه منه خوفُ الله تعالىٰ[٣].

ثم صرَّح بتقواه علىٰ وجهٍ يستدعي سكونَ غيظِهِ لو كان له عقلٌ وازع؛ حيث قال بطريقِ التوكيد: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١٣٣).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧).

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

لمَّا كان مِن النهاياتِ للواصلين إلىٰ حضراتِ القُدْسِ، ومواطن الأُنْسِ بالله، المتمكِّنين في درجةِ الغَناءِ عن غيرِ الفاعل المختار: ألا يرادَ إلا ما يريد سبحانه؛ فإن كان طاعةً أراده العبدُ ورَضِيه، وإن كان معصيةً أراده مِن حيث إنَّه مرادُ الله، ولم يَرضَه لكونه معصيةً، فيرضىٰ بالقضاءِ دون المقضيِّ، وكأنَّه مِن الممكنِ القريب أن يكونَ هابيلُ قد كُشِف له عن أنَّه سبَقَ في علمِ الله أنَّ أخاه يقتُلُه: قال مرهِّبًا له، معلِّلًا بتعليلٍ آخرَ صادٍّ له أيضًا عن الإقدامِ علىٰ القتل: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

الجملة تعليلٌ للتي قبلها؛ ولذلك فُصِلت وافتُتِحت بـ«إن» المشعرةِ بالتعليل بمعنىٰ فاءِ التفريع[2].

لمَّا وعَظه ونصَحه، قال له: وإن كنتَ لا تنزجرُ عن هذه الكبيرةِ بسبب هذه النصيحةِ، فلا بد وأن تَترصَّدَ قتلي في وقتٍ أكون غافلًا عنك، وعاجزًا عن دفعِك؛ فحينئذٍ لا يمكنني أن أدفعَك عن قتلي إلا إذا قتَلتُك ابتداءً بمجردِ الظنِّ والحِسْبانِ؛ وهذا مني كبيرةٌ ومعصية، وإذا دار الأمرُ بَيْنَ أن يكونَ فاعلُ هذه المعصية أنا وبين أن يكونَ أنت، فأنا أحبُّ أن تحصُلَ هذه الكبيرةُ لك، لا لي[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ تعليلٌ آخرُ لامتناعه عن المعارضة علىٰ أنَّه غرضٌ متأخر عنه، كما أنَّ الأولَ باعثٌ متقدِّم عليه؛ وإنَّما لم يُعطَفْ عليه تنبيهًا علىٰ كفايةِ كلٍّ منهما في العِلِّية؛ والمعنىٰ: إنِّي أريد باستسلامي لك وامتناعي عن

(١) نظم الدرر (٦/ ١٢٠).
(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٧١).
(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤٠).

التعرُّضِ لك أن تَرجِعَ بإثمي؛ أي: بمثلِ إثمي لو بسَطتُ يدي إليك، وبإثمِك ببسطِ يدك إليَّ؛ كما في قوله ﷺ: «المُسْتَبَّانِ ما قالا فعلى البادئِ، ما لم يَعتدِ المظلومُ»[١]؛ أي: على البادئ عينُ إثمِ سَبِّه، ومثلُ سبِّ صاحبه؛ بحُكْمِ كونه سببًا له[٢].

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ ﴾

لمَّا كان هذا الوعظُ جديرًا بأن يكونَ سببًا لطاعتِه، وزاجرًا له عن معصيته: بيَّن تعالى أنَّه قسَا قلبُه، فجعَله سببًا لإقدامه، فقال - مبيِّنًا بصيغة التفعيل؛ إذ القتل لِما جعَل اللهُ له مِن الحرمةِ وكسَاه مِن الهيبةِ لا يُقدَمُ عليه إلا بمعالجةٍ كبيرة مِن النفس -: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٣].

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ ﴾ دلَّتِ الفاءُ على التفريع والتعقيب، ودلَّ «طوَّع» على حدوثِ تردُّدٍ في نفسِ قابيلَ، ومغالَبةٍ بَيْنَ دافعِ الحسد ودافع الخشية[٤].

سهَّلتْ له نفسُه قتلَ أخيه، ومنهم مَن قال: شجَّعته، وتحقيقُ الكلام: أنَّ الإنسان إذا تصوَّرَ مِن القتلِ العمدِ العدوانِ كونَهُ مِن أعظَمِ الكبائر، فهذا الاعتقادُ يصير صارفًا له عن فعلِه؛ فيكونُ هذا الفعلُ كالشيء العاصي المتمرِّدِ عليه الذي لا يُطِيعه بوجهٍ البتةَ؛ فإذا أورَدتِ النفسُ أنواعَ وساوسِها، صار هذا الفعلُ سهلًا عليه؛ فكأنَّ النفسَ جعَلتْ بوساوسها العجيبةِ هذا الفعلَ كالمُطِيعِ له بعد أن كان كالعاصي المتمرِّدِ عليه؛ فهذا هو المرادُ بقوله: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ ﴾[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٢).

(٥) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤٠).

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾؛ أي: وسَّعته وسهَّلته؛ مِن طاعَ له المرتعُ: إذا اتسع. وترتيبُ التطويع علىٰ ما حُكِيَ مِن مقالات هابيلَ، مع تحقُّقِه قبلها أيضًا؛ كما يُفصِح عنه قولُه: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ ﴾، لِما أنَّ بقاءَ الفعل بعد تقرُّرِ ما يزيلُه مِن الدواعي القوية، وإن كان استمرارًا عليه بحسبِ الظاهر، لكنَّه في الحقيقة أمرٌ حادث، وصُنْعٌ جديد؛ كما في قولك: وعَظتُه فلم يتعِظْ، أو لأنَّ هذه المرتبةَ مِن التطويع لم تكُنْ حاصلةً قبل ذلك؛ بِناءً علىٰ تردُّدِه في قدرته علىٰ القتلِ؛ لِما أنَّه كان أقوىٰ منه؛ وإنَّما حصَلتْ بعد وقوفه علىٰ استسلامِ هابيلَ، وعدمِ معارضته له، والتصريحُ بأخوَّته لكمالِ تقبيح ما سوَّلتْهُ نفسه(١).

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾

لمَّا كان التقدير: ثم إنَّه لم يَدرِ ما يَصنَع به؛ إذ كان أولَ ميتٍ، فلم يكُنِ الدفنُ معروفًا: سبَّب عنه قولَه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾(٢).

لمَّا قتَله، ترَكه بالعراء لا يدري ما يَصنَع به؛ فخافَ السِّباعَ؛ فحمَله في جرابٍ علىٰ ظهره سنةً حتىٰ أروَحَ، وعكَفتْ عليه السباعُ؛ فبعَث الله غُرابين، فاقتتَلا، فقتَل أحدُهما الآخرَ، فحفَر له بمِنقاره ورِجْليه، ثم ألقاه في الحفرةِ، فقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾(٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٨).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٢٢).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٣٣).

لمَّا قتَله وتركه، بعث اللهُ غرابًا يحثو التراب علىٰ المقتول، فلمَّا رأىٰ القاتل أنَّ الله كيف يُكرِمه بعد موته، نَدِم وقال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾[(١)].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لمَّا عُلِم بهذا أنَّ الإنسانَ موضعُ العجَلةِ والإقدام علىٰ الموبقات مِن غير تأمُّلٍ، فكان أحوَجَ شيءٍ إلىٰ نصبِ الزواجر: أتبَعه تعالىٰ قولَه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[(٢)].

قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِن أجلِ ما مرَّ مِن قصةِ قابيلَ وهابيلَ ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ القِصاصَ[(٣)].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ شروعٌ فيما هو المقصودُ مِن تلاوة النبأِ؛ مِن بيانِ بعضٍ آخرَ مِن جناياتِ بني إسرائيلَ ومعاصيهم؛ وذلك إشارة إلىٰ عِظَمِ شأنِ القتل وإفراطِ قُبْحِه المفهومَينِ ممَّا ذُكِر في تضاعيفِ القصة؛ مِن استعظامِ هابيلَ له، وكمالِ اجتنابه عن

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤١).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤٢).

مباشرته، وإن كان ذلك بطريقِ الدفعِ عن نفسه، واستسلامِه لأن يُقتَلَ؛ خوفًا مِن عقابه، وبيانِ استتباعِه لتحمُّلِ القاتل لإثمِ المقتول، ومن كونِ قابيلَ بمباشرته مِن جملةِ الخاسرين دِينَهم ودنياهم، ومن ندامتِه علىٰ فعلِه مع ما فيه مِن العتوِّ، وشِدة الشَّكيمة، وقساوةِ القلب[(١)].

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾

لَمَّا كان هذا الإسرافُ بعد هذه الموانعِ محاربةً للناهي عنه، وكان تارةً يكون بالقتل، وتارة بغيرِه، وكان ربما ظُنَّ أنَّ عذابَ القاتل يكون بأكثرَ مِن القتلِ؛ لكونه كمَنْ قتَل الناس جميعًا: وصَل به سبحانه قولَهُ علىٰ طريقِ الحصر: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

تخلُّصٌ إلىٰ تشريعِ عقاب المحارِبين، وهم ضربٌ مِن الجناةِ بجنايةِ القتل. ولا علاقةَ لهذه الآيةِ ولا التي بعدها بأخبارِ بني إسرائيلَ[(٣)].

لمَّا ذكَر في الآيةِ الأولىٰ تغليظَ الإثم في قتلِ النفس بغير قتلِ نفسٍ ولا فساد في الأرض، أتبَعه ببيانِ أنَّ الفسادَ في الأرض الذي يوجِبُ القتل ما هو؟ فإنَّ بعضَ ما

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٨٠).

يكـون فسـادًا في الأرض لا يوجِـبُ القتـلَ، فقـال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾، ولا خلافَ بَيْنَ أهلِ العلم أنَّ حُكْمَ هذه الآيةِ مترتِّبٌ في المحارِبين مِن أهل الإسلام(١).

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ كلامٌ مستأنَف سِيقَ لبيان حُكْمِ نوعٍ مِن أنواع القتل، وما يتعلقُ به مِن الفسادِ؛ بأخذِ المال ونظائره، وتعيينِ موجَبِه العاجلِ والآجل، إثرَ بيانِ عِظَمِ شأن القتل بغيرِ حق، وأُدرِج فيه بيانُ ما أشيرَ إليه إجمالًا مِن الفسادِ المبيح للقتل(٢).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

لمَّا كان التعبير بـ﴿ إِنَّمَا ﴾ يدل بختمِ الجزاء على هذا الوجهِ، استثنى مِن المعاقَبين هذه العقوبةَ بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

والاستثناءُ بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ راجعٌ إلى الحُكْمَينِ: خِزْيُ الدنيا، وعذابُ الآخرة؛ بقرينةِ قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ تأثيرَ التوبة في النجاة مِن عذابِ الآخرة لا يَتقيَّدُ بما قبل القدرةِ عليهم(٤).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ظاهرُه أنَّه استثناءٌ مِن المعاقَبين عقابَ قاطعِ الطريق، فإذا تابوا قبل القدرةِ على أخذِهم، سقط

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٣٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣١).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٨٦).

عنهم ما ترتَّب على الحرابةِ؛ وهذا فعلُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحارثةَ بن بدرٍ الغُدَانيِّ؛ فإنَّه كان محاربًا، ثم تاب قبل القدرةِ عليه[١].

لمَّا شرَح ما يجب على هؤلاء المحارِبين مِن الحدودِ والعقوبات، استثنى عنه ما إذا تابوا قبل القدرةِ عليهم. وضبطُ هذا الكلامِ: أنَّ ما يتعلق مِن تلك الأحكامِ بحقوق الله تعالى، فإنَّه يسقُطُ بعد هذه التوبةِ، وما يتعلق منها بحقوق الآدميين، فإنَّه لا يسقط، فهؤلاء المحارِبون إن قتَلوا إنسانًا، ثم تابوا قبل القدرةِ عليهم: كان وليُّ الدمِ على حقِّه في القِصاص والعفوِ، إلا أنَّه يزول حَتْمُ القتلِ بسبب هذه التوبةِ، وإن أخَذ مالًا، وجَب عليه رَدُّه، ولم يكُنْ عليه قطعُ اليد أو الرِّجل، وأمَّا إذا تاب بعد القدرة، فظاهرُ الآية أنَّ التوبةَ لا تنفعه، وتقامُ الحدودُ عليه[٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣٥ ﴾

لمَّا ذكَر تعالى حُكْمَهم عند التوبة، وختَم الآيةَ بما يناسب مِن الغفرانِ والرحمة، وكان ذلك ربما كان جزاءَ مَن لم يَرسَخْ قَدَمُه في الدِّين على جَنابه المتعالي: أتبَع ذلك الأمرَ بالتقوى، وجهادِ كلِّ مَن أفسَد بقطعِ الطريق، أو الكفر، أو غيره؛ فقال على وجهِ الاستنتاج ممَّا قبله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٣].

اعتراضٌ بَيْنَ آياتِ وعيد المحاربين وأحكامِ جزائهم وبين ما بعده[٤].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤٨).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٣١).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٨٧).

لمَّا كانت الآيةُ نزلتْ في العُرَنيِّين والكَلْبيين، أو في أهلِ الكتاب اليهودِ، أو في المشركين؛ على الخلافِ في سبب النزول، وكلُّ هؤلاء سعى في الأرض فسادًا: نصَّ على الجهادِ، وإن كان مندرِجًا تحت ابتغاءِ الوسيلة؛ لأنَّ به صلاحَ الأرض، وبه قِوَامُ الدِّين، وحفظُ الشريعة؛ فهو مغايرٌ لأمرِ المحارَبة؛ إذ الجهادُ محارَبةٌ مأذون فيها، وبالجهادِ يُدفَع المحاربون(١).

لمَّا أخبَر رسولَه ﷺ أنَّ قومًا مِن اليهودِ هَمُّوا أن يبسُطوا أيديَهم إلى الرسول وإلى إخوانِه مِن المؤمنين وأصحابِه بالغَدْرِ والمَكْرِ، ومنَعهم اللهُ تعالى عن مرادهم: فعند ذلك شرَح للرسول شدةَ عِتِيِّهم على الأنبياء، وكمالَ إصرارِهم على إيذائهم، وامتدَّ الكلامُ إلى هذا الموضع؛ فعند هذا رجَع الكلامُ إلى المقصودِ الأول، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾، كأنَّه قيل: قد عرَفْتم كمالَ جسارةِ اليهود على المعاصي والذنوب، وبُعْدِهم عن الطاعاتِ التي هي الوسائلُ للعبد إلى الربِّ؛ فكونوا يا أيها المؤمنون بالضدِّ مِن ذلك، وكونوا متَّقِينَ عن معاصي الله، متوسِّلين إلى الله بطاعات الله(٢).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ لمَّا ذُكِر عِظَمُ شأنِ القتل والفساد، وبُيِّنَ حُكْمُهما، وأشيرَ في تضاعيفِ ذلك إلى مغفرته تعالى لِمَن تاب مِن جنايته: أُمِر المؤمنون بأن يتَّقوه تعالى في كل ما يأتُون، وما يَذَرون؛ بتركِ ما يجب اتقاؤُه مِن المعاصي التي مِن جملتِها ما ذُكِر مِن القتلِ والفساد، وبفعلِ الطاعات التي مِن زُمْرتِها السعيُ في إحياءِ النفوس، ودفع الفساد، والمسارعةُ إلى التوبة والاستغفار(٣).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٤٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾

لمَّا كان تَرْكُ هذه الأوصافِ الثلاثة - التقوىٰ، وطلبِ الوسيلة، والجهاد - مزيلًا للوصف الأول؛ وهو الإيمانُ: ناسَب كلَّ المناسبة تحذيرًا مِن تركِها ذِكْرُ حالِ الكفار، وأنَّه لا تنفعُهم وسيلةٌ في تلك الدارِ، فقال معللًا لِما قبله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[(١)].

الأظهرُ أنَّ هذه الجملةَ متصلةٌ بجملة ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ اتصالَ البيان؛ فهي مبيِّنةٌ للجملةِ السابقة؛ تهويلًا للعذاب الذي توعَّدَهم اللهُ به في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

لمَّا أرشَد المؤمنين إلىٰ معاقدِ الخير، ومفاتحِ السعادة، وذكَر فوزَهم في الآخرة، وما آلُوا إليه مِن الفلاحِ: شرَح حالَ الكفار، وعاقبةَ كفرهم، وما أُعِدَّ لهم مِن العذاب[(٣)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لتأكيدِ وجوبِ الامتثال بالأوامر السابقة، وترغيبِ المؤمنين في المسارعة إلىٰ تحصيلِ الوسيلةِ إليه ﷻ قبل انقضاء أوانِه؛ ببيانِ استحالة توسُّلِ الكفارِ يومَ القيامة بأقوىٰ الوسائلِ إلىٰ النجاة مِن العذاب، فضلًا عن نَيْلِ الثواب[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٨٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٤٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٣).

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

علَّل شدةَ إيلامِ العذاب بدوامِه، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(١).

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ حالهم في أثناءِ مكابدةِ العذاب، مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ ممَّا قبله؛ كأنَّه قيل: فكيف يكون حالُهم؟ أو ماذا يصنعون؟ فقيل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾(٢).

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾

لمَّا كانت السرقةُ مِن جملةِ المحاربةِ والسعيِ بالفساد، وكان فاعلُها غيرَ متَّقٍ ولا متوسِّلٍ: عقَّب بها، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

جملةٌ معطوفة علىٰ جملة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(٤).

لمَّا ذكَر جزاءَ المحارِبين بالعقوباتِ التي فيها قطعُ الأيدي والأرجُلِ مِن خلافٍ، ثم أمَر بالتقوىٰ لئلا يقعَ الإنسانُ في شيءٍ مِن الحرابة، ثم ذكَر حالَ الكفار: ذكَر حُكْمَ السرقة؛ لأنَّ فيها قَطْعَ الأيدي بالقرآن، والأرجُلِ بالسُّنةِ؛ علىٰ ما يأتي ذِكْرُه، وهو

(١) نظم الدرر (٦/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٤).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٣٤).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٨٩).

أيضًا حرابةٌ مِن حيث المعنىٰ؛ لأنَّ فيه سعيًا بالفساد، إلا أنَّ تلك تكونُ علىٰ سبيلِ الشَّوكةِ والظُّهور[(١)].

لمَّا أوجَب في الآيةِ المتقدِّمة قَطْعَ الأيدي والأرجُلِ عند أخذِ المال علىٰ سبيل المحارَبة، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أخذَ المالِ علىٰ سبيل السرقة يوجِبُ قَطْعَ الأيدي والأرجُلِ أيضًا[(٢)].

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾ شروعٌ في بيانِ حُكْمِ السرقة الصغرىٰ بعد بيانِ أحكام الكبرىٰ، وقد عرَفْتَ اقتضاءَ الحال لإيراد ما توسَّطَ بينهما مِن المقال، ولمَّا كانت السرقةُ معهودةً مِن النساءِ كالرجال، صرَّح بالسارقة أيضًا، مع أنَّ المعهودَ في الكتابِ والسُّنة إدراجُ النساء في الأحكامِ الواردة في شأنِ الرجال بطريقِ الدَّلالة؛ لمزيدِ الاعتناء بالبيانِ، والمبالَغة في الزَّجر[(٣)].

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾

لمَّا ختَم بوصفَي العِزَّة والحكمة، سبَّب عنهما قولَهُ: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[(٤)].

وقوله: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ ﴾؛ أي: مَن تاب مِن السارقين مِن بعدِ السرقة، تاب اللهُ عليه؛ أي: قُبِلتْ توبتُه[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٥١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٤).

(٤) نظم الدرر (٦/ ١٣٥).

(٥) التحرير والتنوير (٦/ ١٩٢).

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ ﴾؛ أي: فمَن تاب مِن بعدِ ظُلْمِه بالسرقة[١].

﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤٠ ﴾

لمَّا كان معنىٰ ذلك أنَّه لا اعتراضَ عليه سبحانه في شيءٍ مِن ذلك، ولا مانعَ؛ لأنَّ قُدْرتَه تامةٌ، ليس هو كمَن يشاهِدُ مِن الملوك الذين ربما يَعجِزون -مِن اعتراضِ أتباعهم ورعاياهم- عن تقريبِ بعضٍ ما لم يباشِرْ إساءةً، وإبعادِ بعضٍ مَن لم يباشِرْ إحسانًا، فكيف بغير ذلك؟! قال تعالىٰ مقرِّرًا لذلك بتفرُّده في المُلك: ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾[٢].

استئنافٌ بيانيٌّ، جواب لِمَن يسأل عن انقلابِ حالِ السارق مِن العقابِ إلىٰ المغفرة بعد التوبة مع عِظَمِ جُرْمِه بأنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في السماواتِ والأرض وما فيهما؛ فهو العليم بمواضعِ العقابِ، ومواضع العفوِ[٣].

لمَّا ذكَر تعالىٰ تصرُّفَه في أحكامِ المحارِبين، وأحكام السُّراق، ولم يحابِ ما ذكَر مِن العقوبات عليهم: نبَّه علىٰ أنَّ ذلك هو تصرُّفٌ في مُلْكِه ومِلْكِه، لا معقِّبَ لحُكْمِه؛ فيعذِّبُ مَن يشاء عذابَه؛ وهم المخالفون لأمرِه، ويغفر لِمَن يشاء؛ وهم التائبون[٤].

لمَّا أوجَب قَطْعَ اليدِ وعقابَ الآخرة علىٰ السارقِ قبل التوبة، ثم ذكَر أنَّه يَقبَل توبتَهُ إن تاب: أردَفه ببيانِ أنَّ له أن يَفعَلَ ما يشاء، ويحكُمَ ما يريد، فيعذِّبَ مَن يشاء،

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٥٥).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٩٤).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٢٥٦).

ويَغفِر لِمَن يشاء، وإنَّما قدَّم التعذيبَ علىٰ المغفرة؛ لأنَّه في مقابَلةِ تقدُّمِ السرقة علىٰ التوبة(١).

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١ ﴾

لمَّا تقرَّرَ ذلك، كان مِن غير شكٍّ علةً لعدم الحزنِ علىٰ شيء مِن أمرهم، ولا مِن أمرِ غيرهم، ممَّن عصىٰ شيئًا مِن هذه الأحكامِ؛ فناسَبَ أن يقولَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتهوينِ تألُّبِ المنافقين واليهود علىٰ الكذبِ والاضطراب في معاملة الرسول ﷺ، وسوءِ طَوَاياهم معه؛ بشرحِ صدر النبيِّ ﷺ ممَّا عسىٰ أن يحزُنَهُ مِن طيشِ اليهود واستخفافِهم، ونفاقِ المنافقين. وافتتَح الخطابَ بأشرفِ الصفات؛ وهي صفةُ الرسالةِ عن الله(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٥٧).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٩٥).

أنَّـه تعـالىٰ لمَّـا بـيَّنَ أحكـامَ الحرابـةِ والسـرقة، وكـان في ذكـرِ المحـارِبين أنَّهـم يحارِبون اللهَ ورسوله، ويَسعَون في الأرض فسادًا: أمَره تعالىٰ ألا يَحزَنَ ولا يهتمَّ بأمرِ المنافقين، وأمرِ اليهود؛ مِن تعنتِّهم، وتربُّصِهم به وبمَن معه الدوائرَ، ونصبِهم له حبائلَ المكروه، وما يحدُثُ لهم مِن الفسادِ في الأرض(١).

لمَّا بيَّن بعضَ التكاليفِ والشرائع، وكان قد عَلِم مِن بعضِ الناس كونَهم متسارِعين إلىٰ الكفر: لا جرَمَ صبَّر رسولَه علىٰ تحمُّلِ ذلك، وأمَره بألا يَحزَنَ لأجلِ ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾(٢).

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾

ولمَّا ذكَر التحريفَ، ذكَر أثره؛ وهو الحُكْمُ به، فقال مكرِّرًا لوصفِهم زيادةً في توبيخِهم وتقبيح شأنِهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾(٣).

تفريعٌ علىٰ ما تضمَّنَه قولُه تعالىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾، وقولُه: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾؛ فإنَّ ذلك دلَّ علىٰ حوارٍ وقَع بينهم في إيفادِ نفَرٍ منهم إلىٰ رسولِ الله ﷺ؛ للتحكيم في شأنٍ مِن شؤونهم، مالت أهواؤُهم إلىٰ تغييرِ حُكْمِ التَّوراة فيه؛ بالتأويلِ، أو الكتمان، وأنكَر عليهم منكِرون، أو طالَبوهم

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٦٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٥٨).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٤١).

بالاستظهارِ علىٰ تأويلهم؛ فطَمِعوا أن يجدوا في تحكيمِ النبي ﷺ ما يعتضدون به. وظاهرُ الشرط يقتضي أنَّ اللهَ أعلَمَ رسولَه ﷺ باختلافهم في حُكْمِ حدِّ الزنا، وبعزمِهم علىٰ تحكيمِه قبل أن يصل إليه المستفتون[(١)].

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فكيف يحكِّمونك وهم يكذِّبونك ويدَّعون أنَّك مبطِلٌ؟ عطَف عليه قولَه معجِّبًا منهم، موبِّخًا لهم: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)].

هذه الجملةُ عطفٌ علىٰ جملة ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[(٣)].

هذا تعجيبٌ مِن تحكيمِهم إيَّاه مع أنَّهم لا يؤمنون به، ولا بكتابِه. وفي كتابِهم الذي يدَّعون الإيمانَ به حُكْمُ الله تعالىٰ، نصٌّ جليٌّ؛ فليسوا قاصدين حُكْمَ الله حقيقةً، وإنَّما قصَدوا بذلك أن يكونَ عنده ﷺ رخصةٌ فيما تحاكَموا إليه فيه؛ اتباعًا لأهوائهم، وانهماكًا في شهواتهم[(٤)].

هذا تعجيبٌ مِن الله تعالىٰ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام بتحكيمِ اليهود إيَّاه بعد عِلْمِهم بما في التَّوراة مِن حدِّ الزاني، ثم تَرْكِهم قَبولَ ذلك الحكمِ؛ فعدَلوا عمَّا يعتقدونه حُكْمًا حقًّا إلىٰ ما يعتقدونه باطلًا؛ طلبًا للرخصة؛ فلا جرَمَ ظهَر جهلُهم وعنادهم في هذه الواقعةِ مِن وجوه: أحدها: عدولُهم عن حُكْمِ كتابهم، والثاني: رجوعُهم إلىٰ حُكْمِ مَن كانوا

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٩٩).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٠٦).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٢٦٥).

يعتقدون فيه أنَّه مبطِلٌ، والثالث: إعراضُهم عن حُكْمِه بعد أن حكَّموه؛ فبيَّن اللهُ تعالىٰ حالَ جهلِهم وعنادهم؛ لئلا يغترَّ بهم مغترٌّ أنَّهم أهلُ كتابِ الله، ومِن المحافِظين علىٰ أمرِ الله(١).

ثم قال تعالىٰ منكِرًا عليهم في آرائِهم الفاسدة، ومقاصدِهم الزائغة؛ في تَرْكِهم ما يعتقدون صِحَّتَهُ مِن الكتابِ الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنَّهم مأمورون بالتمسُّك به أبدًا، ثم خرَجوا عن حُكْمِه، وعدَلوا إلىٰ غيره، ممَّا يعتقدون في نفسِ الأمر بطلانَه، وعدمَ لزومِه لهم، فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

لمَّا تضمَّنَ هذا مدحَ التَّوراة، صرَّح به، فقال تأكيدًا لذمِّهم في الإعراضِ عمَّا دعَتْ إليه مِن أصلٍ وفرعٍ، وتحذيرًا مِن مثلِ حالهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣).

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٣٦٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٧).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٤٤).

لمَّا وصَف التَّوراةَ بأنَّ فيها حُكْمَ الله، استأنَف ثناءً عليها، وعلىٰ الحاكمين بها، ووصَفها بالنزول؛ ليدُلَّ علىٰ أنَّها وحيٌ مِن الله، فاستُعير النزولُ لبلوغ الوحي؛ لأنَّه بلوغُ شيءٍ مِن لدُنْ عظيمٍ، والعظيمُ يُتخيَّلُ عاليًا؛ كما تقدَّمَ غيرَ مرة(١).

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ كلامٌ مستأنَف، سِيقَ لتقريرِ مزيدِ فظاعةِ حالِ أولئك اليهود؛ ببيانِ علوِّ شأن التَّوراة علىٰ أتمِّ وجهٍ، ووجوبِ مراعاة أحكامها، وأنَّها لم تزَلْ مَرْعيَّةً فيما بَيْنَ الأنبياء، ومَن يقتدي بهم كابرًا عن كابر، مقبولةً لكل أحدٍ مِن الحكَّام والمتحاكِمين، محفوظةً عن المخالَفةِ والتبديل؛ تحقيقًا لِما وُصِف به المحرِّفون مِن عدمِ إيمانهم بها، وتقريرًا لكفرِهم وظُلْمِهم(٢).

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٥) ﴾

لمَّا كان ختامُ هذه الآياتِ في ترهيب المُعرِضِ عن الحُكْمِ بما أنزل اللهُ مطابِقًا لقوله في أولِ سياقِ المحارَبة: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾: رجَع إلىٰ القتل مبيِّنًا أنَّهم بدَّلوا في القتلِ كما بدَّلوا في الزنا؛ ففضَّلوا بني النَّضيرِ علىٰ بني قُريظةَ، فقال: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٠٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٤٠).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٥٤).

عُطِفت جملةُ «كَتَبْنَا» علىٰ جملةِ ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. ومناسبةُ عطفِ هذا الحُكْمِ علىٰ ما تقدَّمَ: أنَّهم غيَّروا أحكامَ القِصاص كما غيَّروا أحكامَ حد الزنا؛ ففاضَلوا بَيْنَ القتلىٰ والجرحىٰ؛ كما سيأتي؛ فلذلك ذيَّله بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ كما ذيَّل الآيةَ الدالة علىٰ تغييرِ حُكْمِ حد الزنا بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(١)].

وهذا أيضًا ممَّا وُبِّخَتْ به اليهودُ، وقُرِّعوا عليه؛ فإنَّ عندهم في نصِّ التَّوراة: أنَّ النفسَ بالنفس. وهم يخالِفون ذلك عمدًا وعنادًا، ويُقِيدون[(٢)] النَّضَريَّ مِن القُرَظي، ولا يُقِيدون القُرَظيَّ مِن النَّضَري، بل يَعدِلون إلىٰ الدِّيَة؛ كما خالَفوا حُكْمَ التَّوراةِ المنصوصَ عندهم في رَجْمِ الزاني المحصن، وعدَلوا إلىٰ ما اصطلَحوا عليه؛ مِن الجَلْدِ، والتحميم، والإشهار؛ ولهذا قال هناك: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّهم جحَدوا حُكْمَ الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا، وقال هاهنا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يُنصِفوا المظلومَ مِن الظالم في الأمرِ الذي أمَر اللهُ بالعدلِ والتسوية بَيْنَ الجميعِ فيه؛ فخالَفوا وظلَموا، وتعدَّىٰ بعضُهم علىٰ بعض[(٣)].

أنَّه تعالىٰ بيَّن في هذه الآيةِ أيضًا أنَّه تعالىٰ بيَّن في التَّوراةِ: أنَّ النفسَ بالنفس، وهؤلاء اليهودُ غيَّروا هذا الحُكْمَ أيضًا؛ ففضَّلوا بني النَّضيرِ علىٰ بني قُرَيظة، وخصَّصوا إيجابَ القَوَدِ ببني قُرَيظةَ دُونَ بني النَّضير؛ فهذا هو وجهُ النَّظم مِن الآية[(٤)].

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢١٣).

(٢) من (القَوَد)، وهو القصاص.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٦٨).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

لمَّا كانت هذه الآياتُ كلُّها - مع ما فيها مِن الأسرار - ناقضةً أيضًا لِما ادَّعَوْا مِن البُنوَّة بما ارتكَبوه مِن الذُّنوبِ؛ مِن تحريفِ كلام الله، وسماعِ الكذب، وأكلِ السُّحْتِ، والإعراضِ عن أحكامِ التَّوراة، والحُكْمِ بغير حُكْمِ الله: أتبعَها ما أتىٰ به عيسىٰ عليه السلام، الذي ادَّعىٰ فيه النصارىٰ البنوَّة الحقيقيةَ، والشركةَ في الإلهيَّة، وقد أتىٰ بتصديقِ التَّوراة في الشَّهادةِ علىٰ مَن خالَفها مِن اليهود بالتبرؤِ مِن الله، مؤكِّدًا لِما فيها مِن التوحيدِ، الذي هو عمادُ الدِّين، وأعظَمُ آياتها التي أُخِذتْ عليهم بها العهودُ، ووُضِعت في تابوتِ الشَّهادة الذي كانوا يقدِّمونه أمامهم في الحروب، فإن كانوا باقِينَ علىٰ ما فيه مِن الميثاقِ، نُصِروا، وإلا خُذِلوا، وناسخًا لشريعتِهم مجازاةً لهم مِن جنسِ ما كانوا يعملون مِن التحريفِ، وشاهدًا علىٰ مَن أطراه بالضلالِ، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ انتقالًا إلىٰ أحوالِ النصارىٰ؛ لقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ولبيانِ نوعٍ آخرَ مِن أنواع إعراضِ اليهود عن الأحكام التي كتبها الله عليهم[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢١٨).

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ التَّوراةَ يحكُمُ بها النبيُّون، ذكَر أنَّه قفَّاهم بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه مِن جملةِ الأنبياء، وتنويهًا باسمه، وتنزيهًا له عمَّا يدَّعيه اليهودُ فيه، وأنَّه مِن جملةِ مصدِّقِي التَّوراةِ[1].

لمَّا كان أشدُّ وجوهِ المنازعة بَيْنَ المسلمين وبين اليهودِ والنصارىٰ في ذلك، لا جرَمَ أعاده اللهُ تعالىٰ مرة أخرىٰ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ الإنجيلَ يدلُّ دلالةً ظاهرة علىٰ نبوةِ محمَّدٍ ﷺ؛ فكان هُدًىٰ في هذه المسألةِ التي هي أشدُّ المسائلِ احتياجًا إلىٰ البيانِ والتقرير، وأمَّا كونُه موعظةً، فلاشتمالِ الإنجيلِ علىٰ النصائحِ والمواعظ والزواجر البليغة المتأكِّدة، وإنَّما خصَّها بالمتَّقِين؛ لأنَّهم هم الذين ينتفعون بها[2].

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ شروعٌ في بيانِ أحكام الإنجيل إثرَ بيانِ أحكام التَّوراة، وهو عطفٌ علىٰ ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾[3].

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: آتيناه ذلك؛ لينتهيَ أهلُ التَّوراة عمَّا نسَخه منها: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[4].

جملةُ ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ معطوفةٌ علىٰ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٧٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٧٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٤٣).

(٤) نظم الدرر (٦/ ١٧٣).

(٥) التحرير والتنوير (٦/ ٢١٩).

﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ أمَر تعالىٰ أهلَ الإنجيل أن يحكُموا بما أنزَل اللهُ فيه مِن الأحكام، ويكونُ هذا الأمرُ علىٰ سبيلِ الحكاية، وقلنا لهم: احكُموا؛ أي: حين إيتائِهِ عيسىٰ عليه السلام أمَرْناهم بالحُكْم بما فيه؛ إذ لا يمكِنُ ذلك أن يكونَ بعد بعثةِ محمَّدٍ ﷺ؛ إذ شريعتُه ناسخةٌ لجميعِ الشرائع، أو بما أنزَل اللهُ فيه مخصوصًا بالدلائلِ الدالة علىٰ نبوَّةِ رسولِ الله ﷺ؛ وهو قولُ الأصمِّ، أو بخصوصِ الزمان إلىٰ بعثةِ رسولِ الله ﷺ، أو عبَّر بالحُكْمِ بما أنزَل اللهُ فيه عن عدمِ تحريفِه وتغييره[(١)].

﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ أمرٌ مبتدأٌ لهم بأن يحكُموا ويَعمَلوا بما فيه مِن الأمورِ التي مِن جملتِها دلائلُ رسالته عليه الصلاة والسلام، وشواهدُ نبوَّتِه، وما قرَّرتْهُ الشريعةُ الشريفة مِن أحكامِه، وأمَّا أحكامُه المنسوخة، فليس الحُكْمُ بها حُكْمًا بما أنزَل اللهُ فيه، بل هو إبطالٌ وتعطيل له؛ إذ هو شاهدٌ بنَسْخِها وانتهاءِ وقت العمل بها؛ لأنَّ شَهادتَه بصحةِ ما يَنسَخُها مِن الشريعةِ شهادةٌ بنَسْخِها، وبأنَّ أحكامَه ما قرَّرتْهُ تلك الشريعةُ التي شَهِد بصحتها[(٢)].

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الكتابَينِ، ذكَر ختامَهما وتمامهما؛ وهو ما أُنزِل إلىٰ هذا النبيِّ الأمِّيِّ ﷺ مِن الفرقانِ الشاهد علىٰ جميعِ الكتب التي قبله، فقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٤٤).

إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[(١)].

جالَتِ الآياتُ المتقدِّمة جولةً في ذِكْرِ إنزالِ التَّوراة والإنجيل، وآبَتْ منها إلىٰ المقصودِ؛ وهو إنزالُ القرآن؛ فكان كَرَدِّ العجُزِ علىٰ الصَّدْرِ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾؛ ليبيِّنَ أنَّ القرآنَ جاء ناسخًا لِما قبله، وأنَّ مؤاخَذةَ اليهود علىٰ تَرْكِ العمل بالتَّوراة والإنجيل مؤاخَذةٌ لهم بعمَلِهم قبل مجيءِ الإسلام، ولِيُعلِمَهم أنَّهم لا يَطمَعون مِن محمَّدٍ ﷺ بأن يحكُمَ بينهم بغيرِ ما شرَعه الله في الإسلام؛ فوقَع قولُه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ إتمامًا لترتيبِ نزول الكتبِ السماوية، وتمهيدًا لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه أنزَلَ التَّوراة فيها هُدًىٰ ونورٌ، ولم يذكُرْ مَن أنزَلها عليه؛ لاشتراكِ كلِّهم في أنَّها نزَلتْ علىٰ موسىٰ عليه السلام، فترَكَ ذِكْرَه للمعرفةِ بذلك، ثم ذكَر عيسىٰ عليه السلام، وأنَّه آتاه الإنجيل، فذكَره ليُقِرُّوا أنَّه مِن جملةِ الأنبياء؛ إذ اليهودُ تُنكِر نبوَّته، وإذا أنكَرتْهُ أنكَرتْ كتابَه: فنَصَّ تعالىٰ عليه وعلىٰ كتابِه، ثم ذكَر إنزالَ القرآنِ علىٰ رسول الله ﷺ؛ فذكَر الكتابَ، ومَن أنزَله مقرِّرًا لنبوَّتِه وكتابه؛ لأنَّ الطائفتينِ يُنكِرون نبوَّته وكتابه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٠).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٨١).

هـذا خطـابٌ مـع محمَّـدٍ ﷺ؛ فقولـه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: القـرآنَ، وقولـه: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾؛ أي: كـلِّ كتـابٍ نـزَل مِـن السـماء سِوىٰ القرآنِ[(١)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ التَّوراةَ التي أنزَلها اللهُ علىٰ موسىٰ كليمِهِ عليه السلام، ومدَحها وأثنىٰ عليهـا، وأمَر باتباعها حيث كانت سائغةَ الاتِّباع، وذكَر الإنجيلَ ومدَحه، وأمَر أهلَهُ بإقامتِه واتِّباع ما فيه؛ كما تقدَّم بيانُه: شـرَع تعالىٰ في ذِكْرِ القرآنِ العظيم، الـذي أنزَلـه علىٰ عبدِه ورسوله الكريم ﷺ[(٢)].

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

لمَّا كان الأمرُ بالحُكْمِ فيما مضىٰ لكونِهِ مسبَّبًا عمَّا قَبْلَه مِن إنزالِ الكتابِ علىٰ الأحوال المذكورة، أعاد الأمرَ به سبحانه مصرِّحًا بذلك لذاتِه، لا لشيءٍ آخرَ؛ ليكونَ الأمرُ به مؤكَّدًا غايةَ التأكيد بالأمرِ به مرَّتين: مرةً لأنَّ اللهَ أمَر به، وأخرىٰ لأنَّه علىٰ وَفْقِ الحكمة، فقال تأكيدًا له، وتنويهًا بعظيمِ شأنه، ومحذِّرًا مِن الأعداء فيما يُلقُونه مِن الشُّبَهِ للصدِّ عنه: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٧).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٨٣).

يجوز أن يكونَ قولُـه: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم ﴾ معطوفًا عَطْفَ جملةٍ علىٰ جملة؛ بأن يُجعَلَ معطوفًا علىٰ جملة ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾، فيكونَ رجوعًا إلىٰ ذلك الأمرِ لتأكيده، وليُبنَىٰ عليه قولُه: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾؛ كما بُنِيَ علىٰ نظيرِه قولُـه: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾، وتكون «أن» تفسيريةً. و«أن» التفسيريةُ تفيد تقويةَ ارتباطِ التفسير بالمفسَّر(١).

هذه الآيةُ ناسخةٌ عند قومٍ للتخيير الذي في قوله: ﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾، وتقدَّم ذِكْرُ ذلك، وأجازوا في: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم ﴾ أن يكونَ في موضعِ نصبٍ عطفًا علىٰ الكتاب؛ أي: والحُكْمَ. وفي موضعِ جرٍّ عطفًا علىٰ بالحق، وفي موضعِ رفعٍ علىٰ أنَّه مبتدأٌ محذوف الخبر مؤخَّرًا، والتقدير: وحُكْمُك بما أنزَل اللهُ أمرُنا وقولُنا. أو مقدَّما، والتقدير: ومِن الواجب حُكْمُك بما أنزَل الله(٢).

قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم ﴾ معطوفٌ علىٰ ماذا؟ قلنا: علىٰ الكتابِ في قوله: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، كأنَّه قيل: وأنزَلْنا إليك أنِ احكُمْ، و«أن» وُصِلتْ بالأمر؛ لأنَّه فعلٌ كسائرِ الأفعال، ويجوز أن يكونَ معطوفًا علىٰ قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: أنزَلْنا بالحق، وبأنِ احكُمْ، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ قد ذكَرْنا أنَّ اليهودَ اجتمَعوا وأرادوا إيقاعَه في تحريفِ دِينِه؛ فعصَمه اللهُ تعالىٰ عن ذلك(٣).

وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ تأكيدٌ لِما تقدَّم مِن الأمرِ بذلك، والنَّهيِ عن خلافه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٥).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٨٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٧٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٠).

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم أنَّ مَن أعرَض عن حُكْمِ اللهِ أقبَل ولا بدَّ علىٰ حُكْمِ الشيطانِ، الذي هو عينُ الهوىٰ، الذي هو دِينُ أهلِ الجهل، الذين لا كتابَ لهم هادٍ، ولا شرعَ ضابطٌ: سبَّب عن إعراضِهم الإنكارَ عليهم بقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1].

فُرِّعت الفاءُ علىٰ مضمونِ قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ استفهامًا عن مرادِهم مِن ذلك التولِّي، والاستفهامُ إنكاريٌّ؛ لأنَّهم طلَبوا حُكْمَ الجاهلية. وحُكْمُ الجاهليةِ هو ما تقرَّرَ بَيْنَ اليهودِ مِن تكايُلِ[2] الدماءِ الذي سرىٰ إليهم مِن أحكامِ أهل يثربَ، وهم أهلُ جاهليةٍ؛ فإنَّ بني النَّضير لم يَرضَوْا بالتساوي مع قُرَيظةَ؛ كما تقدَّم، وما وضَعوه مِن الأحكام بَيْنَ أهلِ الجاهلية؛ وهو العدولُ عن الرَّجْمِ الذي هو حُكْمُ التَّوراة[3].

هذا استفهامٌ معناه الإنكارُ علىٰ اليهود؛ حيث هم أهلُ كتابٍ وتحليلٍ وتحريم مِن الله تعالىٰ، ومع ذلك يُعرِضون عن حُكْمِ الله، ويختارون عليه حُكْمَ الجاهلية، وهو بمجردِ الهوىٰ مِن مراعاةِ الأشرَفِ عندهم، وترجيحِ الفاضل عندهم في الدنيا علىٰ المفضول، وفي هذا أشدُّ النَّعْيِ عليهم؛ حيث ترَكوا الحُكْمَ الإلهيَّ بحُكْمِ الهوىٰ والجهل[4].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٨٥).

(٢) شرحه ابن عاشور في موضع آخر من التحرير والتنوير (٢/ ١٣٥) بقوله: (.. فيسعىٰ كلُّ من قُتل له قتيل في قتل قاتل وليه، وإن أعوزَه ذلك قتَل به غيرَه من واحد كفء له، أو عددٍ يراهم لا يوازونه، ويسمون **ذلك بالتكايل في الدم**؛ أي كأن دم الشريف يُكال بدماء كثيرة، فربما قدروه باثنين أو بعشرة أو بمائة).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٢٨٧).

المرادُ بهذه الآيةِ أن يكونَ تعييرًا لليهود بأنَّهم أهلُ كتابٍ وعلمٍ مع أنَّهم يبغُون حُكْمَ الجاهلية التي هي محضُ الجهلِ، وصريحُ الهوىٰ(١).

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لمَّا بيَّن عنادَهم، وأنَّ عداوتَهم لأهلِ هذا الدِّين التي حمَلتْهم علىٰ هذا الأمرِ العظيم ليس بعدها عداوةٌ: نهىٰ مَن اتسَمَ بالإيمانِ عن موالاتِهم؛ لأنَّه لا يَفعَلُها بعد هذا البيانِ مؤمنٌ ولا عاقل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

تهيَّأتْ نفوسُ المؤمنين لقَبول النَّهيِ عن موالاةِ أهلِ الكتاب بعد ما سَمِعوا مِن اضطرابِ اليهود في دِينِهم، ومحاولتِهم تضليلَ المسلمين، وتقليبَ الأمورِ للرسول ﷺ؛ فأقبَل عليهم بالخطابِ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآيةَ(٣).

يُرشِدُ تعالىٰ عبادَه المؤمنين حين بيَّن لهم أحوالَ اليهودِ والنصارىٰ، وصفاتِهم غيرَ الحسنةِ: ألا يتَّخِذوهم أولياءَ؛ فإنَّ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يدًا علىٰ مَن سِواهم؛ فأنتم لا تتخذوهم أولياءَ؛ فإنَّهم الأعداءُ علىٰ الحقيقة، ولا يبالون بضرِّكم، بل لا يدَّخِرون مِن مجهودِهم شيئًا علىٰ إضلالِكم؛ فلا يتولَّاهم إلا مَن هو مِثلُهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٧٥).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٨٦).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٣٥).

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لمَّا علَّل بذلك، كان سببًا لتمييزِ الخالصِ الصحيح مِن المغشوشِ المريض، فقال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾(١).

قوله: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ تفريعٌ لحالةٍ مِن موالاتِهم، أريدَ وصفُها للنبي ﷺ؛ لأنَّها وقَعتْ في حضرتِه(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ بيانٌ لكيفيةِ تولِّيهم، وإشعارٌ بسببِه، وبما يؤُولُ إليه أمرُهم، والفاءُ للإيذان بترتُّبه علىٰ عدمِ الهداية، والخطابُ إمَّا للرسولِ ﷺ بطريقِ التلوين، وإمَّا لكلِ أحدٍ ممَّن له أهليةٌ له، وفيه مزيدُ تشنيعٍ للتشنيع؛ أي: لا يَهدِيهم، بل يذَرُهم وشأنَهم، فتراهم... إلخ. وإنَّما وُضِع موضعَ الضميرِ الموصول؛ ليشارَ بما في حيِّزِ صلتِه إلىٰ أنَّ ما ارتكَبوه مِن التولِّي بسببِ ما في قلوبهم مِن مرضِ النفاق، ورخاوةِ العَقْدِ في الدِّين(٣).

ولمَّا نهىٰ اللهُ المؤمنين عن تولِّيهم، أخبَر أنَّ ممَّن يدَّعي الإيمانَ طائفةً تُوالِيهم(٤).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله: «يَقُولُ الَّذِين آمَنُوا»: قرأه الجمهورُ: «يَقُولُ» بدونِ واوٍ في أولِه، علىٰ أنَّه استئنافٌ بيانيٌّ جواب لسؤالِ مَن يسأل: ماذا يقول الذين آمَنوا حينئذٍ؟ أي:

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٤٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٣٥).

إذا جاء الفتحُ، أو أمرٌ مِن قوةِ المسلمين ووَهْنِ اليهودِ: يقول الذين آمنوا. وقرأ عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخلَفٌ: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالواوِ، وبرفعِ «يَقُولُ» عطفًا على ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾. وقرأه أبو عمرٍو، ويعقوبُ بالواوِ أيضًا، وبنصبِ «يَقُولَ» عطفًا على ﴿أَن يَأْتِيَ﴾[1].

حذفُ الواوِ هاهنا كإثباتها؛ وذلك لأنَّ في الجملةِ المعطوفة ذِكْرًا مِن المعطوف عليها؛ فإنَّ الموصوفَ بقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ هم الذين قال فيهم المؤمنون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، فلمَّا حصَل في كلِّ واحدةٍ مِن الجملتينِ ذِكْرٌ مِن الأخرىٰ، حسُنَ العطفُ بالواو وبغيرِ الواو[2].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لبيانِ كمال سوءِ حال الطائفةِ المذكورة. وقرئ بغيرِ واوٍ على أنَّه جوابُ سؤالٍ نشأ ممَّا سبَق؛ كأنَّه قيل: فماذا يقول المؤمنون حينئذٍ؟ وقرئ: «يَقُولَ» بالنصبِ عطفًا على «يُصْبِحُوا»، وقيل: على «يَأْتِيَ» باعتبارِ المعنى؛ كأنَّه قيل: فعسى أن يأتيَ اللهُ بالفتحِ ويقولَ الذين آمنوا. والأولُ أوجَهُ؛ لأنَّ هذا القولَ إنَّما يصدُرُ عن المؤمنين عند ظهورِ ندامةِ المنافقين، لا عند إتيانِ الفتح فقط؛ والمعنى: ويقول الذين آمنوا مخاطِبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالُونهم، ويَرجُون دولتَهم، ويُظهِرون لهم غايةَ المحبَّة، وعدمَ المفارَقةِ عنهم في السَّرَّاء والضَّرَّاء، عند مشاهَدتِهم لخَيْبَةِ رجائهم، وانعكاسِ تقديرهم بوقوعِ ضدِّ ما كانوا يَترقَّبونه، ويَتعلَّلون به؛ تعجيبًا للمخاطَبين مِن حالهم، وتعريضًا بهم[3].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: مَن رفَعه عطَفه على معنى ﴿نَٰدِمِينَ﴾؛ فإنَّ أصلَه: «يَندَمون»، ولكنَّه عبَّر بالاسمِ إعلامًا بدوامِ ندَمِهم؛ بشارةً بدوام الظهورِ لهذا الدِّين على كلِّ

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٣).
(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٧٦).
(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٤٩).

دِينٍ، أو علىٰ ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ﴾. ومَن أسقَط الواو جعَله حالًا. ومَن نصَبه جاز أن يَعطِفَه علىٰ ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾؛ أي: يكون ذلك سببًا لتحقُّقِ المؤمنين أمرَ المنافقين بالمسارعةِ في أهلِ الكتاب؛ عند قيامِهم سرورًا بهم، والندمِ عند خِذْلانهم ومَحْقِهم؛ فيقولَ بعضُ المؤمنين لبعضٍ - تعجُّبًا مِن حالهم، واغتباطًا بما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن التوفيقِ في الإخلاص - مشيرين إلىٰ المنافقين تنبيهًا وإنكارًا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

لمَّا نهىٰ عن موالاتِهم، وأخبَر أنَّ فاعِلَها منهم: نفىٰ المجازَ مصرِّحًا بالمقصود، فقال مُظهِرًا لنتيجة ما سبق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

تَقضَّىٰ تحذيرَهم مِن أعدائهم في الدِّين، وتجنيبَهم أسبابَ الضَّعْفِ فيه؛ فأقبَل علىٰ تنبيهِهم إلىٰ أنَّ ذلك حِرْصٌ علىٰ صلاحِهم في ملازمة الدِّين والذبِّ عنه، وأنَّ اللهَ لا ينالُه نفعٌ مِن ذلك، وأنَّهم لو ارتَدَّ منهم فريقٌ أو نفَرٌ، لم يضُرَّ اللهَ شيئًا، وسيكون لهذا الدِّينِ أتباعٌ وأنصار وإن صَدَّ عنه مَن صد، وهذا كقولِه تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وقولِه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فجملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٩٠).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٩٠).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ﴾ إلخ معترضةٌ بَيْنَ ما قبلها وبين جملةِ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾، دعَتْ لاعتراضِها مناسبةُ الإنذار في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾. فتعقيبُها بهذا الاعتراضِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ اتخاذَ اليهودِ والنصارىٰ أولياءَ ذريعةٌ للارتداد؛ لأنَّ استمرارَ فريقٍ علىٰ موالاةِ اليهود والنصارىٰ مِن المنافقين وضعفاءِ الإيمان يُخشَىٰ منه أن يَنسَلَّ عن الإيمانِ فريقٌ(١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ شروعٌ في بيانِ حال المرتدِّين علىٰ الإطلاقِ بعد أن نهىٰ سبحانه - فيما سلَف - عن موالاةِ اليهود والنصارىٰ، وبيَّن أنَّ موالاتَهم مستدعِيَةٌ للارتدادِ عن الدِّين، وفصَّل مصيرَ مَن يواليهم مِن المنافقين(٢).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

لمَّا نفىٰ سبحانه وَلايتَهم -بمعنىٰ المحبَّةِ، وبمعنىٰ النُّصرة، وبمعنىٰ القُرْبِ- بكل اعتبارٍ، أنتَج ذلك حصرَ وَلايةِ كلِّ مَن يدَّعي الإيمانَ فيه وفي أوليائه، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾(٣).

جملةُ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إلىٰ آخرِها متصلةٌ بجملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وما تفرَّعَ عليها مِن قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾. وقعتْ جملةُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ بَيْنَ الآياتِ معترِضةً، ثم اتصل الكلامُ بجملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٤،٢٣٥).

(٢) روح المعاني (٣/ ٣٢٨).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٩٣).

فموقعُ هذه الجملةِ موقعُ التعليل للنهيِ؛ لأنَّ وَلايتَهم للهِ ورسوله مقرَّرةٌ عندهم؛ فمَن كان اللهُ وليَّهُ، لا تكونُ أعداءُ الله أولياءَه[١].

لمَّا نهاهم عن اتخاذِ اليهود والنصارىٰ أولياءَ، بيَّن هنا مَن هو وليُّهم؛ وهو اللهُ ورسوله[٢].

لمَّا نهىٰ في الآياتِ المتقدمة عن موالاةِ الكفار، أمَر في هذه الآيةِ بموالاة مَن يجب موالاتُه، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: المؤمنون الموصوفون بالصفاتِ المذكورة[٣].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾

لمَّا كان التقديرُ: فمَن يتولَّ غيرهم، فأولئك حزبُ الشيطانِ، وحزبُ الشيطان هم الخاسرون: عطَف عليه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٤].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ جوابُ «مَنْ» محذوفًا؛ لدَلالةِ ما بعده عليه؛ أي: يكُنْ مِن حزبِ الله، ويَغلِبْ. ويحتمِلُ أن يكونَ الجوابُ: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾، ويكونُ مِن وضعِ الظاهرِ موضعَ المُضمَرِ؛ أي: فإنَّهم هم الغالبون[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٩).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٨٢).

(٤) نظم الدرر (٦/ ١٩٤).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٣٠١).

فكلُّ مَن رَضِيَ بوَلايةِ اللهِ ورسوله والمؤمنين، فهو مفلحٌ في الدنيا والآخرة، ومنصورٌ في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ الكريمة: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

لمَّا نبَّه سبحانه على العِلَلِ المانعة مِن وَلايةِ الكفار، وحصَر الوَلايةَ فيه سبحانه: أنتج ذلك قطعًا قولَه منبِّهًا على عِلَلٍ أخرىٰ، موجِّهًا للبراءة منهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

استئنافٌ هو تأكيدٌ لبعضِ مضمونِ الكلام الذي قبله؛ فإنَّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ تحذيرٌ مِن موالاةِ أهل الكتاب؛ ليظهَرَ تميُّزُ المسلمين. وهذه الآيةُ تحذيرٌ مِن موالاةِ اليهودِ والمشركين الذين بالمدينةِ، ولا مَدخَلَ للنصارىٰ فيها؛ إذ لم يكُنْ في المدينةِ نصارىٰ فيَهزؤوا بالدِّين. وقد عدَل عن لفظِ اليهود إلىٰ الموصولِ والصلة؛ وهي: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ إلخ؛ لِما في الصلةِ مِن الإيماءِ إلىٰ تعليلِ موجِبِ النَّهي[3].

لمَّا نهىٰ تعالىٰ المؤمنين عن اتخاذِ الكفارِ والنصارىٰ أولياءَ، نهىٰ عن اتخاذِ الكفار أولياءَ؛ يهودًا كانوا أو نصارىٰ، أو غيرَهما[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٩).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤١).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٠٢).

نهىٰ في الآيةِ المتقدِّمة عن اتخاذِ اليهود والنصارىٰ أولياءَ، وساقَ الكلامَ في تقريره، ثم ذكَر هاهنا النَّهيَ العامَّ عن موالاةِ جميع الكفار؛ وهو هذه الآيةُ[(١)].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ موالاةَ غيرِهم إن كانت لجرِّ نفعٍ، فضررُها أعظَمُ، وإن كانت لدفعِ ضرَرٍ، فالضررُ الحاصل بها لا يفي بالمدفعِ، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[(٢)].

﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾

لمَّا عَمَّ في بيانِ استهزائهم جميعَ الدِّين، خَصَّ رُوحَه وخالصتَه وسِرَّه، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾[(٣)].

ولمَّا قدَّم أنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾، اندرَج في ذلك جميعُ ما انطوىٰ عليه الدِّينُ؛ فجرَّد مِن ذلك أعظَمَ أركان الدِّين، ونصَّ عليه بخصوصِه؛ وهي الصلاةُ، التي هي صلةٌ بَيْنَ العبدِ وربِّه، فنبَّه علىٰ أنَّ مَن استهزأ بالصلاةِ ينبغي ألا يُتَّخَذَ وليًّا، ويُطرَدَ؛ فهذه الآيةُ جاءت كالتوكيدِ للآية قبلها[(٤)].

لمَّا حكىٰ في الآيةِ الأُولىٰ عنهم أنَّهم اتخَذوا دِينَ المسلمين هزوًا ولعبًا، ذكَر هاهنا بعضَ ما يتخذونه مِن هذا الدِّينِ هزوًا ولعبًا، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٨٧).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ١٧٦).

(٣) نظم الدرر (٦/ ١٩٦).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٠٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٨٨).

ثم بيَّن استهزاءَهم بحُكْمٍ خاص مِن أحكام الدِّين، بعد استهزائهم بالدِّين على الإطلاق؛ إظهارًا لكمالِ شقاوتِهم، بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾(١).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

لمَّا كانت النفوسُ نزَّاعةً إلى الهوى، عَمِيَةً عن المصالحِ، جامحةً عن الدواء بما وقَفتْ عنده مِن النظرِ إلى زينةِ الحياة الدنيا، وكان الدليلُ على سَلْبِ العقلِ عن أهلِ الكتاب دليلًا على العربِ بطريقِ الأولى، وكان أهلُ الكتاب لكونِهم أهلَ علمٍ لا ينهضُ بمحاجَّتِهم إلا الأفرادُ مِن خُلَّصِ العبادِ: قال تعالى دالًّا على ما ختَم به الآيةَ مِن عدمِ عقلهم، آمِرًا لأعظَمِ خَلْقِه بتبكيتِهم، وتوبيخِهم وتقريعهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾(٢).

هذه الجُمَلُ معترضةٌ بَيْنَ ما تقدَّمَها وبين قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾(٣).

لمَّا حكى عنهم أنَّهم اتخَذوا دِينَ الإسلام هزوًا ولعبًا، قال لهم: ما الذي تَنقِمون مِن هذا الدِّين؟ وما الذي تجدون فيه ممَّا يوجِبُ اتخاذَه هزوًا ولعبًا؟(٤).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

لمَّا أنزَلهم سبحانه إلى عِدَادِ البهائم؛ بكونِهم ينسبونهم إلى الشرِّ بجعلِهم إيَّاهم

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ١٧٧).

(٢) نظم الدرر (٦/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٣٨٨).

موضَع الهُزْءِ واللعبِ، وبكونِهم ينظرون إلىٰ أي من خالَفهم، فيبعُدون منه، ويَنفِرون عنه، مِن غيرِ أن يستعمِلوا ما امتازوا به عن البهائمِ في أنَّ المخالِفَ ربما كان فيه الدواءُ، والمكروهُ قد يؤُولُ إلىٰ الشفاء، والمحبوب يجُرُّ إلىٰ العطَبِ والتَّوَىٰ: بيَّن لهم أنَّ تلك رُتْبةٌ سنيَّة ومنزلةٌ عليَّة بالنسبةِ إلىٰ ما هم فيه، فقال علىٰ سبيلِ التنزُّل وإرخاء العِنان: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

ثم اطَّرد في التهكُّمِ بهم، والعجَبِ مِن أفَنِ[2] رأيِهم، مع تذكيرِهم بمساويهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ إلخ[3].

الخطابُ بالأمرِ للرسول ﷺ، وتضمَّنَ الخطابَ لأهلِ الكتاب الذين أُمِر أن يناديَهم أو يخاطِبَهم بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾؛ هذا هو الظاهر[4].

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ لمَّا أُمِر ﷺ بإلزامِهم وتبكيتِهم ببيانِ أنَّ مدارَ نَقْمِهم للدِّين إنَّما هو اشتمالُه علىٰ ما يوجِبُ ارتضاءَه عندهم أيضًا، وكُفْرَهم بما هو مسلَّمٌ لهم: أُمِر ﷺ عَقِيبه بأن يبكِّتَهم ببيانِ أنَّ الحقيقَ بالنَّقْمِ والعيبِ حقيقةُ ما هم عليه مِن الدِّين المحرَّف، ويَنعَىٰ عليهم في ضمنِ البيانِ جناياتِهم، وما حاقَ بهم مِن تَبِعاتِها وعقوباتِها علىٰ منهاجِ التعريض؛ لئلا يَحمِلَهم التصريحُ بذلك علىٰ ركوبِ متنِ المكابَرة والعناد، ويخاطِبَهم قبل البيانِ بما يُنبئُ عن عِظَمِ شأنِ المبيَّن، ويستدعي

---

(١) نظم الدرر (٦/ ١٩٩).

(٢) أي: نقص العقل.

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤٥).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٠٥).

إقبالَهم علىٰ تلقِّيهِ مِن الجملةِ الاستفهامية المشوِّقة إلىٰ المُخبَر به، والتنبئةِ المشعِرة بكونِه أمرًا خطيرًا(١).

ولمَّا كان قَدْحُهم في المؤمنين يقتضي أنَّهم يعتقدون أنَّهم علىٰ شرٍّ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم مُخبِرًا عن شناعةِ ما كانوا عليه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي نقَمْتُم فيه علينا، مع التنزُّلِ معكم ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٢).

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ (٦١)﴾

لمَّا تمَّ ذلك، عطَف سبحانه علىٰ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قولَه -دالًّا علىٰ استحقاقِهم لِلَّعْنِ، وعلىٰ ما أخبَر به مِن شرِّهم وضلالِهم بما فضَحهم به مِن سُوءِ أعمالهم؛ دَلالةً علىٰ صحةِ دِينِ الإسلام؛ بإطلاعِ شارعِه عليه أفضلُ الصلاة والسلام علىٰ خفايا الأسرار-: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾(٣).

عُطف ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ علىٰ قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآيةَ، وخُصَّ بهذه الصفاتِ المنافقون مِن اليهود مِن جملةِ الذين اتخَذوا الدِّينَ هزوًا ولعبًا؛ فاستُكمِل بذلك التحذيرُ ممَّن هذه صِفتُهم، المعلِنِينَ منهم والمنافقين(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٥٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٣٧).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤٧).

ثم بيَّن تعالىٰ علاماتِ كمال شرِّهم وضلالهم بقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾ (١).

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢ ﴾

لمَّا كذَّبهم في دعوىٰ الإيمان، أقام سبحانه الدليلَ علىٰ كفرِهم، فقال مخاطِبًا لِمَن له الصبرُ التام، مفيدًا أنَّه أطلَعه ﷺ علىٰ ما يَعلَم منهم ممَّا يكتمونه مِن ذلك إطلاعًا هو كالرؤيةِ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: وقد أخبَرْنا غيرَك مِن المؤمنين بما نَعلَمُ منهم مِن ذلك، وأمَّا أنت، فترىٰ ما في قلوبِهم بما آتيناك مِن الكشفِ: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (٢).

ثم استمَرَّ تعالىٰ يعدِّدُ معايبَهم؛ انتصارًا لقَدْحِهم في عبادِه المؤمنين، فقال: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (٣).

﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٣ ﴾

لمَّا كان المنافقون مِن الأُمِّيين وأهلِ الكتاب قد صاروا شيئًا واحدًا في الانحيازِ إلىٰ المصارِحينَ مِن أهلِ الكتاب، فأنزَل فيهم سبحانه هذه الآياتِ علىٰ وجهٍ يعُمُّ غيرَهم حتىٰ تبيَّنتْ أحوالُهم، وانكشَف زيغُهم ومحالُهم: أنكر علىٰ مَن يودِعونهم أسرارَهم، ويَمنَحونهم مودَّتَهم وأخبارَهم مِن علمائهم وزُهَّادهم: عدمَ أمرِهم

(١) محاسن التأويل (٤/ ١٨٢).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢١٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٣٧).

بالمعروف، ونهيِهم عن المنكَر؛ لكونِهم جديرين بذلك؛ لِما يزعُمونه مِن اتِّباع كتابهم، فقال: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[(١)].

اقتصَر في توبيخِ الرَّبانيِّين علىٰ تَرْكِ نهيِهم عن قولِ الإثم وأكلِ السُّحْتِ، ولم يذكُرِ العدوانَ؛ إيماءً إلىٰ أنَّ العدوانَ يزجُرُهم عنه المسلمون، ولا يلتجئون في زَجْرِهم إلىٰ غيرهم؛ لأنَّ الاعتمادَ في النُّصرةِ علىٰ غيرِ المجنيِّ عليه[(٢)].

﴿ لَوْلَا ﴾ تحضيضٌ يتضمَّنُ توبيخَ العلماءِ والعُبَّاد علىٰ سكوتهم عن النَّهيِ عن معاصي اللهِ تعالىٰ، والأمرِ بالمعروف[(٣)].

ثم أنكَر علىٰ عبَّادِهم وعلمائهم سكوتَهم عن جرائمِ عوامِّهم السابقة، ورِضاهم بها؛ مصانَعةً لهم ومُداهَنةً، فقال تعالىٰ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾.

أنَّ اللهَ استبعَد مِن علماءِ أهل الكتاب أنَّهم ما نهَوْا سَفِلَتَهم وعوامَّهم عن المعاصي؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ تَرْكَ النَّهيِ عن المنكَر بمنزلةِ مرتكِبِه؛ لأنَّه تعالىٰ ذَمَّ الفريقَينِ في هذه الآيةِ علىٰ لفظٍ واحد، بل نقول: إنَّ ذَمَّ تاركِ النَّهي عن المنكَر أقوىٰ؛ لأنَّه قال في المُقدِمين علىٰ الإثمِ والعدوان وأكلِهم السُّحْتَ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، وقال في العلماءِ التاركين للنهيِ عن المنكَر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾، والصُّنْعُ أقوىٰ مِن العمل؛ فإنَّما العملُ يُسمَّىٰ صناعةً إذا صار مستقرًّا راسخًا متمكِّنًا، فجعَل جُرْمَ العاملين ذنبًا غيرَ راسخ، وذنبَ التاركين للنهيِ عن المنكر ذنبًا راسخًا، والأمر في

(١) نظم الدرر (٦/ ٢١٦، ٢١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣١٢).

الحقيقة راسخًا كذلك؛ لأنَّ المعصيةَ مرضُ الرُّوح، وعلاجُه العلمُ بالله، وبصفاتِه، وبأحكامه، فإذا حصَل هذا العلمُ ولم تزَلِ المعصيةُ، كان كالمريضِ الذي يعالَجُ بأدويةٍ قلَّ فيها الشفاءُ، ومثلُ هذا المرضِ صعبٌ شديد لا يكاد يزولُ، وكذلك العالِمُ إذا أقدَم على المعصية، دلَّ على أنَّ مرَضَ فَقْدِ الإيمانِ في غاية القوة والشدة[١].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ولمَّا لم تزَلِ الدلائلُ على إبطالِ دعوى أهل الكتاب في البُنوَّة والمحبَّة تقومُ، وجيوشُ البراهينِ تُنجِد، حتى انتشبت فيهم سهامُ الكلامِ أيَّ انتشاب: قال تعالى معجِّبًا مِن عامَّتِهم بعد تعيينِ خاصتهم، مُعلِمًا بأنَّهم لم يَقنَعوا بالسكوت عن المنكَرِ حتى تكلَّموا بأنكَرِه، مشيرًا إلى سفولِ رتبتِهم ودناءةِ منزلتهم بأداةِ التأنيث: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ فإنَّه لمَّا كان أولئك مِن اليهودِ والمنافقين، انتقَل إلى سُوءِ معتقَدِهم، وخُبْثِ طويَّتِهم؛ ليُظهِرَ فَرْطَ التنافي بَيْنَ معتقَدِهم ومعتقد أهلِ الإسلام، وهذا قولُ اليهودِ الصُّرَحاء غيرِ المنافقين؛ فلذلك أُسنِد إلى اسمِ «اليهود»[٣].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٤٢٤).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤٨).

نُسِب ذلك إلىٰ اليهود؛ لأنَّ هؤلاء علماؤهم، وهم أتباعُهم في ذلك[١].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

لمَّا أثبَت بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أنَّهم كانوا كفرةً قبل إتيانِ هذا الرسولِ ﷺ، وكرَّر ما أعَدَّه لهم مِن الخزيِ الدائم علىٰ نحوِ ما أخبَرهم به كِتابُهم: وعَظهم ورجَّاهم سبحانه؛ استعطافًا لهم؛ لئلا ييَئَسوا مِن رَوْحِ الله، علىٰ عادةٍ منه في رحمتِه لعباده ورأفتِه بهم بقوله تعالىٰ عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلو أنَّهم كَفُّوا عن هذه الجرائمِ العظائم، لاضمحلَّتْ صغائرُهم؛ فلم تكُنْ لهم سيئاتٌ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٢].

عقَّب نَهْيَهم وذَمَّهم بدعوتِهم للخيرِ بطريقة التعريضِ؛ إذ جاء بحرفِ الامتناع، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، والمراد: اليهود[٣].

الغرضُ الإخبارُ عن أولئك الذين أطفأ اللهُ نيرانَهم، وأذَلَّهم بمعاصيهم، والذي يظهرُ أنَّهم معاصِرو الرسول ﷺ، وفي ذلك ترغيبٌ لهم في الدخولِ في الإسلام[٤].

لمَّا بالَغ في ذمِّهم، وفي تهجينِ طريقتهم: بيَّن أنَّهم لو آمَنوا واتقَوْا، لوجَدوا سعاداتِ الآخرة والدنيا، أمَّا سعاداتُ الآخرة، فهي محصورةٌ في نوعينِ: أحدهما: رفعُ

(١) البحر المحيط (٤/ ٣١٣).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٢).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣١٨).

العقاب. والثاني: إيصالُ الثواب. أمَّا رفعُ العقاب، فهو المرادُ بقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، وأمَّا إيصالُ الثواب، فهو المراد بقوله: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾

لمَّا كان المعنىٰ: ما فعَلوا ذلك؛ فألزَمْناهم الخِزْيَ في الدنيا، والعذابَ الدائم في الآخرة، وكان هذا إجمالًا لحالتِهم الدُّنيوية والأُخروية، وكان محَطُّ نظَرِهم الأمرَ الدنيوي: رجَع - بعد إرشادِهم إلىٰ إصلاحِ الحالة الأخروية؛ لأنَّها أهَمُّ في نفسها - إلىٰ سببِ قولِهم تلك الكلمةَ الشَّنعاء، والداهيةَ القبيحة الصَّلعاء؛ وهو تقتيرُ الرزق عليهم، وبيَّن أنَّ السببَ إنَّما هو مِن أنفسِهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

يجوز أن يكونَ معنىٰ إقامةِ التَّوراة والإنجيل إقامةَ تشريعِهما قبل الإسلام؛ أي: لو أطاعوا أوامرَ الله، وعَمِلوا بها: سَلِموا مِن غضَبِه، فلأغدَقَ عليهم نِعَمَه؛ فاليهودُ آمَنوا بالتَّوراة، ولم يُقِيموا أحكامَها؛ كما تقدَّم آنفًا، وكفَروا بالإنجيل ورفَضوه؛ وذلك أشَدُّ في عدم إقامته، وبالقرآنِ. وقد أومأت الآيةُ إلىٰ أنَّ سببَ ضِيقِ معاشِ اليهود هو مِن غضبِ الله تعالىٰ عليهم؛ لإضاعتِهم التَّوراةَ، وكفرِهم بالإنجيلِ، وبالقرآن؛ أي: فتَحتَّمتْ عليهم النِّقمةُ بعد نزول القرآن. ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ: لو أقاموا هذه الكتبَ بعد مجيء الإسلام؛ أي: بالاعترافِ بما في التَّوراة والإنجيل؛ مِن التبشيرِ

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٨).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٢٥).

ببعثة محمَّدٍ ﷺ حتىٰ يؤمِنوا به، وبما جاء به؛ فتكون الآيةُ إشارةً إلىٰ ضِيقِ معاشهم بعد هجرةِ الرسول ﷺ إلىٰ المدينة[١].

لمَّا رغَّبهم في الآيةِ قبلُ في موعودِ الآخرة؛ مِن تكفيرِ السيئات، وإدخالهم الجنَّةَ: رغَّبهم في هذه الآيةِ في موعود الدنيا؛ ليَجمَعَ لهم بَيْنَ خيرَيِ الدنيا والآخرة، وكان تقديمُ موعود الآخرة أهَمَّ؛ لأنَّه هو الدائمُ الباقي، والذي به النجاةُ السَّرمدية، والنعيم الذي لا ينقضي[٢].

لمَّا بيَّن في الآيةِ الأولىٰ أنَّهم لو آمَنوا، لفازوا بسعاداتِ الآخرة: بيَّن في هذه الآيةِ أيضًا أنَّهم لو آمنوا، لفازوا بسعاداتِ الدنيا، ووجَدوا طيِّباتِها وخيراتها[٣].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾

لمَّا أتَمَّ ذلك سبحانه، وعُلِم منه أنَّ مَن أُريدت سعادتُه يؤمِنُ ولا بد، ومَن أريدت شقاوتُه لا يؤمِنُ أصلًا، ومَن أقام ما أُنزِل عليه سَعِد، ومَن كفَر بشيء منه شَقِي، وكان ذلك ربما فتَّرَ عن الإبلاغِ: قرَن بقولِه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ قولَهُ - حاثًّا على الإبلاغِ؛ لإسعادِ مَن أُريدَ للسعادة؛ وهم الأمَّةُ المقتصِدة منهم، وإن كانوا قليلًا، وكذا إبلاغ جميعِ مَن عداهم -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٣).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٨).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٢٢٩).

هي علىٰ وتيرةِ قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ فكما كانت تلك الآيةُ في وصفِ حال المنافقين، تُليتْ بهذه الآيةِ لوصفِ حالِ أهل الكتاب(١).

هذا نداءٌ بالصفةِ الشريفة التي هي أشرَفُ أوصافِ الجنس الإنساني، وأمرٌ بتبليغ ما أُنزِلَ إليه؛ وهو ﷺ قد بلَّغ ما أُنزِل إليه؛ فهو أمرٌ بالدَّيمومة(٢).

قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، أمَر الرسولَ بألا ينظُرَ إلىٰ قلةِ المقتصِدين، وكثرةِ الفاسقين، ولا يَخشَىٰ مكروهَهم، فقال: ﴿بَلِّغْ﴾؛ أي: واصبِرْ علىٰ تبليغِ ما أنزَلتُه إليك؛ مِن كشفِ أسرارهم، وفضائحِ أفعالهم؛ فإنَّ اللهَ يَعصِمُك مِن كيدِهم، ويصُونُك مِن مكرِهم(٣).

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٦٨) ﴾

ولـمَّا أمَر سبحانه بالتبليغِ العام، أمَره بنوعٍ منه علىٰ وجهٍ يؤكد ما خُتِمتْ به آيةُ التبليغ مِن عدم الهداية لِمَن حتَّم بكفرِه، ويُبطِلُ - مع تأكيده - هذه الدعوىٰ قولَهم: نحن أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤُه، فقال مرهِّبًا لهم بعد ما تقدَّم مِن الترغيبِ في إقامته: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٥٦).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٩).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٢٣٨).

هذا الذي أُمِر رسولُ الله ﷺ أن يقولَه لأهلِ الكتاب هو مِن جملةِ ما ثبَّته اللهُ على تبليغِه بقوله: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ فقد كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ تألُّفَ أهلِ الكتاب، وربما كان يثقُلُ عليه أن يجابِهَهم بمثلِ هذا، ولكنَّ اللهَ يقول الحقَّ.

فيجوز أن تكونَ جملةُ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانًا لجملة ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[1].

لمَّا أمَره بالتبليغ، سواءٌ طاب للسامع أو ثقُلَ عليه: أمَر بأن يقولَ لأهل الكتاب هذا الكلامَ، وإن كان ممَّا يشُقُّ عليهم جدًّا، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ مِن الدِّين، ولا في أيديكم شيءٌ مِن الحق والصواب[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾

لمَّا كان ما مضى في هذه السورةِ غالبًا في فضائحِ أهل الكتاب، لا سيما اليهود، وبيانِ أنَّهم عَضُّوا على الكفرِ، ومَرَدُوا على الجحدِ، وتمرَّنوا على البَهْتِ، وعتَوْا عن أوامرِ الله: كان ذلك موجِبًا؛ لأنَّه ربما حدَث في الخاطرِ أنَّه إن آمَن منهم أحدٌ ما يُقبَل، أو لأنْ يقولوا هم: ليس في دعائِنا حينئذ فائدةٌ؛ فلا تَدْعُنا: أخبَر أنَّ البابَ مفتوحٌ لهم ولغيرهم مِن جميعِ أهل المِلَل، وأنَّه ليس بَيْنَ الإنسانِ وبين أن يكونَ مِن أهلِه إلا عدمُ الإخلاص، فإذا أخلَص، أُذِن في دخولِه، ونوديَ بقَبوله، أو يقال - وهو أحسَنُ -: لمَّا أخبَر عن كثيرٍ منهم بالزيادةِ في الكفر، رغَّب القسمَ الآخرَ على وجهٍ يعُمُّ غيرَهم، أو يقال: إنَّه لمَّا طال الكلامُ معهم، كان ربما ظُنَّ أنَّ الأمرَ -ترغيبًا وترهيبًا، وأمرًا ونهيًا- خاصٌّ بهم؛ فوقَع الإعلامُ بأنَّهم وغيرَهم مِن جميع الفِرَق في

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٦٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٠١).

ذلك سواءٌ؛ تشريفًا لمقدارِ هذا النبيِّ الكريم ﷺ بعمومِ الدعوة، وإحاطةِ الرسالة، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١].

اعلَمْ أنَّ هذه الجملةَ يجوز أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا علىٰ تقديرِ سؤالٍ يخطُرُ في نفسِ السامع لقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾، فيَسأل سائلٌ عن حالِ مَن انقرَضوا مِن أهل الكتابِ قبل مجيءِ الإسلام: هل هم علىٰ شيءٍ، أو ليسوا علىٰ شيء؟ وهل نفَعهم اتباعُ دِينِهم أيامَئذ؟ فوقَع قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ الآيةَ جوابًا لهذا السؤالِ المقدَّر. والمرادُ بالذين آمنوا: المؤمِنون بالله، وبمحمَّدٍ ﷺ؛ أي: المسلمون. وإنَّما المقصودُ مِن الإخبارِ: الذين هادُوا، والصابئون، والنصارىٰ، وأمَّا التعرضُ لذكرِ الذين آمنوا، فلاهتمامٍ بهم سنبيِّنه قريبًا. ويجوز أن تكونَ هذه الجملةُ مؤكِّدةً لجملةِ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ إلخ، فبَعْدَ أن أُتبِعتْ تلك الجملةُ بما أُتبِعت به مِن الجُمَلِ، عاد الكلامُ بما يفيد معنىٰ تلك الجملةِ؛ تأكيدًا للوعدِ، ووصلًا لربطِ الكلام، وليَلحَقَ بأهلِ الكتاب الصابئون، وليَظهَرَ الاهتمامُ بذكرِ حال المسلمين في جناتِ النعيم[٢].

لمَّا بيَّن أنَّ أهلَ الكتاب ليسوا علىٰ شيءٍ ما لم يؤمِنوا، بيَّن أنَّ هذا الحُكْمَ عامٌّ في الكل، وأنَّه لا يحصُلُ لأحدٍ فضيلةٌ ولا مَنقَبة إلا إذا آمَن بالله واليوم الآخِر، وعَمِل صالحًا؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ له قوَّتانِ: القوةُ النظرية، والقوة العملية، أمَّا كمالُ القوةِ النظرية: فليس إلا بأن يَعرِفَ الحق، وأمَّا كمال القوةِ العملية: فليس إلا بأن يَعمَلَ الخيرَ، وأعظَمُ المعارف شرَفًا معرفةُ أشرفِ الموجودات؛ وهو الله ﷻ، وكمالُ

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٦٥).

معرفتِه إنَّما يحصُلُ بكونه قادرًا علىٰ الحشرِ والنشر؛ فلا جرَمَ كان أفضَلُ المعارفِ هو الإيمانَ بالله، واليومِ الآخِر[(١)].

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه البشارةُ - الصادقةُ مِن العزيز العليمِ، الذي أهلُ الكتاب أعرَفُ الناسِ به لِمَن آمَن، كائنًا مَن كان - موجِبةً للدخول في الإيمانِ، والتعجُّبِ ممَّن لم يسارِعْ إليه، وكان أكثرُ أهلِ الكتاب إنَّما يسارِعون في الكفر: كان الحالُ مقتضيًا لتذكُّرِ ما مضىٰ مِن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾، وزيادةِ العجَبِ منهم مع ذلك؛ فأعاد سبحانه الإخبارَ به مؤكِّدًا له؛ تحقيقًا لأمرِه، وتفخيمًا لشأنه، وساقَه علىٰ وجهٍ يرُدُّ دعوىٰ البُنوَّة والمحبَّة، ملتفتًا مع التذكيرِ بأولِ قصصِهم في هذه السورةِ إلىٰ أول السورة، وعبَّر في موضعِ الجلالة بنونِ العظَمة، وجعَل بدلَ النُّقباءِ الرسلَ، فقال مستأنِفًا: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[(٢)].

استئنافٌ عاد به الكلامُ علىٰ أحوالِ اليهود، وجَراءتِهم علىٰ الله وعلىٰ رُسُلِه؛ وذلك تعريضٌ باليأسِ مِن هَدْيِهم بما جاء به محمَّدٌ ﷺ، وبأنَّ ما قابَلوا به دعوته ليس بِدْعًا منهم، بل ذلك دأبُهم جيلًا بعد جيل[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٠٤).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٧٢).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لبيانِ بعضٍ آخرَ مِن جناياتهم المناديةِ باستبعادِ الإيمان منهم[1].

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٧١﴾

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿كَذَّبُواْ﴾، و﴿يَقْتُلُونَ﴾؛ لبيانِ فسادِ اعتقادهم الناشئِ عنه فاسدُ أعمالِهم؛ أي: فعَلوا ما فعلوا مِن الفظائعِ عن تعمُّدٍ بغرور؛ لا عن فَلْتةٍ أو ثائرةِ نفسٍ حتىٰ يُنيبوا ويتوبوا[2].

﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ عائدٌ علىٰ بني إسرائيلَ، وحِسْبانُهم سببُهُ اغترارُهم بإمهالِ الله حين كذَّبوا الرُّسلَ وقتَلوا، أو وقوعُ كونِهم أبناءَ الله وأحبَّاءَه في أنفسهم، وأنَّهم لا تمَسُّهم النارُ إلا مقدارَ الزمان الذي عبَدوا فيه العِجْلَ، وإمدادُ الله لهم بطُولِ الأعمار وسَعةِ الأرزاق، أو وقوعُ كونِ الجنَّة لا يدخُلُها إلا مَن كان هودًا أو نصارىٰ في أنفسهم، واعتقادُهم امتناعَ النَّسْخِ علىٰ شريعةِ موسىٰ عليه السلام؛ فكلُّ مَن جاءهم مِن رسولٍ كذَّبوه وقتَلوه[3].

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٧٢﴾

لمَّا أخبَر تعالىٰ بفسادِ أعمالِهم، دلَّ علىٰ ذلك بقولِه مستفتِحًا مبيِّنًا مِن حالِ النصارىٰ ما بيَّن مِن حالِ اليهود، ومؤكِّدًا لختمِ آيةِ التبليغ بما ينقُضُ دَعْواهم في البُنُوَّةِ والمحبَّة:

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٧٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٢٧).

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائي؛ لإبطالِ ما عليه النصارىٰ، يناسِبُ الانتهاءَ مِن إبطال ما عليه اليهودُ[2].

لمَّا استقصىٰ الكلامَ مع اليهود، شرَع هاهنا في الكلامِ مع النصارىٰ؛ فحكىٰ عن فريقٍ منهم أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ وهذا هو قولُ اليعقوبيَّة؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ مريمَ ولَدتْ إلهًا، ولعلَّ معنىٰ هذا المذهبِ أنَّهم يقولون: إنَّ اللهَ تعالىٰ حَلَّ في ذاتِ عيسىٰ، واتحَدَ بذاتِ عيسىٰ، ثم حكىٰ تعالىٰ عن المسيحِ أنَّه قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ وهذا تنبيهٌ علىٰ ما هو الحُجَّةُ القاطعة علىٰ فسادِ قول النصارىٰ؛ وذلك لأنَّه عليه السلام لم يفرِّقْ بَيْنَ نفسِه وبين غيرِه في أنَّ دلائلَ الحدوثِ ظاهرةٌ عليه[3].

📖 ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ 📖

لمَّا انقضىٰ هذا النقضُ، وقدَّمه؛ لأنَّه كما مضىٰ أشَدُّ: أتبَعه إبطالَ دعوىٰ التثليثِ بقولِه مبدِلًا مِن تلك النتيجةِ نتيجةً أخرىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٠٨).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٢٤٩).

استئنافٌ قُصِد منه الانتقالُ إلىٰ إبطالِ مقالةٍ أخرىٰ مِن مقالاتِ طوائفِ النصارىٰ؛ وهي مقالةُ «الملكانية المُسمَّينَ بالجاثليقية»، وعليها معظمُ طوائفِ النصارىٰ في جميع الأرض[١].

ثم بيَّن تعالىٰ كُفْرَ طائفةٍ أخرىٰ مِن النصارىٰ بقولِه سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

لمَّا كان مِن شأنِ العاقل أنَّه لا يُقدِمُ علىٰ باطلٍ، فإن وقَع ذلك منه وشعَر بنوعِ ضررٍ يأتي بسببه، بادَر إلىٰ الإقلاعِ عنه: تسبَّبَ عن هذا الإنذارِ - بعد بيان العَوَارِ - الإنكارُ عليهم في عدمِ المبادرةِ إلىٰ التوبة؛ إيضاحًا لأنَّ معنىٰ كفَروا: دامُوا عليه، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

لمَّا توعَّدَهم اللهُ، أعقَب الوعيدَ بالترغيب في الهداية، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

هذا لطفٌ بهم، واستدعاءٌ إلىٰ التنصُّلِ مِن تلك المقالة الشنعاءِ، بعد أن كرَّر عليهم الشَّهادةَ بالكفرِ. والفاء في ﴿ أَفَلَا ﴾ للعطفِ، حجَزَتْ بَيْنَ الاستفهامِ ولا النافيةِ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٢).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٤).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٣١).

﴿مَا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾

لمَّا أبطَل الكفرَ كلَّه بإثباتِ أفعاله؛ مِن إرساله وإنزاله، وغيرِ ذلك مِن كماله، وأثبَت التوحيدَ علىٰ وجهٍ عام: أتبَع ذلك تخصيصَ ما كفَر به المخاطَبون بالإبطال؛ فكان ذلك دليلًا علىٰ وجهٍ عامٍّ، فقال تعالىٰ علىٰ وجهِ الحصر في الرُّسليَّةِ ردًّا علىٰ مَن يعتقد فيه الإلهيَّةَ، واصفًا له بصفتَين لا يكونان إلا لمربوبٍ: ﴿مَا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾(١).

استئنافٌ لتِبْيانِ وصفِ المسيح في نفسِ الأمر، ووصفِ أمِّهِ؛ زيادةً في إبطالِ معتقَد النصارىٰ إلهيَّةَ المسيحِ، وإلهيَّةَ أمه؛ إذ قد عُلِم أنَّ قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ أرادوا به إلهيَّةَ المسيح(٢).

لمَّا رَدَّ علىٰ النصارىٰ قولَهم الأولَ بقول المسيح عليه السلام: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾، والثانيَ بقوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: أثبَت له الرسالةَ بصورة الحصر؛ أي: ﴿مَا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ شيءٌ ممَّا تدَّعيه النصارىٰ مِن كونِه إلهًا، وكونه أحدَ آلهةٍ ثلاثة، بل هو رسولٌ مِن جنسِ الرُّسلِ الذين خلَوْا وتقدَّموا(٣).

﴿مَا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتحقيقِ الحق الذي لا محيدَ عنه، وبيانِ حقيقةِ

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٣٢).

حاله عليه السلام وحالِ أمه؛ بالإشارة أولًا إلىٰ أشرَفِ ما لهما مِن نعوتِ الكمال، التي بها صارًا مِن زُمْرةِ أكمَلِ أفرادِ الجنس، وآخِرًا إلىٰ الوصفِ المشترك بينهما وبَيْنَ جميعِ أفراد البشر، بل أفرادِ الحيوان؛ استنزالًا لهم بطريقِ التدريج عن رتبةِ الإصرار علىٰ ما تقوَّلوا عليهما، وإرشادًا لهم إلىٰ التوبةِ والاستغفار[1].

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

لمَّا نفَىٰ عنهما الصلاحيةَ لرتبةِ الإلهيَّة للذات، أتبَعها نَفْيَ ذلك مِن حيث الصفاتُ، فقال منكِرًا مصرِّحًا بالإعراض عنهم؛ إشارةً إلىٰ أنَّهم ليسوا أهلًا للإقبالِ عليهم: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

لمَّا كان الكلامُ السابق جاريًا علىٰ طريقةِ خطاب غيرِ المعيَّنِ، كانت جملةُ ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ مستأنفةً؛ أُمِر الرسولُ بأن يبلِّغَهم ما عُنُوا به[3].

لمَّا بيَّن تعالىٰ بدليلِ النقلِ والعقل انتفاءَ الإلهيَّة عن عيسىٰ عليه السلام، وكان قد توعَّدهم، ثم استدعاهم للتوبةِ وطلبِ الغفران: أنكَر عليهم ووبَّخهم مِن وجهٍ آخرَ؛ وهو عَجْزُه وعدمُ اقتداره علىٰ دفعِ ضررٍ، وجلبِ نفع، وأنَّ مَن كان لا يَدفَع عن نفسه حريٌّ

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٦٧).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٨).

ألا يدفعَ عنكم. والخطابُ للنصارىٰ؛ نهاهم عن عبادةِ عيسىٰ عليه السلام وغيرِه، وأنَّ ما يعبُدون مِن دون اللهِ مُساوِيهم في العجزِ، وعدمِ القدرة[1].

هذا دليلٌ آخَرُ علىٰ فسادِ قول النصارىٰ[2].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

لمَّا قامت الأدلةُ علىٰ بطلانِ قول اليهود، ثم علىٰ بطلانِ مُدَّعَىٰ النصارىٰ، ولم يَبقَ لأحدٍ علَّةٌ: أمَره ﷺ أن يَنهَىٰ الفريقَينِ عن الغلوِّ بالباطل في أمرِ عيسىٰ عليه السلام: اليهودَ بإنزالِه عن رتبتِه، والنصارىٰ برفعِه عنها، بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[3].

لمَّا سبَق القولُ في أباطيلِ اليهود وأباطيلِ النصارىٰ، جُمِع الفريقانِ في النَّهيِ عن الغلوِّ في الدِّين[4].

لمَّا تكلَّمَ أولًا: علىٰ أباطيلِ اليهود، ثم تكلم ثانيًا: علىٰ أباطيلِ النصارىٰ، وأقام الدليلَ القاهر علىٰ بطلانِها وفسادها: فعند ذلك خاطَب مجموعَ الفريقين بهذا الخطابِ، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٠).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٣٥).

(٥) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٠).

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ ﴾

لمَّا نهاهم عن ذلك، وقبَّحه عليهم: علَّله محذِّرًا منه بقوله تعالىٰ -بانيًا للمفعول؛ لأنَّ الفاعلَ معروفٌ بقرينةِ مَن هو علىٰ لسانهما-: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ لُعِنَ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، فيها تخلُّصٌ بديع لتخصيصِ اليهود بالإنحاءِ عليهم دون النصارىٰ. وهي خبريَّةٌ مناسِبة لجملة ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾، تَتنزَّلُ منها منزلةَ الدليل؛ لأنَّ فيها استدلالًا علىٰ اليهودِ بما في كتبِهم، وبما في كتب النصارىٰ[(٢)].

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا خاطَب أهلَ الكتاب بهذا الخطاب، وصَف أسلافَهم، فقال تعالىٰ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾[(٣)].

أتىٰ باللَّعْنِ هنا؛ لأنَّ الغلوَّ في الدِّين واتباعَ الهوىٰ المذكورةَ في الآية السابقة مِن أسبابِ اللعن.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾

لمَّا علَّل تعالىٰ لَعْنَهم بعصيانِهم وغلوِّهم في الباطل، بيَّنه مخصِّصًا للعلماءِ منهم بزيادةِ تهديدٍ؛ لأنَّهم مع كونِهم علىٰ المنكَر لا يَنهَون غيرَهم عنه، مع أنَّهم أجدَرُ مِن

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٩٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١١).

غيرهم بالنَّهيِ؛ فصاروا علىٰ مُنكَرينِ شديدَيِ الشناعةِ، وسكوتُهم عن النَّهيِ مُغْوٍ لأهلِ الفساد، ومُغْرٍ لهم ولغيرِهم علىٰ الدخولِ فيه والاستكبارِ منه، فقال تعالىٰ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(١).

جملةُ ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا لسؤالٍ ينشأ عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾؛ وهو أن يقالَ: كيف تكونُ أمَّةٌ كلُّها متمالِئةً علىٰ العصيانِ والاعتداء؟! فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾(٢).

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ظاهرُه التفاعلُ بمعنىٰ الاشتراك؛ أي: لا يَنهَىٰ بعضُهم بعضًا؛ وذلك أنَّهم جمَعوا بَيْنَ فِعْلِ المنكَرِ والتجاهُرِ به، وعدمِ النَّهيِ عنه(٣).

ثم إنَّه تعالىٰ فسَّر المعصيةَ والاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾(٤).

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لمَّا أخبَر بإقرارهم علىٰ المناكِرِ، دلَّ علىٰ ذلك بأمرٍ ظاهر منهم، لازمٍ ثابت دائم، مقوِّضٍ لبنيانِ دِينِهم، فقال موجِّهًا بالخطابِ لأصدَقِ الناس فِراسةً، وأوفرِهم علمًا، وأثبَتِهم توسُّمًا وفهمًا: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٩٣).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٣٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٢).

(٥) نظم الدرر (٦/ ٢٦٦).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، ذكَر به حالَ طائفةٍ مِن اليهود كانوا في زمنِ الرسول ﷺ، وأظهَروا الإسلامَ، وهم معظَمُ المنافقين، وقد دلَّ على ذلك قولُه: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّه لا يُستغرب إلا لكونِه صادرًا ممَّن أظهَروا الإسلام؛ فهذا انتقالٌ لشناعةِ المنافقين[(١)].

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الظاهرُ عودُ الضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ على بني إسرائيلَ[(٢)].

لمَّا وصَف أسلافَهم بما تقدَّم، وصَف الحاضرين منهم بأنَّهم يتولَّون الكفارَ وعبدةَ الأوثان؛ والمرادُ منهم: كعبُ بن الأشرَفِ وأصحابُه، حين استجاشُوا المشركين على الرسولِ ﷺ[(٣)].

﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٨١﴾

لمَّا كان هذا دليلًا على كفرِهم، دلَّ عليه بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[(٤)].

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾، الواوُ للحالِ مِن قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، باعتبارِ كونِ المراد بهم المتظاهِرين بالإسلام؛ بقرينةِ ما تقدَّم؛ فالمعنى: ولو كانوا يؤمِنون إيمانًا صادقًا، ما اتخَذوا المشركين أولياءَ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٩٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٣٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٢).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٢٦٧).

(٥) التحرير والتنوير (٦/ ٢٩٣).

الظاهرُ في ضمير ﴿كَانُوا۟﴾، وضميرِ الفاعل في ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾: أنَّه يعودُ علىٰ ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، وفي ضميرِ المفعول: أنَّه يعودُ علىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1].

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لمَّا دلَّ كالشمسِ مَيْلُهم إلىٰ المشركين دون المؤمنين علىٰ أنَّهم في غايةِ العداوة لهم، صرَّح تعالىٰ بذلك علىٰ طريقِ الاستنتاج، فقال دالًّا علىٰ رسوخِهم في الفسقِ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

فَذْلكةٌ لِما تقدَّمَ مِن ذكرِ ما لاقىٰ به اليهودُ والنصارىٰ دعوةَ الإسلام مِن الإعراضِ، علىٰ تفاوُتٍ فيه بَيْنَ الطائفتين؛ فإنَّ اللهَ شنَّع مِن أحوالِ اليهود ما يُعرف منه عداوتُهم للإسلام إذ قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، فكرَّرها مرتينِ، وقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ﴾، فعُلِم تلوُّنُهم في مُضارَّةِ المسلمين وأذاهم. وذكَر مِن أحوالِ النصارىٰ ما شنَّع به عقيدتَهم، ولكنَّه لم يَحكِ عنهم ما فيه عداوتُهم المسلمين، وقد نهىٰ المسلمين عن اتخاذِ الفريقينِ أولياءَ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآيةَ. فجاء قولُه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ الآيةَ: فَذْلكةً لحاصلِ ما تُكِنُّه ضمائرُ الفريقين نحوَ المسلمين؛

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٣٩).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٦٨).

ولذلك فُصِلتْ ولم تُعطَفْ. واللامُ في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القَسَمِ، يُقصَد منها التأكيدُ، وزادته نونُ التوكيد تأكيدًا[(١)].

لمَّا ذكَر مِن أحوالِ أهل الكتاب مِن اليهودِ والنصارىٰ ما ذكَره، ذكَر في هذه الآيةِ أنَّ اليهودَ في غايةِ العداوة مع المسلمين؛ ولذلك جعَلهم قرناءَ للمشركين في شدةِ العداوة، بل نبَّه علىٰ أنَّهم أشَدُّ في العداوةِ مِن المشركين مِن جهةِ أنَّه قدَّم ذِكْرَهم علىٰ ذكرِ المشركين، ولَعَمْري إنَّهم كذلك[(٢)].

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ جملةٌ مستأنفة مسُوقةٌ لتقريرِ ما قبلها مِن قبائحِ اليهود، وعراقتِهم في الكفرِ، وسائرِ أحوالهم الشنيعةِ، التي مِن جملتِها موالاتُهم للمشركين، أُكِّدتْ بالتوكيدِ القَسَمي؛ اعتناءً ببيانِ تحقُّق مضمونها، والخطابُ إمَّا لرسولِ الله ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ صالح له؛ إيذانًا بأنَّ حالَهم ممَّا لا يَخفَىٰ علىٰ أحدٍ مِن الناس[(٣)].

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

لمَّا كان ذلك علةً في الظاهرِ، ومعلولًا في الباطنِ؛ لِرقَّةِ القلب: قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٧١).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ضميرُ ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾؛ لأنَّه أقربُ في الذِّكر، وهذا تُشعِرُ به إعادةُ قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾؛ ليكونَ إيماءً إلىٰ تغييرِ الأسلوب في مُعادِ الضمير، وتكونُ ضمائرُ الجمع مِن قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تابعةً لضميرِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وقرينةُ صرفِ الضمائر المتشابِهة إلىٰ مُعادَينِ هي سياقُ الكلام(١).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ الضميرُ في قوله: ﴿سَمِعُواْ﴾ يَرجِعُ إلىٰ القِسِّيسين والرهبان، الذين آمَنوا منهم(٢).

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، هو مِن قولِهم؛ فيحتمِلُ أنَّهم يقولونه في أنفسِهم عندما يخامِرُهم الترددُ في أمرِ النزوع عن دِينِهم القديمِ إلىٰ الدخول في الإسلام، وذلك الترددُ يَعرِضُ للمعتقِدِ عند الهمِّ بالرجوع في اعتقادِه، وهو المسمَّىٰ بالنظرِ، ويحتمِلُ أنَّهم يقولونه لِمَن يعارِضُهم مِن أهلِ مِلَّتِهم أو مِن إخوانهم، ويشكِّكُهم فيما عزَموا عليه، ويحتمِلُ أنَّهم يقولونه لِمَن يعيِّرُهم مِن اليهود(٣).

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ هذا إنكارٌ واستبعاد لانتفاءِ الإيمان منهم مع قيامِ موجِبِه؛ وهو عِرْفانُ الحقِّ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١١).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٤٧).

العاملُ في الأُولىٰ ما في اللام مِن معنىٰ الفعلِ؛ كأنَّه قيل: أيُّ شيءٍ حصَل لنا حالَ كوننا غيرَ مؤمنين؟ وفي الثاني معنىٰ هذا الفعلِ، ولكنْ مقيدًا بالحال الأُولىٰ؛ لأنَّك لو أزلتَها، وقلت: وما لنا ﴿وَنَطْمَعُ﴾؟ لم يكُنْ كلامًا، ويجوز أن يكونَ ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حالًا مِن ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ علىٰ أنَّهم أنكَروا علىٰ أنفسهم أنَّهم لا يوحِّدون الله ويَطمَعون مع ذلك أن يَصحَبوا الصالحين[(١)].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ كلامٌ مستأنَف قالوه تحقيقًا لإيمانهم، وتقريرًا له بإنكارِ سببِ انتفائه، ونفيِه بالكلية[(٢)].

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٥﴾

لمَّا ذكَر قولَهم الدالَّ علىٰ حُسْنِ اعتقادهم، وجميلِ استعدادهم: ذكَر جزاءَهم عليه، فقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)].

تفريعٌ علىٰ قولِه يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ إلىٰ آخرِ الآية. ومعنىٰ «أثابهم»: أعطاهم الثوابَ[(٤)].

التقدير: أن يُدخِلَنا الجنَّةَ، ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ظاهرُه: أنَّ الإثابةَ بما ذُكِر مترتِّبةٌ علىٰ مجردِ القول، ولا بد

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٧٢).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٢).

أن يقترنَ بالقولِ الاعتقادُ، ويبيِّنُ أنَّه مقترنٌ به أنَّه قال: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فوصَفهم بالمعرفة؛ فدلَّ علىٰ اقترانِ القول بالعلم، وقال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فإمَّا أن يكونَ مِن وضعِ الظاهر موضعَ المُضمَرِ؛ تنبيهًا علىٰ هذا الوصفِ بهم، وأنَّهم أُثيبوا لقيامِ هذا الوصفِ بهم، وهو رتبةُ الإحسان، وإما أن يكون أُريدَ به العمومُ؛ فيكونوا قد اندرجوا في المحسنين[(١)].

سبَق مِن وصفِهم ما يدلُّ علىٰ إخلاصِهم فيما قالوا؛ وهو المعرفةُ؛ وذلك هو قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فلمَّا حصَلتِ المعرفةُ، والإخلاص، وكمالُ الانقيادِ، ثم انضاف إليه القولُ: لا جرَمَ كمَلَ الإيمانُ[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ٨٦﴾

لمَّا ذكَر ﷻ جزاءَ المطيعين المبادِرين إلىٰ الإذعان ترغيبًا، ذكَر جزاءَ مَن لم يَفعَلْ فِعْلَهم ترهيبًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[(٣)].

هذا تتميمٌ واحتراس؛ أي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن النصارىٰ و﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بالقرآنِ هم بضدِّ الذين أثابهم اللهُ جناتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ[(٤)].

لمَّا ذكَر ما للمؤمنِ، ذكَر ما أعَدَّ للكافر[(٥)].

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٤٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٦).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٣).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٣٤٩).

ولمَّا ذكَر ثوابَ المحسنين، ذكَر عقابَ المسيئين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧﴾

لمَّا مدَح سبحانه الرُّهْبانَ، وكان ذلك داعيًا إلىٰ الترهُّب، وكانت الرهبانيةُ حسَنةً بالذاتِ قبيحةً بالعَرَضِ، شريفةً في المبدأِ دنيَّةً في المآلِ؛ فإنها مبنيَّةٌ علىٰ الشِّدةِ والاجتهاد في الطاعات، والتورُّع عن أكثَرِ المباحات، والإنسانُ مبنيٌّ علىٰ الضَّعْفِ، مطبوعٌ علىٰ النقائص، فيَدْعوه طَبْعُه ويساعِده ضَعْفُه إلىٰ عدمِ الوفاء بما عاقَد عليه، ويُسرِع بما له مِن صفةِ العجَلةِ إليه، فيقعُ في الخيانةِ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: عقَّب ذلك بالنَّهي عنها في هذا الدِّينِ، والإخبارِ عنه بأنَّه بناه علىٰ التوسُّطِ؛ رحمةً منه لأهله، ولطفًا بهم؛ تشريفًا لنبيهم ﷺ، ونهاهم عن الإفراطِ فيه والتفريط، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، خطابٌ للمؤمنين بأحكامٍ تشريعية، وتكملةٌ علىٰ صورةِ التفريع، جاءت لمناسبةِ ما تقدَّم مِن الثناءِ علىٰ القِسِّيسين والرهبان. وإذ قد كان مِن سُنَّتِهم المبالغةُ في الزهد، وأحدَثوا رهبانيةً؛ مِن الانقطاعِ عن التزوُّج، وعن أكلِ اللحومِ، وكثيرٍ مِن الطيبات؛ كالتدهُّنِ، وترفيهِ الحالة، وحُسْنِ اللِّباس: نبَّه اللهُ المؤمنين علىٰ أنَّ الثناءَ علىٰ الرهبانِ والقِسِّيسين بما لهم مِن الفضائلِ لا يقتضي اطِّرادَ الثناء علىٰ جميعِ أحوالهم الرهبانية(٣).

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٤٢).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٢٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٣).

لمَّا مدَح النصارىٰ ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، وعادتُهم الاحترازُ عن طيِّباتِ الدنيا ومستلذَّاتها: أوهَم ذلك المدحُ ترغيبَ المسلمين في مثلِ ذلك التقشُّف والتبتل؛ بيَّن تعالىٰ أنَّ الإسلامَ لا رهبانيةَ فيه(١).

لمَّا تضمَّنَ ما قبله مدحَ النصارىٰ علىٰ ترهُّبِهم، والحثَّ علىٰ كسرِ النفس ورفضِ الشهوات: عقَّبه النَّهيَ عن الإفراطِ في ذلك، والاعتداءِ عمَّا حَدَّ اللهُ ﷻ؛ بجَعْل الحلالِ حرامًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٢).

لمَّا استقصىٰ في المناظرةِ مع اليهود والنصارىٰ، عادَ بعده إلىٰ بيانِ الأحكام، وذكرِ جملةٍ منها(٣).

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ٨٨﴾

لمَّا كان الحالُ لِما ألزَموا به أنفسَهم مقتضيًا للتأكيد، أمَر بالأكل بعد أن نهىٰ عن التَّرْكِ؛ ليجتمعَ علىٰ إباحةِ ذلك الأمرُ والنَّهْيُ، فقال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾(٤).

قوله: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ تأكيدٌ للنهيِ عن تحريمِ الطيِّبات، وهو معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ وسَّع عليكم بالحلالِ، فلا تعتدُوه إلىٰ الحرامِ؛ فتكفُروا النِّعمةَ، ولا تتركُوه بالتحريمِ؛ فتُعرِضوا عن النعمة(٥).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٤٩).

(٢) أنوار التنزيل (٢/ ١٤١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٦).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٢٨٨).

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ١٧).

ثم أمَر بضدِّ ما عليه المشركون، الذين يحرِّمون ما أحَلَّ اللهُ، فقال: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩ ﴾

استئنافٌ ابتدائيٌّ نشأ بمناسبةِ قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾؛ لأنَّ التحريمَ يقعُ في غالبِ الأحوال بأيمانٍ معزومة، أو بأيمانٍ تجري علىٰ اللسانِ لقصدِ تأكيد الكلام؛ كأن يقولَ: واللهِ لا آكُلُ كذا، أو تجري بسببِ غضبٍ. وقيل: إنَّها نزلَتْ مع الآيةِ السابقة؛ فلا حاجةَ لإبداءِ المناسبة لذِكْرِ هذا بعد ما قبله[2].

ذكَرْنا أنَّ سببَ نزول الآية الأُولىٰ: أنَّ قومًا مِن الصحابةِ حرَّموا علىٰ أنفسِهم المطاعمَ والملابس، واختاروا الرَّهْبانيةَ، وحلَفوا علىٰ ذلك، فلمَّا نهاهم اللهُ تعالىٰ عنها، قالوا: يا رسولَ الله، فكيف نَصنَعُ بأيماننا؟ فأنزَل اللهُ هذه الآيةَ[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ ﴾

لمَّا تمَّ بيانُ حالِ المأكل، وكان داعيةً إلىٰ المَشرَب: احتِيجَ إلىٰ بيانِه؛ فبيَّن تعالىٰ المُحرَّم منه. فعُلِم أنَّ ما عداه مأذونٌ في التمتُّع به، وذلك مُحاذٍ في تحريمِ شيءٍ مقترنٍ باللازم بعد إحلالٍ آخرَ لِما في أولِ السورة مِن تحريمِ المَيْتة، وما ذُكِر معها بعد

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١٩).

إحلالِ بهيمةِ الأنعام وما معها، فقال تعالىٰ مذكِّرًا لهم بما أَقَرُّوا به مِن الإيمانِ الذي معناه الإذعانُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[(١)].

استئنافُ خطابٍ للمؤمنين تقفيةً علىٰ الخطابِ الذي قبله؛ ليُنظَمَ مضمونُه في السلكِ الذي انتظَم فيه مضمونُ الخطابِ السابق؛ وهو قوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ المشيرُ إلىٰ أنَّ اللهَ كما نهىٰ عن تحريمِ المباح نهىٰ عن استحلالِ الحرام، وأنَّ اللهَ لمَّا أحَلَّ الطيِّباتِ حرَّم الخبائثَ المفضية إلىٰ مفاسدَ؛ فإنَّ الخمرَ كان طيِّبًا عند الناس، وقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾. والمَيسِرُ كان وسيلةً لإطعامِ اللحمِ مَن لا يَقدِرون عليه. فكانت هذه الآيةُ كالاحتراس عمَّا قد يُساءُ تأويلُه مِن قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[(٢)].

لمَّا أمَر تعالىٰ بأكلِ ما رزَقهم حلالًا طيبًا، ونهاهم عن تحريمِ ما أحَلَّه لهم ممَّا لا إثمَ فيه، وكان المستطابُ المستلَذُّ عندهم الخَمْرَ والمَيسِرَ، وكانوا يقولون: الخمرُ تطرُدُ الهمومَ، وتنشِّطُ النفسَ، وتشجِّعُ الجبانَ، وتَبعَثُ علىٰ المكارمِ، والمَيسِرُ يحصُلُ به تنميةُ المال، ولذَّةُ الغلَبَةِ: بيَّن تعالىٰ تحريمَ الخمرِ والمَيسِر؛ لأنَّ هذه اللذةَ يقارِنُها مفاسدُ عظيمةٌ؛ ففي الخمرِ إذهابُ العقل، وإتلافُ المال، وتنشأ عنها مفاسدُ أُخَرُ؛ مِن قتلِ النفس، وشِدَّة البغضاء، وارتكابِ المعاصي؛ لأنَّ مِلاكَ هذه كلِّها العقلُ؛ فإذا ذهَب العقلُ، أتت هذه المفاسدُ، والمَيسِرُ فيه أخذُ المالِ بالباطل، وهذا الخطابُ للمؤمنين، والذي مُنِعوا منه في هذه الآيةِ هي شهواتٌ وعاداتٌ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٩١).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٥٠).

لمَّا نهىٰ اللهُ تعالىٰ المؤمنين عن تحريمِ ما أحَلَّ الله تعالىٰ لهم، بيَّن لهم ما حرَّمه عليهم، ودعاهم إلىٰ تَرْكِه واجتنابِه؛ لضررِه بهم، وإفسادِه لقلوبهم وأرواحهم، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[(١)].

وجهُ اتصالِه بما قبله: أنَّه تعالىٰ قال فيما تقدَّم: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبٗا﴾، ثم لمَّا كان مِن جملةِ الأمور المستطابةِ الخمرُ والمَيسِرُ، لا جرَمَ أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّهما غيرُ داخلَينِ في المحلَّلات، بل في المحرَّمات[(٢)].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

لمَّا كانت حكمةُ النَّهْيِ عن الأنصابِ والأزلام قد تقدَّمتْ في أولِ السورة؛ وهي أنَّها فِسْقٌ: اقتصَر علىٰ بيانِ علة النَّهي عن الخمرِ والمَيسِر؛ إعلامًا بأنَّهما المقصودانِ بالذات، وإن كان الآخَرانِ ما ضُمَّا إلا لتأكيدِ تحريم هذينِ -كما تقدَّم؛ لأنَّ المخاطَبَ أهلُ الإيمان، وقد كانوا مجتنبِينَ لذَيْنِكَ، فقال مؤكدًا لأنَّ الإقلاعَ عمَّا حصَل التمادي في المُرونِ عليه يحتاج إلىٰ مثلِ ذلك: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[(٣)].

وهذه أربعُ عِلَلٍ، كلُّ واحدةٍ منها تقتضي التحريمَ؛ فلا جرَمَ أنْ كان اجتماعُها مقتضيًا تغليظَ التحريم[(٤)].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٢٣).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢٩٣).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣).

لمَّا كان الشيطانُ هو الداعيَ إلىٰ التلبُّس بهذه المعاصي، والمُغرِيَ بها: جُعِلتْ مِن عملِه وفعلِه، ونُسِبتْ إليه علىٰ جهةِ المجازِ والمبالغة[١].

ثم قرَّر ذلك بيانُ ما فيهما مِن المفاسدِ الدنيوية والدِّينية المقتضيةِ للتحريم، فقيل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وهو إشارةٌ إلىٰ مفاسدِهما الدنيوية. ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إشارة إلىٰ مفاسدِهما الدِّينية[٢].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

لمَّا كان ذلك مألوفًا لهم، محبوبًا عندهم، وكان تَرْكُ المألوفِ أمَرَّ مِن ضربِ السيوف: أكَّد دعوتَهم إلىٰ اجتنابِه محذِّرًا مِن المخالفةِ بقوله -عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فانتهُوا-: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٣].

عُطِفت جملةُ ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ علىٰ جملةِ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، وهي كالتذييلِ؛ لأنَّ طاعةَ اللهِ ورسوله تعُمُّ تَرْكَ الخمرِ والمَيسِر والأنصاب والأزلام، وتعُمُّ غيرَ ذلك مِن وجوهِ الامتثال والاجتناب. وكُرِّر ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ اهتمامًا بالأمرِ بالطاعة. وعُطِف ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ علىٰ «أطيعوا»؛ أي: وكونوا علىٰ حذَرٍ[٤].

هذا أمرٌ بطاعةِ الله تعالىٰ وطاعةِ الرسول ﷺ في امتثالِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهىٰ عنه، وأمَر بالحذرِ مِن عاقبةِ المعصية، وناسَب العطفُ في ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ علىٰ معنىٰ قوله:

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٥٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٧٦).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٣٠).

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ إذ تضمَّنَ هذا معنى الأمرِ؛ وهو قوله: فانتهوا. وقيل: الأمرُ بالطاعةِ هذا مخصوصٌ؛ أي: أطيعوا فيما أُمِرتم به مِن اجتنابِ ما أُمِرتم باجتنابه، واحذَروا ما عليكم في مخالفةِ هذا الأمر، وكُرِّر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على سبيلِ التأكيد، والأحسنُ ألا يقيَّدَ الأمرُ هنا، بل أُمِروا أن يكونوا مطيعين دائمًا، حَذِرين خاشِينَ؛ لأنَّ الحذَرَ مَدْعاةٌ إلى عملِ الحسنات، واتقاءِ السيئات(١).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾، فظاهرُه أنَّ المرادَ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما تقدَّم ذكرُه؛ مِن أمرِهما بالاجتنابِ عن الخمر والمَيسِر، وقولُه: ﴿وَاحْذَرُوا﴾؛ أي: احذَروا عن مخالفتِهما في هذه التكاليفِ(٢).

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

ولمَّا كانوا قد سألوا عند نزولِ الآية عمَّا مِن شأنِ الأنفسِ الصالحة الناظرة للورَعِ المتحرك للسؤال عنه؛ وهو مَن مات منهم وهو يَفعَلُهما: قال جوابًا لذلك السؤالِ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

هذه الآيةُ بيانٌ لِما عرَض مِن إجمالٍ في فَهْمِ الآية التي قبلها؛ إذ ظنَّ بعضُ المسلمين أنَّ شُرْبَ الخمرِ قبل نزول هذه الآية قد تلبَّسَ بإثمٍ؛ لأنَّ اللهَ وصَف الخمرَ وما ذُكِر معها بأنَّها رِجْسٌ مِن عملِ الشيطان(٤).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٥٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٢٥).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٢٩٥).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٣٢).

قال ابنُ عباسٍ والبراءُ وأنس: «لمَّا نزَل تحريمُ الخمر، قال قومٌ: كيف بمن مات منَّا وهو يَشرَبها، ويأكل المَيسِر؟ فنزَلتْ»(١)، فأعلَم تعالىٰ أنَّ الذمَّ والجُناحَ إنَّما يتعلقُ بفعل المعاصي، والذين ماتوا قبل التحريمِ ليسوا بعاصين، والظاهرُ مِن سببِ النزول: أنَّ اللفظَ عامٌّ، ومعناه الخصوص، وقيل: هي عامة؛ والمعنىٰ: أنَّه لا حرَجَ علىٰ المؤمنِ فيما طَعِم مِن المستلَذات إذا ما اتقىٰ ما حرَّم اللهُ منها، وقضيةُ مَن شَرِبها قبل التحريم مِن صُوَر العموم(٢).

لمَّا نزَلتْ آيةُ تحريم الخمر، قالت الصحابةُ: «إنَّ إخوانَنا كانوا قد شَرِبوا الخمرَ يوم أُحُدٍ، ثم قُتِلوا؛ فكيف حالُهم؟»(٣)، فنزَلتْ هذه الآيةُ؛ والمعنىٰ: لا إثمَ عليهم في ذلك؛ لأنَّهم شَرِبوها حالَ ما كانت محلَّلةً(٤).

ثم بيَّن تعالىٰ رَفْعَ الإثم عمَّن مات وهو يَشرَبُ الخمرَ قبل التحريم بقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

لمَّا ذكَر ما حُرِّم مِن الطعام في كلِّ حال، وكان الصيدُ ممَّن حُرِّم في بعضِ الأوقات، وكان مِن أمثَلِ مطعوماتهم، وكان قد ذكَر لهم بعضَ أحكامه: أخَذ هنا في ذِكْرِ شيءٍ مِن أحكامه، وابتدأها -لأنَّهم خافوا علىٰ مَن مات منهم علىٰ شُرْبِ الخمر قبل

(١) ينظر: تفسير الطبري (٨/ ٦٦٦).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٨٦٢٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٢٦).

(٥) محاسن التأويل (٤/ ٢٤٦).

تحريمِها- بأنَّه يبتليهم -لتمييزِ الوَرِعِ منهم مِن غيرِه- بالصيدِ في الحال التي حرَّمه عليهم فيها كما ابتلىٰ بني إسرائيلَ في السَّبْتِ؛ فكان ذلك سببًا لجَعْلِهم قِرَدةً، ومَنَّ سبحانه علىٰ الصحابةِ مِن هذه الأمَّة بالعصمةِ عند بَلْواهم؛ بيانًا لفضلِهم علىٰ مَن سِواهم، فقال تعالىٰ مناديًا لهم بما يكُفُّهم ذِكْرُه عن المخالفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)].

لا أحسَبُ هذه الآية إلا تبيينًا لقولِه في صدر السورة: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وتخلُّصًا لحُكْمِ قتلِ الصيد في حالةِ الإحرام، وتمهيدًا لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، جرَّتْ إلىٰ هذا التخلُّصِ مناسبةُ ذِكْرِ المحرَّمات مِن الخمرِ والمَيسِر وما عُطِف عليهما، فخاطَب اللهُ المؤمنين بتنبيهِهم إلىٰ حالةٍ قد يَسبِقُ فيها حرصُهم حذَرَهم، وشهوتُهم تَقْواهم[(٢)].

لمَّا أمَرهم ألا يحرِّموا الطيِّبات، وأخرَج مِن ذلك الخمرَ والمَيسِر، وهما حرامانِ دائمًا: أخرَج بعده مِن الطيِّبات ما حُرِّم في حالٍ دون حال؛ وهو الصيدُ، وكان الصيد ممَّا تعيشُ به العربُ، وتتلذَّذُ باقتناصِه، ولهم فيه الأشعارُ والأوصاف الحسنة، والظاهرُ أنَّ الخطابَ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عامٌّ للمُحِلِّ والمُحرِمِ، لكن لا يتحققُ الابتلاءُ إلا مع الإحرامِ، أو الحَرَمِ[(٣)].

هذا نوعٌ آخرُ مِن الأحكام، ووجهُ النَّظم: أنَّه تعالىٰ كما قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ثم استثنىٰ الخمرَ والمَيسِر عن ذلك: فكذلك استثنىٰ هذا النوعَ مِن الصيدِ عن المحلَّلات، وبيَّن دخولَه في المحرَّمات[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٦١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٢٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾

لمَّا أخبرَهم بالابتلاء، صرَّح لهم بما لوَّح إليه بذِكْرِ المخافةِ مِن تحريم التعرُّضِ لِما ابتلاهم به، فقال منوِّهًا بالوصفِ الناهي عن الاعتداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[(١)].

استئنافٌ لبيانِ آية: ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾، أو لنَسْخِ حُكْمِها أنْ كانت تضمَّنتْ حُكْمًا لم يَبقَ به عملٌ[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ شروعٌ في بيانِ ما يُتدارك به الاعتداءُ مِن الأحكام إثْرَ بيانِ ما يَلحَقه مِن العذابِ[(٣)].

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦﴾

لمَّا كان هذا عامًّا في كل صيدٍ، بيَّن أنَّه خاصٌّ بصيدِ البر، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٧٩).

(٤) نظم الدرر (٦/ ٣٠٤).

استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ ﴾؛ فإنَّه اقتضىٰ تحريمَ قتلِ الصيدِ علىٰ المُحرِمِ، وجعَل جزاءَ فعلِه هَدْيَ مثلِ ما قتَل مِن النَّعم، فكان السامعُ بحيث يَسأل عن صيدِ البحر؛ لأنَّ أخذَه لا يُسمَّىٰ في العرف قتلًا، وليس لِما يصادُ منه مِثلٌ مِن النَّعم، ولكنَّه قد يشُكُّ لعلَّ الله أراد القتلَ بمعنىٰ التسبُّب في الموت، وأراد بالمثل مِن النَّعَمِ المقارِبَ في الحجمِ والمقدار؛ فبيَّن اللهُ للناس حُكْمَ صيدِ البحر، وأبقاه علىٰ الإباحةِ؛ لأنَّ صيدَ البحر ليس مِن حيوانِ الحَرَمِ؛ إذ ليس في شيءٍ مِن أرضِ الحرم بحرٌ[1].

ولمَّا كان الصيدُ يَشمَل الصيدَ البَريَّ والبحري، استثنىٰ تعالىٰ الصيدَ البحري، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[2].

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

لمَّا كان الإحرامُ وتحريم الصيدِ فيه إنَّما هو لقصدِ تعظيم الكعبة، بيَّن تعالىٰ حكمةَ ذلك، وأنَّه كما جعَل الحَرَمَ والإحرام سببًا لأمنِ الوحش والطير، جعَله سببًا لأمنِ الناس، وسببًا لحصولِ السعادة دُنْيا وأخرىٰ، فقال مستأنِفًا بيانًا لحكمةِ المنع في أول السورةِ مِن استحلال مَن يَقصِدُها للزيارة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٥١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٤٤).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٣٠٦).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه يحصُلُ به جوابٌ عمَّا يخطُرُ في نفسِ السامع مِن البحث عن حكمةِ تحريم الصيدِ في الحَرَم، وفي حالِ الإحرام؛ بأنَّ ذلك مِن تعظيمِ شأن الكعبةِ، التي حُرِّمتْ أرضُ الحَرَم لأجلِ تعظيمها، وتذكيرٌ بنعمةِ الله علىٰ سكَّانه بما جعَل لهم مِن الأمنِ في علائقِها وشعائرِها[١].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرةٌ؛ وذلك أنَّه تعالىٰ ذكَر تعظيمَ الإحرام بالنَّهْيِ عن قتلِ الوحش فيه، بحيث شرَع بقتلِه ما شرَع، وذكَر تعظيمَ الكعبة بقوله: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾؛ فذكَر تعالىٰ في هذه الآيةِ أنَّه جعَل الكعبةَ قيامًا للناس؛ أي: ركَز في قلوبهم تعظيمَها؛ بحيث لا يقع فيها أذَىٰ أحدٍ، وصارت وازعةً لهم مِن الأذىٰ وهم في الجاهليةِ الجَهْلاء لا يَرجُون جنةً، ولا يخافون نارًا؛ إذ لم يكُنْ لهم مَلِكٌ يَمنَعُهم مِن أذَىٰ بعضِهم، فقامت لهم حرمةُ الكعبةِ مقامَ حرمة المَلِكِ؛ هذا مع تنافُسِهم وتحاسدهم، ومعاداتهم وأخذِهم بالثأر؛ ولذلك جعَل الثلاثةَ المذكورة بعد الكعبة قيامًا للناس؛ فكانوا لا يَهيجون أحدًا في الشهرِ الحرام، ولا مَن ساقَ الهَدْيَ؛ لأنَّه يُعلَم أنَّه لم يَجِئْ لحرب، ولا مَن خرَج يريد البيتَ بحجٍّ أو عمرة فتقلَّدَ مِن لَحْيِ الشجر، ولا مَن قضىٰ نُسُكَه فتقلَّدَ مِن شجرِ الحَرَم[٢].

اعلَمْ أنَّ اتصالَ هذه الآية بما قبلها هو أنَّ اللهَ تعالىٰ حرَّم في الآيةِ المتقدِّمة الاصطيادَ علىٰ المُحرِم؛ فبيَّن أنَّ الحَرَمَ كما أنَّه سببٌ لأمنِ الوحش والطير، فكذلك هو سببٌ لأمنِ الناس عن الآفاتِ والمخافات، وسببٌ لحصولِ الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٥٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٧٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٣٩).

كما جمَعهم اللهُ حول بيته مِن كلِّ فجٍّ، سيَجمَعُهم في مَحشَرِه يوم القيامة.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨ ﴾

لمَّا أنتَج هذا كلُّه أنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ لأنَّه بكل شيء عليمٌ، وكانت هذه الآيةُ - كما تقدَّم - ناظرةً إلىٰ أولِ السورة مِن آيةِ ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ وما بعدها أتمَّ نظَرٍ: ذكَر سبحانه ما اكتنَف آيةَ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ مِن الوعيدِ الذي خُتِم به ما قبلها، والوعدِ الذي خُتِمت هي به في هذه الآيةِ علىٰ ترتيبه، سائقًا له مساقَ النتيجةِ والثمرة لِما قبله؛ بيانًا لأنَّ مَن ارتكَب شيئًا مِن هذه المنهيَّاتِ كان حَظَّه، فقال محذِّرًا ومبشِّرًا لأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلا بهما: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ وتذييل لِما سبَق مِن حظرِ الصيد للمُحرِم، وإباحةِ صيد البحر، والامتنانِ بما جُعِل للكعبة مِن النِّعَم عليهم؛ ليَطمئنوا لِما في تشريعِ تلك الأحكام مِن تضييقٍ علىٰ تصرفاتِهم؛ ليَعلَموا أنَّ ذلك في صلاحهم؛ فذيَّل بالتذكيرِ بأنَّ اللهَ منهم بالمرصاد، يجازي كلَّ صانعٍ بما صنَع؛ مِن خيرٍ أو شر(٢).

هذا تهديدٌ؛ إذ أخبَر أنَّ عقابَه شديدٌ لِمَن انتهَك حُرْمتَه(٣).

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ أنواعَ رحمته بعباده، ذكَر بعده أنَّه شديدُ العقاب؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتم إلا بالرجاء والخوف(٤).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٦١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٧٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٤١).

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ۝٩٩ ﴾

لمَّا رغَّب سبحانه ورهَّب، عُلِم أنَّه المجازي وحده؛ فأنتَج ذلك أنَّه ليس إلىٰ غيرِه إلا ما كلَّفه به؛ فأنتج ذلك ولا بد قولَه: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾[1].

وجملةُ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ معترِضةٌ، ذُيِّل بها التعريضُ بالوعيدِ والوعد[2].

لمَّا تقدَّم الترغيبُ والترهيب، أخبَر تعالىٰ أنَّه كلَّف رسولَه بالتبليغ؛ وهو توصيلُ الأحكام إلىٰ أمَّتِه؛ وهذا فيه تشديدٌ علىٰ إيجابِ القيام بما أمَر به تعالىٰ، وأنَّ الرسولَ قد فرَغ ممَّا وجَب عليه مِن التبليغ، وقامت عليه الحُجَّةُ، ولَزِمتْكم الطاعةُ؛ فلا عُذْرَ لكم في التفريط[3].

لمَّا قدَّم الترهيبَ والترغيب بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، أتبعه بالتكليفِ بقوله: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾؛ يعني: أنَّه كان مكلَّفًا بالتبليغ، فلمَّا بلَّغ، خرَج عن العهدةِ، وبَقِيَ الأمرُ مِن جانبكم، وأنا عالِمٌ بما تُبْدون وبما تكتمون، فإن خالَفتم، فاعلَموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب، وإن أطَعْتم، فاعلَموا أنَّ اللهَ غفور رحيم[4].

﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠٠ ﴾

لمَّا سلَب سبحانه العلمَ عن كل أحدٍ، وأثبَته لنفسِه الشريفة: أنتَج ذلك أنَّه لا أمرَ لغيرِه، ولا نَهيَ، ولا إثباتَ، ولا نَفيَ؛ فأخَذ سبحانه يبيِّنُ حكمةَ ما مضىٰ مِن الأوامرِ

(١) نظم الدرر (٦/ ٣١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٦١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٧٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٤١،٤٤٢).

في إحلال الطعام وغيرِه؛ مِن الاصطياد، والأكل مِن الصيد، وغيره، والزواجرِ عن الخمر، وغيرها: بأنَّ الأشياءَ منها طيِّبٌ وخبيث، وأنَّ الطيِّبَ وإن قلَّ خيرٌ مِن الخبيثِ وإن كثُرَ، ولا يميِّزُ هذا مِن ذاك إلا الخلَّاقُ العليم؛ فربَّما ارتكَب الإنسانُ طريقةً شرَعها لنفسه، ظانًّا أنَّها حسنةٌ، فجرَّتْهُ إلىٰ السيئةِ وهو لا يشعُرُ، فيَهلِك؛ كالرَّهبانية التي كانوا عزَموا عليها، والخمرِ التي دعا شغَفُهم بها إلىٰ الإنزالِ فيها مرةً بعد أخرىٰ، إلىٰ أن أكَّد فيها هنا أشَدَّ تأكيدٍ، وحذَّر فيها أبلغَ تحذير، فقال تعالىٰ صارفًا الخطابَ إلىٰ أشرَفِ الورىٰ ﷺ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا يَنهَض بمعرفةِ هذا مِن الخَلْقِ غيرُه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

لمَّا آذَن قولُه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ بأنَّ الناسَ فريقانِ: مطيعون وعصاة، فريقٌ عانَدوا الرسولَ ولم يمتثلوا؛ وهم مَن بَقِيَ مِن أهلِ الشرك، ومَن عاضَدهم مِن المنافقين، وربما كانوا يُظهِرون للقبائلِ أنَّهم جَمْعٌ كثير، وأنَّ مِثْلَهم لا يكونُ علىٰ خطأٍ: فأزال اللهُ الأوهامَ التي خامَرتْ نفوسَهم، فكانت فتنةً أو حُجَّةً ضالَّة يموِّهُ بها بعضٌ منهم علىٰ المهتدين مِن المسلمين(٢).

لمَّا زجَر عن المعصية ورغَّب في الطاعة بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم أتبَعه بالتكليف بقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ثم أتبعه بالترغيبِ في الطاعة والتنفيرِ عن المعصية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾:

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣١١).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٦٢).

أتبَعه بنوعٍ آخرَ مِن الترغيب في الطاعةِ والتنفير عن المعصية، فقال: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾[(١)].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

وحينئذٍ ظهَر كالشمس مناسبةُ تعقيبِها بقوله علىٰ طريقِ الاستئناف والاستنتاج: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للنهيِ عن العودة إلىٰ مسائلَ سألها بعضُ المؤمنين رسولَ الله ﷺ، ليست في شؤونِ الدِّين، ولكنَّها في شؤونٍ ذاتية خاصة بهم؛ فنُهوا أن يَشغَلوا الرسولَ بمثالها بعد أن قدَّم لهم بيانَ مهمةِ الرسول بقوله تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ الصالحِ لأن يكونَ مقدِّمةً لمضمونِ هذه الآية، ولمضمون الآية السابقة؛ وهي قوله: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾؛ فالآيتانِ كلتاهما مرتبطتانِ بآية ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾، وليست إحدىٰ هاتين الآيتينِ بمرتبطةٍ بالأخرىٰ[(٣)].

أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾، صار التقديرُ كأنَّه قال: ما بلَّغه الرسولُ إليكم، فخُذوه، وكونوا منقادين له، وما لم يبلِّغْهُ الرسولُ إليكم، فلا تَسألوا عنه، ولا تخُوضُوا فيه؛ فإنَّكم إن خُضْتم فيما لا تكليفَ فيه عليكم، فربما جاءكم بسببِ ذلك

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٤٢).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٣١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٦٥).

الخوضِ الفاسد مِن التكاليف ما يثقُل عليكم، ويشُقُّ عليكم، وهذا متصلٌ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ فاتركوا الأمورَ على ظواهرِها، ولا تسألوا عن أحوالٍ مخفية ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[١].

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾

لمَّا نهىٰ عن السؤالِ عنها ليُتعرَّفَ حالُها، علَّل ذلك بأنَّ غيرَهم عرَف أشياءَ وطلب أن يُعطاها؛ إمَّا بأن سأل غيره ذلك، وإمَّا بأن شرَعها وسأل غيره أن يوافِقَه عليها وهو قاطعٌ بأنَّها غايةٌ في الحُسْنِ، فكانت سببَ شقائه، فقال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾[٢].

قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جوابُ سؤالٍ يثيره النَّهيُ عن السؤال، ثم الإذنُ فيه في حينِ يَنزِل القرآن، أن يقولَ سائلٌ: إن كان السؤالُ في وقت نزولِ القرآن وأن بعضَ الأسئلة يسُوءُ جوابُه قومًا، فهل الأَوْلىٰ تركُ السؤالِ أو إلقاؤه؟ فأجيبَ بتفصيلِ أمرها؛ بأنَّ أمثالَها قد كانت سببًا في كفرِ قومٍ قبل المسلمين[٣].

راجعٌ إلىٰ المسألةِ التي دلَّ عليها ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾؛ يعني: قد سأل هذه المسألةَ قومٌ مِن الأوَّلين، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟﴾؛ أي: بمرجوعِها ﴿كَٰفِرِينَ﴾؛ وذلك أنَّ بني إسرائيلَ كانوا يستفتون أنبياءَهم عن أشياءَ، فإذا أُمِروا بها، تركوها؛ فهلكوا[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٤٣).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٣١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٦٩).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٨٣).

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾

لمَّا فرَغ مِن زَجْرِهم عن أن يَشرَعوا لأنفسهم، أو يَسألوه عن أن يَشرَع لهم، وأن يَسألوا مَن رَحِمهم بابتدائهم بهذا الشرعِ عن شيءٍ مِن الأشياء؛ اعتمادًا على أنَّه ما ابتدأ بذلك إلا وهو غيرُ مُخْفٍ عنهم شيئًا يَنفعُهم، ولا مُبْدٍ لهم شيئًا يضرُّهم؛ لأنَّه بكل شيء عليمٌ - كما تقدَّم التنبيهُ على ذلك -: قال معلِّلًا بختامِ الآية التي قبلها: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، جاء فارقًا بَيْنَ ما أحدَثه أهلُ الجاهلية مِن نقائضِ الحنيفيَّة، وبَيْنَ ما نوَّه اللهُ به ممَّا كانوا عليه مِن شعائرِ الحج؛ فإنَّه لمَّا بيَّن أنَّه جعَل الكعبةَ قيامًا للناس، وجعَل الهَدْيَ والقلائد قيامًا لهم: بيَّن هنا أنَّ أمورًا ما جعَلها اللهُ، ولكن جعَلها أهلُ الضلالة؛ ليَميزَ الخبيثَ مِن الطيِّب، فيكون كالبيانِ لآيةِ ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾؛ فإنَّ البَحِيرةَ وما عُطِف عليها هنا تُشبِهُ الهَدْيَ في أنَّها تُحرَّرُ منافعُها -وذواتُها حيَّةٌ- لأصنامِهم، كما تُهدَى الهدايا للكعبةِ مُذَكَّاةً[2].

لمَّا نهى عن سؤالِ ما لم يأذَنْ فيه، ولا كلَّفهم إيَّاه: منَع مِن التزامِ أمورٍ ليست مشروعةً مِن الله تعالى، ولمَّا سأل قومٌ عن هذه الأحكامِ التي كانت في الجاهليةِ: هل تَلحَقُ بأحكامِ الكعبة؟ بيَّن تعالى أنَّه لم يَشرَعْ شيئًا منها، أو لمَّا ذكَر المحلَّلات والمحرَّمات في الشرعِ، عاد إلى الكلامِ في المحلَّلات والمحرَّمات مِن غيرِ شرع[3].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٧١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٨٤).

لمَّا منَع الناسَ مِن البحث عن أمورٍ ما كُلِّفوا بالبحث عنها، كذلك منَعهم عن التزامِ أمورٍ ما كُلِّفوا التزامَها، ولمَّا كان الكفارُ يحرِّمون على أنفسهم الانتفاعَ بهذه الحيواناتِ، وإن كانوا في غايةِ الاحتياجِ إلى الانتفاع بها: بيَّن تعالى أنَّ ذلك باطلٌ، فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾

لمَّا حرَّموا هذه الأشياءَ، اضطُرُّوا إلى تحليلِ المَيْتة؛ فحرَّموا الطيِّبَ، وأحلُّوا الخبيثَ. ولمَّا اتخذوه دِينًا، واعتقَدوه شرعًا، ومضى عليه أسلافُهم: دعَتْهم الحظوظُ والأنَفة مِن نسبةِ آبائهم إلى الضلالِ، والشَّهادةِ عليهم بالسَّفه: إلى الإصرارِ عليه، وعدمِ الرجوع عنه بعد انكشافِ قباحتِه، وبيانِ شناعته، حتى أفنى أكثَرهم السيفُ، ووَطِئتْهم الدواهي؛ فوَطِئتْ أكتافَهم، وذلَّلتْ أعناقَهم وأكنافهم، فقال تعالى دالًّا على ختامِ الآية التي قبله مِن عدمِ عقلِهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾(٢).

الواوُ للحال. والجملةُ حالٌ مِن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: إنَّهم ينسُبون إلى الله ما لم يأمُرْ به كَذِبًا، وإذا دُعُوا إلى اتباعِ ما أمَر اللهُ به حقًّا، أو التدبُّرِ فيه: أعرَضوا، وتمسَّكوا بما كان عليه آباؤهم. فحالُهم عجيبةٌ في أنَّهم يَقبَلون ادعاءَ آبائهم أنَّ اللهَ أمَرهم بما اختلَقوا لهم مِن الضلالاتِ؛ مثلِ البَحِيرةِ، والسائبةِ، وما ضاهاهما، ويُعرِضون على

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٤٦).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٣٢٢).

دعوةِ الرسول الصادقِ بلا حُجَّةٍ لهم في الأُولىٰ، وبالإعراضِ عن النظر في حُجَّةِ الثانية، أو المكابَرةِ فيها بعد علمِها(١).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ أكثرَهم لا يَعقِلون أنَّ تحريمَ هذه الأشياءِ افتراءٌ باطل؛ حتىٰ يخالِفوهم ويهتدوا إلىٰ الحق، وإنَّما يقلِّدون قُدماءَهم: أشار إلىٰ عنادِهم واستعصائهم حينما هُدُوا إلىٰ الحقِّ، وإلىٰ ضلالِهم ببقائهم في أَسْرِ التقليد، بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥﴾

لمَّا كان المانعُ لهم مِن قَبول الهدىٰ كَوْنَ ذلك تسفيهًا لآبائهم، فيعودُ ضررًا عليهم يُسَبُّون به علىٰ زعمِهم: أعلَم اللهُ المؤمنين أنَّ مخالفةَ الغيرِ في قَبول الهدىٰ لا تضرُّهم أصلًا؛ بأن عقَّب آيةَ الإنكارِ عليهم في التقيُّدِ بآبائهم لمتابَعتِهم لهم في الكفر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

تذييلٌ جرىٰ علىٰ مناسبةٍ في الانتقال؛ فإنَّه لمَّا ذكَر مكابرةَ المشركين، وإعراضَهم عن دعوةِ الخير: عقَّبه بتعليمِ المسلمين حدودَ انتهاءِ المناظَرة والمجادَلة إذا ظهَرتِ المكابَرةُ، وعذَر المسلمين بكفايةِ قيامِهم بما افترَض اللهُ عليهم مِن الدعوةِ إلىٰ

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٧٥).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٢٧٥).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٣٢٣).

الخير؛ فأعلَمهم هنا أنْ ليس تحصيلُ أثرِ الدعاء علىٰ الخيرِ بمسؤولين عنه، بل علىٰ الداعي بَذْلُ جهدِه، وما عليه إذا لم يُصْغِ المدعوُّ إلىٰ الدعوةِ[(١)].

لمَّا بيَّن أنواعَ التكاليفِ والشرائع والأحكام، ثم قال: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾، فكأنَّه تعالىٰ قال: إنَّ هؤلاء الجُهَّالَ مع ما تقدَّم مِن أنواعِ المبالغة في الإعذارِ والإنذارِ والترغيب والترهيب لم ينتفِعوا بشيءٍ منه، بل بقُوا مُصِرِّينَ علىٰ جهلِهم، مُجِدِّين علىٰ جهالاتِهم وضلالتهم؛ فلا تبالوا أيُّها المؤمنون بجهالتِهم وضلالتهم، بل كونوا منقادِينَ لتكاليفِ الله، مطيعين لأوامرِه ونواهيه؛ فلا يضُرُّكم ضلالتُهم وجهالتهم؛ فلهذا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[(٢)].

وجهُ اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها: التحذيرُ ممَّا يجب أن يُحذَرَ منه؛ وهو حالُ مَن تقدَّمتْ صِفتُه ممَّن ركَن في دِينِه إلىٰ تقليدِ آبائه وأسلافه[(٣)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ (١٠٦) ﴾

لمَّا خاطَب سبحانه أهلَ ذلك الزمانِ بأنَّه نصَب المصالحَ العامة؛ كالبيتِ الحرام، والشهرِ الحرام، وأشار بآيةِ البَحِيرة وما بعدها إلىٰ أنَّ أسلافَهم لا وفَّروا عليهم

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٧٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٤٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٤٢).

مالَهم، ولا نصَحوا لهم في دِينِهم، وختَم ذلك بقَهْرِه للعبادِ بالموت، وكشفِ الأسرار يومَ العَرْضِ بالحسابِ على النَّقِير والقِطْمير، والجليلِ والحقير: عقَّب ذلك بآيةِ الوصيَّة؛ إرشادًا منه سبحانه إلى ما يَكشِفُ سريرةَ مَن خانَ فيها؛ علمًا منه سبحانه أنَّ الوفاءَ في مثلِ ذلك يَقِلُّ، وحثًّا لهم على أن يَفعَلوا ما أمَر سبحانه به؛ لِيَنصَحوا لِمَن خلَّفوه بتوفيرِ المال، ويقتديَ بهم فيما ختَم به الآيةَ؛ مِن التقوى والسماع، والبُعْدِ مِن الفسقِ والنزاع، فقال تعالى مناديًا لهم بما عقَدوا به العهدَ بينهم وبينه مِن الإقرارِ بالإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾[1].

استُؤنِفت هذه الآيُ استئنافًا ابتدائيًّا لشَرْعِ أحكامِ التوثُّق للوصيَّة؛ لأنَّها مِن جملةِ التشريعات التي تضمَّنتْها هذه السورةُ؛ تحقيقًا لإكمالِ الدِّين، واستقصاءً لِما قد يحتاجُ إلى علمِه المسلمون[2].

لمَّا أمَر بحفظِ النفس في قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، أمَر بحفظِ المال في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ الأحكامِ المتعلِّقة بأمورِ دنياهم، إثرَ بيانِ الأحوالِ المتعلِّقة بأمور دِينِهم، وتصديرُه بحرفَيِ النداءِ والتنبيه؛ لإظهارِ كمال العناية بمضمونِه[4].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٥٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٨٨).

لمَّا قال في الآيةِ السابقة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾، قال هنا: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

﴿ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٧) ﴾

قوله: ﴿ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ ﴾ الآيةَ؛ أي: إن تبيَّنَ أنَّهما كتمَا أو بدَّلَا وحَنِثَا في يمينِهما، بطَلَتْ شهادتُهما؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ فرعٌ عن بطلانِ شهادتهما؛ فحذَف ما يعبِّرُ عن بطلانِ شهادتهما إيجازًا(١).

﴿ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا ﴾ الإثمُ هنا ليس الشيءَ المأخوذ، بل الذَّنْبُ الذي استحَقَّا به أن يكونَا مِن الآثمين الذين تبرَّأا أن يكونا منهم في قولِهما: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾(٢).

فإن اطُّلِع علىٰ أنَّهما قد خانَا في الشَّهادةِ المذكورة في الآيةِ السابقة، ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (١٠٨) ﴾

لمَّا تمَّ هذا علىٰ هذا الوجهِ الغريب، بيَّن سبحانه سِرَّه، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٨٨).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٩٧).

(٣) نظم الدرر (٦/ ٣٣٣).

ثم بيَّن وجهَ الحكمةِ والمصلحة المتقدِّمَ تفصيلُه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾(١).

لمَّا كان الشاهدانِ لهما حالتانِ: حالةٌ يُرتاب فيها إذا شَهِدا؛ فإذ ذاك يُحبَسانِ بعد الصلاةِ، ويَحلِفان اليمينَ المشروعة في الآيةِ: قوبلت هذه الحالةُ بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾؛ أي: على ما شَهِدا حقيقةً دون إنكارٍ، ولا تحريف، ولا كَذِبٍ، وحالةٌ يُطَّلع فيها إذا شَهِدا على إثمِهما بالشَّهادة، وكَذِبِهما في الحَلِف؛ فإذ ذاك لا يُلتفت إلى أيمانِهم، وتُرَدُّ على شهودٍ آخَرين، فعُمِل بأيمانهم؛ وذلك بعد حَلِفِهم وافتضاحِهم فيها بظهورِ كَذِبِهم: قوبلت هذه الحالةُ بقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾(٢).

ذلك الحُكْمُ الذي ذكَرْناه، والطريقُ الذي شرَعْناه: أقرَبُ إلى أن يأتوا بالشَّهادةِ على وجهها، وأن يأتوا بالشَّهادة لا على وجهِها، ولكنَّهم يخافون أن يَحلِفوا على ما ذكَروه؛ لخوفِهم مِن أن تُرَدَّ أيمانٌ على الورثةِ بعد أيمانهم، فيَظهَر كَذِبُهم، ويفتضِحون فيما بَيْنَ الناس(٣).

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ كلامٌ مستأنَف سِيقَ لبيانِ أنَّ ما ذُكِر مستتبِعٌ للمنافعِ، واردٌ على مقتضى الحكمةِ والمصلحة؛ أي: الحُكْمُ الذي تقدَّم تفصيلُه(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٢٨٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٥٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٩٢).

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

لمَّا كان فيها إقامةُ الشهود، وحَبْسُهم عن مقاصدِهم حتىٰ يفرُغوا مِن هذه الواقعةِ المبحوثِ فيها عن خفايا متعلِّقةٍ بالموتِ، والتغليظُ بالتحليفِ بعد صلاةِ العصر، وكانت ساعةً يجتمعُ فيها الناسُ وفريقًا الملائكةِ المتعاقِبينَ فينا ليلًا ونهارًا، مع أنَّها ساعةُ الأصيلِ المؤذِنةُ بهجومِ الليل، وتقوُّضِ النهار حتىٰ كأنَّه لم يكُنْ، ورجوعِ الناس إلىٰ منازلِهم، وتَرْكِهم لمعايشِهم، وكانت عادتُه سبحانه بأنَّه يذكُرُ أنواعًا مِن الشرائعِ والتكاليف، ثم يُتبِعُها إمَّا بالإلهياتِ، وإمَّا بشرحِ أحوال الأنبياء، وإمَّا بشرحِ أحوال القيامة؛ ليصيرَ ذلك مؤكِّدًا لِما تقدَّم مِن التكاليف، ولا ينتقلُ مِن فنٍّ إلىٰ آخرَ إلا بغايةِ الإحكام في الربط: عقَّبها تعالىٰ بقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١).

جملةُ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ متصل بقوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وما بينهما جُمَلٌ معترضة، نشأ بعضُها عن بعضٍ، فعاد الكلامُ الآن إلىٰ أحوالِ الذين اتَّبَعوا عيسىٰ عليه السلام، فبدَّل كثيرٌ منهم تبديلًا بلَغ بهم إلىٰ الكفرِ، ومضاهاةِ المشركين؛ للتذكيرِ بهَوْلٍ عظيم مِن أهوالِ يوم القيامة، تكونُ فيه شَهادةُ الرُّسلِ علىٰ الأمم، وبراءتُهم ممَّا أحدَثه أُمَمُهم بعدهم في الدِّين ممَّا لم يأذَنْ به اللهُ، والتخلُّص مِن ذلك إلىٰ شَهادةِ عيسىٰ عليه السلام علىٰ النصارىٰ بأنَّه لم يأمُرْهم بتأليهِ وعبادته(٢).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٩٨).

لمَّا أخبَر تعالىٰ بالحُكْمِ في شاهدَيِ الوصيَّة، وأمَر بتقوىٰ اللهِ والسمعِ والطاعة: ذكَّر بهذا اليومِ المَهُول المَخُوف؛ وهو يومُ القيامة؛ فجمَع بذلك بَيْنَ فضيحةِ الدنيا وعقوبةِ الآخرة لِمَن حرَّف الشَّهادةَ، ولِمَن لم يتَّقِ اللهَ ولم يَسمَع[(١)].

اعلَمْ أنَّ عادةَ الله تعالىٰ جاريةٌ في هذا الكتابِ الكريم أنَّه إذا ذكَر أنواعًا كثيرة مِن الشرائعِ والتكاليف والأحكام، أتبَعها إمَّا بالإلهياتِ، وإمَّا بشرحِ أحوال الأنبياء، أو بشرحِ أحوال القيامةِ؛ ليصيرَ ذلك مؤكِّدًا لِما تقدَّم ذِكْرُه مِن التكاليفِ والشرائع؛ فلا جرَمَ لمَّا ذكَر فيما تقدَّم أنواعًا كثيرةً مِن الشرائعِ، أتبَعها بوصفِ أحوال القيامة أولًا، ثم ذكَر أحوالَ عيسىٰ عليه السلام[(٢)].

يقال: ما وجهُ اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها؟ فالجواب: أنَّه اتصالُ الزَّجْرِ عن الإظهارِ خلافَ الإبطانِ في وصيَّةٍ أو غيرِها؛ ممَّا يُنبِئُ أنَّ المجازِيَ عليه عالِمٌ به[(٣)].

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾

لمَّا كان سؤالُه سبحانه للرُّسلِ عن الإجابةِ متضمِّنًا لتبكيتِ المبطِلين وتوبيخِهم، وكان أشَدَّ الأُمَمِ افتقارًا إلىٰ التوبيخِ أهلُ الكتابِ؛ لأنَّ تمرُّدَهم تعدَّىٰ إلىٰ رتبةِ الجلال؛ بما وصَفوه سبحانه به مِن اتخاذِ الصاحبةِ والولد، ومِن ادعاءِ الإلهيَّة

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٥٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٦٠).

لعيسىٰ عليه السلام لِما أظهَر مِن الخوارقِ التي دعا بها إلىٰ اللهِ، مع اقترانِها بما يدلُّ علىٰ عبوديتِه ورسالته؛ لئلا يُهتضَمَ حقُّه، أو يُغلَىٰ فيه، مع مشاركتِهم لغيرِهم في أذىٰ الرُّسلِ عليهم السلام بالتكذيبِ وغيره، وكان في الآيةِ السالفة ذِكْرُ الآباءِ، وما آثَروا للأبناء: ذكَر أمرَ عيسىٰ عليه السلام بقولِه مُبدَلًا مِن قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ﴾، معبِّرًا بالماضي؛ تذكيرًا بما لذلك اليومِ مِن تحتُّمِ الوقوع، وتصويرًا لعظيمِ تحقُّقه، وتنبيهًا علىٰ أنَّه لقوَّةِ قُرْبِه كأنَّه قد وقَع ومضىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[(١)].

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ ظرفٌ، هو بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ بدَلَ اشتمالٍ؛ فإنَّ يومَ الجَمْعِ مشتمِلٌ علىٰ زمنِ هذا الخطابِ لعيسىٰ عليه السلام؛ ولذلك لم تُعطَفْ هذه الجملةُ علىٰ التي قبلها. والمقصودُ مِن ذِكْرِ ما يقال لعيسىٰ عليه السلام يومئذٍ هو تقريعُ اليهودِ والنصارىٰ، الذين ضَلُّوا في شأنِ عيسىٰ عليه السلام بَيْنَ طرَفَيْ إفراطِ بُغْضٍ، وإفراطِ حُبٍّ[(٢)].

يحتمِلُ أن يكونَ ﴿إِذْ﴾ بدلًا مِن قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّه يوبِّخُ الكافرين يومئذٍ بسؤال الرُّسلِ عن إجابتهم، وبتعدُّدِ ما أظهَر علىٰ أيديهم مِن الآياتِ العِظام، فكذَّبوهم، وسمَّوْهم سحرةً، وجاوَز واحدٌ التصديقَ إلىٰ أن اتخذوهم آلهةً؛

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٠٠).

كما قال بعضُ بني إسرائيلَ فيما أُظهِرَ علىٰ يدِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن البينات: هذا سحرٌ مبين، واتخَذه بعضُهم وأمَّه إلهَينِ(١).

اعلَمْ أنَّا بيَّنَّا أنَّ الغرضَ مِن قوله تعالىٰ للرُّسلِ: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ توبيخُ مَن تمرَّدَ مِن أُمَمِهم، وأشَدُّ الأممِ افتقارًا إلىٰ التوبيخِ والمَلامة: النصارىٰ، الذين يزعُمون أنَّهم أتباعُ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ طَعْنَ سائرِ الأمم كان مقصورًا علىٰ الأنبياء، وطَعْنُ هؤلاء الملاعينِ تعدَّىٰ إلىٰ جلالِ الله وكبريائه؛ حيث وصَفوه بما لا يليقُ بعاقلٍ أن يصفَ الإلهَ به؛ وهو اتخاذُ الزوجةِ والولد؛ فلا جرَمَ ذكَر اللهُ تعالىٰ أنَّه يعدِّدُ أنواعَ نِعَمِه علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بحضرةِ الرُّسلِ واحدةً فواحدة، والمقصودُ منه: توبيخُ النصارىٰ وتقريعُهم علىٰ سُوءِ مقالتِهم؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن تلك النِّعَمِ المعدودة علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تدلُّ علىٰ أنَّه عبدٌ، وليس بإلهٍ(٢).

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ شروعٌ في بيانِ ما جرَىٰ بَيْنَه تعالىٰ وبين واحدٍ مِن الرُّسلِ المجموعين مِن المفاوَضةِ علىٰ التفصيل، إثْرَ بيانِ ما جرَىٰ بَيْنَه تعالىٰ وبين الكلِّ علىٰ وجه الإجمال؛ ليكونَ ذلك كالأُنْموذجِ لتفاصيلِ أحوالِ الباقين، وتخصيصُ شأنِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبيانِ؛ تفصيلًا مِن بينِ شؤونِ سائر الرُّسلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مع دلالتِها علىٰ كمال هَوْلِ ذلك اليومِ، ونهايةِ سُوءِ حالِ المكذِّبين بالرُّسل: لِما أنَّ شأنَه عَلَيْهِ السَّلَامُ متعلِّقٌ بكِلا الفريقينِ مِن أهل الكتاب، الذين نُعِيتْ عليهم في السُّورةِ الكريمة جناياتُهم؛ فتفصيلُه أعظَمُ عليهم، وأجلَبُ لحسرتِهم وندامتهم، وأفَتُّ في أعضادِهم، وأدخَلُ في صرفِهم عن غَيِّهم وعنادِهم(٣).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٠٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٥٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٩٤).

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

يجوز أن يكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فيكونَ مِن جملةِ ما يقوله اللهُ لعيسىٰ عليه السلام يومَ يَجمَع الرُّسلَ[1].

ولمَّا بيَّن تعالىٰ النِّعَمَ اللازمة، تأثَّرَها[2] بنِعَمِه عليه المتعديةِ، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

لمَّا كان مِن المقصودِ بذِكْرِ معجِزات عيسىٰ عليه السلام تنبيهُ الكافرِ ليؤمنَ، والمؤمنِ ليزدادَ إيمانًا، وتسليةُ النبيِّ ﷺ، وتوبيخُ اليهودِ المدَّعين أنَّهم أبناءٌ وأحبَّاءُ، إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا أراد اللهُ: قُرِّعتْ به الأسماعُ، ولم يَتعلَّقْ بما يجيبُ به يومَ القيامة عند أمرِه بذلك غرَضٌ فطُوِيَ، ولمَّا كان أجَلُّ المقاصد تأديبَ هذه الأمَّةِ لنبيِّها ﷺ؛ لتُجِلَّه عن أن تَبدأَه بسؤال، أو تقترحَ عليه شيئًا في حالٍ مِن الأحوال: ذكَر لهم شأنَ الحواريِّين في اقتراحِهم بعد ما تقدَّم مِن امتداحِهم بِعَدِّهم في عِدادِ أُولي الوحيِ، ومبادرتِهم إلىٰ الإيمانِ امتثالًا للأمرِ، ثم إلىٰ الإشهادِ علىٰ سبيل التأكيد بتمامِ الانقياد، وسَلْبِ الاختيار، فقال معلقًا بـ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ مقرِّبًا لزمنِ تعنُّتِهم مِن زمنِ إيمانهم، مذكِّرًا

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٠٣).

(٢) أي: أتبعها وعطف عليها.

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٢٩٣).

لهـذه الأمَّـة بحفظِهـا علـىٰ الطاعـة، ومبكِّتًـا لبنـي إسـرائيلَ بكثـرةِ تقلُّـبِهم، وعـدمِ تماسُكِهم؛ إبعادًا لهم عن درجةِ المحبَّةِ، فضلًا عـن البُنـوَّة، وهـذه القصـةُ قبـل قصـةِ الإيحاء إليهم، فتكونُ ﴿ إِذْ ﴾ هذه ظرفًا لتلك، فيكونُ الإيحاءُ إليهم بالأمرِ بالإيمـان في وقتِ سؤالهم هذه بعد ابتدائِه، ويكون فائدتُه حِفْظَهم مِن أن يَسألوا آيةً أخرىٰ كما سألوا هذه بعدما رأَوْا منه ﷺ مِن الآيـاتِ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ يجـوز أن تكـونَ مِـن تمـامِ الكـلام الـذي يكلِّـمُ اللهُ بـه عيسـىٰ ﷺ يـومَ يَجمَـعُ الرُّسـلَ، فيكـونَ ﴿ إِذْ ﴾ ظرفًـا متعلِّقًـا بفعـل ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾، فيكونَ ممَّا يذكِّرُ اللهُ به عيسىٰ ﷺ يومَ يَجمَع الرُّسلَ، فحُكِيَ علىٰ حسَبِ حصولِه في الدنيا، وليس ذلك بمقتضٍ أنَّ سؤالَهم المائدةَ حصَل في أولِ أوقات إيمـانهم، بـل في وقتٍ آخرَ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾؛ فإنَّ قولهم: ﴿ءَامَنَّا ﴾ قد يتكـرَّرُ منهم بمناسباتٍ؛ كما يكونُ عند سماعِهم تكذيبَ اليهودِ عيسىٰ ﷺ، أو عندما يشـاهِدون آياتٍ علىٰ يدِ عيسـىٰ ﷺ، أو يقولونـه لإعـادةِ استحضـارِ الإيمـان؛ شـأن الصِّـدِّيقين الذين يحاسِبون أنفسَهم، ويصقُلون إيمانَهم[(٢)].

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ اعـتراضٌ، لمَّـا وصَـف حـالَ قـولِ الله لعيسـىٰ يـومَ القيامـة، وتضمَّن الاعتراضُ إخبارَ محمَّدٍ ﷺ وأمَّتِه بنازلةِ الحواريين في المائدة؛ إذ هي مثالٌ نافع لكلِّ أمَّة مع نبيِّها[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٠٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٠٨).

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ بعضِ ما جرَىٰ بَيْنَه عليه السلام وبين قومِه، منقطِعٌ عمَّا قبله؛ كما يُنبِئُ عنه الإظهارُ في موقعِ الإضمار[1].

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

لمَّا كانت المعجِزاتُ إنَّما تُطلَبُ لإيمانِ مَن لم يكُنْ آمَن، وكان في هذا الجوابِ أتَمُّ زَجْرٍ لهم: تشوَّفَ السامعُ إلىٰ جوابهم، فقيل: لم ينتهوا؛ بل ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2].

نهاهم عن طلبِ المعجِزات؛ أي: إن كنتم مؤمِنين، فقد حصَل إيمانُكم، فما الحاجةُ إلىٰ المعجِزة؟ فأجابوه عن ذلك بأنَّهم ما أرادوا ذلك لضَعْفٍ في إيمانهم؛ إنَّما أرادوا التيمُّنَ بأكلِ طعامٍ نزَل مِن عند الله إكرامًا لهم؛ ولذلك زادوا ﴿مِنْهَا﴾، ولم يقتصِروا علىٰ ﴿أَن نَّأْكُلَ﴾؛ إذ ليس غرَضُهم مِن الأكل دَفْعَ الجوعِ، بل الغرضُ التشرُّفُ بأكلٍ مِن شيءٍ نازل مِن السماء[3].

لمَّا أمَرهم عيسىٰ عليه السلام بتقوىٰ الله منكِرًا عليهم ما تقدَّم مِن كلامِهم، صرَّحوا بسببِ طلبِ المائدة، وأنَّهم يريدون الأكلَ منها؛ وذلك للشَّرَفِ لا للشِّبَع، واطمئنانِ قلوبهم بسكونِ الفِكر، إذا عايَنوا هذا المُعجِزَ العظيم النازل مِن السماء، وعلم الضرورة والمشاهدة بصدقِه، فلا تعترِضُ الشُّبَهُ اللاحقةُ في علمِ الاستدلال، وكينونتِهم مِن المشاهدين بهذه الآيةِ، الناقلين لها إلىٰ غيرِهم، القائمين بهذا الشرعِ، أو مِن الشاهدين للهِ بالوَحْدانيَّةِ، ولك بالنبوَّة[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٩٦).

(٢) نظم الدرر (٦/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٠٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤١١).

لمَّا طلَبوا ذلك، قال عيسىٰ لهـم: إنَّـه قـد تقـدَّمتِ المعجِزاتُ الكثيـرة؛ فـاتَّقُوا اللهَ في طلبِ هذه المعجزةِ بعد تقدُّمِ تلك المعجزاتِ القاهرة، فأجابوا وقالوا: إنَّـا لا نطلُـبُ هذه المائدةَ لمجردِ أن تكونَ معجزةً، بل لمجموعِ أمورٍ كثيـرة: أحـدها: أنَّـا نريـد أن نأكلَ منها؛ فإنَّ الجوعَ قد غلَبَنا، ولا نجدُ طعامًا آخرَ، وثانيها: أنَّا وإن علِمْنا قدرةَ الله تعالىٰ بالدليل، ولكنَّا إذا شاهَدْنا نزولَ هذه المائدةِ، ازداد اليقينُ، وقَوِيت الطُّمأنينة، وثالثها: أنَّا وإن عَلِمنا بسائرِ المعجِزات صِدْقَك، ولكـن إذا شـاهَدْنا هـذه المعجـزةَ، ازداد اليقينُ والعِرْفان، وتأكَّدت الطُّمأنينة، ورابعها: أنَّ جميعَ تلك المعجزاتِ التـي أورَدْتَها كانت معجزاتٍ أرضيةً، وهذه معجزةٌ سماوية، وهـي أعجَـبُ وأعظـم؛ فـإذا شاهَدْناها، كنَّا عليها مِن الشاهدين، نَشهَد عليها عند الـذين لـم يحضُـروها مِـن بني إسرائيلَ، ونكونُ عليها مِن الشاهدين للهِ بكمالِ القدرة، ولك بالنبوَّة[(١)].

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾

مِن تمامِ الكلام الذي يُلقِيه اللهُ علىٰ عيسىٰ عليه السلام يومَ يَجمَـعُ اللهُ الرُّسـلَ كانـت هـذه الجملةُ -وهي: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ﴾ إلخ ...- معترضةً بـين جملةِ ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، وجملـة ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ الآيةَ[(٢)].

لمَّا سألوا المائدةَ، ذكَروا في طلبِهـا أغراضًـا؛ فقـدَّموا ذِكْـرَ الأكـلِ، فقـالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾، وأخَّروا الأغراضَ الدِّينية الرُّوحانية؛ فأمَّا عيسىٰ عليه السلام، فإنَّه لمَّا طلَـب المائدةَ وذكَر أغراضَه فيها، قدَّم الأغراضَ الدِّينية، وأخَّر غرضَ الأكـلِ؛ حيـث قـال:

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٠٨).

﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾، وعند هذا يلُوحُ لك مراتبُ درجاتِ الأرواح في كون بعضِها رُوحانيَّةً، وبعضِها جسمانيةً(١).

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لمَّا رأىٰ عليه السلام أنَّ لهم غرضًا صحيحًا في ذلك، وأنَّهم لا يُقلِعون عنه: أزمَع علىٰ استدعائِها واستنزالها، وأراد أن يُلزِمَهم الحُجَّةَ بكمالِها(٢).

فلمَّا سَمِع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ذلك، وعَلِم مقصودَهم: أجابهم إلىٰ طلَبِهم في ذلك، فقال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٣).

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾

جملةُ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾ جوابُ دعاءِ عيسىٰ عليه السلام؛ فلذلك فُصِلت علىٰ طريقةِ المحاوَرة. وأُكِّد الخبرُ بـ «إنَّ» تحقيقًا للوعد. والمعنىٰ: إنِّي منزِّلُها عليكم الآنَ؛ فهو استجابةٌ، وليس بوعدٍ(٤).

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾

مِن الأمر الجليِّ أنَّ عيسىٰ عليه السلام بعد أمرِ الله تعالىٰ له بذِكْرِ هذه النِّعَمِ يقومُ في ذلك

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٩٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٤٩).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١١١).

الجَمْعِ، فيذكُرُها، ويذكُرُ المقصودَ مِن التذكير بها؛ وهو الثناءُ على المُنعِم بها بما يَليق بجلاله، فيَحمَد ربَّه تعالىٰ بمحامدَ تليقُ بذلك المقامِ في ذلك الجَمْعِ؛ فمِن أنسَبِ الأمور حينئذٍ سؤالُه - وهو المحيطُ علمًا بمكنوناتِ الضمائر، وخفيَّاتِ السرائر، إثْرَ التهديد لِمَن يكفر - عمَّا كفَر به النصارىٰ؛ فلذلك قال تعالىٰ عاطفًا علىٰ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[(١)].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾؛ فهو ما يقولُه اللهُ يوم يَجمَع الرُّسلَ، وليس ممَّا قاله في الدنيا؛ لأنَّ عبادةَ عيسىٰ ﷺ حدَثتْ بعد رفعِه، ولقولِه: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ فقد أجمَع المفسرون علىٰ أنَّ المرادَ به يومُ القيامة، وأنَّ قولَه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قولٌ يقولُه يومَ القيامة. وهذا مبدأُ تقريعِ النصارىٰ بعد أن فرَغ مِن تقريعِ اليهود؛ مِن قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ إلىٰ هنا[(٢)].

هذا معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾، وعلىٰ هذا القولِ، فهذا الكلامُ إنَّما يذكُرُه لعيسىٰ يومَ القيامة، ومنهم مَن قال: إنَّه تعالىٰ قال هذا الكلامَ لعيسىٰ ﷺ حين رفعه إليه، وتعلَّقَ بظاهرِ قولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَإِذْ﴾ تُستعمل للماضي، والقولُ الأول أصحُّ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ عقَّب هذه القصةَ بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ والمرادُ به يومُ القيامة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١١٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٥).

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اعلَمْ أنَّا بيَّنَّا أنَّ الغرضَ مِن قولِه تعالىٰ للرُّسلِ: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ توبيخُ مَن تمرَّدَ مِن أُمَمِهم. وأشَدُّ الأممِ افتقارًا إلىٰ التوبيخِ والملامة: النصارىٰ، الذين يزعُمون أنَّهم أتباعُ عيسىٰ عليه السلام؛ لأنَّ طَعْنَ سائرِ الأمم كان مقصورًا علىٰ الأنبياء، وطعنُ هؤلاء المُلحِدةِ تعدَّىٰ إلىٰ جلالِ الله وكبريائه؛ حيث وصَفوه بما لا يَليقُ أن يوصَفَ مقامُه به؛ وهو اتخاذُ الزوجةِ والولد؛ فلا جرَمَ ذكَر تعالىٰ أنَّه يعدِّدُ أنواعَ نِعَمِه علىٰ عيسىٰ بحضرةِ الرُّسلِ واحدةً فواحدة؛ إشعارًا بعبوديتِه؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن تلك النِّعَم المعدودةِ عليه تدلُّ علىٰ أنَّه عبدٌ، وليس بإلهٍ، ثم أتبَع ذلك باستفهامِه؛ ليَنطِقَ بإقرارِه عليه السلام علىٰ رؤوسِ الأشهاد بالعبوديةِ، وأمرِه لهم بعبادةِ الله عز وجل؛ إكذابًا لهم في افترائِهم عليه، وتثبيتًا للحُجَّةِ علىٰ قومه؛ فهذا سِرُّ سؤاله تعالىٰ له، مع علمِه بأنَّه لم يقُلْ ذلك، وكلُّ ذلك لتنبيهِ النصارىٰ الذين كانوا في وقتِ نزولِ الآية، ومَن تأثَّرهم(١)، علىٰ قُبْحِ مقالتِهم، وركاكةِ مذهبِهم واعتقادهم(٢).

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

لمَّا نفَىٰ عن نفسِه ما يستحِقُّ النفيَ ودلَّ عليه، أثبَت ما قاله لهم علىٰ وجهٍ مصرِّحٍ بنفيِ غيرِه؛ ليكونَ ما نُسِب إليه مِن دعوىٰ الإلهيَّة منفيًّا مرتين: إشارةً، وعبارةً، فقال معبِّرًا عن الأمرِ بالقولِ مطابَقةً للسؤال، وفسر بالأمرِ بيانًا لأنَّ كلَّ ما قاله مِن مباحٍ أو غيرِه دائرٌ علىٰ الأمر مِن حيث الاعتقاد؛ بمعنىٰ أنَّ المخاطَبَ بما قاله الرسولُ مأمورٌ بأن يعتقدَ فيه أنَّه بتلك المنزلةِ، لا يجوز أن يعتقدَ فيه أنَّه فوْقَها ولا دُونَها، يعبُدُ اللهَ

(١) أي: تبعهم.

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٢٩٩).

تعالىٰ بذلك: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

بعد أن تبرَّأ مِن أن يكونَ أمَر أمَّتَه بما اختلَقوه، انتقَل فبيَّن أنَّه أمَرهم بعكسِ ذلك حسبما أمَره اللهُ تعالىٰ، فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾؛ فقوله: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾ ارتقاءٌ في الجواب؛ فهو استئنافٌ بمنزلةِ الجواب الأول؛ وهو ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ إلخ ... صرَّح هنا بما قاله؛ لأنَّ الاستفهامَ عن مقاله. والمعنىٰ: ما تجاوزتُ فيما قلتُ حدَّ التبليغ لِما أمَرتَني به؛ فالموصولُ وصِلتُه هو مقُولُ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾، وهو مفرَدٌ دالٌّ علىٰ جُمَلٍ؛ فلذلك صحَّ وقوعُه منصوبًا بفعلِ القول[2].

ثم قال تعالىٰ حكايةً عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾، ﴿أَنِ ﴾ مفسِّرةٌ، والمفسَّرُ هو الهاءُ في ﴿بِهِۦٓ ﴾، الراجعُ إلىٰ القولِ المأمور به؛ والمعنىٰ: ما قلتُ لهم إلا قولًا أمَرتَني به، وذلك القولُ هو أن أقولَ لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[3].

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما صدَر عنه، قد أُدرِجَ فيه عدمُ صدورِ القولِ المذكور عنه علىٰ أبلَغِ وجهٍ وآكَدِه؛ حيث حكَم بانتفاءِ صدورِ جميع الأقوال المغايِرة للمأمورِ به؛ فدخَل فيه انتفاءُ صدورِ القول المذكور دخولًا أوليًّا؛ أي: ما أمَرتُهم إلا بما أمَرتَني به؛ وإنَّما قيل: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾ نزولًا علىٰ قضيةِ حُسْنِ الأدب، ومراعاةً لِما ورَد في الاستفهام[4].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٠١).

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

لمَّا كان هذا الذي سلَف كلُّه -سؤالًا وجوابًا وإخبارًا- حمدًا للهِ تعالىٰ وثناءً عليه بما هو أهلُه؛ بالتنزيهِ له، والاعترافِ بحقِّه، والشَّهادة له بعلمِ الخفايا، والقدرةِ، والحكمة، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ الجلالِ والجمال، وكان هذا السؤالُ يُفهِمُ إرادةَ التعذيب للمسؤولِ عنهم مشيرًا إلىٰ الشفاعةِ فيهم علىٰ وجهِ الحمد لله ﷻ، والثناءِ الجميل عليه؛ لأنَّ العذابَ -ولو للمطيع- عدلٌ، والعفوَ عن المعاصي -بأيِّ ذنبٍ كان- فضلٌ مطلقًا، وغفرانَ الشركِ ليس ممتنعًا بالذاتِ: قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١).

قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فوَّض أمرَهم إلىٰ اللهِ؛ فهو أعلَمُ بما يجازيهم به؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إمساكٍ عن إبداءِ رغبةٍ؛ لشدةِ هَوْلِ ذلك اليومِ، وغايةُ ما عرَّض به عيسىٰ أنَّه جوَّز المغفرةَ لهم؛ رحمةً منه بهم(٢).

فيه وجهان: الوجهُ الأول: لمَّا قال لعيسىٰ عليه السلام: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، عُلِم أنَّ قومًا مِن النصارىٰ حكَوْا هذا الكلامَ عنه، والحاكي لهذا الكفرِ عنه لا يكون كافرًا، بل يكونُ مذنبًا حيث كذَب في هذه الحكايةِ، وغفرانُ الذنبِ جائزٌ؛ فلهذا المعنىٰ طلَب المغفرةَ مِن الله تعالىٰ. الوجه الثاني: أنَّ القومَ لمَّا قالوا هذا الكفرَ، فعيسىٰ عليه السلام جوَّز أن يكونَ بعضُهم قد تاب عنه، فقال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾، عَلِمتَ أنَّ أولئك المعذَّبين ماتوا علىٰ الكفرِ؛ فلك أن تعذِّبَهم بسببِ أنَّهم عبادُك، وأنت قد حكَمتَ علىٰ كلِّ مَن كفَر مِن عبادك بالعقوبة، ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ عَلِمتَ أنَّهم تابوا عن الكفرِ، وأنت حكَمتَ علىٰ مَن تاب عن الكفرِ بالمغفرة(٣).

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٧).

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾

لمَّا انقضىٰ جوابُه عليه السلام علىٰ هذا الوجهِ الجليل، تشوَّفَ السامعُ إلىٰ جوابِ الله له، فقال تعالىٰ مشيرًا إلىٰ كونِ جوابه حقًّا، ومضمونه صدقًا، منبِّهًا علىٰ مدحِه، حاثًّا علىٰ ما بُنِيتْ عليه السورةُ مِن الوفاءِ بالعقود: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

جوابٌ عن قولِ عيسىٰ عليه السلام؛ فلذلك فُصِلت الجملةُ علىٰ طريقةِ الحوار[2].

﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ بالرفعِ علىٰ أنَّ ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و ﴿يَوْمُ﴾ خبره، والجملةُ محكيَّةٌ بـ﴿ قَالَ ﴾، وهي في موضعِ المفعول به لـ ﴿ قَالَ ﴾؛ أي: هذا الوقتُ وقتُ نفعِ الصادقين، وفيه إشارةٌ إلىٰ صِدْقِ عيسىٰ عليه السلام[3].

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، خُتِم به حكايةُ ما حُكِي ممَّا يقع يومَ يَجمَعُ اللهُ الرُّسلَ عليهم الصلاة والسلام، وأشير إلىٰ نتيجتِه ومآله؛ أي: يقولُ الله تعالىٰ يومئذٍ عَقِيبَ جوابِ عيسىٰ عليه السلام، مشيرًا إلىٰ صدقِه في ضمنِ بيانِ حال الصادقين الذين هو في زُمْرتِهم[4].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١١٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٢١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٠٢).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ۝١٢٠﴾

لمَّا كان هذا الذي أباحه لهم وأباحهم إيَّاه لا يكونُ إلا بأسبابٍ لا تسَعُها العقولُ، ولا تكْتنِهُ بفروعٍ ولا أصول: علَّل إعطاءَه إيَّاه وسهولتَه لديه بقولِه -مشيرًا إلىٰ أنَّ كلَّ ما ادُّعِيتْ فيه الإلهيَّةُ ممَّا تقدَّم في هذه السورةِ وغيرِها بعيدٌ عن ذلك؛ لأنَّه مِلْكُه، وفي مُلْكِه، وتحتَ قَهْرِه-: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾[(١)].

تذييلٌ مؤذِنٌ بانتهاءِ الكلام؛ لأنَّ هذه الجملةَ جمَعتْ عبوديةَ كلِّ الموجودات لله تعالىٰ؛ فناسَبتْ ما تقدَّم مِن الرد علىٰ النصارىٰ، وتضمَّنتْ أنَّ جميعَها في تصرُّفِه تعالىٰ؛ فناسَبتْ ما تقدَّم مِن جزاء الصادقين. وفيها معنىٰ التفويضِ لله تعالىٰ في كلِّ ما يَنزِل؛ فآذَنتْ بانتهاءِ نزول القرآن؛ علىٰ القولِ بأنَّ سورةَ المائدة آخِرُ ما نزَل، وباقترابِ وفاةِ رسول الله ﷺ؛ لِما في الآيةِ مِن معنىٰ التسليم لله، وأنَّه الفعَّالُ لِما يريد[(٢)].

لمَّا ادَّعت النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام وأمِّهِ الألوهيَّةَ، اقتضت الدعوىٰ أن يكونا مالِكَينِ قادرَينِ، فرَدَّ اللهُ عليهم[(٣)].

هذا جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: مَن يُعطيهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؟ فقيل: الذي له ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٦/ ٣٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١١٩).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٢٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٩).

سورة الأنعام

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

لمَّا قرَّر سبحانه أنَّه هو الذي خلَق السماواتِ والأرضَ اللَّتينِ منهما وفيهما الأصنامُ والكواكب والأجرام التي عنها النُّورُ والظُّلمة؛ فثبَت وجودُه على ما هو عليه مِن الإحاطةِ بأوصافِ الكمال التي أثبَتها الحمدُ؛ فبطَلتْ جميعُ مذاهبِهم، فعجَّب منهم بكونِهم يَعدِلون به غيرَه: أتبَع ذلك اختصاصَه بخَلْقِ هذا النوعِ البشري؛ وهو - مع ما فيه مِن الشواهدِ له بالاختصاصِ بالحمد، والردِّ على المُطرِين لعيسى عليه السلام، المخلوقِ مِن الطِّينِ بخَلْقِ أبيهم آدمَ عليه السلام - مؤكِّدٌ لإبطالِ مذهب الثَّنَويةِ؛ وذلك أنَّهم يقولون: إنَّ النارَ خالقُ الخير، والظُّلمةَ خالقةُ الشر؛ فإذا ثبَت أنَّه الخالقُ لنوعِ الآدميِّين، الذين منهم الخيرُ والشر، مِن شيءٍ واحد؛ وهو الطينُ الذي ولَّد منه المَنِيَّ، الذي جعَل منه الأعضاءَ المختلِفة في اللونِ والصورة والشكل؛ مِن القلب، وغيرِه مِن الأعضاءِ البسيطة؛ كالعِظام والغضاريف، والرِّباطات والأوتار: ثبَت أنَّ خالِقَ أوصافِهم مِن الخيرِ والشر واحدٌ قدير عليم؛ لأنَّ توليدَ الصفاتِ المختلفة مِن المادة المتشابهة لا يكون إلا ومُبدِعُه واحدٌ مختار، لا اثنانِ، وهو الذي خلَق الأرضَ

التي منها أصلُهم، وهو اللهُ الذي اختَصَّ بالحمد، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[1].

استئنافٌ لغرضٍ آخرَ للتعجيبِ مِن حالِ المشركين إذ أنكَروا البعث؛ فإنَّه ذكَّرهم ابتداءً بخَلْقِ السماواتِ والأرضِ، وعجَّب مِن حالِهم في تسويتِهم ما لم يخلُقِ السماواتِ ولا الأرضَ باللهِ تعالىٰ في الإلهيَّة، ثم ذكَّرهم بخَلْقِهم الأولِ، وعجَّب مِن حالِهم: كيف جمَعوا بَيْنَ الاعترافِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُهم الخَلْقَ الأول؛ فكيف يمترون في الخَلْقِ الثاني؟![2].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ علىٰ جهةِ الخطاب، هو التفاتٌ مِن الغائبِ الذي هو قولُه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وإن كان الخَلْقُ وقضاءُ الأجلِ ليس مختصًّا بالكفار؛ إذ اشترك فيه المؤمنُ والكافر، لكنَّه قصَد به الكافرَ؛ تنبيهًا له علىٰ أصلِ خَلْقِه، وقضاءِ الله تعالىٰ عليه وقُدْرتِه؛ وإنَّما قلت: إنَّه مِن بابِ الالتفات؛ لأنَّ قولَه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ لا يمكِنُ أن يندرجَ في هذا الخطابِ مَن اصطفاه اللهُ بالنبوَّة والإيمان[3].

لمَّا استدلَّ بخَلْقِه السماواتِ والأرضَ، وتعاقُبِ الظُّلمات والنُّور، علىٰ وجودِ الخالق الحكيم: أتبَعه بالاستدلالِ بخَلْقِه الإنسانَ علىٰ إثباتِ هذا المطلوب، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، والمشهورُ أنَّ المرادَ منه أنَّه تعالىٰ خلَقهم مِن آدمَ عليه السلام، وآدمُ كان مخلوقًا مِن طينٍ[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٧، ٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٢٩).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٣٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٧٩).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ كفرِهم بالبعثِ، والخطابُ وإن صحَّ كونُه عامًّا، لكنَّه هنا خاصٌّ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كما يدلُّ عليه الخطابُ الآتي؛ ففيه التفاتٌ، والنُّكتةُ فيه زيادةُ التشنيعِ والتوبيخ، وتخصيصُ خَلْقِهم بالذِّكر مِن بينِ سائرِ أدلة صحةِ البعث، مع أنَّ ما تقدَّم مِن أظهَرِ أدلتِه؛ لِما أنَّ دليلَ الأنفس أقرَبُ إلى الناظرِ مِن دليلِ الآفاق الذي في الآيةِ السابقة، ومعنى خَلْقِ المخاطَبين مِن طينٍ: أنَّه ابتداءُ خَلْقِهم منه؛ فإنَّه المادةُ الأولى؛ لِما أنَّه أصلُ آدمَ عليه السلام، وهو أصلُ سائرِ البشر، ولم ينسُبْ سبحانه الخَلْقَ إليه عليه السلام مع أنَّه المخلوقُ منه حقيقةً، وكفايةُ ذلك في الغرضِ الذي سِيقَ له الكلامُ توضيحًا لمنهاج القياس، ومبالَغةً في إزاحة الشُّبهةِ والالتباس[(١)].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ٣﴾

لمَّا كان علمُ جميعِ أحوال المخلوق دالًّا على أنَّ العالِمَ بها هو خالِقُه، وأنَّ مَن ادعى أنَّ خالِقَه عاجزٌ عن ضبطِ مملكته؛ عن كشفِ غيرِه لعَوْراتها وعلمِ ما لا يَعلَمُه هو منها، فلم يكُنْ إلهًا، وكان الإلهُ هو العالِمَ وحده، وكان المحيطُ العلمِ لا يعسُرُ عليه تمييزُ الترابِ مِن التراب، وكان ﷺ يُخبِرُهم عن اللهِ مِن مغيَّبات أسرارِهم، وخفايا أخبارهم، ممَّا يَقضُون منه العَجَبَ، ويَعلَمون منه إحاطةَ العلمِ، حتى قال أبو سفيانَ بنُ حربٍ يومَ الفتح: «لو تكلَّمتُ، لأخبَرَتْ عنِّي هذه الحَصْباءُ»[(٢)]؛ قال تعالى عاطفًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾، دالًّا على الوَحْدانيةِ بشمولِ العلم بعد قيامِ الدليل على تمامِ القدرة والاختيار؛ لأنَّ إنكارَهم المَعادَ لأمرينِ: أحدهما: ظنُّ أنَّ المؤثِّرَ في الأبدانِ امتزاجُ الطبائع، وإنكارُ أنَّ المؤثِّرَ هو قادرٌ مختار، والثاني: أنَّه - على تقديرِ

---

(١) روح المعاني (٣/ ٨٣).

(٢) أخرجه ابن هشام في "السيرة" (٢/ ٤١٣).

تسليم الاختيار - غيرُ عالِمٍ بالجزئياتِ؛ فلا يمكِنُه تمييزُ بدَنِ زيدٍ عن أجزاءِ بدَنِ عمرٍو، فإذا قام الدليلُ علىٰ كمالِ قدرته - سبحانه -، واختيارِه، وشمولِ علمه لجميعِ المعلوماتِ؛ الكلياتِ، والجزئياتِ: زالت جميعُ الشُّبهات: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾؛ أي: خلَقكم ولم يُهمِلْ مراقبتكم؛ فهو يَعلَم أحوالَكم كلَّها[2].

لمَّا تقدَّم ما يدلُّ علىٰ القدرةِ التامة والاختيار، ذكَر ما يدل علىٰ العلمِ التامِّ؛ فكان في التنبيهِ علىٰ هذه الأوصافِ دَلالةٌ علىٰ كونِه تعالىٰ قادرًا مختارًا عالِمًا بالكليات والجزئيات، وإبطالٌ لشُبَهِ منكرِ المَعاد[3].

المقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانُ كونه تعالىٰ عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ؛ فإنَّ الآيتينِ المتقدِّمتين يدُلَّان علىٰ كمالِ القدرة، وهذه الآيةُ تدل علىٰ كمالِ العلم؛ وحينئذٍ يكمُلُ العلمُ بالصفاتِ المعتبَرة في حصولِ الإلهيَّة[4].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴾ جملةٌ مِن مبتدأٍ وخبر، معطوفةٌ علىٰ ما قبلها، مسُوقةٌ لبيانِ شمول أحكامِ إلهيَّته تعالىٰ لجميعِ المخلوقات، وإحاطةِ علمِه بتفاصيلِ أحوال العباد، وأعمالِهم المؤدِّية إلىٰ الجزاءِ، إثرَ الإشارةِ إلىٰ تحقُّقِ المَعاد في تضاعيفِ بيانِ كيفية خَلْقِهم، وتقديرِ آجالهم[5].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٣٢).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٣٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨١).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٠٧).

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ ﴾

هذا انتقالٌ إلىٰ كفرانِ المشركين في تكذيبِهم رسالةَ محمَّدٍ ﷺ بعد أن أُقيمت عليهم الحُجَّةُ ببطلانِ كفرِهم في أمرِ الشرك بالله في الإلهيَّة، وقد عُطِف لأنَّ الأمرَين مِن أحوالِ كفرِهم، ولأنَّ الذي حمَلهم علىٰ تكذيبِ الرسول ﷺ هو دَعْوتُه إيَّاهم إلىٰ التوحيد؛ فمِن أجلِه نشأ النزاعُ بَيْنَهم وبينه، فكذَّبوه، وسألوه الآياتِ علىٰ صدقِه[1].

اعلَمْ أنَّه لمَّا تكلَّمَ أولًا: في التوحيد، وثانيًا: في المَعاد، وثالثًا: فيما يقرِّرُ هذين المطلوبينِ: ذكَر بعده ما يَتعلَّق بتقريرِ النبوَّة، وبدأ فيه بأنْ بيَّن كونَ هؤلاء الكفارِ معرِضين عن تأمُّلِ الدلائل، غيرَ ملتفتين إليها، وهذه الآيةُ تدلُّ علىٰ أنَّ التقليدَ باطلٌ، والتأمُّلَ في الدلائلِ واجبٌ، ولولا ذلك، لَمَا ذَمَّ اللهُ المعرِضين عن الدلائل[2].

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ كلامٌ مستأنَف، واردٌ لبيانِ كفرِهم بآياتِ الله، وإعراضِهم عنها بالكلية، بعدما بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ إشراكَهم بالله سبحانه، وإعراضَهم عن بعضِ آيات التوحيد، وفي الآيةِ الثانية امتراؤُهم في البعثِ، وإعراضُهم عن بعضِ آياته. والالتفاتُ للإشعارِ بأنَّ ذِكْرَ قبائحِهم قد اقتضىٰ أن يُضرَبَ عنهم الخطابُ صَفْحًا، وتُعدَّدَ جناياتُهم لغيرِهم ذمًّا لهم، وتقبيحًا لحالهم[3].

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ ﴾

لمَّا كان إعراضُهم عن النظرِ سببًا لتكذيبهم، وهو سببٌ لتعذيبهم: قال: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٣٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٠٩).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٢١).

الفاءُ فصيحةٌ على الأظهَرِ، أفصَحتْ عن كلامٍ مقدَّرٍ نشأ عن قولِه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: إذا تقرَّر هذا الإعراضُ، ثبَت أنَّهم كذَّبوا بالحق لمَّا جاءهم مِن عندِ الله؛ فإنَّ الإعراضَ علامةٌ على التكذيبِ؛ كما قدَّمتُه آنفًا، فما بعد فاء الفصيحةِ هو الجزاءُ[1].

كأنَّه قيل: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ بالآيةِ التي تأتيهم؛ وهي الحقُّ، فأقام الظاهرَ مقامَ المُضمَرِ؛ لِما في ذلك مِن وصفِه بالحق، وحقيقتُه كونُه مِن آياتِ الله تعالى، وظاهرُ قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾: أنَّ الفاءَ للتعقيب، وأنَّ إعراضَهم عن الآيةِ أعقَبه التكذيبُ[2].

اعلَمْ أنَّه تعالى رتَّب أحوالَ هؤلاء الكفارِ على ثلاثِ مراتبَ؛ فالمرتبة الأولى: كونُهم معرِضين عن التأمُّلِ في الدلائلِ، والتفكُّرِ في البينات، والمرتبة الثانية: كونُهم مكذِّبين بها، وهذه المرتبة أزيَدُ ممَّا قبلها؛ لأنَّ المعرِضَ عن الشيءِ قد لا يكون مكذِّبًا به، بل يكونُ غافلًا عنه، غيرَ متعرِّضٍ له، فإذا صار مكذِّبًا به، فقد زاد على الإعراضِ، والمرتبة الثالثة: كونُهم مستهزِئين بها؛ لأنَّ المكذِّبَ بالشيءِ قد لا يبلُغُ تكذيبُهُ به إلى حدِّ الاستهزاء، فإذا بلَغ إلى هذا الحدِّ، فقد بلَغ الغايةَ القصوى في الإنكارِ؛ فبيَّن تعالى أنَّ أولئك الكفارَ وصَلوا إلى هذه المراتبِ الثلاثة على هذا الترتيب[3].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾

لمَّا أخبَر بتكذيبِهم على هذا الوجه، وتوعَّدَهم بتحتُّمِ تعذيبهم: أتبعه ما يَجري مجرى الموعظةِ والنصيحة، فعجَّب مِن تماديهم مع ما علِموا مِن إهلاكِ مَن

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٣٥).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٣٧).
(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٣).

كان أشَدَّ منهم قوةً وأكثَرَ جمعًا وجنَىٰ مِن سوابغِ النِّعَم بما لم يعتبِروه فيه مع ما ضَمُّوه إلىٰ تحقُّقِ أخبارِهم مِن مشاهدةِ آثارِهم وعجيبِ اصطناعِهم في أبنيتِهم وديارهم، مستدلًّا بذلك علىٰ تحقيقِ ما قبله مِن التهديدِ علىٰ الاستهزاء، فقال مقرِّرًا منكِرًا موبِّخًا معجِّبًا: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[(١)].

هذه الجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾. جاء بيانُها بطريقةِ الاستفهام الإنكاريِّ عن عدمِ رؤيةِ القرون الكثيرة الذين أهلَكتْهم حوادثُ خارقةٌ للعادة، يدلُّ حالُها علىٰ أنَّها مسلَّطةٌ عليهم مِن الله؛ عقابًا لهم علىٰ التكذيب[(٢)].

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا منَعهم عن ذلك الإعراضِ والتكذيب والاستهزاء بالتهديد والوعيد، أتبَعه بما يَجري مجرىٰ الموعظةِ والنصيحة في هذا البابِ؛ فوعَظهم بسائرِ القرون الماضية؛ كقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ لوطٍ، وقومِ شُعَيبٍ، وفِرْعونَ، وغيرِهم[(٣)].

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾

لمَّا كانت ترجمةُ ما مضىٰ: ثم هم يَعدِلون بربِّهم غيرَه، ويكذِّبونك فيما جئتَ به مِن الحقِّ مع ما أوضَحتَ عليه مِن الحُجَج، ونصَبتَ مِن الدلائل، وكان ﷺ شديدَ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢١، ٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٤).

الحرصِ على إيمانِهم: كان المقامُ يقتضي أن يقولَ لسانُ الحال: أنزِلْ عليهم يا ربِّ ما ينتقِلون به مِن النظرِ بالفِكر إلى العِيانِ كما اقترَحوا عليَّ، فأخبَره أنَّهم لا يؤمِنون بذلك بقولِه عطفًا على ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ تحقيقًا له وتصويرًا في جِرْيتِه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[(١)].

يجوز أن تكونَ الواوُ عاطفةً، والمعطوفُ عليه جملةَ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إلخ، وما بينهما جُمَلًا تعلَّقتْ بالجملةِ الأولى على طريقةِ الاعتراض، فلمَّا ذكَر الآياتِ في الجملةِ الأولى على وجهِ العموم، ذكَر هنا فرضَ آيةٍ تكون أوضَحَ الآياتِ دَلالةً على صدقِ محمَّدٍ ﷺ؛ وهي أن ينزِّلَ اللهُ عليه كتابًا مِن السماءِ على صورةِ الكتب المتعارَفة، فرأَوْه بأبصارِهم ولمَسوه بأيديهم، لَمَا آمَنوا، ولادَّعَوْا أنَّ ذلك الكتابَ سِحْرٌ. ويجوز أن تكونَ الواوُ للحال مِن ضميرِ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالى تكذيبَهم بالحق لمَّا جاءهم، ثم وعَظهم وذكَّرهم بإهلاكِ القرون الماضية بذنوبهم: ذكَّرهم مبالغتَهم في التكذيب بأنَّهم لو رأَوْا كلامًا مكتوبًا في قِرْطاسٍ، ومع رؤيتِهم جَسُّوه بأيديهم: لم تَزِدْهم الرؤيةُ واللمس إلا تكذيبًا، وادَّعَوْا أنَّ ذلك مِن بابِ السِّحر، لا مِن بابِ المُعجِز؛ عنادًا وتعنُّتًا، وإن كان مَن له أدنى مُسْكةٍ مِن عقلٍ لا ينازِعُ فيما أدرَكه بالبصرِ عن قريبٍ، ولا بما لَمَسْتهُ يدُه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٤١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٤١).

اعلَمْ أنَّ الذين يَتمرَّدون عن قَبولِ دعوة الأنبياء طوائفُ كثيرةٌ؛ فالطائفةُ الأُولىٰ الذين بالَغوا في حبِّ الدنيا، وطلبِ لذَّاتِها وشهواتها، إلىٰ أن استغرَقوا فيها، واغتنَموا وجدانَها؛ فصار ذلك مانعًا لهم عن قَبولِ دعوة الأنبياء، وهم الذين ذكَرهم اللهُ تعالىٰ في الآيةِ المتقدمة، وبيَّن أنَّ لذَّاتِ الدنيا ذاهبةٌ، وعذابَ الكفرِ باقٍ، وليس مِن العقلِ تحمُّلُ العقابِ الدائم لأجلِ اللذاتِ المنقرِضة الخسيسة، والطائفةُ الثانية الذين يَحمِلون معجِزاتِ الأنبياء عليهم السلام علىٰ أنَّها مِن بابِ السِّحر، لا مِن بابِ المعجِزة، هؤلاء الذين ذكَرهم اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ(١).

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾

لمَّا بيَّن ما يترتَّبُ علىٰ الإجابةِ إلىٰ ما أشار إلىٰ أنَّ اليهودَ اقترَحوه مِن إنزال الكتاب، أخبَر أنَّهم اقترَحوا ظهورَ المَلَكِ لهم، وبيَّن لوازمَه؛ فإنَّهم قالوا: لو بعَث اللهُ رسولًا، لوجَب كونُه ملَكًا؛ ليكونَ أكثرَ علمًا، وأقوىٰ قدرةً، وأظهرَ امتيازًا عن البشر، فتكونَ الشبهةُ في رسالته أقلَّ، والحكيم إذا أراد تحصيلَ مهمٍّ، كان الأولىٰ تحصيلُه بما هو أسرَعُ إيصالًا إليه، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا﴾؛ لأنَّ هذا خبرٌ عن تورُّكِهم وعنادِهم، وما قبله بيانٌ لعدمِ جدوىٰ محاولةِ ما يَقلَع عنادَهم؛ فذلك فرضٌ بإنزالِ كتابٍ عليهم مِن السماء فيه تصديقُ النبي ﷺ، وهذا حكايةٌ لاقتراحٍ منهم آيةً يصدِّقونه بها(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٥).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٥، ٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٢).

قولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ استئنافُ إخبارٍ مِن الله، حكىٰ عنهم أنَّهم قالوا ذلك، ويحتمِلُ أن يكونَ معطوفًا علىٰ جوابِ ﴿لو﴾؛ أي: لقال الذين كفروا، ولقالوا: لولا أُنزِل عليه ملَكٌ؛ فلا يكونُ إذ ذاك هذان القولانِ المرتَّبان علىٰ تقديرِ إنزال الكتاب في قِرْطاسٍ واقعَينِ؛ لأنَّ التنزيلَ لم يقَعْ، وكان يكونُ القولُ الثاني غايةً في التعنُّت(١).

اعلَمْ أنَّ هذا النوعَ الثالث مِن شُبَهِ منكِري النبوَّات؛ فإنَّهم يقولون: لو بعَث اللهُ إلىٰ الخَلْقِ رسولًا، لوجَب أن يكونَ ذلك الرسولُ واحدًا مِن الملائكة؛ فإنَّهم إذا كانوا مِن زُمْرةِ الملائكة، كانت علومُهم أكثَرَ، وقُدْرتُهم أشَدَّ، ومهابتُهم أعظَمَ، وامتيازُهم عن الخَلْقِ أكمَلَ، والشُّبهاتُ والشكوك في نبوَّتِهم ورسالتهم أقَلَّ(٢).

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ شروعٌ في قَدْحِهم في نبوَّته ﷺ صريحًا، بعدما أشيرَ إلىٰ قدحِهم فيها ضِمْنًا(٣).

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾

قولُه: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ فهو جوابٌ ثانٍ عن مقترَحِهم، فيه ارتقاءٌ في الجواب(٤).

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ جوابٌ ثانٍ إن جُعِل الهاءُ للمطلوبِ، وإن جُعِل للرسول، فهو جوابُ اقتراحٍ ثانٍ؛ فإنَّهم تارةً يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾، وتارةً يقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٢).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٥).

(٥) أنوار التنزيل (٢/ ١٥٥).

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

لمَّا قطَع الرجاءَ لهدايةِ مَن حكَم بشقاوته، وكان طلبُهم لإنزالِ الملَكِ ونحوه إنَّما هو علىٰ سبيلِ التعنُّتِ والاستهزاء، وكان ذلك يشُقُّ علىٰ رسولِ الله ﷺ والمؤمنين رضي الله عنهم غايةَ المشقَّةِ: التفَتتِ النفسُ إلىٰ الإراحةِ منهم، وتوقَّعتْهُ؛ لِما تقدَّم مِن مظاهرِ العظمة، فأخبَره أنَّه فاعلٌ ذلك، في سياقٍ متكفِّلٍ بتسليتِه، وأنَّ ذلك لم يزَلْ سُنَّتَه فيمَن فعَل فِعْلَهم، فقال - عاطفًا علىٰ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ -: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾؛ لبيانِ تفنُّنِهم في المكابَرةِ والعناد تصلُّبًا في شركِهم، وإصرارًا عليه، فلا يتركون وسيلةً مِن وسائلِ التنفير مِن قَبولِ دعوةِ الإسلام إلا توسَّلوا بها. ومناسبةُ عطفِ هذا الكلامِ علىٰ قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾: أنَّهم كانوا في قولِهم ذلك قاصدين التعجيزَ والاستهزاء معًا؛ لأنَّهم ما قالوه إلا عن يقينٍ منهم أنَّ ذلك لا يكونُ، فابتُدئ الردُّ عليهم بإبطالِ ظاهرِ كلامهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾، ثم ثُنِّي بتهديدِهم علىٰ ما أرادوه مِن الاستهزاءِ، والمقصودُ مع ذلك تهديدُهم بأنَّهم سيَحِيقُ بهم العذابُ، وأنَّ ذلك سُنَّةُ اللهِ في كلِّ أمَّةٍ استهزأت برسولٍ له[(٢)].

اعلَمْ أنَّ بعضَ الأقوام الذين كانوا يقولون: إنَّ رسولَ الله يجب أن يكونَ ملَكًا مِن الملائكةِ كانوا يقولون هذا الكلامَ علىٰ سبيلِ الاستهزاء، وكان يَضِيقُ قلبُ الرسولِ ﷺ عند سماعِه؛ فذكَر ذلك ليَصِيرَ سببًا للتخفيفِ عن القلب؛ لأنَّ أحدًا ما

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٧).

يخفِّفُ عن القلبِ المشاركةَ في سببِ المحنة والغَمِّ. فكأنَّه قيل له: إنَّ هذه الأنواعَ الكثيرة مِن سُوءِ الأدبِ التي يعامِلونك بها قد كانت موجودةً في سائرِ القرون مع أنبيائِهم، فلستَ أنت فريدًا في هذا الطريقِ(١).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

لمَّا عَلِم اللهُ تعالىٰ أنَّهم يقولون في جوابِ هذا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أمَره ﷺ بعدما مضىٰ مِن التعجيبِ مِن كونِهم لم ينظُروا بقلوبِهم أو أبصارهم مَصارِعَ الماضين في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أن يأمُرَهم بأن يشاهِدوا مصارعَ مَن تمكَّنَ في قلوبِهم عِلْمُ أنَّهم أُهلِكوا بمثلِ تكذيبِهم؛ مِن قومِ صالحٍ، ولوطٍ، وشُعَيبٍ، وغيرِهم؛ ليُغنِيَهم ذلك عن مشاهَدةِ ما اقترَحوا، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(٢).

هذه الجملةُ وِزانُها وِزانُ البيانِ لمضمونِ الجملة التي قبلها؛ ولذلك فُصِلت؛ فإنَّ الجملةَ التي قبلها تُخبِرُ بأنَّ الذين استهزؤوا بالرُّسلِ قد حاقَ بهم عواقبُ استهزائهم، وهذه تَحدُوهم إلىٰ مشاهَدةِ ديارِ أولئك المستهزئين(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما حَلَّ بالمكذِّبين المستهزِئين، وكان المخاطَبون بذلك أمَّةً أُمِّيَّةً، لم تدرُسِ الكتبَ، ولم تجالِسِ العلماءَ؛ فلها أن تظافَرَ في الإخبارِ بهلاكِ مَن أُهلِكَ بذنوبِهم: أُمِروا بالسَّيرِ في الأرض، والنظرِ فيما حَلَّ بالمكذِّبين؛ ليَعتبِروا بذلك، ويتظافَرَ مع الإخبارِ الصادقِ الحسُّ؛ فللرؤيةِ مِن مَزيدِ الاعتبارِ ما لا يكونُ في الإخبار(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٤٨).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤٤٥).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ كما صبَّر رسولَه بالآيةِ الأُولىٰ، فكذلك حذَّر القومَ بهذه الآيةِ، وقال لرسوله ﷺ: قُلْ لهم: لا تغترُّوا بما وجَدتم مِن الدنيا وطيِّباتها، ووصَلْتم إليه مِن لذَّاتِها وشهواتها، بل سِيروا في الأرضِ؛ لتَعرِفوا صحةَ ما أخبَركم الرسولُ عنه مِن نزولِ العذاب علىٰ الذين كذَّبوا الرُّسلَ في الأزمنةِ السالفة؛ فإنَّكم عند السَّيرِ في الأرضِ والسفر في البلاد لا بد وأن تشاهِدوا تلك الآثارَ، فيكمُلَ الاعتبار، ويَقوَىٰ الاستبصار(١).

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد بيانِ ما فعَلَتِ الأُمَمُ الخالية، وما فُعِل بهم، خوطِبَ رسولُ الله ﷺ بإنذارِ قومه، وتذكيرِهم بأحوالِهم الفظيعة؛ تحذيرًا لهم عمَّا هم عليه، وتكملةً للتسليةِ بما في ضِمْنِه مِن العِدَةِ اللطيفةِ بأنَّه سيَحِيقُ بهم مثلُ ما حاقَ بأضرابِهم الأوَّلين، ولقد أُنجِز ذلك يومَ بَدْرٍ أيَّ إنجازٍ(٢).

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

لمَّا أمَرهم سبحانه بالسَّيرِ، سألهم: هل يرَوْن في سَيرِهم وتَطْوافِهم وجَولانِهم واعتسافهم شيئًا لغيرِ الله؟ تذكيرًا لهم بما رَحِمهم به مِن ذلك في إيجادِه لهم أولًا، وتيسيرِ منافعِه ودفعِ مَضارِّه ثانيًا؛ استعطافًا لهم إلىٰ الإقبالِ عليه، والإعراضِ عن الخضوع لِما هو مِثلُهم أو أقلُّ منهم، وهو مِلْكُه سبحانه، وفي قبضتِه، وتقبيحًا لأن يأكلوا خيرَه، ويعبُدوا غيرَه. فقال مقرِّرًا لهم علىٰ إثباتِ الخالق والنبوَّةِ والمعاد، ومبكِّتًا بسفَهِهم، وشِدَّةِ جهلِهم وعَمَهِهم: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٤).

كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١].

جملةُ ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾ تكريرٌ في مقامِ الاستدلال؛ فإنَّ هذا الاستدلالَ تضمَّنَ استفهامًا تقريريًّا، والتقريرُ مِن مقتضياتِ التكريرِ؛ لذلك لم تُعطَفِ الجملةُ[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ تصريفَه فيمَن أهلَكهم بذنوبهم، أمَر نبيَّه ﷺ بسؤالهم ذلك؛ فإنَّه لا يمكِنُهم أن يقولوا إلا أنَّ ذلك للهِ تعالىٰ، فيَلزمهم بذلك أنَّه تعالىٰ هو المالِكُ المُهلِكُ لهم، وهذا السؤالُ سؤالُ تبكيتٍ وتقرير، ثم أمَره تعالىٰ بنسبةِ ذلك للهِ تعالىٰ؛ ليكونَ أولَ مَن بادَر إلىٰ الاعترافِ بذلك[٣].

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

لمَّا استنارت الأدلةُ استنارةَ الشمس، وانتصَبتِ البراهينُ حتىٰ لم يَبقَ أصلًا نوعُ لَبْس: عَمَّ بالخبَرِ عمَّا تقدَّم ممَّا يشاهِدونه وغيره، فقال ذاكرًا الزمانَ بعد المكان، وقدَّمه لأنَّه أظهَرُ، والمعلِّمُ الكاملُ هو الذي يبدأ بالأظهَرِ فالأظهر، مترقِّيًا إلىٰ الأخفىٰ فالأخفىٰ، فتمَّ بذلك الخبَرُ عن الزمانِ والزمانيَّات، والمكانِ والمكانيات: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٥٠).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٤٦).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٣).

جملةٌ معطوفة على ﴿لِلَّهِ﴾ مِن قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾، الذي هو في تقديرِ الجملة؛ أي: ما في السماواتِ والأرض لله، وله ما سكَن(١).

لمَّا ذكَر تعالى أنَّه له مُلْكُ ما حوَى المكانُ مِن السماواتِ والأرض، ذكَر ما حواه الزمانُ مِن الليلِ والنهار، وإن كان كلُّ واحدٍ مِن الزمانِ والمكان يَستلزم الآخَرَ، لكنَّ النصَّ عليهما أبلَغُ في المِلْكيَّةِ، وقُدِّمَ المكانُ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى العقولِ والأفكار مِن الزمان(٢).

اعلَمْ أنَّ أحسَنَ ما قيل في نَظْمِ هذه الآيةِ ما ذكَره أبو مسلمٍ رحمه الله تعالى، فقال: ذكَر في الآيةِ الأُولى السماواتِ والأرض إذ لا مكانَ سِواهما، وفي هذه الآيةِ ذكَر الليلَ والنهار إذ لا زمانَ سِواهما؛ فالزمانُ والمكان ظرفانِ للمحدَثات، فأخبَر سبحانه أنَّه مالكٌ للمكانِ والمكانيات، ومالكٌ للزمانِ والزمانيات؛ وهذا بيانٌ في غايةِ الجلالة(٣).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

لمَّا نهَض مِن الحُجَجِ ما لم يَبقَ معه لذي بصيرةٍ شكٌّ، كان لسانُ الحال مقتضِيًا لأن ينادِيَ بالإنكارِ عليهم في الالتفاتِ عن جَنابِه، والإعراضِ عن بابِه؛ فأبرَز تعالى ذلك في قالَبِ الأمرِ له ﷺ بالإنكارِ على نفسِه؛ ليكونَ أدعى لهم، وأرفَقَ بهم، ولأنَّ ما تقدَّم منبِئٌ عن غايةِ المخالفة، منذِرٌ بما أنذَر مِن سُوءِ عاقبةِ المشاقَقة، فكأنَّهم قالوا:

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٥٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٠).

فهل مِن سبيلٍ إلىٰ الموافَقة؟ فقيل: لا، إلا باتخاذِكم إلهي وليًّا؛ وذلك لعَمْري سعادتُكم في الدارين، وبتطمُّعِكم في اتخاذي أندادَكم أولياءَ؛ وهذا ما لا يكونُ أبدًا، وهو معنىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

لمَّا تقرَّر بالقولِ السابق عبوديةُ ما في السماواتِ والأرض لله، وأنَّ مصيرَ كلِّ ذلك إليه: انتقَل إلىٰ تقريرِ وجوبِ إفراده بالعبادة؛ لأنَّ ذلك نتيجةٌ لازمة لكونِه مالكًا لجميعِ ما احتوته السماواتُ والأرض، فكان هذا التقريرُ جاريًا علىٰ طريقةِ التعريض؛ إذ أمَر الرسولَ ﷺ بالتبرُّؤ مِن أن يعبُدَ غيرَ الله، والمقصودُ الإنكارُ علىٰ الذين عبَدوا غيرَه واتخَذوهم أولياءَ؛ كما يقولُ القائلُ بمَحضَرِ المجادِلِ المكابِرِ: «لا أجحَدُ الحقَّ»؛ لدَلالةِ المقامِ علىٰ أنَّ الرسولَ ﷺ لا يصدُرُ منه ذلك، كيف وقد عَلِموا أنَّه دعَاهم إلىٰ توحيدِ الله مِن أولِ بعثتِه؟![2].

لمَّا تقدَّم أنَّه تعالىٰ أبدَعَ السماواتِ والأرضَ، وأنَّه مالكٌ لِما تضمَّنه المكانُ والزمان: أمَر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يقولَ لهم ذلك علىٰ سبيلِ التوبيخ لهم؛ أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعِينًا، لا الآلهةُ التي لكم؛ إذ هي لا تَنفَع ولا تضرُّ؛ لأنَّها بَيْنَ جمادٍ أو حيوانٍ مقهور، ودخَلتْ همزةُ الاستفهامِ علىٰ الاسمِ دون الفعل؛ لأنَّ الإنكارَ في اتخاذِ غيرِ الله وليًّا، لا في اتخاذِ الوليِّ[3].

لمَّا بيَّن فيما سبَق أنَّه مالكٌ للمكانِ وجملةِ المكانيَّات، ومالكٌ للزمانِ وجملةِ الزمانيَّات: بيَّن أنَّه سميعٌ عليم؛ يَسمَع نداءَ المحتاجين، ويَعلَم حاجاتِ المضطرِّين.

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٥٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٥٢).

والمقصودُ منه الردُّ على مَن يقولُ: الإلهُ تعالى موجَبٌ بالذاتِ، فنبَّهَ على أنَّه وإن كان مالكًا لكلِّ المحدَثات، لكنَّه فاعلٌ مختار، يَسمَع ويرى، ويَعلَم السرَّ وأخفى، ولمَّا قرَّر هذه المعانيَ، قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا كان فعلُ المَنْهيِّ قد لا يعذَّبُ عليه، قال مُعلِمًا بأنَّ المخالَفةَ في هذا مِن أبلَغِ المخالَفات؛ فصاحِبُها مستحِقٌّ لأعظَمِ الانتقام، وكلُّ ذلك فَطْمًا لهم عن الطَّمَعِ فيه، وأكَّده لذلك ولإنكارِهم مضمونَه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

هذا استئنافٌ مكرِّر لِما قبله، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشترك بينها؛ مِن أنَّ الشِّركَ باللهِ متوعَّدٌ صاحبُه بالعذابِ، وموعودٌ تارِكُه بالرحمةِ. فقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآيةَ: رفضٌ للشركِ بالدليلِ العقلي، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآيَةَ: رفضٌ للشرك امتثالًا لأمرِ الله وجلاله[3].

ثم إنَّه تعالى لمَّا بيَّن كونَ رسولِه مأمورًا بالإسلام، ثم عقَّبه بكونِه مَنْهيًّا عن الشرك: قال بعده: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ والمقصودُ: أنِّي إن خالَفتُه في هذا الأمرِ والنَّهي، صِرْتُ مستحِقًّا للعذابِ العظيم[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩١).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٣).

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ مبالَغةٌ أخرىٰ في قطعِ أطماعِهم، وتعريضٌ لهم بأنَّهم عصاةٌ مستوجِبون للعذاب[1].

﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ ﴾

لمَّا كان قد قدَّم مِن عمومِ رحمتِه ما أطمَع الفاجرَ، ثم أيأسَه مِن ذلك بما أشيرَ إليه مِن الخَسارةِ: صرَّح هنا بما اقتضاه ذلك المتقدِّمُ، فقال واصفًا لذلك العذابِ، مبيِّنًا أنَّ الرحمةَ في ذلك اليومِ علىٰ غيرِ المعهود الآن؛ فإنَّها خاصةٌ لا عامَّة، دائمةُ السُّبوغِ علىٰ مَن نالته، لا زائلةٌ، وكذا النعمةُ؛ هكذا شأنُ ذلك اليومِ: ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[2].

قوله: ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ ﴾ جملةٌ مِن شرطٍ وجزاء، وقَعتْ موقِعَ الصفةِ لـ ﴿عَذَابَ ﴾[3].

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فإن يُصرَفْ عنك ذلك العذابُ، فقد قرَّتْ عينُك، عطَف عليه دليلًا آخرَ؛ لأنَّه لا يجوزُ في العقلِ أن يتَّخِذَ غيرَه وليًّا، فقال معمِّمًا للحُكْمِ في ذلك العذابِ وغيرِه، مبيِّنًا أنَّه لا مَخلَصَ لِمَن أُوقِعَ به: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[4].

---

(١) أنوار التنزيل (٢/ ١٥٦).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٦١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٩).

عطفٌ على الجُمَلِ المفتتَحة بفعلِ ﴿قُلْ﴾؛ فالخطابُ للنبيِّ ﷺ؛ وهذا مؤذِنٌ بأنَّ المشركين خوَّفوا النبي ﷺ، أو عرَّضوا له بعزمِهم على إصابتِه بشَرٍّ وأذًى، فخاطَبه اللهُ بما يثبِّتُ نفسَه، وما يؤيِّسُ أعداءَه مِن أن يَستزِلُّوه[1].

مناسبةُ تقديمِ مسِّ الضرِّ على مسِّ الخير ظاهرةٌ؛ لاتصالِه بما قبله، وهو الترهيبُ الدالُّ عليه ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، وما قبله، وجاء جوابُ الأولِ بالحصرِ في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ مبالَغةً في الاستقلالِ بكشفِه، وجاء جوابُ الثاني بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ دَلالةً على قُدْرتِه على كلِّ شيء؛ فيندرجُ فيه المسُّ بخيرٍ أو غيرِه[2].

اعلَمْ أنَّ هذا دليلٌ آخرُ في بيانِ أنَّه لا يجوز للعاقلِ أن يتَّخِذَ غيرَ الله وليًّا، وتقريرُه أنَّ الضرَّ اسمٌ للألمِ والحزن والخوفِ، وما يُفضِي إليها، أو إلى أحدِها. والنفعُ اسمٌ لِلَّذةِ والسرور، وما يفضي إليهما، أو إلى أحدهما. والخيرُ اسمٌ للقَدْرِ المشترَك بَيْنَ دفعِ الضرِّ، وبين حصولِ النفع. فإذا كان الأمرُ كذلك، فقد ثبَت الحصرُ في أنَّ الإنسانَ إمَّا أن يكونَ في الضرِّ أو في الخيرِ؛ لأنَّ زوالَ الضر خيرٌ، سواءٌ حصَل فيه اللذةُ أو لم تحصُلْ. وإذا ثبَت هذا الحصرُ، فقد بيَّن اللهُ تعالى أنَّ المَضارَّ قليلَها وكثيرها لا يندفِعُ إلا باللهِ، والخيراتُ لا يحصُلُ قليلُها وكثيرها إلا بالله[3].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨﴾

لمَّا كانت الجملتانِ مِن الاحتباك، فأفادتا بما ذُكِر وما دَلَّ عليه المذكورُ ممَّا حُذِف أنَّه تعالى غالبٌ على أمره: قال مصرِّحًا بذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٢).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٤).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٩).

هذه الجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآيةَ، والمناسبةُ بينهما أنَّ مضمونَ كلتَيْهما يُبطِلُ استحقاقَ الأصنامِ العبادةَ[1].

لمَّا ذكَر تعالىٰ انفرادَه بتصرُّفِه بما يريدُه مِن ضرٍّ وخير، وقُدْرتَه علىٰ الأشياءِ: ذكَر قَهْرَه وغلَبَتَه، وأنَّ العالَمَ مقهورون، ممنوعون مِن بلوغِ مرادهم، بل يَقسِرُهم ويُجبِرُهم علىٰ ما يريدُه هو تعالىٰ[2].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

لمَّا ختَم بصفتَي الحكمةِ والخبرة، كان كأنَّه قيل: فلِمَ لَمْ يَعلَمْ أنَّا نكذِّبُك بخِبْرتِه؛ فيُرسِلَ معك بحكمتِه مَن يَشهَدُ لك علىٰ ما يقولُ - مِن أنَّه أمَرك أن تكونَ أولَ مَن أسلَم، ونهاك عن الشركِ لنصدِّقَك - مِن ملَكٍ، كما تقدَّم سؤالُنا لك فيه، أو كتابٍ في قِرْطاسٍ، أو غيرِهما؟ فقال: قد فعَل، ولم يَرضَ لي إلا بشَهادتِه المقدَّسة، أو يقال: لمَّا أقام الأدلةَ علىٰ الوَحْدانيَّةِ والقدرةِ، ووصَل إلىٰ صفةِ القهرِ المؤذِنِ بالانتقام: لم يَبقَ إلا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يستحِقونه مِن سُوءِ العذاب، وإنذارًا به؛ لئلا يقولوا إذا حَلَّ بهم: إنَّه لم يأتِنا نذيرٌ، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٤٥٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٠).

انتقالٌ مِن الاستدلالِ على إثباتِ ما يَليقُ باللهِ مِن الصفات، إلى إثباتِ صِدْقِ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وإلى جَعْلِ اللهِ حَكَمًا بَيْنَه وبين مكذِّبيه؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، ومناسبةُ الانتقالِ ظاهرةٌ[(١)].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾

لمَّا أثبَت شَهادةَ اللهِ تعالى له بالتصديقِ بأنَّه مُحِقٌّ، وكان ذلك ربما أوهَم أنَّ غيرَ الله تعالى لا يَعرِفُ ذلك، لا سيما وقد ادَّعى كفارُ قريشٍ أنَّهم سألوا أهلَ الكتابَينِ، فادَّعَوْا أنَّهم لا يَعرِفونه: أتبَعه بقولِه على طريقِ الاستئناف: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

جملةٌ مستأنَفة، انتقَل بها أسلوبُ الكلام مِن مخاطَبةِ اللهِ المشركين على لسانِ الرسول ﷺ إلى إخبارٍ عامٍّ كسائرِ أخبار القرآن. أظهَر اللهُ دليلًا على صدقِ الرسولِ فيما جاء به بعد شَهادةِ الله تعالى التي في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فإنَّه لمَّا جاء ذِكْرُ القرآنِ هنالك، وقَع هذا الانتقالُ للاستشهادِ على صِدْقِ القرآن المتضمِّنِ صِدْقَ مَن جاء به؛ لأنَّه هو الآيةُ المُعجِزة العامة الدائمة[(٣)].

اعلَمْ أنَّا رُوِّينا في الآيةِ الأُولى: أنَّ الكفارَ سألوا اليهودَ والنصارى عن صفةِ محمَّدٍ عليه السلام، فأنكَروا دَلالةَ التَّوراةِ والإنجيل على نبوَّته؛ فبيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى أنَّ شَهادةَ الله على صحةِ نبوَّته كافيةٌ في ثبوتها وتحقُّقها، ثم بيَّن في هذه الآيةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٦).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٠).

أنَّهم كذَبوا في قولِهم: إنَّا لا نَعرِف محمَّدًا ﷺ؛ لأنَّهم يَعرِفونه بالنبوَّةِ والرسالة كما يَعرِفون أبناءَهم[(١)].

لمَّا بيَّن شَهادتَه وشهادةَ رسولِه على التوحيد، وشهادةَ المشركين الذين لا عِلْمَ لديهم على ضدِّه: ذكَر أنَّ أهلَ الكتاب مِن اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾[(٢)].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾

لمَّا كان التقديرُ: خَسِروا ففاتَهم الإيمانُ؛ لأنَّهم ظلَموا بكتمانِ الشَّهادة، فكان الظُّلْمُ سببَ خسرانِهم، فمَن أظلَمُ منهم؟! عطَف عليه ما يؤذِنُ بأنَّهم بدَّلوا كتابَهم، أو نسَبوا إليه ما ليس فيه، فقال واضعًا للظاهرِ موضعَ ضميرِهم لذلك: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٣)].

عطفٌ على جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾. فالمرادُ بهم: المشركون، والمراد بافترائهم: عقيدةُ الشِّرك في الجاهليةِ بما فيها مِن تكاذيبَ، وبتكذيبِهم الآياتِ: تكذيبُهم القرآنَ بعد البعثةِ. وقد جعَل الآتيَ بواحدةٍ مِن هاتينِ الخَصْلتَينِ أظلَمَ الناسِ، فكيف بمَن جمَعوا بينهما؟![(٤)].

لمَّا حكَم على أولئك المنكِرين بالخسران في الآيةِ الأولى، بيَّن في هذه الآيةِ سببَ ذلك الخسرانِ[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٢).

(٥) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠١).

﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢ ﴾

لمَّا كان معنىٰ هذا أنَّهم أكذَبُ الناسِ، دلَّ عليه بكَذِبِهم يومَ الحشرِ بعد انكشافِ الغطاء، فقال: ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾، أو علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ فإنَّ مضمونَ هذه الجُمَلِ المعطوفةِ له مناسبةٌ بمضمونِ جملة ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ ﴾، ومضمونِ جملة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ لأنَّ مضمونَ هذه مِن آثارِ الظُّلْمِ، وآثارِ عدم الفلاح، ولأنَّ مضمونَ الآية جامعٌ للتهديدِ علىٰ الشِّركِ والتكذيب، ولإثباتِ الحشر، ولإبطالِ الشرك[(٢)].

﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣ ﴾

لمَّا كان إخبارُهم بغيرِ الواقع في ذلك اليومِ مستبعَدًا بعد رفعِ الحجابِ عن الأهوال، وإظهارِ الزَّلازلِ والأوجال: أشار إليه بأداةِ البُعْدِ، فقال: ﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾[(٣)].

قوله: ﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾، و﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيبِ الرُّتْبِيِّ؛ وهو الانتقالُ مِن خبرٍ إلىٰ خبر أعظَمَ منه[(٤)].

﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ ﴾؛ أي: جوابُ ما اعترَض به علىٰ فتنتِهم التي هي شَهادةُ أنَّ مع اللهِ آلهةً أخرىٰ. وعبَّر عن جوابِهم بالفتنة؛ لأنَّه كَذِبٌ[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٣).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٨١).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٥).

(٥) محاسن التأويل (٤/ ٣٣٣).

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لمَّا كان هذا مِن أعجَبِ العجَب، أشار إليه بقولِه: ﴿ٱنظُرْ﴾، وبالاستفهامِ في قولِه: ﴿كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

قولُه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جعَل حالَهم المتحدَّثَ عنه بمنزلةِ المُشاهَد؛ لصدورِه عمَّن لا خلافَ في إخباره؛ فلذلك أمَر سامِعَه أو أمَر الرسولَ ﷺ بما يدلُّ علىٰ النظرِ إليه كأنَّه مُشاهِدٌ حاضر[2].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فإنَّه تعجيبٌ مِن كَذِبِهم الصريحِ بإنكارِ صدور الإشراكِ عنهم في الدنيا؛ أي: انظُرْ كيف كذَبوا علىٰ أنفسِهم في قولِهم ذلك؛ فإنَّه أمرٌ عجيب في الغاية![3].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

لمَّا عَلِم أنَّ هذه الآياتِ قد ترابَطتْ حتىٰ كانت آيةً واحدة، وختَم بأنَّ مضمونَ قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الآيةَ، قد صار وصفًا لهم ثابتًا حتىٰ ظهَر في يومِ الجَمْعِ: قسَّم الموسومين بما كانت تلك الآيةُ سببًا له؛ وهو الإعراضُ عن الآياتِ المذكورُ في قولِه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فكان كأنَّه قيل: فمِنهم مَن أعرَض بكُلِّيته، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢٠).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٨٣).

عطَف جملةً ابتدائية علىٰ الجُمَلِ الابتدائية التي قبلها مِن قولـه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أحوالَ الكفارِ في الآخرة، أتبَعه بما يوجِبُ اليأسَ عن إيمانِ بعضهم، فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾[٢].

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لحكايةِ ما صدَر في الدنيا عن بعضِ المشركين مِن أحكامِ الكفر، ثم بيانِ ما سيصدُرُ عنهم يومَ الحشر؛ تقريرًا لِما قبله، وتحقيقًا لمضمونه[٣].

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾، والضميرانِ المجروران عائدانِ إلىٰ القرآن المشارِ إليه باسمِ الإشارة في قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. ومعنىٰ النَّهيِ عنه: النَّهيُ عن استماعِه؛ فهو مِن تعليقِ الحُكْمِ بالذات[٤].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّهم طعَنوا في كونِ القرآن مُعجِزًا؛ بأن قالوا: إنَّه مِن جنسِ أساطيرِ الأوَّلين، وأقاصيصِ الأقدَمين: بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم يَنهَون عنه، ويَنأَون عنه[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٢).

(٥) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠٧).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

لمَّا جعَل عدمَ إيمانِهم في هذه بشيءٍ مِن الآياتِ موصِّلًا لهم إلىٰ غايةٍ مِن الجهلِ عظيمةٍ مُوئِسَةٍ مِن ادِّعائهم في هذه الدارِ؛ وهي مجادَلتُهم له ﷺ، وختَم الآيةَ بما رأيتَ مِن عظيمِ التهديد: استشرَفتِ النفسُ إلىٰ معرفةِ حالهم عند رَدِّهم إلىٰ الله تعالىٰ، والكشفِ لهم عمَّا هُدِّدوا به؛ فأعلَمَ نبيَّهم ﷺ أنَّ حالَهم إذ ذاك الإيمانُ؛ حيث يسُرُّ غايةَ السرورِ تصديقُهم له، وتمنِّيهم متابعتَهُ؛ لِما يَركَبُهم مِن الذُّل، ويحيطُ بهم مِن الصَّغار، ولا يَزيدُهم ذلك إلا ضررًا وعَمًىٰ، وندمًا وحسرةً، فكأنَّه قيل: فلو رأيتَ حالَهم عند كشفِ الغطاء وهَوْلِ المَطْلَعُ، لرأيتَهم يؤمِنون: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

الخطابُ للرسولِ ﷺ؛ لأنَّ في الخبَرِ الواقع بعده تسليةً له عمَّا تضمَّنَه قولُه: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾؛ فإنَّه ابتدأ فعقَّبه بقوله: ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، ثم أردَفه بتمثيلِ حالِهم يومَ القيامة. ويشترِكُ مع الرسولِ ﷺ في هذا الخطابِ كلُّ مَن يَسمَعُ هذا الخبَرَ[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ حديثَ البعثِ في قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾، واستطرَد مِن ذلك إلىٰ شيءٍ مِن أوصافِهم الذميمةِ في الدنيا: عاد إلىٰ الأولِ، وجوابُ «لو» محذوفٌ؛ لدَلالةِ المعنىٰ عليه؛ وتقديرُه: لرأيتَ أمرًا شنيعًا، وهولًا عظيمًا، وحذفُ جوابِ «لو» لدَلالةِ الكلام عليه: جائزٌ فصيح[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٨٥، ٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٧٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر صفةَ مَن يَنهَىٰ عن متابَعةِ الرسول ﷺ، وينأىٰ عن طاعتِه بأنَّهم يُهلِكون أنفسَهم: شرَح كيفيةَ ذلك الهلاكِ بهذه الآيةِ[١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ شروعٌ في حكايةِ ما سيصدُرُ عنهم يومَ القيامة مِن القولِ المناقِض لِما صدَر عنهم في الدنيا مِن القبائحِ المَحْكيَّة، مع كونِه كَذِبًا في نفسه[٢].

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

لمَّا أخبَرنا - في قراءةِ الرفعِ - عن أنفسِهم بما تمنَّوْا لأجلِه الردَّ، وتضمَّنتْ قراءةُ النصبِ الوعدَ؛ فإنَّه كما لو قال قائلٌ: ليتَ اللهَ يرزُقُني مالًا؛ فأكافِئَك علىٰ صنيعِك، فإنَّه ينجرُّ إلىٰ: إن رزَقني اللهُ مالًا، كافأْتُك، فصار لذلك ممَّا يَقبَلُ التكذيبَ: أضرَب عنه سبحانه تكذيبًا لهم بقولِه: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣].

قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ إضرابٌ عن قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ والمعنىٰ: بل لأنَّهم لم يَبقَ لهم مَطمَعٌ في الخلاص[٤].

﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ، والانتقالِ مِن شيءٍ إلىٰ شيء مِن غيرِ إبطالٍ لِما سبَق، وهكذا يجيءُ في كتابِ الله تعالىٰ إذا كان ما بعدها مِن إخبارِ الله تعالىٰ، لا علىٰ سبيلِ الحكاية عن قومٍ: تكونُ ﴿بَلْ﴾ فيه للإضرابِ[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٠٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢٢).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٥).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٤٧٧).

معنىٰ ﴿بَلۡ﴾ هاهنا رَدُّ كلامِهم؛ والتقديرُ: أنَّهم ما تمنَّوُا العَوْدَ إلىٰ الدنيا، وتَرْكَ التكذيبِ، وتحصيلَ الإيمان لأجلِ كونهم راغبين في الإيمان، بل لأجلِ خوفِهم مِن العقاب الذي شاهَدوه وعايَنوه[(١)].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾

يجوز أن يكونَ عطفًا علىٰ قوله: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، فيكونَ جوابَ «لو»؛ أي: لو رُدُّوا، لكذَّبوا بالقرآن أيضًا، ولكذَّبوا بالبعث كما كانوا مُدَّةَ الحياةِ الأولىٰ. ويجوز أن تكونَ الجملةُ عُطِفت علىٰ جملةِ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ويكونَ ما بَيْنَ الجملتينِ اعتراضًا يتعلقُ بالتكذيب للقرآن[(٢)].

اعلَمْ أنَّه حصَل في الآية قولان: الأول: أنَّه تعالىٰ ذكَر في الآيةِ الأولىٰ أنَّه ﴿بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ﴾، فبيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ذلك الذي يُخفُونه هو أمرُ المَعادِ والحشر والنَّشر؛ وذلك لأنَّهم كانوا يُنكِرونه، ويُخفُون صحَّتَه، ويقولون: ما لنا إلا هذه الحياةُ الدنيوية، وليس بعد هذه الحياةِ لا ثوابٌ ولا عقاب. والثاني: أنَّ تقديرَ الآيةِ ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، ولأنكَروا الحشرَ والنَّشر، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[(٣)].

وأكَّد طَبْعَهم علىٰ الكفرِ بقوله عطفًا علىٰ قوله: ﴿لَعَادُواْ﴾: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٨٨).

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ ﴾

لمَّا ذكَر إنكارَهم البعثَ، أعقَبه بوصفِ حالهم حين يُحشَرون إلىٰ اللهِ؛ وهو حالُ البعثِ الذي أنكَروه[١].

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ ﴾

لمَّا أنتَج هذا ما تقدَّم الإخبارُ به عن خسرانِهم لأنفسِهم في القيامة، توقَّع السامعُ ذِكْرَه، فقال تحقيقًا لذلك، وزادَه الحِمْلَ؛ فإنَّه مِن ذَوْقِ العذاب: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[٢].

استئنافٌ للتعجيبِ مِن حالِهم حين يقعون يومَ القيامة في العذابِ علىٰ ما استداموه مِن الكفرِ، الذي جرَّأهم علىٰ استدامتِهِ اعتقادُهم نَفْيَ البعثِ، فذاقوا العذابَ لذلك، فتلك حالةٌ يستحِقون بها أن يقالَ فيهم: قد خَسِروا وخابوا[٣].

هذا استئنافُ إخبارٍ مِن اللهِ تعالىٰ عن أحوالِ منكِري البعث، وخسرانِهم؛ أنَّهم استعاضُوا الكفرَ عن الإيمانِ، فصار ذلك شبيهًا بحالةِ البائع الذي أخَذ وأعطىٰ، وكان ما أخَذ مِن الكفرِ سببًا لهلاكِه، وما أعطاه مِن الإيمانِ سببًا لنجاتِه، فأشبَهَ الخاسرَ في صفقتِه، العادمَ الرِّبْحَ ورأسَ مالِه[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٨).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤٨١).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ شرحُ حالةٍ أخرىٰ مِن أحوالِ منكِري البعثِ والقيامة؛ وهي أمرانِ: أحدهما: حصولُ الخسران. والثاني: حَمْلُ الأوزارِ العظيمة[١].

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾

لمَّا تأكَّد أمرُ البعث غايةَ التأكُّد، ولم يَبقَ فيه لذي لُبٍّ وقفةٌ: صرَّح بما اقتضاه الحالُ مِن أمرِ هذه الدارِ، فقال منبِّهًا علىٰ خَساستِها، معجِّبًا منهم في قوةِ رغبتِهم في إيثار لذاتها، معلِمًا بأنَّه قد كُشِف الحالُ عن أنَّ ما ركَنوا إليه خيال، وما كذَّبوا به حقيقةٌ ثابتة ليس لها زوال، عكسَ ما كانوا يقولون: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٢].

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ الساعةِ، وما يَلحَق المشركين فيها مِن الحسرةِ علىٰ ما فرَّطوا: ناسَب أن يُذكِّرَ الناسَ بأنَّ الحياةَ الدنيا زائلةٌ، وأنَّ عليهم أن يستعِدوا للحياةِ الآخرة. فيحتمِلُ أن يكونَ جوابًا لقولِ المشركين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾؛ فتكونَ الواوُ للحال؛ أي: تقولون: إن هي إلا حياتُنا الدنيا، ولو نظَرْتم حقَّ النظر، لوجَدتم الحياةَ الدنيا لعبًا ولهوًا، وليس فيها شيءٌ باقٍ، فلَعَلِمْتم أنَّ وراءها حياةً أخرىٰ فيها مِن الخيراتِ ما هو أعظَمُ ممَّا في الدنيا، وإنَّما يَنالُه المتَّقون؛ أي: المؤمنون، فتكونَ الآيةُ إعادةً لدعوتِهم إلىٰ الإيمانِ والتقوىٰ، ويكونَ الخطابُ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ التفاتًا مِن الحديثِ عنهم بالغَيْبةِ إلىٰ خطابِهم بالدعوة[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١٢).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٩٢).

لمَّا ذكَر قولَهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، ذكَر مصيرَها، وأنَّ منتهى أمرِها أنَّها فانيةٌ منقضِيةٌ عن قريبٍ، فصارت شبيهةً باللَّهْوِ واللَّعِب؛ إذ هما لا يدُومانِ، ولا طائلَ لهما، كما أنَّها لا طائلَ لها؛ فاللهوُ واللعب اشتغالٌ بما لا غَناءَ به ولا منفعةَ، كذلك هي الدنيا، بخلافِ الاشتغالِ بأعمالِ الآخرة؛ فإنَّها التي تُعقِبُ المنافعَ والخيرات[(١)].

اعلَمْ أنَّ المنكِرين للبعثِ والقيامة تعظُمُ رغبتُهم في الدنيا، وتحصيلِ لذَّاتها؛ فذكَر اللهُ تعالى هذه الآيةَ تنبيهًا على خساستِها وركاكتها[(٢)].

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾

لمَّا كرَّر في هذه السورةِ أمرَهُ بمقاوَلتِهم، وأطال في الحثِّ على مجادَلتِهم، وختَم بما يقتضي سَلْبَهم العقلَ، مع تكريرِ الإخبار بأنَّ المَقْضيَّ بخَسارتِه منهم لا يؤمنون لآيةٍ مِن الآيات، وكان مِن المعلومِ أنَّهم حالَ إسماعِهم ما أُمِر به لا يسكُتون؛ لِما عندهم مِن عظيمِ النَّخوة، وشماخةِ الكِبْرِ، وقوة الجُرْأةِ، وأنَّه لا جوابَ لهم إلا التَّبِعةُ والبَذاءة؛ كما هو دأبُ المعانِدِ المغلوب، وأنَّ ذلك يحزُنُه ﷺ؛ لِما جُبِل عليه مِن الحياءِ والشهامة، والصيانةِ والنزاهة: كان الحالُ محتاجًا إلى التسليةِ، فقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[(٣)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ قُصِدت به تسليةُ الرسول ﷺ، وأمرُه بالصبر، ووعدُه بالنصر، وتأييسُه مِن إيمانِ المتغالينَ في الكفر، ووعدُه بإيمانِ فِرَقٍ منهم. وقد تهيَّأ المقامُ لهذا

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١٥).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٩٤).

الغرضِ بعد الفراغِ مِن محاجَّةِ المشركين في إبطالِ شِرْكِهم، وإبطالِ إنكارِهم رسالةَ محمَّدٍ ﷺ، والفراغِ مِن وعيدِهم، وفضيحةِ مكابَرتِهم [(١)].

اعلَمْ أنَّ طوائفَ الكفار كانوا فِرَقًا كثيرين؛ فمنهم مَن يُنكِر نبوَّتَه؛ لأنَّه كان يُنكِرُ رسالةَ البشر، ويقول: يجب أن يكونَ رسولُ الله مِن جنسِ الملائكة، وقد ذكَر اللهُ تعالىٰ في هذه السُّورةِ شُبْهةَ هؤلاء، وأجاب عنها. ومنهم مَن يقول: إنَّ محمَّدًا يُخبِرنا بالحشرِ والنَّشر بعد الموت، وذلك مُحالٌ. وكانوا يستدِلون بامتناعِ الحشرِ والنَّشر علىٰ الطَّعنِ في رسالتِه. وقد ذكَر اللهُ تعالىٰ ذلك، وأجاب عنه بالوجوهِ الكثيرة التي تقدَّم ذِكْرُها. ومنهم مَن كان يشافِهُه بالسَّفاهةِ، وذِكْرِ ما لا ينبغي مِن القول؛ وهو الذي ذكَره اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ [(٢)].

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتسليةِ رسول الله ﷺ عن الحزنِ الذي يعتريه، ممَّا حُكِيَ عن الكفرةِ مِن الإصرارِ علىٰ التكذيب، والمبالغةِ فيه؛ ببيانِ أنَّه عليه الصلاة والسلام بمكانةٍ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ ما يفعَلون في حقِّه فهو راجعٌ إليه تعالىٰ في الحقيقةِ، وأنَّه ينتقِمُ منهم لا محالةَ أشدَّ انتقامٍ [(٣)].

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

لمَّا سلَّاه بوعدِه النُّصرةَ المسبَّبةَ عن علمِ المرسِلِ القادر، وبأنَّ تكذيبَهم إنَّما هو له سبحانه، وهو مع ذلك يَصبِرُ عليهم، ويحلُمُ عنهم، بل ويُحسِنُ إليهم بالرزقِ والمنافع: زاده أنَّ ذلك سُنَّةٌ في إخوانه مِن الرُّسلِ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٩٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢٦).

مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، أو علىٰ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾. ويجوز أن تكونَ الواوُ واوَ الحال مِن الكلامِ المحذوف قبل الفاءِ؛ أي: فلا تَحزَنْ، أو إن أحزَنك ذلك، ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، والحالُ قد كُذِّبتْ رُسُلٌ مِن قبلِك. والكلامُ علىٰ كلِّ تقديرٍ تسليةٌ وتهوين وتكريم؛ بأنَّ إساءةَ أهلِ الشرك لمحمَّدٍ ﷺ هي دُونَ ما أساء الأقوامُ إلىٰ الرُّسلِ مِن قبلِه؛ فإنَّهم كذَّبوا بالقولِ والاعتقاد، وأمَّا قومُه فكذَّبوا بالقولِ فقط. وفي الكلامِ أيضًا تأسٍّ للرسولِ ﷺ بمَن قبله مِن الرُّسل(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أزال الحُزْنَ عن قلبِ رسولِه ﷺ في الآيةِ الأولىٰ بأن بيَّن أنَّ تكذيبه يَجري مجرىٰ تكذيبِ الله تعالىٰ؛ فذكَر في هذه الآيةِ طريقًا آخرَ في إزالةِ الحُزْنِ عن قلبِه؛ وذلك بأن بيَّن أنَّ سائرَ الأُمَمِ عامَلوا أنبياءَهم بمثلِ هذه المعامَلة، وأنَّ أولئك الأنبياءَ صبَروا علىٰ تكذيبِهم وإيذائهم حتىٰ أتاهم النصرُ والفتح والظَّفَرُ؛ فأنت أَوْلىٰ بالتزامِ هذه الطريقةِ؛ لأنَّك مبعوثٌ إلىٰ جميعِ العالَمين، فاصبِرْ كما صبَروا، تَظفَرْ كما ظَفِروا(٣).

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾

لمَّا سلَّاه بما هو في غايةِ الكفاية في التسليةِ، أخبَره بأنَّه لا حيلةَ له غيرُ الصبر، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فتسَلَّ واصبِرْ كما صبَروا، وليصغُرْ عندك ما تُلاقي منهم

(١) نظم الدرر (٧/ ٩٨).
(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٠٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١٩).

في جَنْبِ الله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[١].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان يحزُنُه ما يقولونه فيه مِن التكذيبِ به وبالقرآن حُزْنًا علىٰ جهلِ قومِه بقدرِ النصيحة، وإنكارِهم فضيلةَ صاحبِها، وحُزْنًا مِن جرَّاءِ الأسفِ عليهم مِن دوام ضلالِهم شفقةً عليهم، وقد سلَّاه اللُه تعالىٰ عن الحُزْنِ الأول بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، وسلَّاه عن الثاني بقوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ الآيةَ[٢].

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لتأكيدِ إيجاب الصبر المستفادِ مِن التسليةِ؛ ببيانِ أنَّه أمرٌ لا محيدَ عنه أصلًا[٣].

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

لمَّا أفهَمَ هذا القضاءُ الحتمُ أنَّه قد صار حالُهم حالَ مَن خُتِمَ بالموت، فلا يمكِنُ إسماعه إلا الله، ولا يمكِنُ أن يستجيبَ عادةً: قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٤].

تعليلٌ لِما أفاده قولُه: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ مِن تأييسٍ مِن ولوجِ الدعوة إلىٰ أنفسِهم؛ أي: لا يستجيبُ الذين يَسمَعون دُونَ هؤلاء الذين حرَمهم فائدةَ السمعِ وفَهْمِ المسموع[٥].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٠٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢٨).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٠١).

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ٢٠٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن السببَ في كونِهم بحيث لا يَقبَلون الإيمانَ، ولا يترُكون الكفرَ، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ يعني: أنَّ الذين تَحرِصُ علىٰ أن يصدِّقوك بمنزلةِ الموتىٰ الذين لا يَسمَعون؛ وإنَّما يستجيبُ مَن يَسمَع[١].

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ تقريرٌ لِما مرَّ مِن أنَّ علىٰ قلوبِهم أكنَّةً مانعة مِن الفقهِ، وفي آذانهم وَقْرًا حاجزًا مِن السماع، وتحقيقٌ لكونِهم بذلك مِن قَبيلِ الموتىٰ، لا يُتصوَّر منهم الإيمانُ البتَّةَ[٢].

بعدما سلَّىٰ الربُّ تعالىٰ رسولَه ﷺ في الآياتِ السابقة، وحمَله علىٰ الصبرِ: أعلَمه هنا بحقيقةٍ علمية تساعِدُه علىٰ الثباتِ والصبر؛ فأعلَمه أنَّ الذين يستجيبون لدعوتِه ﷺ هم الذين يَسمَعون؛ لأنَّ حاسَّةَ السمعِ عندهم سليمةٌ، ما أصابها ما يُخِلُّ بأداءِ وظيفتها؛ مِن كُرْهِ الحق، وبُغْضِ أهلِه والداعين إليه؛ فهؤلاء هم الذين يستجيبون؛ لأنَّهم أحياءٌ، أمَّا الأمواتُ فإنَّهم لا يَسمَعون؛ ولذا فهم لا يستجيبون، ولكن سيَبعَثهم اللهُ يومَ القيامة أحياءً، ثم يَرجِعُ الجميعُ إليه؛ مَن استجاب لحياةِ قلبه، ومَن لم يستجِبْ لموتِ قلبه، ويَجزِيهم بما عَمِلوا الجزاءَ الأوفىٰ، وهو علىٰ كل شيءٍ قدير[٣].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

لمَّا سلَّاه ﷺ فيما أخبَره مِن أقوالِهم بما شرَح صدرَه، وسَرَّ خاطرَه، وأعلَمه تخفيفًا عليه أنَّ أمرَهم إنَّما هو بيدِه: ذكَره بعضَ كلامِهم الآئِلَ إلىٰ التكذيبِ عَقِبَ إخبارِه

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٢١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٠).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٥٦).

بالحشرِ الذي يجازي فيه كلًّا بما يَفعَل، فقال عطفًا على قولِه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ يعجِّبُ منه تعجيبًا آخرَ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ الآياتِ، وهذا عَوْدٌ إلى ما جاء في أولِ السورة مِن ذِكْرِ إعراضِهم عن آياتِ الله بقوله: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، ثم ذِكْرِ ما تفنَّنوا به مِن المعاذيرِ مِن قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾؛ أي: وقالوا: لولا أُنزِل عليه آيةٌ؛ أي: على وَفْقِ مقترَحِهم، وقد اقترَحوا آياتٍ مختلفةً في مجادَلاتٍ عديدة؛ ولذلك أجمَلها اللهُ تعالى هنا اعتمادًا على عِلْمِها عند الرسولِ ﷺ والمؤمنين، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا النوعَ الرابع مِن شبهاتِ منكِري نبوةِ محمَّدٍ ﷺ؛ وذلك لأنَّهم قالوا: لو كان رسولًا مِن عند الله، فهلَّا أُنزِلَ عليه آيةٌ قاهرة، ومُعجِزة باهرة؟![(٣)].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حكايةٌ لبعضٍ آخرَ مِن أباطيلِهم بعد حكايةِ ما قالوا في حقِّ القرآن الكريم، وبيانِ ما يَتعلَّق به[(٤)].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾

ولـمَّا عجَّب منهم في قولِهم هذا الذي يقتضي أنَّهم لم يرَوْا له آيةً قط بعد ما جاءهم مِن الآياتِ الخاصة به ما ملأ الأقطارَ، وردَّ إلى الصُّمِّ الأسماعَ، وأنار مِن العمى

(١) نظم الدرر (٧/ ١٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٠٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٢٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٠).

الأبصارَ: ذكَّرهم بآيةٍ غيرِ آية القرآنِ، تشتمِلُ علىٰ آياتٍ مستكثِرة كافية لصلاحهم، رتَّبها سبحانه قبل سؤالِهم تفضُّلًا منه عليهم، دالَّةٍ علىٰ باهرِ قُدْرتِه علىٰ البعثِ وغيرِه مِن الآيات التي طلَبوها وغيرِها، وعلىٰ تفرُّدِه بجميعِ الأمر؛ إذا تأمَّلوها حقَّ تأمُّلها، كفَتْهم في جميعِ ما يراد منهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١).

لمَّا حكىٰ عن هؤلاء قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ولم يَعتبروا ما نزَل مِن الآيات، وأجيبوا بأنَّ القدرةَ صالحةٌ لإنزالِ آية، وهي التي اقترَحتموها، ونُبِّهوا علىٰ جهلِهم؛ حيث فرَّقوا بَيْنَ آيةٍ وآية: أُخبِروا أنَّهم أنفُسَهم وجميعَ الحيوانِ غيرهم متماثِلون في تعلُّق القدرةِ الإلهيَّة بالجميع؛ فلا فرقَ بَيْنَ خَلْقِ مَن كُلِّف وما لم يكلَّفْ في تعلُّقِ القدرة بهما وإبرازِهما مِن صرفِ العدمِ إلىٰ صرفِ الوجود، فكأنَّه قيل: القدرةُ تعلَّقتْ بالآيات كلِّها، مقترَحِها وغيرِ مقترحها، كما تعلَّقتْ بخَلْقِكم وخلقِ سائرِ الحيوان؛ فالإمكانُ هو الجامع بَيْنَ كلِّ ذلك؛ ولذلك قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ يعني: في تعلُّقِ القدرة بإيجادها كتعلقِها بإيجادكم، وكذلك الآياتُ(٢).

في تقريرِ وجه النَّظم، فنقولُ: فيه وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ بيَّن في الآيةِ الأولىٰ أنَّه لو كان إنزالُ سائرِ المعجزات مصلحةً لهم، لفعَلها ولأظهَرها، إلا أنَّه لمَّا لم يكُنْ إظهارُها مصلحةً للمكلَّفين، لا جرَمَ ما أظهَرها. وهذا الجواب إنَّما يَتِمُّ إذا ثبت أنَّه تعالىٰ يراعي مصالحَ المكلَّفين، ويَتفضَّل عليهم بذلك، فبيَّن أنَّ الأمرَ كذلك، وقرَّره بأن قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في وصولِ فضلِ الله وعنايته ورحمتِه وإحسانه إليهم؛ وذلك كالأمرِ المُشاهَد المحسوس، فإذا كانت آثارُ عنايتِه واصلةً إلىٰ جميع الحيوانات، فلو كان في إظهارِ هذه المعجِزاتِ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٠٠).

القاهرة مصلحةٌ للمكلَّفين، لفعَلها، ولأظهَرها، ولامتنَع أن يَبخَل بها مع ما ظهَر أنَّه لم يَبخَلْ علىٰ شيءٍ مِن الحيواناتِ بمصالحِها ومنافعها؛ وذلك يدل علىٰ أنَّه تعالىٰ إنَّما لم يُظهِرْ تلك المعجِزاتِ؛ لأنَّ إظهارَها يُخِلُّ بمصالحِ المكلَّفين. فهذا هو وجهُ النَّظم والمناسبةِ بَيْنَ هذه الآيةِ وبين ما قبلها، والله أعلم. الوجه الثاني في كيفيةِ النَّظم: قال القاضي: إنَّه تعالىٰ لمَّا قدَّم ذِكْرَ الكفارِ، وبيَّن أنَّهم يَرجِعون إلىٰ الله، ويُحشَرون: بيَّن أيضًا بَعْده بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في أنَّهم يُحشَرون؛ والمقصود: بيانُ أنَّ الحشرِ والبعث كما هو حاصلٌ في حقِّ الناس، فهو أيضًا حاصلٌ في حق البهائم(١).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ كلامٌ مستأنف مسُوقٌ لبيانِ كمال قُدْرتِه ﷻ، وشمولِ علمِه، وسَعةِ تدبيره؛ ليكونَ كالدليل علىٰ أنَّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ تنزيلِ الآية؛ وإنَّما لا ينزِّلُها محافظةً علىٰ الحِكَمِ البالغة(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٩﴾

لمَّا كان التقديرُ بعد التذكيرِ بهذه الآيةِ التي تنوَّعتْ فيها الآياتُ، وتكرَّرتْ وتكثَّرت فيها الدَّلالات؛ فالذين آمنوا أحياءٌ سامعون لأقوالِنا، ناطقون بمَحامدِنا، راؤُونَ لأفعالنا: عطَف عليه قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٢٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣١).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٠٧، ١٠٨).

يجوز أن تكونَ الواوُ للعطفِ، والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ والمعنىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم يستمِعوا لها؛ أي: لا يستجيبون: بمنزلةِ صُمٍّ وبُكْمٍ في ظلماتٍ لا يهتدون. ويجوز أن تكونَ الجملةُ مستأنَفةً، والواوُ استئنافية؛ أي: عاطفة كلامًا مبتدأً ليس مرتبطًا بجملةٍ معيَّنة مِن الكلامِ السابق، ولكنَّه ناشئٌ عن جميعِ الكلام المتقدم[١].

لمَّا تقدَّم قولُه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أخبَر أنَّ المكذِّبين بالآياتِ صُمٌّ لا يَسمَعون مَن ينبِّهُهم؛ فلا يستجيب أحدٌ منهم، ولمَّا كان قولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآيةَ منبِّهًا علىٰ عظيمِ قدرة الله تعالىٰ، ولطيفِ صُنْعِه، وبديعِ خَلْقِه: ذكَر أنَّ المكذِّبَ بآياتِه هو أصَمُّ عن سماعِ الحق، أبكَمُ عن النطقِ به[٢].

في وجهِ النَّظْمِ قولان: الأول: أنَّه تعالىٰ بيَّن مِن حالِ الكفار أنَّهم بلَغوا في الكفرِ إلىٰ حيث كأنَّ قلوبَهم قد صارت ميِّتةً عن قَبولِ الإيمانِ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فذكَر هذه الآيةَ تقريرًا لذلك المعنىٰ. الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في قولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في كونِها دالَّةً علىٰ كونِها تحت تدبيرِ مدبِّرٍ قديم، وتحت تقديرِ مقدِّرٍ حكيم، وفي أنَّ عنايةَ اللهِ محيطةٌ بهم، ورحمتَه واصلةٌ إليهم: قال بَعْده: والمكذِّبون لهذه الدلائلِ والمنكِرون لهذه العجائبِ صُمٌّ لا يَسمَعون كلامًا البتَّةَ، بُكْمٌ لا يَنطِقون بالحقِّ، خائضون في ظلماتِ الكفرِ، غافلون عن تأمُّلِ هذه الدلائل[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢١٨).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٠٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٠).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ ﴾

لمَّا كانت هذه الآيةُ - بما فيها مِن التصريحِ بالتكذيب - شديدةَ الاعتناقِ لقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الآيتينِ: رجَع بالذي بعدها إلىٰ فَذْلكةِ التفاصيلِ الماضية، وواسطةِ عِقْدِها، وفريدةِ دُرِّها؛ وهو التوحيدُ الذي أبانته الأدلةُ قبل الآيتينِ، فقال دالًّا علىٰ اعتقادِهم القدرةَ التي استلزَم نَعْتُهم بطلبِ الآيةِ نفيَها، واعتقادِهم للتوحيدِ في الجملة وهم يكذِّبون به؛ بيانًا لأنَّهم في الظلماتِ مقهورون بيدِ المشيئة؛ لعدمِ تحاشيهم مِن التناقضِ، معجِّبًا منهم: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ يَتضمَّن تهديدًا بالوعيد طَرْدًا للأغراضِ السابقة، وتخلَّله تعريضٌ بالحثِّ علىٰ خَلْعِ الشرك؛ إذ ليس لشركائهم نَفْعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تَعرِضُ لهم يَلجَؤون فيها إلىٰ الله. وأُلقِيَ عليهم سؤالٌ: أيستمِرُّون علىٰ الإشراكِ بالله في تلك الحالةِ؟ وهل يستمِرُّون مِن الآن علىٰ الشركِ إلىٰ أن يأتيَهم العذابُ أو تأتيَهم القيامةُ حين يَلجؤون إلىٰ الإيمانِ بوَحْدانيَّته، ولاتَ حينَ إيمان؟![(٢)].

هذا ابتداءُ احتجاجٍ علىٰ الكفارِ الذين يجعلون للهِ شركاءَ[(٣)].

لمَّا بيَّن غايةَ جهلِ أولئك الكفارِ، بيَّن مِن حالِهم أيضًا أنَّهم إذا نزَلتْ بهم بليَّةٌ أو مِحْنة، فإنَّهم يَفزَعون إلىٰ الله تعالىٰ، ويَلجَؤون إليه، ولا يَتمرَّدون عن طاعته[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٢١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٢).

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

لمَّا كان استفهامُ الإنكارِ بمعنىٰ النفي، كان كأنَّه قيل: لا تَدْعون غيرَه، فعطَف عليه قولَه: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾[(١)].

قامت الحُجَّةُ عليهم مِن الآن؛ لأنَّ مَن لا يُغنِي في بعضِ الشدائد لا ينبغي الاعتمادُ عليه في بعضٍ آخرَ؛ ولذلك كان موقعُ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ عَقِبَ هذا الاستفهامِ موقعَ النتيجةِ للاستدلال. فحرفُ ﴿ بَلْ ﴾ لإبطالِ دعوةِ غيرِ الله[(٢)].

بل تخُصُّونه بالدعاءِ دُونَ الآلهة، والاختصاصُ عندنا والحصرُ فُهِمَ مِن سياقِ الكلام، لا مِن تقديمِ المفعولِ علىٰ العامل، و﴿ بَلْ ﴾ هنا للإضرابِ، والانتقالِ مِن شيءٍ إلىٰ شيء مِن غيرِ إبطالٍ لِما تضمَّنه الكلامُ السابق مِن معنىٰ النفي؛ لأنَّ معنىٰ الجملةِ السابقة النفيُ، وتقديرُها: ما تَدْعون أصنامَكم لكشفِ العذاب، وهذا كلامٌ حقٌّ، لا يمكِنُ فيه الإضرابُ بمعنىٰ الإبطالِ[(٣)].

لمَّا كان مِن المعلومِ بالضرورة أنَّهم إنَّما يَرجِعون إلىٰ اللهِ تعالىٰ في دفعِ البلاء والمِحْنة، لا إلىٰ الأصنامِ والأوثان: لا جرَمَ قال: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾؛ يعني: أنَّكم لا تَرجِعون في طلبِ دفعِ البليَّةِ والمِحْنة إلا إلىٰ الله تعالىٰ[(٤)].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةٍ منفيَّة، يُنبِئ عنها الجملةُ التي تعلَّق بها الاستخبارُ إنباءً جليًّا، كأنَّه قيل: لا غيرَه تعالىٰ تَدْعون، ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٢٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥١٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٢).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

لمَّا أقام لهم بهذه الآيةِ علىٰ توحيدِه الدليلَ حتىٰ استنارت السُّبلُ في تذكيرِهم أنَّ التضرُّعَ قد يُكشَفُ به البلاءُ، أخبرهم أنَّ تَرْكَه يوجِبُ الشقاءَ؛ ترغيبًا في إدامتِه، وترهيبًا مِن مجانبتِه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[(١)].

لمَّا أنذَرهم بتوقُّعِ العذاب، أعقَبه بالاستشهادِ علىٰ وقوعِ العذاب بأُمَمٍ مِن قبلُ؛ ليَعلَم هؤلاء أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ في الذين ظلَموا بالشرك. وهذا الخبرُ مستعمَلٌ في إنذارِ السامعين مِن المشركين علىٰ طريقةِ التعريض، وهم المخاطَبون بالقولِ المأمور به في الجملةِ التي قبلها. فجملةُ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، والواوُ لعطفِ الجُمَل، فتكونُ استئنافيةً؛ إذ كانت المعطوفُ عليها استئنافًا[(٢)].

هذا تسليةٌ للرسولِ ﷺ، وأنَّ عادةَ الأُمَمِ مع رُسُلِهم التكذيبُ، والمبالَغةُ في قسوةِ القلوب، حتىٰ هم إذا أُخِذوا بالبلايا لا يَتذلَّلون للهِ، ولا يَسألونه كشفَها، وهؤلاء الأُمَمُ الذين بعَث اللهُ تعالىٰ إليهم الرُّسلَ أبلَغُ انحرافًا وأشَدُّ شكيمةً وأجلَدُ مِن الذين بُعِث إليهم رسولُ الله ﷺ[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ الكفارَ عند نزولِ الشدائد يَرجِعون إلىٰ الله تعالىٰ، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم لا يَرجِعون إلىٰ الله عند كلِّ ما كان مِن جنسِ الشدائد، بل قد يَبقَوْنَ مُصِرِّينَ علىٰ الكفرِ، منجمِدين عليه، غيرَ راجعين إلىٰ الله تعالىٰ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٢٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥١٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٣).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ أنَّ منهم مَن لا يَدْعو اللهَ تعالىٰ عند إتيانِ العذابِ أيضًا؛ لتَماديهم في الغَيِّ والضَّلال، لا يَتأثرون بالزواجرِ التكوينية؛ كما لا يَتأثرون بالزواجر التنزيلية(١).

﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾

لمَّا لم يقَعْ منهم ما أوجَبتِ الحالُ رجاءَه، تسبَّب عنه الإنكارُ عليهم، فقال معبِّرًا بأداةِ التخصيصِ؛ ليُفيدَ مع النفيِ أنَّهم ما كان لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرُّعِ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٢).

«لولا» هنا حرفُ تحضيضٍ، يَليها الفعلُ ظاهرًا أو مُضمرًا، ويُفصَل بينهما بمعمولِ الفعلِ مِن مفعولٍ به وظرفٍ كهذه الآيةِ، فصَل بَيْنَ ﴿فَلَوۡلَآ﴾ و﴿تَضَرَّعُواْ﴾ بـ﴿إِذۡ﴾، وهي معمولةٌ لـ﴿تَضَرَّعُواْ﴾، والتحضيضُ يدل علىٰ أنَّه لم يقَعْ تضرُّعُهم حين جاء البأسُ؛ فمعناه إظهارُ معاتَبةِ مذنِبٍ غائب، وإظهارُ سُوءِ فعلِه؛ ليَتحسَّرَ عليه المخاطَبُ، وإسنادُ المجيءِ إلىٰ البأسِ مَجازٌ عن وصولِه إليهم، والمرادُ أوائلُ البأسِ وعلاماتُه(٣).

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾؛ معناه: نفيُ التضرع؛ والتقدير: فلم يَتضرَّعوا إذ جاءهم بأسُنا. وذِكْرُ كلمةِ «لولا» يفيد أنَّه ما كان لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرعِ إلا عنادُهم وقسوتُهم، وإعجابُهم بأعمالِهم التي زيَّنها الشيطانُ لهم(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٣).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١١٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥١٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٤).

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ مِن تمامِ القصة الأولىٰ؛ فبيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّه أخَذهم أولًا بالبأساءِ والضرَّاء لكي يَتضرَّعوا، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم لمَّا نسُوا ما ذُكِّروا به مِن البأساءِ والضراء، فتَحْنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء، ونقَلْناهم مِن البأساءِ والضراء إلىٰ الراحةِ والرخاء، وأنواعِ الآلاء والنَّعماء، والمقصودُ أنَّه تعالىٰ عامَلهم بتسليطِ المكارهِ والشدائد عليهم تارةً؛ فلم يَنتفعوا به، فنقَلهم مِن تلك الحالةِ إلىٰ ضدِّها؛ وهو فتحُ أبوابِ الخيرات عليهم، وتسهيلُ موجِبات المسرَّات والسعادات لديهم؛ فلم يَنتفعوا به أيضًا(١).

قوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾(٢).

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾؛ أي: فلمَّا ترَكوا الاتعاظَ والازدجار بما ذُكِّروا به مِن البأسِ، استدرَجْناهم بتيسيرِ مطالبِهم الدنيوية، وعبَّر عن ذلك بقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾؛ إذ يقتضي شمولَ الخيرات، وبلوغَ الطلبات(٣).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لمَّا كان مِن عادةِ الغالبِ مِن أهل الدنيا أن يفُوتَه آخِرُ الجيوشِ وشُذَّابُهم لِمَلَلِ أصحابِه مِن الطلب، وضجَرِهم مِن النَّصَب والتعب، وقصورِهم عن الإحاطةِ بجميع

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٢٩).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥١٤).

الأَرَب: أخبَر تعالىٰ أنَّ أَخْذَه علىٰ غيرِ ذلك، وأنَّ نَيْلَه للآخِرِ كنَيْلِه للأولِ علىٰ حدٍّ سواءٍ، فقال مسبِّبًا عن الأخذِ الموصوف مشيرًا بالبناءِ للمفعول إلىٰ تمام القدرة، وبالدابرِ إلىٰ الاستئصال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

جملةُ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾؛ أي: فأخَذْناهم أخذَ الاستئصالِ، فلم يُبقِ فيهم أحدًا[(٢)].

عبارةٌ عن استئصالِهم بالهلاك؛ والمعنىٰ: فقُطِع دابرُهم، ونبَّه علىٰ سببِ الاستئصال بذِكْرِ الوصفِ الذي هو الظُّلْمُ؛ وهو هنا الكفرُ[(٣)].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

لمَّا قدَّم التنبيهَ بإتيانِ مطلَقِ العذاب في مطلقِ الأحوال، وكان الإتيانُ بالكافِ ثَمَّ مشيرًا مع إفادةِ التأكيد إلىٰ أنَّ ثَمَّ نوعَ مُهْلةٍ، وأتبَعه أنَّ أخذَ الأُمَمِ كان بَغْتةً: أعقبه التنبيهَ بعذابٍ خاص، تصوُّرُ شناعتِهِ يَهدُّ الأركانَ، ويَقطَع الكُبودَ، ويملأ الجَنانَ؛ فإنَّه لا أشنَعَ حالًا مِن أصَمَّ أعمىٰ مجنونٍ، فقال مشيرًا - بإسقاطِ كافِ الخطاب مع التعبيرِ بالأخذ الذي عُهِد أنَّه للبَغْتِ بالسطوةِ والقهر - إلىٰ غايةِ التحذير مِن سرعة الأخذ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥١٥).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١١٧، ١١٨).

استئنافٌ ابتدائيٌّ عادَ به إلىٰ الجدالِ معهم في إشراكِهم بالله تعالىٰ بعد أن انصرَف الكلامُ عنه بخصوصِه مِن قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗ﴾، وما تفنَّن عَقِبَ ذلك مِن إثباتِ البعث، وإثباتِ صدقِ الرسول، وذِكْرِ القوارعِ والوعيد، إلىٰ قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الآياتِ. وتكريرُ الأمرِ بالقول للوجهِ الذي تقدَّم آنفًا عند قولِه تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ[(١)].

لمَّا ذكَر أولًا تهديدَهم بإتيانِ العذابِ أو الساعة، كان ذلك أعظَمَ مِن هذا التهديدِ؛ فأكَّد خطابَ الضمير بحرفِ الخطاب، فقيل: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾، ولمَّا كان هذا التهديدُ أخفَّ مِن ذلك، لم يؤكَّدْ به، بل اكتُفي بخطابِ الضمير، فقيل: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾[(٢)].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا الكلامِ ذِكْرُ ما يدلُّ علىٰ وجودِ الخالقِ الحكيم المختار، وتقريرُه أنَّ أشرفَ أعضاءِ الإنسان هو السمعُ والبصر والقلب؛ فالأُذُنُ محَلُّ القوةِ السامعة، والعينُ محل القوةِ الباصرة، والقلبُ محل الحياةِ والعقل والعلم. ومِن المعلومِ بالضرورة أنَّ القادرَ علىٰ تحصيلِ هذه القُوَىٰ فيها، وصَوْنِها عن الآفاتِ والمَخافات ليس إلا الله، وإذا كان الأمرُ كذلك، كان المُنعِمُ بهذه النِّعَمِ العالية والخيراتِ الرفيعة هو الله ﷻ؛ فوجَب أن يقالَ: المستحِقُّ للتعظيمِ والثناء والعبودية ليس إلا اللهُ تعالىٰ؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ عبادةَ الأصنامِ طريقةٌ باطلة فاسدة[(٣)].

ما زال السياقُ في دعوةِ العادلين بربِّهم الأصنامَ والأوثان إلىٰ التوحيد، فقال تعالىٰ لنبيِّه يلقِّنه الحُجَجَ التي تُبطِلُ باطلَ المشركين: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٣).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٥).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٦١).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لمَّا قرَن الأخذَ بالبَغْتِ تارةً صريحًا، وتارةً بإسقاط الكاف؛ كان ربما وقَع في وهَمٍ السؤالُ عن حالةِ الجهر: أتبَع ذلك ذِكْرَه مفصَّلًا لِما أجمَلَ مِن الأحوالِ في الآيتينِ قبلُ، فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١].

استئنافٌ للتهديدِ والتوعُّد، وإعذارٌ لهم بأنَّ إعراضَهم لا يَرجِع بالسُّوء إلا عليهم، ولا يضرُّ بغيرِهم[٢].

هذا تهديدٌ ثالث؛ فالأولُ بأحدِ أمرين: العذابِ والساعة، والثاني: بالأخذِ والخَتْمِ، والثالث: بالعذابِ فقط[٣].

اعلَمْ أنَّ الدليلَ المتقدِّم كان مختصًّا بأخذِ السمعِ والبصر والقلب، وهذا عامٌّ في جميعِ أنواع العذاب؛ والمعنىٰ: أنَّه لا دافعَ لنوعٍ مِن أنواعِ العذاب إلا اللهُ سبحانه، ولا محصِّلَ لخيرٍ مِن الخيراتِ إلا اللهُ سبحانه؛ فوجَب أن يكونَ هو المعبودَ بجميعِ أنواعِ العبادات، لا غيرُه[٤].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تبكيتٍ لهم آخرَ بإلجائهم إلىٰ الاعترافِ باختصاصِ العذاب بهم بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٥].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥١٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٦).

(٥) محاسن التأويل (٤/ ٣٦٣).

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

لمَّا كان ذلك كلُّه في مناضَلةِ مَن كذَّب الرُّسلَ، وأعرَض عمَّا أرسَلهم به ربُّهم مِن الآياتِ التي ما منها إلا ما آمَن علىٰ مِثْلِهِ البشَرُ، وطلبه منهم ما لا يَقدِرُ عليه إلا مرسِلُهم مِن الإتيانِ بغيرِ ما أتَوْا به مِن الآيات: بيَّن لهم حقيقةَ الرسالة؛ إشارةً إلىٰ ظُلْمِهم في طلبِهم مِن الرُّسلِ ما لا يُطلَبُ إلا مِن الإلهِ، فقال عاطفًا علىٰ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾. والمناسبةُ أنَّ صُدوفَهم وإعراضَهم كانوا يَتعلَّلون له بأنَّهم يَرُومون آياتٍ علىٰ وَفْقِ مقترَحِهم، وأنَّهم لا يَقنَعون بآياتِ الوَحْدانية، فأنبأهم اللهُ بأنَّ إرسالَ الرُّسلِ للتبليغِ والتبشير والنِّذارة، لا للتلهِّي بهم باقتراحِ الآيات[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الكفارِ فيما تقدَّم أنَّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وذكَر اللهُ تعالىٰ في جوابِهم ما تقدَّم مِن الوجوهِ الكثيرة، ثم ذكَر هذه الآيةَ؛ والمقصودُ منها: أنَّ الأنبياءَ والرُّسلَ بُعِثوا مبشِّرين ومنذِرين، ولا قدرةَ لهم علىٰ إظهارِ الآيات، وإنزالِ المعجِزات؛ بل ذاك مفوَّضٌ إلىٰ مشيئةِ الله تعالىٰ، وكلمتِه، وحِكْمته، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٧).

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ وظائفِ منصبِ الرسالة علىٰ الإطلاق، وتحقيقِ ما في عُهْدةِ الرُّسلِ عليهم السلام، وإظهارِ أنَّ ما يَقترحه الكفرةُ عليه ﷺ ليس ممَّا يَتعلَّق بالرسالة أصلًا[1].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٤٩﴾

لمَّا بيَّن حالَ المصلِحين، أتبَعه حالَ المفسِدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[2].

لمَّا ذكَر جزاءَ المؤمنين في الآيةِ السابقة، ناسَب أن يذكُرَ هنا جزاءَ المكذِّبين.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾

لمَّا لم يكُنْ لهم عهدٌ بأنَّ بشَرًا يكونُ عنده الخزائنُ، يَتصرَّف فيها بما يريدُ، وكان يأتيهم -مِن الآياتِ مِن انشقاقِ القمر، ومشيِ الشجر، وكلامِ الضَّبِّ والحَجَر، ونَبْعِ الماء، والحراسةِ بشُوَاظِ النارِ وفَحْلِ الجِمال، ونحوِ ذلك ممَّا هو معلومٌ في دلائلِ النبوة- بما ربما أوقَع في ظنِّهم أنَّ لازِمَه دَعْواه لأنَّه يَملِكُ الخزائنَ؛ فكانوا يَقترحون عليه الآياتِ الدالةَ إلزامًا له بذلك؛ لقصدِ التكذيب: نفَىٰ ما ظنُّوا أنَّه يَلزمه دَعْواه، فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٥).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٢١).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٢٢).

لمَّا تقضَّتِ المجادَلةُ مع المشركين في إبطالِ شِرْكِهم، ودحضِ تعاليلِ إنكارهم نبوءةَ محمَّدٍ ﷺ بأنَّهم لا يؤمِنون بنبوءته إلا إذا جاء بآيةٍ علىٰ وَفْقِ هواهم، وأُبطِلت شُبْهتُهم بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وكان محمَّدٌ ﷺ ممَّن شَمِله لفظُ المرسَلين: نقَل الكلامَ إلىٰ إبطالِ معاذيرِهم، فأعلَمهم اللهُ حقيقةَ الرسالة، واقترانها بالآيات؛ فبيَّن لهم أنَّ الرسولَ هو الذي يَتحدىٰ الأمَّةَ؛ لأنَّه خليفةٌ عن اللهِ في تبليغِ مراده مِن خَلْقه، وليست الأمَّةُ هي التي تَتحدىٰ الرسولَ؛ فآيةُ صِدْقِ الرسولِ تجيء علىٰ وَفْقِ دَعْواه الرسالةَ، فلو ادَّعىٰ أنَّه ملَكٌ، أو أنَّه بُعِث لإنقاذِ الناس مِن أرزاءِ الدنيا، ولإدناءِ خيراتِها إليهم: لكان مِن عُذْرِهم أن يَسألوه آياتٍ تؤيِّدُ ذلك، فأمَّا والرسولُ مبعوثٌ للهدىٰ، فآيتُه أن يكونَ ما جاء به هو الهدىٰ، وأن تكونَ مُعجِزتُه هو ما قارَن دَعْوتَهُ ممَّا يَعجِزُ البشَرُ عن الإتيانِ بمثلِه في زمَنِهم[(١)].

وهذه الثلاثُ جوابٌ لِما سأله المشركون؛ فالأولُ: جوابٌ لقولِهم: إن كنتَ رسولًا، فاسألِ اللهَ حتىٰ يوسِّعَ علينا خزائنَ الدنيا، والثاني: جوابٌ لقولهم: إن كنتَ رسولًا، فأخبِرْنا بما يقعُ في المستقبَلِ مِن المصالحِ والمَضارِّ؛ فنستعِدَّ لتحصيلِ تلك، ودفعِ هذه، والثالث: جوابُ قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ ؟![(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا مِن بقيةِ الكلامِ علىٰ قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فقال اللهُ تعالىٰ: قُلْ لهؤلاء الأقوامِ: إنَّما بُعِثْتُ مبشِّرًا ومنذِرًا، وليس لي أن أتحكَّمَ علىٰ اللهِ تعالىٰ، وأمَره اللهُ تعالىٰ أن يَنفِيَ عن نفسِه أمورًا ثلاثة[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٧).

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ ما أُسِّس مِن السُّنةِ الإلهيَّة في شأنِ إرسال الرُّسل، وإنزالِ الكتب، مسُوقٌ لإظهارِ تبرُّئه ﷺ عمَّا يدورُ عليه مقترَحاتُهم(١).

﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

لمَّا أمَره بتوبيخهم، أمَره - عاطفًا علىٰ قوله: ﴿ قُل ﴾ - بالإنذارِ علىٰ وجهٍ مُخْزٍ لهم أيضًا، فقال: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾(٢).

الأظهرُ أنَّه عطفٌ علىٰ قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾؛ لأنَّ ذلك مقدِّمةٌ لذِكرِ مَن مُثِّلتْ حالُهم بحالِ البصير؛ وهم المؤمنون(٣).

لمَّا أخبرَ أنَّه لا يتَّبعُ إلا ما يوحىٰ إليه، أمَره اللهُ تعالىٰ أن يُنذِرَ به، فقال: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ﴾؛ أي: بما أُوحيَ إليك(٤).

لمَّا وصَف الرُّسلَ بكونِهم مبشِّرين ومنذِرين، أمَر الرسولَ في هذه الآيةِ بالإنذار، فقال: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٦).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٤).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥١٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٩).

بعد ما حُكِي لرسولِ الله ﷺ أنَّ مِن الكفَرةِ قومًا لا يَتعظون بتصريفِ الآيات الباهرة، ولا يَتأثرون بمشاهَدةِ المعجزات القاهرة، قد إيفَتْ[1] مشاعرُهم بالكلية، والتحَقوا بالأموات، وقُرِّر ذلك بأن كُرِّر عليهم مِن فنونِ التبكيت والإلزام ما يُلقِمُهم الحَجَرَ أيَّ إلقام، فأبَوْا إلا الإباءَ والنكير، وما نجَع فيهم عِظَةٌ ولا تذكير، وما أفادهم الإنذارُ إلا الإصرارَ على الإنكار: أُمِر ﷺ بتوجيهِ الإنذار إلى مَن يَتوقع منهم التأثُّرَ في الجملة؛ وهم المجوزون منهم للحشرِ على الوجهِ الآتي، سواءٌ كانوا جازمين بأصلِه؛ كأهلِ الكتاب، وبعضِ المشركين المعترفين بالبعث، المتردِّدين في شفاعةِ آبائهم الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام كالأوَّلين، أو في شفاعةِ الأصنام كالآخِرين، أو متردِّدين فيهما معًا؛ كبعضِ الكفرةِ الذين يُعلَم مِن حالهم أنَّهم إذا سَمِعوا بحديثِ البعث يخافون أن يكونَ حقًّا، وأمَّا المنكِرون للحشرِ رأسًا، والقائلون به، القاطعون بشفاعةِ آبائهم، أو بشفاعةِ الأصنام: فهم خارجون ممَّن أُمِر بإنذارهم[2].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لمَّا أمَره بدعاءِ مَن أعرَض عنه ومجاهَرتِه، أمَره بحفظِ مَن تَبِعه وملاطفته، فقال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

عطفٌ على قوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾؛ لأنَّه في معنى أنذِرْهم ولازِمْهم، وإن كَرِه ذلك متكبِّرو المشركين[4].

---

(١) أي: أصابتها الآفة.

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٢٦).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٥).

لمَّا أمَر تعالىٰ بإنذارِ غير المتقين لعلَّهم يَتَّقون، أردَف ذلك بتقريبِ المتَّقين، وإكرامِهم، ونهاه عن طردِهم، ووصَفهم بموافَقةِ ظاهرِهم لباطنهم؛ مِن دعاءِ ربِّهم، وخلوص نيَّاتِهم[(١)].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

الواوُ استئنافيةٌ كما هي في نظائرِه. والجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السامعَ لمَّا شعَر بقصةٍ أومأ إليها قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآيةَ، يأخذُه العجَبُ مِن كِبْرياءِ عُظَماءِ أهلِ الشرك، وكيف يَرضَون البقاءَ في ضلالةٍ تكبُّرًا عن غِشْيانِ مجلسٍ فيه ضعفاءُ الناسِ مِن الصالحين، فأُجيبَ بأنَّ هذا الخُلُقَ العجيب فتنةٌ لهم، خلَقها اللهُ في نفوسهم بسُوءِ خُلُقِهم[(٢)].

الكافُ للتشبيهِ في موضعِ نصبٍ، والإشارةُ بذلك إلىٰ فُتُونٍ[(٣)] سابق، وقد تقدَّم ذِكْرُ أُمَمِ رُسلٍ، وإرسالِهم مبشِّرين ومنذِرين، وتقسيمِ أُمَمِهم إلىٰ مؤمنٍ ومكذِّب؛ فدل ذلك علىٰ أنَّ أتباعَ الرُّسلِ مختلِفون، وواقعٌ فيهم الفُتُونُ لا محالةَ؛ كما وقَع في هذه الأمَّة؛ فشبَّه تعالىٰ ابتلاءَ هذه الأمَّةِ واختبارَها بابتلاء الأُمَمِ السالفة؛ أي: حالُ هذه الأمَّةِ حالُ الأُمَم السابقة في فُتُونِ بعضِهم ببعضٍ، والفُتُونُ بالغِنىٰ والفقر، أو بالشَّرف والوَضاعة، والقوةِ والضعف[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٥٢).

(٣) مصدر بمعنىٰ الفتنة.

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٢٥).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ كلَّ واحدٍ مبتلًىٰ بصاحبِه؛ فأولئك الكفارُ الرُّؤساء الأغنياء كانوا يحسُدون فقراءَ الصحابة علىٰ كونِهم سابقين في الإسلام، مسارِعين إلىٰ قَبوله، فقالوا: لو دخَلْنا في الإسلام، لوجَب علينا أن ننقادَ لهؤلاء الفقراءِ المساكين، وأن نعترِفَ لهم بالتَّبعيةِ، فكان ذلك يشُقُّ عليهم. وأمَّا فقراءُ الصحابة، فكانوا يرَوْن أولئك الكفارَ في الراحاتِ والمسرَّات، والطيِّبات والخِصْبِ والسَّعة؛ فكانوا يقولون: كيف حصَلتْ هذه الأحوالُ لهؤلاء مع أنَّا بَقِينا في هذه الشِّدة والضِّيق والقِلَّة؟![1].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لِما نشأ عنه ما سبَق مِن النَّهيِ؛ وذلك إشارةٌ إلىٰ مصدرِ ما بعده مِن الفعلِ، الذي هو عبارةٌ عن تقديمِه تعالىٰ لفقراءِ المؤمنين في أمرِ الدِّين بتوفيقِهم للإيمان، مع ما هم عليه في أمرِ الدنيا مِن كمالِ سُوءِ الحال، وما فيه مِن معنىٰ البُعْدِ؛ للإيذانِ بعلوِّ درجتِه المشارِ إليه، وبُعْدِ منزلتِه في الكمال[2].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾

لمَّا نهاه ﷺ عن طردِهم، علَّمه كيف يلاطِفُهم، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: وإذا جاءك الذين يَحتقرون الضُّعفاءَ مِن عبادي، فلا تَحفِلْ بهم: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٤٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٣٠).

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، وهو ارتقاءٌ في إكرام الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداةِ والعشيِّ؛ فهُمُ المرادُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾(١).

يرشِدُ اللهُ تبارك وتعالىٰ رسولَه ﷺ إلىٰ الطريقةِ المثلىٰ في الدعوةِ إليه بعد أن نهاه عن الطريقةِ التي هَمَّ بها؛ وهي طردُ المؤمنين مِن مجلسِه ليَجلِسَ الكافرون؛ رجاءَ هدايتِهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

ولمَّا نهىٰ اللهُ رسولَه ﷺ عن طردِ المؤمنين القانتين، أمَره بمقابَلتِهم بالإكرامِ والإعظام، والتبجيلِ والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

لمَّا أتىٰ في هذه السورةِ وما قبلها بما أتىٰ مِن عجائبِ التفاصيلِ لجميعِ الأحوال متضمِّنةً واضحَ الدلالات، وباهرَ الآياتِ البيِّنات: قال عاطفًا علىٰ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ عطفًا للضدِّ علىٰ ضدِّه - فإنَّ في الاختبارِ نوعَ خفاءٍ -: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومِثْلَ ذلك الفتْنِ بإيرادِ بعضِ ما فيه دقَّةٌ وخَفاء مِن بعضِ الوجوه؛ لنُضِلَّ مَن نشاء، فيَتميَّزَ الضالُّ مِن المهتدي ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٥٦).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٦٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٥٨).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٣١).

الواوُ استئنافيةٌ؛ كما تقدَّم في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾. والجملةُ تذييلٌ للكلامِ الذي مضىٰ مبتدِئًا بقولِه تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[(١)].

الكافُ للتشبيه؛ وذلك إشارةٌ إلىٰ التفصيلِ الواقع في هذه السورةِ؛ أي: ومِثلَ ذلك التفصيلِ البيِّن نفصِّلُ آياتِ القرآن، ونلخِّصُها في صفةِ أحوال المجرِمين؛ مَن هو مطبوعٌ علىٰ قلبِه لا يُرجَىٰ إسلامُه، ومَن تُرىٰ فيه أَمَارةُ القَبول؛ وهو الذي يَخاف إذا سَمِع ذِكْرَ القيامة، ومَن دخَل في الإسلامِ إلا أنَّه لا يَحفَظ حدودَه[(٢)].

المرادُ: كما فصَّلْنا لك في هذه السورةِ دلائلَنا علىٰ صحةِ التوحيدِ والنبوَّة والقضاء والقَدَر، فكذلك نميِّزُ ونفصِّلُ لك دلائلَنا وحُجَجَنا في تقريرِ كلِّ حقٍّ يُنكِره أهلُ الباطل[(٣)].

إنَّه تعالىٰ بعد أن نهىٰ رسولَه عن الاستجابةِ لاقتراح المشركين المتكبِّرين، وعن طردِ المؤمنين، وعن حِكْمتِه في وجودِ أغنياءَ وفقراءَ وأقوياءَ وضعفاءَ في الناس، وعن الطريقةِ المُثْلىٰ في استقبالِ التائبين المستفتِين؛ بعد هذا كلِّه قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: مِثْلَ هذا التفصيلِ نفصِّلُ الآياتِ مستقبَلًا لبيانِ الهداية الإلهيَّة؛ ليهتديَ مَن أراد اللهُ له الهدايةَ وقد طلَبها ورَغِب فيها، ولتستبينَ وتتضِحَ سبيلُ المجرمين؛ فلا تُتَّبَعَ، ويُنْهَىٰ عن اتباعِها؛ لأنَّها طريقُ الهلاك والدمار[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٦٧).

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

لمَّا كان محطُّ حالِهم في السؤال طَرْدَ الضعفاءِ قَصْدَ اتباعِ أهوائهم، أمَره تعالىٰ بأن يُخبِرَهم أنَّه مبايِنٌ لهم - لِما بيَّن له بالبيانِ الواضح مِن سُوءِ عاقبة سبيلِهم - مبايَنةً لا يمكِنُ معها اتباعُ أهوائهم؛ وهي المبايَنةُ في الدِّين، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ عادَ به الكلامُ إلىٰ إبطالِ الشرك بالتبرؤ مِن عبادةِ أصنامهم؛ فإنَّه بعد أن أبطَل إلهيَّةَ الأصنام بطريقِ الاستدلال، جاء في هذه الآيةِ بطريقةٍ أخرىٰ لإبطالِ عبادة الأصنام؛ وهي أنَّ الله نهىٰ رسولَه ﷺ عن عبادتِها، وعن اتباعِ أهواءِ عبَدَتِها(٢).

لمَّا ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة ما يدل علىٰ أنَّه يفصِّلُ الآيات؛ ليَظهَر الحقُّ، وليستبينَ سبيلُ المجرمين: ذكَر في هذه الآيةِ أنَّه تعالىٰ نهىٰ عن سلوكِ سبيلِهم، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(٣).

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أُمِر ﷺ بالرجوعِ إلىٰ مخاطَبةِ المصرِّين علىٰ الشركِ إثرَ ما أُمِر بمعامَلةِ مَن عداهم مِن أهلِ الإنذار والتبشير بما يَليق بحالهم(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤١).

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

لمَّا كان طلَبُهم للآياتِ - أي: العلاماتِ الدالة على الصدقِ تارةً بالرحمةِ في إنزالِ الأنهار والكنوز وإراحة الحياة، وتارةً بالعذابِ مِن إيقاع السماءِ عليهم كِسَفًا، ونحو ذلك - ليس في يدِه، ولا عنده تعيُّنُ وقتِ نزوله، وأمَره هنا أن يصرِّحَ لهم بالمبايَنةِ، ويؤيِسَهم مِن الملايَنةِ ما داموا على المداهَنة: أمَره بأن يُخبِرَهم بما هو متمكِّنٌ فيه مِن النُّورِ وما هم فيه مِن العمَى بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقَل به الكلامُ مِن إبطالِ الشرك بدليلِ الوحي الإلهيِّ المؤيِّد للأدلةِ السابقة إلى إثباتِ صدقِ الرسالة بدليلٍ مِن الله مؤيِّد للأدلةِ السابقة أيضًا؛ ليَيْئَسوا مِن محاولةِ إرجاعِ الرسول ﷺ عن دعوتِه إلى الإسلام، وتشكيكِه في وحيِه بقولهم: ساحر، مجنون، شاعر، أساطير الأولين، وليَيْئَسوا أيضًا مِن إدخالِ الشك عليه في صِدْقِ إيمانِ أصحابه، وإلقاءِ الوَحْشةِ بَيْنَه وبينهم بما حاوَلوا مِن طردِهِ أصحابَه عن مجلسِه حين حضورِ خصومه؛ فأمَره اللهُ أن يقولَ لهم: إنَّه على يقينٍ مِن أمرِ ربِّه لا يَتزعزع [(٢)].

لمَّا نفى أن يكونَ متَّبِعًا للهوى، نبَّه على ما يجب اتباعُه؛ وهو الأمرُ الواضح مِن الله تعالى [(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٣١).

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ تحقيقٌ للحقِّ الذي عليه رسولُ الله ﷺ، وبيانٌ لاتِّباعِه إيَّاه إثرَ إبطالِ الباطلِ الذي عليه الكفرةُ، وبيانُ عدمِ اتِّباعه[١].

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ تنبيهٌ علىٰ ما يجب اتباعُه بعدما بيَّن ما لا يجوزُ اتِّباعُه[٢].

﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يثير سؤالًا في نفسِ السامع أن يقولَ: فلو كان بيدِك إنزالُ العذاب بهم، ماذا تَصنَع؟ فأجيبَ بقوله: ﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ الآيةَ. وإذ قد كان قولُه: ﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي﴾ إلخ استئنافًا بيانيًّا، فالأمرُ بأن يقولَه في قوةِ الاستئناف البياني؛ لأنَّ الكلامَ لمَّا بُنِي كلُّه علىٰ تلقينِ الرسول ما يقولُه لهم، فالسائلُ يَتطلب مِن الملقِّنِ ماذا سيُلقِّن به رسولَه إليهم. ومعنىٰ ﴿عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ تقدَّم آنفًا؛ أي: لو كان في علمي حِكْمتُه، وفي قدرتي فعلُه. وهذا كنايةٌ عن معنىٰ لستُ إلهًا، ولكنني عبدٌ أتَّبِعُ ما يوحىٰ إليَّ[٣].

لو كان في قدرتي الوصولُ إلىٰ ما تَستعجلون به مِن اقتراحِ الآيات، أو مِن حلول العذاب: لبادَرْتُ إليه، ووقَع الانفصالُ بيني وبينكم[٤].

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾

ولمَّا كانت هذه الآياتُ مثبتةً لجزئياتٍ مِن علمِه تعالىٰ وقُدْرتِه، وكان ختامُها العلمَ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤١).

(٢) أنوار التنزيل (٢/ ١٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٩).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٣٢).

بالظالمِ وغيرِه: أتبَعها الاختصاصَ بما هو أعَمُّ مِن ذلك؛ وهو علمُ مفاتحِ الغيب، الذي لا يصلُ إليه إلا مَن حازها؛ إذ لا يطَّلِع علىٰ الخزائنِ إلا مَن فتَحها، ولا يَفتَحها إلا مَن حاز مفاتيحَها، وعَلِم كيف يَفتَحُ بها؛ فإثباتُ ذلك في هذا الأسلوبِ مِن باب الترقيةِ في مراقي الاعتقاد؛ مِن درجةٍ كاملة إلىٰ أكمَلَ منها، فقال عاطفًا علىٰ معنَىٰ ما سبق - وهو: فعنده خاصةُ جميعِ ذلك -: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ علىٰ طريقةِ التخلُّص. والمناسبةُ في هذا التخلُّصِ هي الإخبارُ بأنَّ الله أعلَمُ بحالةِ الظالمين؛ فإنَّها غائبةٌ عن عِيانِ الناس؛ فالله أعلَمُ بما يناسِبُ حالَهم؛ مِن تعجيلِ الوعيد أو تأخيره، وهذا انتقالٌ لبيانِ اختصاصه تعالىٰ بعلمِ الغيب، وسَعةِ علمه، ثم سَعةِ قُدْرته، وأنَّ الخَلْقَ في قبضة قدرته. وتقديمُ الظَّرف لإفادةِ الاختصاص؛ أي: عنده، لا عندَ غيره[2].

لمَّا قال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾: انتقَل مِن خاصٍّ إلىٰ عامٍّ؛ وهو علمُ الله بجميعِ الأمور الغَيْبية، واستعارَ للقدرةِ عليها المفاتحَ لمَّا كانت سببًا للوصولِ إلىٰ الشيء؛ فاندرَج في هذا العامِّ ما استعجَلوا وقوعَه، وغيرُه[3].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

لمَّا كان مِن مفاتحِ الغيبِ الموتُ والبعث الذي ينكِرونه، وكان مِن أدلتِه العظيمةِ

(١) نظم الدرر (٧/ ١٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٠).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٣٤).

النومُ والإيقاظ منه، مع ما فيه مِن الإحسانِ المتكرر، وكان فيه مع ذلك تقريرٌ لكمالِ القدرة بعد تقريرِه لكمال العلم: أتبَع ذلك قولَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1].

عطَف جملةَ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ علىٰ جملةِ ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ انتقالًا مِن بيانِ سَعةِ علمِه إلىٰ بيانِ عظيم قُدْرتِه؛ لأنَّ ذلك كلَّه مِن دلائلِ الإلهيَّة؛ تعليمًا لأوليائه، ونعيًا علىٰ المشركين أعدائه. وقد جرَتْ عادةُ القرآن بذِكرِ دلائلِ الوَحْدانية في أنفُسِ الناس عَقِبَ ذِكْرِ دلائلها في الآفاقِ؛ فجمَع ذلك هنا علىٰ وجهٍ بديع مؤذِنٍ بتعليمِ صفاته في ضمنِ دليلِ وَحْدانيته[2].

لمَّا ذكَر استئثارَه بالعلمِ التام للكليات والجزئيات، ذكَر استئثارَه بالقدرةِ التامة؛ تنبيهًا علىٰ ما تختصُّ به الإلهيَّة، وذكَر شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام؛ وهو التوفِّي بالليل، والبعثُ بالنهار، وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرةٌ؛ بل هو أمرٌ يوقِعُه اللهُ تعالىٰ بالإنسان، والتوفِّي: عبارةٌ في العُرْفِ عن الموتِ، وهنا المَعْنيُّ به النومُ علىٰ سبيل المَجازِ؛ للعَلاقةِ التي بينه وبين الموتِ؛ وهي زوالُ إحساسِه، ومعرفته، وفِكْرِه[3].

لمَّا بيَّن كمالَ علمِه بالآية الأُولىٰ، بيَّن كمالَ قُدْرتِه بهذه الآيةِ؛ وهو كونُه قادرًا علىٰ نقلِ الذوات مِن الموتِ إلىٰ الحياة، ومن النومِ إلىٰ اليقظة، واستقلالُه بحفظِها في جميع الأحوال، وتدبيرِها علىٰ أحسَنِ الوجوه حالةَ النومِ واليقظة[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٣٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٢).

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لمَّا أخبَر بتمامِ العلم والقدرة، أخبَر بغالبِ سلطنتِه، وعظيمِ جبروتِه، وأنَّ أفعالَه هذه علىٰ سبيلِ القهرِ، لا يستطاع مخالفتُها؛ فلو بالَغ أحدٌ في الاجتهادِ في أن ينامَ في غيرِ وقته، ما قدَر، أو أن يقومَ وقتَ النوم، لعجَز، أو أن يَحيَا وقتَ الموت، لم يستطِعْ، إلىٰ غيرِ ذلك، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾(١).

المناسبةُ هنا أنَّ النومَ والموت خلَقهما اللهُ، فغلَبا شِدَّةَ الإنسان كيفما بلَغتْ؛ فبيَّن عَقِبَ ذِكْرِهما أنَّ اللهَ هو القادرُ الغالب دُونَ الأصنام؛ فالنومُ قَهْرٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يريد ألا ينامَ، فيَغلِبُه النوم، والموتُ قهرٌ، وهو أظهَرُ، ومِن الكَلِمِ الحقِّ: سبحانَ مَن قهَر العبادَ بالموت!(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ مِن الدلائلِ الدالة علىٰ كمالِ قدرة الله تعالىٰ، وكمالِ حِكْمته(٣).

لمَّا قال في الآيةِ السابقة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، قال في هذه الآيةِ: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة البعثَ، ناسَب أن يذكُرَ هنا ما قبل البعثِ؛ وهو الموتُ.

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣).

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

الضميرُ في قوله: ﴿رُدُّوٓاْ﴾ عائدٌ إلىٰ «أحد» باعتبارِ تنكيرِه الصادقِ بكل أحد؛ أي: ثم يُرَدُّ المتوفَّوْنَ إلىٰ الله[1].

الظاهرُ عَوْدُ الضميرِ علىٰ العباد، وجاء ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ علىٰ سبيلِ الالتفات؛ لِما في الخطاب مِن تقريبِ الموعظة مِن السامعين[2].

لمَّا ذكَر الموتَ والبعث فيما سبَق، ناسَب أن يذكُرَ هنا الوقوفَ بَيْنَ يديه سبحانه للحساب.

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة أنَّ الملائكةَ تَقبِضُ أرواحَهم ونفوسهم، ناسَب هنا أن يذكُرَ إلىٰ أين رُدَّتْ هذه الأرواحُ؟

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣﴾

لمَّا تعرَّفَ بأفعالِه وشؤونه حتىٰ اتضحت وَحْدانيَّتُه، وثبَتتْ فَرْدانيَّتُه: ذكَّرهم أحوالَهم في إقرار توحيدِه وقتَ الشدائد، والرجوعِ عن ذلك عند الإنجاءِ منها، فكانوا كمَن طلَب مِن شخصٍ شيئًا، وأكَّد له الميثاقَ علىٰ الشكر، فلمَّا أحسَن إليه بإعطائه سُؤْلَه، نقَض عهدَه، وبالَغ في الكفرِ؛ وذلك عندهم في غايةٍ مِن القبائحِ لا توصَفُ، فقال: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٩).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٤٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٤١).

لمَّا تقدَّم ذِكْرُه دلائلَ على ألوهيَّته تعالى؛ مِن العلمِ التام، والقدرةِ الكاملة: ذكَر نوعًا مِن أثرِهما؛ وهو الإنجاءُ مِن الشدائد، وهو استفهامٌ يراد به التقريرُ، والإنكار، والتوبيخ، والتوقيفُ على سُوءِ معتقَدِهم عند عبادةِ الأصنام، وتَرْكِ الذي يُنجِي مِن الشدائد، ويُلجأ إليه في كشفِها(١).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ مِن الدلائلِ الدالة على كمالِ القدرة الإلهيَّة، وكمالِ الرحمةِ والفضل والإحسان(٢).

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ ﴾

لمَّا كانوا مُقِرِّين بأنَّ فاعِلَ ذلك هو اللهُ، ولكنَّهم يكفُرون نعمتَه: عُدُّوا منكِرين؛ فأمَره بالجوابِ غيرَ منتظِرٍ لجوابِهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا ﴾ تلقينٌ لجوابِ الاستفهام مِن قوله: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ أن يجيبَ عن المسؤولين؛ ولذلك فُصِلت جملةُ ﴿ قُلِ ﴾؛ لأنَّها جاريةٌ مجرى القولِ في المحاوَرة؛ كما تقدَّم في هذه السورةِ. وتولَّى الجوابَ عنهم؛ لأنَّ هذا الجوابَ لا يسَعُهم إلا الاعترافُ به(٤).

الضميرُ في ﴿مِّنۡهَا﴾ عائدٌ على ما أشيرَ إليه بقوله: ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾، ﴿وَمِن كُلِّ﴾، معطوفٌ على الضميرِ المجرور، أُعِيدَ معه الخافضُ، وأمَره تعالى بالمسابقةِ إلى الجواب؛ ليكونَ هو ﷺ أسبَقَ إلى الخيرِ، وإلى الاعترافِ بالحق، ثم ذكَر أنَّه تعالى يُنجِّي مِن

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٩).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٤٢).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٢).

هذه الشدائدِ التي حضَرتْهم، ومِن كلِّ كَرْبٍ؛ فعَمَّ بعد التخصيصِ، ثم ذكَر قبيحَ ما يأتون بعد ذلك، وبعد إقرارِهم بالدعاءِ والتضرع، ووعدِهم إيَّاه بالشكرِ مِن إشراكِهم معه في العبادة[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّه يُنجِّيهم مِن تلك المخاوفِ، ومِن سائرِ موجِباتِ الخوفِ والكَرْبِ، ثم إنَّ ذلك الإنسانَ يُقدِم علىٰ الشرك[(٢)].

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

لمَّا كانوا بإشراكِهم كأنَّهم يظنُّون أنَّ الشِّدةَ زالت عنهم زوالًا لا يعودُ، وكان اللائقُ بهم دوامَ التذلُّل؛ إمَّا وفاءً، وإمَّا خوفًا: أخبَرهم ترهيبًا لهم مِن سطوتِه، وتحذيرًا مِن بالغِ قُدْرتِه: أنَّ شِدَّتَهم تلك التي أذلَّتْهم لم تزُلْ في الحقيقةِ؛ فإنَّ قدرةَ الملِكِ عليها حالةَ الرخاءِ كقدرتِه عليها في وقتِها سواءً؛ فإنَّه خالِقُ الحالتينِ، وأسبابِهما، وما فيهما، ولكنَّهم عُمْيُ الأبصارِ، أجلافُ الطبائع، فقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[(٣)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ عقَّب به ذِكْرَ النعمةِ التي في قوله: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم ﴾ بذِكْرِ القدرةِ علىٰ الانتقام؛ تخويفًا للمشركين. وإعادةُ فعلِ الأمر بالقول مثلُ إعادتِه في نظائره؛ للاهتمامِ المبيَّنِ عند قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٤٣).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٣).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ مِن دلائلِ التوحيد، وهو ممزوجٌ بنوعٍ مِن التخويف؛ فبيَّن كونَه تعالىٰ قادرًا علىٰ إيصالِ العذاب إليهم مِن هذه الطُّرقِ المختلفة[(١)].

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ أنَّه تعالىٰ هو القادرُ علىٰ إلقائهم في المهالكِ، إثْرَ بيانِ أنَّه هو المنجِّي لهم منها، وفيه وعيدٌ ضمنيٌّ بالعذابِ؛ لإشراكِهم المذكور[(٢)].

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

لمَّا كان هذا بيانًا عظيمًا، أشار إلىٰ عِظَمِه بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾، وعظَّمه تعظيمًا آخرَ بالاستفهام، فقال: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾؛ أي: نُكرِّرها موجَّهةً في جميعِ الوجوهِ البديعة النافعة البليغة ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرجَىٰ فهمُه وانتفاعُه به، كان هذا والحال أنَّه ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾؛ أي: لعلَّهم يفقهون، فلم يَفقَهوا وكذَّبوا. وضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إلىٰ العذاب في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾، وتكذيبُهم به معناه تكذيبُهم بأنَّ اللهَ يعذِّبُهم لأجلِ إعراضهم[(٤)].

الضميرُ في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ إلىٰ ماذا يَرجِعُ؟ فيه أقوالٌ: الأول: أنَّه راجعٌ إلىٰ العذابِ المذكور في الآيةِ السابقة؛ وهو الحق؛ أي: لا بدَّ وأن يَنزِلَ بهم. الثاني: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للقرآنِ؛ وهو الحقُّ؛ أي: في كونِه كتابًا منزَّلًا مِن عندِ الله. الثالث: يعودُ إلىٰ تصريفِ الآيات؛ وهو الحقُّ؛ لأنَّهم كذَّبوا كونَ هذه الأشياءِ دَلالاتٍ[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤٦).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٦).

(٥) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢١).

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لمَّا كانوا بصددِ أن يقولوا تهكُّمًا: كُنْ كذلك، فلا علينا منك! قال مهدِّدًا: ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(1).

جملةُ ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ يثير سؤالَهم أن يقولوا: فمتىٰ يَنزِلُ العذاب؟ فأجيبوا بقوله: ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾(2).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

لمَّا أمَره بما يقولُ جوابًا لتكذيبِهم، تقدَّم إليه فيما يَفعَل وقتَ خوضِهم في التكذيب، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(3).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾. والعدولُ عن الإتيانِ بالضمير إلىٰ الإتيان بالاسمِ الظاهر؛ وهو اسمُ الموصول، فلم يقُلْ: وإذا رأيتَهم فأعرِضْ عنهم: يدل علىٰ أنَّ الذي يخوضون في الآياتِ فريقٌ خاص مِن القومِ الذين كذَّبوا بالقرآن أو بالعذاب. فعمومُ القوم أنكَروا وكذَّبوا دُونَ خوضٍ في آياتِ القرآن؛ فأولئك قِسْمٌ، والذين يخوضون في الآياتِ قِسْمٌ كان أبذَىٰ وأقذَع، وأشَدَّ كفرًا وأشنَع، وهم المتصَدُّون للطعنِ في القرآن(4).

---

(1) نظم الدرر (٧/ ١٤٥).

(2) التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٧).

(3) نظم الدرر (٧/ ١٤٦).

(4) التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٨).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ قال في الآيةِ الأولىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾، فبيَّن به أنَّ الذين يكذِّبون بهذا الدِّين فإنَّه لا يجبُ علىٰ الرسولِ أن يلازِمَهم، وأن يكونَ حفيظًا عليهم، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المكذِّبين إن ضَمُّوا إلىٰ كفرِهم وتكذيبِهم الاستهزاءَ بالدِّين، والطعنَ في الرسول ﷺ: فإنَّه يجب الاحترازُ عن مقارَنتِهم، وتَرْكُ مجالَستِهم[(١)].

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩﴾

لمَّا كانت هذه الآيةُ مكيَّةً، وكانوا إذ ذاك عاجزين عن الإنكارِ بغير القلب: قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[(٢)].

لمَّا كان الإعراضُ عن مجالسِ الذين يخوضون بالطعنِ في الآيات قد لا يحُولُ دُونَ بلوغِ أقوالهم في ذلك إلىٰ أسماعِ المؤمنين مِن غيرِ قصدٍ: أتبَع اللهُ النَّهيَ السابق بالعفوِ عمَّا تَتلقَّفُه أسماعُ المؤمنين مِن ذلك عفوًا، فتكونُ الآية عذرًا لِما يطرُقُ أسماعَ المؤمنين مِن غيرِ قعودِهم مع الطاعنين[(٣)].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ هم المؤمنون، والضميرُ في ﴿حِسَابِهِم﴾ عائدٌ علىٰ المستهزِئين الخائضين في الآيات[(٤)].

هذا النَّهيُ والتحريم لِمَن جلَس معهم، ولم يستعمِلْ تقوىٰ الله؛ بأن كان يشارِكُهم في القولِ والعملِ المُحرَّم، أو يسكُتُ عنهم، وعن الإنكارِ، فإن استعمَل تقوىٰ الله

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٢).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٩٢).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٤٦).

تعالىٰ؛ بأن كان يأمُرُهم بالخيرِ، وينهاهم عن الشرِّ والكلام الذي يصدُرُ منهم؛ فيَترتَّبُ علىٰ ذلك زوالُ الشرِّ أو تخفيفُه: فهذا ليس عليه حرَجٌ ولا إثم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

لمَّا أبرَز هذا الأمرَ في صيغةِ النَّهيِ، أعاده بصيغةِ الأمر؛ اهتمامًا به، وتأكيدًا له، وأظهَرَ لهم وصفًا آخرَ؛ هو غايةُ الوصفِ الأول، مع ما ضَمَّ إليه مِن الإرشادِ إلىٰ الإنقاذ مِن المعاطبِ، فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أو علىٰ جملة ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾. وهذا حُكْمٌ آخرُ غيرُ حكمِ الإعراض عن الخائضين في آياتِ الله؛ ولذلك عُطِف عليه[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٦٠).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٩٤).

اعلَمْ أنَّ هؤلاء هم المذكورون بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ ومعنى «ذَرْهم»: أعرِضْ عنهم، وليس المرادُ أن يتركَ إنذارَهم؛ لأنَّه تعالى قال بعده: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾؛ والمراد: تَرْكُ معاشرتِهم وملاطفتِهم، ولا يترُكُ إنذارَهم وتخويفهم[(١)].

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

لمَّا تقرَّر أنَّ غيرَ الله لا يَمنَعُ مِن اللهِ بنوعٍ، لا آلهتَهم التي زعَموا أنَّها شفعاؤهم، ولا غيرَها: ثبَت أنَّهم على غايةِ البيِّنة مِن أنَّ كلَّ ما سِواه لا يَنفَعُ شيئًا ولا يضرُّ؛ فكان في غايةِ التبكيتِ لهم قولُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لتأييسِ المشركين مِن ارتدادِ بعض المسلمين عن الدِّين؛ فقد كان المشركون يحاوِلون ارتدادَ بعضِ قرابتهم، أو مَن لهم به صلةٌ[(٣)].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ الردُّ على عبَدةِ الأصنام، وهي مؤكِّدةٌ لقولِه تعالى قبل ذلك: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنعبُدُ مِن دُونِ اللهِ النافعِ الضارِّ ما لا يَقدِرُ على نفعِنا، ولا على ضُرِّنا؟![(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٣).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٩٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٥).

﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢ ﴾

ثم فسَّر المأمورَ به، فكأنَّه قال: أن أسلِموا، ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[(١)].

قوله: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إن جعَلتَ «أن» فيه مصدريَّةً -على قولِ سيبويه؛ إذ يسوِّغُ دخولَ «أن» المصدريةِ على فعلِ الأمر، فتفيدُ الأمرَ والمصدرية معًا؛ لأنَّ صيغةَ الأمر لم يؤتَ بها عبثًا، فقولُ المعربين: إنَّه يَتجرد عن الأَمْريَّة، مرادُهم به: أنَّه تجرَّدَ عن معنى فعلِ الأمر إلى معنى المصدريةِ- فهو مِن عطفِ المفرَدات؛ وهو إمَّا عطفٌ على ﴿لِنُسۡلِمَ﴾ بتقديرِ حرفِ جرٍّ محذوفٍ قبل «أن»؛ وهو الباء، وتقديرُ الحرفِ المحذوف يدل عليه معنى الكلام، وإمَّا عطفٌ على معنى ﴿لِنُسۡلِمَ﴾؛ لأنَّه وقَع في موقعِ بأن نُسلِمَ-: فالتقديرُ: أُمِرْنا بأن نُسلِمَ، ثم عطَف عليه ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ﴾؛ أي: وأُمِرنا بأن أَقِيموا، والعطفُ على معنى اللفظِ وموقعِه استعمالٌ عربيٌّ[(٢)].

لمَّا أمَر بالإسلامِ في الآية السابقة، ناسَب أن يأمرَ هنا بالصلاةِ التي هي أهَمُّ ركنٍ مِن أركانه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣ ﴾

لمَّا كانوا بعبادةِ غيرِه تعالى - مع إقرارِهم بأنَّه هو خالقُ السماوات والأرض - في حالِ مَن يعتقِدُ أنَّ ذلك الذي يعبُدونه مِن دُونِه هو الذي خلَقهما، أو شارَكَ فيهما؛ فلا قدرةَ لغيرِه على حشرِ مَن في مملكتِه: قال تعالى منبِّهًا لهم مِن غفلتِهم، وموقِظًا

(١) نظم الدرر (٧/ ١٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٠٥).

مِن رَقْدتِهم، معيدًا الدليلَ الذي ذكَره أولَ السورةِ علىٰ وجهٍ آخرَ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، والقصرُ حقيقيٌّ؛ إذ ليس ثَمَّ رَدُّ اعتقادٍ؛ لأنَّ المشركين يعترفون بأنَّ الله هو الخالقُ للأشياءِ التي في السماء والأرض[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه إلىٰ جزائِه يحشُرُ العالَمَ، وهو منتهىٰ ما يؤُولُ إليه أمرُهم: ذكَر مبتدأَ وجودِ العالَمِ، واختراعَه له بالحقِّ؛ أي: بما هو حقٌّ لا عبَثَ فيه، ولا هو باطلٌ؛ أي: لم يخلُقْهما باطلًا ولا عبثًا؛ بل صدَرا عن حكمةٍ وصواب، وليُستدلَّ بهما علىٰ وجودِ الخالق[(٣)].

لمَّا بيَّن في الآياتِ المتقدِّمة فسادَ طريقةِ عبَدةِ الأصنام، ذكَر هاهنا ما يدل علىٰ أنَّه لا معبودَ إلا اللهُ وَحْدَه؛ وهو هذه الآيةُ، وذكَر فيها أنواعًا كثيرة مِن الدلائل[(٤)].

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

لمَّا كان مضمونُ هذه الآياتِ مضمونَ الآياتِ الثلاث المفتتَحِ بها السورةُ الهادمة لمذهب الثَّنَوية؛ وهم أهلُ فارسَ قومِ إبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيمُ عليه السلام يَعرِف بفضلِه جميعُ الطوائف؛ لأنَّ أكثَرهم مِن نسلِه؛ كاليهود، والنصارىٰ، والمشركين مِن

(١) نظم الدرر (٧/ ١٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٠٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٥٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٧).

العرب، والمسلِمون؛ لِما يَعلَمون مِن إخلاصِه لله تعالىٰ، وانتصابه لمُحاجَّةِ مَن أشرَك به، واحتمالِ الأذىٰ فيه سبحانه: تلاها بمُحاجَّتِه لهم بما أبطَل مذهبَهم، وأدحَض حُجَجَهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ الجُمَلِ السابقةِ التي أُولاها ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، المشتمِلةِ علىٰ الحُجَجِ، والمجادِلةِ في شأنِ إثباتِ التوحيد وإبطالِ الشرك، فعُقِّبتْ تلك الحُجَجُ بشاهدٍ مِن أحوالِ الأنبياء؛ بذِكْرِ مجادَلةِ أولِ رسولٍ أعلَن التوحيدَ، وناظَر في إبطالِ الشرك بالحُجة الدامغة، والمناظَرة الساطعة، ولأنَّها أعدَلُ حُجَّةٍ في تاريخ الدِّين؛ إذ كانت مجادَلةَ رسولٍ لأبيه ولقومه، وكانت أكبَرَ حُجَّةٍ علىٰ المشركين مِن العربِ؛ بأنَّ أباهم لم يكُنْ مشركًا، ولا مُقِرًّا للشركِ في قومِه، وأعظَمَ حُجَّةٍ للرسول ﷺ؛ إذ جاءهم بالإقلاعِ عن الشرك[(٢)].

لمَّا ذكَر قولَه تعالىٰ: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ناسَب ذِكْرُه هذه الآيةَ هنا، وكان التَّذْكارُ بقصةِ إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه وقومِه أنسَبَ؛ لرجوعِ العرب إليه؛ إذ هو جَدُّهم الأعلىٰ؛ فذُكِّروا بأنَّ إنكارَ هذا النبيِّ محمَّدٍ ﷺ عليكم عبادةَ الأصنام هو مثلُ إنكارِ جَدِّكم إبراهيمَ علىٰ أبيه وقومِه عبادتَها، وفي ذلك التنبيهُ علىٰ اقتفاءِ مَن سلَف مِن صالحي الآباءِ والأجداد؛ وهم وسائرُ الطوائفِ معظِّمون لإبراهيمَ عليه السلام[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣١٠).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٦١).

اعلَمْ أنَّه سبحانه كثيرًا يَحتجُّ علىٰ مشركي العربِ بأحوال إبراهيمَ عليه السلام؛ وذلك لأنَّه يَعترفُ بفضلِه جميعُ الطوائف والمِلَل؛ فالمشركون كانوا معترِفين بفضله، مُقِرِّين بأنَّهم مِن أولادِه، واليهودُ والنصارىٰ والمسلمون كلُّهم معظِّمون له، معترِفون بجلالةِ قَدْره؛ فلا جرَمَ ذكَر اللهُ حكايةَ حالِه في مَعرِضِ الاحتجاجِ علىٰ المشركين[1].

ثم أمَر تعالىٰ نبيَّهُ ﷺ أن يذكُرَ لِمَن اتخَذ دِينَه هزوًا ولعبًا إنكارَ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام - الذي يزعُمون أنَّهم علىٰ دِينه، ويفتخرون به - علىٰ أبيه في شِرْكِه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

لمَّا كان كأنَّه قيل: بصَّرْنا إبراهيمَ عليه السلام هذا التَّبصيرَ في هذا الأمرِ الجريء مِن بطلانِ الأصنام، قال عاطفًا عليه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه جملةُ اعتراضٍ بَيْنَ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ منكرًا علىٰ أبيه عبادةَ الأصنام، وبَيْنَ جملةِ الاستدلال عليهم بإفرادِ المعبود، وكونِه لا يُشبِهُ المخلوقين؛ وهي قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٢٩).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٣٩٨).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٥٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٦٢).

كما أرى اللهُ إبراهيمَ عليه السلام الحقَّ في بطلانِ عبادة أبيه للأصنام أراه أيضًا مظاهِرَ قُدْرتِه وعلمِه وحِكَمِه الموجِبةَ لألوهيَّتِه في مُلْكِ السماواتِ والأرض؛ ليكونَ بذلك مِن جملةِ الموقِنين، واليقينُ مِن أعلى مراتبِ الإيمان(١).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

لمَّا كانت الأمورُ السماوية مشاهَدةً لجميعِ الخَلْقِ؛ دانيهم وقاصيهم، وهي أشرَفُ مِن الأرضيَّةِ، فإذا بطَلَتْ صلاحيَتُها للإلهيَّة بطَلَتِ الأرضيةُ مِن بابِ الأَوْلى: نصَب لهم الحِجَاجَ في أمرِها، فقال مسبِّبًا عن الإراءةِ المذكورة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾(٢).

﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ بقرينةِ قوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾؛ فإنَّ الكوكبَ مِن ملكوتِ السماوات، وقولِه في المعطوفِ عليه: ﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ هذه الجملةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾؛ على قولِ مَن جعَل ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾ اعتراضًا(٤).

ذكَر تعالى الإراءةَ في الآيةِ السابقة مجمَلةً، ثم فصَّلها هنا بقولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾(٥).

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٨١).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٣١٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٦٤).

(٥) محاسن التأويل (٤/ ٤٠٢).

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لمَّا بصَّرهم قصورَ صغيرِ الكواكب، رقَّىٰ النظرَ إلىٰ أكبرَ منه؛ فسبَّب عن الإعراضِ عن الكواكبِ - لقصورِه - قولَه: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1].

قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ إلخ، عطفٌ علىٰ جملةٍ محذوفة دل عليها الكلامُ؛ والتقدير: فطلَع القمرُ، فلمَّا رآه بازغًا، فحُذِفت الجملةُ للإيجاز، وهو يقتضي أنَّ القمرَ طلَع بعد أُفُولِ الكوكب[2].

لمَّا أوضَح لهم أنَّ هذا النَّيِّرَ - وهو الكوكبُ الذي رآه - لا يصلُحُ أن يكونَ ربًّا، ارتقَب ما هو أنورُ منه وأضوأُ علىٰ سبيلِ إلحاقه بالكوكب، والاستدلالِ علىٰ أنَّه لا يصلُحُ للعبادة، فرآه أولَ طلوعِه؛ وهو البزوغُ[3].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لمَّا كان قد نفىٰ عن الأجرامِ السماوية ما ربما يَضِلُّ به الخَصْمُ، قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٢١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٦٦).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٦١).

قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾؛ أي: في الصباحِ بعد أن أفَل القمرُ، وذلك في إحدىٰ الليالي التي يغرُبُ فيها القمرُ قُبَيل طلوعِ الشمس؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ هذا الاستدلالَ كلَّه وقَع في مجلسٍ واحد(١).

ثم عَمِل كذلك في الشمسِ؛ ارتقَبها إذ كانت أنورَ مِن القمرِ وأضوَأَ، وأكبَرَ جِرْمًا، وأعَمَّ نفعًا، ومنها يَستمدُّ القمرُ علىٰ ما قيل، فقال ذلك علىٰ سبيلِ الاحتجاج عليهم، وبيَّن أنَّها مساوِيةٌ للقمرِ والكواكب في صفةِ الحدوث(٢).

فإن قيل: لمَّا كان الأُفولُ حاصلًا في الشمسِ، والأفولُ يَمنَع مِن صفةِ الرُّبوبية، وإذا ثبَت امتناعُ صفةِ الرُّبوبية للشمس، كان امتناعُ حصولِها للقمرِ ولسائر الكواكب أَوْلىٰ، وبهذا الطريقِ يظهرُ أنَّ ذِكْرَ هذا الكلامِ في الشمس يُغنِي عن ذِكْرِه في القمرِ والكواكب: فلِمَ لم يقتصِرْ علىٰ ذِكْرِ الشمسِ رعايةً للإيجاز والاختصار؟ قلنا: إنَّ الأخذَ مِن الأدوَنِ فالأدون، مترقِّيًا إلىٰ الأعلىٰ فالأعلىٰ: له نوعُ تأثيرٍ في التقريرِ والبيان والتأكيد لا يحصُلُ مِن غيرِه؛ فكان ذِكْرُه علىٰ هذا الوجهِ أَوْلىٰ(٣).

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩﴾

لمَّا أبطَل بذلك جميعَ مذهبِهم، أظهَر التوجُّهَ إلىٰ الإلهِ الحق، وأنَّه قد انكشَف له الصوابُ بهذا النظرِ، والمرادُ هُمْ، ولكنَّ سَوْقَه علىٰ هذا الوجهِ أدعىٰ لقَبولهم إيَّاه، فقال مستنتِجًا عمَّا دل عليه الدليلُ العقليُّ في الملكوت: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٢٢).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٦).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٦١، ١٦٢).

جملةُ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ بمنزلةِ بدلِ الاشتمالِ مِن جملة ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ البراءةَ مِن الإشراكِ تشتمِلُ علىٰ توجيهِ الوجهِ إلىٰ الله؛ وهو إفرادُه بالعبادة[(١)].

لمَّا أنكَر علىٰ أبيه عبادةَ الأصنامِ، وضلَّله وقَوْمَه، ثم استدَلَّ علىٰ ضلالِهم بقضايا العقول؛ إذ لا يُذعِنون للدليلِ السمعي؛ لتوقُّفِه في الثُّبوتِ علىٰ مقدِّماتٍ كثيرة، وأبدىٰ تلك القضايا منُوطةً بالحسِّ الصادق: تبرَّأَ مِن عبادتِهم، وأكَّد ذلك بـ «إنَّ»، ثم أخبَر أنَّه وجَّه عبادتَه لمُبدِعِ العالَمِ التي هذه النَّيِّراتُ المستدَلُّ بها بعضُه، ثم نفَىٰ عن نفسِه أن يكونَ مِن المشركين؛ مبالَغةً في التبرُّؤِ منهم[(٢)].

ثم إنَّه عليه السلام لمَّا تبرَّأَ ممَّا تبرَّأَ منه، توجَّه إلىٰ مبدِعِ هذه المصنوعات ومُوجِدِها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٣)].

فلمَّا انتفَتِ الإلهيَّةُ عن هذه الأجرامِ الثلاثة التي هي أنوَرُ ما تقعُ عليه الأبصارُ، وتحقَّق ذلك بالدليلِ القاطع: توجَّه إبراهيمُ عليه السلام إلىٰ الإلهِ الحق الذي نُورُه لا يأفُلُ جَلَّ في علاه.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾

لمَّا أبدىٰ هذه الأدلةَ في إبطالِ الضَّلالِ بالكواكب والشمس التي هي أوضَحُ مِن الشمسِ، عطَف عليها الإخبارَ بأنَّهم لم يَرجِعوا إليه، بل حاجُّوه، فقال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٢٣).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٦٨).

(٣) روح المعاني (٤/ ١٩٢).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٦٣).

لمَّا أعلَن إبراهيمُ عليه السلام معتقَدَه لقومِه، أَخذوا في محاجَّتِه؛ فجملةُ ﴿ وَحَآجَّهُۥ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾. وعُطِفت الجملةُ بالواوِ دون الفاء؛ لتكونَ مستقلَّةً بالإخبارِ بمضمونها، مع أنَّ تفرُّعَ مضمونِها علىٰ ما قبلها معلومٌ مِن سياقِ الكلام[١].

لمَّا أورَد عليهم الحُجَّةَ المذكورة؛ فالقومُ أورَدوا عليه حُجَجًا علىٰ صحةِ أقوالهم؛ منها: أنَّهم تمسَّكوا بالتقليدِ؛ كقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾، وكقولِهم للرسول ﷺ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾، ومنها: أنَّهم خوَّفوه بأنَّك لمَّا طعَنتَ في إلهيَّةِ هذه الأصنامِ، وقَعتَ مِن جهةِ هذه الأصنامِ في الآفات والبليَّات، ونظيرُه ما حكاه اللهُ تعالىٰ في قصةِ قوم هودٍ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾، فذكَروا هذا الجنسَ مِن الكلامِ مع إبراهيمَ عليه السلام -: فأجاب اللهُ عن حُجَّتِهم بقوله: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾؛ يعني: لمَّا ثبَت بالدليل الموجِبِ للهداية واليقينِ صحةُ قولي، فكيف يُلتفت إلىٰ حُجَّتِكم العليلة، وكلماتِكم الباطلة؟![٢].

لمَّا أقام إبراهيمُ الدليلَ علىٰ بطلانِ عبادة غيرِ الله تعالىٰ، وتبرَّأ مِن الشركِ والمشركين: حاجَّه قومُه في ذلك[٣].

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ﴾

عُطِفت جملةُ ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ ﴾ علىٰ جملة ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾؛ ليبيِّنَ لهم أنَّ عدمَ خوفِه مِن آلهتهم أقلُّ عجبًا مِن عدمِ خوفهم مِن الله تعالىٰ، وهذا يؤذِنُ

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٢٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٧).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٨٣).

بأنَّ قومَه كانوا يَعرِفون اللهَ، وأنَّهم أشرَكوا معه في الإلهيَّةِ غيرَه؛ فلذلك احتَجَّ عليهم بأنَّهم أشرَكوا بربِّهم المعترَفِ به دُونَ أن ينزِّلَ عليهم سلطانًا بذلك[١].

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ استفهامٌ معناه التعجُّبُ والإنكار؛ كأنَّه تعجَّبَ مِن فسادِ عقولِهم؛ حيث خوَّفوه خشَبًا وحجارةً لا تضُرُّ ولا تنفَع، وهم لا يخافون عُقْبَىٰ شِرْكِهم بالله، وهو الذي بيدِه النفعُ والضرُّ، والأمرُ كلُّه[٢].

اعلَمْ أنَّ هذا مِن بقيَّةِ الجوابِ عن الكلامِ الأول؛ والتقديرُ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ ﴾ الأصنامَ التي لا قدرةَ لها علىٰ النفعِ والضر، وأنتم لا تَخافون مِن الشركِ الذي هو أعظَمُ الذُّنوب؟![٣].

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لنفيِ الخوفِ عنه عليه السلام بحسَبِ زعمِ الكفَرةِ بالطريقِ الإلزامي - كما سيأتي - بعد نفيِه عنه بسببِ الواقع ونفسِ الأمر، والاستفهامُ لإنكارِ الوقوعِ، ونفيِه بالكلية[٤].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذه الجملةُ مِن حكايةِ كلام إبراهيمَ؛ علىٰ ما ذهَب إليه جمهورُ المفسرين؛ فيكونُ جوابًا منه عن قولِه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾، تولَّىٰ جوابَ استفهامِه بنفسه، ولم ينتظِرْ جوابَهم؛ لكونِ الجواب ممَّا لا يسَعُ المسؤولَ إلا أن يجيبَ بمثلِه، وهو تبكيتٌ لهم[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٧٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣١-٣٣٢).

الظاهرُ أنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ، لمَّا استفهَمهم استفهامَ عالِمٍ بمَن هو الآمِنُ، وأبرَزه في صورةِ السائلِ الذي لا يَعلَم: استأنَف الجوابَ عن السؤال، وصرَّح بذلك المحتملِ، فقال: الفريقُ الذي هو أحَقُّ بالأمنِ هم الذين آمنوا(١).

ثم بيَّن تعالىٰ مَن له الأمنُ - جوابًا عمَّا استفهَم عنه الخليلُ عليه السلام - بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢).

ثم حكَم اللهُ تعالىٰ بَيْنَهم وفصَل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: ولم يَخلِطوا إيمانَهم بشِرْكٍ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾؛ أي: في الدُّنيا والآخرة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في حياتِهم إلىٰ طريقِ سعادتهم وكمالِهم؛ وهو الإسلامُ الصحيح(٣).

ثم وصَل بذلك - دَلالةً علىٰ أنَّه لا علمَ لهم أصلًا ليُخبِروا عمَّا سُئلوا عنه - قولَه مستأنفًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٤).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

لمَّا كان إبراهيمُ عليه السلام قد انتصَب لإظهارِ حُجَّةِ الله في التوحيدِ، والذبِّ عنها، وكان التقديرُ تنبيهًا للسامعِ علىٰ حُسْنِ ما مضىٰ ندبًا لتدبُّرِه: هذه مقاوَلةُ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه وقومِه: عطَف عليه قولَه معدِّدًا وجوهَ نِعَمِه عليه، وإحسانِه إليه، دالًّا علىٰ إثباتِ النبوَّة بعد إثباتِ الوَحْدانية: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٥).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٧١).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٤١٢).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٨٤).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٦٧).

(٥) نظم الدرر (٧/ ١٦٨).

عطفٌ على جملةِ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾. ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى جميعِ ما تكلَّم به إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في محاجَّةِ قومه، وأُتِيَ باسمِ إشارة المؤنَّث؛ لأنَّ المشارَ إليه حُجَّةٌ، فأخبَر عنه بحُجَّةٍ، فلمَّا لم يكُنْ ثمَّةَ مشارٌ إليه محسوسٌ، تعيَّن أن يُعتبرَ في الإشارةِ لفظُ الخبرِ لا غيرُ[(١)].

الإشارةُ بـ «تلك» إلى ما وقَع به الاحتجاجُ مِن قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وهذا الظاهرُ، وأضافها إليه تعالى على سبيلِ التشريف[(٢)].

ولمَّا حكَم لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بما بيَّن به مِن البراهينِ القاطعة، قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: عَلَا بها عليهم، وفلَجَهم بها[(٣)].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

لمَّا أشار إلى رِفعتِهِ بأنَّه بصَّره بالحُجَّةِ حتى كان على بصيرةٍ مِن أمره، وأنَّه علا على المخالِفين برَفْعِ الدرجات: أتبَع ذلك ما دل عليها وعلى حِكْمتِه بعلمِه بالعواقب، فقال مُعلِمًا بأنَّه جعَله عزيزًا في الدنيا؛ لأنَّ أشرَفَ الناسِ الأنبياءُ والرُّسل، وهُمْ مِن نسلِه وذريته، ورفَع ذِكْرَه أبدًا؛ لأجلِ قيامه بالذبِّ عن توحيدِه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٧٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٦٣).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٦٩، ١٧٠).

جملةُ ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾؛ لأنَّ مضمونَها تكرِمةٌ وتفضيل. ومَوقِعُ هذه الجملةِ - وإن كانت معطوفةً - هو موقعُ التذييل للجُمَلِ المقصودِ منها إبطالُ الشرك، وإقامةُ الحُجَج علىٰ فسادِه، وعلىٰ أنَّ الصالحين كلَّهم كانوا علىٰ خلافِه[1].

عدَّد تعالىٰ نِعَمَه علىٰ إبراهيمَ عليه السلام؛ فذكَر إيتاءَه الحُجَّةَ علىٰ قومِه، وأشار إلىٰ رَفْعِ درجاتِه، وذكَر ما مَنَّ به عليه مِن هِبَتِه له هذا النبيَّ الذي تفرَّعتْ منه أنبياءُ بني إسرائيلَ، ومِن أعظَمِ المِنَنِ أن يكونَ مِن نسلِ الرجُلِ الأنبياءُ والرُّسل[2].

لمَّا حكىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه أظهَرَ حُجَّةَ الله تعالىٰ في التوحيدِ، ونصَرها، وذَبَّ عنها: عدَّد وجوهَ نِعَمِه وإحسانِه عليه؛ فأولها: قوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ والمراد: إنَّا نحن آتيناه تلك الحُجَّةَ، وهدَيْناه إليها، وأوقَفْنا عقلَه علىٰ حقيقتِها، وذكَر نفسَه باللفظِ الدالِّ علىٰ العظَمةِ، وهو كنايةُ الجَمْعِ، علىٰ وَفْقِ ما يقوله عظماءُ الملوك: فعَلْنا، وقلنا، وذكَرْنا، ولمَّا ذكَر نفسَه تعالىٰ هاهنا باللفظ الدالِّ علىٰ العظمةِ، وجَب أن تكونَ تلك العظمةُ عظمةً كاملة رفيعة شريفة؛ وذلك يدل علىٰ أنَّ إيتاءَ اللهِ تعالىٰ إبراهيمَ عليه السلام تلك الحُجَّةَ مِن أشرَفِ النِّعَم، ومِن أجلِّ مراتبِ العطايا والمواهب. وثانيها: أنَّه تعالىٰ خصَّه بالرفعةِ، والاتصالِ إلىٰ الدرجاتِ العالية الرفيعة؛ وهي قوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾. وثالثها: أنَّه جعَله عزيزًا في الدنيا؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ جعَل أشرَفَ الناس - وهم الأنبياءُ والرُّسل - مِن نسلِه، ومِن ذُرِّيتِه، وأبقىٰ هذه الكرامةَ في نسلِه إلىٰ يومِ القيامة؛ لأنَّ مِن أعظَمِ أنواعِ السرور عِلْمَ المرءِ بأنَّه يكون مِن عَقِبِه الأنبياءُ والملوك، والمقصودُ مِن هذه الآياتِ: تعديدُ

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣٧).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٧٣).

أنواعِ نِعَمِ اللهِ علىٰ إبراهيمَ عليه السلام جزاءً علىٰ قيامِه بالذبِّ عن دلائلِ التوحيد، فقال: ووهَبْنا له إسحاقَ لصُلْبِه، ويعقوبَ بعده مِن إسحاقَ[(١)].

بعد أن ذكَر تعالىٰ ما آتىٰ إبراهيمَ خليلَه مِن قوَّةِ الحُجَّةِ والغلَبة علىٰ أعدائه، ذكَر مِنَّةً أخرىٰ مَنَّ بها عليه؛ وهي أنَّه وهَبه إسحاقَ ويعقوب بعد كِبَرِ سِنِّه؛ إسحاقَ الولد، ويعقوبَ الحفيد، وأنَّه تعالىٰ هدىٰ كلًّا منهم: الوالدَ، والولدَ، والحفيد[(٢)].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ عبدَه وخليله إبراهيمَ عليه السلام، وذكَر ما مَنَّ اللهُ عليه به؛ مِن العلمِ، والدعوة، والصبر: ذكَر ما أكرَمه اللهُ به مِن الذريةِ الصالحة، والنَّسل الطيب، وأنَّ اللهَ جعَل صفوةَ الخَلْقِ مِن نسلِه، وأعظِمْ بهذه المَنقَبةِ والكرامة الجسيمة، التي لا يُدرَك لها نظيرٌ![(٣)].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ولمَّا كان المذكورانِ قبله ممَّن سلَّطهما علىٰ الملوكِ، أتبَعهما مَن سلَّط الملوكَ عليهما بالقتلِ، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾[(٤)].

لمَّا ذكَر إسحاقَ ويعقوب، أردَف ذِكْرَهما بذِكرِ نبيئَينِ مِن ذريةِ إسحاقَ ويعقوب؛ وهما أبٌ وابنُه مِن الأنبياء، هما داودُ وسليمان، مبتدئًا بهما علىٰ بقيةِ ذريةِ إسحاق ويعقوب؛ لأنَّهما نالَا مجدَينِ عظيمينِ: مجدَ الآخرة بالنُّبوءة، ومجدَ الدنيا بالمُلك. ثم أردَف بذِكرِ نبيئَينِ تماثَلَا في أنَّ الضُّرَّ أصاب كليهما، وأنَّ انفراجَ الكَرْبِ عنهما بصبرِهما؛ وهما أيُّوبُ ويوسف. ثم بذِكْرِ رسولَينِ أخوَينِ؛ هما موسىٰ وهارونُ، وقد

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٥١).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٨٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٦٣).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٧٥).

أصاب موسىٰ مِثْلُ ما أصاب يوسفَ مِن الكيدِ له لقتلِه، ومِن نجاته مِن ذلك، وكفالتِه في بيتِ المُلْكِ؛ فهؤلاء الستةُ شَمِلتْهم الفاصلةُ الأُولىٰ المنتهية بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ثم بذِكْرِ نبيئَينِ: أبٍ وابنه؛ وهما زكريا ويحيىٰ. فناسَب أن يُذكَرَ بعدهما رسولانِ لا ذريةَ لهما؛ وهما عيسىٰ وإلياسُ، وهما متماثِلان في أنَّهما رُفِعا إلىٰ السماء. فأمَّا عيسىٰ: فرَفْعُه مذكورٌ في القرآن، وأمَّا إلياسُ: فرَفْعُه مذكورٌ في كتبِ الإسرائيليِّين، ولم يذكُرْهُ المفسِّرون مِن السلفِ[1].

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾

ثم أتبَعهم مَن لم يكُنْ بَيْنَهما وبين الملوكِ أمرٌ، وهدَىٰ بهما مَن كان بَيْنَ ظَهْرانَيْهِ، فقال: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾[2].

عطَف اليسَعَ؛ لأنَّه خليفةُ إلياسَ وتلميذُه، وأدمَج بَيْنَه وبين إلياسَ إسماعيلَ؛ تَنْهِيَةً بذِكْرِ النبي الذي إليه ينتهي نسَبُ العربِ مِن ذرية إبراهيمَ. وخُتِموا بيونُسَ ولوطٍ؛ لأنَّ كلًّا منهما أُرسِل إلىٰ أمَّةٍ صغيرة. وهؤلاء الأربعةُ تضمَّنتْهم الفاصلةُ الثالثة المنتهية بقوله: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في هذه الآياتِ ثمانيةَ عشَرَ نبيًّا مِن الأنبياءِ عليهم السلام مِن غيرِ ترتيب؛ لا بحسَبِ الزمان، ولا بحسب الفضل؛ لأنَّ الواوَ لا تقتضي الترتيبَ، ولكنْ هنا لطيفةٌ في هذا الترتيبِ؛ وهي أنَّ اللهَ تعالىٰ خصَّ كلَّ طائفةٍ مِن طوائفِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنوعٍ مِن الكرامةِ والفضل؛ فذكَر أولًا نوحًا، وإبراهيمَ، وإسحاق، ويعقوب؛ لأنَّهم أصولُ الأنبياء، وإليهم ترجِعُ أنسابُهم جميعًا. ثم مِن المراتبِ

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٤٨).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٧٥، ١٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٣٤٨).

المعتبَرة بعد النبوَّة: المُلْكُ والقدرة والسلطان، وقد أعطىٰ اللهُ داودَ وسليمان مِن ذلك حظًّا وافرًا. ومِن المراتبِ: الصبرُ عند نزولِ البلاء والمِحَن والشدائد، وقد خَصَّ اللهُ بهذه أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثم عطَف علىٰ هاتينِ المرتبتين مَن جمَع بينهما؛ وهو يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّه صبَر علىٰ البلاءِ والشِّدة إلىٰ أن آتاه اللهُ مُلْكَ مِصْرَ مع النبوَّة. ثم مِن المراتبِ المعتبَرة في تفضيلِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: كثرةُ المعجِزات، وقوةُ البراهين، وقد خصَّ اللهُ موسىٰ وهارونَ مِن ذلك بالحظِّ الوافر. ثم مِن المراتبِ المعتبَرة: الزهدُ في الدنيا، والإعراضُ عنها، وقد خصَّ اللهُ بذلك زكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ، وإلياسَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ولهذا السببِ وصَفهم بأنَّهم مِن الصالحين. ثم ذكَر اللهُ مِن بعدِ هؤلاء الأنبياءِ مَن لم يَبقَ له أتباعٌ ولا شريعة؛ وهم: إسماعيلُ، واليسَعُ، ويونُسُ، ولوطٌ. فإذا اعتبَرْنا هذه اللطيفةَ علىٰ هذا الوجهِ، كان هذا الترتيبُ مِن أحسَنِ شيءٍ يُذكَر، واللهُ أعلَمُ بمرادِه، وأسرارِ كتابه[(١)].

﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

لمَّا نصَّ سبحانه علىٰ هؤلاء، وختَم بتفضيلِ كلٍّ علىٰ العالَمين: أتبَعه - علىٰ سبيلِ الإجمال - أنَّ غيرَهم كان مَهْديًّا، وأنَّ فضلَ هؤلاء علَّةُ النص لهم علىٰ أسمائهم، فقال ترغيبًا في سلوكِ هذا السبيلِ بكثرةِ سالكيه، وحثًّا علىٰ منافستِهم في حُسْنِ الاستقامةِ عليه، والسلوك فيه: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)].

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٤٢٠).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٨٠).

قولـه: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ﴾ عُطِف علىٰ قولـه: «كُـلًّا»؛ فالتقـدير: وهـدَيْنا مِـن آبـائِهم وذُرِّياتهم وإخوانِهم[1].

يـذكُرُ تعـالىٰ أنَّ مِـن آبـاءِ المـذكورين سـابقًا مِـن الأنبيـاء ومِـن ذريـاتهم وإخـوانِهم هـدَيْناهم أيضًـا، وإن لـم نـذكُرْ أسـماءَهم؛ فهـم كثيرٌ، وذكَـر هنـا الآبـاءَ والـذُّرياتِ والإخـوانَ علىٰ هـذا الترتيـبِ؛ لأنَّ الآبـاءَ هـم الأصـول، والـذُّريات هـم الفـروع، والإخوان فروع الأصول؛ وذلـك يـدل علىٰ أنَّـه تعـالىٰ خَصَّ كـلَّ مَـن تعلَّـقَ بهـؤلاء الأنبياءِ بنوعٍ مِن الشرف والكرامة.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

لمَّا كان ربما أوهَم تنكيرُه نقصًا فيه، قال مستأنِفًا - بيانًا لكمالِه، وتعظيمًا لفضلِه وإفضـــاله -: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ أي: لا تَعجَبوا مِن هَدْيِهم وضلالِ غيرهم. والإشارةُ إلىٰ الهدىٰ، الذي هو مصدرٌ مأخوذ مِن أفعالِ الهداية الثَّلاثة المذكورة في الآية قبلها، وخصوصًا المذكورَ آخرًا، بقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ النعمةِ في قوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٤٩).

(٢) نظم الدرر (٧/ ١٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٣٥٠).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٧٦).

ثم قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، واعلَمْ أنَّه يجب أن يكونَ المرادُ مِن هذا الهدىٰ هو معرفةَ التوحيدِ، وتنزيهَ اللهِ تعالىٰ عن الشرك؛ لأنَّه قال بعده: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك يدل علىٰ أنَّ المرادَ مِن ذلك الهدىٰ ما يكون جاريًا مجرىٰ الأمرِ المضادِّ للشرك(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

استئنافٌ ابتدائيٌّ للتنويهِ بهم؛ فهي فَذْلكةٌ ثانية؛ لأنَّ الفذلكةَ الأُولىٰ راجعةٌ إلىٰ ما في الجُمَلِ السابقة مِن الهدىٰ، وهذه راجعةٌ إلىٰ ما فيها مِن المَهْديِّين(٢).

لمَّا ذكَر أنَّه تعالىٰ فضَّلهم واجتباهم وهدَاهم، ذكَر ما فُضِّلوا به(٣).

اعلَمْ أنَّ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ الذين مضىٰ ذِكْرُهم قبل ذلك؛ وهُمُ الأنبياءُ الثمانيةَ عشَرَ الذين ذكَرهم اللهُ تعالىٰ قبل ذلك، ثم ذكَر تعالىٰ أنَّه آتاهم الكتابَ والحُكْمَ والنبوَّة. واعلَمْ أنَّ العطفَ يوجِبُ المغايَرةَ؛ فهذه الألفاظُ الثلاثة لا بد وأن تدلَّ علىٰ أمورٍ ثلاثة متغايِرة(٤).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

لمَّا كان المرادُ بسَوْقِهم هكذا - واللهُ أعلم - أنَّ كلًّا منهم بادَر بعد الهدايةِ إلىٰ الدعاء إلىٰ اللهِ والغَيْرةِ علىٰ جلالِه مِن الإشراك؛ لم يَشغَلْ أحدًا منهم عن ذلك سرَّاءُ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٥٢).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٧٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ٥٤).

ولا ضرَّاءُ بمُلْكٍ ولا غيرِه مِن مَلِك أو غيره؛ بل لازَموا الهدىٰ والدعاءَ إليه علىٰ كلِّ حالٍ: قال مستأنِفًا لتكْرارِ أمداحهم بما يَحمِلُ علىٰ التحلي بأوصافِهم، مؤكِّدًا لإثبات الرسالة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[١].

جملةٌ ابتدائية قُصِد مِن استئنافِها استقلالُها؛ للاهتمامِ بمضمونها، ولأنَّها وقعتْ موقعَ التكريرِ لمضمون الجملتينِ اللتين قبلها: جملةِ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾. وحقُّ التكريرِ أن يكونَ مفصولًا، وليُبنَىٰ عليها التفريعُ في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٢].

الإشارةُ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلىٰ المشارِ إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأُولىٰ؛ وهُمُ الأنبياءُ السابق ذِكْرُهم، وأمَره تعالىٰ أن يقتديَ بهُدَاهم[٣].

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾

لمَّا حصَر الدعاءَ في الذكرىٰ، وكان ذلك نفعًا لهم، ورفقًا بهم، لا تَزيد طاعتُهم في مُلْكِ الله شيئًا، ولا ينقُصُ إعراضُهم مِن عظَمتِه شيئًا؛ لأنَّ كلَّ ذلك بإرادته: بنىٰ حالًا منهم، فقال تأكيدًا لأمرِ الرسالة بالإنكارِ علىٰ مَن جحَدها، وإلزامًا لهم بما هم معترِفون به، أمَّا أهلُ الكتاب فعِلْمًا قطعيًّا، وأمَّا العربُ فتقليدًا لهم، ولأنَّهم سلَّموا لهم العلمَ، وجعَلوهم محطَّ سؤالِهم عن محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ

(١) نظم الدرر (٧/ ١٨٢-١٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٥٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٧٨).

مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(١).

وجودُ واوِ العطف في صدرِ هذه الجملة ينادي علىٰ أنَّها نزلتْ متناسِقةً مع الجُمَلِ التي قبلها، وأنَّها وإيَّاها واردتانِ في غرضٍ واحد؛ هو إبطالُ مزاعمِ المشركين؛ فهذا عطفٌ علىٰ جملة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، وأنَّها ليست ابتدائيةً في غرضٍ آخرَ. فواوُ الضميرِ في قوله: ﴿قَدَرُوا۟﴾ عائدٌ علىٰ ما عاد إليه اسمُ الإشارةِ في قوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ عن إبراهيمَ دليلَ التوحيد، وتسفيهَ رأيِ أهلِ الشرك، وذكَر تعالىٰ ما مَنَّ به علىٰ إبراهيمَ؛ مِن جعلِ النبوَّة في بنيه، وأنَّ نوحًا عليه السلام جدَّه الأعلىٰ كان اللهُ تعالىٰ قد هدَاه، وكان مرسَلًا إلىٰ قومِه، وأمَر تعالىٰ الرسولَ بالاقتداء بهَدْيِ الأنبياء: أخَذ في تقريرِ النبوَّة، والردِّ علىٰ منكِري الوحيِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾(٣).

لمَّا حكىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه ذكَر دليلَ التوحيدِ، وإبطالِ الشرك، وقرَّر تعالىٰ ذلك الدليلَ بالوجوهِ الواضحة: شرَع بعده في تقريرِ أمرِ النبوة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حيث أنكَروا النبوَّةَ والرسالة؛ فهذا بيانُ وجهِ نَظْمِ هذه الآياتِ، وأنَّه في غايةِ الحُسن(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٦١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٧٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ٥٨).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ شأنَ القرآنِ العظيم، وأنَّه نعمةٌ كبرىٰ علىٰ العالَمين: تأثَّره[1] ببيانِ كفرِهم بذلك، علىٰ وجهٍ سرَىٰ إلىٰ الكفرِ بجميعِ الكتب المنزلة، فقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[2].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾

لمَّا أثبَت سبحانه أنَّه الذي أنزَل التَّوراةَ والإنجيل تكميلًا لإثباتِ الرسالة؛ بدليلِ علم اليهود دُونَ مَن لا كتابَ لهم: عطَف علىٰ ذلك قولَه تأكيدًا لإثباتها وتقريرًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾[3].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وقُلْ لهم: اللهُ أنزَل الكتابَ علىٰ موسىٰ، وهذا كتابٌ أنزَلْناه. والإشارةُ إلىٰ القرآن؛ لأنَّ المحاولةَ في شأنِه مِن ادعائهم نَفْيَ نزولِه مِن عندِ الله، ومِن تبكيتِهم بإنزال التَّوراة: يَجعَل القرآنَ كالحاضرِ المُشاهَد، فأتىٰ باسمِ الإشارة؛ لزيادةِ تمييزه؛ تقويةً لحضورِه في الأذهان[4].

(١) أي: أتبعه.

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٤٢٥).

(٣) نظم الدرر (٧/ ١٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٣٦٩).

لمَّا ذكَر وقرَّر أنَّ إنكارَ مَن أنكَر أن يكونَ اللهُ أنزَل علىٰ بشرٍ شيئًا، وحاجَّهم بما لا يَقدِرون علىٰ إنكارِه: أخبَر أنَّ هذا الكتابَ الذي أُنزِل علىٰ الرسول ﷺ مبارَكٌ، كثيرُ النفعِ والفائدة[(١)].

لمَّا أبطَل بالدليل قولَ مَن قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، ذكَر بعده أنَّ القرآنَ كتابُ الله، أنزَله اللهُ تعالىٰ علىٰ محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[(٢)].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ تحقيقٌ لنزولِ القرآن الكريم بعد تقريرِ إنزال ما بشَّر به مِن التَّوراة، وتكذيبٌ لهم في كلمتِهم الشنعاءِ إثْرَ تكذيب[(٣)].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

لمَّا كان في قولِهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ صريحُ الكذب، وتضمَّن تكذيبَه - وحاشاه ﷺ! - أمَّا مِن اليهودِ فبالفعل، وأمَّا مِن قُريشٍ فبالرضا، وكان بعضُ الكفَرة قد ادَّعىٰ الإيحاءَ إلىٰ نفسِه؛ إرادةً للطعنِ في القرآن؛ قال تعالىٰ مهوِّلًا لأمرِ الكذب - لا سيما عليه، لا سيما في أمرِ الوحي - عاطفًا علىٰ مقولِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ﴾، مبطِلًا للتنبؤِ بعد تصحيحِ أمرِ الرسالة وإثباتها إثباتًا لا مِرْيةَ فيه، فكانت براهينُ إثباتها أدلةً علىٰ إبطالِ التنبؤ، وكَذِبِ مدَّعيه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٨٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٦٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٦٢).

(٤) نظم الدرر (٧/ ١٨٩).

لمَّا تقضَّىٰ إبطالُ ما زعَموه مِن نفيِ الإرسالِ والإنزال والوحيِ، الناشئِ عن مقالِهم الباطلِ؛ إذ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وعقَّب ذلك بإثباتِ ما لأجلِه جحَدوا إرسالَ الرُّسل، وإنزالَ الوحيِ علىٰ بشَرٍ؛ وهو إثباتُ أنَّ هذا الكتابَ منزَّلٌ مِن الله: عقَّب بعد ذلك بإبطالِ ما اختلَقه المشركون مِن الشرائعِ الضالَّة في أحوالهم التي شرَعها لهم عمرُو بنُ لُحَيٍّ مِن عبادةِ الأصنام، وزعمِهم أنَّهم شفعاءُ لهم عند الله، وما يَستتبعُ ذلك مِن البَحِيرةِ، والسائبة، وما لم يُذكَرِ اسمُ الله عليه مِن الذبائح، وغيرِ ذلك[(١)].

لمَّا ذكَر القرآنَ، وأنَّه كتابٌ منزَّلٌ مِن عندِه، مبارَكٌ: أعقَبه بوعيدِ مَن ادَّعىٰ النبوَّةَ والرسالة علىٰ سبيلِ الافتراء[(٢)].

لمَّا شرَح كونَ القرآن كتابًا نازلًا مِن عند الله، وبيَّن ما فيه مِن صفاتِ الجلالة والشرف والرفعة: ذكَر عَقِيبَه ما يدلُّ علىٰ وعيدِ مَن ادَّعىٰ النبوَّةَ والرسالة علىٰ سبيلِ الكذب والافتراء، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[(٣)].

ما زال السياقُ مع المشركين والمفترين الكاذبين علىٰ الله تعالىٰ باتخاذِ الأندادِ والشركاء، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ بأنِ ادَّعىٰ أنَّ الله نبَّأه، وأنَّه نبيُّه ورسولُه[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٣).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٥٨٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ٦٦).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٩٢).

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

لمَّا كانوا يُنكِرون أن يُحِسَّ الميتُ شيئًا بعد الموتِ، أو يَفهَمَ كلامًا، وكان التقديرُ كما دل عليه السياقُ: فتتوفَّاهم الملائكةُ، لا يَقدِر أحدٌ علىٰ منعِهم، فيقول لهم: قد رأيتم ملائكتَنا الذين أخبَرْناكم أولَ السورة أنَّهم إذا أُبصِروا، كان القضاءُ الفصل، والأمرُ البَتُّ الحَتْمُ الذي ليس فيه مَهْلٌ: عطَف عليه قولَه مشيرًا إلىٰ ما كان سببَ استكبارِهم مِن الاجتماع علىٰ الضَّلالِ والتقوِّي بالأموال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[(١)].

إن كان القولُ المقدَّر في جملة ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ قولًا مِن قِبَلِ اللهِ تعالىٰ، كان قولُه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾؛ أي: يقال لهم حينَ دفَعهم الملائكةُ إلىٰ العذابِ: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾، ويقال لهم: لقد جئتمونا فرادىٰ. فالجملةُ في محَلِّ النصبِ بالقولِ المحذوف[(٢)].

لما قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾، وقَّفهم علىٰ أنَّهم يَقدَمون يومَ القيامة منفرِدين لا ناصرَ لهم، محتاجين إليه بعد أن كانوا ذَوِي خوَلٍ وشُفَعاءَ في الدنيا، ويَظهَر أنَّ هذا الكلامَ هو مِن خطابِ الملائكة الموكَّلين بعِقابهم[(٣)].

يُخبِر اللهُ تبارك وتعالىٰ عن حالِ المشركين المستكبِرين يومَ القيامة بعد أن ذكَر حالَهم عند الموت.

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٨١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٨٦).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ولمَّا ثبَتتِ الوَحْدانيةُ والنبوَّة والرسالة، وتقاريعُ مِن تقاريعِها، وانتهىٰ الكلامُ هنا إلىٰ ما تجلَّىٰ به مقامُ العظَمة، وانكشَف له قناعُ الحكمة، وتمثَّل نفوذُ الكلمة؛ فتهيَّأ السامعُ لتأمُّله، وتفرَّغ فهمُه لتدبُّرِه: قال دالًّا عليه، مشيرًا إليه، معلِمًا أنَّ ما مضىٰ أنتَجه وأظهَره لا بد وأبرَزه، مذكِّرًا بآياته، وبمُحاجَّةِ إبراهيمَ عليه السلام، مصرِّفًا ما مضىٰ أولَ السورةِ مِن دلائلِ الوَحْدانية علىٰ أوجُهٍ أخرىٰ؛ إعلامًا بأنَّ دلائلَ الجلالِ تفوقُ عددَ الرمال، وتنبيهًا علىٰ أنَّ القصدَ بالذات معرفةُ الله تعالىٰ بذاتِهِ وصفاته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقَل به مِن تقريرِ التوحيدِ والبعث والرسالة وأفانينِ المواعظ والبراهين التي تخلَّلتْ ذلك إلىٰ الاستدلالِ والاعتبار بخَلْقِ الله تعالىٰ، وعجائبِ مصنوعاته المُشاهَدة، علىٰ انفرادِه تعالىٰ بالإلهيَّةِ المستلزِمة لانتفاءِ الإلهيَّة عمَّا لا تَقدِرُ علىٰ مثلِ هذا الصُّنْعِ العجيب؛ فلا يَحِقُّ لها أن تُعبَدَ، ولا أن تُشرَكَ مع اللهِ تعالىٰ في العبادةِ؛ إذ لا حَقَّ لها في الإلهيَّة؛ فيكونُ ذلك إبطالًا لشركِ المشركين مِن العرب، وهو مع ذلك إبطالٌ لمعتقَدِ المعطِّلين مِن الدَّهْريِّين منهم بطريقِ الأَوْلىٰ، وفي ذلك امتنانٌ علىٰ المقصودين مِن الخطابِ؛ وهم المشركون؛ بقرينة قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فتكفُرون النِّعمةَ[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٨٧).

لمَّا كان قد تقدَّم ذِكْرُ البعثِ، نبَّه علىٰ قُدْرتِه تعالىٰ الباهرةِ في شَقِّ النَّواةِ مع صلابتِها، وإخراجِه منها نَبْتًا أخضرَ ليِّنًا، إلىٰ ما بعد ذلك ممَّا فيه إشارةٌ إلىٰ القدرةِ التامة، والبعثِ والنَّشر بعد الموت[(١)].

لمَّا تكلَّم في التوحيدِ، ثم أردَفه بتقريرِ أمر النبوة، ثم تكلَّم في بعضِ تفاريعِ هذا الأصل: عادَ هاهنا إلىٰ ذِكْرِ الدلائلِ الدالة علىٰ وجودِ الخالق، وكمالِ علمِه وحِكْمته وقُدْرته؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ المقصودَ الأصليَّ مِن جميعِ المباحثِ العقلية والنقلية، وكلِّ المطالب الحكميةِ إنَّما هو معرفةُ الله بذاتِه، وصفاته، وأفعاله[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ شروعٌ في بعضِ مُبدَعاتِه الدالةِ علىٰ كمالِ قُدْرتِهِ وعلمِه وحِكْمته، إثرَ تقريرِ شأنِ توحيده تعالىٰ؛ وذلك للتنبيهِ علىٰ أنَّ المقصودَ الأعظم هو معرفتُه ﷻ بجميعِ صفاتِه وأفعاله، وأنَّه مُبدِعُ الأشياءِ وخالقُها. ومَن كان كذلك، كان هو المستحِقَّ للعبادةِ، لا هذه الأصنامُ التي كانوا يعبُدونها، ولتعريفِ خطَئِهم في الإشراكِ الذي كانوا عليه[(٣)].

ما زال السياقُ في بيانِ الدليل علىٰ وجوبِ توحيدِ الله تعالىٰ، وبطلانِ عبادة غيرِه، فقال تعالىٰ واصفًا نفسَه بأفعالِه العظيمة الحكيمة، التي تُثبِتُ ربوبيَّتَه، وتقرِّر ألوهيَّتَه، وتُبطِلُ ربوبيَّةَ وألوهية غيرِه ممَّا زعَم المشركون أنَّها أربابٌ لهم وآلهةٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٩١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٧١).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٤٣٥).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٩٥).

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ ﴾

لمَّا وصَف ﷻ نفسَه المقدَّسة مِن فَلْقِ الجواهِرِ بما اقتضىٰ حتمًا اتصافَهُ بصفاتِ الكمال، وقدَّمه لكونِه مِن أظهَرِ أدلةِ القدرةِ علىٰ البعثِ الذي هذا أسلوبُه، مع الإلفِ له بقُرْبِه ومعالجتِه: أتبَعه ما هو مِثلُه في الدَّلالةِ علىٰ الإحياء، لكنَّه في المعاني، وهو سماويٌّ، شارحًا لِما أشار إليه الخليلُ عليه السلام في مُحاجَّةِ قومِه مِن إبطالِ إلهيَّةِ كلٍّ مِن النُّورِ والظُّلْمة والكواكب، التي هي منشأُ ذلك، فقال ترقيةً مِن العالَمِ السُّفْلي إلىٰ العالم العُلْوي: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[1].

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ يجوز أن يكونَ خبرًا رابعًا عن اسمِ «إنَّ»، ويجوز أن يكونَ صفةً لاسمِ الجلالة المُخبَرِ به عن اسمِ الإشارة، فيكونَ قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ اعتراضًا[2].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن دلائلِ وجودِ الصانع، وعلمِهِ وقُدْرته وحِكْمته؛ فالنوعُ المتقدِّم كان مأخوذًا مِن دَلالةِ أحوالِ النبات والحيوان، والنوعُ المذكور في هذه الآيةِ مأخوذٌ مِن الأحوالِ الفَلَكية؛ وذلك لأنَّ فَلْقَ ظُلْمةِ الليل بنُورِ الصُّبح أعظَمُ في كمالِ القدرة مِن فَلْقِ الحَبِّ والنَّوىٰ بالنباتِ والشَّجر، ولأنَّ مِن المعلومِ بالضرورة أنَّ الأحوالَ الفَلَكية أعظَمُ في القلوبِ وأكثرُ وَقْعًا مِن الأحوالِ الأَرْضية[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ١٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٣٩٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ٧٥).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ مادةَ خَلْقِ الأقوات، ذكَر مِنَّتَهُ بتهيئةِ المساكن، وخَلْقِه كلَّ ما يحتاجُ إليه العبادُ؛ مِن الضياءِ والظُّلمة، وما يترتبُ علىٰ ذلك مِن أنواعِ المنافع والمصالح، فقال: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[١].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ذلك، أتبَعه منفعةً أخرىٰ تعُمُّهما مع غيرِهما، مبيِّنًا ما أَذِن فيه مِن علمِ النجوم ومنافعِها، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾؛ وهذا تذكيرٌ بوَحْدانيَّةِ الله، وبعظيمِ خِلْقةِ النجوم، وبالنِّعمةِ الحاصلة مِن نظامِ سَيْرِها؛ إذ كانت هدايةً للناسِ في ظلمات البرِّ والبحر يهتدون بها[٣].

نبَّه علىٰ أعظَمِ فوائدِ خَلْقِها؛ وهي الهدايةُ للطُّرقِ والمسالك والجهات التي تُقصَدُ، والقِبْلةِ؛ إذ حركاتُ الكواكبِ في الليل يُستدل بها علىٰ القِبْلةِ؛ كما يُستدل بحركةِ الشمسِ في النهار عليها، والخطابُ عامٌّ لكلِّ الناس، و﴿لِتَهْتَدُوا۟﴾ متعلِّقٌ بـ﴿جَعَلَ﴾ مُضمَرة؛ لأنَّها بدَلٌ مِن ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: جعَل ذلك لاهتدائِكم[٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٦٥).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٥٩٥).

هذا هو النوعُ الثالث مِن الدلائلِ الدالة علىٰ كمالِ القدرة والرحمة والحِكْمة؛ وهو أنَّه تعالىٰ خلَق هذه النجومَ لمنافعِ العباد(١).

ثم بيَّن تعالىٰ نِعْمتَهُ في الكواكب إثرَ بيانِ نعمتِه في النَّيِّرَينِ؛ إعلامًا بكمالِ قُدْرته وحِكْمته ورحمته بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

لمَّا ذكَر سبحانه بعضَ هذا الملكوتِ الأرضيِّ والسماوي، أتبَعه - كما مضىٰ في أولِ السورة - الخَلْقَ المفرَدَ الجامع لجميعِ الملكوت، وهو الإنسانُ، دالًّا علىٰ كمالِ القدرة علىٰ كلِّ ما يريد، مبطِلًا بمفاوَتةِ أولِ الإبداع وآخِرِ الآجال ما اعتقَدوا في النُّور والظُّلمة، والشمس والقمر، وغيرهما؛ لأنَّ واحدًا منها لا اختيارَ له في شيءٍ يصدُرُ عنه، بل هو مسخَّرٌ ومقهور؛ كما هو محسوسٌ ومشهور، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٣).

هذا تذكيرٌ بخَلْقِ الإنسانِ، وكيف نشأ هذا العددُ العظيم مِن نفسٍ واحدة؛ كما هو معلومٌ لهم؛ فالذي أنشأ الناسَ وخلَقهم هو الحقيقُ بعبادتِهم دُونَ غيرِه ممَّا أشرَكوا به، والنظرُ في خِلْقةِ الإنسان مِن الاستدلالِ بأعظَمِ الآيات(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٧٩).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٤٤١).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٠٦).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٣٩٥).

هـذا نـوعٌ رابـع مِـن دلائـلِ وجـودِ الإلـه، وكمـال قُدْرتِـه وعلمـه؛ وهـو الاسـتدلالُ بأحوالِ الإنسان، فنقول: لا شُبْهَةَ في أنَّ النَّفْسَ الواحدة هي آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي نفسٌ واحدة، وحوَّاءُ مخلوقةٌ مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعه، فصار كلُّ الناس مِن نفسٍ واحدة؛ وهي آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ نوعًا آخَرَ مِن نِعَمِه، وأدلةِ قُدْرتِه الباهرة، بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

لمَّا ذكَر وجوهَ الإبداعِ التفريعي مِن هذين الكونَين، وأسبابَ البقاءِ له بما يَنشأُ عنه الفصولُ وغيرها: أتبعه سببَه القريبَ؛ وهو الماءُ الذي جعَل منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، فقال - مفصِّلًا ما أجمَله في الحَبِّ والنَّوىٰ، سائقًا له مساقَ الإحسان لِما قبله مِن الدلائلِ؛ فإنَّ الدليلَ إذا كان علىٰ وجهِ الإحسانِ ومذكِّرًا بالإنعام، كان تأثيرُه في القلب عظيمًا؛ فينبغي للمشتغِلِ بدعوة الخَلْقِ أن يسلُكَ هذا المسلكَ؛ ليكونَ للقلوبِ أملَكَ -: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٨٠).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٤٤٢).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٠٨).

لمَّا ذكَر إنعامَه تعالىٰ بخَلْقنا، ذكَر إنعامَه علينا بما يقومُ به أودُنا ومصالحُنا[١].

اعلَمْ أنَّ هذا النوعَ الخامس مِن الدلائلِ الدالة علىٰ كمالِ قدرة اللهِ تعالىٰ وعلمِه، وحِكْمته ورحمته، ووجوهِ إحسانه إلىٰ خَلْقِه. واعلَمْ أنَّ هذه الدلائلَ كما أنَّها دلائلُ، فهي أيضًا نِعَمٌ بالِغة، وإحساناتٌ كاملة، والكلام إذا كان دليلًا مِن بعضِ الوجوه، وكان إنعامًا وإحسانًا مِن سائرِ الوجوه: كان تأثيرُه في القلبِ عظيمًا، وعند هذا يَظهَر أنَّ المشتغِلَ بدعوة الخَلْقِ إلىٰ طريقِ الحقِّ لا ينبغي أن يَعدِلَ عن هذه الطريقةِ[٢].

وهذا مِن أعظَمِ مِنَنِه العظيمةِ التي يُضطَرُّ إليها الخَلْقُ، مِن الآدميِّين وغيرهم؛ وهو أنَّه أنزَل مِن السماءِ ماءً متتابِعًا وقتَ حاجةِ الناس إليه؛ فأنبَت اللهُ به كلَّ شيءٍ، ممَّا يأكلُ الناسُ والأنعام، فرتَع الخَلْقُ بفضلِ الله، وانبسَطوا برزقِه، وفَرِحوا بإحسانِه، وزال عنهم الجَدْبُ واليأس والقَحْطُ؛ ففَرِحت القلوبُ، وأسفَرتِ الوجوهُ، وحصَل للعباد مِن رحمةِ الرحمنِ الرحيم ما به يَتمتَّعون، وبه يَرتَعون؛ ممَّا يوجِبُ لهم أن يبذُلوا جُهْدَهم في شكرِ مَن أسدىٰ النِّعَم، وعبادتِه، والإنابةِ إليه، والمحبَّةِ له[٣].

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

لمَّا كان المشركون علىٰ أصنافٍ: منهم عبَدةُ أصنام، شَركوا في العبوديَّةِ، لا في الخَلْقِ، ومنهم آزَرُ الذي حاجَّه إبراهيمُ عليه السلام، ومنهم عبَدةُ الكواكب؛ وهم فريقان: منهم مَن قال: هي واجبةُ الوجود، ومنهم مَن قال: ممكِنة، خلَقها اللهُ، وفوَّض إليها تدبيرَ هذا العالَمِ الأسفل، وهم الذين حاجَّهم الخليلُ عليه السلام بالأُفولِ، ومنهم مَن قال:

(١) البحر المحيط (٤/ ٥٩٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٨٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٦٧).

لهذا العالَمِ كلِّه إلهانِ: فاعلُ خيرٍ، وفاعل شرٍّ، وقالوا: إنَّ اللهَ وإبليس أخوانِ؛ فاللهُ خالِقُ الناسِ والدوابِّ والأنعام، وإبليسُ خالِقُ السِّباع والحيَّات والعقارب والشرور، ويُلقَّبون الزَّنادقةَ؛ وهم المجوسُ؛ لأنَّ الكتابَ الذي زعَم زردشت أنَّه نزَل مِن عندِ الله سُمِّي بالزِّنْد؛ فالمنسوبُ إليه زِنْدي، ثم عُرِّب فقيل: زِنْديق، وكان هذا كلُّه في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شرحًا لآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ دَلالةً علىٰ تمامِ القدرة الدالةِ علىٰ الوَحْدانيَّةِ؛ للدَّلالةِ علىٰ البعثِ: حسُنَ كلَّ الحُسْنِ العَوْدُ إلىٰ تقبيحِ حال المشركين؛ بالتَّعجيبِ منهم في جملةٍ حاليَّةٍ مِن الضمير في ﴿فَالِقُ﴾، أو غيرِه ممَّا تقدَّم، فقال تعالىٰ شارحًا أمرَ هذا الصِّنْفِ؛ لأنَّ أمرَ غيرِهم تقدَّم - وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: إنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في الزنادقةِ -: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١).

عطفٌ علىٰ الجُمَلِ قبله عَطْفَ القصةِ علىٰ القصةِ؛ فالضميرُ المرفوع في «جعلوا» عائدٌ إلىٰ ﴿قَوْمُكَ﴾ مِن قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾. وهذا انتقالٌ إلىٰ ذِكْرِ شركٍ آخَرَ مِن شركِ العرب؛ وهو جَعْلُهم الجِنَّ شركاءَ للهِ في عبادتِهم؛ كما جعَلوا الأصنامَ شركاءَ له في ذلك(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما اختصَّ به مِن باهرِ قُدْرتِه، ومُتقَنِ صَنْعتِه، وامتنانَه علىٰ عالَمِ الإنسانِ بما أوجَد له ممَّا يَحتاجُ إليه في قِوَامِ حياتِه، وبيَّن ذلك الآياتِ لقومٍ يَعلَمون، ولقوم يَفقَهون، ولقوم يؤمنون: ذكَر ما عامَلوا به مُنشِئَهم مِن العَدَمِ، ومُوجِدَ أرزاقِهم؛ مِن إشراكِ غيرِه له في عبادته، ونسبةِ ما هو مستحيلٌ عليه؛ مِن وَصْفِه بسماتِ الحدوثِ مِن البنينَ والبناتِ(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٠٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٠١).

لمَّا ذكَر هذه البراهينَ الخمسة مِن دلائلِ العالَمِ الأسفل والعالم الأعلىٰ علىٰ ثبوتِ الإلهيَّة، وكمالِ القدرة والرحمة: ذكَر بعد ذلك أنَّ مِن الناسِ مَن أثبَت للهِ شركاءَ(١).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ هذه البراهينَ مِن دلائلِ العالَمِ العُلْوي والسُّفْلي علىٰ عظيمِ قُدْرتِه، وباهر حِكْمته، ووافرِ نعمته، واستحقاقِه للألوهيةِ وحده: عقَّبها بتوبيخِ مَن أشرَك به، والردِّ عليه بقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾

لمَّا ختَم بالتنزيهِ عمَّا قالوا مِن الشريكِ والولَدِ، استدلَّ علىٰ ذلك التنزيهِ بأنَّ الكلَّ خَلْقُه، محيطٌ بهم عِلْمُه، ولن يكونَ المخلوقُ كالخالقِ، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾(٣).

جملةٌ مستأنَفة، وهذا شروعٌ في الإخبارِ بعظيمِ قدرة الله تعالىٰ، وهي تفيدُ مع ذلك تقويةَ التنزيهِ في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فتتنزَّلُ منزلةَ التعليلِ لمضمونِ ذلك التنزيهِ بمضمونها أيضًا(٤).

لمَّا بيَّن فسادَ قولِ طوائفِ أهلِ الدنيا مِن المشركين، شرَع في إقامةِ الدلائل علىٰ فسادِ قولِ مَن يُثبتُ له الولدَ، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٨٨).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٤٤٨).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٤١٠).

(٥) مفاتيح الغيب (١٣/ ٩٢).

ثم استدَلَّ تعالىٰ علىٰ بطلانِ ما اجترَؤوا عليه بوجوهٍ أربعة؛ بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٠٢﴾

لمَّا ثبَت أنَّه لا كُفُؤَ له بما ذكَر مِن صفاتِه وأفعاله، وبيَّن فسادَ أقوالِ المشركين، وفصَّل مذاهبَهم علىٰ أحسَنِ الوجوه، وبيَّن فسادَ كلِّ واحدٍ منها بأمتَنِ الحُجَج، فثبَت بذلك ما افتتَح السورةَ به مِن إحاطتِه بصفاتِ الكمال: قال مشيرًا إلىٰ ذلك كلِّه بمبتدأ أخبرَ عنه بعدَّة أخبارٍ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(٢).

وقوعُ اسمِ الإشارة بعد إجراءِ الصفاتِ والأخبار المتقدِّمة؛ للتنبيهِ علىٰ أنَّ المشارَ إليه حقيقٌ بالأخبارِ والأوصاف التي تَرِدُ بعد اسمِ الإشارة(٣).

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموصوفُ بتلك الأوصافِ السابقة مِن كونِه بديعًا، لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولدًا، خالِقَ الموجوداتِ، عالِمًا بكلِّ شيء: هو ﴿ٱللَّهُ﴾، بدأ بالاسمِ العَلَمِ، ثم قال: ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: مالِكُكم، والناظرُ في مصالحِكم، ثم حصَر الألوهيةَ فيه، ثم كرَّر وَصْفَ خَلْقِه كلَّ شيء، ثم أمَر بعبادتِه؛ لأنَّ مَن استجمَعتْ فيه هذه الصفاتُ، كان جديرًا بالعبادةِ، وأن يُفرَدَ بها؛ فلا يُتَّخذَ معه شريكٌ، ثم أخبَر أنَّه مع تلك الصفاتِ السابقة التي منها خَلْقُ كلِّ شيء، وهو المالكُ لكل شيءٍ؛ مِن الأرزاقِ والآجال: رقيبٌ علىٰ الأعمال(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٤٥٠).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٤١٢).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٦٠٥).

لمَّا أقام الحُجَّةَ علىٰ وجودِ الإلهِ القادر المختار الحكيم الرحيم، وبيَّن فسادَ قولِ مَن ذهَب إلىٰ الإشراكِ بالله، وفصَّل مذاهبَهم علىٰ أحسَنِ الوجوه، وبيَّن فسادَ كلِّ واحدٍ منها بالدلائلِ اللائقة به، ثم حكىٰ مذهبَ مَن أثبَت للهِ البنينَ والبناتِ، وبيَّن بالدلائلِ القاطعةِ فسادَ القولِ بها: فعند هذا ثبَت أنَّ إلهَ العالَمِ فردٌ واحد صمَدٌ منزَّهٌ عن الشريكِ والنظير، والضِّدِّ والنِّدِّ، ومنزَّهٌ عن الأولادِ والبنينَ والبنات؛ فعند هذا صرَّح بالنتيجةِ، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾(١).

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إلىٰ المنعوتِ بما ذُكِرَ مِن جلائلِ النعوت، وما فيه مِن معنىٰ البُعْدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ شأنِ المشارِ إليه، وبُعْدِ منزلتِه في العظمة(٢).

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾

لمَّا كان كلُّ والدٍ وكلُّ شريك لا بد أن يكونَ مجانِسًا لولدِه وشريكه بوجهٍ، وصَل بذلك مِن وصفِهِ ما اقتضاه المقامُ مِن تنزيهه، فقال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾(٣).

جملةٌ ابتدائية لإفادةِ عظمتِه تعالىٰ، وسَعةِ علمه؛ فلعظمتِهِ جلَّ عن أن يحيطَ به شيءٌ مِن أبصارِ المخلوقين، وذلك تعريضٌ بانتفاءِ الإلهيَّة عن الأصنامِ(٤).

قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ جملةٌ مستأنفة؛ إمَّا مؤكِّدةٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ ذُكِرتْ للتخويفِ بأنَّه رقيبٌ مِن حيث لا يُرىٰ؛ فليُحذَرْ، وإمَّا هي مؤكِّدة لِما تقرَّر قبلُ مِن تنزُّهِه وتَعاليه عن إفكِهم أعظَمَ تأكيدٍ؛ ببيانِ أنَّه لا تَراه الأبصارُ المعهودة؛ وهي أبصارُ أهلِ الدنيا؛ لجلالِه، وكبريائه، وعظمته، فأنىٰ يصحُّ

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ٩٤).
(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٦٩).
(٣) نظم الدرر (٧/ ٢١٩).
(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٤١٣).

أن يُنسَب إلىٰ عليائِهِ تلك العظيمة؟ وذلك لأنَّه تعالىٰ لم يخلُقْ لأربابِ هذه النشأةِ الدنيوية استعدادًا لرؤيتِه المقدسة[(١)].

يقـرِّرُ تعـالىٰ حقيقـةً كـبرىٰ؛ وهـي أنَّ اللهَ تعـالىٰ مبـايِنٌ لخَلْقِـه في ذاتِـه وصـفاته، ليس كمثلِهِ شيءٌ؛ فكيف يُشرَك بـه، وكيـف يكـونُ لـه ولـدٌ، وهـو لا تُدرِكُـه الأبصارُ وهـو يُـدرِكُها، وهـو اللطيفُ الـذي ينفُذُ علمُـهُ وقُدْرتـه في كـلِّ ذرَّات الكـونِ عُلْويِّـه وسُفْليِّه، الخبيرُ بكل خَلْقـه، لا يعـزُبُ عنه مثقـالُ ذرةٍ في السـماواتِ ولا في الأرض، وهو العزيزُ الحكيم؟![(٢)].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾

لمَّا أكثَر لهم مِن إقامةِ الأدلة علىٰ وَحْدانيَّته، وختَمها بهذا الـدليلِ المحسـوس الـذي معناه أنَّ كلَّ شريكٍ وكلَّ ابنٍ يُـدرِكُ شـريكَه وأبـاه، وهـو مُتنـاهٍ عـن أن يُدرِكَـه - أي: يحيطَ به - أحدٌ: ناسَب أن يَعِظَهم، ويَمدَحَ الأدلـةَ؛ حثًّـا علـىٰ تـدبُّرِها، وجعَـل ذلـك علىٰ لسانِ نبيِّه ﷺ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه - لنُورِ قلبِـه، وكمـالِ عقلـه، وصـفاءِ لُبِّـه، وغـزارةِ علمه، وشريفِ أخلاقه، واستقامةِ غرائزه، وبُعْدِ مدىٰ همَّتِه عن أن يُنسَبَ إلىٰ جَـوْرٍ، أو يُرمَىٰ بعنادٍ - حقيقٌ بأن يقولَ بعد إقامتِها مِن غير تلعثمٍ؛ تقريـرًا لأمـرِ دَعْوتِـهِ بعـد تقريرِ المطالـبِ العاليـة الإلهيَّـة: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[(٣)].

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٤٥٢).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ١٠٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٢٢).

هذا انتقالٌ مِن مُحاجَّةِ المشركين، وإثباتِ الوَحْدانيَّةِ لله بالرُّبوبيةِ مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. فاستؤنفَ الكلامُ بتوجيهِ خطابٍ للنبي - ﷺ - مقُولٍ لفعلِ أمرٍ بالقولِ في أول الجملة، حُذِفَ علىٰ الشائعِ مِن حذفِ القول للقرينةِ في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾. ومناسبةُ وقوعِ هذا الاستئنافِ عَقِبَ الكلامِ المسُوقِ إليهم مِن الله تعالىٰ: أنَّه كالتوقيفِ والشرح والفَذْلكةِ للكلام السابقِ، فيُقدَّر: قل يا محمَّدُ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قرَّر هذه البياناتِ الظاهرةَ، والدَّلائلَ القاهرة، في هذه المطالبِ العالية الشريفة الإلهيَّةِ: عاد إلىٰ تقريرِ أمرِ الدعوىٰ والتبليغِ والرسالة، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾[(٢)].

ما زال السياقُ في طلبِ هدايةِ المشركين، وبيانِ الطريق لهم؛ ففي هذه الآيةِ يقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾[(٣)].

لمَّا بيَّن تعالىٰ مِن الآياتِ البينات، والأدلةِ الواضحات، الدالةِ علىٰ الحقِّ في جميعِ المطالب والمقاصدِ: نبَّه العبادَ عليها، وأخبرَ أنَّ هدايتَهم وضدَّها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾[(٤)].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

لمَّا كان التقديرُ - التفاتًا إلىٰ مقامِ العظمةِ؛ إعلامًا بأنَّ القضاءَ كلَّه بيدِه؛ لئلا يُظَنَّ نقصٌ في نفوذِ الكلمة -: فانظُروا ما صرَّفْنا لكم في هذه السورةِ مِن الآيات، وأوضَحْنا بها مِن شريفِ الدَّلالات، لقد أتَيْنا فيها بعجائبِ التصاريف، وكشَفْنا عن

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٤١٨).
(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٠٤).
(٣) أيسر التفاسير (٢/ ١٠١).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٦٨).

غرائبِ التعاريف: عطَف عليه قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

جملةٌ معترضة تذييلًا لِما قبلها، والواوُ اعتراضيةٌ؛ فهو متصلٌ بجملةِ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، التي هي مِن خطابِ الله تعالىٰ رسولَهُ ﷺ بتقديرِ: «قل»؛ كما تقدم، والإشارةُ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلىٰ التصريفِ المأخوذ مِن قوله: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾[2].

ومِثلَ ما بيَّنَّا تلك الآياتِ التي هي بصائرُ وصرَّفْناها، نصرِّفُ الآياتِ ونردِّدُها علىٰ وجوهٍ كثيرة[3].

لمَّا تمَّم الكلامَ في الإلهياتِ إلىٰ هذا الموضعِ، شرَع مِن هذا الموضعِ في إثباتِ النبوَّات؛ فبدأ تعالىٰ بحكايةِ شبهات المنكِرين لنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ[4].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: وكما فصَّلْنا الآياتِ في هذه السورةِ؛ مِن بيانِ التوحيد، وأنَّه لا إلهَ إلا هو: هكذا نوضِّحُ الآياتِ، ونفسِّرها، ونبيِّنها في كلِّ موطنٍ؛ لجهالةِ الجاهلين[5].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٦﴾

لمَّا انكشَف بهذا في أثناءِ الأدلةِ وتضاعيفِ البراهين أنَّ القرآنَ كنزٌ، لا يُلقَىٰ مِثله كنزٌ، وعِزٌّ لا يدانيه عزٌّ، وأنَّه في الذِّرْوةِ التي تضاءلت دُونَها سوابحُ الأفكار، وكلَّتْ عن التماعِها نوافذُ الأبصار، وختَم بأنَّ المرادَ بالبيانِ العلماءُ: ناسَب له أن ينبِّهَ علىٰ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٣٢-٢٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٠٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٠٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٢).

ذلك؛ لئلا يفتُرَ عنه طَعْنُهم بقولهم: ﴿دَرَسْتَ﴾ ونحوِه، فقال مخصِّصًا له ﷺ بالخطابِ؛ إعلامًا بأنَّه العالِمُ على الحقيقةِ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

استئنافٌ في خطابِ النبيِّ عليه السلام لأمرِه بالإعراضِ عن بهتانِ المشركين، وألا يكترِثَ بأقوالهم؛ فابتداؤُه بالأمرِ باتباع ما أُوحيَ إليه يتنزَّلُ منزلةَ المقدِّمة للأمرِ بالإعراض عن المشركين، وليس هو المَقصِدَ الأصليَّ مِن الغرضِ المسُوقِ له الكلامُ؛ لأنَّ اتِّباعَ الرسولِ ﷺ ما أوحيَ إليه أمرٌ واقع بجميعِ معانيه؛ فالمقصودُ مِن الأمرِ الدوامُ على اتِّباعِه؛ والمعنى: أعرِضْ عن المشركين؛ اتِّباعًا لِما أُنزِلَ إليك مِن ربك(٢).

أمَره تعالى بأن يتَّبِعَ ما أوحيَ إليه، وبأن يُعرِضَ عمَّن أشرَك، والأمرُ بالإعراض عنهم كان قبل نَسْخِه بالقتال، والسَّوْقِ إلى الدِّينِ طوعًا أو كَرْهًا، والجملةُ بَيْنَ الأمرينِ اعتراضٌ أُكِّدَ به وجوبُ اتِّباعِ الموحَى، أو في موضعِ الحال المؤكِّدة(٣).

لمَّا حكى عن الكفارِ أنَّهم ينسُبونه في إظهارِ هذا القرآن إلى الافتراءِ، أو إلى أنَّه يدارِسُ أقوامًا، ويستفيدُ هذه العلومَ منهم، ثم يَنظِمُها قرآنًا، ويدَّعي أنَّه نزَل عليه مِن الله تعالى: أتبعه بقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لئلا يصيرَ ذلك القولُ سببًا لفتورِه في تبليغِ الدعوة والرسالة؛ والمقصودُ تقويةُ قلبه، وإزالةُ الحُزْنِ الذي حصَل بسببِ سماع تلك الشُّبْهة، ونبَّه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنَّه تعالى لمَّا كان واحدًا في الإلهيَّةِ، فإنَّه يجبُ طاعتُه، ولا يجوز الإعراضُ عن تكاليفِه بسببِ جهلِ الجاهلين، وزيغِ الزائغين(٤).

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢٣).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٦١٠).
(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٠٧).

ولمَّا حكىٰ تعالىٰ عن المشركين قَدْحَهم في تصريفِ الآيات، أتبعه بالأمرِ بالثباتِ علىٰ ما هو عليه؛ تقويةً لقلبِه، وإزالةً لِما يحزُنُه، فقال سبحانه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

لمَّا كان الحبيبُ أسَرَّ شيءٍ بما يَزيدُه حبيبُه، قال مسلِّيًا له ﷺ عن استهزائِهم به، وردِّهم لقولِه، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلو شاء اللهُ، ما خالَفوك، ولا تكلَّموا فيك ببنتِ شَفَةٍ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾(٢).

قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ عطف علىٰ جملة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ أيضًا متعلِّقٌ بقولِهم للرسولِ ﷺ: إنَّما جمعتَ هذا القرآنَ مِن مدارَسةِ الناس، ومذاكَرتِهم، فكأنَّه تعالىٰ يقولُ له: لا تلتفِتْ إلىٰ سفاهاتِ هؤلاء الكفارِ، ولا يثقُلَنَّ عليك كفرُهم؛ فإنِّي لو أردتُ إزالةَ الكفرِ عنهم، لقدَرتُ، ولكنِّي تركتُهم مع كفرِهم؛ فلا ينبغي أن تَشغَلَ قلبَك بكلماتِهم(٤).

يسلِّي الربُّ تعالىٰ رسولَه، ويخفِّفُ عنه آلامَ إعراضِ المشركين عن دَعْوتِه، ومحارَبتِه فيها، فيقول له: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾؛ أي: لو يشاء اللهُ عدمَ إشراكِهم، لَمَا قدَروا علىٰ أن يُشرِكوا إذًا؛ فلا تَحزَنْ عليهم(٥).

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٤٦١).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٠٨).

(٥) أيسر التفاسير (٢/ ١٠٢).

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

لمَّا طال التنفيرُ عمَّا اتُّخِذ مِن دُونه مِن الأندادِ والبنات؛ لأنَّها أقَلُّ مِن ذلك وأحقَرُ: كان ذلك ربما كان داعيةً إلىٰ سَبِّها؛ فنهىٰ عنه لمَفسَدةٍ يجُرُّها السبُّ كبيرةٍ جدًّا، فقال عاطفًا علىٰ قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ غيرَ مواجِهٍ له وَحْده ﷺ إكرامًا له: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(١).

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يَزيدُ معنىٰ الإعراضِ المأمور به بيانًا، ويحقِّقُ ما قلناه؛ أنْ ليس المقصودُ مِن الإعراضِ تَرْكَ الدعوة، بل المقصودُ الإغضاءُ عن سِبابهم، وبذيءِ أقوالِهم، مع الدوامِ علىٰ متابَعةِ الدعوة بالقرآن؛ فإنَّ النَّهيَ عن سبِّ أصنامِهم يؤذِنُ بالاسترسالِ علىٰ دعوتهم، وإبطالِ معتقَداتهم، مع تجنُّبِ المسلمين سَبَّ ما يَدْعونهم مِن دُونِ الله(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ أيضًا متعلِّقٌ بقولِهم للرسول ﷺ: إنَّما جمَعتَ هذا القرآنَ مِن مدارَسةِ الناسِ ومذاكَرتهم؛ فإنَّه لا يبعُدُ أنَّ بعضَ المسلمين إذا سَمِعوا ذلك الكلامَ مِن الكفارِ، غَضِبوا وشتَموا آلهتَهم علىٰ سبيل المعارَضة؛ فنهىٰ اللهُ تعالىٰ عن هذا العملِ؛ لأنَّك متىٰ شتَمتَ آلهتَهم، غَضِبوا؛ فربما ذكَروا اللهَ تعالىٰ بما لا ينبغي مِن القولِ؛ فلأجلِ الاحترازِ عن هذا المحذورِ وجَب الاحترازُ عن ذلك المقالِ، وبالجملة فهو تنبيهٌ علىٰ أنَّ خَصْمَك إذا شافَهك بجهلٍ وسفاهة، لم يجُزْ لك أن

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢٧).

تُقدِمَ علىٰ مشافَهتِه بما يَجري مَجرىٰ كلامه؛ فإنَّ ذلك يوجِبُ فتحَ بابِ المشاتَمةِ والسَّفاهة؛ وذلك لا يَليق بالعقلاء[(١)].

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

لمَّا نصَب سبحانه هذه الدَّلالاتِ في هذه الآياتِ البينات حتىٰ ختَمها بما عَلِم منهم مِن الإسراعِ إلىٰ سَبِّ مَن أحسَن إليهم؛ بأن أوجَدهم وأوجَد لهم كلَّ ما في الكون، وما مِن نعمةٍ عليهم إلا وهي منه: عجَّب منهم في الوعدِ بالإيمانِ علىٰ وجهِ التأكيد بما يأتيهم مِن مقترَحاتهم؛ إعلامًا بأنَّ ذلك ممَّا زُيِّن لهم مِن عملِهم، وهي أمنيَّةٌ كاذبة، ويمينٌ حانثة، فقال عاطفًا علىٰ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(٢)].

عطَف جملة ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ ﴾ علىٰ جملة ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآيةَ. والضميرُ عائدٌ إلىٰ القومِ في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾، مثلَ الضمائرِ التي جاءت بعد تلك الآيةِ؛ ومعنىٰ: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ آيةٌ غيرُ القرآن. وهذا إشارةٌ إلىٰ شيءٍ مِن تعلُّلاتِهم للتمادي علىٰ الكفرِ بعد ظهورِ الحُجَجِ الدامغة لهم، كانوا قد تعلَّلوا به في بعضِ تورُّكِهم علىٰ الإسلامِ[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٠٩).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٤٣٤).

اقترَحوا آيةً معيَّنة؛ لأنَّهم شَكُّوا في القرآن؛ ولهذا قالوا: دارَستَ - أي: العلماءَ - وباحَثتَ أهلَ التَّوراة والإنجيل، وكابَر أكثرُهم وعانَد؛ والمعنىٰ: أنَّهم حلَفوا غايةَ حَلِفهم، وسُمِّي الحَلِفُ قَسَمًا؛ لأنَّه يكون عند انقسامِ الناسِ إلىٰ التصديقِ والتكذيب، فكأنَّه يقوِّي القَسَمَ الذي يختاره، قال التبريزيُّ: الإقسام: إفعالٌ مِن القِسْم، الذي هو بمعنىٰ النصيبِ والقِسمة، وكان إقسامُهم بالله غايةً في الحَلِف، وكانوا يُقسِمون بآبائهم وآلهتِهم، فإذا كان الأمرُ عظيمًا، أقسَموا باللهِ تعالىٰ[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الكفارِ شُبْهةً توجِبُ الطَّعنَ في نبوَّته؛ وهي قولُهم: إنَّ هذا القرآنَ إنَّما جئتَنا به لأنَّك تدارِسُ العلماءَ، وتباحِثُ الأقوامَ الذين عرَفوا التَّوراةَ والإنجيل، ثم تَجمَعُ هذه السُّوَرَ وهذه الآياتِ بهذا الطريقِ، ثم إنَّه تعالىٰ أجاب عن هذه الشُّبْهةِ بما سبَق، وهذه الآيةُ مشتمِلةٌ علىٰ شُبْهةٍ أخرىٰ؛ وهي قولهم له: إنَّ هذا القرآنَ كيفما كان أمرُه، فليس مِن جنسِ المعجِزات البتَّةَ، ولو أنَّك يا محمَّدُ جئتَنا بمُعجِزةٍ قاهرة، وبيِّنةٍ ظاهرة: لآمَنَّا بك، وحلَفوا علىٰ ذلك، وبالَغوا في تأكيدِ ذلك الحَلِف؛ فالمقصودُ مِن هذه الآيةِ تقريرُ هذه الشُّبْهة[2].

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فإنَّا نَطبَعُ علىٰ قلوبِهم، ونزيِّنُ لهم سُوءَ أعمالهم: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٦١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١١١).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٣٠).

يجوزُ أن يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فتكونَ بيانًا لقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: بأن نعطِّلَ أبصارَهم عن تلك الآيةِ، وعقولَهم عن الاهتداءِ بها، فلا يُبصِرون ما تحتوي عليه الآيةُ مِن الدلائل، ولا تَفقَهُ قلوبُهم وجهَ الدَّلالة، فيَتعطَّل تصديقُهم بها؛ وذلك بأن يَحرِمَهم اللهُ مِن إصلاحِ إدراكهم؛ وذلك أنَّهم قد خُلِقتْ عقولُهم نابيةً عن العلمِ الصحيح بما هيَّأ لها ذلك مِن انسلالِها مِن أصولِ المشركين، ومِن نشأتِها بَيْنَ أهلِ الضلال، وتَلقِّي ضلالتِهم[1].

﴿وَنُقَلِّبُ﴾ جملةٌ استئنافية، أخبَر تعالى أنَّه يَفعَلُ بهم ذلك، وهي إشارةٌ إلى الحَيْرةِ والتردُّد، وصرفِ الشيءِ عن وجهه[2].

ومعنى تقليبِ الأفئدةِ والأبصار: هو أنَّه إذا جاءتهم الآياتُ القاهرة التي اقترَحوها، وعرَفوا كيفيةَ دَلالتِها على صدقِ الرسول ﷺ، إلا أنَّه تعالى إذا قلَّب قلوبَهم وأبصارَهم عن ذلك الوجهِ الصحيح، بَقُوا على الكفرِ، ولم يَنتفعوا بتلك الآياتِ؛ والمقصودُ مِن هذه الآيةِ: تقريرُ ما ذكَرْناه في الآيةِ الأُولى؛ مِن أنَّ تلك الآياتِ القاهرةَ لو جاءتهم، لَمَا آمَنوا بها، ولَمَا انتفَعوا بظهورِها البتَّة[3].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، داخلٌ في حُكْمِ ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾، مقيَّدٌ بما قُيِّد به؛ أي: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ أنَّا نقلِّبُ أفئدتَهم عن إدراكِ الحق فلا يَفقَهونه، وأبصارَهم عن اجتلائه فلا يُبصِرونه، لكن لا مع توجُّهِها إليها واستعدادِها لقَبوله، بل لكمالِ نُبُوِّها[4] عنه، وإعراضِها بالكليةِ؛ ولذلك أخَّر ذِكْرَه

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٤٤١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٦١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١١٣-١١٤).

(٤) أي: ابتعادها وتجافيها.

عن ذِكْرِ عدمِ إيمانهم؛ إشعارًا بأصالتِهم في الكفرِ، وحتمًا لتوهُّمِ أنَّ عدمَ إيمانِهم ناشئٌ مِن تقليبِه تعالىٰ مشاعرَهم بطريقِ الإجبار[1].

ثم بيَّن علَّةَ عدمِ إيمانهم، فقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ فلا تَعِي ولا تفهم، ﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ فلا ترىٰ ولا تُبصِر؛ فلا يؤمِنون كما لم يؤمنوا بالقرآنِ أولَ مرَّةٍ لمَّا دُعُوا إلىٰ الإيمانِ به[2].

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

لمَّا أخبرَ أنَّهم لا يؤمِنون عند آيةٍ مقترَحةٍ، عمَّم علىٰ وجهٍ مفصِّلٍ لإجمالِ ما قبله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[3].

جملةُ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ باعتبارِ كونِ جملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ عطفًا علىٰ جملة ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ فتكونُ ثلاثتُها ردًّا علىٰ مضمونِ جملة ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ إلخ، وبيانًا لجملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في هذه الآيةِ تفصيلَ ما ذكَره علىٰ سبيلِ الإجمال بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فبيَّن أنَّه تعالىٰ لو أعطاهم ما طلَبوه؛ مِن إنزالِ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٣).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ١٠٤).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٣٠-٢٣١).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٥).

الملائكة، وإحياءِ الموتىٰ حتىٰ كلَّموهم، بل لو زاد في ذلك ما لا يبلُغُه اقتراحُهم؛ بأن يحشُرَ ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (١).

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ تصريحٌ بما أشعَر به قولُه ﷻ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مِن الحِكْمةِ الداعية إلىٰ تركِ الإجابةِ إلىٰ ما اقترحوه مِن الآيات، إثرَ بيانِ أنَّها في حُكْمِه تعالىٰ، وقضائِه المَبْنيِّ علىٰ الحِكَمِ البالغة، لا مَدخَلَ لأحدٍ في أمرِها بوجهٍ مِن الوجوه، وبيانٌ لكَذِبهم في أَيْمانِهم الفاجرةِ علىٰ أبلَغِ وجهٍ وآكَدِه (٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾

لمَّا كان مضمونُ ما تقدَّم إثباتَ عداوةِ الكفارِ للنبي ﷺ، كان كأنَّه قيل تسليةً له وتثبيتًا لفؤادِه: فقد جعَلْناهم أعداءً لك؛ لأنَّك عالِمٌ، «والجاهلونَ لأهلِ العلمِ أعداءُ»؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (٣).

اعتراضٌ قُصِد منه تسليةُ الرسول ﷺ، والواوُ واوُ الاعتراض؛ لأنَّ الجملةَ بمنزلةِ الفَذْلكة، وتكونُ للرسولِ ﷺ تسليةً بعد ذِكْرِ ما يحزُنُه مِن أحوالِ كفارِ قومه، وتصلُّبِهم في نَبْذِ دعوتِه، فأنبأه اللهُ: بأنَّ هؤلاء أعداؤه، وأنَّ عداوةَ أمثالهم سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ تعالىٰ في ابتلاءِ أنبيائه كلِّهم، فما منهم أحدٌ إلا كان له أعداءٌ، فلم تكُنْ عداوةُ هؤلاء للنبيِّ عليه الصلاة والسلام بِدْعًا مِن شأنِ الرسل (٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١١٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٤).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٨).

قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ منسوقٌ علىٰ شيءٍ، وفي تعيينِ ذلك الشيءِ قولان: الأول: أنَّه منسوقٌ علىٰ قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾؛ أي: كما فعَلْنا ذلك، كذلك جعَلْنا لكل نبيٍّ عدوًّا. الثاني: معناه: جعَلْنا لك عدوًّا كما جعَلْنا لِمَن قبلك مِن الأنبياءِ، فيكونُ قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ عطفًا علىٰ معنىٰ ما تقدَّم مِن الكلامِ؛ لأنَّ ما تقدَّم يدل علىٰ أنَّه تعالىٰ جعَل له أعداءً(١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لتسليةِ رسولِ الله ﷺ عمَّا كان يشاهِدُه مِن عداوةِ قُرَيشٍ له ﷺ، وما بنَوْا عليها ممَّا لا خيرَ فيه مِن الأقاويلِ والأفاعيل؛ ببيانِ أنَّ ذلك ليس مختصًّا بك، بل هو أمرٌ ابتُلِيَ به كلُّ مَن سبقك مِن الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام(٢).

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

لمَّا كان التَّقديرُ: ذَرْهم لتُعرِضَ عنهم قلوبُ الذين يؤمنون بالآخرةِ، وليَسخَطوه، وليَعلَموا ما هم له مبصِرون، وبه عارفون، فتُرفَع بذلك درجاتُهم: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾(٣).

عطَف قوله: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ ﴾ علىٰ ﴿ غُرُورًا ﴾؛ لأنَّ غرورًا في معنىٰ لِيَغُرُّوهم(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١١٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٥).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١١).

هذه الآيةُ بجُمَلِها الأربعِ معطوفةٌ علىٰ قوله: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ إذ إيحاءُ شياطينِ الجنِّ والإنس كان للغُرورِ؛ أي: لِيَغتَرَّ به المشركون، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: تَميلَ ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهم المشركون العادلون بربِّهم، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ويَقتنعوا به؛ لأنَّه مموَّهٌ لهم مزيَّنٌ، ونتيجةً لذلك التغريرِ والميلِ إليه - وهو باطلٌ - والرضا به والاقتناعِ بفائدته، فهم يَقترفون مِن أنواعِ الكفرِ وضروب الشرك والمعاصي والإجرام ما يَقترفون![1].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

ولمَّا كان فيما تقدَّم الإخبارُ عن مغيَّبٍ؛ وهو أنَّهم لا يؤمنون عند مجيءِ الآياتِ المقترَحة، وكانت عادةُ العربِ دعاءَ الأعداء والمخالِفين إلىٰ حاكمٍ يَفصِل بينهم، وكانوا إنَّما يَفزَعون في الأمورِ المغيَّبة إلىٰ الكُهَّانِ؛ لِما كانوا يَكشِفون لهم بما يَقذِفُ إليهم إخوانُهم مِن الجانِّ ممَّا يَستَرِقُونَه مِن السَّمعِ، فيَزيدونه كَذِبًا كثيرًا، ثم لا يضُرُّهم ذلك عندهم؛ لذلك القليلِ الذي يصدُقون فيه؛ كما ابتُلِينا به في هذا الزمانِ مِن الافتتانِ بمَن يَفعَل مثلَ ذلك مِن المجانينِ والمتشبِّهين بهم، وكانت الآياتُ التي فرَغ منها قد أثبتَتْ أنَّ اتخاذَهم غُرورٌ: سبَّب عن ذلك وجوبَ نفيِ اتخاذِهم غيرَ الله؛ لِما اتصَف به مِن إيحاءِ ما خالَف إيحاءَهم، ففات القوىٰ في إخبارِه عن حقائقِ الأمور مفصَّلةً أحسَنَ تفصيلٍ في أساليبَ قصُرتْ دونها سوابقُ الأفكار، وكعَّت عنها نوافذُ الأفهام؛ فثبَتَتْ به نبوَّتُه، ووضَحتْ رسالتُه، فكان اقتراحُهم ظاهرًا في كونِه تعنُّتًا؛ لأنَّهم كذَّبوا بأعظَمِ الآياتِ: القرآنِ، ولم يؤمِنوا به، وطعَنوا فيه بما زادهم فضائحَ؛ فثبَت أنَّه لا فائدةَ في إجابتِهم إلىٰ مقترَحاتهم؛

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١٠٧).

فكان الجوابُ عمَّا اقتضاه لسانُ حالِهم مِن طلبِ التحاكم إلىٰ أوليائهم ببليغِ الإنكار عليهم بقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[1].

استئنافٌ بخطابٍ مِن اللهِ تعالىٰ إلىٰ رسولِه ﷺ بتقديرِ الأمرِ بالقول بقرينةِ السياق بعد أن أخبَره عن تصاريفِ عنادِ المشركين، وتكذيبِهم، وتعنُّتِهم في طلبِ الآيات الخوارقِ؛ إذ جعَلوها حكَمًا بينهم وبين الرسولِ عليه الصلاة والسلام في صِدْقِ دعوتِه، وبعد أن فضَحهم اللهُ بعداوتِهم لرسوله عليه الصلاة والسلام، وافترائهم عليه، وأمَر رسولَه ﷺ بالإعراضِ عنهم، وتَرْكِهم وما يفترون، وأعلَمه بأنَّه ما كلَّفه أن يكونَ وكيلًا لإيمانهم، وبأنَّهم سيرَجِعون إلىٰ ربِّهم فينبِّئُهم بما كانوا يعملون: بعد ذلك كلِّه، لقَّن اللهُ رسولَه ﷺ أن يخاطِبَهم خطابًا كالجوابِ عن أقوالهم وتورُّكاتِهم، فيُفرِّع عليها أنَّه لا يطلُبُ حاكمًا بَيْنَه وبينهم غيرَ الله تعالىٰ، الذي إليه مَرجِعُهم، وأنَّهم إن طَمِعوا في غيرِ ذلك منه، فقد طَمِعوا منكَرًا؛ فتقديرُ القولِ متعيِّنٌ؛ لأنَّ الكلامَ لا يناسِبُ إلا أن يكونَ مِن قولِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، والفاءُ لتفريعِ الجواب عن مجموعِ أقوالهم ومقترَحاتهم؛ فهو مِن عطفِ التلقينِ بالفاء[2].

لمَّا حكىٰ عن الكفارِ أنَّهم أقسَموا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾، أجاب عنه بأنَّه لا فائدةَ في إظهارِ تلك الآياتِ؛ لأنَّه تعالىٰ لو أظهَرها، لبَقُوا مصرِّين علىٰ كفرِهم، ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الدليلَ الدالَّ علىٰ نبوَّتِه قد حصَل وكمَل، فكان ما يطلُبونه طلبًا للزيادة[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٢٣).

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ كلامٌ مستأنَف وارد علىٰ إرادةِ القول، والهَمْزةُ للإنكار، والفاء للعطفِ علىٰ مقدَّرٍ يقتضيه الكلامُ؛ أي: قل لهم: أأميلُ إلىٰ زخارفِ الشياطين فأبتغيَ حكَمًا غيرَ الله يحكُمُ بيننا، ويَفصِلُ المُحِقَّ منَّا مِن المُبطِلِ؟![1].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

لمَّا دلَّ علىٰ كونِه حقًّا مِن عندِ الله بعلمِ أهلِ الكتاب صريحًا، وأهلِ اللسان تلويحًا: دلَّ عليه بوجهٍ آخَرَ شُهوديٍّ؛ وهو أنَّه ما قال شيئًا إلا كان علىٰ وَفْقِ ما قال، وأنَّه لم يستطِعْ - ولا يستطيعُ - أحدٌ مَنْعَ شيءٍ ممَّا أخبَر به، ولا تعويقَه ساعةً مِن نهارٍ ولا أقلَّ ولا أكثَرَ، بقولِه تعالىٰ مُظهَرًا في موضعِ الإضمار؛ لتذكيرِه ﷺ بما له سبحانه مِن الإحسانِ، والتنبيهِ علىٰ ما يريدُ به مِن التشريفِ والإكرام: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

هذه الجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾؛ لأنَّ تلك الجملةَ مقُولُ قولٍ مقدَّر؛ إذ التقديرُ: قل: أفغيرَ اللهِ أبتغي حكَمًا؟ باعتبارِ ما في تلك الجملةِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، فلمَّا وُصِف الكتابُ بأنَّه منزَّلٌ مِن الله، ووُصِف بوضوحِ الدَّلالةِ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، ثم بشَهادةِ علماءِ أهل الكتاب بأنَّه مِن عندِ اللهِ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: أعلَمَ رسولَه ﷺ والمؤمنين بأنَّ هذا الكتابَ تامُّ الدَّلالة، ناهضُ الحُجَّة علىٰ كلِّ فريقٍ: مِن مؤمنٍ وكافر، صادقٌ وعدُهُ ووعيدُه، عادلٌ أمرُه ونَهْيُه. ويجوز أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملة ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، وما بينهما اعتراضٌ[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٨).

لمَّا تقدَّم مِن أولِ السورةِ إلىٰ هنا دلائلُ التوحيدِ والنبوَّة والبعثِ، والطَّعنُ علىٰ مخالِفي ذلك، وكان مِن هنا إلىٰ آخرِ السورة أحكامٌ وقَصَصٌ: ناسَب ذِكْرُ هذه الآياتِ هنا؛ أي: تمَّتْ أقضِيتُه وأقدارُه(١).

تعلُّق هذه الآيةِ بما قبلها: أنَّه تعالىٰ بيَّن في الآيةِ السابقة أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ؛ فذكَر في هذه الآيةِ أنَّه ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾؛ والمرادُ بالكلمة: القرآن؛ أي: تمَّ القرآنُ في كونه مُعجِزًا، دالًّا علىٰ صِدْقِ محمَّد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾؛ أي: تمَّتْ تمامًا صِدْقًا وعَدْلًا(٢).

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ شروعٌ في بيانِ كمالِ الكتاب المذكور مِن حيث ذاتُه، إثرَ بيانِ كمالِه مِن حيث إضافتُه إليه تعالىٰ بكونِه منزَّلًا منه بالحقِّ، وتحقيقُ ذلك بعلمِ أهلِ الكتاب به؛ وإنَّما عُبِّر عنه بالكلمةِ؛ لأنَّها الأصلُ في الاتصافِ بالصدق والعدل، وبها تَظهَرُ الآثارُ مِن الحكمِ(٣).

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦ ﴾

لمَّا أجاب عن شبهاتِ الكفار، وبيَّن صحةَ نبوَّته ﷺ: شرَع في الحثِّ علىٰ الإعراضِ عن جهلِ الجُهَّال، والإقبالِ علىٰ ذي الجلال؛ فكان التقديرُ: فإن أطَعتَه فيما أمَرك به، اهتديتَ إلىٰ صراطِ اللهِ الذي يَتِمُّ لك بسلوكِه جميعُ ما وعَدك به: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٦٢٨).
(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٢٥).
(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٨).
(٤) نظم الدرر (٧/ ٢٣٩).

أعقَب ذِكْرَ عنادِ المشركين، وعداوتِهم للرسول ﷺ، ووَلايتِهم للشياطينِ، ورضاهم بما تُوسوِسُ لهم شياطينُ الجِنِّ والإنس، واقترافِهم السيئاتِ طاعةً لأوليائهم، وما طَمْأنَ به قلبَ الرسولِ ﷺ مِن أنَّه لَقِيَ سُنَّةَ الأنبياءِ قبله مِن آثارِ عداوةِ شياطينِ الإنس والجن؛ بذِكْرِ ما يهوِّنُ على الرسولِ ﷺ والمسلمين ما يرَوْنه مِن كثرةِ المشركين وعِزَّتِهم، ومِن قلَّةِ المسلمين وضَعْفِهم، مع تحذيرِهم مِن الثقةِ بقولِهم، والإرشادِ إلى مخالَفتِهم في سائرِ أحوالهم، وعدمِ الإصغاء إلى رأيِهم؛ لأنَّهم يُضِلُّون عن سبيلِ الله، وأمَرهم بأن يَلزَموا ما يُرشِدهم الله إليه. فجملةُ ﴿ وَإِن تُطِعْ ﴾ متصلةٌ بجملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾، وبجملةِ ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ وما بعدَها إلى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(١)].

لمَّا أجاب عن شبهاتِ الكفار، ثم بيَّن بالدليلِ صحةَ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ: بيَّن أنَّ بعد زوالِ الشُّبْهةِ وظهورِ الحجة لا ينبغي أن يَلتفِتَ العاقلُ إلى كلمات الجهَّال، ولا ينبغي أن يَتشوَّشَ بسببِ كلماتِهم الفاسدةِ، فقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[(٢)].

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لمَّا تحقَّق اختصاصُه تعالى بالحُكْميَّةِ؛ لاستقلالِه بما يوجِبُها مِن إنزالِ الكتابِ الكاملِ الفاصلِ بَيْنَ الحقِّ والباطل، وتمامِ صِدْقِ كلامِه، وكمالِ عدالةِ أحكامه، وامتناعِ وجودِ مَن يبدِّلُ شيئًا منها، وإحاطتِهِ تعالى التامةِ بجميعِ المسموعاتِ والمعلوماتِ: عقَّب ذلك ببيانِ أنَّ الكفرةَ متصِفون بنقائضِ تلك الكمالاتِ مِن النقائصِ؛ التي هي الضَّلالُ والإضلال،

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٢٦).

واتِّباعُ الظنونِ الفاسدة الناشئ مِن الجهلِ والكذبِ على اللهِ ﷻ؛ إبانةً لكمالِ مبايَنةِ حالهم لِما يرُومونه، وتحذيرًا عن الركونِ إليهم، والعملِ بآرائهم (١).

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١١٧ ﴾

لمَّا كان المقامُ للعلمِ الكاشفِ للحقائق، المبيِّنِ لِما يُتَّبعُ وما يُجتنَبُ: قال معلِّلًا لهذا الإخبارِ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (٢).

تعليلٌ لقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ لأنَّ مضمونه التحذيرُ مِن نزَغاتِهم، وتوقُّعُ التضليلِ منهم، وهو يقتضي أنَّ المسلمين يريدون الاهتداءَ؛ فلْيَجتنبوا الضالِّين، ولْيَهتدوا باللهِ الذي يَهديهم (٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أخبَر أنَّه أعلَمُ العالِمين بالضالِّ والمهتدي (٤).

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ تقريرٌ لمضمونِ الشَّرْطية، وما بعدها، وتأكيدٌ لِما يفيده مِن التحذيرِ (٥).

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١١٨ ﴾

لمَّا قدَّم سبحانه ما مضىٰ مِن السَّوائبِ وما معها في المائدةِ، ممَّا يَدِينُ به أهلُ الجاهليةِ في أكلِ الحيوانِ الذي جرَّ إليه الشركُ، وأتبَعه بيانَ أنَّه لا ضررَ علىٰ أهلِ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٨).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢٣).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٦٢٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٩).

الإيمان مِن دِينِ أهلِ الضَّلال إذا اهتدَوْا، وأتبَع ذلك ما لاءَمَه، وانتظَم في سِلْكِه ولاحَمه، حتىٰ ظهَر أيَّ ظهورٍ أنَّ الكلَّ مِلْكُه ومُلْكُه، وأنَّه لا شريكَ له؛ فوجَب شُكْرُه وَحْده، وكانوا مع ذلك قد كفَروا نِعَمَه تعالىٰ؛ فاتخَذوا معه شركاءَ، ولم يَكفِهم ذلك حتىٰ جعَلوا لها ممَّا ذرأ مِن الحرثِ والأنعام نصيبًا، فكانوا بذلك المانعين الحقَّ عن أهله، ومانحين ما خوَّلهم فيه مَن له المُلْكُ لِما لا يَملِكُ ضرًّا ولا نفعًا، وتاركين بعضَ ما أنعَم عليهم به صاحبُ الحق؛ رعايةً لِمَن لا حقَّ له ولا حُرْمةَ، وكانت سُنَّةُ اللهِ تعالىٰ قد جرَتْ بأنَّه يذكُرُ نفسَه الشريفةَ بالوَحْدانيَّة، ويَستدل علىٰ ذلك بخَلْقِ السماواتِ والأرض، وما أودَع فيهما لنا مِن المنافع، وما أبدَع مِن المَرافِقِ والمصانع، ثم يعجِّبُ ممَّن أشرَك به، ثم يأمرُ بالأكل ممَّا خلَق تذكيرًا بالنعمة؛ ليكونَ ذلك داعيةً لكلِّ ذي لُبٍّ إلىٰ شُكْرِه: أجرىٰ هذه السُّنةَ الجليلةَ في هذه السورةِ أيضًا، ودلَّ علىٰ أنَّه لا شريكَ له في مِلْكِه، ولا مُلْكِه، وختَم بأنَّه لا حكَمَ سِواه ينازِعُه في حُكْمِه، أو يباريه في شيءٍ مِن أمرِه، وبيَّن أنَّ مِن آيِها الهدايةَ التي جعَلها شرطًا لعدمِ ضرَرٍ يَلحَق مِن دِينِ أهلِ الشرك؛ فسبَّب عن جميعِ ما ذكَرتُ قولَه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾(١).

هذا تخلُّصٌ مِن محاجَّةِ المشركين، وبيانُ ضلالِهم المذيَّلِ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، انتقَل الكلامُ مِن ذلك إلىٰ تبيينِ شرائعَ هُدًىٰ للمهتدِين، وإبطالِ شرائعَ شرَعها المضلُّون؛ تبيينًا يزيلُ التشابُهَ والاختلاط؛ ولذلك خُلِّلتِ الأحكامُ المشروعة للمسلمين بأضدادِها التي كان شرَعها المشركون وسلَفُهم(٢).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٣٠).

لمَّا تضمَّنتِ الآيةُ التي قبلها الإنكارَ على اتباعِ المضلِّين الذين يُحِلُّون الحرامَ، ويُحرِّمون الحلالَ، وكانوا يُسَمُّون في كثيرٍ ممَّا يذكُرونه اسمَ آلهتهم: أمَر المؤمنين بأكلِ ما سُمِّيَ على ذكاتِهِ اسمُ الله، لا غيرِه مِن آلهتِهم(١).

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ أمرٌ مترتِّبٌ على النَّهيِ عن اتِّباع المضلِّين، الذين مِن جملةِ إضلالِهم تحليلُ الحرام، وتحريمُ الحلال؛ وذلك أنَّهم كانوا يقولون للمسلمين: إنَّكم تعبُدون اللهَ؛ فما قتَله اللهُ أحقُّ أن تأكلوه ممَّا قتَلْتم أنتم، فقيل للمسلمين: كُلُوا ممَّا ذُكِر اسمُه تعالى خاصَّةً على ذبحِه، لا ممَّا ذُكِر عليه اسمُ غيرِه فقط، أو مع اسمِه تعالى، أو مات حَتْفَ أنفِه(٢).

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩﴾

عطفٌ على قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾. والخطابُ للمسلمين(٣).

ثم ندَب إلى الأكلِ ممَّا ذُكِر اسمُ الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: قد بيَّن لكم ما حرَّم عليكم، ووضَّحه(٤).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٦٣٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٣٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣).

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾

لمَّا كان ممَّا يَقبَل في نفسِه في الجملةِ أن يُذكَرَ اسمُ اللهِ عليه ما يحرُمُ؛ لكونِه مِلْكًا للغير، أو فيه شُبْهةٌ: نهىٰ عنه علىٰ وجهٍ يعُمُّ غيره، فقال عطفًا علىٰ ﴿فَكُلُواْ﴾: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾[1].

لمَّا عتَب عليهم في تَرْكِ أكلِ ما سُمِّيَ اللهُ عليه، أُمِروا بتركِ الإثم؛ ما فُعِل ظاهرًا، وما فُعِل في خُفْيةٍ[2].

لمَّا بيَّن أنَّه فصَّل المحرَّماتِ، أتبعه بما يوجِبُ تَرْكَها بالكليَّةِ بقوله: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾[3].

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾

ولمَّا أمَرهم بالأكل ممَّا يَنفَعهم، ويُعِينُهم علىٰ شكرِه، محذِّرًا مِن أكلِ ما يعيشُ مرأىٰ بصائرِهم: أتبعه نَهْيَهم نهيًا جازمًا خاصًّا عن الأكلِ ممَّا يضُرُّهم في أبدانِهم وأخلاقِهم؛ وهو ما ضادَّ الأولَ في خُلُوِّه عن الاسمِ الشريف، فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٤٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٦٣٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣٠).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٢٤٥).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّه يَحِلُّ أكلُ ما ذُبِحَ على اسمِ الله، ذكَر بعده تحريمَ ما لم يُذكَرْ عليه اسمُ الله؛ ويدخُلُ فيه المَيْتةُ، ويدخل فيه ما ذُبِح على ذِكْرِ الأصنام؛ والمقصودُ منه إبطالُ ما ذكَره المشركون(٢).

نهى اللهُ سبحانه عن أكلِ ما لم يُذكَرِ اسمُ الله عليه بعد أن أمَر بالأكلِ ممَّا ذُكِر اسمُ الله عليه(٣).

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

لمَّا كان معنى التحذيرِ مِن طاعةِ المشركين أنَّكم إن فعَلْتم كنتم قد ردَدْتُم أنفسَكم إلى ظلامِ الضَّلال بعد أن مُنِحْتم نورَ الهداية؛ فكان التَّقديرُ: أفمَنْ كان هكذا، كان كمَن نصَح لنفسِه باتِّباعِ الأدلةِ، وتوقِّي الشُّبَهِ: عطَف عليه قولَه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾؛ أي: بالغرَقِ في أمواجِ ظلامِ الكفر(٤).

الواوُ في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ عاطفةٌ لجملةِ الاستفهام على جملة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ لتضمُّنِ قولِه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أنَّ المجادَلةَ المذكورةَ مِن قبلُ مجادَلةٌ في الدِّين؛ بتحسينِ أحوالِ أهل الشرك، وتقبيحِ أحكامِ الإسلام، التي منها: تحريمُ المَيْتة، وتحريمُ ما ذُكِر اسمُ غيرِ الله عليه. فلمَّا حذَّر اللهُ المسلمين مِن

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٣٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣٠).

(٣) فتح القدير (٢/ ١٧٩).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٢٥٢).

دسائسِ أولياءِ الشياطين ومجادَلتِهم بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، أعقب ذلك بتفظيعِ حال المشركين، ووَصْفِ حُسْنِ حالةِ المسلمين حين فارَقوا الشرك؛ فجاء بتمثيلَينِ للحالتين، ونفَىٰ مساواةَ إحداهما للأخرىٰ؛ تنبيهًا علىٰ سُوءِ أحوالِ أهل الشرك، وحُسْنِ حالِ أهل الإسلام(١).

لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ المشركين يجادِلون المؤمنين في دِينِ الله، ذكَر مثلًا يدلُّ علىٰ حالِ المؤمنِ المهتدي، وعلىٰ حالِ الكافر الضالِّ؛ فبيَّن أنَّ المؤمنَ المهتديَ بمنزلةِ مَن كان مَيْتًا فجُعِل حيًّا بعد ذلك، وأُعطيَ نورًا يهتدي به في مصالحِه، وأنَّ الكافرَ بمنزلةِ مَن هو في ظُلُماتٍ منغمِسٍ فيها، لا خلاصَ له منها، فيكونُ متحيِّرًا علىٰ الدوام(٢).

ثم ضرَب تعالىٰ مثَلًا للمؤمنِ والكافر؛ لتنفيرِ المسلمين عن طاعةِ المشركين إثرَ تحذيرِهم عنها، بقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

ولمَّا كان معلومًا أنَّ عداوتَهم له ﷺ المشارَ إليها بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ الآيةَ، لا يقوم بها إلا أكابرُ الناس؛ لِما كان عليه ﷺ مِن جلالةِ المنصبِ، وشرفِ العشيرة، وكثرةِ الأقاربِ، وأنَّه لا يَتمادىٰ عليها إلا جاهلٌ مطموسُ البصيرة، مُزيَّنٌ له قبيحُ أعمالِه: عطَف تعالىٰ علىٰ التزيينِ للكافرين قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣٢).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٤٨٤).

أي: مثلَ ما زيَّنَّا للكافرين سُوءَ أعمالهم، فكان أكابرُ أهلِ مكَّةَ يمكُرون، فيتَّبِعُ غيرُهم مَكْرَهم(١).

عطفٌ على جملةِ ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، فلها حُكْمُ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لبيانِ سببٍ آخَرَ مِن أسبابِ استمرارِ المشركين على ضلالِهم؛ وذلك هو مكرُ أكابرِ قريتِهم بالرسولِ ﷺ والمسلمين، وصرفُهم الحِيَلَ لصدِّ الدَّهْماءِ عن متابعةِ دعوةِ رسول الله ﷺ. والمشارُ إليه بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾: أولياءُ الشياطين بتأويلِ «كذلك» المذكورِ(٢).

«الكاف» في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ يوجِبُ التشبيهَ؛ وفيه قولان: الأول: وكما جعَلْنا في مكَّةَ صناديدَها ليمكُروا فيها، كذلك جعَلْنا في كلِّ قريةٍ أكابرَ مجرميها. الثاني: أنَّه معطوفٌ على ما قبله؛ أي: كما زيَّنَّا للكافرين أعمالَهم، كذلك جعَلْنا(٣).

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر هذا، أتبَعه بمقالةٍ لهم تدلُّ على تعظيمِهم وتكبُّرِهم، فقال عاطفًا على ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ - تعجيبًا مِن حالِهم فيما زُيِّن لهم مِن ضلالهم، وتصديقًا لِما تقدَّم مِن الإخبارِ بأنَّهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ إلا أن يشاءَ الله، وتحقيقًا لِما في الآيةِ السالفة مِن مَكْرِهم لغيرِهم، وعَوْدِه على أنفسهم -: ﴿ وَإِذَا

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٤٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣٥).

جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾[1].

عطفٌ على جملة ﴿جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾؛ لأنَّ هذا حديثٌ عن شيءٍ مِن أحوالِ أكابرِ مجرمي مكة؛ وهم المقصودُ مِن التشبيهِ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن مكرِ هؤلاء الكفارِ وحسَدِهم: أنَّهم متىٰ ظهَرتْ لهم معجِزةٌ قاهرة تدل علىٰ نبوَّةِ محمَّدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، قالوا: لن نؤمِنَ حتىٰ يحصُلَ لنا مثلُ هذا المنصبِ مِن عندِ الله؛ وهذا يدل علىٰ نهايةِ حسَدِهم، وأنَّهم إنَّما بَقُوا مصرِّين علىٰ الكفرِ لا لطلبِ الحُجَّةِ والدلائل، بل لنهايةِ الحسد[3].

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ رجوعٌ إلىٰ بيانِ حالِ مجرمي أهلِ مكة بعدما بيَّن بطريقِ التسلية أنَّ حالَ غيرِهم أيضًا كذلك، وأنَّ عاقبةَ مكرِ الكلِّ ما ذُكِر؛ فإنَّ العظيمةَ المنقولة إنَّما صدَرتْ عنهم، لا عن سائرِ المجرمين[4].

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾

لمَّا تقدَّم أنَّه تعالىٰ أعلَمُ بمن طُبِع علىٰ قلبه، فلا ينفكُّ عن الضَّلال، ومَن يَقبَل الهدايةَ في الحالِ أو المآل، وأنَّ مكرَ المجرمين إنَّما هو بإرادتِه، ونافذِ قُدْرتِه: عُلِم أنَّ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٥١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٨٢).

الأمرَ أمرُه، والقلوبَ بيدِه؛ فتسبَّبَ عن ذلك قولُه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(١).

الفاءُ مرتِّبةٌ الجملةَ التي بعدها علىٰ مضمونِ ما قبلها مِن قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾، وما ترتَّب عليه مِن التفاريعِ والاعتراض. وهذا التفريعُ إبطالٌ لتعلُّلاتِهم بعلَّةِ ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، وأنَّ الله منعهم ما علَّقوا إيمانَهم علىٰ حصوله، فتفرَّع علىٰ ذلك بيانُ السببِ المؤثِّر بالحقيقةِ إيمانَ المؤمنِ، وكُفْرَ الكافر؛ وهو: هدايةُ اللهِ المؤمنَ، وإضلالُه الكافرَ؛ فذلك حقيقةُ التأثير، دُونَ الأسبابِ الظاهرة، فيُعرَف مِن ذلك: أنَّ أكابرَ المجرمين لو أُوتُوا ما سألوا، لَمَا آمَنوا حتىٰ يريدَ اللهُ هدايتَهم إلىٰ الإسلام(٢).

بعد ذلك البيانِ والتفصيل لطريقِ الهداية في الآياتِ مِن أولِ السورة إلىٰ قولِه تعالىٰ حكايةً عن المدعوِّينَ إلىٰ الحقِّ، العادلين به الأصنام إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾: أعلَمَ تعالىٰ عبادَه أنَّ الهدايةَ بيدِه، وأنَّ الإضلالَ كذلك، يَهدِي مَن يشاء برحمتِه، ويُضِلُّ مَن يشاء بعدلِه، وأنَّ لكلٍّ مِن الهدايةِ والإضلال سُنَنًا تُتَّبعُ في ذلك؛ فمَن طلَب الهدايةَ ورَغِب فيها صادقًا، عَلِم تعالىٰ منه، وسهَّل له طُرقَها، وهيَّأ له أسبابَها؛ ومِن ذلك: أنَّه يَشرَح صدرَه لقبول الإيمان وأنوارِه، فيؤمنُ ويُسلِم ويُحسِن، فيكمُلُ ويَسعَد، ومَن طلَب الغَوايةَ، ورَغِب فيها صادقًا، عَلِم اللهُ تعالىٰ ذلك منه؛ فهيَّأ له أسبابَها، وفتَح له بابها، فجعَل صدره ضيِّقًا حرَجًا لا يتسعُ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٥٧).

لقَبول الإيمان، وحلولِ أنواره فيه، حتىٰ لكأنَّه يَتكلَّفُ الصُّعودَ إلىٰ السماء، وما هو بقادرٍ؛ هذه سُنَّتُه في الهدايةِ والإضلال[١].

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾

ولمَّا ذكَر ما ألزَمه لأهلِ الضَّلال بلفظِ ما يُستقذر، كان في غايةِ الحُسْنِ تعقيبُه بالصراطِ؛ فإنَّه ممَّا يُحَبُّ؛ لاستقامتِه، وإضافتِه إلىٰ الربِّ الذي له - مع استجماعِ الكمالاتِ كلِّها - صفةُ العطفِ، والإحسانِ، واللُّطف، وإضافةُ الربِّ إلىٰ هذا الرسولِ الذي يُحِبُّ خَلْقَه وخُلُقَه كلُّ مَن يراه أو يَسمَع به، وأحسَنُ مِن ذلك وأمتَنُ أنَّ مادةَ ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾ تدورُ علىٰ الاضطرابِ الملزوم للعِوَجِ، الملزوم للضَّلالِ المانعِ مِن الإيمان، فلمَّا مثَّل سبحانه حالَ الضالِّ بحالِ المضطرِب، وأخبَر أنَّه ألزَم هذا الاضطرابَ كلَّ مَن لا يؤمِنُ: أتبَعه وَصْفَ سبيلِه بالاستقامةِ التي هي أبعَدُ شيءٍ عن الاضطرابِ الملزوم للعِوَج، وكان التقديرُ: فهذا حالُ أهلِ الضلال، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ إلىٰ آخِرِها؛ لأنَّ هذا تمثيلٌ لحالِ هَدْيِ القرآنِ بالصراطِ المستقيم الذي لا يُجهِدُ متَّبِعَه؛ فهذا ضدٌّ لحالِ التمثيل في قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. وتمثيلُ الإسلامِ بالصراطِ المستقيم يتضمنُ تمثيلَ المسلمِ بالسالك صراطًا مستقيمًا، فيفيدُ توضيحًا لقوله: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾. وعُطِفت هذه الجملةُ مع أنَّها بمنزلةِ بيانِ الجملة التي قبلها؛ لتكونَ بالعطفِ مقصودةً بالإخبار. وهو إقبالٌ علىٰ النبي ﷺ بالخطاب[٣].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١١٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٦٢).

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا ﴾ يقولُ تعالىٰ لرسولِه محمَّدٍ ﷺ مشيرًا إلىٰ ما بيَّنه مِن الهدىٰ: وهذا طريقُ ربِّك مستقيمًا؛ فاسلُكْهُ، والزَمْهُ؛ فإنَّه يُفضِي بك إلىٰ كرامةِ ربِّك، وجوارِه في جنَّاتِ النعيم(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ طريقةَ الضالِّين عن سبيلِه، الصادِّين عنها: نبَّه علىٰ أشرَفِ ما أرسَل به رسولَه مِن الهدىٰ ودِينِ الحق، فقال: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا ﴾(٢).

﴿ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ ﴾

لمَّا كان التذكُّرُ عند الآياتِ لا يكونُ إلا مِن أهلِ العناياتِ في طُرقِ الهدايات، قال مرغِّبًا في التَّذكُّر؛ فإنَّه سببُ الفيضِ الإلهيِّ علىٰ القلوبِ المهيَّأة له: ﴿لَهُمۡ﴾؛ أي: المتذكِّرين ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: الجنَّة(٣).

الضميرُ في ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾. والجملةُ: إمَّا مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الثناءَ عليهم بأنَّهم فُصِّلتْ لهم الآياتُ ويَتذكَّرون بها يثيرُ سؤالَ مَن يَسأَلُ عن أثرِ تبيينِ الآيات لهم، وتذكُّرِهم بها، فقيل: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وإما صفة: ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾(٤).

لمَّا بيَّن عظيمَ نِعَمِه في الصراطِ المستقيم، وبيَّن أنَّه تعالىٰ مُعدٌّ مهيئٌ لِمَن يكون مِن المذكورين: بيَّن الفائدةَ الشريفة التي تحصُلُ مِن التمسُّكِ بذلك الصراطِ المستقيم، فقال: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ وفي هذه الآية تشريفات(٥).

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٦٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٤٦).

يمتنُّ تعالىٰ بما أنعَم به علىٰ هذه الأمَّةِ مِن تفصيلِ الآيات حُجَجًا وبراهينَ وشرائعَ ليَهتدي طالِبو الهدىٰ المشارُ إليهم بقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيذكَّرون فيؤمِنون، ويَعمَلون فيكمُلون ويَسعَدون، فيكونُ ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1].

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾

لمَّا فصَّل سبحانه أحوالَ الفريقينِ، وحضَّ علىٰ التَّذكُّر تنبيهًا علىٰ أنَّ كلَّ ما في القرآن ممَّا يَهدي إليه العقلُ، وذكَر مآلَ المتذكِّرين، فأفهَم أنَّ غيرَهم إلىٰ عطَبٍ؛ لأنَّهم تولَّوْا ما يضرُّهم؛ لأنَّهم تَبِعوا شهَواتِهم، وكان مِن المعلوم أنَّهم يعبُدون غيرَ مالكِهم، وأنَّه ما مِن عبدٍ يخدُمُ غيرَ سيِّده بغيرِ أمرِ سيِّده إلا عاتَبه أو عاقَبه؛ هذا مركوزٌ في كلِّ عقلٍ: ذكَر سبحانه ما يتقدَّمُ ذلك المآلَ مِن الأهوالِ في الأجلِ المسمىٰ الذي أخفاه عنده، وجعَله مِن أعظمِ مباني هذه السورةِ، وأبهَمه في أولِها، وبيَّن في أثنائِها بعضَ أحوالِه مرارًا في وجوهٍ مِن أفانينِ البيان؛ وهو يومُ الحشرِ، فذكَر هنا سبحانه بعضَ أحوالِ الغافلين، وبعضَ ما يقولُ لهم فيه، وما يَفعَلُه معهم مِن عتابٍ وعقاب؛ لُطْفًا بهم، واستعطافًا إلىٰ المتابِ، فقال جامعًا الفريقينِ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[2].

لمَّا ذكَر ثوابَ القومِ الذين يَتذكَّرون بالآيات؛ وهو ثوابُ دارِ السلام: ناسَب أن يَعطِفَ عليه ذِكْرَ جزاءِ الذين لا يَتذكَّرون؛ وهو جزاءُ الآخرة أيضًا، فجملة

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١١٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٦٦-٢٦٧).

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ إلخ معطوفةٌ على جملة ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾. والمعنى: وللآخرين النارُ مثواهم خالدين فيها. وقد صوَّر هذا الخبَرَ في صورةِ ما يقعُ في حسابِهم يومَ الحشر، ثم أفضى إلى غايةِ ذلك الحسابِ؛ وهو خلودُهم في النار[(١)].

لمَّا بيَّن حالَ مَن يَتمسَّك بالصراطِ المستقيم، بيَّن بعده حالَ مَن يكون بالضدِّ مِن ذلك؛ لتكونَ قصةُ أهلِ الجنَّة مُردَفةً بقصةِ أهلِ النار، وليكونَ الوعيدُ مذكورًا بعد الوعدِ[(٢)].

تضمَّنتِ الآيةُ عرضًا سريعًا ليومِ القيامة، الذي هو ظرفٌ للجزاءِ على العملِ في دارِ الدنيا، ويكونُ ذلك قبل دخولِ أهلِ السلام دارَ السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾

لمَّا استبانَ بهذا أنَّه ولَّى الكفرةَ مِن ظالِمي الجنِّ ظالِمي الإنسِ، وسلَّطهم عليهم: أخبَر تعالى أنَّ هذا عمَلُه مع كلِّ ظالم مِن أيِّ قبيلٍ كان، سواءٌ كان كافرًا أو لا، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومِثلَ تلك التَّوليةِ التي سلَّطْنا بها الجِنَّ على الإنسِ بما زاد عذابَ الفريقينِ[(٣)].

هو مِن تمام الاعتراضِ، أو مِن تمام التَّذييل، على ما تقدَّم مِن الاحتمالينِ، الواوُ للحالِ: اعتراضيةٌ؛ كما تقدَّم، أو للعطفِ على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٤٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٧٠).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٧٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه وليُّ المؤمنين -بمعنىٰ أنَّه يَحفَظُهم وينصُرُهم-، بيَّن أنَّ الكافرين بعضُهم أولياءُ بعضٍ في الظُّلْمِ والخِزْيِ(١).

لمَّا حكىٰ عن الجِنِّ والإنس أنَّ بعضَهم يَتولَّىٰ بعضًا، بيَّن أنَّ ذلك إنَّما يحصُلُ بتقديرِه وقضائه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾(٢).

إخبارٌ منه تعالىٰ بسُنَّتِه في أهلِ الظُّلْمِ؛ وهي أن يَجعَل بعضَهم أولياءَ بعضٍ؛ بمعنىٰ: يتولاه بالنُّصْرةِ والمودةِ بسببِ الكسبِ السيِّئِ الذي يَكسِبونه علىٰ نحوِ موالاة شياطينِ الإنس للجِنِّ؛ فالجامعُ بينهم الخُبْثُ والشرُّ، وهؤلاء الجامعُ بينهم الظُّلْمُ والعدوان، ولا مانعَ مِن حَمْلِ هذا اللفظِ علىٰ تسليطِ الظالمين بعضِهم علىٰ بعضٍ؛ علىٰ حدِّ: «... ولا ظالِم إلا سيُبْلَىٰ بأظلَم»(٣). كما أنَّه تعالىٰ سيُوالي يومَ القيامة إدخالَهم النارَ فريقًا بعد فريقٍ، وكلُّ هذا حقٌّ وصالحٌ؛ لدَلالةِ اللفظِ عليه(٤).

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

لمَّا انقَضَتْ هذه المحاوَرةُ، وما أنتَجته مِن بغيضِ الموالاةِ والمجاوَرة، وكان حاصِلُها أنَّها موالاةُ مَن ضرَّتْ موالاتُه: أتبَعها سبحانه بمحاوَرةٍ أخرىٰ، حاصلُها معاداةُ مَن ضرَّتْ معاداتُه، فقال مُبدِلًا مِن الأُولىٰ إتمامًا للتَّقريعِ والتَّوبيخ والتَّشنيع:

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٦٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٤٩).

(٣) عجز بيت، وأوله (وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ...).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٢٠).

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[(١)].

هـذا مِـن جملـةِ المقاوَلـة التـي تجـري يـومَ الحشـر، وفُصِلـت الجملـةُ؛ لأنَّهـا في مَقـامِ تَعْـدادِ جـرائمهم التـي اسـتحَقُّوا بهـا الخلـودَ؛ إبطـالًا لمعـذرتِهم، وإعلانًـا بـأنَّهم محقوقـون بمـا جُزُوا بـه، فأعـاد نـداءهم؛ كمـا يُنـادىٰ المنـدَّدُ عليـه المـوبَّخُ، فيزداد رَوْعًا[(٢)].

هذا النداءُ أيضًا يومَ القيامـة، والاستفهامُ للتَّوبيخِ والتَّقريـع؛ حيث أعـذَر اللهُ إلـيهم بإرسالِ الرُّسل، فلم يَقبَلوا منهم[(٣)].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ مِن بقيَّةِ مـا يـذكُره اللهُ تعـالىٰ في تـوبيخِ الكفـار يـومَ القيامـة، وبيَّن تعـالىٰ أنَّـه لا يكـونُ لهـم إلىٰ الجحـودِ سـبيلٌ، فيَشـهَدون علىٰ أنفسِـهم بـأنَّهم كـانوا كافرين، وأنَّهم لم يعذَّبوا إلا بالحُجَّة[(٤)].

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ شروعٌ في حكايةِ ما سيكونُ مِن توبيخِ المَعشَرَينِ، وتقريعِهم بتفريطِهم فيما يَتعلَّقُ بخاصَّةِ أنفسِهم، إثرَ حكايةِ تـوبيخ معشـرِ الجـنِّ بـإغواءِ الإنـس وإضلالِهم، وبيانِ مآلِ أمرهم[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٧١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٧٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٤٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٨٥).

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه إقامةَ الحُجَّةِ علىٰ الكافرِ في المعاد بالرُّسلِ عليهم السلام، علَّل إرسالَهم ترغيبًا وحثًّا في اتِّباعِهم في أيامِ المُهْلةِ بعد ترهيب، وتنبيهًا وإرشادًا في صادعِ تخويفٍ وتأديب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، تهديدٌ وموعظة، وعبرةٌ بتفريطِ أهلِ الضَّلالة في فائدةِ دعوة الرُّسل، وتنبيهٌ لجدوىٰ إرسالِ الرُّسلِ إلىٰ الأُمَمِ؛ ليُعيدَ المشركون نظرًا في أمرِهم، ما داموا في هذه الدارِ، قبل يومِ الحشرِ، ويَعلَموا أنَّ عاقبةَ الإعراضِ عن دعوةِ الرسول ﷺ خُسْرىٰ، فيَتداركوا أمرَهم خشيةَ الفوات، وإنذارٌ باقترابِ نزولِ العذاب بهم، وإيقاظٌ للمشركين بأنَّ حالَهم كحالِ المتحدَّثِ عنهم إذا ماتوا علىٰ شِرْكِهم[2].

الإشارةُ بذلك إلىٰ أقربِ مذكورٍ دلَّ عليه الكلامُ؛ وهو إتيانُ الرُّسلِ قاصِّينَ الآياتِ، ومنذِرين بالحشرِ والحساب والجزاء؛ بسببِ انتفاءِ إهلاكِ القُرىٰ بظُلْمٍ وأهلُها لم يَنتهوا ببعثةِ الرُّسل إليهم، والإعذارِ إليهم، والتَّقدُّم بالإخبارِ بما يحُلُّ بهم إذا لم يَتَّبِعوا الرُّسُلَ، وفي الحديثِ: «ليس أحدٌ أحَبَّ إليه العُذْرُ مِن اللهِ؛ فمِن أجل ذلك أنزَل الكتابَ، وأرسَل الرُّسلَ»[3][4].

لمَّا بيَّن أنَّه ما عذَّب الكفَّارَ إلا بعد أن بعَث إليهم الأنبياءَ والرُّسل، بيَّن بهذه الآيةِ أنَّ هذا هو العدلُ والحقُّ والواجب[5].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٦٤٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٢).

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾

لمَّا بيَّن سبحانه أنَّ لأحدِ الفريقينِ دارَ السلام، والآخَرِ دارَ المَلام: قال جامعًا للفريقينِ عاطفًا علىٰ قوله: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: ﴿وَلِكُلٍّ﴾؛ أي: عاملٍ مِن الفريقينِ، صالحٍ أو طالح، في قَبِيلَي الجنِّ والإنسِ في الدارينِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾[(١)].

احتراسٌ علىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ﴾؛ للتَّنبيهِ علىٰ أنَّ الصالحين مِن أهلِ القرىٰ الغالبِ علىٰ أهلها الشركُ والظُّلْمُ لا يُحرَمون جزاءَ صلاحِهم[(٢)].

لكلٍّ مِن المكلَّفين - مؤمِنهم وكافرِهم - درجاتٌ متفاوِتة مِن جزاءِ أعمالهم، وتفاوُتُها بنسبةِ بعضِهم إلىٰ بعضٍ، أو بنسبةِ عمَلِ كلِّ عامل، فيكونُ هو في درجةٍ، فيترقَّىٰ إلىٰ أخرىٰ كاملةٍ، ثم إلىٰ أكمَلَ، والظاهرُ اندراجُ الجِنِّ - في العموم - في الجزاءِ؛ كما اندرَجوا في التكليفِ، وفي إرسالِ الرُّسل إليهم[(٣)].

لمَّا شرَح أحوالَ أهلِ الثوابِ والدرجات، وأحوالَ أهلِ العقاب والدركات: ذكَر كلامًا كليًّا، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[(٤)].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

ولمَّا كان طلَبُ العبادةِ للائتمارِ والانتهاء، ربما أوهَم الحاجةَ إليها لنفعٍ في الطاعة، أو ضررٍ يَلحَقه سبحانه مِن المعصية، وكان الإمهالُ مع المبارزة ربما ظُنَّ أنَّه عن

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٨٣).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٥٠،٦٥١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٣).

عجزٍ: قال مرغِّبًا مرهِّبًا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[1].

عُطِفت جملة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ على جملة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ إخبارًا عن علمِهِ ورحمتِهِ على الخبرِ عن عملِه، وفي كلتا الجملتينِ وعيدٌ ووعدٌ، وفي الجملةِ الثانية كنايةٌ عن غِناه تعالى عن إيمانِ المشركين وموالاتِهم، وكنايةٌ عن رحمتِه إذ أمهَل المشركين ولم يعجِّلْ لهم العذابَ[2].

لمَّا ذكَر تعالى مَن أطاع ومَن عصى، والثوابَ والعقاب: ذكَر أنَّه هو الغنيُّ مِن جميعِ الجهات، لا تَنفَعُه الطاعةُ، ولا تضرُّه المعصيةُ، ومع كونه غنيًّا هو ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ أي: التفضُّلِ التام[3].

لمَّا بيَّن ثوابَ أصحابِ الطاعات، وعقابَ أصحاب المعاصي والمحرَّمات، وذكَر أنَّ لكلِّ قومٍ درجةً مخصوصة، ومرتبةً معيَّنة: بيَّن أنَّ تخصيصَ المطِيعِين بالثوابِ والمذنِبين بالعذابِ ليس لأجلِ أنَّه محتاجٌ إلى طاعةِ المطِيعِين، أو ينتقِصُ بمعصيةِ المذنِبين؛ فإنَّه تعالى غنيٌّ لِذَاتِهِ عن جميعِ العالَمين، ومع كونِه غنيًّا، فإنَّ رحمتَهُ عامَّةٌ كاملة، ولا سبيلَ إلى ترتيبِ هذه الأرواحِ البشرية والنفوسِ الإنسانية وإيصالِها إلى درجاتِ السعداءِ الأبرار إلا بترتيبِ الترغيب في الطاعات، والترهيبِ عن المحظورات، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٨٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٥١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٣، ١٥٤).

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّ له الوصفينِ الملزومين للقدرةِ، أنتَج ذلك قولَه جوابًا لاستعجالِهم بالعذاب استهزاءً: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[(١)].

هذه الجملةُ بدَلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾؛ فإنَّ المشيئةَ تشتملُ علىٰ حالينِ: حالُ تَرْكِ إهلاكِهم، وحالُ إيقاعِه، فأفادت هذه الجملةُ أنَّ مشيئةَ الله تعلَّقتْ بإيقاعِ ما أوعَدهم به مِن الإذهابِ، ولك أن تَجعَلَ الجملةَ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن أن يقولَ سائلٌ مِن المشركين متورِّكًا بالوعيدِ: إذا كنَّا قد أُمهِلْنا وأُخِّر عنا الاستئصالَ، فقد أفلَتْنا مِن الوعيدِ، ولعلَّه يَلْقاه أقوامٌ بعدنا؛ فورَد قولُه: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ مَورِدَ الجوابِ عن هذا السؤالِ الناشئ عن الكلامِ السابق بتحقيقِ أنَّ ما أُوعِدَ به المشركون واقعٌ لا محالةَ، وإن تأخَّر[(٢)].

قوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾؛ يعني: كلُّ ما تعلَّقَ بالوعدِ بالثواب فهو آتٍ لا محالةَ؛ فتخصيصُ الوعدِ بهذا الجزمِ يدل علىٰ أنَّ جانبَ الوعيدِ ليس كذلك، ويقوِّي هذا الوجهَ آخِرُ الآيةِ؛ وهو أنَّه قال: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾؛ يعني: لا تخرُجون عن قُدْرتِنا وحُكْمِنا؛ فالحاصلُ: أنَّه لمَّا ذكَر الوعدَ جزَم بكونِه آتيًا، ولمَّا ذكَر الوعيدَ ما زاد علىٰ قولِه: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ جانبَ الرحمةِ والإحسان غالبٌ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٨٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٦).

﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥ ﴾

ولمَّا تقرَّر ذلك مِن التَّهديدِ على إنكارِ البعث وتحرَّر، فأنتج الاجتهادَ للعاقل ولا بدَّ في العملِ، وكان أكثرُ الخَلْقِ أحقَّ: أمَره سبحانه بالنصيحةِ بقوله: ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ بعد قوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍ ﴾؛ فإنَّ المقصودَ الأول منه هو وعيدُ المشركين؛ كما مرَّ، فأعقَبه بما تمحَّض لوعيدِهم؛ وهو الأمرُ المستعمَل في الإنذارِ والتَّهديد؛ ليُملِيَ لهم في ضلالِهم إملاءً يُشعِرُ في متعارَفِ التَّخاطبِ بأنَّ المأمورَ به ممَّا يَزيدُ المأمورَ استحقاقًا للعقوبة، واقترابًا منها. أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يناديَهم ويهدِّدَهم. وأمَر أن يبتدئَ خطابَهم بالنداءِ؛ للاهتمامِ بما سيقال لهم؛ لأنَّ النداءَ يسترعي إسماعَ المنادَيْنَ، وكان المنادي عنوانَ القوم؛ لِما يُشعِرُ به مِن أنَّه قد رَقَّ لحالِهم حين توعَّدهم بقوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾؛ لأنَّ الشأنَ أنَّه يحبُّ لقومِه ما يحب لنفسِه[2].

اعلَمْ أنَّه لمَّا بيَّن بقوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍ ﴾، أمَر رسولَه مِن بعدِه أن يهدِّدَ مَن ينكِرُ البعثَ مِن الكفارِ، فقال: ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٩٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٦).

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ إثرَ ما بُيِّن لهم حالُهم ومآلهم بطريقِ الخطاب، أُمِر رسولُ اللهِ ﷺ بطريقِ التلوين بأن يواجِهَهم بتشديدِ التَّهديد، وتكريرِ الوعيد، ويُظهِرَ لهم ما هو عليه غايةَ التَّصلُّبِ في الدِّين، ونهايةَ الوثوقِ بأمره، وعدمِ المبالاةِ بهم(١).

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

لمَّا تمَّت هذه الآياتُ مِن قُبْحِ طريقتِهم في إنكارِ البعث، وحُسْنِ طريقةِ الإسلام، علىٰ هذا الأسلوبِ البديع، والمثالِ البعيدِ المنالِ الرفيع، وخُتِمت بحالِ الظالمِ: شرَع في تفصيلِ قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ أسلوبٍ آخَرَ ابتدأه ببيانِ ظُلْمِهم وجهالاتِهم وأباطيلهم؛ تنبيهًا علىٰ سخافةِ عقولهم؛ تنفيرًا عنهم بوضعِهم الأشياءَ في غيرِ مواضعها، وإخراجِها عمَّن هي له، ونسبتِها إلىٰ مَن لا يملِكُ شيئًا، وقتلِ الأولاد، وتسييبِ الأنعام، وغيرِ ذلك، فقال عاطفًا علىٰ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ نظائرِه ممَّا حُكِيتْ فيه أقوالُهم وأعمالهم؛ مِن قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾، وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾، وما تخلَّل ذلك؛ فهو إبطالٌ لأقوالِهم، وردٌّ

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٧٨).

لمذاهبِهم، وتمثيلاتٌ ونظائرُ؛ فضميرُ الجماعةِ يعودُ علىٰ المشركين الذين هم غرَضُ الكلامِ مِن أولِ السورة مِن قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وهذا ابتداءُ بيانِ تشريعاتِهم الباطلة، وأولُها ما جعَلوه حقًّا عليهم في أموالِهم للأصنامِ ممَّا يُشبِهُ الصدَقاتِ الواجبةَ؛ وإنَّما كانوا يوجِبُونها علىٰ أنفسِهم بالالتزامِ؛ مثل: النُّذورِ، أو بتعيينٍ مِن الذين يَشرَعون لهم؛ كما سيأتي[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن قُبْحَ طريقتِهم في إنكارِهم البعثَ والقيامة، ذكَر عَقِيبَه أنواعًا مِن جهالاتِهم، وركاكاتِ أقوالهم؛ تنبيهًا علىٰ ضَعْفِ عقولهم، وقلَّةِ محصولهم، وتنفيرًا للعقلاءِ عن الالتفات إلىٰ كلماتِهم؛ فمِن جملتِها: أنَّهم يَجعَلون للهِ مِن حُروثِهم -كالتمرِ والقمحِ-، ومِن أنعامِهم -كالضأنِ والمَعْزِ والإبل والبقر-: نصيبًا، فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾؛ يريد: بكَذِبهم[2].

﴿وَجَعَلُواْ﴾ شروعٌ في تقبيحِ أحوالِهم الفظيعة بحكايةِ أقوالِهم وأفعالهم الشنيعةِ؛ وهم مشرِكو العربِ؛ كانوا يعيِّنون أشياءَ مِن حَرْثٍ ونتاجٍ للهِ تعالىٰ، وأشياءَ منهما لآلهتِهم، فإذا رأَوْا ما جعَلوه للهِ تعالىٰ زاكيًا ناميًا يَزيدُ في نفسِه خيرًا، رجَعوا فجعَلوه لآلهتهم، وإذا زكَا ما جعَلوه لآلهتِهم ترَكوه؛ معتلِّينَ بأنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ، وما ذاك إلا لحبِّ آلهتِهم، وإيثارِهم لها[3].

ما زال السياقُ في التنديدِ بأفعالِ العادلين بربِّهم أصنامَهم وأوثانهم، فأخبَر تعالىٰ عمَّا كانوا يَبتدِعونه مِن البِدَع ويَشرَعون مِن الشرائعِ بدُونِ علمٍ، ولا هُدًىٰ، ولا كتابٍ مبين[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٨٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٢٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا متضمِّنًا لأنَّهم نقَصوا أموالَهم بأنفسِهم في غيرِ طائلٍ، فجعَلوها لِمَن لا يستحقُّها: نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّ ذلك تزيينُ مَن أضَلَّهم مِن الشياطينِ؛ مِن سدَنةِ الأصنامِ، وغيرِهم مِن الإنسِ ومِن الجِنِّ المتكلِّمين مِن أجوافِ الأصنام، وغيرِهم، فقال منبِّهًا علىٰ أنَّهم زيَّنوا لهم ما هو أبيَنُ منه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾؛ أي: ومِثلَ ما زيَّن لجميعِ المشركين تضييعَ أموالِهم والكفر بربِّهم شركاؤهم، ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾؛ والتَّقدير: جعَلوا وزيَّن لهم شركاؤهم قَتْلَ أولادِهم؛ فقتَلوا أولادَهم؛ فهذه حكايةُ نوعٍ مِن أنواعِ تشريعاتِهم الباطلة، وهي راجعةٌ إلىٰ تصرُّفِهم في ذُرِّياتِهم بعد أن ذكَر تصرُّفاتِهم في نتائجِ أموالهم، ولقد أعظَمَ اللهُ هذا التَّزيينَ العجيب في الفسادِ الذي حسَّن أقبَحَ الأشياءِ؛ وهو قَتْلُهم أحَبَّ الناسِ إليهم؛ وهم أبناؤهم، فشُبِّه بنفسِ التَّزيينِ؛ للدَّلالةِ علىٰ أنَّه لو شاء أحدٌ أن يمثِّلَه بشيءٍ في الفظاعةِ والشَّناعة، لم يَسَعْهُ إلا أن يشبِّهَه بنفسه؛ لأنَّه لا يبلُغُ شيءٌ مبلَغَ أن يكونَ أظهَرَ منه في بابِه، فيلجأ إلىٰ تشبيهِه بنفسِه؛ علىٰ حدِّ قولهم: «والسفاهةُ كاسمِها»(٢)(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨١).

(٢) مقطع يتداوله الشعراء، ومن أبياته: (قل للفرزدق -والسفاهةُ كاسمها- ... إن كنتَ تاركَ ما أمرتُك فاجلسِ).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٩٨).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النَّوعُ الثاني مِن أحكامِهم الفاسدة، ومذاهبِهم الباطلة، وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: كما فعَلوا ذلك، فكذلك زيَّن لكثيرٍ منهم شركاؤهم قَتْلَ الأولادِ؛ والمعنى: أنَّ جَعْلَهم للهِ نصيبًا وللشُّركاء نصيبًا نهايةٌ في الجهلِ بمعرفةِ الخالق المُنعِم، وإقدامَهم على قتلِ أولادِ أنفسهم نهايةٌ في الجهالةِ والضَّلالة؛ وذلك يفيد التَّنبيهَ على أنَّ أحكامَ هؤلاء وأحوالَهم يشاكِلُ بعضُها بعضًا في الركاكةِ والخساسة[1].

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر إقدامَهم على ما قبَّحه الشرعُ، ولامَه على تقبيحِهِ العقلُ مِن قَتْلِ الأولادِ: أتبَعه إحجامَهم عمَّا حسَّنه الشرعُ مِن ذبحِ بعضِ الأنعام لنفعِهم، وضَمَّ إليه جملةً ممَّا منَعوا أنفسَهم منه ودانُوا به لمجرَّدِ أهوائهم، فقال: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[2].

عطفٌ على جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾، وهذا ضربٌ آخَرُ مِن دِينِهم الباطلِ، وهو راجعٌ إلى تحجيرِ التصرف على أنفسِهم في بعضِ أموالهم، وتعيينِ مصارفِه، وفي هذا العطفِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قالوه هو مِن تلقينِ شركائهم، وسدَنةِ أصنامهم؛ كما قُلْنا في معنى: زيَّن لهم شركاؤهم[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٥٨).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٠٥).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ ثالث مِن أحكامِهم الفاسدة؛ وهي أنَّهم قسَموا أنعامَهم أقسامًا[(١)].

ومِن أنواع سفاهتِهم: أنَّ الأنعامَ التي أحَلَّها اللهُ لهم عمومًا، وجعَلها رزقًا ورحمةً، يَتمتعون بها ويَنتفعون: قد اخترَعوا فيها بِدْعًا وأقوالًا مِن تلقاءِ أنفسِهم؛ فعندهم اصطلاحٌ في بعضِ الأنعام والحرث؛ أنَّهم يقولون فيها: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ﴾؛ أي: محرَّم ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: لا يجوز أن يَطعَمَه أحدٌ، إلا مَن أرَدْنا أن يَطعَمَه، أو وصَفْناه بوصفٍ -مِن عندِهم-[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ نوعًا آخرَ مِن مفترَياتهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[(٣)].

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٦﴾

ولمَّا ذكَر مِن سفَهِهم ما فيه إقدامٌ محضٌ، وما فيه إحجامٌ خالص محض: أتبَعه ما هو مختلِطٌ منهما، فقال: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٦٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٧٥).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٥٠٢).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٢٨٥).

عطـفٌ علـىٰ قولـه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾. وأُعِيـدَ فعـلُ: «قـالوا»؛ لاختلافِ غرضِ المقُولِ[(١)].

هذا نوعٌ رابع مِن أنواعِ قضاياهم الفاسدة؛ كانوا يقولون في أجنَّةِ البحائر والسَّوائب: ما وُلِد منها حيًّا فهو خالصٌ للذكورِ، ولا تأكلُ منه الإناثُ، وما وُلِد ميتًا اشترَك فيه الذكورُ والإناث[(٢)].

ثـم بيَّن تعالىٰ فنًّا آخرَ مِن ضلالِهم بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[(٣)].

بعد أن تضمَّنتِ الآيةُ السابقة ثلاثةَ ضروبٍ مِن تشريعِ الجاهلية وأباطيلهم، ذكَر هنا تشريعًا آخَرَ باطلًا اختلَقوه بأنفسِهم، وزعَموا أنَّ اللهَ شرَعه لهم؛ وهو أنَّهم حرَّموا ما في بطونِ بعضِ الأنعام علىٰ الإناثِ، وجعَلوها حلالًا للذكورِ خالصةً لهم دُونَ النساءِ؛ فلا يَشرَبُ النساءُ مِن ألبانها، ولا يأكُلْنَ لحومَ أجنَّتِها إن ذبَحوها، ولا ينتفِعْنَ بها بحالٍ، اللهم إلا إن وُلِد الجنينُ ميتًا، فإنَّهم لا يحرِّمونه علىٰ النساءِ، ولا يخُصُّون به الذكورَ؛ فيَحِلُّ أكلُه للنساءِ والرجال معًا[(٤)].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ تفاصيلَ سفَهِهم، وأشار إلىٰ معانيها: جمَعها وصرَّح بما أثمَرته مِن الخَيْبةِ في سَبْعِ خِلالٍ، كلُّ واحدةٍ منها سببٌ تامٌّ في حصولِ الندمِ، فقال:

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٠٩).
(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٦٠).
(٣) محاسن التأويل (٤/ ٥٠٣).
(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٢٧).

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[١].

تذييلٌ جُعِل فَذْلكةً للكلامِ السابق، المشتمِلِ على بيانِ ضلالِهم في قتلِ أولادهم، وتحجيرِ بعضِ الحلالِ على بعضِ مَن أُحِلَّ له[٢].

لمَّا تقدَّم تزيينُ قتلِ الأولاد، وتحريمُ ما حرَّموه في قولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾: جاء هنا تقديمُ قتلِ الأولاد، وتلاه التحريمُ[٣].

أنَّه تعالى ذكَر فيما تقدَّم قَتْلَهم أولادَهم، وتحريمَهم ما رزقهم اللهُ، ثم إنَّه تعالى جمَع هذين الأمرينِ في هذه الآيةِ، وبيَّن ما لَزِمهم على هذا الحُكْمِ؛ وهو الخسرانُ، والسَّفاهة، وعدمُ العلم، وتحريمُ ما رزَقهم الله، والافتراءُ على الله، والضَّلالُ، وعدمُ الاهتداء؛ فهذه أمورٌ سبعة، وكلُّ واحدٍ منها سببٌ تامٌّ في حصولِ الذمِّ[٤].

ثم بيَّن خسرانَهم وسفاهةَ عقولِهم، فقال: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[٥].

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

لمَّا كان مدارُ القرآنِ على تقريرِ التوحيد والنبوَّة وتوابعِها والمَعادِ والقضاء والقدَر، وأتقَن تقريرَ هذه الأصولِ، لا سيَّما في هذه السورةِ، وانتهى إلى شرحِ أحوالِ السُّعداءِ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١١٣).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٦٢).
(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٦١).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٢٧٥).

والأشقياء، وعجَّب سبحانه ممَّن أشرَكَ وأنكَر البعثَ وفعَل أفعالَ المشركين تعجيبًا بعد تعجيبٍ، وهجَّن طريقتَهم، ووبَّخهم توبيخًا في إثرِ توبيخٍ بتكذيبهم للدَّاعي مِن غيرِ حُجَّةٍ، وحكىٰ أقوالَهم الباطلة ودعاويَهم الفاسدةَ مع ادِّعائهم أنَّهم أنصَفُ النَّاسِ، ومخالفتَهم للهادي بغيرِ ثَبَتٍ ولا بيِّنةٍ مع ادِّعائهم أنَّهم أبصَرُ النَّاسِ، وبطلبِهم للآيات تعنُّتًا مع ادِّعائهم أنَّهم أعقَلُ النَّاس، وإخلاصهم في الشِّدةِ وإشراكهم في الرخاءِ مع ادِّعائهم أنَّهم أشكَرُ النَّاس، وعبادتَهم للجِنِّ وتعوُّذَهم بهم مع ادِّعائهم أنَّهم أشجَعُ النَّاس، إلىٰ أن عجَّب منهم فيما شرَعوه لأنفسِهم فيما رزَقهموه سبحانه مِن حيوانٍ وجماد، ومضَوْا عليه خلَفًا عن سلَفٍ؛ تنبيهًا علىٰ ضَعْفِ عقولهم، وقلَّةِ علومهم؛ تنفيرًا للنَّاس عن الالتفاتِ إليهم، والاغترارِ بأقوالهم: قال في موضعِ الحال مِن ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ - مبيِّنًا عظيمَ مُلْكِه، وشمولَ قُدْرته، وباهرَ اختيارِه وعظمته؛ زيادةً في التَّعجيبِ منهم في تصرُّفِهم في مُلْكِه بغيرِ إذنه سبحانه، وشَرْعِهم ما لم يأذَنْ فيه في سياقٍ كافلٍ بإقامةِ الحُجَّةِ علىٰ تقرير التوحيد؛ عَوْدًا علىٰ بَدْءٍ، وعَلَلًا بعد نَهَلٍ؛ لأنَّه المدارُ الأعظَم، والأصلُ الأقوَم -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١).

أنَّه تعالىٰ لمَّا أخبَر عنهم أنَّه حرَّموا أشياءَ ممَّا رزَقهم اللهُ، أخَذ يذكُرُ تعالىٰ ما امتنَّ به عليهم مِن الرزقِ الذي تصرَّفوا فيه بغيرِ إذنِه تعالىٰ افتراءً منهم عليه واختلاقًا؛ فذكَر نوعَي الرزقِ: النَّباتي، والحيواني؛ فبدأ بالنباتيِّ كما بدأ به في الآيةِ المشبِهة لهذا، واستطرَد منه إلىٰ الحيوانيِّ؛ إذ كانوا قد حرَّموا أشياءَ مِن النَّوعين(٢).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٦٦٦).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ جعَل مدارَ هذا الكتابِ الشريف علىٰ تقريرِ التوحيدِ، والنبوَّة، والمَعاد، وإثباتِ القضاء والقَدَر، وأنَّه تعالىٰ بالَغ في تقريرِ هذه الأصولِ، وانتهىٰ الكلامُ إلىٰ شرحِ أحوال السُّعداء والأشقياء، ثم انتقَل منه إلىٰ تهجينِ طريقةِ مَن أنكَر البعثَ والقيامة، ثم أتبَعه بحكايةِ أقوالِهم الركيكة، وكلماتِهم الفاسدةِ في مسائلَ أربعةٍ. والمقصودُ التنبيهُ علىٰ ضَعْفِ عقولِهم، وقلةِ محصولهم، وتنفيرِ الناس عن الالتفاتِ إلىٰ قولِهم والاغترارِ بشُبهاتِهم، فلمَّا تمَّم هذه الأشياءَ، عادَ بعدها إلىٰ ما هو المقصودُ الأصليُّ؛ وهو إقامةُ الدلائلِ علىٰ تقريرِ التوحيد، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ تصرُّفَ المشركين في كثيرٍ ممَّا أحَلَّه اللهُ لهم مِن الحروثِ والأنعام، ذكَر ﷻ نعمتَهُ عليهم بذلك، ووظيفتَهم اللازمةَ عليهم في الحروثِ والأنعام(٢).

لمَّا توعَّد الحقُّ ﷻ المفترين عليه حيث حرَّموا وحلَّلوا ما شاؤوا، ونسَبوا ذلك إليه افتراءً عليه تعالىٰ، وما فعَلوا ذلك إلا لجهلِهم باللهِ تعالىٰ، وعدمِ معرفتِهم بعلمِهِ وقُدْرتِه، وإلا لَمَا اتخَذوا له أندادًا مِن الأحجارِ، وقالوا: شركاؤنا، وشفعاؤنا عند الله: ذكَر تعالىٰ في هذه الآياتِ مظاهرَ قُدْرتِهِ وعلمِه وحِكْمته، وأمرِه ونهيِه، وحُجَجِه في إبطالِ تحريمِ المشركين ما أحَلَّ اللهُ لعبادِه(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٦٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٧٦).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ١٢٩).

يقول تعالىٰ بيانًا لأنَّه الخالقُ لكلِّ شيء؛ مِن الزروعِ والثِّمار والأنعام، التي تصرَّف فيها المشركون بآرائِهم الفاسدةِ، وقسَّموها وجزَّؤوها، فجعَلوا منها حرامًا وحلالًا(١).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

ولمَّا كان السياقُ للمآكلِ مِن الحرثِ والأنعام مِن حلالٍ وحرام، وفرَغ مِن تقريرِ أمرِ الحرث الذي قدَّم في الجملةِ الأولىٰ؛ لأنَّه مادةُ الحيوان: قال: ﴿وَمِنَ﴾؛ أي: وأنشأ مِن ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

عطَف ﴿حَمُولَةً﴾ علىٰ ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾؛ أي: وأنشأ مِن الأنعامِ حمولةً وفرشًا، فينسحبُ عليه القصرُ الذي في المعطوفِ عليه؛ أي: هو الذي أنشأ مِن الأنعامِ حمولةً وفرشًا، لا آلهةُ المشركين؛ فكان المشركون ظالمين في جَعْلِهم للأصنام حقًّا في الأنعام(٣).

لمَّا ذكَر كيفيةَ إنعامِه علىٰ عبادِه بالمنافعِ النباتية، أتبَعها بذِكْرِ إنعامِه عليهم بالمنافعِ الحيوانية(٤).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ شروعٌ في تفصيلِ حالِ الأنعام، وإبطالِ ما تقوَّلوا علىٰ اللهِ تعالىٰ في شأنِها بالتَّحريمِ والتَّحليل(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٢٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٢٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٦٥).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٩٢).

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣)﴾

ولمَّا ردَّ دِينَ المشركين وأثبَت دِينَه، وكانوا قد فصَّلوا الحُرْمةَ بالنِّسبة إلىٰ ذكورِ الآدميِّ وإناثه: ألزَمهم تفصيلَها بالنِّسبةِ إلىٰ ذكورِ الأنعام وإناثه؛ ففصَّل أمرَها في أسلوبٍ أبانَ فيه أنَّ فِعْلَهم رَثُّ القُوَىٰ، هَلْهَلُ النسيجِ، بعيدٌ مِن قانونِ الحِكْمة؛ فهو موضعٌ للاستهزاء، وأهلٌ للتَّهكُّم، فقال بيانًا لـ ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وهذه الأنعامُ التي امتنَّ اللهُ بها علىٰ عبادِه، وجعَلها كلَّها حلالًا طيبًا، فصَّلها بأنَّها: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾[2].

وهذا بيانٌ لجهلِ العربِ قبل الإسلام فيما كانوا حرَّموا مِن الأنعام، وجعَلوها أجزاءً وأنواعًا: بَحِيرةً، وسائبةً، ووصيلةً، وحامًا، وغيرَ ذلك مِن الأنواعِ التي ابتدَعوها في الأنعامِ، والزروع، والثمار؛ فبيَّن أنَّه تعالىٰ أنشأ جنَّاتٍ معروشات، وغيرَ معروشات، وأنَّه أنشأ مِن الأنعامِ حمولةً وفرشًا، ثم بيَّن أصنافَ الأنعامِ: إلىٰ غَنَمٍ؛ وهو بياضٌ؛ وهو الضأنُ، وسَوادٍ؛ وهو المَعْزُ، ذكَرُه وأُنْثاه، وإلىٰ إبلٍ ذكورِها وإناثها، وبقَرٍ كذلك. وأنَّه تعالىٰ لم يحرِّمْ شيئًا مِن ذلك، ولا شيئًا مِن أولادِه، بل كلُّها مخلوقةٌ لبني آدمَ؛ أكلًا ورُكوبًا، وحَمُولةً، وحَلْبًا، وغيرَ ذلك مِن وجوهِ المنافع[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٩٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥١).

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

ولمَّا فصَّل الغنَمَ إلىٰ ضأنٍ ومَعْزٍ، أغنىٰ ذلك عن تنويعِ الإبل إلىٰ العِرابِ والبُخْت، والبقرِ إلىٰ العِراب والجواميس، ولأنَّ هذه يتناتجُ بعضُها مِن بعضٍ - بخلافِ الغنَمِ - فإنَّها لا يطرُقُ أحدُ نوعَيْها الآخرَ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: ذكَرًا وأنثىٰ، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: كذلك(١).

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ عُطِف علىٰ ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ لأنَّه مِن تمامِ تفصيلِ عددِ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، والقولُ فيه كالقولِ في سابقِه؛ والمقصودُ: إبطالُ تحريمِ البَحِيرة، والسَّائبة، والحامي، وما في بطونِ البحائر والسَّوائب(٢).

انتقَل مِن توبيخِهم في نفيِ علمِهم بذلك إلىٰ توبيخِهم في نفيِ شَهادتِهم ذلك وقتَ توصيةِ الله إيَّاهم بذلك؛ لأنَّ مَدرَكَ الأشياءِ المعقولُ والمحسوس، فإذا انتفيَا، فكيف يُحكَمُ بتحليلٍ أو بتحريم؟ وكيفيَّةُ انتفاءِ الشَّهادة منهم واضحةٌ، وكيفيَّةُ انتفاءِ العلمِ بالعقل أنَّ ذلك مستنِدٌ إلىٰ الوحيِ، وكانوا لا يصدِّقون بالرُّسلِ، ومع انتفاء هذينِ كانوا يقولون: إنَّ الله حرَّم كذا؛ افتراءً عليه(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٣٣، ١٣٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٧٢).

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ ﴾

ولمَّا تضمَّن قولُه: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِ﴾ افتراءً على اللهِ، والتَّعبيرُ في ذلك كلِّه بالاسمِ الأعظم؛ أنَّ كونَ التَّحريمِ ليس إلا مِن اللهِ أمرٌ معلوم، ليس موضعًا للشكِّ؛ لأنَّه الملِكُ الأعظمُ، ولا حُكْمَ لغيرِ الملِكِ، ومَن حكَم عن غيرِ أمرِه، عُذِّبَ: حسُنَ بعد إبطالِ دِينِهم والبيانِ - لأنَّ مَن حرَّم شيئًا بالتشهِّي مضلٌّ وظالمٌ - قولُه مبيِّنًا البيانَ الصحيح لِما يَحِلُّ ويحرُمُ جوابًا لِمَن يقولُ: فما الذي حرَّمه سبحانه، وما الذي أحلَّه؟: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن إبطالِ تحريمِ ما حرَّمه المشركون؛ إذ يَتوجَّهُ سؤالُ سائلٍ مِن المسلمين عن المحرَّماتِ الثابتة إذ أُبطِلت المحرَّماتُ الباطلة؛ فلذلك خوطب الرسولُ ﷺ ببيانِ المحرَّمات في شريعةِ الإسلام بعد أن خوطب ببيانِ ما ليس بمحرَّمٍ ممَّا حرَّمه المشركون في قوله: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ الآياتِ(٢).

لمَّا ذكَر أنَّهم حرَّموا ما حرَّموا افتراءً على الله، أمَره تعالى أن يُخبِرَهم بأنَّ مَدرَكَ التحريم إنَّما هو بالوحيِ مِن الله تعالى وبشرعِه، لا بما تَهوَى الأنفسُ وما تختلِقُه

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٣٦، ١٣٧).

علىٰ الله تعالىٰ، وجاء الترتيبُ هنا كالترتيبِ الذي في البقرةِ والمائدة، وجاء هنا هذه المحرَّماتُ منكَّرة، والدَّمُ موصوفٌ بقوله: ﴿مَّسْفُوحًا﴾، والفسقُ موصوفًا بقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وفي تَيْنِكَ السُّورتينِ معرَّفًا؛ لأنَّ هذه السورةَ مكِّيةٌ؛ فعُلِّق بالتنكيرِ، وتَانِكَ السورتانِ مدنيَّتان؛ فجاءت تلك الأسماءُ معارفَ بالعهدِ حَوالةً علىٰ ما سبَق تنزيلُه في هذه السورةِ[(١)].

لمَّا بيَّن فسادَ طريقةِ أهلِ الجاهلية فيما يَحِلُّ ويحرُمُ مِن المطعومات، أتبَعه بالبيانِ الصحيح في هذا البابِ، فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[(٢)].

ثم أمَر تعالىٰ رسولَ الله ﷺ - بعد إلزامِ المشركين وتبكيتِهم، وبيانِ أنَّ ما يَتقوَّلونه في أمرِ التحريم افتراءٌ بَحْتٌ - بأن يبيِّنَ لهم ما حرَّمه عليهم، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[(٣)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ذَمَّ المشركين علىٰ ما حرَّموا مِن الحلالِ، ونسَبوه إلىٰ اللهِ، وأبطَل قولَهم: أمَر تعالىٰ رسولَه ﷺ أن يبيِّنَ للناسِ ما حرَّمه اللهُ عليهم؛ ليَعلَموا أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ مَن نسَب تحريمَه إلىٰ الله، فهو كاذبٌ مُبطِل؛ لأنَّ التحريمَ لا يكون إلا مِن عندِ الله علىٰ لسانِ رسوله ﷺ[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٦٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٦٨).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٥١١).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٧٧).

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) ﴾

ولمَّا كان قولُه: ﴿طَاعِمٍ﴾ نكرةً في سياقِ النفيِ، يعُمُّ كلَّ طاعمٍ مِن أهلِ شرعِنا وغيرِهم، وكان سبحانه قد حرَّم على اليهودِ أشياءَ غيرَ ما تقدَّم: اقتضت إحاطةُ العلمِ أن قال - مبيِّنًا لإحاطةِ علمِه، وتكذيبًا لليهودِ في قولهم: لم يحرِّمِ اللهُ علينا شيئًا؛ إنَّما حرَّمْنا على أنفسِنا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسِه -: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾(١).

لمَّا أمَر نبيَّه ﷺ أن يبيِّنَ ما حرَّم اللهُ أكلَه مِن الحيوانِ، وكان في خلالِ ذلك تنبيهٌ على أنَّ ما حرَّمه اللهُ خبيثٌ بعضُه لا يصلُحُ أكلُه بالأجسادِ، الذي قال فيه: ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾، ومنه ما لا يلاقي واجبَ شكرِ الخالق، وهو الذي قال فيه: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾: أعقَب ذلك بذِكْرِ ما حرَّمه على بني إسرائيلَ تحريمًا خاصًّا لحكمةٍ خاصةٍ بأحوالهم، وموقَّتةٍ إلى مجيءِ الشريعةِ الخاتمة(٢).

لمَّا بيَّن أنَّ التحريمَ إنَّما يستنِدُ للوحيِ الإلهيِّ، أخبَر أنَّه حرَّم على بعضِ الأُمَمِ السابقة أشياءَ، كما حرَّم على أهلِ هذه الملةِ أشياءَ ممَّا ذكَرها في الآيةِ قبلُ؛ فالتحريمُ إنَّما هو راجعٌ إلى اللهِ تعالى في الأمم جميعِها(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٢،١٤١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٧٦).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّه حرَّم علىٰ اليهودِ أشياءَ أخرىٰ غيرَ هذه الأربعةِ؛ تحقيقًا لافتراءِ المشركين فيما حرَّموه؛ إذ لم يوافِقْ شيئًا ممَّا أنزله تعالىٰ، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾(١).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

تفريعٌ علىٰ الكلامِ السابق الذي أبطَل تحريمَ ما حرَّموه؛ ابتداءً مِن قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآياتِ؛ أي: فإن لم يرعَوُوا بعد هذا البيانِ، وكذَّبوك في نفيِ تحريمِ الله ما زعَموا أنَّه حرَّمه: فذكِّرْهم ببأسِ الله؛ لعلَّهم ينتهون عمَّا زعَموه، وذكِّرْهم برحمتِهِ الواسعة؛ لعلَّهم يبادِرون بطلبِ ما يخوِّلُهم رحمتَهُ مِن اتِّباعِ هَدْيِ الإسلام، فيعودُ ضميرُ: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ إلىٰ المشركين، وهو المتبادِرُ مِن سياقِ الكلام: سابقِه، ولاحقِه(٢).

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

لمَّا تمَّ ذلك، فعُلِم أنَّ إقدامَهم علىٰ الأحكامِ الدِّينية بغير حُجَّةٍ أصلًا: اقتضىٰ الحالُ أن يقالَ: قد بطَل بالعقلِ والنقل جميعُ ما قالوه في التحريمِ علىٰ وجهٍ أبطَل شِرْكَهم؛ فهل بقيَ لهم مقالٌ؟ فأخبَر سبحانه بشُبْهةٍ يقولونها اعتذارًا عن جهلِهم علىٰ وجهٍ هو

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٥١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٥-١٤٦).

وَحْدَه كافٍ في الدَّلالةِ على حقِّيَّةِ ما يقولُه مِن الرسالةِ، فوقَع طِبْقَ ما قال عن أهلِ الضَّلال، فقال مخبِرًا بما سيقولونه قبل وقوعِه - دَلالةً على صِدْقِ رُسلِه، وكَذِبِ المشركين فيما يخالِفونهم فيه -: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[(١)].

لمَّا قطَع اللهُ حُجَّتَهم في شأنِ تحريم ما حرَّموه، وقسمةِ ما قسَّموه: استقصىٰ ما بقيَ لهم مِن حُجَّةٍ؛ وهي حُجَّةُ المحجوجِ المغلوب، الذي أعيَتْهُ المجادَلةُ، ولم تبقَ له حُجَّةٌ؛ إذ يَتشبَّثُ بالمعاذيرِ الواهية لترويجِ ضلاله؛ بأن يقولَ: هذا أمرٌ قُضِي وقُدِّر. فإن كان ضميرُ الرفعِ في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ عائدًا إلىٰ المشركين، كان قولُه تعالىٰ هنا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إظهارًا في مقامِ الإضمار؛ لزيادةِ تفظيع أقوالهم[(٢)].

هذا إخبارٌ بمستقبَلٍ، وقد وقَع، وفيه إخبارٌ بمغيَّبٍ معجِزةً للرسولِ، فكان كما أخبَر به تعالىٰ، وهذا القولُ منهم ورَد حين بطَل احتجاجُهم، وثبَت الردُّ عليهم، فعدَلوا إلىٰ أمرٍ حقٍّ؛ وهو أنَّه لو أراد اللهُ ألا يقعَ مِن ذلك شيءٌ، لم يقَعْ، وأورَدوا ذلك علىٰ سبيلِ الحَوالةِ علىٰ المشيئةِ والمقادير؛ مغالَطةً وحَيْدةً عن الحق وإلحادًا، لا اعتقادًا صحيحًا[(٣)].

لمَّا حكىٰ عن أهلِ الجاهلية إقدامَهم علىٰ الحُكْمِ في دِينِ الله بغيرِ حُجَّةٍ ولا دليل، حكىٰ عنهم عُذْرَهم في كلِّ ما يُقدِمون عليه مِن الكُفْرياتِ، فيقولون: لو شاء اللهُ منا ألا نكفُرَ، لمنَعَنا عن هذا الكفرِ، وحيث لم يَمنَعْنا عنه، ثبَت أنَّه مريدٌ لذلك، فإذا أراد اللهُ ذلك منَّا، امتنَع منَّا تَرْكُه؛ فكنَّا معذورين[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٨١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٧٣، ١٧٢).

لمَّا لَزِمتهم الحُجَّةُ - ببطلانِ ما كانوا عليه مِن الشركِ باللهِ، وتحريمِ ما لم يحرِّمْهُ اللهُ -، أخبَرَ تعالىٰ عنهم بما سيقولونه مِن شُبْهةٍ يَتشبَّثون بها لشِرْكِهم وتحريمِ ما حرَّموا، وفائدةُ الإخبارِ بما سوف يقولونه توطينُ النفسِ علىٰ الجوابِ، ومكافحتِهم بالرد، وإعدادِ الحُجَّةِ قبل أوانِها، فقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[1].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

لمَّا انتفىٰ أن يكونَ لهم حُجَّةٌ، وثبَت أنَّ الأمرَ إنَّما هو للهِ: ثبَت أنَّه المختصُّ بالحُجَّةِ الواضحة، فقال مسبِّبًا عن ذلك: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

جوابٌ عن قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ تكملةً للجوابِ السابق؛ لأنَّه زيادةٌ في إبطالِ قولهم، وهو يُشبِهُ المُعارَضةَ في اصطلاحِ أهل الجدل[3].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ولمَّا صُدِّق الحقُّ، وانكسَر جندُ الباطل، واندقَّ ببطلانِ جميعِ شُبَهِهم، ونطَقتِ الدلائلُ، وأُفحِم المجادِلُ؛ فبانَ أنَّه لا شاهدَ لهم بحقٍّ؛ لأنَّه لا حقَّ لهم: كان كأنَّه قيل: قُلْ لهم: ها أنا قد شَهِد لي بما قلتُه مَن لا تُرَدُّ شَهادتُه، وزكَّاني الذي لا يُقبَل إلا

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٥١٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٥١).

تزكيتُه بهذا الكتابِ، الذي كان عجزُكم عن الإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه شاهدًا بأنَّه قولُه؛ فهل لكم أنتم مِن شاهدٍ يُقبَل؟! ولمَّا لم يكُنْ لهم شاهدٌ غيرُ متخرِّصيهم؛ فإنَّ المُبطِلَ يَظهَر باطلُه عند المحاقَقة -سُنَّةً مِن اللهِ مستمِرَّةً- فيَظهَر للمشهودِ لهم بما يلُوحُ مِن بَهْتِهم أنَّهم ليسوا علىٰ شيءٍ: أمَره سبحانه أن يأمرَهم بدعائهم؛ ليَظهَرَ خِزْيُهم، وتشتهِرَ فضيحتُهم، فقال: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن طريقةِ الجدلِ والمناظرة في إبطالِ زعمِهم إلىٰ إبطالِه بطريقةِ التبيين؛ أي: أحضِروا مَن يَشهَدون أنَّ اللهَ حرَّم هذا؛ تقصِّيًا لإبطالِ قولِهم مِن سائرِ جهاته؛ ولذلك أُعيدَ أمرُ الرسولِ ﷺ بأن يقولَ لهم ما يُظهِرُ كَذِبَ دعواهم[2].

بيَّن تعالىٰ كَذِبَهم على اللهِ، وافتراءهم في تحريمِ ما حرَّموا منسوبًا إلىٰ الله تعالىٰ، فقال: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾، وقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾، ولمَّا انتفىٰ هذان الوجهانِ، انتقَل إلىٰ وجهٍ ليس بهذين الوجهينِ؛ وهو أن يستدعيَ منهم مَن يَشهَد لهم بتحريمِ اللهِ ما حرَّموا[3].

لمَّا أبطَل علىٰ الكفارِ جميعَ أنواع حججهم، بيَّن أنَّه ليس لهم علىٰ قولِهم شهودٌ البتَّةَ[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٥٣).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٨٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٧٦).

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

لمَّا أبطَل دِينَهم كلَّه - أصولًا وفروعًا - في التحريمِ والإشراك، وبيَّن فسادَه بالدلائلِ النَّيرة: ناسَب أن يُخبِرَهم بالدِّين الحق ممَّا حرَّمه الملِكُ الذي له الخَلْقُ والأمرُ، ومَن غيرُه؟ فليس التحريمُ لأحدٍ غيرِه، فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن إبطالِ تحريم ما ادَّعَوْا تحريمَه مِن لحومِ الأنعام إلىٰ دَعْوتِهم لمعرفةِ المحرَّمات التي عِلْمُها حقٌّ، وهو أحَقُّ بأن يَعلَموه ممَّا اختلَقوا مِن افترائهم، وموَّهوا بجدَلِهم، والمناسبةُ لهذا الانتقالِ ظاهرةٌ؛ فالمقامُ مقامُ تعليمٍ وإرشاد؛ ولذلك ابتُدئ بأمرِ الرسول ﷺ بفعلِ القول؛ استرعاءً للأسماع[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما حرَّموه افتراءً عليه، ثم ذكَر ما أباحه تعالىٰ لهم مِن الحبوبِ والفواكه والحيوان: ذكَر ما حرَّمه تعالىٰ عليهم مِن أشياءَ نهاهم عنها، وما أوجَب عليهم مِن أشياءَ أمَرهم بها[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٥٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٨٤).

لمَّا بيَّن فسادَ ما يقولُه الكفارُ أنَّ اللهَ حرَّم علينا كذا وكذا: أردَفه تعالىٰ ببيانِ الأشياء التي حرَّمها عليهم؛ وهي الأشياءُ المذكورة في هذه الآيةِ[(١)].

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ لمَّا ظهر بطلانُ ما ادَّعَوْا من أنَّ إشراكَهم، وإشراكَ آبائهم، وتحريمَ ما حرَّموه بأمرِ الله تعالىٰ ومشيئتِه؛ بظهورِ عجزِهم عن إخراجِ شيءٍ يُتمسَّك به في ذلك، وإحضارِ شهداءَ يَشهَدون بما ادَّعوا في أمرِ التَّحريم بعد ما كُلِّفوه مرةً بعد أخرىٰ عجزًا بينًا: أُمِر رسولُ الله ﷺ بأن يبيِّنَ لهم مِن المحرَّماتِ ما يقتضي الحالُ بيانَه علىٰ الأسلوبِ الحكيم؛ إيذانًا بأنَّ حقَّهم الاجتنابُ عن هذه المحرَّماتِ[(٢)].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

لمَّا كان المالُ عديلَ الرُّوحِ مِن حيث إنَّه لا قِوامَ لها إلا به، ابتدأ الآيةَ التي تَليها بالأموال، ولمَّا كان أعظَمَها خطَرًا وحُرْمةً مالُ اليتيم؛ لضَعْفِه، وقلةِ ناصرِه: ابتدأ به، فنهىٰ عن قُرْبِه، فضلًا عن أكلِه أو شُرْبِه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾[(٣)].

عطَف جملةَ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ علىٰ الجملةِ التي فسَّرت فعلَ: ﴿أَتْلُ﴾ عَطْفَ محرَّماتٍ تَرجِعُ إلىٰ حفظِ قواعدِ التَّعامل بَيْنَ الناسِ؛ لإقامةِ قواعدِ الجامعة الإسلامية، ومدنيَّتِها، وتحقيقِ ثقةِ الناس بعضِهم ببعض[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٧٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٩٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١٦٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ خمسةَ أنواعٍ مِن التكاليف، وهي أمورٌ ظاهرة جليَّة، لا حاجةَ فيها إلىٰ الفكرِ والاجتهاد، ثم ذكَر تعالىٰ في هذه الآيةِ أربعةَ أنواعٍ مِن التكاليف، وهي أمورٌ خفيَّةٌ، يحتاج المرءُ العاقل في معرفتِه بمقدارِها إلىٰ التفكُّرِ، والتأمل، والاجتهاد[1].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ولمَّا قرَّر هذه الشرائعَ، نبَّه علىٰ تعظيمِها بالخصوصِ علىٰ وجهٍ يعُمُّ جميعَ ما ذُكِرَ في السورةِ، بل وفي غيرِها، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه - عطفًا علىٰ المنهيَّاتِ، وأضدادِ المأمورات علىٰ وجهٍ يَشمَلُ سائرَ الشريعة -: ولا تَزيغوا عن سبيلي: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

الواوُ عاطفةٌ علىٰ جملةِ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لتماثُلِ المعطوفاتِ في أغراضِ الخطاب وترتيبه، وفي تخلُّلِ التَّذييلاتِ التي عقَبتْ تلك الأغراضَ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهذا كلامٌ جامع لاتِّباعِ ما يجيءُ إلىٰ الرسولِ ﷺ مِن الوحيِ في القرآن[3].

لمَّا بيَّن في الآيتينِ المتقدمتينِ ما وصَّىٰ به، أجمَل في آخِره إجمالًا يقتضي دخولَ ما تقدَّم فيه، ودخولَ سائرِ الشريعة فيه، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٧٩).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٧١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٥).

ولمَّا بيَّن كثيرًا مِن الأوامرِ الكبار، والشرائعِ المهمة: أشار إليها وإلىٰ ما هو أعَمُّ منها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾؛ أي: هذه الأحكامُ وما أشبهها ممَّا بيَّنه اللهُ في كتابِه، ووضَّحه لعبادِه: صراطُ اللهِ الموصِّلُ إليه، وإلىٰ دارِ كرامته، المعتدِلُ السهل المختصر، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ لتَنالوا الفوزَ والفلاح، وتُدرِكوا الآمال والأفراح[(١)].

﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾

لمَّا كانت هذه الآياتُ الثلاث وافيةً بالآياتِ العَشْرِ التي كتَبها اللهُ لموسىٰ عليه السلام علىٰ لَوْحَي الشَّهادةِ في أولِ ما أوحىٰ إليه في طُورِ سَيْناءَ المشارِ إليها بقوله: ﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾، وبنىٰ عليها التَّوراةَ، وأمَره أن يودِعَها في تابوتِ العهدِ؛ لتكونَ شَهادةً عليهم وعلىٰ أعقابِهم: حسُنَ أن تُذكَرَ بعدها التَّوراةُ، فقال مشيرًا بأداةِ التراخي إلىٰ كلٍّ مِن الترتيبِ والتعظيم: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾[(٢)].

﴿ثُمَّ﴾ هنا عاطفةٌ علىٰ جملةِ ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾؛ فليست عاطفةً للمفرَدات؛ فلا يُتوهَّم أنَّها لتراخي الزمان، بل تنسلخُ عنه حين تَعطِفُ الجُمَلَ، فتدلُّ علىٰ التراخي في الرُّتبة، وهو مُهْلةٌ مجازيَّة، وتلك دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ إذا عطَفتِ الجُمَلَ. وقد استصعَب علىٰ بعضِ المفسِّرين مَسلَكُ ﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ إتيانَ موسىٰ عليه السلام الكتابَ ليس برُتْبةٍ أهَمَّ مِن رتبةِ تلاوةِ ما حرَّمه اللهُ مِن المحرَّمات، وما فرَضه مِن اتِّباعِ صراطِ الإسلام.

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٨٠).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٢١-٣٢٢).

إنَّ التكاليفَ التسعة المذكورة في الآيةِ المتقدِّمة لا يجوزُ اختلافُها بحسَبِ اختلافِ الشرائع، بل هي أحكامٌ واجبةُ الثُّبوت مِن أولِ زمانِ التكليف إلىٰ قيامِ القيامة. وأمَّا الشرائعُ التي كانت التوبةُ مختصَّةً بها، فهي إنَّما حدَثَتْ بعد تلك التكاليفِ التسعة؛ فتقديرُ الآية: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكرها، قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ يا بني آدمَ قديمًا وحديثًا، ثم بعد ذلك آتَيْنا موسىٰ الكتابَ[1].

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كلامٌ مسُوقٌ مِن جهتِه تعالىٰ تقريرًا للوصيةِ، وتحقيقًا لها، وتمهيدًا لِما يعقُبُه مِن ذِكْرِ إنزالِ القرآنِ المجيد؛ كما ينبئُ عنه تغييرُ الأسلوبِ بالالتفات إلىٰ التَّكلم، معطوفٌ علىٰ مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، ويستدعيه النظامُ؛ كأنَّه قيل بعد قولِه تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ - بطريقِ الاستئنافِ؛ تصديقًا له، وتقريرًا لمضمونِه -: فعَلْنا ذلك، ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾... إلخ[2].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ إنزالَ الكتبِ رحمةٌ منه؛ لأنَّ غايتَها الدَّلالةُ علىٰ مُنزِلِها، فتُمتثلُ أوامرُه، وتُتَّقىٰ مَناهِيه وزواجرُه: بيَّن أنَّه لم يخُصَّ تلك الأُمَمَ بذلك، بل أنزَل علىٰ هذه الأمَّةِ كتابًا، ولم يَرضَ لها كونَه مثلَ تلك الكتبِ، بل جعَله أعظَمَها بركةً، وأبينَها دَلالةً، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

جملةُ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ والمعنىٰ: آتَيْنا موسىٰ الكتابَ، وأنزَلْنا هذا الكتابَ[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٨).

ثم أشار إلىٰ أنَّ التَّوراةَ وإن كانت تمامًا علىٰ النَّهجِ الأحسن، فالقرآنُ أتَمُّ منه، وأزيَدُ حسنًا؛ فهو أَوْلىٰ بالمتابعةِ، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾[1].

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾

ثم بيَّن المرادَ مِن إنزالِه؛ وهو إقامةُ الحُجَّةِ البالغة، فقال: ﴿أَن﴾؛ أي: لِأَنْ لا ﴿تَقُولُوٓاْ﴾، أو كراهةَ أن تقولوا أيَّتُها الأمَّةُ الأمِّيَّة: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[2].

قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ في موضعِ التَّعليل لفعلِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، علىٰ تقديرِ لامِ التعليل محذوفةً؛ علىٰ ما هو معروفٌ مِن حذفِها مع «أن»؛ والتقديرُ: لِأَنْ تقولوا؛ أي: لقولِكم ذلك في المستقبَلِ؛ أي: لملاحظةِ قولِكم، وتوقُّعِ وقوعِه، فالقولُ باعثٌ علىٰ إنزالِ الكتاب[3].

قيل: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ مفعولٌ، والعاملُ فيه: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾؛ أي: واتَّقُوا أن تقولوا؛ لأنَّه لا حُجَّةَ لكم فيه، والكتابُ هنا جنسٌ، والطائفتانِ هما أهلُ التَّوراةِ والإنجيل - اليهودُ والنصارىٰ - بلا خلافٍ، والخطابُ متوجِّهٌ إلىٰ كفارِ قُريشٍ بإثباتِ الحُجَّةِ عليهم بإنزالِ هذا الكتابِ؛ لئلا يَحتَجوا هم وكفارُ العربِ بأنَّهم لم يكُنْ لهم كتابٌ، فكأنَّه قيل: وهذا القرآنُ - يا معشرَ العربِ - أُنزِلَ حُجَّةً عليكم؛ لئلا تقولوا: إنَّما أُنزِلت التَّوراةُ والإنجيل بغيرِ لسانِنا علىٰ غيرِنا، ونحن لم نَعرِفْ ذلك؛ فهذا كتابٌ بلسانِكم، مع رجُلٍ منكم[4].

---

(١) محاسن التأويل (٤/ ٥٤٢).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٩).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٦٩٥).

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ تدرُّجٌ في الاعتلالِ؛ جاء على ما تُكِنَّه نفوسُ العرب مِن شُفوفِهم بأنفسِهم على بقيَّةِ الأُمَم، وتطلُّعِهم إلى معالي الأمور، وإدلالِهم بفِطْنتِهم، وفصاحةِ ألسنتِهم، وحِدَّة أذهانِهم، وسرعة تَلقِّيهم، وهم أَخْلِقاءُ بذلك كلِّه[١].

انتقالٌ مِن الإخبارِ لحصرِ إنزال الكتاب على غيرِهم وأنَّه لم يَنزِلْ عليهم إلى الإخبارِ بحُكْمٍ على تقديرٍ، والكتابُ يجوز أن يرادَ به الكتابُ السَّابق ذِكْرُه، ويجوز أن يرادَ الكتابُ الذي تمنَّوْا أن يَنزِلَ عليهم[٢].

كما قطَع تعالى عُذْرَهم بإنزالِ كتابِه الكريم لو قالوا يومَ القيامةِ: إنَّما أُنزِل الكتابُ على اليهودِ والنصارى، ونحن لم يَنزِلْ إلينا شيءٌ؛ فلذا ما عرَفْنا ربَّنا، ولا عرَفْنا مَحابَّهُ ومَكارِهَه؛ فنُطِيعَه بفعلِ مَحابِّه، وتَرْكِ مَكارِهِه: قطَع كذلك عُذْرَهم لو قالوا: لو أنَّا أُنزِل علينا الكتابُ الهادي إلى الحقِّ المعرِّفُ بالهدى، لكنَّا أهدى مِن اليهودِ والنصارى الذين أُوتوا الكتابَ قبلنا[٣].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ولمَّا كان أسوأَ السُّوءِ حقوقُ العذابِ، وكان حقوقُه بعدمِ قَبول التوبة: فسَّره

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٨١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٦٩٦).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ١٤٥).

بقوله مهوِّنًا له ومسهِّلًا بتجريدِ الفعل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ما ينتظِرون هؤلاء المكذِّبون أدنى انتظارٍ وأقربَه وأيسَره ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ﴾؛ أي: حالَ تكذيبِهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ نشأ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، وهو يحتمِلُ الوعيدَ، ويحتمِلُ التهكُّم؛ فإن كان هذا وعيدًا وتهديدًا، فهو ناشئٌ عن جملةِ ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لإثارتِه سؤالَ سائلٍ يقول: متى يكونُ جزاؤهم؟ وإن كان تهكُّمًا بهم على صَدْفِهم عن الآياتِ التي جاءتهم، وتطلُّعِهم إلى آياتٍ أعظَمَ منها في اعتقادِهم: فهو ناشئٌ عن جملةِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ لأنَّه يثير سؤالَ سائلٍ يقول: ماذا كانوا يَترقَّبون مِن الآياتِ فوق الآيات التي جاءتهم؟[2].

الضميرُ في ﴿يَنظُرُونَ﴾ عائدٌ على الذين قيل لهم: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، وهم العادلون بربِّهم مِن العربِ، الذين مضى أكثرُ السورةِ في جدالِهم؛ أي: ما ينتظِرون إلا أن تأتيَهم الملائكةُ إلى قبضِ أرواحِهم وتعذيبِها، وهو وقتٌ لا تَنفَعُ فيه توبتُهم[3].

لمَّا بيَّن أنَّه إنَّما أنزَل الكتابَ إزالةً للعُذْرِ، وإزاحةً للعلَّةِ، وبيَّن أنَّهم لا يؤمِنون البتَّةَ، وشرَح أحوالًا توجِبُ اليأسَ عن دخولِهم في الإيمان، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٣).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٦٩٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٨).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ أنَّه لا يَتأتَّىٰ منهم الإيمانُ بإنزالِ ما ذُكِر مِن البيِّناتِ والهدىٰ، وأنَّهم لا يرعَوُون عن التمادي في المكابَرة، واقتراحِ ما ينافي الحِكْمةَ التشريعية مِن الآياتِ الملجئة، وأنَّ الإيمانَ عند إتيانها ممَّا لا فائدةَ له أصلًا؛ مبالَغةً في التبليغِ والإنذار، وإزاحةِ العِلَلِ والأعذار[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

لمَّا نهىٰ عن اتِّباعِ السُّبلِ؛ لأنَّها سببُ التفرُّقِ عن الحق، وكان قد كرَّر في هذه السورةِ نَصْبَ الحُجَجِ، وإنارةَ الأدلة، وإزاحةَ الشكوك، ومَحْوَ آثارِ الشُّبَهِ، وأشرَفتِ السورةُ علىٰ الانقضاءِ، وكان مِن المعلوم قطعًا أنَّ الحقَّ - مِن حيث هو حقٌّ - شديدُ التأثيرِ في إزهاقِ الباطل، فكيف إذا كان كلامَ الملِكِ الذي لا يخالَفُ أمرُه، ولا يُخرَجُ عن إرادتِه: اشتَدَّ استشرافُ النبي ﷺ إلىٰ رؤيةِ ذلك الأثرِ، مع ما عنده مِن الحرصِ علىٰ إسلامِ قومه؛ لِما طبَعه اللهُ عليه مِن الشفقةِ علىٰ جميعِ الخلق عمومًا، وعليهم خصوصًا، وإنَّما يكونُ ذلك الأثرُ بإيجادِ هدايتهم، ومَحْوِ غَوايتِهم، فلمَّا ختَم سبحانه بهذين التهديدينِ العظيمين الدالَّينِ علىٰ غِشاوتهم، فاتَهُ ﷺ ممَّا كان رجَاه مِن هدايتِهم أمرٌ كأنَّه كان قد حصَل، وذلك مورثٌ للشُّفوقِ مِن الأسفِ علىٰ ما لا يُدرَىٰ قَدْرُه، ولا يوصَفُ خبَرُه؛ فثبَّته سبحانه وسلَّاه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[(٢)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٠٣).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٣٤).

استئنافٌ جاء عَقِبَ الوعيدِ كالنتيجةِ والفَذْلكة؛ لأنَّ الله لمَّا قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، أعقَب ذلك بأنَّ الفريقينِ متبايِنانِ متجافِيان في مدةِ الانتظار[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ صراطَه مستقيمٌ، ونهىٰ عن اتِّباعِ السُّبل، وذكَر موسىٰ عليه السلام وما أُنزِل عليه، وذكَر القرآنَ وأمَر باتِّباعِه، وذكَر ما ينتظِرُ الكفارَ ممَّا هو كائنٌ بهم: انتقَل إلىٰ ذِكْرِ مَن اتَّبع السُّبلَ فتفرَّقتْ به عن سبيلِ الله؛ لينبِّهَ المؤمنين علىٰ الائتلافِ علىٰ الدِّينِ القويم، ولئلا يختلِفوا كما اختلَف مَن قَبْلَهم مِن الأُمَم بعد أن كانوا متَّفِقين علىٰ الشرائعِ التي بُعِث أنبياؤهم بها، والذين فرَّقوا دِينَهم: الحَرُوريَّةُ، أو أهلُ الضَّلالةِ مِن هذه الأمَّة، أو أصحابُ البِدَع أو الأهواءِ منهم[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ أحوالَ أهلِ الكتاب إثرَ بيانِ حالِ المشركين بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٣].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

لمَّا أخبَر أنَّ أمرَهم ليس إلا إليه، كان كأنَّه قيل: فماذا يُفعَل بهم حينئذٍ؟ فأُجيبَ بقولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٤].

مِن عادةِ القرآن: أنَّه إذا أنذَر أعقَب الإنذارَ ببِشارةٍ لِمَن لا يَحِقُّ عليه ذلك الإنذارُ، وإذا بشَّر أعقَب البِشارةَ بنِذارةٍ لِمَن يتَّصفُ بضدِّ ما بُشِّر عليه، وقد جرىٰ علىٰ ذلك هاهنا؛ فإنَّه لمَّا أنذَر المؤمنين وحذَّرهم مِن التريُّثِ في اكتسابِ الخير قبل أن يأتيَ

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٩١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٧٠٠).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٥٥٠).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٣٦).

بعضُ آياتِ الله القاهرةِ بقولِه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، فحَدَّ لهم بذلك حدًّا هو مِن مَظهَرِ عدلِه: أعقَب ذلك ببُشْرىٰ مِن مظاهرِ فضلِه وعدله؛ وهي الجزاءُ علىٰ الحسنةِ بعَشْرِ أمثالها، والجزاءُ علىٰ السيئةِ بمثلِها[1].

ولمَّا ذكَر أنَّه ينبِّئُهم بفعلِهم، ذكَر كيفيَّةَ المجازاة، ولمَّا كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟﴾ مُشعِرًا بقَسِميه ممَّن ثبَت علىٰ دِينِه، قسَّم المُجازَيْنَ إلىٰ: جاءٍ بحسنةٍ، وجاءٍ بسيئةٍ[2].

ثم بيَّن لُطْفَه سبحانه في حُكْمِه وعدله يومَ القيامة، فقال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

ولمَّا تضمَّن ما مضىٰ تصحيحَ التَّوحيدِ بالأدلة القاطعة، وتحقيقَ أمرِ القضاء والقُدْرة، وإبطالَ جميعِ أديان الضَّلال، ووصَفها بتفرُّقِ أهلها الدالِّ علىٰ بطلانِها واعوجاجها، وختَم بهذا التحذيرِ الذي لا شيءَ أقوَمُ منه ولا أعدل: أمَره ﷺ بالإعلانِ بأمرِه، وأن يصفَ دِينَه الذي شرَعه له وهدَاه إليه بما فيه مِن المحاسنِ؛ تحبيبًا فيه، وحثًّا عليه، ولأنَّ ذلك مِن نتيجةِ هذه السورة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٧٠١).

(٣) محاسن التأويل (٤/ ٥٥١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٣٧).

استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن مجادَلةِ المشركين وما تخلَّلها إلىٰ فَذْلكةِ ما أُمِر به الرسولُ ﷺ في هذا الشأنِ؛ غلقًا لبابِ المجادَلة مع المعرِضين، وإعلانًا بأنَّه قد تقلَّد لنفسِه ما كان يجادِلُهم فيه ليَتقلَّدوه، وأنَّه ثابتٌ علىٰ ما جاءهم به، وأنَّ إعراضَهم لا يزلزلُه عن الحقِّ(١).

أمَره تعالىٰ بالإعلانِ بالشريعة، ونبذِ ما سِواها، ووصفِها بأنَّها طريقٌ مستقيم لا عِوَجَ فيها؛ وهو إشارةٌ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، ولمَّا تقدَّم ذِكْرُ الفِرَقِ: أمَره أن يُخبِرَ أنَّه ليس مِن تلك الفِرَقِ، بل هو علىٰ الصراطِ المستقيم، وأسنَد الهدايةَ إلىٰ ربِّه؛ ليدُلَّ علىٰ اختصاصِه بعبادتِه إيَّاه(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا علَّم رسولَه أنواعَ دلائلِ التوحيد، والردَّ علىٰ القائلين بالشركاءِ والأنداد والأضداد، وبالَغ في تقريرِ إثبات التوحيد، والردِّ علىٰ القائلين بالشركاءِ والأنداد والأضداد، وبالَغ في تقريرِ إثباتِ التوحيد والنافين للقضاء والقَدَر، ورَدَّ علىٰ أهلِ الجاهليةِ في أباطيلهم: أمَره أن يَختِمَ الكلامَ بقوله: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ الهدايةَ لا تحصُلُ إلا باللهِ(٣).

ثم أمَر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يُخبِرَ أولئك المفرِّقين دِينَهم بما أنعَم سبحانه عليه مِن إرشادِه إلىٰ دِينِه القويم بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠١،٢٠٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٧٠٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩٠).

(٤) محاسن التأويل (٤/ ٥٥٤).

لمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ الكفارَ تفرَّقوا، بيَّن أنَّ اللهَ هدَاه إلىٰ الدِّينِ المستقيم؛ وهو دِينُ إبراهيمَ عليه السلام[(١)].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ١٦٢﴾

ولمَّا كان كأنَّ سائلًا قال: وما هذه المِلَّةُ التي تكرَّرَ مدحُها والدعاءُ إليها؟ أجاب بقولِه - ليَتأسَّىٰ به أهلُ الإيمان، فيَلتزموا جميعَ ما يدعو إليه علىٰ وجهِ الإخلاص -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[(٢)].

استئنافٌ أيضًا، يَتنزَّل منزلةَ التفريعِ عن الأول، إلا أنَّه استؤنف للإشارةِ إلىٰ أنَّه غرَضٌ مستقلٌّ مهمٌّ في ذاتِه، وإن كان متفرِّعًا عن غيرِه، وحاصلُ ما تضمَّنه هو الإخلاصُ للهِ في العبادة، وهو متفرِّعٌ عن التوحيد[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ كما عرَّفه الدِّينَ المستقيم، عرَّفه كيف يقومُ به ويؤدِّيه؛ فقولُه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّه يؤدِّيه مع الإخلاص[(٤)].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ أمَره اللهُ سبحانه أن يقولَ لهم بهذه المقالة عَقِب أمرِه بأن يقولَ لهم بالمقالةِ السابقة، قيل: ووجهُ ذلك: أنَّ ما تضمَّنه القولُ الأول إشارةٌ إلىٰ أصولِ الدِّين، وهذا إلىٰ فروعِها[(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٥٢).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩١).

(٥) فتح القدير (٢/ ٢١٠).

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾

ولمَّا أعلَمَ أنَّه يستحِقُّه لِذاتِه ووصفِه، أعلَمَ أنَّه يستحِقُّه وَحْدَه، فقال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

جملة ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ حالٌ مِن اسمِ الجلالة، مصرِّحةٌ بما أفاده جمعُ التوكيدِ مع لامِ المِلْكِ مِن إفادةِ القصر. والمقصودُ مِن الصفةِ والحالِ: الردُّ علىٰ المشركين بأنَّهم ما أخلَصوا عمَلَهم لِلَّذي خلقهم، وبأنَّهم أشرَكوا معه غيرَه في الإلهيَّة(٢).

أكَّده بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ وهذا يدل علىٰ أنَّه لا يكفي في العباداتِ أن يؤتىٰ بها كيف كانت، بل يجب أن يؤتىٰ بها مع تمامِ الإخلاص؛ وهذا مِن أقوىٰ الدلائلِ علىٰ أنَّ شرطَ صحةِ الصلاةِ أن يؤتىٰ بها مقرونةً بالإخلاص(٣).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤﴾

ولمَّا حاجُّوه في الشركِ في هذه السورةِ غيرَ مرَّةٍ، كما حاجَّ إبراهيمَ عليه السلام قومُه، وكان آخِرَ ذلك أن دعَاهم ﷺ إلىٰ تلاوةِ ما أنزَل عليه سبحانه في تحريمِ الشركِ، وشرَح دِينَه القيِّمَ، ثم كرَّر هنا ذمَّهم بالتفرُّقِ الدالِّ علىٰ الضَّلال ولا بد، ومدَح دِينَ الرُّسلِ الذي تقدَّم أنَّهم لم يختلِفوا فيه أصلًا، وأيأسَ الكفارَ مِن موافقتِه ﷺ لهم نوعًا مِن الموافَقةِ، وميلِهِ معهم شيئًا مِن الميل: أمَره سبحانه - بعد أن ثبَّت بأولِ السورةِ وأثنائِها وآخِرِها أنَّه لا ربَّ غيرُه - بالإنكارِ علىٰ مَن يريد منه ميلًا إلىٰ غيرِ مَن تفرَّدَ بمَحْياه ومماتِه، فكان له التفرُّدُ بما بينهما وما بعد ذلك مِن غيرِ شُبْهةٍ، والتوبيخِ

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩١).

الشديد، فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١).

استئنافٌ ثالث، مفتتَحٌ بالأمرِ بالقول، يَتنزَّل منزلةَ النتيجةِ لِما قبله؛ لأنَّه لمَّا عُلِم أنَّ الله هداه إلىٰ صراطٍ مستقيم، وأنقَذه مِن الشركِ، وأمَره بأن يَمحَض عبادتَه وطاعتَه لربِّه تعالىٰ؛ شكرًا على الهداية: أتبَع ذلك بأن يُنكِرَ أن يعبُدَ غيرَ الله تعالىٰ؛ لأنَّ واهِبَ النِّعَم هو مستحِقُّ الشكرِ، والعبادةُ جِماعُ مراتبِ الشكر، وفي هذا رجوعٌ إلىٰ بيانِ ضلالهم إذ عبَدوا غيرَه(٢).

لمَّا أمَر محمَّدًا صلىٰ الله عليه وآله وسلم بالتوحيدِ المحض؛ وهو أن يقولَ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾: أمَره بأن يذكُرَ ما يَجري مجرىٰ الدليلِ علىٰ صحةِ هذا التوحيد(٣).

📖 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ 📖

ولمَّا قدَّم أنَّه المحسِنُ إلىٰ كلِّ شيءٍ بالرُّبوبية، وختَم بالتهديدِ بالحشر: أتبعه التَّذكيرَ بتخصيصِهم بالإحسان، فقال عاطفًا علىٰ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مستعطِفًا لهم إليه بالتَّذكيرِ بنعمتِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٤٠-٣٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٤٣-٣٤٤).

يَظهَر أنَّ هذا دليلٌ علىٰ إمكانِ البعث، وعلىٰ وقوعِه؛ لأنَّ الذي جعَل بعضَ الأجيال خلائفَ لِما سبَقها، فعمَروا الأرضَ جيلًا بعد جيلٍ: لا يُعجِزُه أن يحشُرَها جميعًا بعد انقضاءِ عالَمِ حياتِهم الأُولىٰ، ثم إنَّ الذي دبَّر ذلك وأتقَنه لا يَلِيقُ به ألا يُقِيمَ بَيْنَهم ميزانَ الجزاءِ علىٰ ما صنَعوا في الحياةِ الأُولىٰ؛ لئلا يَذهَبَ المعتدُون والظالمون فائزين بما جنَوْا، وإذا كان يُقِيمُ ميزانَ الجزاءِ علىٰ الظالمين، فكيف يترُكُ إثابةَ المحسِنين؟! فموقعُ هذه عَقِبَ قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ تذكيرٌ بالنعمةِ بعد الإنذارِ بسَلْبِها، وتحريضٌ علىٰ تدارُكِ ما فات، وهو يَفتَحُ أعيُنَهم للنظرِ في عواقبِ الأمم، وانقراضِها، وبقائها[(١)].

أذكَرهم تعالىٰ بنعمتِه عليهم؛ إذ كان النبيُّ ﷺ المبتعَثُ - وهو محمَّدٌ ﷺ - خاتَمَ النبيِّين؛ فأمَّتُه خلَفتْ سائرَ الأمم، ولا يجيء بعدها أمَّةٌ تخلُفُها؛ إذ عليهم تقومُ الساعةُ[(٢)].

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢١٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٧٠٥).

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾

لمَّا ذكَر سبحانه في آخِرِ التي قبلها أنَّه أنزَل إليهم كتابًا مباركًا، وأمَر باتِّباعِه، وعلَّل إنزالَه، وذكَر ما استتبَعه ذلك ممَّا لا بد منه في منهاجِ البلاغة، ومَيْدانِ البراعة، وكان مِن جُمْلتِه أنَّ أَمْرَ المدعوِّينَ به ليس إلا إليه؛ إن شاء هداهم، وإن شاء أضلَّهم، واستمَرَّ فيما لا بدَّ منه في تتميمِ ذلك إلىٰ أن ختَم السورةَ بما انعطَف علىٰ ما افتتُحِت به، فاشتَدَّ اعتناقُه له حتىٰ صارَا كشيءٍ واحد: أخَذ يستدلُّ علىٰ ما ختَم به تلك مِن سرعةِ العقاب، وعمومِ البرِّ والثواب، وما تقدَّمه، فقال مخبِرًا عن مبتدأٍ؛ تقديرُه: هو ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾

ولمَّا تقدَّم سبحانه إليه ﷺ في أمرِ الإنذارِ والإذكار بالكتاب، تقدَّم إلىٰ أتباعِه فأمَرهم باتِّباعه، ونهاهم عن اتِّباعِ أهلِ الضَّلال، وما يوحي إليهم أولياؤهم مِن زخارفِهم بعد أن أخبَر بكونِه ذِكْرَىٰ أنَّه سببٌ لعلوِّ شأنهم، وعزِّ سلطانهم، فقال ملتفِتًا إليهم،

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٤٨).

مقبلًا بعزِّ جلالِه عليهم: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(١).

بيانٌ لجملة ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾؛ بقرينةِ تذييلِها بقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. فالخطابُ موجَّهٌ للمشركين، ويندرجُ فيه المسلمون بالأَوْلىٰ؛ فبعد أن نوَّه اللهُ بالكتابِ المُنزَلِ إلىٰ الرسول ﷺ، وبيَّن أنَّ حِكْمةَ إنزاله للإنذارِ والذكرىٰ: أمَر الناسَ أن يتَّبِعوا ما أُنزِل إليهم؛ كلٌّ يتَّبِعُ ما هو به أعلَقُ، والمشركون أُنزِل إليهم الزَّجْرُ عن الشركِ، والاحتجاجُ علىٰ ضلالِهم، والمسلمون أُنزِل إليهم الأمرُ والنَّهيُ والتكليف؛ فكلٌّ مأمورٌ باتِّباعِ ما أُنزِل إليه، والمقصودُ الأجدَر هم المشركون؛ تعريضًا بأنَّهم كفَروا بنعمةِ ربهم؛ فوصفُ الربِّ هنا دُونَ اسمِ الجلالة: للتذكيرِ بوجوبِ اتِّباع أمره؛ لأنَّ وصفَ الرُّبوبيةِ يقتضي الامتثالَ لأوامره، ونهاهم عن اتِّباعِ أوليائهم الذين جعَلوهم آلهةً دُونَه، والموجَّهُ إليهم النَّهيُ هم المشركون؛ بقرينةِ قوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ هذا الكتابَ أُنزِل إلىٰ الرسولِ ﷺ، أمَر الأمَّةَ باتِّباعِه، و ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ يَشمَلُ القرآنَ والسُّنة(٣).

اعلَمْ أنَّ أمرَ الرسالة إنَّما يَتِمُّ بالمرسِل: وهو اللهُ سبحانه وتعالى، والمرسَل: وهو الرسولُ، والمرسَل إليه: وهو الأمَّة، فلمَّا أمَر في الآيةِ الأُولىٰ الرسولَ بالتبليغِ والإنذار مع قلبٍ قويٍّ، وعزمٍ صحيح: أمَر المرسَلَ إليه - وهم الأمَّةُ - بمتابَعةِ الرسول، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٦).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩٦).

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ﴾ كلامٌ مستأنَف، خوطب به كافَّةُ المكلَّفين بطريقِ التلوين، وأُمِروا باتِّباع ما أُمِر النبيُّ ﷺ قبله بتبليغِه بطريقِ الإنذار والتَّذكير، وجعَله مُنزَلًا إليهم بواسطةِ إنزالِه إليه ﷺ إثرَ ذِكْرِ ما يصحِّحُه مِن الإنذارِ والتَّذكير؛ لتأكيدِ وجوب اتِّباعه[1].

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾

ولمَّا كان مِن أعظَمِ ما يُتذكَّرُ سارُّ النِّعَم وضارُّ النِّقَم؛ للإقبالِ على الله، والإعراضِ عمَّا سِواه، وعدمِ الاغترار بأسبابِ الأمن والراحة: قال: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾[2].

عطفٌ على جملة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾، وهذا الخبَرُ مستعمَلٌ في التَّهديدِ للمشركين الذين وُجِّهَ إليهم التَّعريضُ في الآيةِ الأُولى، والذين قُصِدوا مِن العموم؛ وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ إهلاكُ القُرَى دُونَ ذِكرِ الأُمَم؛ لأنَّ المواجَهِين بالتعريض هم أهلُ مكَّةَ، وهي أمُّ القُرَى؛ فناسَب أن يكونَ تهديدُ أهلِها بما أصاب القُرَى وأهلَها[3].

لما أمَر الرسولَ ﷺ بالإنذارِ والتبليغ، وأمَر القومَ بالقَبول والمتابَعة: ذكَر في هذه الآيةِ ما في تَرْكِ المتابَعةِ والإعراضِ عنها مِن الوعيد[4].

ثم حذَّرهم تعالى بأسَه إن لم يتَّبِعوا المُنزَلَ إليهم بقوله سبحانه: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾[5].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٠).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩٨).

(٥) محاسن التأويل (٥/ ٥).

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ شروعٌ في إنذارِهم بما جرىٰ علىٰ الأُمَمِ الماضية؛ بسببِ إعراضِهم عن اتِّباعِ الله تعالىٰ، وإصرارِهم علىٰ اتباع دِينِ أوليائهم(١).

﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ ﴾

ثم بيَّن عظمةَ ما جاءهم وهَوْله بأنَّهم في كلٍّ مِن الوقتينِ لم يقَعْ في فكرِ أحدٍ منهم التصويبُ إلىٰ مدافعتِه بما سبَّب عن ذلك مِن قوله: ﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾(٢).

﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ ﴾ يصحُّ أن تكونَ الفاءُ فيه للترتيبِ الذِّكْري؛ تبعًا للفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾؛ لأنَّه مِن بقيةِ المذكور، ويصح أن يكونَ للترتيبِ المعنوي؛ لأنَّ دَعْواهم ترتَّبتْ علىٰ مجيءِ البأس(٣).

﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ ﴾

ثم سبَّب عمَّا مضىٰ مِن أمرِ الرسول والأُمَم قولَه - دفعًا لوهمِ مَن يظنُّ أنَّ الأمرَ انقضىٰ بما عُذِّبوا به في الدنيا -: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾(٤).

الفاء في قوله: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ﴾ عاطفةٌ؛ لترتيبِ الأخبار؛ لأنَّ وجودَ لامِ القَسَمِ علامةٌ علىٰ أنَّه كلامٌ أُنُفٌ، انتقالٌ مِن خبرٍ إلىٰ خبر، ومِن قصةٍ إلىٰ قصة، وهو انتقالٌ مِن الخبَرِ عن حالتِهم الدنيوية إلىٰ الخبَرِ عن أحوالهم في الآخرة(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١١).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢٣).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٥٨).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ٢٦).

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ بيانٌ لعذابِهم الأخروي إثرَ بيانِ عذابهم الدنيوي، خلا أنَّه قد تعرَّض لبيانِ مَبادي أحوالِ المكلَّفين جميعًا؛ لكونِه أدخَلَ في التهويل، والفاءُ لترتيبِ الأحوال الأخرويةِ علىٰ الدنيوية ذِكْرًا حسب ترتُّبِها عليها وجودًا[١].

في تقريرِ وجهِ النَّظم وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر الرُّسلَ في الآيةِ المتقدِّمة بالتبليغ، وأمَر الأمَّةَ بالقَبولِ والمتابعة، وذكَر التهديدَ علىٰ تَرْكِ القَبول والمتابعة بذِكْرِ نزولِ العذاب في الدنيا: أتبَعه بنوعٍ آخَرَ مِن التهديدِ؛ وهو أنَّه تعالىٰ يَسأل الكلَّ عن كيفيةِ أعمالهم يومَ القيامة. الوجه الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، أتبَعه بأنَّه لا يقعُ يومَ القيامة الاقتصارُ علىٰ ما يكونُ منهم مِن الاعترافِ، بل ينضاف إليه أنَّه تعالىٰ يَسأل الكلَّ عن كيفيَّةِ أعمالهم، وبيَّن أنَّ هذا السؤالَ لا يختصُّ بأهلِ العقاب، بل هو عامٌّ في أهلِ العقابِ وأهل الثواب[٢].

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان السُّؤالُ يُفهِمُ خفاءَ المسؤولِ عنه علىٰ السَّائلِ، سبَّب عن ذلك ما يزيلُ هذا الوهَمَ بقولِه مؤذِنًا بأنَّه أعلَمُ مِن المسؤولين عمَّا سألهم عنه: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[٣].

الفاءُ في قوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾ للتفريعِ والترتيب علىٰ قوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ﴾؛ أي: لنسألَنَّهم، ثم نُخبِرهم بتفصيلِ ما أجمَله جوابُهم؛ أي: فلَنقُصَّنَّ عليهم تفاصيلَ أحوالِهم؛ أي: فعِلْمُنا غنيٌّ عن جوابِهم، ولكنَّ السؤالَ لغرضٍ آخَرَ[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٢٧).

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾

ثم ذكَر الجزاءَ علىٰ الأعمال بعد ذِكْرِ السؤال.

عطَف جملة ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ علىٰ جملة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾؛ لِما تضمَّنتْهُ المعطوفُ عليها مِن العلمِ بحسناتِ الناس وسيِّئاتهم؛ فلا جرَمَ أشعَرتْ بأنَّ مظهرَ ذلك العلمِ وأثَره هو الثوابُ والعقاب، وتفاوُتُ درجاتِ العاملين ودركاتِهم تفاوتًا لا يُظلَمُ العاملُ فيه مثقالَ ذرةٍ، ولا يفُوتُ ما يستحِقُّه، إلا أن يَتفضَّلَ اللهُ علىٰ أحدٍ برفعِ درجةٍ، أو مغفرةِ زلَّةٍ؛ لأجلِ سلامةِ قلب، أو شفاعةٍ، أو نحوِ ذلك، ممَّا اللهُ أعلَمُ به مِن عبادِه؛ فلذلك عُقِّبتْ جملةُ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم﴾ بجملة ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾، فكأنَّه قيل: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍ﴾، ولنجازِيَنَّهم علىٰ أعمالِهم جزاءً لا غَبْنَ فيه علىٰ أحدٍ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ مِن جملةِ أحوال القيامةِ السؤالَ والحساب، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ مِن جملةِ أحوال القيامة أيضًا وَزْنَ الأعمالِ(٢).

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾

أهلُ القيامةِ فريقان: فريقٌ زادت حسناتُه علىٰ سيِّئاته، وفريقٌ زادت سيِّئاتُه علىٰ حسناته؛ فلمَّا ذكَر الفريقَ الأول في الآيةِ السابقة، ناسَب أن يذكُرَ الفريقَ الثانيَ في هذه الآية.

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٢).

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا أمَر الخَلْقَ بمتابعةِ الرُّسل، وحذَّرهم مِن مخالفتِهم، فأبلَغَ في تحذيرِهم بعذابِ الدنيا، ثم بعذابِ الآخرة: التفتَ إلىٰ تذكيرِهم؛ ترغيبًا في ذلك بإسباغِ نِعَمِه، وتحذيرًا مِن سَلْبِها؛ لأنَّ المواجهةَ أردَعُ للمخاطَبِ، فقال في موضعِ الحال مِن ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ فهذا تذكيرٌ لهم بأنَّ الله هو وليُّ الخَلْقِ؛ لأنَّه خالِقُهم علىٰ وجهِ الأرض، وخالِقُ ما به عيشُهم، الذي به بقاءُ وجودهم إلىٰ أجلٍ معلوم، وتوبيخٌ علىٰ قلةِ شكرِها؛ كما دلَّ عليه تذييلُ الجملة بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾؛ فإنَّ النفوسَ التي لا يزجُرُها التَّهديدُ قد تَنفَعها الذكرياتُ الصالحة[(٢)].

الخطابُ راجعٌ للذين خوطِبوا بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، وما بَيْنَهما أُورِدَ مَورِدَ الاعتبارِ والإيقاظ؛ بذِكْرِ ما آلَ إليه أمرُهم في الدنيا، وما يؤُولُ إليه في الآخرة[(٣)].

لمَّا أمَر الخَلْقَ بمتابعةِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبقَبولِ دعوتِهم، ثم خوَّفهم بعذابِ الدنيا؛ وهو قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾، ثم خوَّفهم بعذابِ الآخرة مِن وجهينِ: أحدهما: السؤالُ؛ وهو قوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، والثاني: بوزنِ الأعمال؛ وهو قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾: رغَّبهم في قَبولِ دعوةِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٣٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٤).

في هذه الآيةِ بطريقٍ آخَرَ؛ وهو أنَّه كثُرتْ نِعَمُ الله عليهم، وكثرةُ النِّعَم توجِبُ الطاعةَ، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ لمَّا أمَر اللهُ سبحانه أهلَ مكَّةَ باتِّباعِ ما أُنزِل إليهم، ونهاهم عن اتِّباع غيرِه، وبيَّن لهم وخَامةَ عاقبتِه؛ بالإهلاكِ في الدنيا، والعذابِ المخلَّد في الآخرةِ: ذكَّرهم ما أفاض عليهم مِن فنونِ النِّعَمِ الموجِبة للشكر؛ ترغيبًا في الامتثالِ بالأمرِ والنَّهي إثْرَ ترهيبٍ[2].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما منَحهم به مِن التمكينِ، ذكَّرهم ما كانوا عليه قبل هذه المُكْنةِ مِن العدمِ؛ تذكيرًا بالنِّعَم في سياقٍ دالٍّ على البعثِ الذي فرَغ مِن تقريره، وعلى ما خَصَّ به أباهم آدمَ عليه السلام مِن التمكينِ في الجنَّةِ؛ بالخَلْقِ، والتصويرِ، وإفاضةِ رُوحِ الحياة ورُوحِ العلمِ، وأمرِ أهلِ سماواته بالسجودِ له، والغضبِ على مَن عاداه وطردِهِ عن محَلِّ كرامتِه ومَعْدِن سعادتِه، وإسكانِه هو بذلك المحَلِّ الأعلى والموطِنِ الأسنى مأذونًا له في كلِّ ما فيه إلا شجرةً واحدة، فلمَّا خالَف الأمرَ، أزاله عنه، وأخرَجه منه؛ وفي ذلك تحذيرٌ لأهلِ المُكْنةِ مِن إزالةِ المِنَّةِ في استدرارِ النِّعمة، وإحلالِ النِّقمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٤).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٦٢).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ تذكيرًا بنعمةِ إيجاد النوع، وهي نعمةُ عنايةٍ؛ لأنَّ الوجودَ أشرَفُ مِن العدم[١].

لمَّا تقدَّم ما يدلُّ علىٰ تقسيمِ المكلَّفين إلىٰ طائعٍ وعاصٍ؛ فالطائعُ ممتثِلٌ ما أمَر اللهُ به، مجتنِبٌ ما نهىٰ عنه، والعاصي بضدِّه: أخَذ ينبِّهُ علىٰ أنَّ هذا التقسيمَ كان في البَدْءِ الأول مِن أمرِ الله للملائكةِ بالسجدة، فامتثَل مَن امتثَل، وامتنَع مَن امتنَع[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ نِعْمتَه علىٰ آدمَ عليه السلام التي سرَتْ إلىٰ بَنِيهِ، وبيَّن لهم عداوةَ إبليسَ وما انطوىٰ عليه مِن الحسدِ لأبيهم؛ ليَحذَروه، ولا يتَّبِعوا طرائقَه، بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ تذكيرٌ لنعمةٍ أخرىٰ، وتأخيرُه عن تذكيرِ ما وقَع بعده مِن نعمةِ التمكُّن في الأرض: إمَّا لأنَّها فائضةٌ علىٰ المخاطَبين بالذات، وهذه بالواسطةِ، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما نعمةٌ مستقلة؛ والمرادُ: خَلْقُ آدمَ عليه السلام، وتصويرُه؛ كما يقتضيه ظاهرُ العطفِ الآتي، لكن لمَّا كان مبدأً للمخاطَبين، جُعِل خلقُه خَلْقًا لهم، ونُزِّل منزلتَه؛ فالتجوُّزُ علىٰ هذا في ضميرِ الجمعِ بجَعْلِ آدمَ عليه السلام كجميعِ الخَلْقِ؛ لتفرُّعِهم عنه، أو في الإسناد؛ إذ أسنَد ما لآدمَ - الذي هو الأصلُ والسببُ - إلىٰ ما تفرَّع عنه وتسبَّب[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٣٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ١١).

(٤) روح المعاني (٤/ ٣٢٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ رغَّب الأُمَمَ في قَبولِ دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالتخويفِ أولًا، ثم بالترغيبِ ثانيًا؛ علىٰ ما بيَّناه، والترغيبُ إنَّما كان لأجلِ التنبيه علىٰ كثرةِ نِعَم الله تعالىٰ علىٰ الخَلْقِ؛ فبدَأ في شرحِ تلك النِّعَمِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾، ثم أتبعه بذِكْرِ أنَّه خلَق أبانا آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعَله مسجودًا للملائكةِ، والإنعامُ علىٰ الأبِ يَجري مجرىٰ الإنعامِ علىٰ الابنِ؛ فهذا هو وجهُ النَّظْمِ في هذه الآياتِ(١).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾

ولمَّا كان مخالِفُ الملِكِ في محَلِّ العقاب، تشوَّفَ السامعُ إلىٰ خبَرِه؛ فأُجيبَ بقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾(٢).

وجملةُ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ابتداءُ المحاوَرة؛ لأنَّ تَرْكَ إبليسَ السجودَ لآدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمنزلةِ جوابٍ عن قولِ الله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؛ فكان بحيث يَتوجَّهُ إليه استفسارٌ عن سببِ تَرْكِه السجودَ، وضميرُ ﴿قَالَ﴾ عائدٌ إلىٰ معلومٍ مِن المقام؛ أي: قال اللهُ تعالىٰ؛ بقرينةِ قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾، وكان مقتضىٰ الظاهرِ أن يقالَ: قلنا، فكان العدولُ إلىٰ ضميرِ الغائب التفاتًا، نُكتتُه تحويلُ مقامِ الكلام؛ إذ كان المقامُ مقامَ أمرٍ للملائكة ومَن في زُمْرتِهم، فصار مقامَ توبيخٍ لإبليسَ خاصةً(٣).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ للجوابِ عن سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ عدم سجوده، كأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ تعالىٰ حينئذٍ؟ وبه يَظهَر وجهُ الالتفاتِ إلىٰ الغَيْبة؛ إذ لا وجهَ لتقديرِ السؤال علىٰ وجهِ المخاطَبة، وفيه فائدةٌ أخرىٰ؛ هي الإشعارُ بعدمِ تعلُّق المحكيِّ بالمخاطَبين؛ كما في حكايةِ الخَلْقِ والتصوير(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٥).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٣٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٦).

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا ظاهرًا، وكان مجردُ التكبُّر علىٰ الله كفرًا علىٰ أيِّ وجهٍ كان: أعرَض عن جوابِه بغيرِ الطردِ، الذي معناه نزولُه المنزلةَ الذي موضع «ما» طلب من علوها، فاستأنَف قولَه: ﴿ قَالَ ﴾ مسببًا عن إبائِه قولَه: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[(١)].

وعاقَبه اللهُ علىٰ عصيانِه بإخراجِه مِن المكان الذي كان فيه في اعتلاءٍ؛ وهو السماءُ، وأحَلَّ الملائكةَ فيه، وجعَله مكانًا مقدَّسًا فاضلًا علىٰ الأرض؛ فإنَّ ذلك كلَّه بجَعْلٍ آلهيٍّ؛ بإفاضةِ الأنوار، وملازَمة الملائكةِ، فقال له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[(٢)].

لمَّا كان امتناعُه مِن السجود بسببِ ظهورِ شُفوفِه[(٣)] علىٰ آدمَ عند نفسِه، قابَله اللهُ بالهبوطِ المُشعِر بالنزول مِن عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ[(٤)].

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا عَلِم أنَّ الحسَدَ قد أبعَده، ونزَل به عن ساحةِ الرضا وأقعَده: تمادىٰ فيه، فسأل ما يَتسبَّب به إلىٰ إنزالِ المحسودين عن درجاتِهم العالية إلىٰ درَكتِه السَّافلة، ولم يَسأَلْ بشقاوتِه فيما يُعلِيه مِن دركتِه السَّافلة إلىٰ درجاتِهم العالية؛ وذلك بأن ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٤٣).

(٣) أي: فضله وارتفاع منزلته.

(٤) البحر المحيط (٥/ ١٨).

(٥) نظم الدرر (٧/ ٣٦٧).

لمَّا كوَّن اللهُ فيه الصَّغارَ والحقارة بعد عِزَّةِ الملَكيَّةِ وشرَفِها، انقلَبتْ مَرامي همَّتِه إلىٰ التَّعلُّقِ بالسَّفاسفِ - إذا ما لم تكُنْ إبِلٌ فمِعْزَىٰ[١] - فسأل النَّظِرةَ بطُولِ الحياة إلىٰ يومِ البعثِ؛ إذ كان يَعلَم قبل ذلك أنَّه مِن الحوادثِ الباقية؛ لأنَّه مِن أهلِ العالَمِ الباقي، فلمَّا أُهبِطَ إلىٰ العالَمِ الأرضي، ظنَّ أنَّه صائرٌ إلىٰ العدمِ؛ فلذلك سأل النَّظِرة؛ إبقاءً لِما كان له مِن قبلُ[٢].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ - كما مرَّ - مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ ممَّا قبله، كأنَّه قيل: فماذا قال اللعينُ بعدما سَمِع هذا الطردَ المؤكَّد؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣].

فلمَّا أعلَن عدوُّ اللهِ بعداوة الله، وعداوةِ آدمَ وذُرِّيته: سأل اللهَ النَّظِرةَ والإمهال إلىٰ يومِ البعث؛ ليتمكَّنَ مِن إغواءِ ما يَقدِرُ عليه مِن بني آدمَ[٤].

هذا يدلُّ علىٰ إقرارِه بالبعث، وعلمِه بأنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سيكون له ذُرِّيةٌ ونَسْلٌ يعمُرون الأرض، ثم يموتون، وإنَّ منهم مَن يُنظَرُ، فيكونُ طلبُه الإنظارَ بأن يُغوِيَهم ويُوسوِسَ إليهم؛ فالضميرُ في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ عائدٌ علىٰ ما دلَّ عليه المعنىٰ؛ إذ ليس في اللفظِ ما يعودُ عليه، وحكمةُ استنظارِه - وإن كان ذلك سببًا للغَوايةِ والفتنة - أنَّ في ذلك ابتلاءَ العبادِ بمخالَفتِه وطواعيتِه، وما يترتبُ علىٰ ذلك مِن إعظامِ الثواب بالمخالَفة، وإدامةِ العقاب بالطواعية[٥].

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وتمامه: (كأن قرون جلتها العصي).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٤٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢١٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٨٤).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٠).

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥﴾

كان اللعينُ طلَب بهذا أنَّه لا يموتُ؛ فإنَّ ذلك الوقتَ ليس وقتًا للموت، إنَّما هو وقتُ إفاضةِ الحياةِ الأبدية في شقاوةٍ أو سعادة، فأعلَمَ سبحانه أنَّه حكَم له بالانتظارِ، لكن لا على ما أراده، ولا على أنَّه إجابةٌ له، ولكن هكذا سبَق في الأزل؛ في حُكْمِه في قديمِ علمِه، وإليه يُرشِدُ التعبيرُ بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[(١)].

وإذ قد كان ذلك بتقديرِ الله تعالى وعلمِه، وبدَر مِن إبليسَ طلبُ النَّظِرةِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: إنَّك مِن المخلوقاتِ الباقية[(٢)].

فأجابه تعالى بأنَّه ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: مِن المؤخَّرين[(٣)].

ولمَّا كانت حكمةُ الله مقتضيةً لابتلاءِ العباد واختبارهم؛ ليَتبيَّنَ الصادقُ مِن الكاذب، ومَن يُطِيعُه ومَن يطيع عدوَّه: أجابه لِما سأَل، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[(٤)].

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

ولمَّا كان قد حُكِم عليه بالشقاء، قابَل نعمةَ الإمهالِ وإطالة العُمرِ بالتمادي في الكفر، وأخبَره عن نفسِه بذلك؛ بأن ﴿قَالَ﴾ مسبِّبًا عن إيقاعِه في المعصية بسببِ نوعِ الآدميِّين: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[(٥)].

الفاءُ للترتيب والتسبُّبِ على قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، ثم قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ فقد دلَّ مضمونُ ذَيْنِكَ الكلامينِ أنَّ اللهَ خلَق في نفس إبليسَ مَقدِرةً على إغواءِ الناس

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٤٥).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٠).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٨٤).

(٥) نظم الدرر (٧/ ٣٦٨).

بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وإنَّه جعَله باقيًا متصرِّفًا بقُواه الشريرةِ إلىٰ يومِ البعث، فأحَسَّ إبليسُ أنَّه سيكون داعيةً إلىٰ الضَّلالِ والكفر بجِبِلَّةِ قلبه اللهُ إليها قلبًا، وهو مِن المَسْخِ النَّفساني، وإنَّه فاعِلٌ ذلك لا محالةَ، مع علمِه بأنَّ ما يصدُرُ عنه هو ضلالٌ وفساد؛ فصدورُ ذلك منه كصدورِ النَّهْشِ مِن الحية، وكتحرُّكِ الأجفان عند مرورِ شيءٍ علىٰ العين، وإن كان صاحبُ العينِ لا يريد تحريكَهما. والباءُ في قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ سببيَّةٌ، وهي ظرفٌ مستقرٌّ واقعٌ موقعَ الحال مِن فاعلِ ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾؛ أي: أُقسِم لهم حالَ كونِ ذلك منِّي بسببِ إغوائك إياي(١).

يُخبِر تعالىٰ أنَّه لمَّا أنظَر إبليسَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، واستوثَق إبليسُ بذلك: أخَذ في المعانَدةِ والتمرُّد، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(٢).

﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

ولمَّا كان قد أقام نفسَه في ذلك بغايةِ الجِدِّ؛ فهو يَفعَل فيه بالوسوسةِ بنفسِه ومَن أطاعه مِن شياطينِ الجِنِّ والإنس ما يفُوتُ الحَدَّ ويُعجِزُ القُوَىٰ، أشار إليه بحرفِ التراخي، فقال مؤكِّدًا: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(٣).

جملةُ ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم﴾ «ثم» فيها للترتيبِ الرُّتْبي؛ وهو التدرجُ في الأخبارِ إلىٰ خبَرٍ أهمَّ؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفة أوقَعُ في غرضِ الكلام مِن مضمونِ الجملة

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٣).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٦٨).

المعطوفِ عليها؛ لأنَّ الجملةَ الأُولىٰ أفادت الترصُّدَ للبشر بالإغواء، والجملةُ المعطوفة أفادت التهجُّمَ عليهم بشتىٰ الوسائل(١).

الظاهرُ أنَّ إتيانَه مِن هذه الجهاتِ الأربع كنايةٌ عن وسوستِه، وإغوائه له، والجِدِّ في إضلاله مِن كلِّ وجهٍ يمكنُ، ولمَّا كانت هذه الجهاتُ يأتي منها العدوُّ غالبًا، ذكَرها، لا أنَّه يأتي مِن الجهاتِ الأربع حقيقةً(٢).

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ماذا قال له؟ قيل: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣).

أعاد اللهُ أمرَه بالخروجِ مِن السماء تأكيدًا للأمرينِ: الأول، والثاني(٤).

الضميرُ عائدٌ علىٰ الجَنَّة، والخلافُ فيه كالخلاف في ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، وهذه ثلاثُ أوامرَ: أمرٌ بالهبوطِ مطلقًا، وأمرٌ بالخروج مخبِرًا أنَّه ذو صَغارٍ، وأمرٌ بالخروج مقيَّدًا بالذمِّ والطرد(٥).

لمَّا وعَد بالإفسادِ الذي ذكَره، خاطَبه اللهُ تعالىٰ بما يدلُّ علىٰ الزجرِ والإهانة، فقال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٤٩).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢١).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٧٠).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٥١).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٣).

(٦) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢١٦).

ثم أكَّد تعالىٰ علىٰ إبليسَ اللعنةَ والطرد والإبعاد عن محَلِّ الملأ الأعلىٰ بقوله سبحانه: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾[1].

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

ولمَّا أوجَب له ما ذُكِر مِن الشَّقاوة تماديَهُ في الحسدِ، وكثرةَ كلامِه في محسودِه: التفتَ إلىٰ محسودِه الذي لم يَتكلَّمْ فيه كلمةً واحدة، فقال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

الواوُ مِن قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ عاطفةٌ علىٰ جملة ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ الآيةَ، فهذه الواوُ مِن المحكيِّ، لا مِن الحكايةِ؛ فالنداءُ والأمر مِن جملةِ المقُولِ المحكيِّ بـ«قال»؛ أي: قال اللهُ لإبليسَ: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، وقال لآدمَ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ﴾، وهذا مِن عطفِ المتكلِّمِ بعضَ كلامِه علىٰ بعضٍ؛ إذا كان لبعضِ كلامه اتصالٌ وتناسُبٌ مع بعضِه الآخَر، ولم يكُنْ أحدُ الكلامينِ موجَّهًا إلىٰ الذي وُجِّه إليه الكلامُ الآخَر، مع اتحادِ مقامِ الكلام؛ كما يَفعَل المتكلِّمُ مع متعدِّدين في مجلسٍ واحد، فيُقبِل علىٰ كلِّ مخاطَبٍ منهم بكلامٍ يخُصُّه[3].

ولمَّا طرَد الرحمنُ إبليسَ مِن الجنَّة، نادىٰ آدمَ عليه السلام قائلًا له: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٢).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٧٠-٣٧١).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٥٢).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٥٨).

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم سبَّب عن ذلك بيانَ حالِ الحاسد مع المحسودين فيما سأل الإنظارَ بسببِه، وأنَّه وقَع علىٰ كثيرٍ مِن مرادِه، واستغوىٰ منه أُممًا تجاوَزوا الحَدّ، وقصُرَ عنهم مدَىٰ العَدّ، ثم بيَّن أنَّه أقلُّ مِن أن يكونَ له فعلٌ، وأنَّ الكلَّ بيدِه سبحانه، هو الذي جعَله آلةً لمرادِه منه ومنهم، وأنَّ مَن يَهدِ اللهُ فهو المهتدي، ومَن يُضلِلْ فأولئك هم الخاسرون، فقال: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾(١).

كانت وسوسةُ الشيطان بقُرْبِ نهيِ آدمَ عن الأكل مِن الشجرةِ، فعبَّر عن القُرْبِ بحرفِ التعقيب إشارةً إلىٰ أنَّه قُرْبٌ قريبٌ؛ لأنَّ تعقيبَ كلِّ شيء بحسَبِه(٢).

فلم يَزالا ممتثِلَينِ لأمرِ الله، حتىٰ تغلغَلَ إليهما عدوُّهما إبليسُ بمكرِه؛ فوسوَس لهما وسوسةً خدَعهما بها، وموَّه عليهما، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾؛ أي: مِن جنسِ الملائكة، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾(٣).

فعند ذلك حسَدهما الشيطانُ، وسعىٰ في المكرِ والخديعة والوسوسة؛ ليُسلَبا ما هما فيه مِن النِّعمةِ واللِّباس الحسَنِ، وقال كَذِبًا وافتراءً: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾؛ أي: لئلا تكونا ملَكينِ، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ هاهنا، ولو أنَّكما أكَلْتما منها، لحصَل لكما ذلكما(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٥٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٨٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٧).

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ ﴾

ولمَّا أوصَل إليهما هذا المعنىٰ، أخبَر أنَّه أكَّده تأكيدًا عظيمًا؛ كما يؤكِّدُ الحالفُ ما يَحلِفُ عليه، فقال: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾؛ أي: أقسَم لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(١).

كأنَّهما قالا له: تُقسِم باللهِ إنَّك لِمَن الناصحين، فأقسَم، فجُعِل طلبُهما القَسَمَ بمنزلةِ القسم؛ أي: فتكون المفاعَلةُ مَجازًا، قال: أو أقسَم لهما بالنصيحةِ، وأقسَما له بقَبولها، فتكون المفاعلة علىٰ بابِها، وتأكيدُ إخبارِه عن نفسه بالنُّصحِ لهما بثلاثِ مؤكِّداتٍ دليلٌ علىٰ مَبلَغِ شكِّ آدمَ وزوجِه في نصحِه لهما، وما رأىٰ عليهما مِن مخائلِ التَّردد في صِدْقِه، وإنَّما شكَّا في نصحِه؛ لأنَّهما وجَدا ما يأمرُهما مخالِفًا لِما أمَرهما اللهُ، الذي يَعلَمانِ إرادتَه بهما الخيرَ علمًا حاصلًا بالفطرة(٢).

لم يكتفِ إبليسُ بالوسوسة - وهو الإلقاءُ في خُفْيةٍ سرًّا - ولا بالقولِ حتىٰ أقسَم علىٰ أنَّه ناصحٌ لهما(٣).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾

ولمَّا أخبَر ببعضِ وسوستِه لهما، سبَّب عنها ترجمتَها بأنَّها إهباطٌ مِن أَوْجِ شرَفٍ إلىٰ حضيضِ أذًىٰ وسرَفٍ، فقال: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٦٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٦).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٧٤).

تفريعٌ علىٰ جملة ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾، وما عُطِف عليها[(١)].

استنزَلهما إلىٰ الأكلِ مِن الشجرة بغُروره؛ أي: بخداعِه إيَّاهما، وإظهارِ النُّصحِ، وإبطانِ الغشِّ، وإطماعِهما أن يكونا ملَكَينِ، أو خالدَينِ، وبإقسامِه أنَّه ناصحٌ لهما؛ جعَل مَن يَغترُّ بالكلامِ حتَّىٰ يصدِّقَ فيقعَ في مصيبةٍ كالذي يُدلَّىٰ مِن عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ بحبلٍ ضعيف، فينقطعُ به، فيَهلِك[(٢)].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان هذا، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ جوابهما، فأُجيبَ بقوله: ﴿قَالَا﴾؛ أي: آدمُ وحوَّاءُ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٣)].

ما زال السياقُ في الحديثِ عن آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أنَّه لمَّا ذاق آدمُ وحوَّاءُ الشجرةَ، وبدَتْ لهما سَوْءاتُهما، وعاتَبهما ربُّهما علىٰ ذلك: قالا معلِنَينِ عن توبتِهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٤)].

فحينئذٍ مَنَّ اللهُ عليهما بالتوبةِ، وقَبولها، فاعترَفا بالذنب، وسألا مِن اللهِ مغفرتَه، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٥)].

قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ جملةٌ استئنافية، مبنيَّة علىٰ تقديرِ سؤال، كأنَّه قيل: فماذا قالا؟ وهذا منهما اعترافٌ بالذنبِ، وأنَّهما ظلَما أنفسهما ممَّا وقَع منهما مِن المخالفة، ثم قالا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٦١).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٦).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٧٥).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٦٠).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٢٨٥).

(٦) فتح القدير (٢/ ٢٢٣).

﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ ﴾

ولمَّا تشوَّفتِ النفسُ إلىٰ جوابِ العليِّ الكبير سبحانه، أُجيبت بقوله: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾[١].

طوىٰ القرآنُ هنا ذِكْرَ التوبةِ علىٰ آدمَ عليه السلام؛ لأنَّ المقصودَ مِن القصةِ في هذه السورةِ التذكيرُ بعداوةِ الشيطان، وتحذيرُ الناس مِن اتِّباعِ وسوسته، وإظهارُ ما يُعقِبُه اتِّباعُه مِن الخسرانِ والفساد، ومقامُ هذه الموعظةِ يقتضي الإعراضَ عن ذِكْرِ التوبةِ؛ للاقتصارِ علىٰ أسباب الخسارة، وقد ذُكِرتِ التوبةُ في آيةِ البقرة المقصودِ منها بيانُ فضلِ آدمَ، وكرامتِه عند ربِّه، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، والخطابُ لآدمَ، وزوجِه، وإبليسَ[٢].

﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥ ﴾

استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للاهتمامِ بالخبر؛ إيذانًا بتغيُّرِ الخطاب؛ بأن يكونَ بَيْنَ الخطابينِ تخالُفٌ ما؛ فالمخاطَبُ بالأولِ: آدمُ وزوجُه والشيطان، والمخاطَبُ الثاني: آدمُ وزوجُه وأبناؤهما، فإن كان هذا الخطابُ قبل حدوثِ الذرية لهما - كما هو ظاهرُ السياق - فهو خطابٌ لهما بإشعارِهما أنَّهما أَبَوَا خَلْقٍ كثير، كلُّهم هذا حالُهم، وهو مِن تغليبِ الموجود علىٰ مَن لم يوجَدْ، وإن كان قد وقَع بعد وجودِ الذُّرية لهما، فوجهُ الفصلِ أظهَرُ وأجدر[٣].

﴿ قَالَ ﴾ أُعيدَ للاستئنافِ: إمَّا للإيذانِ بعدمِ اتصالِ ما بعده بما قبله، وإمَّا لإظهارِ العنايةِ بما بعده؛ وهو قولُه سبحانه: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٦٩).

(٤) روح المعاني (٤/ ٣٤٣).

لمَّا أهبَط اللهُ آدمَ وزوجتَه وذُرِّيتهما إلىٰ الأرض، أخبرَهما بحالِ إقامتهم فيها، وأنَّه جعَل لهم فيها حياةً يتلوها الموتُ، مشحونةً بالامتحانِ والابتلاء، وأنَّهم لا يَزالون فيها، يُرسِلُ إليهم رُسلَه، ويُنزِلُ عليهم كُتبَه، حتىٰ يأتيَهم الموتُ، فيُدفَنون فيها، ثم إذا استكمَلوا، بعَثهم اللهُ، وأخرَجهم منها إلىٰ الدارِ التي هي الدارُ حقيقةً، التي هي دارُ المُقامةِ[1].

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾

ولمَّا بيَّن فيما مضىٰ أنَّ موجِبَ الإخراجِ مِن الجنَّةِ هو ما أوجَب كَشْفَ السَّوْءةِ مِن المخالفةِ، وفرَغ ممَّا استتبَعه حتىٰ أخبَره بأنَّه حكَم بإسكانِنا هذه الدارَ بعد تلك الدارِ: شرَع يحذِّرُنا مِن عدوِّنا؛ كما حذَّر أبانا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبدأ بقولِه بيانًا؛ لأنَّه أنعَم علينا فيها بكلِّ ما يُحتاجُ إليه في الدِّين والدنيا، وإيذانًا بما في كشفِ العَوْرةِ مِن الفضيحةِ والإبعادِ عن كلِّ خير، وإشعارًا بأنَّ التستُّرَ بابٌ عظيم مِن أبوابِ التقوىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[2].

إذا جرَيْنا علىٰ ظاهرِ التفاسير، كان قولُه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾ الآيةَ: استئنافًا ابتدائيًّا، عاد به الخطابُ إلىٰ سائرِ الناس الذين خوطِبوا في أولِ السورة بقولِه: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ الآياتِ، وهُمْ أمَّةُ الدعوة؛ لأنَّ الغرضَ مِن السورةِ إبطالُ ما كان عليه مشركو العربِ مِن الشرك وتوابعِه مِن أحوالِ دِينِهم

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٨٥).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٧٨).

الجاهليِّ، وكان قولُه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ استطرادًا بذِكرِ مِنَّةِ الله عليهم وهم يكفُرون به؛ كما تقدَّم عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، فخاطَبَتْ هذه الآيةُ جميعَ بني آدمَ بشيءٍ مِن الأمورِ المقصودة مِن السورةِ؛ فهذه الآيةُ كالمقدِّمةِ للغرض الذي يأتي في قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، ووقوعُها في أثناءِ آياتِ التحذير مِن كيدِ الشيطان جعَلها بمنزلةِ الاستطراد بَيْنَ تلك الآياتِ، وإن كانت هي مِن الغرضِ الأصلي[(١)].

لمَّا ذكَر قصةَ آدم عليه السلام، وفيها سَتْرُ السَّوْءاتِ، وجعَل له في الأرضِ مستقرًّا ومتاعًا: ذكَر ما امتَنَّ به علىٰ بَنِيه، وما أنعَم به عليهم؛ مِن اللِّباسِ الذي يواري السَّوْءات، والرِّياشِ الذي يمكِنُ به استقرارُهم في الأرض، واستمتاعُهم بما خوَّلهم[(٢)].

لمَّا بيَّن أنَّه أمَر آدمَ وحوَّاءَ بالهبوطِ إلىٰ الأرض، وجعَل الأرضَ لهما مستقرًّا: بيَّن بعده أنَّه تعالىٰ أنزَل كلَّ ما يَحتاجون إليه في الدِّين والدنيا، ومِن جُمْلتِها اللِّباسُ الذي يُحتاجُ إليه في الدِّين والدنيا[(٣)].

ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمتِه في تَبْوِئةِ الدارِ والمستقَرِّ في الأرض، وكِسْوتِهم لباسًا يستُرون به سَوْءاتِهم، بعدما نُزِع عنهما لباسُ الجنَّة؛ وذلك لِما بهِمْ - بعد الإهباطِ - مِن الحاجةِ إلىٰ اللِّباس والمعاش، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٧٢).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢١).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٢٧).

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن ذِكْرِ القَصصِ - لا سيَّما قَصَصُ الأنبياء - الاعتبارُ بها، فكان بيانُ ما وقَع بَيْنَ آدمَ عليه السلام وبين الشيطانِ مِن شديد العداوة مقتضيًا للتَّحذيرِ مِن الشيطان، وكان المقامُ خَطِرًا، والتَّخلُّصُ عَسِرًا: أشار إلىٰ ذلك بالتَّأكيدِ، وبيانِ ما سَلَّط الشيطانَ به مِن المكايدِ الخفيَّةِ والأسباب الدَّقيقة ليَعلَمَ الناجي أنَّه إنَّما نجا بمحضِ التوفيق، ومجرَّدِ اللُّطف؛ فيُقبِلُ علىٰ الشُّكرِ متبرِّئًا مِن الحَوْلِ والقوَّة، فقال مناديًا لهم بما يُفهِمُ الاستعطافَ والتَّراؤُفَ والتَّحنُّن والتَّرفُّق والاستضعافَ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[(١)].

أُعِيدَ خطابُ بني آدمَ؛ فهذا النداءُ تكملةٌ للآيِ قبله، بُنِي علىٰ التحذيرِ مِن متابَعةِ الشيطان إلىٰ إظهارِ كيدِهِ للناس مِن ابتداءِ خَلْقِهم؛ إذ كادَ لأصلِهم[(٢)].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن ذِكْرِ قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السلام حصولُ العِبْرةِ لِمَن يَسمَعُها، فكأنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر قصةَ آدمَ، وبيَّن فيها شِدَّةَ عداوةِ الشيطان لآدمَ وأولادِه: أتبَعها بأن حذَّر أولادَ آدمَ مِن قَبولِ وسوسة الشيطان، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾؛ وذلك لأنَّ الشيطانَ لمَّا بلَغ أثرُ كيدِه، ولُطْفُ وسوستِه، وشِدَّةُ اهتمامِه إلىٰ أن قدَر علىٰ إلقاءِ آدمَ في الزَّلة الموجِبة لإخراجِه مِن الجنَّةِ؛ فلأَنْ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٧٦).

يَقدِرَ علىٰ أمثالِ هذه المَضارِّ في حقِّ بني آدمَ أَوْلىٰ، فبهذا الطريقِ حذَّر تعالىٰ بني آدمَ بالاحترازِ عن وسوسة الشيطان، فقال: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، فيترتَّبُ عليه ألا تدخُلوا الجنَّةَ؛ كما فتَن أبَوَيْكم فترتَّبَ عليه خروجُهما منها، وأصلُ الفُتونِ: عرضُ الذَّهبِ علىٰ النار، وتخليصُه مِن الغش(١).

يقولُ تعالىٰ محذِّرًا بني آدمَ مِن إبليسَ وقَبيلِه، ومبيِّنًا لهم عداوتَه القديمة لأبي البشَرِ آدمَ عليه السلام في سَعْيِه في إخراجِه مِن الجنَّةِ التي هي دارُ النَّعيم إلىٰ دارِ التعب والعناء، والتسبُّبِ في هَتْكِ عَوْرتِه بعدما كانت مستورةً عنه، وما هذا إلا عن عداوةٍ أكيدة(٢).

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾

ولمَّا جعَل أمارتَهم في وَلايةِ الشيطانِ عدمَ الإيمان، عطَف علىٰ ذلك أمارةً أخرىٰ، فقال: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣)

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فهو مِن جملةِ الصلة، وفيه إدماجٌ لكشفِ باطلِهم في تعلُّلاتهم ومعاذيرِهم الفاسدة؛ أي: لِلَّذين لا يقبَلون الإيمانَ، ويفعلون الفواحشَ، ويعتذِرون عن فِعْلِها بأنَّهم اتَّبعوا آباءهم، وأنَّ اللهَ أمَرهم بذلك، وهذا خاصٌّ بأحوالِ المشركين المكذِّبين(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٨١).

الظاهرُ مِن قوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ أنَّه إخبارٌ مستأنَف عن هؤلاء الكفارِ بما كانوا يقولون إذا ارتكَبوا الفواحشَ[(١)].

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا كان تعليلُهم بأمرِ الله مقتضيًا لأنَّه إذا أمَر بشيءٍ اتُّبِعَ، أمَره أن يبلِّغَهم أمرَه الذي جاء به دليلُ العقل مؤيَّدًا بجازمِ النقل، فقال: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[(٢)].

بعد أن أبطَل زعمَهم أنَّ اللهَ أمَرهم بما يفعلونه مِن الفواحشِ إبطالًا عامًّا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾، استأنَف استئنافًا استطراديًّا بما فيه جِماعُ مقوِّمات الدِّينِ الحق الذي يَجمَعُه معنى القِسْط -أي: العدلِ-؛ تعليمًا لهم بنقيضِ جهلِهم، وتنويهًا بجلالِ الله تعالى؛ بأن يَعلَموا ما شأنُه أن يأمُرَ اللهُ به. ولأهميةِ هذا الغرضِ، ولمضادَّتِه لمُدَّعاهم المنفيِّ في جملةِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾، فُصِلت هذه الجملةُ عن التي قبلها، ولم يُعطَفِ القولُ على القول، ولا المقُولُ على المقولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فِعْلِ القول وفي تَرْكِ عطفِه على نظيرِه لَفْتًا للأذهانِ إليه[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أمرَ الأمرِ بالفحشاء، بيَّن تعالى أنَّه يأمُرُ بالقِسْطِ والعدل[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٤).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٣٨٥).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٨٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢٦).

ما زال السياقُ في بيانِ أخطاء مشركي قُرَيشٍ؛ فقد قالوا في الآياتِ السابقة محتجِّين علىٰ فِعْلِهم الفواحشَ بأنَّهم وجَدوا آباءهم علىٰ ذلك، وأنَّ اللهَ تعالىٰ أمَرهم بها، وأكذَبهم اللهُ تعالىٰ في ذلك، وقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[1].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾

﴿فَرِيقًا﴾ الأولُ والثاني منصوبانِ علىٰ الحال: إمَّا مِن الضميرِ المرفوع في ﴿تَعُودُونَ﴾؛ أي: تَرجِعون إلىٰ اللهِ فريقَين؛ فاكتُفي عن إجمالِ الفريقين ثم تفصيلِهما بالتَّفصيلِ الدَّالِّ علىٰ الإجمال؛ تعجيلًا بذِكْرِ التَّفصيل؛ لأنَّ المقامَ مقامُ ترغيبٍ وترهيب[2].

لمَّا أمَر في الآيةِ السابقة بالقِسْطِ، ثم بالصلاة، ثم الدعاءِ: ناسَب أن يبيِّنَ هنا أنَّ مَن قام بذلك هو مِن أهلِ الهدىٰ، ومَن لم يقُمْ بذلك، فهو مِن أهلِ الضَّلالة.

﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾

ولمَّا أمَر سبحانه بالقِسْطِ، وبإقامةِ الوجهِ عند كلِّ مسجدٍ: أمَرهم بما ينبغي عند تلك الإقامةِ مِن سَتْرِ العَوْرةِ الذي تقدَّم الحثُّ عليه، وبيانُ فُحْشِ الهَتْكِ وسُوءِ أثَره معبِّرًا عنه بلفظِ الزينة؛ ترغيبًا فيه، وإذنًا في الزينة، وبيانًا لأنَّها ليس ممَّا يُتورَّعُ عنه؛ لقولِه ﷺ: «إنَّ اللهَ يحبُّ إذا بسَط علىٰ عبدٍ رِزْقَه أن يَرىٰ أثَرَ نِعْمتِهِ عليه»[3]، وأتبَع ذلك أعظَمَ ما ينبغي لابنِ آدمَ أن يعتبِرَ فيه القِسْطَ مِن المأكلِ والمَشرَب، فقال مكررًا

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨١٩).

النداءَ - استعطافًا، وإظهارًا لعظيمِ الإشفاق، وتذكيرًا بقصةِ أبيهم آدمَ عليه السلام، التي أخرَجتْهُ مِن الجنَّة، مع كونِه صفيَّ اللهِ؛ ليشتدَّ الحذَرُ -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[١].

إعادةُ النداءِ في صدرِ هذه الجملةِ للاهتمامِ، وتعريفُ المنادىٰ بطريقِ الإضافة بوصفِ كونِهم بني آدمَ: متابَعةٌ للخطابِ المتقدِّمِ في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾. وهذه الجملةُ تتنزَّلُ مِن التي بعدها - وهي قولُه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ - منزلةَ النتيجةِ مِن الجدل؛ فقُدِّمتْ علىٰ الجدلِ، فصارت غرَضًا بمنزلةِ دعوىٰ، وجُعِل الجدلُ حُجَّةً علىٰ الدعوىٰ، وذلك طريقٌ مِن طرقِ الإنشاء في ترتيبِ المعاني ونتائجِها[٢].

لمَّا أمَر بالقِسْطِ في الآية الأُولىٰ، وكان مِن جملةِ القِسْطِ أمرُ اللِّباس، وأمرُ المأكولِ والمشروب: لا جرَمَ أتبَعه بذِكْرِهما، وأيضًا لمَّا أمَر بإقامةِ الصلاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، وكان سَتْرُ العَوْرةِ شرطًا لصحةِ الصلاة: لا جرَمَ أتبَعه بذِكْرِ اللباس[٣].

وممَّا حَسِبوا فيه أنَّهم مهتدون بمتابَعةِ الشيطان: تَرْكُهم التَّزيُّنَ والتَّلذذ مع العبادةِ؛ فطافُوا عراةً، وتَرْكُهم اللَّحمَ والدَّسَمَ مع الإحرامِ، فقال عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٩٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٢٨).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٣٧).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ ما كانوا أَلِفوه واتخذوه دِينًا يَستعظمون تَرْكَه؛ لأنَّ الشيطانَ يوسوِسُ لهم بأنَّه توسُّع الدنيا، والتوسعُ فيها ممَّا ينبغي الزهدُ فيه؛ كما دعا إليه كثيرٌ مِن الآيات: أكَّد سبحانه الإذنَ في ذلك بالإنكارِ علىٰ مَن حرَّمه، فقال منكِرًا عليهم - إعلامًا بأنَّ الزهدَ الممدوح ما كان مع صحةِ الاعتقادِ في الحلال والحرام، وأمَّا ما كان مع تبديلِ شيءٍ مِن الدِّين بتحليلِ حرامٍ أو عكسِه، فهو مذمومٌ -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ معترِضٌ بَيْنَ الخطاباتِ المحكيَّةِ والموجَّهة، وهو موضعُ إبطالِ مزاعمِ أهل الجاهلية فيما حرَّموه مِن اللِّباسِ والطعام، وهي زيادةُ تأكيدٍ لإباحةِ التستُّر في المساجد؛ فابتُدئ الكلامُ السابق بأنَّ اللباسَ نعمةٌ مِن الله، وثُنِّي بالأمرِ بإيجاب التستُّر عند كلِّ مسجد، وثُلِّث بإنكارِ أن يوجَدَ تحريمُ اللباس، وافتتاحُ الجملةِ بـ ﴿قُلْ﴾ دَلالةٌ علىٰ أنَّه كلامٌ مسُوقٌ للردِّ، والإنكار، والمحاوَرة[(٢)].

ثم ردَّ تعالىٰ علىٰ مَن حرَّم شيئًا مِن المآكلِ والمشارب والملابس، مِن تلقاءِ نفسِه، مِن غيرِ شرعٍ مِن الله، تأكيدًا لِما سبَق، بقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٩٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٥).

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ ما حرَّموه ليس بحرامٍ، فتقرَّر ذلك تقرُّرًا نزَع مِن النفوسِ ما كانت أَلِفَتْهُ مِن خلافِه، ومحا مِن القلوبِ ما كانت أُشرِبَتْهُ مِن ضدِّه: كان كأنَّه قيل: فماذا حرَّم اللهُ الذي ليس التحريمُ إلا إليه؟ فأمَره تعالىٰ بأن يجيبَهم عن ذلك، ويَزيدَهم بأنَّه لم يحرِّمْ غيرَه، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(١)].

لمَّا أنبأ قولُه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ إلىٰ آخرِه بأنَّ أهلَ الجاهلية حرَّموا مِن الزينةِ والطيِّبات مِن الرزق، وأنبأ قولُه تعالىٰ - قبل ذلك -: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ بأنَّ أهلَ الجاهلية يَعزُون ضلالَهم في الدِّينِ إلىٰ الله، فأنتَج ذلك أنَّهم ادَّعَوْا أنَّ ما حرَّموه مِن الزينةِ والطيِّبات قد حرَّمه اللهُ عليهم: أعقَب مجادلتَهم ببيانِ ما حرَّمه اللهُ حقًّا وهم ملتبِّسون به، وعاكفون علىٰ فعلِه[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأولىٰ أنَّ الذي حرَّموه ليس بحرامٍ، بيَّن في هذه الآيةِ أنواعَ المحرَّمات[(٣)].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّ النَّاسَ فريقان: مهتدٍ، وضالٌّ، وتكرَّر ذمُّ الضالِّ باجترائه علىٰ الله بفعلِ ما منَعه منه، وتركِ ما أمَره به، وكانت العادةُ المستمِرة للملوك أنَّهم لا يُمهِلون مَن تكرَّر مخالفتُه لهم: كان كأنَّه قيل: فلِمَ يُهلِكُ مَن يخالِفُه؟ فقيل - وعظًا وتحذيرًا -:

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٨٨-٣٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٣٢).

إنَّهم لا يضرُّون بذلك إلا أنفسَهم، ولا يفعلون شيئًا منه إلا بإرادتِه، فسواءٌ عندهم بقاؤهم وهلاكُهم، إنَّما يستعجلُ مَن يخاف الفَوْتَ، أو يَخشىٰ الضَّرَر، ولهم أجلٌ لا بد مِن استيفائِه، وليس ذلك خاصًّا بهم، بل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

اعتراضٌ بَيْنَ جملةِ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾، وبَيْنَ جملة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، لمَّا نعىٰ اللهُ علىٰ المشركين ضلالَهم وتمرُّدَهم بعد أن دعاهم إلىٰ الإيمانِ، وإعراضَهم عنه بالمجادلةِ، والتَّوبيخ، وإظهارِ نقائصهم بالحُجَّةِ البيِّنة، وكان حالُهم حالَ مَن لا يُقلِع عمَّا هم فيه: أعقَب ذلك بإنذارِهم ووعيدهم؛ إقامةً للحجةِ عليهم، وإعذارًا لهم قبل حلولِ العذاب بهم[2].

لمَّا بيَّن الحلالَ والحرام وأحوالَ التَّكليف، بيَّن أنَّ لكلِّ أحدٍ أجلًا معيَّنًا، لا يتقدَّم ولا يَتأخَّر، وإذا جاء ذلك الأجلُ، ماتَ لا محالةَ، والغرضُ منه التَّخويفُ؛ ليَتشدَّدَ المرءُ في القيامِ بالتَّكاليف كما ينبغي[3].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا تقدَّمت الإشارةُ إلىٰ الحثِّ علىٰ اتِّباع الرُّسل، والتَّحذيرِ مِن الشياطين، فتحرَّر أنَّه لا سبيلَ إلىٰ النجاةِ إلا بالرُّسل، وختَم ذلك بالأجلِ؛ حثًّا علىٰ العملِ في أيام المُهْلة: أتبَع ذلك قولَه - حاثًّا علىٰ التَّعلُّق بأسبابِ النجاة؛ باتِّباع الدُّعاةِ الهُداة قبل

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٠٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٣٤).

الفوتِ بحادثِ الموت؛ ببيانِ الجزاءِ لِمَن أحسَن الاتِّباعَ في الدارين -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾(١).

هذه الآيةُ والتي بعدها متصِلتَا المعنىٰ بمضمونِ قولِه تعالىٰ في أول السورة: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ الآيةَ: اتصالَ التَّفصيلِ بإجماله. أكَّد به تحذيرَهم مِن كيدِ الشيطان وفُتونِه، وأراهم به مناهجَ الرُّشدِ التي تُعينُ علىٰ تجنُّبِ كيدِه؛ بدعوةِ الرُّسل إيَّاهم إلىٰ التقوىٰ والإصلاحِ؛ كما أشار إليه بقولِه في الخطابِ السابق: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وأنبأهم بأنَّ الشيطانَ توعَّد نوعَ الإنسان فيما حكىٰ اللهُ في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الآيةَ؛ فلذلك حذَّر اللهُ بني آدمَ مِن كيدِ الشيطان، وأشعَرهم بقوةِ الشيطان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾؛ عسىٰ أن يتَّخِذوا العُدَّةَ للنَّجاة مِن مخالبِ فتنتِه، وأردَف ذلك بالتَّحذيرِ مِن حزبِه ودعاتِه الذين يَفتنون المؤمنين، ثم عزَّز ذلك بإعلامِه إيَّاهم أنَّه أعانهم علىٰ الاحترازِ مِن الشيطان؛ بأن يَبعَثَ إليهم قومًا مِن حزبِ الله، يبلِّغونهم عن اللهِ ما فيه منجاةٌ لهم مِن كيدِ الشياطينِ، بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ الآيةَ، فأوصاهم بتصديقِهم، والامتثالِ لهم(٢).

ثم أنذَر تعالىٰ بني آدمَ بأنَّه سيَبعَث إليهم رُسلًا يَهدونهم، وبشَّر وأنذَر بقوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٥٠).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾

ولمَّا ذكَر المصدِّق، أتبعه المكذِّب، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ ﴾. والرابطُ محذوفٌ؛ تقديره: والذين كفروا منكم وكذَّبوا[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ الذين كذَّبوا بهذه الآياتِ التي يجيء بها الرُّسلُ واستكبَروا إن أَنِفوا مِن قَبولِها، وتمرَّدوا عن التزامِها: فأولئك ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ ﴾

ولمَّا كان تكذيبُ الرُّسل تارةً يكونُ بشرعِ شيءٍ لم يَشرَعوه، وتارةً بردِّ ما شرَعوه قولًا وفعلًا، وأخبَر أنَّ المكذِّبين أهلُ النار: علَّل ذلك بقولِه: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[(٤)].

الفاءُ للتفريعِ علىٰ جملةِ الكلام السابق، وهذه كالفَذْلكة لِما تقدَّم؛ لتبيِّنَ أنَّ صفاتِ الضَّلال التي أُبهِمَ أصحابُها هي حافَّةٌ بالمشركين المكذِّبين برسالةِ محمَّدٍ ﷺ؛

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١١٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٣٥).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٩٥-٣٩٦).

فإنَّ اللهَ ذكَر أولياءَ الشياطينِ وبعضَ صفاتِهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وذكَر أنَّ اللهَ عَهِد لبني آدمَ منذ القِدَم بأن يتَّبِعوا مَن يَجيئُهم مِن الرُّسلِ عن اللهِ تعالىٰ بآياته؛ ليَتَّقوا ويُصلِحوا، ووعَدهم علىٰ اتِّباعِ ما جاءهم بنفي الخوفِ والحزَنِ، وأوعَدهم علىٰ التكذيبِ والاستكبار بأن يكونوا أصحابَ النار؛ فقد أعذَر إليهم وبصَّرهم بالعواقبِ، فتفرَّع علىٰ ذلك: أنَّ مَن كذَب علىٰ اللهِ فزعَم أنَّ اللهَ أمَره بالفواحش، أو كذَّب بآياتِ الله التي جاء بها رسولُه: فقد ظلَم نفسَه ظلمًا عظيمًا حتىٰ يُسأَلَ عمَّن هو أظلَمُ منه[1].

لمَّا ذكَر المكذِّبين، ذكَر أسوأَ حالًا منهم؛ وهو مَن يفتري الكذبَ علىٰ اللهِ، وذكَر أيضًا مَن كذَّب بآياته[2].

ثم ذكَر تعالىٰ وعيدَ المكذِّبين الذين تقدَّم ذِكْرُهم بقولِه سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3].

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: لقد اعترَفوا، والاعترافُ - كما قيل - إنصافٌ، فهل ينفعُهم؟ قيل: هيهاتَ! فات محلُّه بفواتِ دارِ العمل؛ لا جرَمَ ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١١١).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٦).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٥١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٣٩٧).

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ فهذا قولٌ آخَرُ، ليس هو مِن المحاوَرةِ السابقة؛ لأنَّـه جاء بصيغةِ الإفراد، والأقوالُ قبله مسنَدةٌ إلىٰ ضمائرِ الجمع؛ فتعيَّنَ أنَّ ضميرَ ﴿قَالَ﴾ عائدٌ إلىٰ الله تعالىٰ بقرينةِ المقام؛ لأنَّ مثلَ هذا القولِ لا يصدُرُ مِن أحدٍ غيرِ الله تعالىٰ؛ فهو استئنافُ كلامٍ نشأ بمناسَبةِ حكايةِ حالِ المشركين حين أوَّلِ قدومِهم علىٰ الحياةِ الآخرة؛ وهي حالةُ وفاةِ الواحد منهم؛ فيكونُ خطابًا صدَر مِن اللهِ إليهم بواسطةِ أحدِ ملائكته، أو بكلامٍ سَمِعوه وعَلِموا أنَّه مِن قِبَلِ الله تعالىٰ بحيث يوقِنون منه أنَّهم داخلون إلىٰ النار، فيكونُ هذا مِن أشدِّ ما يرَوْن فيه مَقعَدَهم مِن النارِ عقوبةً خاصة بهم[١].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ مِن بقيَّةِ شرحِ أحوال الكفار؛ وهو أنَّه تعالىٰ يُدخِلُهم النارَ[٢].

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾

ولمَّا ذكَر مَلامَ الآخِرين علىٰ الأوَّلين، عطَف عليه جوابَ الأوَّلين، فقال: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾[٣].

عُطِفت جملة ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ علىٰ جملة ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّهم لم يدخُلوا في المحاوَرةِ ابتداءً؛ فلذلك لم تُفصَلِ الجملةُ. والفاءُ في قولِهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ فاءٌ فصيحة، مرتَّبةٌ علىٰ قولِ الله تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾؛ حيث سوَّىٰ بَيْنَ الطائفتينِ في مضاعَفةِ العذاب[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١١٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٣٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٣٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١٢٤).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا جرَتِ العادةُ بأنَّ أهلَ الشدائد يَتوقَّعون الخلاصَ، أخبَر أنَّ هؤلاء ليسوا كذلك؛ لأنَّهم أنجاسٌ؛ فليسوا أهلًا لمواطنِ الأقداس، فقال مستأنِفًا لجوابِ مَن كأنَّه قال: أمَا لهؤلاء خَلَاصٌ؟ وأظهَر موضعَ الإضمارِ تعميمًا وتعليقًا للحُكْمِ بالوصفِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائي مسُوقٌ لتحقيقِ خلودِ الفريقَينِ في النار، الواقعِ في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾؛ فأخبَر اللهُ بأنَّه حرَمهم أسبابَ النَّجاةِ؛ فسَدَّ عليهم أبوابَ الخيرِ والصلاح، وبأنَّه حرَمهم مِن دخولِ الجنَّة. وأكَّد الخبرَ بـ «إنَّ» لتأييسِهم مِن دخولِ الجنَّة؛ لدفعِ توهُّمِ أن يكونَ المرادُ مِن الخلودِ المتقدِّمِ ذِكْرُه الكنايةَ عن طُولِ مدَّةِ البقاء في النار؛ فإنَّه ورَد في مواضعَ كثيرةٍ مرادًا به هذا المعنىٰ(٢).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ منه إتمامُ الكلام في وعيدِ الكفار؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ قال في الآيةِ المتقدِّمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، ثم شرَح تعالىٰ في هذه الآيةِ كيفيةَ ذلك الخلودِ في حقِّ أولئك المكذِّبين المستكبِرين(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٣٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٣٩).

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ثم فسَّر جزاءَ الكل، فقال: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾(١).

ولمَّا كان جزاءُ الظالمين قد شُبِّه بجزاءِ الذين كذَّبوا بالآياتِ واستكبَروا عنها، عُلِم أنَّ هؤلاء المكذِّبين مِن جملةِ الظالمين، وهم المقصودُ الأول مِن هذا التَّشبيهِ؛ بحيث صاروا مثَلًا لعمومِ الظالمين، وبهذين العمومينِ كان الجملتانُ تذييلَين(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن مِن حالِهم أنَّهم لا يدخُلون الجنَّةَ البتَّة، بيَّن أيضًا أنَّهم يدخُلون النارَ، فقال: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾(٣).

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر عن أحوالِهم ترهيبًا، أتبَعه الإخبارَ عن أحوالِ المؤمنين ترغيبًا، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٤).

أعقَب الإنذارَ والوعيد للمكذِّبين بالبِشارةِ والوعد للمؤمنين المصدِّقين؛ علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ أحدِ الغرضينِ بالآخَر. وعُطِف علىٰ: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾؛ أي: وإنَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحات... إلخ؛ لأنَّ بَيْنَ مضمونِ الجملتين مناسَبةً

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٤١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٤٠١).

متوسِّطة بَيْنَ كمالِ الاتصال وكمالِ الانقطاع، وهو التَّضادُّ بَيْنَ وصفِ المسنَدِ إليهما في الجملتينِ؛ وهو التَّكذيبُ بالآياتِ والإيمانُ بها، وبَيْنَ حُكْمِ المسنَدينِ؛ وهو العذابُ والنعيم، وهذا مِن قَبيلِ الجامعِ الوَهْميِّ المذكور في أحكامِ الفصلِ والوصل مِن علمِ المعاني[(١)].

وذكَر الجُرْمَ مع الحرمانِ مِن دخولِ الجنَّة، والظُّلْمَ مع التعذيبِ بالنار الذي هو أشَدُّ مِن الحرمانِ المذكور؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه أعظَمُ الجرائم، ثم تأثَّر[(٢)] تعالىٰ وعيدَه بوعدِه - علىٰ سُنَّتِه في تنزيلِه الكريم - فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(٣)]

لمَّا استوفىٰ الكلامَ في الوعيد، أتبَعه بالوعدِ في هذه الآية[(٤)].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كانت الدارُ لا تَطيبُ إلا بحُسْنِ الجوار، قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٥)]

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٣٠).

(٢) أي: أتبَعَ.

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٥٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٤١).

(٥) نظم الدرر (٧/ ٤٠٢).

اتساقُ النَّظم يقتضي أن تكونَ جملةُ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حالًا مِن الضميرِ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وتكونَ جملة ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ معترضةً بَيْنَ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وجملة ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلخ، اعتراضًا بُيِّن به حالُ نفوسِهم في المعاملة في الجنَّة؛ ليقابِلَ الاعتراضَ الذي أُدمِج في أثناءِ وصفِ عذابِ أهل النار، والمبيَّنَ به حالُ نفوسِهم في المعاملة بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾[(١)].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

ولمَّا استقرَّتْ بهم الدارُ، ونُودُوا بدوامِ الاستقرار: أخبَر سبحانه أنَّهم أقبَلوا متبجِّحين[(٢)] علىٰ أهلِ النار، شامتين بهم في إحلالِهم دارَ البوار؛ تلذيذًا لأنفسِهم بالنعيم، وتكديرًا علىٰ الأشقياءِ في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾[(٣)].

جملة ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ يجوزُ أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملة ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ إلخ، عَطْفَ القولِ علىٰ القول؛ إذ حُكِيَ قولُهم المنبِئُ عن بهجتِهم بما هم فيه مِن النعيم، ثم حُكِيَ ما يقولونه لأهلِ النار حينما يشاهِدونهم. ويجوز أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملة: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ عَطْفَ القصةِ علىٰ القصة؛ بمناسبةِ الانتقال مِن ذِكْرِ نداءٍ مِن قِبَلِ الله إلىٰ ذِكْرِ مناداةِ أهلِ الآخرة بعضِهم بعضًا. فعلىٰ الوجهين، يكون التعبيرُ عنهم بأصحابِ الجنَّةِ دُونَ ضميرِهم توطئةً

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٣١).

(٢) أي: متفاخرين.

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٠٤).

لِذِكْرِ نداءِ أصحابِ الأعراف، ونداءِ أصحاب النار؛ ليُعبَّرَ عن كلِّ فريقٍ بعُنْوانه، وليكونَ منه محسِّنُ الطِّباقِ في مقابلتِهِ بقوله: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾[1].

عبَّر بالماضي عن المستقبَلِ لتحقُّقِ وقوعِه، وهذا النداءُ فيه تقريعٌ وتوبيخ وتوقيف على مآلِ الفريقينِ، وزيادةٌ في كَرْبِ أهلِ النار؛ بأن يُشرِفوا عليهم، ويُخلَقَ إدراكُ أهلِ النار لذلك النداءِ في أسماعِهم[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح وعيدَ الكفار، وثوابَ أهلِ الإيمان والطاعات: أتبَعه بذِكْرِ المناظَرات التي تدورُ بَيْنَ الفريقينِ؛ وهي الأحوالُ التي ذكَرها في هذه الآية. واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة قولَه: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾، دلَّ ذلك علىٰ أنَّهم استقَرُّوا في الجنَّةِ في وقتِ هذا النداء، فلمَّا قال بعده: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، دلَّ ذلك علىٰ أنَّ هذا النداءَ إنَّما حصَل بعد الاستقرار[3].

يقولُ تعالىٰ لمَّا ذكَر استقرارَ كلٍّ مِن الفريقينِ في الدارينِ، ووجَدوا ما أخبَرتْ به الرُّسلُ، ونطَقتْ به الكتبُ مِن الثوابِ والعقاب: أنَّ أهلَ الجنَّةِ نادَوْا أصحابَ النارِ بأن قالوا: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾[4].

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

ثم وصَف الظالمين المتقدِّمَ ذِكْرُهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٥٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٤٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢٨٩).

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ضميرُ «بينهما» يعودُ إلىٰ لفظَي الجنَّةِ والنار الواقعينِ في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وهما اسمَا مكانٍ[١].

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾؛ أي: بَيْنَ الفريقينِ؛ لأنَّهم المحدَّثُ عنهم، وهو الظاهرُ، وقيل: بَيْنَ الجنَّةِ والنار، وبهذا بدأ الزَّمَخْشَريُّ وابنُ عطية[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ مخاطَبةَ أهلِ الجنَّة مع أهلِ النار، نبَّه أنَّ بَيْنَ الجنَّةِ والنار حجابًا؛ وهو الحاجزُ المانع مِن وصولِ أهلِ النار إلىٰ الجنَّة[٣].

﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ ما تقدَّم علىٰ أنَّهم مقبِلون علىٰ الجنَّةِ وأهلِها، قال مرغِّبًا مرهِّبًا: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤].

جملة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[٥].

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم كلامُهم لأهلِ الجنَّة بالسَّلام، أخبَر أنَّهم يكلِّمون أهلَ النار بالتوبيخِ والمَلام، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٦].

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٠).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٥٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٧).
(٤) نظم الدرر (٧/ ٤٠٦).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٣).
(٦) نظم الدرر (٧/ ٤٠٧).

التعريفُ في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ للعهدِ؛ بقرينةِ تقدُّمِ ذِكْرِه في قولـه: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾، وبقرينةِ قوله هنا: ﴿رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم﴾؛ إذ لا يستقيمُ أن يكونَ أولئك الرجالُ يناديهم جميعُ مَن كان على الأعرافِ، ولا أن يَعرِفَهم بسِيماهم جميعُ الذين كانوا على الأعرافِ، مع اختلافِ العصور والأُمَم؛ فالمقصودُ بأصحابِ الأعراف: هم الرجالُ الذين ذُكِروا في الآيةِ السابقة بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾، كأنَّه قيل: ونادى أولئك الرجالُ الذين على الأعرافِ رجالًا[١].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن بقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أتبَعه أيضًا بأنَّ أصحابَ الأعراف ينادُون رجالًا مِن أهلِ النار، واستغنى عن ذِكْرِ أهلِ النار؛ لأجلِ أنَّ الكلامَ المذكور لا يَلِيقُ إلا بهم؛ وهو قولُهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ وذلك لا يليقُ إلا بمَن يُبكَّتُ ويوبَّخُ، ولا يليق أيضًا إلا بأكابرِهم[٢].

ثم ذكَر الخصوصَ بعد العموم، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾[٣].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾

ثم زادوا في توبيخِهم وتقريعِهم، وتحزينِهم وتأسيفِهم، والإنكارِ عليهم بقولِهم - مشيرينَ إلى ناسٍ كانوا يَستضعفونهم مِن أهلِ الجنَّةِ ويحقِّرونهم -: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٩٠).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٤٠٧).

جملـةُ ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴾ مِـن كـلامِ أصـحابِ الأعـراف. والاسـتفهامُ في قولـه: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ ﴾ مسـتعمَلٌ في التقريـر. والإشـارةُ بـ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إلىٰ قـومٍ مِن أهـلِ الجنَّة كـانوا مستضعَفين في الـدنيا، ومُحقَّرين عند المشـركين؛ بقرينـةِ قولِـه: ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴾، وقولِـه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[(١)].

لمَّا وبَّخوهم بقولِهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ ﴾، أقسَم أهلُ النار أنَّ أهلَ الأعراف داخلون النارَ معهم، فنادتهم الملائكةُ: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾، ثم نادىٰ أهل الأعراف ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[(٢)].

ثم زادوا علىٰ هذا التبكيتِ؛ وهو قولُهم: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴾، فأشاروا إلىٰ فريقٍ مِن أهلِ الجنَّة كانوا يَستضعفونهم، ويَستقلُّون أحوالهم، وربما هزَؤوا بهم، وأَنِفوا مِن مشاركتِهم في دِينِهم، فإذا رأىٰ مَن كان يدَّعي التقدمَ حصولَ المنزلةِ العالية لِمَن كان مستضعَفًا عنده، قَلِقَ لذلك، وعظُمتْ حسرتُه وندامتُه علىٰ ما كان منه في نفسِه[(٣)].

ثم نظَروا إلىٰ الجنَّةِ، فرأَوْا مَن الضعفاءُ الذين كان الكفارُ يَسترذلونهم في الدنيا، ويزعُمون أنَّ اللهَ لا يختصُّهم دُونَهم في الدنيا، فيقولُ لهم أهلُ الأعراف: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٦).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٦٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥١).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٦٣).

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ﴾

ولمَّا تقدَّم نداءُ أصحابِ الجنَّة عندما حصَل لهم السرورُ بدخولِها لأصحابِ النار بما يؤلِمُ وينكي، وختَم بهذه الرحمةِ التي تُطمِعُ المحرومَ فيما يسُرُّ ويزكي: أخبَر أنَّ أصحابَ النار ينادُون أصحابَ الجنَّة عندما حصَل لهم مِن الغَمِّ بدخولها لكن بما شأنُه أن يرقِّقَ ويبكي، فقال ما يدل علىٰ أنَّ عندهم كلَّ ما نُفِيَ عن أهلِ الجنَّة في ختامِ الآيةِ السالفة مِن الخوفِ والحزنِ: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما يقولُه أصحابُ الأعراف لأهلِ النار، أتبَعه بذِكرِ ما يقولُه أهلُ النار لأهلِ الجنَّة(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ ذِلَّةَ أهلِ النار، وسؤالَهم أهلَ الجنَّةِ مِن شرابِهم وطعامهم، بعد التكبُّرِ عليهم، وبعدما أقسَموا لا ينالُهم اللهُ برحمةٍ، وأنَّهم لا يُجابون إلىٰ ذلك، بقولِه سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(٣).

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا ﴾ إلىٰ آخره، حكايةٌ لكلامِ أصحاب الجنَّة. والفاءُ للتفريعِ علىٰ قولِ أصحاب الجنَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٢).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٦٤).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ الآيةَ، وهذا العطفُ بالفاء مِن قَبيلِ ما يُسمَّىٰ بعطفِ التلقينِ، الممثَّلِ له غالبًا بمعطوفٍ بالواوِ؛ فهو عطفُ كلامٍ[1].

بيَّن تعالىٰ أنَّ هؤلاء الكفارَ لمَّا طلَبوا الماءَ والطعام مِن أهلِ الجنَّة، قال أهل الجنَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولا شكَّ أنَّ ذلك يفيدُ الخَيْبةَ التامة، ثم إنَّه تعالىٰ وصَف هؤلاء الكفارَ بأنَّهم اتخَذوا دِينَهم لهوًا ولعبًا[2].

ثم وصَف الكافرين ليَعرِضَ جرائمَهم التي اقتضت حرمانَهم وعذابهم؛ ليكونَ ذلك عِظَةً وعِبْرة للكفارِ مِن قُريشٍ، ومِن سائرِ الناس، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾[3].

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾

ولمَّا ذكَر نسيانَهم وجحودَهم، ذكَر حالَهم عند ذلك، فقال: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[4].

الواوُ في ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾ عاطفةٌ هذه الجملةَ علىٰ جملةِ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ عَطْفَ القصةِ علىٰ القصة، والغرضِ علىٰ الغرضِ؛ فهو كلامٌ أُنُفٌ، انتقل به مِن غرضِ الخبَرِ عن حالِ المشركين في الآخرةِ إلىٰ غرضِ وصفِ أحوالهم في الدنيا، المستوجِبين بها لِما سيلاقونه في الآخرةِ[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٥٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٣).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ١٧٨).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٤١٠).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٥١).

الضميرُ في ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ عائدٌ على مَن تقدَّم ذِكْرُه، ويكون الكتابُ على هذا جنسًا؛ أي: بكتابٍ إلهيٍّ؛ إذ الضميرُ عامٌّ في الكفار(١).

لمَّا شرَح أحوالَ أهلِ الجنَّة، وأهل النار، وأهل الأعراف، ثم شرَح الكلماتِ الدائرةَ بَيْنَ هؤلاء الفِرَقِ الثلاثِ على وجهٍ يصيِّرُ سماعَ تلك المناظَراتِ حاملًا للمكلَّفِ على الحذَرِ والاحتراز، وداعيًا له إلى النظرِ والاستدلال: بيَّن شرَفَ هذا الكتابِ الكريم، ونهايةَ منفعتِه، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾؛ وهو القرآنُ(٢).

ولمَّا أخبَر تعالى عن خسارتِهم في الآخرةِ، ذكَر أنَّه أزاح عِلَلَهم في الدنيا بإرسالِ الرُّسل، وإنزالِ الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا وصَف الكتابَ وذكَر المنتفِعَ به، تشوَّفتِ النفسُ إلى السؤال عن حالِ مَن لا يؤمِنُ به؛ وهم الجاحدون، فقال مشيرًا إلى أنَّ حالَهم في وقوفِهم عن المتابعةِ بعد العلمِ بصِدْقِه بعَجْزِهم عنه كحالِ مَن ينتظرُ أن يأتيَ مضمونُ وعيدِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٦٢).
(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٣).
(٣) محاسن التأويل (٥/ ٦٦).
(٤) نظم الدرر (٧/ ٤١١).

جملةُ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قوله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يثيرُ سؤالَ مَن يَسأل: فماذا يؤخِّرُهم عن التصديقِ بهذا الكتابِ الموصوف بتلك الصفاتِ؟ وهل أعظَمُ منه آيةً على صِدْقِ الرسول ﷺ؟ فكان قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ كالجوابِ عن هذا السؤالِ الذي يَجِيشُ في نفسِ السامع. والاستفهامُ إنكاريٌّ؛ ولذلك جاء بعده الاستثناءُ[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن إزاحةَ العلَّةِ بسببِ إنزال هذا الكتابِ المفصَّلِ الموجِبِ للهداية والرحمة، بيَّن بعده حالَ مَن كذَّب، فقال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾، والنظرُ هاهنا بمعنىٰ الانتظارِ والتوقُّع[(٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾

ولمَّا كان مدارُ القرآنِ علىٰ تقريرِ الأصول الأربع: التوحيد، والنبوَّة، والمَعاد، والعلم، وطال الكلامُ في إخبارِه سبحانه عن أوامرِه ونواهيه، وأفعالِه بأوليائه وأعدائه، الدالةِ علىٰ تمامِ القدرة والعلم، وختَم بأنَّ شركاءهم لا تُغنِي عنهم: علَّل ذلك بأنَّه الربُّ لا غيرُه، في سياقٍ دالٍّ علىٰ الوَحْدانيَّةِ التي هي أعظَمُ مقاصدِ السورة، كفيلٍ بإظهارِ الحُجَج عليها، وعلىٰ المَقصَدِ الثاني - وهو الإعادةُ التي فرَغ مِن تقريرِ أحوالها بالإبداء الذي تقرَّر في العقولِ أنَّه أشَدُّ مِن الإعادة - بأدلةٍ متكفِّلةٍ بتمامِ القدرةِ والعلم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٤).

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١).

جاءت أغراضُ هذه السورةِ متناسِبةً متماسِكة؛ فإنَّها ابتُدئت بذِكْرِ القرآن، والأمرِ باتِّباعِه، ونَبْذِ ما يصُدُّ عنه؛ وهو اتِّباعُ الشرك، ثم التذكيرِ بالأُمَمِ التي أعرَضتْ عن طاعةِ رُسلِ الله، ثم الاستدلالِ علىٰ وَحْدانيَّةِ الله، والامتنانِ بخَلْقِ الأرضِ والتمكينِ منها، وبخَلْقِ أصلِ البشَرِ وخَلْقِهم، وخُلِّل ذلك بالتذكيرِ بعداوةِ الشيطان لأصلِ البشَرِ، وللبشرِ، وانتُقِل مِن ذلك إلىٰ التنديدِ علىٰ المشركين فيما اتَّبَعوا فيه تسويلَ الشيطان، ثم بتذكيرِهم بالعهدِ الذي أخَذه اللهُ علىٰ البشرِ، وبأنَّ المشركين ظلَموا بنكْثِ العهدِ، وتوعَّدهم وذكَّرهم أحوالَ أهلِ الآخرة، وعَقِبَ ذلك عادَ إلىٰ ذِكْرِ القرآنِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وأنهاه بالتذييلِ بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ فلا جرَمَ تهيَّأتِ الأسماعُ والقلوب لتلقِّي الحُجَّةِ علىٰ أنَّ اللهَ إلهٌ واحد، وأنَّ آلهةَ المشركين ضلالٌ وباطل، ثم لبيانِ عظيمِ قُدْرتِه ومجدِه؛ فلذلك استؤنف بجملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ، استئنافًا ابتدائيًّا، عاد به التذكيرُ إلىٰ صدرِ السورةِ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، فكان ما في صدرِ السورةِ بمنزلة المطلوبِ المنطقيِّ، وكان ما بعده بمنزلةِ البرهانِ، وكان قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ بمنزلةِ النتيجةِ للبرهان، والنتيجةُ مساوِيةٌ للمطلوبِ، إلا أنَّها تؤخَذُ أوضَحَ وأشَدَّ تفصيلًا (٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أشياءَ مِن مبدأِ خَلْقِ الإنسانِ، وأمرِ بَنِيهِ، وانقسامٍ إلىٰ مؤمنٍ وكافر، وذكَر مَعادَهم وحَشْرَهم إلىٰ جنَّةٍ ونار: ذكَر مبدأَ العالَمِ واختراعَه، والتنبيهَ علىٰ الدلائلِ الدالةِ علىٰ التوحيد، وكمالِ القدرة والعلم والقضاء، ثم بعدُ إلىٰ النبوَّةِ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٥٨-١٥٩).

والرسالة؛ إذ مدارُ القرآنِ علىٰ تقريرِ المسائل الأربعِ: التوحيد، والقدرة، والمَعاد، والنبوَّة، و«ربكم»: خطابٌ عامٌّ للمؤمنِ والكافر(١).

اعلَمْ أنَّا بيَّنَّا أنَّ مدارَ أمرِ القرآن علىٰ تقديرِ هذه المسائلِ الأربع؛ وهي: التوحيدُ، والنبوَّة، والمَعاد، والقضاءُ والقَدَر، ولا شكَّ أنَّ مدارَ إثباتِ المَعاد علىٰ إثباتِ التوحيد والقدرة والعلم، فلمَّا بالَغ اللهُ تعالىٰ في تقريرِ أمرِ المَعاد، عاد إلىٰ ذِكْرِ الدلائلِ الدالة علىٰ التوحيدِ، وكمالِ القدرة والعلم؛ لتَصِيرَ تلك الدلائلُ مقرِّرةً لأصولِ التوحيد، ومقرِّرةً أيضًا لإثبات المَعاد(٢).

ولمَّا قدَّم سبحانه ذِكْرَ الكفارِ، وعبادتهم غيرَه سبحانه: احتَجَّ عليهم مبيِّنًا بأفعالِه أنَّه لا معبودَ سِواه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(٣).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ شروعٌ في بيانِ مبدأِ الفطرة إثْرَ بيانِ مَعادِ الكفرة(٤).

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ تفرُّدَه بالخَلْقِ والأمر، المقتضيَ لتفرُّدِه بالعبادةِ؛ للتوجيهِ إلىٰ تحصيلِ المعارفِ النَّفْسانية، والعلومِ الحقيقية: أمَر بهذا المقتضىٰ اللائقِ بتلك المعارفِ؛ وهو الدعاءُ، «الذي هو مُخُّ العبادةِ»(٥)، فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٦).

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٦٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٥٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٦٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٦).

(٦) نظم الدرر (٧/ ٤١٨).

استئنافٌ جاء معترِضًا بَيْنَ ذِكْرِ دلائلِ وَحْدانيَّة اللهِ تعالىٰ بذِكْرِ عظيمِ قُدْرتِه علىٰ تكوينِ أشياءَ لا يشارِكُه غيرُه في تكوينها؛ فالجملةُ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وجملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، جرىٰ هذا الاعتراضُ علىٰ عادةِ القرآن في انتهازِ فُرَصِ تهيُّؤِ القلوب للذكرىٰ[1].

لمَّا عرَّف تعالىٰ عبادَه بنفسِه، وأنَّه ربُّهم الحقُّ وإلهُهم، وأنَّه الخالقُ الآمِرُ المتصرِّفُ بيدِه كلُّ شيءٍ: أمَرهم إرشادًا لهم أن يَدْعوه، وبيَّن لهم الحالَ التي يَدْعونه عليها؛ ليستجيبَ لهم، فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[2].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ الدلائلَ الدالةَ علىٰ كمالِ القدرة والحكمة؛ ليُفرِدوه بالألوهيَّةِ: أمَرهم بأن يَدْعوه وَحْدَه متذلِّلين مخلِصين، فقال سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[3].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ولمَّا كان ذلك مِن الوفاءِ بحقِّ الرُّبوبية والقيامِ بحقِّ العبودية مقتضيًا للصَّلاحِ، أمَر بإدامتِه؛ بالنَّهيِ عن ضدِّه في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[4].

عُطِف النَّهيُ عن الفسادِ في الأرض علىٰ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عطفًا علىٰ طريقةِ الاعتراض؛ فإنَّ الكلامَ لمَّا أنبأ عن عنايةِ الله بالمسلمين، وتقريبه إيَّاهم؛ إذ أمَرهم بأن يَدْعوه، وشرَّفهم بذلك العنوانِ العظيم في قوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾، وعرَّض لهم

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٠-١٧١).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ١٨٢).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ١٠١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٤١٩).

بمحبَّتِه إيَّاهم دُونَ أعدائهم المعتدِين: أعقَبه بما يحُولُ بَيْنَهم وبين الإدلالِ علىٰ اللهِ بالاسترسالِ فيما تُملِيه عليهم شهَواتُهم مِن ثَورانِ القوَّتينِ الشَّهْويةِ والغضَبيَّة؛ فإنَّهما تَجنيانِ فسادًا في الغالبِ، فذكَّرهم بتركِ الإفسادِ؛ ليكونَ صلاحُهم منزَّهًا عن أن يخالِطَه فسادٌ؛ فإنَّهم إن أفسَدوا في الأرض، أفسَدوا مخلوقاتٍ كثيرةً، وأفسَدوا أنفسَهم في ضمنِ ذلك الإفسادِ، فأشبَه موقعَ الاحتراسِ، وكذلك دأبُ القرآنِ؛ أن يُعقِبَ التَّرغيبَ بالتَّرهيب، وبالعكسِ؛ لئلا يقعَ الناسُ في اليأسِ، أو الأمن[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾

ولمَّا كان دوامُ الصَّلاح لا يكونُ إلا بالغيثِ، وهو مِن أجلِّ أنواعِ الرحمة، وهو لا يكون إلا بالسَّحابِ، وهو لا يكون إلا بالريحِ: قال تعالىٰ عاطفًا علىٰ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تنبيهًا بعد تحقيقِ المبدأ علىٰ تحقيقِ المَعاد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[(٢)].

جملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وقد حصَلتِ المناسبةُ بَيْنَ آخِرِ الجُمَلِ المعترِضة، وبين الجملةِ المعترَضِ بينها، وبين ما عُطِفتْ عليه؛ بأنَّه لمَّا ذكَر قُرْبَ رحمتِه مِن المحسِنين، ذكَر بعضًا مِن رحمتِه العامةِ؛

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٣).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٢١).

وهو المطرُ؛ فذِكْرُ إرسالِ الرياح هو المقصودُ الأهم؛ لأنَّه دليلٌ علىٰ عِظَمِ القدرة والتدبير؛ ولذلك جعَلْناه معطوفًا علىٰ جملة ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، أو علىٰ جملة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(١).

في كيفيةِ النَّظم وجهانِ: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر دلائلَ الإلهيَّة، وكمالَ العلمِ والقدرة مِن العالَمِ العُلْوي؛ وهو السماوات، والشمس، والقمر، والنجوم: أتبَعه بذِكْرِ الدلائلِ مِن بعضِ أحوال العالم السُّفْلي، واعلَمْ أنَّ أحوالَ هذا العالَمِ محصورةٌ في أمورٍ أربعة: الآثار العُلْوية، والمعادن، والنبات، والحيوان، ومِن جملةِ الآثار العُلْوية: الرياح، والسحاب، والأمطار، ويَترتَّبُ علىٰ نزولِ الأمطارِ أحوالُ النبات، وذلك هو المذكورُ في هذه الآيةِ. الوجهُ الثاني في تقريرِ النَّظم: أنَّه تعالىٰ لمَّا أقام الدَّلالةَ في الآيةِ الأُولىٰ علىٰ وجودِ الإلهِ القادر العالِمِ الحكيم الرحيم، أقام الدلالةَ في هذه الآيةِ علىٰ صحةِ القول بالحشرِ والنَّشر، والبعث والقيامة؛ ليحصُلَ بمعرفةِ هاتين الآيتين كلُّ ما يُحتاجُ إليه في معرفةِ المبدأ والمَعاد(٢).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه خالِقُ السماواتِ والأرض، وأنَّه المتصرِّفُ الحاكم المدبِّر المسخِّر، وأرشَد إلىٰ دعائه؛ لأنَّه علىٰ ما يشاءُ قديرٌ: نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّه الرزَّاقُ، وأنَّه يُعيدُ الموتىٰ يومَ القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ١٠٥).

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ولمَّا كان الموت موتين: حِسيًّا، ومعنويًّا، كان كأنَّه قيل: لا فرقَ في ذلك عندنا بَيْنَ أمواتِ الإيمان، وأمواتِ الأبدان؛ فكما أنَّا فاوَتْنا بَيْنَ جواهرِ الأراضي بخَلْقِ بعضِها جيدًا، وبعضِها رديئًا: كذلك فاوَتْنا بَيْنَ عناصرِ الأناسيِّ بجَعْلِ بعضِها طيِّبًا، وبعضِها خبيثًا؛ فالجيدُ العنصرِ يسهُلُ إيمانُه، والخبيثُ الأصلِ يعسُرُ إذعانُه، وتبعُدُ استقامتُه وإيقانُـــــه؛ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[(١)].

جملةٌ معترِضة بَيْنَ جملة ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وبين جملة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، تتضمَّنُ تفصيلًا لمضمونِ جملة ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ إذ قد بيَّن فيها اختلافَ حالِ البلد الذي يصيبُه ماءُ السَّحاب، دعا إلىٰ هذا التَّفصيلِ: أنَّه لمَّا مُثِّل إخراجُ ثمراتِ الأرض بإخراجِ الموتىٰ منها يومَ البعثِ تذكيرًا بذلك للمؤمنين، وإبطالًا لإحالةِ البعث عند المشركين: مُثِّل هنا باختلافِ حالِ إخراج النبات مِن الأرضِ اختلافُ حالِ الناس الأحياء في الانتفاعِ برحمةِ هدىٰ الله؛ فموقعُ قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ كموقعِ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ ولذلك ذُيِّل هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾؛ كما ذُيِّل ما قبله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٤).

لمَّا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، تمَّم هذا المعنىٰ بكيفيةِ ما يخرُجُ مِن النباتِ مِن الأرضِ الكريمة، والأرضِ السَّبِخةِ؛ وتلك عادةُ اللهِ في إنباتِ الأرَضِين[1].

ثم ذكَر تفاوُتَ الأراضي التي يَنزِلُ عليها المطرُ، فقال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[2].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

ولمَّا طال تهديدُه سبحانه لِمَن أصرَّ علىٰ إفسادِه، ولم يَرجِعْ عن غَيِّه وعنادِه، بمثلِ مَصارعِ الأوَّلين، ومهالكِ الماضين، ونوَّع في هذه الآياتِ محاسنَ الدَّلالاتِ علىٰ التوحيدِ والمَعاد بوجوهٍ ظاهرة، وبيناتٍ قاهرة، وبراهينَ قاطعة، وحُجَجٍ ساطعة: ساقَ سبحانه تلك القِصَصَ دليلًا حسيًّا علىٰ أنَّ في الناسِ الخبيثَ والطيِّبَ، مع الكفالةِ في الدَّلالةِ علىٰ تمام القدرةِ، والغَيْرةِ مِن الشركِ؛ بتفصيلِ أحوالِ مَن سلَفتِ الإشارةُ إلىٰ إهلاكهم، وبيانِ مَصارعِهم، وأنَّه لم تُغْنِ عنهم قوَّتُهم شيئًا ولا كثرتُهم، بقولِه تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾، وقولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ الآيةَ؛ تسليةً للنبيِّ ﷺ، وتقويةً لصالحي أتباعِه؛ بالتنبيهِ علىٰ أنَّ الإعراضَ عن الآيات ليس مِن خواصِّ هذه الأمَّةِ، بل هي عادةُ الأُمَم السَّالفة، وعلىٰ أنَّ النِّعَمَ خاصةٌ بالشاكرين؛ ولذا كانت النِّقَمُ مقصورةً علىٰ الكافرين، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٧٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٩٢).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٢٥).

استئنافٌ انتقَل به الغرضُ مِن إقامةِ الحُجَّةِ والمنَّةِ المبتدِئة بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وتنبيهِ أهلِ الضَّلالة أنَّهم غارقون في كيدِ الشيطان، الذي هو عدوُّ نوعِهم مِن قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، ثم بالتهديدِ بوصفِ عذاب الآخرة، وأحوالِ النَّاس فيه، وما تخلَّل ذلك مِن الأمثالِ والتعريض: إلىٰ غرضِ الاعتبارِ والموعظة بما حَلَّ بالأُمَم الماضية. فهذا الاستئنافُ له مزيدُ اتصالٍ بقولِه في أوائلِ السورة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ الآيةَ، وقد أُفيضَ القولُ فيه في معظمِ السورةِ، وتَتبَعُ هذا الاعتبارَ أغراضٌ أخرىٰ؛ وهي: تسليةُ الرسولِ ﷺ، وتعليمُ أمَّتِه بتاريخِ الأُمَمِ التي قبلها مِن الأمم المرسَلِ إليهم[(١)].

لمَّا ذكَر في هذه السورةِ مبدأَ الخَلْقِ الإنساني؛ وهو آدمُ عليه السلام، وقَصَّ مِن أخبارِه ما قصَّ، واستطرَد مِن ذلك إلىٰ المَعادِ، ومصيرِ أهلِ السعادة إلىٰ الجنَّة، وأهلِ الشقاوة إلىٰ النار، وأمَره تعالىٰ بتَرْكِ الذين اتخَذوا دِينَهم لعبًا ولهوًا، وكان مَن بُعِث إليهم رسولُ الله ﷺ أولًا غيرَ مستجيبينَ له، ولا مصدِّقِينَ لِما جاء به عن اللهِ: قَصَّ تعالىٰ عليه أحوالَ الرُّسلِ الذين كانوا قبله، وأحوالَ مَن بُعِثوا إليه علىٰ سبيلِ التسليةِ له ﷺ، والتأسِّي بهم[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في تقريرِ المبدأِ والمَعاد دلائلَ ظاهرةً، وبيناتٍ قاهرة، وبراهينَ باهرة: أتبَعها بذِكْرِ قِصَصِ الأنبياء عليهم السلام، وفيه فوائدُ: أحدها: التنبيهُ علىٰ أنَّ إعراضَ الناس عن قَبولِ هذه الدلائلِ والبينات ليس مِن خواصِّ قومِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، بل هذه العادةُ المذمومة كانت حاصلةً في جميعِ الأُمَمِ السالفة، والمصيبةُ إذا عمَّتْ

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٧).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٨١).

خفَّتْ؛ فكان ذِكْرُ قِصَصِهم وحكايةُ إصرارِهم على الجهلِ والعناد يفيدُ تسليةَ الرسول ﷺ، وتخفيفَ ذلك على قلبِه. وثانيها: أنَّه تعالى يحكي في هذه القِصَصِ أنَّ عاقبةَ أمرِ أولئك المنكِرين كان إلى الكفرِ واللَّعْنِ في الدنيا، والخسارةِ في الآخرة، وعاقبةُ أمرِ المُحقِّينَ إلى الدولةِ في الدنيا، والسعادةِ في الآخرة؛ وذلك يقوِّي قلوبَ المحقِّين، ويَكسِر قلوبَ المُبطِلين. وثالثها: التنبيهُ على أنَّه تعالى وإن كان يُمهِلُ هؤلاء المُبطِلين، ولكنَّه لا يُهمِلُهم؛ بل ينتقِمُ منهم على أكملِ الوجوه. ورابعها: بيانُ أنَّ هذه القِصَصَ دالَّةٌ على نبوَّةِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّه ﷺ كان أمِّيًّا، وما طالَع كتابًا، ولا تَلْمَذَ على أستاذٍ؛ فإذا ذكَر هذه القِصَصَ على الوجهِ مِن غيرِ تحريفٍ ولا خطأ، دَلَّ ذلك على أنَّه إنَّما عرَفها بالوحيِ مِن الله؛ وذلك يدلُّ على صحَّةِ نبوَّته ﷺ[(١)].

لمَّا ذكَر تعالى مِن أدلةِ توحيدِه جملةً صالحة، أيَّد ذلك بذِكرِ ما جرَى للأنبياءِ الداعين إلى توحيدِه مع أُمَمِهم المنكِرين لذلك، وكيف أيَّد اللهُ أهلَ التوحيد، وأهلَك مَن عانَدهم ولم يَنقَدْ لهم، وكيف اتفقَتْ دعوةُ المرسَلين على دِينٍ واحد، ومعتقَدٍ واحد[(٢)].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

ولمَّا تمَّ ذلك، وكان الحالُ مقتضيًا - مع ما نُصِب مِن الأدلةِ الواضحة على الوَحْدانيَّةِ - لأن يُجِيبوا بالتَّصديقِ: كان كأنَّه قيل: فبماذا كان جوابُهم؟ فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٩٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٩٢).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٢٥).

فُصِلت جملةُ ﴿قَالَ﴾ علىٰ طريقةِ الفصلِ في المحاوَرات، واقترَن جوابُهم بحرفِ التأكيد؛ للدَّلالةِ علىٰ أنَّهم حقَّقوا وأكَّدوا اعتقادَهم أنَّ نوحًا منغمِسٌ في الضَّلالة(١).

ثم إنَّه تعالىٰ حكىٰ ما ذكَره في قومِه، فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ قوله عليه السلام، كأنَّه قيل: فماذا قالوا له عليه السلام في مقابَلةِ نُصْحِه؟ فقيل: قال الرؤساءُ مِن قومِه، والأشرافُ الذين يملؤون صدورَ المحافلِ بأَجْرامِهم، والقلوبَ بجَلالِهم وهَيْبتِهم، والأبصارَ بجَمالِهم وأُبَّهتِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾

ولمَّا قذَفوه بضلالٍ مقيَّدٍ بالوضوح، نفىٰ الضَّلالَ المطلَق الذي هو الأعمُّ؛ وبنفيِه ينتفي كلُّ أخصِّياتِه، بل نفىٰ أقلَّ شيءٍ مِن الضَّلال، فقال تعالىٰ مخبِرًا عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

فُصِلت جملةُ ﴿قَالَ﴾ علىٰ طريقةِ فصلِ المحاوَرات. والنداءُ في جوابِه إيَّاهم؛ للاهتمامِ بالخبَرِ، ولم يخُصَّ خطابَه بالذين جاوَبوه، بل أعاد الخطابَ إلىٰ القومِ كلِّهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٩٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٥).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٢).

لم يَرِدِ النَّفيُ منه على لفظِ ما قالوه؛ فلم يأتِ التركيبُ: لستُ في ضلالٍ مُبين، بل جاء في غايةِ الحُسْنِ؛ مِن نفيِ أن يلتبِسَ به ويختلِطَ ضلالةٌ ما واحدةٌ؛ فأنَّىٰ يكونُ في ضلالٍ؟! فهذا أبلَغُ مِن الانتفاء مِن الضَّلال؛ إذ لم يعتلِقْ به ولا ضلالةٌ واحدة، وفي ندائِه لهم ثانيًا، والإعراضِ عن جفائهم: ما يدلُّ علىٰ سَعةِ صدرِه، والتَّلطُّفِ بهم[1].

ولمَّا ذكَروا هذا الكلامَ، أجاب نوحٌ عليه السلام بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾[2].

فرَدَّ نوحٌ عليه السلام عليهم ردًّا لطيفًا، وترقَّق لهم لعلَّهم ينقادون له، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم استأنَف الإخبارَ عن وظيفتِه بيانًا لرسالته، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

جملةُ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ صفةٌ لـ «رسول»، أو مستأنَفةٌ؛ والمقصودُ منها: إفادةُ التجدُّد، وأنَّه غيرُ تاركٍ التَّبليغَ مِن أجلِ تكذيبهم؛ تأييسًا لهم مِن متابَعتِه إيَّاهم، ولولا هذا المقصدُ، لكان معنىٰ هذه الجملةِ حاصلًا مِن معنىٰ قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾؛ ولذلك جمَع الرسالاتِ؛ لأنَّ كلَّ تبليغٍ يتضمَّنُ رسالةً بما بلَّغه، ثم إن اعتُبِرتْ جملةُ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ صفةً، يكُنِ العدولُ عن ضميرِ الغَيْبةِ إلىٰ ضمير التكلُّم في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّي﴾: التفاتًا؛ باعتبارِ كونِ الموصوف خبرًا عن ضميرِ المتكلم، وإن اعتُبِرت استئنافًا، فلا التفاتَ[5].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٨٢-٨٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٩٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٩٢).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٤٢٩).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٣).

لمَّا نفَىٰ عن نفسِه العيبَ الذي وصَفوه به، ووصَف نفسَه بأشرَفِ الصفاتِ وأجَلِّها؛ وهو كونُه رسولًا إلىٰ الخَلْقِ مِن ربِّ العالَمين: ذكَر ما هو المقصودُ مِن الرسالة؛ وهو أمرانِ: الأول: تبليغُ الرسالة. والثاني: تقريرُ النصيحة. فقال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾[(١)].

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ رسالته، وتفصيلِ أحكامها وأحوالها[(٢)].

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) ﴾

ولمَّا كان الحاملُ لهم علىٰ هذا مجرَّدَ استبعادِ أن يختصَّ عنهم بفضيلةٍ وهو منهم - كما سيأتي في غيرِ هذه السورةِ - أنكَر ذلك عليهم بقولِه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾؛ أي: أكذَّبْتم وعَجِبْتم ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[(٣)].

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ بمنزلةِ المنعِ لقضيةِ قولِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾؛ لأنَّ قولَهم ذلك بمنزلةِ مقدِّمةِ دليلٍ علىٰ بطلانِ ما يَدْعوهم إليه[(٤)].

اعلَمْ أنَّ قولَه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ مرادَ القوم مِن قولِهم لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾: هو أنَّهم نسَبوه في ادعاءِ النبوَّة إلىٰ الضَّلال[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٩٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٦).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٥).

(٥) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٩٧).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا نسَبوه أولًا إلىٰ الضَّلالِ؛ وهو قد يكون خطأً عن ذهولٍ ونحوِه، فأقام لهم الدَّليلَ علىٰ أنَّه علىٰ الصَّوابِ: أخبَر أنَّه لم يَتسبَّب عن ذلك إلا تصريحُهم بما لوَّحوا إليه أولًا بالضَّلالِ مِن التَّكذيب، فقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾(١).

وقَع التَّكذيبُ مِن جميعِ قومه؛ مِن قادتِهم، ودَهْمائهم، عدا بعضِ أهلِ بيته، ومَن آمَن به عَقِبَ سماعِ قولِ نوح عليه السلام، فعُطِف علىٰ كلامِه بالفاء؛ أي: صدَر منهم قولٌ يقتضي تكذيبَ دعوىٰ أنَّه رسولٌ مِن ربِّ العالَمين، يبلِّغُ ويَنصَح ويَعلَم ما لا يعلمون؛ فصار تكذيبًا أعمَّ مِن التَّكذيبِ الأول؛ فهو بالنسبةِ للملأِ يؤُولُ إلىٰ معنىٰ الاستمرارِ علىٰ التَّكذيب، وبالنسبةِ للعامة تكذيبٌ أُنُفٌ بعد سماعِ قول قادتِهم، وانتهاءِ المجادَلة بيْنَهم وبين نوحٍ عليه السلام(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّهم مع ذلك كذَّبوه في ادعاءِ النبوَّة، وتبليغِ التَّكاليف مِن الله، وأصَرُّوا علىٰ ذلك التَّكذيبِ، ثم إنَّه تعالىٰ أنجاه في الفُلْكِ، وأنجىٰ مَن كان معه مِن المؤمنين، وأغرَق الكفارَ والمكذِّبين(٣).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٩٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٩٨).

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كان عادٌ بعدَهم، ولم يكُنْ هنا ما يقتضي تشويشَ الترتيبِ: أتبَعهم بهم مقدِّمًا المرسَلَ إليه؛ ليُفيدَ تخصيصَ رسالتِه بهم، وهم بعضُ أهل الأرض، فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

يجوزُ أن يكونَ العطفُ مِن عطفِ الجُمَلِ؛ بأن يُقدَّرَ بعد واوِ العطف «أرسلنا»؛ لدَلالةِ حرفِ «إلىٰ» عليه، مع دَلالةِ سَبْقِ نظيرِه في الجملةِ المعطوفِ عليها؛ والتَّقديرُ: وأرسَلْنا إلىٰ عادٍ، فتكونَ الواوُ لمجردِ الجمعِ اللفظي، مِن عطفِ القصَّةِ على القصة، وليس مِن عطفِ المفرَدات، ويجوزُ أن يكونَ مِن عطفِ المفرَدات: عطَفتِ الواوُ «هودًا» علىٰ «نوحًا»؛ فتكونَ الواوُ نائبةً عن العاملِ؛ وهو «أرسلنا»؛ والتَّقدير: لقد أرسَلْنا نوحًا إلىٰ قومِه، وهودًا أخا عادٍ إليهم، وقُدِّمت «إلىٰ»؛ فهو مِن العطفِ علىٰ معمولَيْ عاملٍ واحد، وتقديمُ «إلىٰ» اقتضاه حُسْنُ نَظْمِ الكلامِ في عَوْدِ الضَّمائر، والوجهُ الأول أحسَن[2].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ جوابِهم بعد هذا الترغيبِ الممزوج بالترهيب، أُجيبَ بقوله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٠).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٣٤).

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّا قابَلوا لِينَتَهُ لهم وشفقتَهُ عليهم بهذه الغِلْظةِ، أعرَض عن ذلك، وعامَلهم مِن الحِلْمِ بضدِّ ما سمَّوْهُ به؛ بأن ﴿ قَالَ ﴾ معلِّمًا الأدبَ في مخاطَبةِ السفهاء: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(1).

فُصِلت جملةُ ﴿ قَالَ ﴾؛ لأنَّها على طريقةِ المحاوَرة(2).

لمَّا قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، فهو لم يقابِلْ سفاهتَهم بالسفاهةِ، بل قابَلها بالحِلْمِ والإغضاء، ولم يَزِدْ على قوله: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾؛ وذلك يدل على أنَّ تَرْكَ الانتقامِ أَوْلى(3).

فأجاب هودٌ عليه السلام رادًّا شُبْهتَهم، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(4).

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ استئنافٌ سِيقَ لتقريرِ رسالتِه، وتفصيلِ أحوالها(5).

ثم استأنَف الإخبارَ عن وظيفتِه بيانًا لرسالتِه، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

---

(1) نظم الدرر (٧/ ٤٣٦).

(2) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٣).

(3) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٠١).

(4) أيسر التفاسير (٢/ ١٩١).

(5) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٨).

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ولمَّا كان يَعرِفُ ما يعتقدونه مِن أمانتِه وعقلِه، وظنَّ أنَّه ما حمَلهم علىٰ هذا إلا العجَبُ مِن أن يطَّلِعَ علىٰ ما لم يطَّلعوا عليه: أنكَر عليهم ذلك ذاكرًا لِما ظنَّه حاملًا لهم، ملوِّحًا بالعطفِ إلىٰ التَّكذيب، فقال: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾(١).

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ بمنزلةِ المنعِ لقضيةِ قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾؛ لأنَّ قولَهم ذلك بمنزلةِ مقدِّمةِ دليلٍ علىٰ بطلانِ ما يَدْعوهم إليه.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا منه موجِبًا ولا بد لكلِّ سامعٍ مُنصِف مِن المبادَرة إلىٰ الإذعانِ لهذه الحُجَّةِ القطعيَّة؛ وهي استحقاقُه للإفرادِ بالعبادة؛ للتفرُّدِ بالإنعام: ازداد تشوُّفُ المخاطَبِ إلىٰ جوابهم، فأُجيبَ بقوله: ﴿ قَالُوا ﴾ منكِرين عليه، معتمِدين علىٰ محضِ التَّقليدِ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢).

جاوَبوا هودًا عليه السلام بما أنبأ عن ضياعِ حُجَّتِه في جَنْبِ ضَلالةِ عقولهم، ومكابَرة نفوسهم؛ ولذلك أعادوا تكذيبَه بطريقِ الاستفهام الإنكاريِّ علىٰ دعوتِه للتَّوحيدِ،

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٣٧).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٤٠).

وهـذا الجـوابُ أقـلُّ جَفْـوةً وغِلْظـةً مِـن جـوابِهم الأول؛ إذ قـالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، كـأنَّهم رامُـوا استنزالَ نفسِ هـودٍ، ومحاولـةَ إرجاعِه عمَّا دعَاهم إليـه؛ فلـذلك اقتصَروا علىٰ الإنكـارِ، وذكَّروه بـأنَّ الأمـرَ الـذي أنكَره هو دِينُ آباءِ الجميع؛ تعريضًا بأنَّه سفَّه آباءَه[(١)].

اعلَـمْ أنَّ هـودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دعَـا قومَـه إلىٰ التوحيـدِ وتَـرْكِ عبـادةِ الأصـنام بالـدليلِ القـاطع؛ وذلك لأنَّه بيَّن أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهم كثيرةٌ عظيمة، وصـريحُ العقـل يـدل علىٰ أنَّـه لـيس للأصنامِ شيءٌ مِن النِّعَمِ علىٰ الخَلْقِ؛ لأنَّها جماداتٌ، والجمادُ لا قُدْرةَ له علىٰ شـيءٍ أصلًا، وظاهرٌ أنَّ العبادةَ نهايةُ التعظيم، ونهايـةُ التعظـيم لا تَلِيقُ إلا بمَـن يصـدُرُ عنه نهايةُ الإنعام؛ وذلك يدل علىٰ أنَّه يجبُ عليهم أن يعبُدوا الله، وألا يعبُـدوا شـيئًا مِـن الأصنامِ، ومقصودُ اللهِ تعـالىٰ مِـن ذِكْـرِ أقسـامِ إنعامـه علـىٰ العبيـدِ هـذه الحُجَّةُ التي ذكَرها، ثم إنَّ هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا ذكَر هذه الحجةَ اليقينيَّة، لم يكُنْ مِن القـومِ جـوابٌ عـن هذه الحجـةِ التي ذكَرها إلا التمسُّكُ بطريقةِ التقليد، فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[(٢)].

ثم أخبَر تعالىٰ عن تمرُّدِ عادٍ، وطغيانِهم، وإنكارِهم علىٰ هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بقوله سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٠٢).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ١١٧).

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧١﴾

ولمَّا كانوا قد بالَغوا في السَّفَهِ في هذا القولِ، وكان قد عُلِم مِن محاوَرتِه ﷺ لهم الحِلْمُ عنهم: اشتَدَّ التَّطلُّعُ إلى ما يكونُ مِن جوابِه لهذا، والتَّوقُّعُ له، فشفَى غليلَ هذا التَّشوُّفِ بقولِه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[(١)].

وعقَّبوا كلامَهم بالشرطِ، فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استقصاءً لمقدرتِه؛ قصدًا منهم لإظهارِ عَجْزِه عن الإتيانِ بالعذاب، فلا يسَعُه إلا الاعترافُ بأنَّه كاذبٌ، وجوابُ الشَّرط محذوفٌ، دلَّ عليه ما قبله؛ تقديره: أتيتَ به، وإلا فلستَ بصادقٍ، فأجابهم بأن أخبَرهم بأنَّ اللهَ قد غضِب عليهم، وأنَّهم وقَع عليهم رِجْسٌ مِن الله[(٢)].

ثم حكى اللهُ تعالى عن هودٍ عليه السلام أنَّه قال عند هذا الكلامِ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾[(٣)].

فرَدَّ هودٌ عليه السلام على قولِهم هذا قائلًا: «قد وقَع عليكم رِجْسٌ»؛ أي: سخَطٌ وغضَبٌ مِن اللهِ تعالى، وأنَّ عذابَكم لذلك أصبَح متوقَّعًا في كلِّ يومٍ؛ فانتظِروا ما سيحُلُّ بكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٠٣).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٩٣).

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا ينبغي أن يكونَ سببًا للتَّصديقِ الذي هو سببُ الرحمةِ، بيَّن أنَّه إنَّما سبَّب لهم العذابَ، وله ولِمَن تَبِعه النَّجاةَ؛ فبدأ بالمؤمنين اهتمامًا بشأنِهم بقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[1].

الفاءُ للتَّعقيب؛ أي: فعجَّل اللهُ استئصالَ عادٍ، ونجَّىٰ هودًا والذين معه؛ أي: المؤمنين مِن قومِه، فالمعقَّبُ به هو قطعُ دابرِ عادٍ، وكان مقتضىٰ الظَّاهرِ أن يكونَ النَّظْمُ هكذا: فقطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا إلخ، ونجَّيْنا هودًا إلخ، ولكن جرَىٰ النَّظْمُ علىٰ خلافِ مقتضىٰ الظَّاهرِ؛ للاهتمامِ بتعجيل الإخبارِ بنجاةِ هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَن آمَن معه[2].

ثم إنَّه تعالىٰ أخبَر عن عاقبةِ هذه الواقعةِ، فقال: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾؛ إذ كانوا مستحِقِّين للرحمةِ بسببِ إيمانهم، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ ﴾ بالآياتِ التي جعَلْناها مُعجِزةً لهودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ والمرادُ: أنَّه تعالىٰ أنزَل عليهم عذابَ الاستئصالِ الذي هو الريحُ[3].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه ما أراد مِن قصَّةِ عادٍ، أتبَعهم ثمودَ، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢١٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٠٤).

هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عطفٌ علىٰ ما سبَق مِن قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، موافِقٌ له في تقديمِ المجرورِ علىٰ المنصوب[2].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

ولمَّا أمَرهم ونهاهم، ذكَر لهم ترغيبًا مشيرًا إلىٰ ترهيبٍ، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3].

ذكَّر صالحٌ قومَه بما ذكَّر به هودٌ قومَه؛ فذكَر أولًا نِعَمًا خاصةً؛ وهي جَعْلُهم خلفاءَ بعد الأمَّةِ التي سبقَتْهم، وذكَر هودٌ لقومِه ما اختَصُّوا به مِن زيادةِ البَسْطةِ في الخَلْقِ، وذكَر صالحٌ لقومِه ما اختَصُّوا به مِن اتخاذِ القصورِ مِن السهول، ونَحْتِ الجبالِ بيوتًا، ثم ذكَرا نِعَمًا عامةً بقولِهما: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٤٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٤١).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٤٥).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٩٣).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ولمَّا حصَل الالتفاتُ إلىٰ جوابِهم، قيل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١).

عدَلَ الملأُ الذين استكبَروا عن مجادَلةِ صالحٍ عليه السلام إلىٰ اختبارِ تصلُّبِ الذين آمَنوا به في إيمانِهم، ومحاوَلةِ إلقاء الشكِّ في نفوسهم، ولمَّا كان خطابُهم للمؤمنين مقصودًا به إفسادُ دعوةِ صالحٍ عليه السلام، كان خطابُهم بمنزلةِ المحاوَرةِ مع صالحٍ عليه السلام؛ فلذلك فُصِلت جملةُ حكايةِ قولِهم علىٰ طريقةِ فصلِ جُمَلِ حكايةِ المحاوَرات(٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

ومراجَعةُ الذين استكبَروا بقولهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تدلُّ علىٰ تصلُّبِهم في كفرِهم، وثباتِهم فيه؛ إذ صِيغَ كلامُهم بالجملةِ الاسمية المؤكَّدة(٣).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أُعيدَ الموصولُ مع صلتِهِ مع كفايةِ الضَّمير؛ إيذانًا بأنَّهم قد قالوا ما قالوه بطريقِ العُتُوِّ والاستكبار(٤).

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

ثم سبَّب عن قولِهم قولَه: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٤٣).

(٥) نظم الدرر (٧/ ٤٤٧).

الفاءُ للتعقيبِ لحكايةِ قولِ الذين استكبَروا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: قالوا ذلك فعقَروا، والتعقيبُ في كلِّ شيءٍ بحسَبِه؛ وذلك أنَّهم حين قالوا ذلك، كانوا قد صدَعوا بالتَّكذيبِ، وصمَّموا عليه، وعجَزوا عن المُحاجَّةِ والاستدلال، فعزَموا علىٰ المصيرِ إلىٰ النِّكايةِ والإغاظةِ لصالحٍ عليه السلام، ومَن آمَن به، ورسَموا لابتداءِ عملِهم أن يَعتدُوا علىٰ الناقةِ(١).

ما زال السياقُ في قَصَصِ صالحٍ عليه السلام؛ فإنَّه بعد تلك الدعوةِ الطويلة العريضة والمستكبِرون يرُدُّونها بصَلَفٍ وكِبْرياءَ، وطالَبوا بالآيةِ؛ لتدُلَّ علىٰ صِدْقِه، وأنَّه مِن المرسَلين، وأُوتُوا الناقةَ آيةً مُبصِرة، ولَجُّوا في الجدالِ والعناد، وأخيرًا تمالَؤوا علىٰ قتلِ الناقة، وعقَروها(٢).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾

ثم سبَّب عن عُتُوِّهم قولَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾(٣).

جملةُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ معترِضة بَيْنَ جملةِ ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾، وبَيْنَ جملة ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أُريدَ باعتراضِها التَّعجيلُ بالخبَرِ عن نفاذِ الوعيد فيهم بعَقِبِ عُتُوِّهم، فالتعقيبُ عُرْفيٌّ؛ أي: لم يكُنْ بَيْنَ العقْرِ وبين الرَّجْفةِ زمَنٌ طويل، كان بينهما ثلاثةُ أيام(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٤).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ١٩٧).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٤٩).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٦).

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ولمَّا أصابهم ذلك، سبَّب لهم الهجرةَ عن ديارِهم ديارِ السَّوءِ والغضَبِ واللَّعنة، فقال تعالىٰ إعلامًا لنا بذلك: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾(١).

الفاءُ في قولِه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ عاطفةٌ علىٰ جملةِ: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾، والتولِّي الانصرافُ عن فِراقٍ وغضَبٍ، ويطلق مجازًا علىٰ عدمِ الاكتراثِ بالشيء، وهو هنا يحتمِلُ أن يكونَ حقيقةً، فيكونَ المرادُ به أنَّه فارَق ديارَ قومِه حين عَلِم أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، فيكونَ التعقيبُ لقوله: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ تعقيبِ التولِّي عنهم وخطابِه إيَّاهم ألا يكونَ بعد أن تأخذَهم الرَّجْفةُ وأصبَحوا جاثِمين(٢).

ظاهرُ العطفِ بالفاء أنَّ هذا التولِّيَ كان بعد هلاكِهم، ومشاهَدةِ ما جرىٰ عليهم، فيكونُ الخطابُ علىٰ سبيلِ التفجُّعِ عليهم والتحسُّر؛ لكونِهم لم يؤمنوا فهلَكوا، والاغتمامِ لهم، وليَسمَعَ ذلك مَن كان معه مِن المسلمين، فيزدادوا إيمانًا، وانتفاءً عن معصيةِ الله، واقتضاءً لِما جاء به نبيُّه عن الله(٣).

ولمَّا هلَكوا، وقَف عليهم صالحٌ عليه السلام كالمودِّع؛ كما وقَف رسولُ الله ﷺ علىٰ أهلِ القَلِيبِ ببَدْرٍ، فناداهم: يا فلانُ، يا فلانُ؛ كذلك صالحٌ عليه وعلىٰ نبيِّنا الصلاةُ والسلام وقَف عليهم وهم خامدون، وقال كالراثي المتحسِّرِ: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾، وتولَّىٰ عنهم وانصرَف(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٨).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٩٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ١٩٨).

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه ما وفَّىٰ بمَقصَدِ هذه السورةِ في هذا السياقِ مِن قِصَّتِهم، أتبَعه مَن بعدَه ممَّن تَعرِفُه العربُ؛ كما فُعِل فيما قبلُ، فقال: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا أبهَم الفاحشةَ ليحصُلَ التَّشوُّفُ إلىٰ معرفتِها، عيَّنها في استفهامٍ آخرَ كالأولِ في إنكارِه وتوبيخه؛ ليكونَ أدلَّ علىٰ تَناهي الزَّجْرِ عنها، فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾(٢).

جملةُ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ مبيِّنةٌ لجملة ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾، والتَّأكيدُ- بإنَّ واللامِ- كنايةٌ عن التَّوبيخ؛ لأنَّه مبنيٌّ علىٰ تنزيلِهم منزلةَ مَن يُنكِرُ ذلك؛ لكونِهم مسترسلين عليه، غير سامعين لنهيِ النَّاهي(٣).

والجملةُ مستأنَفة مسُوقةٌ لتأكيدِ النَّكير، وتشديدِ التوبيخ والتقريع؛ فإنَّ مباشرةَ القُبْحِ قبيحٌ، واختراعَه أقبَحُ؛ فأنكَر تعالىٰ عليهم أولًا إتيانَ الفاحشة، ثم وبَّخهم بأنَّهم أولُ مَن عَمِلها، ثم استأنَف بيانَ تلك الفاحشةِ تأكيدًا للإنكارِ السابق، وتشديدًا للتوبيخِ بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٥٢).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢٣١).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ١٣٨).

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: هذا التَّقريعُ يوجِبُ غايةَ الاستحياء، بل إنَّه يُذهِبُ كلَّ مَن سَمِعه منهم إلىٰ مكانٍ لا يُعرَفُ فيه؛ سَتْرًا لحالِه، فيا ليتَ شِعْري ما كان حالُهم عنده! فقيل: كان كأنَّهم أجابوه بوقاحةٍ عظيمةٍ، وفجورٍ زائدٍ علىٰ الحدِّ؛ فما كان جوابَهم إلا أذىٰ لُوطٍ عليه السلام وآلِه بما استحَقُّوا منهم به شديدَ الإنذارِ، الذي هو مقصودُ السورة: عطَف عليه قولَه: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

عُطِفت جملة ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ علىٰ جملة ﴿قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ والتَّقدير: وإذ ما كان جوابَ قومِه إلا أن قالوا إلخ؛ والمعنىٰ: أنَّهم أُفحِموا عن ترويجِ شُنْعتِهم، والمجادَلةِ في شأنها، وابتدَروا بالتَّآمرِ علىٰ إخراجِ لوطٍ عليه السلام وأهلِه مِن القريةِ؛ لأنَّ لوطًا عليه السلام كان غريبًا بينهم، وقد أرادوا الاستراحةَ مِن إنكارِه عليهم، شأنُ مَن يشعُرون بفسادِ حالِهم، الممنوعين بشهَواتِهم عن الإقلاعِ عن سيِّئاتهم، المصمِّمين علىٰ مداوَمةِ ذُنوبهم؛ فإنَّ صدورَهم تَضِيقُ عن تحمُّلِ الموعظة، وأسماعَهم تَصَمُّ لقَبولها، ولم يزَلْ مِن شأنِ المنغمِسين في الهوىٰ تجهُّمُ حلولِ مَن لا يشارِكُهم بينهم[2].

لمَّا أنكَر عليهم الفاحشةَ، وعظَّم أمرَها، ونسَبهم إلىٰ الإسرافِ: بادَروا بشيءٍ لا تعلُّقَ له بكلامِه؛ وهو الأمرُ بالإخراج[3].

---

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٣٤).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٠١).

وبعدَ هذا الوعظِ والإرشاد إلىٰ سبيلِ النجاة، والخروجِ مِن هذه الورطةِ التي وقَع فيها هؤلاء القومُ المسرِفون؛ ما كان رَدَّهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾

ولمَّا تسبَّب عن عنادِهم إهلاكُهم وإنجاؤه، وكان الإعلامُ بإنجائه - مع كونِه يُفهِمُ إهلاكَهم - أهَمَّ: قال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾[2].

قولُه تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ تعقيبٌ لجملة ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾، أو لجملة ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾، وهذا التعقيبُ يؤذِنُ بأنَّ لوطًا عليه السلام أُرسِل إلىٰ قومِه قبل حلولِ العذاب بهم بزمَنٍ قليل[3].

ولمَّا هَمَّ قومُ لوطٍ بإخراجِه ونفيِهِ ومَن معه مِن بَيْنِ أظهُرِهم، أخرَجه اللهُ تعالىٰ سالِمًا، وأهلَكهم في أرضِهم صاغرين مُهانين؛ كما أشار لذلك بقولِه سبحانه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾[4].

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾

ولمَّا أفهَم هذا إهلاكَهم، بيَّنه دالًّا علىٰ نوعِه بقولِه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[5].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ١٩٩).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٢٣٦).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ١٤٢).

(٥) نظم الدرر (٧/ ٤٥٨).

📖 ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ 📖

ولمَّا انقضَتْ هذه القصَّةُ العجيبة في القَصَصِ، أعاد النَّسَقَ الأول، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾(١).

📖 ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ 📖

ولمَّا كان للتَّعميمِ بعد التَّخصيصِ، والتَّفصيلِ بعد الإجمال، مِن الموقعِ في النُّفوسِ ما لا يَخفَىٰ، وكان النَّهيُ عن الإفسادِ بالصد عن سبيلِ الله هو المقصودَ بالذَّات؛ لأنَّه يَنهَىٰ عن كلِّ فسادٍ: خصَّه بالذِّكرِ إشارةً إلىٰ أنَّه زُبْدةُ المرادِ بعد التَّعميم، فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾، هذا الأصلُ الثالث مِن دعوتِه؛ وهو النَّهيُ عن التَّعرُّضِ للنَّاس دون الإيمانِ؛ فإنَّه بعد أن أمَرهم بالإيمانِ بالله، وما يَتطلَّبه مِن الأعمالِ الصَّالحة، وفي ذلك صلاحُ أنفسهم؛ أي: أصلِحوا أنفسَكم، ولا تَمنَعوا

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٥٩).

(٢) نظم الدرر (٧/ ٤٦١).

مَن يَرغَب في إصلاحِ نفسه؛ ذلك أنَّهم كانوا يصُدُّون وفودَ النَّاسِ عن الدُّخولِ إلىٰ المدينة التي كان بها شُعَيبٌ عليه السلام؛ لئلا يؤمِنوا به. فالمرادُ بالصراطِ: الطريقُ الموصلة إلىٰ لقاءِ شُعَيبٍ عليه السلام(١).

اعلَمْ أنَّ شُعَيبًا عليه السلام ضَمَّ إلىٰ ما تقدَّم ذِكْرُه مِن التَّكاليفِ الخمسةِ أشياءَ(٢).

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧ ﴾

ولمَّا حذَّرهم وَخَامةَ الفسادِ الذي نهاهم عنه، وعلَّق انتهاءَهم عنه بوصفِ الإيمان: رجَع إلىٰ قِسْمِ ما شرَط به الانتهاءَ عن الإفسادِ، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾(٣).

الشرطُ في قولِه: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ ﴾ أفاد تعليقَ حصولِ مضمونِ الجزاء في المستقبل - أعني ما تضمَّنه الوعيدُ للكافرين به، والوعدُ للمؤمنين - علىٰ تحقُّقِ حصولِ مضمون فعلِ الشرط(٤).

هذا الكلامُ مِن أحسَنِ ما تُلُطِّفَ به في المحاوَرة؛ إذ أُبرِزَ المتحقَّقُ في صورةِ المشكوك فيه؛ وذلك أنَّه قد آمَن به طائفةٌ؛ بدليلِ قول المستكبِرين عن الإيمان: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾، وهو أيضًا مِن بارعِ التَّقسيمِ؛ إذ لا يخلو قومُه

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٤٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣١٤).

(٣) نظم الدرر (٧/ ٤٦٣).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٢٥٠).

مِن القِسْمَين، والذي أُرسِل به هنا: ما أمَرهم به مِن إفرادِ الله تعالىٰ بالعبادةِ، وإيفاءِ الكَيْلِ والميزان، ونهاهم عنه مِن البَخْسِ والإفسادِ، والقعود المذكور، ومتعلِّقُ ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه ما قبله؛ وتقديرُه: لم يؤمِنوا به، والخطابُ بقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ لقومِه، وينبغي أن يكونَ قولُه: ﴿فَٱصْبِرُوا﴾ خطابًا لفريقَيْ قومِه؛ مَن آمَن، ومَن لم يؤمِنْ[1].

ثم قال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا﴾، والمقصودُ منه تسليةُ قلوبِ المؤمنين، وزَجْرُ مَن لم يؤمِنْ[2].

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

ولمَّا انتهىٰ كلامُه عليه السلام علىٰ هذا الوجهِ البديع، أخبَر سبحانه بما أفهَم أنَّ قومَه لم يجدوا جوابًا عنه أصلًا؛ لأنَّهم انتقَلوا إلىٰ الدفاعِ بالفعل؛ وهو أمارةُ الانقطاعِ، فقال مستأنِفًا: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[3].

كان جوابُهم عن حُجَّةِ شُعَيبٍ جوابَ المُفحَمِ عن الحجَّة، الصائرِ إلىٰ الشِّدَّة، المزدهي بالقوَّة، المتوقِّعِ أن يكثُرَ معانِدوه؛ فلذلك عدَلوا إلىٰ إقصاءِ شُعَيبٍ وأتباعِه عن بلادِهم خشيةَ ظهور دَعْوتِه بَيْنَ قومِهم، وبَثِّ أتباعِه دَعْوتَه بَيْنَ الناسِ؛ فلذلك قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾[4].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٠٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣١٥).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٥).

اعلَمْ أنَّ شُعَيبًا عليه السلام لمَّا قرَّر تلك الكلماتِ، قال الذين استكبَروا وأَنِفوا مِن تصديقِه وقَبولِ قولِه: لا بد مِن أحدِ أمرين: إمَّا أن نُخرِجَك ونُخرِجَ أتباعَك مِن هذه القريةِ، وإمَّا أن تعُودَ إلىٰ مِلَّتِنا(١).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ ينساقُ إليه المقالُ، كأنَّه قيل له: فماذا قالوا له عليه السلام بعدما سَمِعوا منه هذه المواعظَ؟ فقيل: قال أشرافُ قومِه المستكبِرون متطاوِلينَ عليه عليه السلام، غيرَ مكتفِين بمجرَّدِ الاستعصاءِ، بل بالغينَ مِن العُتُوِّ مبلغًا عظيمًا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾(٢).

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا كان العرَبُ أبعَدَ النَّاسِ مِن مطلَقِ الكذب، وأشَدَّهم له تحاميًا، ومنه نُفْرةً، فكيف بالكذبِ علىٰ الأكابرِ؟ فكيف به علىٰ الملوكِ؟ فكيف به علىٰ مَلِكِ الملوكِ؟!: علَّق الكذبَ علىٰ اللهِ تعالىٰ بالعَوْدِ إلىٰ مِلَّتِهم بقولِه مستأنِفًا الإخبارَ لِمَن تشوَّف إلىٰ علمِ ما كان منه بعد هذا الكلامِ اللَّيِّنِ وتوقَّع غيره: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣١٦).

(٢) روح المعاني (٥/ ٤).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢).

واستأنف مرتقيًا في الجوابِ؛ فبيَّن استحالةَ عَوْدِهم إلىٰ ملَّةِ الكفر بأنَّ العَوْدَ إليها يستلزمُ كَذِبَه فيما بلَّغه عن اللهِ تعالىٰ مِن إرسالِه إليهم بالتَّوحيد؛ فذلك كَذِبٌ علىٰ اللهِ عن عَمْدٍ؛ لأنَّ الذي يُرسِلُه اللهُ لا يَرجِعُ إلىٰ الكفرِ، ويستلزمُ كَذِبَ الذين آمَنوا به علىٰ الله؛ حيث أيقَنوا بأنَّ شُعَيبًا مبعوثٌ مِن اللهِ بما دلَّهم علىٰ ذلك مِن الدلائلِ؛ ولذلك جاء بضميرِ المتكلِّمِ المشارِك في كلٍّ مِن قوله: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾، و﴿عُدۡنَا﴾، و﴿نَجَّىٰنَا﴾، و﴿نَّعُودَ﴾، و﴿رَبُّنَا﴾، و﴿تَوَكَّلۡنَا﴾. والربطُ بَيْنَ الشرطِ وجوابِه ربطُ التَّبيُّنِ والانكشاف(١).

لمَّا كان أمرُ الدِّينِ هو الأعظَمَ عند المؤمن، والمؤثِّرَ علىٰ أمرِ الدنيا: لم يَلتفتوا إلىٰ الإخراج، وإن كان أحدَ الأمرينِ اللَّذَينِ أقسَم علىٰ وقوعِه الكفارُ، فقالوا: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَا﴾(٢).

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠﴾

ولمَّا انقضىٰ جوابُ الفصلِ المبني علىٰ إبطالِ الفضل، وإظهارِ العدل: ذكَر سبحانه قولَهم بعده، عاطفًا له علىٰ ما مضىٰ مِن قولِهم أو قولِه، كان الأصلُ أن يقالَ: وقالوا، ولكنَّه أظهَر الوصفَ بالشَّرف؛ إشارةً إلىٰ أنَّه الذي حمَلهم علىٰ نتيجةِ الاستكبار؛ وهي الكفرُ، ثم لم يَرضَوْا به حتىٰ أضافوا إليه تكفيرَ غيرِهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾(٣).

عُطِفت جملةُ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ ولم تُفصَلْ كما فُصِلت التي قبلها؛ لانتهاءِ المحاوَرةِ المقتضية فصلَ الجُمَلِ في حكايةِ المحاورة، وهذا قولٌ أُنُفٌ، وجَّه فيه الملأُ خطابَهم

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٨).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١١٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٦).

إلىٰ عامَّةِ قومِهم الباقين علىٰ الكفر؛ تحذيرًا لهم مِن اتِّباعِ شُعَيبٍ؛ خشيةً عليهم مِن أن تَحِيكَ في نفوسِهم دعوةُ شُعَيبٍ، وصِدْقُ مجادَلته، فلمَّا رأَوْا حُجَّتَه ساطعةً، ولم يستطيعوا الفَلْجَ عليه في المجادَلة، وصمَّموا علىٰ كفرِهم: أقبَلوا علىٰ خطابِ الحاضرين مِن قومِهم؛ ليحذِّروهم مِن متابعةِ شُعَيبٍ، ويهدِّدوهم بالخسارةِ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن عِظَمَ ضلالتِهم بتكذيبِ شُعَيبٍ، ثم بيَّن أنَّهم لم يَقتصروا علىٰ ذلك حتىٰ أضَلُّوا غيرهم، ولامُوهم علىٰ متابعتِه، فقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾(٢).

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ إلخ، ولعلَّ هؤلاء غيرُ أولئك المستكبِرين، ودُونَهم في الرُّتبةِ، شأنُهم الوَساطةُ بَيْنَهم وبين العامةِ، والقيامُ بأمورِهم حسبما يراه المستكبِرون(٣).

بعد أن هدَّد الظالمون شُعَيبًا بالإبعادِ مِن مدينتِهم هو والمؤمنون معه، أو أن يعُودوا إلىٰ مِلَّتِهم، فرَدَّ شُعَيبٌ عليه السلام علىٰ التهديدِ بما أيأسَهم مِن العودةِ إلىٰ دِينِهم، وفَزِعَ إلىٰ اللهِ يُعلِنُ توكُّلَه عليه، ويطلُبُ حُكْمَه العادلَ بَيْنَه وبين قومِه المشركين الظالمين؛ كأنَّ النَّاسَ اضطرَبوا، وأنَّ بعضًا قال: اترُكوا الرجُلَ وما هو عليه، ولا تَتعرَّضوا لِما لا تُطيقونه مِن البلاءِ؛ هنا قال الملأُ الذين استكبَروا مِن قومِه مُقسِمينَ بآلهةِ الباطل: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣١٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥١).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٢٠٦).

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولمَّا كمَل إثمُهم بالضَّلالِ والإضلال، استحَقُّوا الأخذ، فقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[(١)].

والفاءُ في: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ للتَّعقيبِ؛ أي: كان أخذُ الرجفةِ إيَّاهم عقِبَ قولِهم لقومِهم ما قالوا[(٢)].

عند هذا المقالِ، كمَل حالُهم في الضَّلالِ أولًا، وفي الإضلالِ ثانيًا؛ فاستحَقُّوا الإهلاكَ؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾، وهي الزَّلْزلةُ الشديدة المُهلِكة[(٣)].

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بهلاكِهم، وما سبَّبه مِن أقوالِهم وأفعالِهم، وكان للتَّخليصِ مِن العظمةِ في القلوبِ بتصوير المخلصِ للأذهان ما لا يَخفَىٰ: لخَّص ذلك ذاكرًا لأنَّه حَلَّ بهم بالخصوصِ ما نسَبوا إلىٰ المؤمنين مِن الخسارةِ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾ مستأنَفةٌ ابتدائيةٌ، والتَّعريفُ بالموصوليَّةِ للإيماءِ إلىٰ وجهِ بناء الخبَرِ؛ وهو أنَّ اضمحلالَهم وانقطاعَ دابِرِهم كان جزاءً لهم علىٰ تكذيبِهم شُعَيبًا[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣١٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٨).

(٥) التحرير والتنوير (٩/ ١٣).

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ استئنافٌ لبيانِ ابتلائِهم بشُؤْمِ قولهم فيما سبَق: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾، وعقوبتِهم بمقابَلتِه[1].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾

ولمَّا صارت تلك الدارُ محَلَّ الغضبِ، سبَّب ذلك أنْ هاجَرَ عنها؛ كما كانت عادةُ مَن قبله مِن الأنبياءِ عليهم السلام، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[2].

وودَّعهم شُعَيبٌ عليه السلام كما ودَّع صالحٌ عليه السلام قومَه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[3].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾

ثم أتبَع ذلك إجمالًا آخَرَ أبسَطَ مِن الأولِ على نمطٍ غريبٍ، دالٍّ على عادتِه المستمِرَّة وسُنَّته المستقِرة في شرحِ حالِ هؤلاء الأُمَمِ الذين ذكَرهم وغيرِهم؛ لئلا يُظَنَّ أنَّ غيرَهم كان حالُه غيرَ حالِهم؛ فبيَّن أنَّ الكلَّ على نهجٍ واحد، وأنَّ السببَ في استئصالِهم واحد؛ وهو التَّكذيبُ والاستكبارُ على الحق؛ ليكونَ الإجمالُ كالضَّوابطِ والقواعد الكليَّة لتنطبقَ على الجزئياتِ، وذلك الاستبصارُ بما يكونُ مِن نافعٍ أو ضارٍّ، وعدمُ الاغترارِ بأحوال المستدرَجين الأشرار: متكفِّلٌ بالتَّسليةِ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم والتَّأسية، متقدِّمٌ على قصةِ موسى وهارونَ عليهما السلام لطُولِها، وتعجيلًا بما في

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥٢).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٩).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢٠٧).

ذلك مِن مَصارعِ الإنذار، بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[1].

عطَفت الواوُ جملةَ «ما أرسلنا» علىٰ جملةِ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ عَطْفَ الأعمِّ علىٰ الأخصِّ؛ لأنَّ ما ذُكِر مِن القَصَصِ ابتداءً مِن قولِه تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ كلُّه القصدُ منه العبرةُ بالأُمَمِ الخالية، وموعظةٌ لكفارِ العرب، فلمَّا تلا عليهم قَصَصَ خَمْسِ أُمَمٍ، جاء الآن بحُكْمٍ كليٍّ يعُمُّ سائرَ الأمم المكذِّبة؛ علىٰ طريقةِ قياسِ التَّمثيل، أو قياسِ الاستقراء النَّاقص، وهو أشهَرُ قياسٍ يُسلَكُ في المقاماتِ الخِطابيَّة[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما حلَّ بالأُمَمِ السالفة مِن بأسِه وسطوتِهِ عليهم آخِرَ أمرِهم حين لا تُجدي فيهم الموعظةُ، ذكَر تعالىٰ أنَّ تلك عادتُهُ في أتباعِ الأنبياء إذا أصَرُّوا علىٰ تكذيبهم[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عرَّفَنا أحوالَ هؤلاء الأنبياءِ، وأحوالَ ما جرَىٰ علىٰ أُمَمِهم: كان مِن الجائزِ أن يُظَنَّ أنَّه تعالىٰ ما أنزَل عذابَ الاستئصال إلا في زمَنِ هؤلاء الأنبياء فقط؛ فبيَّن في هذه الآيةِ أنَّ هذا الجنسَ مِن الهلاكِ قد فعَله بغيرِهم، وبيَّن العلَّةَ التي بها يَفعَل ذلك[4].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أحوالِ سائر الأُمَمِ مع أنبيائهم إجمالًا، إثرَ بيانِ الأمم المذكورةِ تفصيلًا، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٩-١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٦).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١١٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٠-٣٢١).

(٥) محاسن التأويل (٥/ ١٥٦).

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ولمَّا لم يَتضرَّعوا صادقين مِن قلوبِهم، معترفين بالحقِّ لأهله كما يَحِقُّ له: استدرَجهم بإدرارِ النِّعَم، فقال مشيرًا إلىٰ طُولِ مدَّةِ الابتلاء، واستبعادِهم لكشفِ ذلك البلاء: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[١].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ تدبيرَه في أهلِ القرىٰ لا يجري علىٰ نمطٍ واحدٍ؛ وإنَّما يدبِّرُهم بما يكونُ إلىٰ الإيمانِ أقربَ، فقال: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾؛ لأنَّ ورودَ النِّعمةِ في البدَنِ والمال بعد البأساءِ والضَّراء يدعو إلىٰ الانقيادِ، والاشتغالِ بالشُّكر[٢].

ابتلاهم بالشِّدَّةِ ليَتضرَّعوا، فما فعَلوا شيئًا مِن الذي أراد اللهُ منهم؛ فقلَب الحالَ إلىٰ الرَّخاءِ؛ ليختبِرَهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾[٣].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ ما كان قولهم مسبَّبًا له مِن الأخذِ بَغْتةً، بيَّن ما كان يكونُ ضدَّ قولِهم مسبَّبًا له مِن البركاتِ لو وقَع بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢١).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١١).

عُطِفت جملةُ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ علىٰ جملةِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾؛ أي: ما أرسَلْنا في قريةٍ نَبِيًّا فكذَّبه أهلُها إلا نبَّهناهم واستدرَجْناهم، ثم عاقَبْناهم، ولو أنَّ أهلَ تلك القُرىٰ المُهلَكة آمَنوا بما جاءهم به رسولُهم، واتَّقَوْا ربَّهم: لَمَا أصبناهم بالبأساءِ، ولأحييناهم حياةَ البركة[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ الذين عصَوْا وتمرَّدوا أخَذهم اللهُ بَغْتةً، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم لو أطاعوا، لفتَح اللهُ عليهم أبوابَ الخيرات، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ المكذِّبينَ للرُّسلِ يُبتلَوْنَ بالضَّراءِ موعظةً وإنذارًا، وبالسَّراءِ استدراجًا ومكرًا: ذكَر أنَّ أهلَ القُرىٰ لو آمَنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدَّقتْهُ الأعمالُ، واستعمَلوا تقوىٰ اللهِ تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا؛ بتَرْكِ جميعِ ما حرَّم اللهُ: لفتَح عليهم بركاتِ السماءِ والأرض؛ فأرسَل السماءَ عليهم مِدْرارًا، وأنبَت لهم مِن الأرض ما به يعيشون وتعيشُ بهائمُهم، في أخصَبِ عيشٍ، وأغزَرِ رزقٍ، مِن غيرِ عناءٍ ولا تعَبٍ، ولا كَدٍّ ولا نصَبٍ، ولكنَّهم لم يؤمِنوا ويتَّقُوا؛ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[(٣)].

بعدما بيَّن تعالىٰ سُنَّتَه في الأُمَمِ السابقة؛ وهي أخذُ الأمَّةِ بعد تكذيبِها وعصيانِها بالبأساءِ والضَّراء، ثم إذا هي لم تتُبْ واستمرَّتْ علىٰ كفرِها وعصيانِها، أغدَق عليها الخيراتِ حتىٰ عفَتْ بكثرةِ مالِها، وصلاحِ حالِها؛ أخَذها بَغْتةً فأهلَكها، وتمَّ خسرانُها في الدارينِ: فتَح تعالىٰ بابَ التوبةِ والرَّجاء لعبادِه[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢٩٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٢١٠).

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧﴾

ولمَّا كانوا قد ضَلُّوا ضلالًا بعيدًا في غلَطِهم في جَعْلِهم السَّراءَ والضَّراء سببًا للأمنِ مِن مكرِ الله، قال منكِرًا عليهم أمْنَهم، عاطفًا له على ﴿كَذَّبُوا﴾؛ لأنَّه سببُ الغلَطِ، وهو سببُ الأمنِ، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[(١)].

لمَّا ذكَر مِن أحوالِ جميعِهم ما هو مثارُ التعجيبِ مِن حالهم، أعقَبه بما يدلُّ عليه معطوفًا بفاءِ الترتُّبِ، ومحَلُّ التعجيبِ هو تواطؤهم على هذا الغُرورِ؛ أي: يَترتَّبُ على حكايةِ تكذيبِهم وأخذِهم استفهامُ التعجيبِ مِن غرورِهم وأمنِهم غضَبَ القادرِ العليم[(٢)].

ثم إنَّه تعالى أعاد التهديدَ بعذابِ الاستئصال، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وهو استفهامٌ بمعنى الإنكارِ عليهم؛ والمقصودُ أنَّه تعالى خوَّفهم بنزولِ ذلك العذابِ عليهم في الوقتِ الذي يكونون فيه في غايةِ الغفلة[(٣)].

ثم قال تعالى مخوِّفًا ومحذِّرًا مِن مخالفةِ أوامره، والتجرُّؤِ على زواجِره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[(٤)].

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾

ولمَّا كان ربما قال جاهلٌ: لو جاءهم وهُمْ أيقاظٌ، لأمكَن أن يدافِعوا! قال: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).

(٥) نظم الدرر (٨/ ١٣).

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ إنكارٌ بعد إنكارٍ للمبالغةِ في التَّوبيخِ الشَّديد(١).

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

ولمَّا كان ضَلالُهم - الذي نسَبوا فيه الأمرَ إلىٰ غيرِ أهلِه - أشنَعَ ضلالٍ؛ لتضمُّنِه التعطيل، وما يجُرُّ إليه مِن الأباطيل: كرَّر الإنكارَ عليهم علىٰ وجهٍ أشَدَّ مِن الأولِ، فقال مسبِّبًا الإنكارَ عمَّا أثبت هذا الكلام مِن العظمةِ التي لا يَتمارىٰ فيها ذو لُبٍّ: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(٢).

جاء العطفُ بالفاءِ وإسنادُ الفعلِ إلىٰ الضمير؛ لأنَّ الجملةَ المعطوفة تكريرٌ لقوله: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾، ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾، وتأكيدٌ لمضمونِ ذلك؛ فناسب إعادةُ الجملة مصحوبةً بالفاء(٣).

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ تكريرٌ لمجموعِ الإنكارينِ السَّابقين؛ جمعًا بَيْنَ التفريقِ؛ قصدًا إلىٰ زيادةِ التَّحذير والإنذار(٤).

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ولمَّا بانَ بما مضىٰ حالُ الكفارِ مُجمَلًا ومفصَّلًا، وكان المقصودُ مِن ذلك عبرةَ السامعين، وكان أخذُهم بالبأساءِ والضَّراء مع إبقاءِ مُهَجِهم وحفظِ أرواحهم وأفهامِهم بعد إهلاكِ مَن قَبْلَهم في بعضِ ما لَحِقَهم مِن ذلك، وإيراثِهم الأرضَ مِن بعدِهم حالًا يكونون بها في حيِّزِ مَن يُرجىٰ منه الخوفُ المقتضي للتضرُّعِ والعلم

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥٤).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٢١).

(٤) روح المعاني (٥/ ١٣).

قطعًا بأنَّ الفاعلَ لذلك هو اللهُ، وأنَّه لو شاء لأهلَكهم بالذُّنوبِ، أو غطَّىٰ أفهامَهم بحيث يَصِيرون كالبهائمِ لا يَسمَعون إلا دعاءً ونداءً؛ فسماعُهم حيث لا فَهْمَ كلا سماعٍ، فجعَلوا ذلك سببًا للأمنِ: أنكَر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ إلىٰ آخِرِه، ثم أنكَر عليهم عدمَ الاستدلالِ علىٰ القدرة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(١)].

عُطِفت علىٰ جملة ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾؛ لاشتراكِ مضمونِ الجملتينِ في الاستفهام التعجبيِّ، فانتقَل عن التعجيبِ مِن حالِ الذين مضَوْا إلىٰ التعجيبِ مِن حالِ الأمَّة الحاضرة؛ وهي الأمَّةُ العربية الذين وَرِثوا ديارَ الأُمَم الماضية، فسكَنوها[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن فيما تقدَّم مِن الآياتِ حالَ الكفارِ الذين أهلَكهم الله بالاستئصال مُجمَلًا ومفصَّلًا، أتبَعه ببيانِ أنَّ الغرضَ مِن ذِكْرِ هذه القِصَصِ حصولُ العبرةِ لجميع المكلَّفين في مصالحِ أديانِهم وطاعاتِهم[(٣)].

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾

ولمَّا انقضىٰ ذلك علىٰ هذا الوجهِ الأعظم، والنَّظْمِ الأبلغ الأحكَم، وكانت هذه القُرىٰ بحيث تَعرِفُها العربُ ويرَوْنها: أشار إليهم حثًّا علىٰ الاعتبارِ بهم، ولمَّا كان أهلُها جديرينَ بالبُعْدِ عنهم، والهربِ منهم: عبَّر عنهم بأداةِ البُعْدِ، فقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٣-١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٥).

لمَّـا تكـرَّر ذِكْـرُ القُـرىٰ التـي كـذَّب أهلُهـا رُسَـلَ اللهِ بـالتَّعيين وبـالتَّعميم، صـارت للسامعين كالحاضرةِ المشاهَدة الصالحة لأن يشارَ إليها؛ فجاء اسمُ الإشارة لزيادةِ إحضارِها في أذهانِ السامعين مِن قومِ محمَّدٍ ﷺ؛ ليَعتبروا حالَهم بحالِ أهل القرىٰ، فيرَوْا أنَّهم سواءٌ، فيَفيئوا إلىٰ الحق، وجملةُ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ مستأنَفةٌ استئنافَ الفَذْلكةِ لِما قبلها مِن القَصص[1].

ثـم قـال تعـالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، قولـه: ﴿تِلْكَ﴾: مبتـدأٌ، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: صـفةٌ، و﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: خبـرٌ؛ والمـرادُ بــ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾: قُـرىٰ الأقـوامِ الخمسة الذين وصَفهم فيما سبَق؛ وهم: قومُ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعَيبٍ، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ مِن أخبارِها كيف أُهلِكت[2].

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ جملـةٌ مسـتأنَفةٌ، جاريـةٌ مجرىٰ الفَذْلكـةِ لِمـا قبلهـا مِـن القَصـص، منبِئـةٌ عـن غايـةِ غَوايـةِ الأُمَـمِ المـذكورة، وتمـاديهم فيهـا بعـدما أتـتهم الرُّسـلُ بالمعجِزات الباهرة[3].

لمَّا قصَّ تعالىٰ علىٰ نبيِّه ﷺ خبرَ قومِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعَيبٍ عليهم الصلاة والسلام، وما كان مِن إهلاكِه الكافرين، وإنجائه المؤمنين، وأنَّه تعالىٰ أعـذَر إليهم بأن بيَّن لهم الحقَّ بالحُجَجِ علىٰ ألسنةِ الرُّسلِ صلوات الله عليهم أجمعين: قـال تعـالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٢).

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

ولمَّا كان نقضُ العهدِ أفظَعَ شيءٍ، ولا سيَّما عند العربِ: قال عاطفًا على ﴿فَمَا كَانُوا﴾: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[1].

عُطِفت جملة ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ على جملة ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾، وما ترتَّب عليها مِن قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾؛ تنبيهًا على رسوخِ الكفر مِن نفوسِهم؛ بحيث لم يَقلَعْهُ منهم لا ما شاهَدوه مِن البيِّنات، ولا ما وضَعه اللهُ في فطرةِ الإنسان مِن اعتقادِ وجودِ إلهٍ واحد، وتصديقِ الرُّسلِ الداعين إليه، ولا الوفاءُ بما عاهَدوا عليه الرُّسلَ عند الدعوةِ: إنَّهم إن أتَوْهم بالبيِّناتِ، يؤمِنون بها[2].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

ولمَّا انقضى بيانُ هذا الإجمالِ الخالع لقلوبِ الرجال، أتبعَه الكشفَ عمَّا كان بعد قصةِ شُعَيبٍ عليه السلام مِن قصةِ صِهْرِه موسى عليه السلام مع فِرْعونَ وقومِه، وهي كالدليلِ على آياتِ الإجمال؛ كما كانت القِصَصُ الماضية كالدليلِ على ما في أولِ السورة مِن الإجمال؛ فإنَّ قصةَ فِرْعونَ مشتمِلةٌ على الأخذِ بالبأساء والضَّراء، ثم الإنعامِ بالرَّخاء والسَّراء، ثم الأخذِ بَغْتةً بسببِ شدةِ الوقوف مع الضَّلال بعد الكشفِ الشافي والبيانِ لِما على قلوبِهم مِن الطَّبع، وما قادت إليه الحظوظُ مِن الفِسق، وكأنَّه فصَلها عن القِصَصِ الماضية تنويهًا بذِكْرِها، وتنبيهًا على عَلِيِّ قَدْرِها؛ لأنَّ معجزاتِ صاحبها مِن معجزات مَن كان قَبْله، وجَهْلُ مَن عالَجهم كان أعظَمَ وأفحَشَ مِن جهلِ تلك

(١) نظم الدرر (٨/ ١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٤).

الأُمَم؛ ولذلك عطَفَها بأداةِ البُعْدِ مع قُرْبِ زمنِها مِن التي قبلها؛ إشارةً إلىٰ بُعْدِ رتبتِها بما فيها مِن العجائب، وما اشتمَلَتْ عليه مِن الرغائبِ والغرائب؛ ولذلك مَدَّ لها الميدان، وأطلَق في سياقِها للجَوَادِ العِنان، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

انتقالٌ مِن أخبارِ الرسالاتِ السابقة إلىٰ أخبارِ رسالةٍ عظيمة لأُمَّةٍ باقية إلىٰ وقتِ نزولِ القرآن، فضَّلها اللهُ بفضلِه؛ فلم تُوَفِّ حقَّ الشكرِ، وتلقَّتْ رسولَها بَيْنَ طاعةٍ وإباء، وانقيادٍ ونِفار، فلم يعامِلْها اللهُ بالاستئصال، ولكنَّه أراها جزاءَ مختلِفِ أعمالها جزاءً وِفاقًا؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ. وخُصَّتْ بالتَّفْصيلِ قصةُ إرسالِ موسىٰ؛ لِما تحتوي عليه مِن الحوادثِ العظيمة، والأنباءِ القيمة، ولأنَّ رسالتَه جاءت بأعظَمِ شريعةٍ بَيْنَ يدَيْ شريعةِ الإسلام[2].

مناسَبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّ بَيْنَ موسىٰ وشُعَيبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مصاهَرةً؛ كما حكىٰ اللهُ في كتابِه، ونسَبًا؛ لكونِهما مِن نَسْلِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

اعلَمْ أنَّ هذا هو القصةُ السادسة مِن القِصَص التي ذكَرها اللهُ تعالىٰ في هذه السورةِ، وذكَر في هذه القصةِ مِن الشَّرحِ والتَّفصيل ما لم يذكُرْ في سائرِ القِصَص؛ لأجلِ أنَّ معجِزاتِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت أقوىٰ مِن معجزاتِ سائرِ الأنبياء، وجَهْلُ قومِه كان أعظَمَ وأفحَش مِن جهلِ سائرِ الأقوام[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٧-١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٤).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٤).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

ولمَّا كان التقديرُ عطفًا على ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾: ووضَعها موسىٰ مواضعَها، عبَّر عنه بقولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

عُطِف قولُ موسىٰ بالواوِ، ولم يُفصَلْ عمَّا قبله، مع أنَّ جملةَ هذا القولِ بمنزلةِ البيان لجملة ﴿بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ لأنَّه لمَّا كان قولُه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ حالًا مِن موسىٰ، فقد فُهِم أنَّ المقصودَ تنظيرُ حالِ الذين أُرسِلَ إليهم موسىٰ بحالِ الأُمَمِ التي مضىٰ الإخبارُ عنها في المكابَرة على التكذيبِ، مع ظهورِ آيات الصِّدْقِ؛ ليَتِمَّ بذلك تشابُهُ حالِ الماضين مع حالِ الحاضرين المكذِّبين بمحمَّدٍ ﷺ؛ فجُعِلتْ حكايةُ محاوَرةِ موسىٰ مع فِرْعونَ ومَلَئِه خبرًا مستقلًّا؛ لأنَّه لم يُحكَ فيه قولُه المقارِنُ لإظهارِ الآية، بل ذُكِرت الآيةُ مِن قبلُ، بخلافِ ما حُكِيَ في القِصَص التي قبلها؛ فإنَّ حكايةَ أقوالِ الرُّسل كانت قبل ذِكْرِ الآية، ولأنَّ القصةَ هنا قد حُكِيَ جميعُها باختصارٍ بجُمَلِ ﴿بَعَثۡنَا﴾، ﴿فَظَلَمُواْ﴾، ﴿فَٱنظُرۡ﴾، فصارت جملةُ ﴿وَقَالَ﴾ تفصيلًا لبعضِ ما تقدَّم، فلا تكونُ مفصولةً؛ لأنَّ الفصلَ إنَّما يكون بَيْنَ جملتينِ، لا بَيْنَ جملةٍ وبين عِدَّةِ جُمَلٍ أخرىٰ(٢).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لتفصيلِ ما أُجمِلَ فيما قبله مِن كيفيةِ إظهارِ الآيات، وكيفيةِ عاقبة المفسِدين(٣).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥٧).

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

ولمَّا خلَّفه ممَّا يدَّعيه مِن الرُّبوبيَّةِ دالًّا علىٰ تسويتِه ببقيَّةِ العالَمين؛ ناطِقِهم وصامِتِهم، وكان لذلك بعيدًا مِن الإذعانِ لهذا الكلامِ: أتبَعه قولَه علىٰ وجهِ التأكيد مستأنِفًا بيانَ ما يَلزمُ للرَّسولِ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(١)].

ثم قال: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّ الرسولَ لا يقول إلا الحقَّ؛ فصار نَظْمُ الكلامِ كأنَّه قال: أنا رسولُ الله، ورسولُ الله لا يقول إلا الحقَّ، ينتجُ أنِّي لا أقولُ إلا الحقَّ، ولمَّا كانت المقدِّمةُ الأُولىٰ خفيَّةً، وكانت المقدمةُ الثانية جليَّةً ظاهرة: ذكَر ما يدل علىٰ صحةِ المقدِّمة الأولىٰ؛ وهو قولُه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ وهي المعجِزةُ الظاهرة[(٢)].

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ جوابٌ عمَّا ينساقُ إليه الذهنُ مِن حكايةِ ظُلْمِهم بالآياتِ؛ مِن تكذيبِه إيَّاه عليه السلام في دعوىٰ الرسالةِ[(٣)].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

كأنَّه قيل: فماذا قال فِرْعونُ في جوابِ هذا الأمرِ الواضح؟ فقيل: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥٧).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢١).

قولُ فِرْعونَ: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٍ فَأۡتِ بِهَآ﴾ متعيِّنٌ لأن يكونَ معناه: إن كنتَ جئت بمعجِزةٍ، فإنَّ أكثرَ مواردِ الآية في القرآن مرادٌ فيه المعجزةُ، وأكثرَ مواردِ البيِّنة مرادٌ فيه الحُجَّةُ؛ فالمرادُ بالبيِّنة في قولِ موسىٰ عليه السلام: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: الحُجَّةُ علىٰ إثباتِ الإلهيَّة، وعلىٰ حَقّيةِ ما جاء به مِن إرشادٍ لقومه، فكان فِرْعونُ غيرَ مقتنعٍ ببرهانِ العقل، أو قاصرًا عن النظرِ فيه؛ فانتقَل إلىٰ طلبِ خارق(١).

لمَّا عرَض موسىٰ عليه السلام رسالتَه علىٰ فِرْعونَ، وذكَر الدليلَ علىٰ صِدْقِه؛ وهو مجيئُه بالبيِّنةِ والخارق المُعجِز: استدعىٰ فِرْعونُ منه خَرْقَ العادة الدالَّ علىٰ الصدقِ، وهذا الاستدعاءُ يحتمِلُ أن يكونَ علىٰ سبيلِ الاختبار، وتجويزِه ذلك، ويحتمِلُ أن يكونَ علىٰ سبيلِ التعجيز؛ لِما تقرَّر في ذهنِ فِرْعونَ أنَّ موسىٰ لا يَقدِرُ علىٰ الإتيانِ ببيِّنةٍ؛ والمعنىٰ: إن كنتَ جئت بآيةٍ مِن ربِّك، فأحضِرْها عندي؛ لتَصِحَّ دعواك، ويثبُتَ صِدْقُك(٢).

لمَّا قرَّر رسالةَ نفسه، فرَّع عليه تبليغَ الحُكْمِ؛ وهو قولُه: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولمَّا سَمِع فِرْعونُ هذا الكلامَ، قال: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤالٍ ينساقُ إليه الكلامُ، كأنَّه قيل: فماذا قال فِرْعونُ له عليه السلام حين قال له ما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٤٠).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٥٨).

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ولمَّا ساقَ هذا الطلبَ مَساقًا دالًّا علىٰ أنَّه شاكٌّ في أمرِه، أخبَر تعالىٰ أنَّه فاجأه بإظهارِ الآية دالًّا علىٰ ذلك بالفاءِ المسبِّبة المعقِّبة مِن غيرِ مهلةٍ، فقال عن فعلِ موسىٰ عليه السلام: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[(١)].

بدأ بالعصا دُونَ سائرِ المعجِزات؛ لأنَّها معجزةٌ تحتوي علىٰ معجزاتٍ كثيرة؛ قالوا: منها أنَّه ضرَب بها بابَ فِرْعونَ، ففَزِع مِن قَرْعِها، فشابَ رأسُه، فخضَب بالسوادِ؛ فهو أولُ مَن خضَب بالسوادِ، وانقلابُها ثعبانًا، وانقلابُ خشَبةٍ لحمًا ودمًا قائمًا به الحياةُ مِن أعظَمِ الإعجاز، ويحصُلُ مِن انقلابها ثعبانًا مِن التهويلِ ما لا يحصُلُ في غيرِه، وضَرْبُه بها الحجَرَ، فينفجرُ عيونًا، وضربُه بها فتُنبِتُ[(٢)].

لمَّا طالَب موسىٰ عليه السلام بإقامةِ البيِّنةِ علىٰ صحةِ نبوَّته، بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ معجِزتَه كانت قَلْبَ العصا ثعبانًا، وإظهارَ اليدِ البيضاء[(٣)].

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ثم قال: هل معك آيةٌ أخرىٰ؟ قال: نعم، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[(٤)].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

ولمَّا أتىٰ بالبيانِ، وأقام واضحَ البرهان: اقتضىٰ الحالُ السؤالَ عمَّا أبرَزوه مِن المقالِ في جوابِه، فقال: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٢).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٣٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢٧).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٢).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٣).

جرَتْ جملةُ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ على طريقةِ الفصلِ؛ لأنَّها جرَتْ في طريقِ المحاوَرةِ الجارية بَيْنَ موسىٰ وبين فِرْعونَ ومَلَئِه؛ فإنَّه حوارٌ واحد[١].

لمَّا رأَوُا انقلابَ العصا ثعبانًا، والأَدْماءِ[٢] بيضاءَ، وأنكَروا النبوَّةَ، ودافَعوه عنها: قصَدوا ذَمَّه بوصفِه بالسِّحْرِ، وحَطَّ قَدْرِه؛ إذ لم يمكِنْهم في ظهورِ ما ظهَر على يدِه نسبةُ شيءٍ إليه غيرِ السِّحر، وبالَغوا في وصفِه بأن قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغُ الغايةِ في علمِ السِّحر، وخُدَعِه وخيالاته وفنونِه، وأكثَرُ استعمالِ لفظِ «هذا» إذا كان مِن كلامِ الكفار في التنقُّص والاستغراب[٣].

ما زال السياقُ في تفصيلِ قَصَصِ موسىٰ مع فِرْعونَ؛ فبعد أن تقدَّم موسىٰ بما طلَب فِرْعونُ منه مِن الآيةِ، فأراه آيةَ العصا، واليدِ، وشاهَد الملأُ مِن قومِ فِرْعونَ الآيتينِ العظيمتين، فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

ولمَّا خيَّلوهم حتىٰ أوقَفوهم عمَّا فهِموا عنهم مِن المبادَرة إلىٰ المتابَعةِ بادِّعاءِ أنَّه ساحرٌ، نفَّروهم مِن ذلك، وخوَّفوهم بأنَّه يريد أن يحكِّمَ فيهم قومَه الذين كانوا عبيدًا لهم، ويُزيحوهم مِن ديارِهم، بقولهم: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[٥].

قولُه: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطابُ بعضِهم لبعضٍ، وهو حاصلٌ مِن طوائفِ ذلك الملأِ لطوائفَ يردِّدونه بينهم، ويقولُه بعضُهم لبعضٍ، ووجهُ استفادتِهم

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٤١).

(٢) أي: السمراء.

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٣١).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٢١٦).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٤).

أنَّ موسىٰ يريدُ إخراجَهم مِن أرضهم؛ إمَّا أنَّهم قاسُوا ذلك عن قولِ موسىٰ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بقاعدةِ ما جاز علىٰ المِثْلِ يجوزُ علىٰ المماثِلِ؛ يَعنون أنَّه ما أظهَر إخراجَ بني إسرائيلَ إلا ذريعةً لإخراجِ كلِّ مَن يؤمن به؛ ليتخِذهم تبَعًا، ويُقِيمَ بهم مُلْكًا خارج مصر؛ فزعَموا أنَّ تلك مكيدةٌ مِن موسىٰ لثَلْمِ مُلْكِ فِرْعونَ(١).

ثم خوَّفوا ضعفاءَ الأحلامِ وسُفَهاءَ العقول بأنَّه يريدُ موسىٰ بفعلِهِ هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾(٢).

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فعلَىٰ أيِّ شيءٍ استقرَّ رأيُهم؟ فقيل: علىٰ تأخيرِ الأمر إلىٰ حَشْرِ السَّحَرةِ للمعارَضة: أخبَر تعالىٰ - دَلالةً علىٰ أنَّ أصلَ قولِ الملأ منه - أنَّهم أقبَلوا عليه مخاطِبين له، ملفتين مَن أبلَغهم عنه تعظيمًا له، مسنِدين الأمرَ إليه بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾(٣).

جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ جوابُ القومِ المستشارين؛ فتجريدُها مِن حرفِ العطف؛ لجريانِها في طريقِ المحاوَرة؛ أي: فأجاب بعضُ الملأ بإبداءِ رأيٍ لفِرْعونَ فيما يتعيَّنُ عليه اتخاذُه. ويجوز أن تكونَ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ بدلًا مِن جملة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، بإعادةِ فعلِ القول، وهو العاملُ في المبدَلِ منه إذا كان فِرْعونُ هو المقصودَ بقولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٤٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٩٩).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٥).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٤٣).

لمَّا ذكَر قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، قال بعده: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾، ولا شكَّ أنَّ هذا كلامُ القوم، وجعَله جوابًا عن قولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؛ فوجَب أن يكونَ القائلُ لقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ غيرَ الذي ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾؛ وذلك يدلُّ على أنَّ قولَه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كلامٌ لغيرِ الملأ مِن قوم فِرْعونَ(١).

فحينئذٍ انعقَد رأيُهم إلى أن قالوا لفِرْعونَ: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾(٢).

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ١١٢﴾

جَزْمُ ﴿يَأْتُوكَ﴾ على جوابِ الأمر؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ اتصالِ السببيَّةِ بَيْنَ الإرسالِ والإتيان(٣).

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٣﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فأخَّر أمرَهما، وأرسَل كما قالوا، فجمَعوا مَن وجَدوه منهم: عطَف عليه قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾(٤).

عُطِفت جملةُ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ على جملة ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، وفي الكلامِ إيجازُ حذفٍ؛ والتَّقدير: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ﴾ إلخ، فأرسَل فِرْعونُ في المدائنِ حاشرين، فحشَروا، وجاء السَّحرةُ مِن المدائنِ، فحضَروا عند فِرْعونَ(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٤٤).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٦).

(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٤٥).

ما زال السياقُ في الحوارِ الدائر بَيْنَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن جهةٍ، وبَيْنَ فِرْعونَ ومَلَئِه مِن جهةٍ أخرىٰ؛ فقد جاء في الآياتِ السابقة أنَّ الملأ أشاروا علىٰ فِرْعونَ بأن يَحبِسَ موسىٰ وأخاه هارونَ، ويُرسِلَ شُرطةً في المُدُنِ يأتون بالخبراءِ في فَنِّ السِّحْرِ لمناظَرةِ موسىٰ؛ عسىٰ أن يَغلِبوه، وفعلًا أرسَل فِرْعونُ في مُدُنِه حاشرين يَجمَعون خُبَراءَ السِّحر، وها هم أولاءِ قد وصَلوا، وقالوا لفِرْعونَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[(١)].

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

قولُ فِرْعونَ: ﴿نَعَمْ﴾ إجابةٌ عمَّا استفهَموا، أو تقريرٌ لِما توسَّموا؛ علىٰ الاحتمالينِ المذكورين في قولِه: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ آنفًا؛ فحرفُ «نعم» يقرِّرُ مضمونَ الكلامِ الذي يجابُ به؛ فهو تصديقٌ بعد الخبَرِ، وإعلامٌ بعد الاستفهام، بحصولِ الجانب المستفهَمِ عنه[(٢)].

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ولمَّا فرَغوا مِن محاوَرتِه، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ قولِهم لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاستأنَف قولَه جوابًا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[(٣)].

فُصِلت جملةُ ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾؛ لوقوعِها في طريقةِ المحاوَرة بَيْنَهم وبين فِرْعونَ وموسىٰ؛ لأنَّ هؤلاء هم أهلُ الكلامِ في ذلك المَجمَع[(٤)].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٤٦).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٦).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٤٦).

﴿ قَالُوا۟ ﴾ استئنافٌ كما مرَّ، كأنَّه قيل: فماذا فعَلوا بعد ذلك؟ فقيل: قالوا متصدِّين لشأنِهم، مخاطِبينَ لموسىٰ ﷺ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[١].

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

ولمَّا فَهِم موسىٰ ﷺ مرادَهم ممَّا عبَّر هذا النَّظْمُ عن حقيقةِ معناه؛ مِن تأكيدِ ضميرهم المتصلِ بالمنفصِل، وتعريفِ الخبَرِ، وإقحامِ الفصلِ، وكان واثقًا مِن اللهِ تعالىٰ بما وعَده به، جاريًا مع مرادِه، لا فرقَ بَيْنَ أن يتقدَّمَ أو يتأخرَ: أجابهم إلىٰ سؤالِهم، وهو أوقَعُ في ازدراءِ شأنهم، فاستأنَف سبحانه الخبَرَ عنه بقوله: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[٢].

كان في جوابِ موسىٰ إيَّاهم بقوله: ﴿أَلْقُوا۟ ﴾ استخفافٌ بأمرِهم؛ إذ مكَّنهم مِن مبادأةِ إظهارِ تخييلاتِهم وسِحْرِهم؛ لأنَّ اللهَ قوَّىٰ نفسَ موسىٰ بذلك الجوابِ؛ لتكونَ غلَبَتُه عليهم بعد أن كانوا هم المبتدِئينَ أوقَعَ حُجَّةً، وأقطَعَ معذرةً، وبهذا يَظهَرُ أن ليس في أمرِ موسىٰ ﷺ إيَّاهم بالتقدمِ ما يقتضي تسويغَ معارَضةِ دعوةِ الحق؛ لأنَّ القومَ كانوا معروفين بالكفرِ بما جاء به موسىٰ، فليس في معارَضتِهم إيَّاه تجديدُ كفرٍ، ولأنَّهم جاؤوا مصمِّمينَ علىٰ معارَضتِه، فليس الإذنُ لهم تسويغًا، ولكنَّهم خيَّروه في التقدُّم أو يتقدَّموا، فاختار أن يتقدَّموا[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٠).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٤٧).

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ولمَّا تناهى الأمرُ، واشتدَّ التشوُّفُ إلى ما صنَع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال مُعلِمًا عنه عطفًا على ﴿وَجَآءُو﴾: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[(١)].

جملةُ ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ معطوفةٌ على جُمَلِ ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾؛ فهي في حيِّزِ جوابِ «لما»؛ أي: لمَّا ألقَوْا، سحَروا، وأوحَيْنا إلى موسى أن ألقِ لهم عصاك[(٢)].

بعد أن ألقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم في الساحةِ، وانقلَبَتْ بالتمويهِ السِّحريِّ حيَّاتٍ وثعابينَ، ورَهِبَ الناسُ مِن الموقفِ، وظنَّ فِرْعونُ وملؤُه أنَّهم غالبون: أوحى اللهُ تعالى إلى موسى أن يُلقِيَ عصاه، فألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[(٣)].

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم أنَّ ما صنَعوه إنَّما هو خيالٌ، وما صنَعه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أثبَتُ مِن الجبالِ: سبَّب معقِّبًا قولَه: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٤)].

قولُه: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ تفريعٌ على ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[(٥)].

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ثم سبَّب عن هذا قولَه: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٤٩).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢١٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٨).

(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٥٠).

(٦) نظم الدرر (٨/ ٢٩).

عُطِف عليه جملةُ ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾ بالفاء؛ لحصولِ المغلوبيَّةِ إثرَ تلقُّفِ العصا لإفكِهم[(١)].

مع ثبوتِ هذا الحقِّ، زالت الأعيانُ التي أفكُوها؛ وهي تلك الحِبالُ والعِصِيُّ؛ فعند ذلك ظهَرتِ الغلَبةُ؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾؛ لأنَّه لا غلبةَ أظهَرُ مِن ذلك، ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾؛ لأنَّه لا ذُلَّ ولا صَغارَ أعظَمُ في حقِّ المُبطِلِ مِن ظهورِ بطلانِ قوله وحُجَّتِه علىٰ وجهٍ لا يمكِنُ فيه حيلةٌ ولا شُبْهةٌ أصلًا.

﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان الأدبُ وذُلُّ النَّفسِ لا يأتي إلا بخيرٍ؛ لأنَّه اللائقُ بالعبيد: قاد كثيرًا منهم إلىٰ السَّعادةِ الأبديَّة؛ فلذلك قال: ﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾[(٢)].

عطَف علىٰ ﴿ فَغُلِبُواْ ﴾: ﴿وَٱنقَلَبُواْ ﴾؛ فهو في حيِّزِ فاءِ التعقيب؛ أي: حصَل ذلك كلُّه عَقِبَ تلقُّفِ العصا ما يأفِكون؛ أي: بدُونِ مهلةٍ، وتعقيبُ كلِّ شيء بحسَبِه؛ فسجودُ السَّحرةِ متأخِّرٌ عن مصيرِهم صاغرِين، ولكنَّه متأخِّرٌ بزمَنٍ قليل، وهو زمنُ انقداحِ الدليل علىٰ صِدْقِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفوسهم[(٣)].

لمَّا كان الضميرُ قبلُ مشتركًا، جُرِّد المؤمنون، وأُفرِدوا بالذِّكْرِ؛ والمعنىٰ: خَرُّوا سُجَّدًا كأنَّما ألقاهم مُلْقٍ؛ لشِدَّةِ خُرورِهم[(٤)].

لمَّا شاهَدوا الآياتِ العظيمةَ، والمعجِزات القاهرة: لم يَتمالكوا أن وقَعوا ساجدين، فصار كأنَّ مُلقِيًا ألقاهم[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٥١).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٥٢).

(٤) البحر المحيط (٥/ ١٣٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣٧).

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١﴾

ولـمَّا كانوا بمَعرِضِ التَّشوُّفِ العظيم إلىٰ معرفةِ قولِهم بعد فعلِهم، أخبَر عن ذلك سبحانه بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

جملةُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جملةِ «أُلقيَ السحرة»؛ لأنَّ الهويَّ للسجودِ اشتمَل علىٰ ذلك القولِ، وهم قصَدوا مِن قولِهم ذلك الإعلانَ بإيمانِهم بالله؛ لئلا يظُنَّ النَّاسُ أنَّهم سجَدوا لفِرْعونَ؛ إذ كانت عادةُ القِبْطِ السجودَ لفِرْعونَ؛ ولذلك وصَفوا اللهَ بأنَّه ربُّ العالَمين، بالعُنْوانِ الذي دعا به موسىٰ عليه السلام، ولعلَّهم لم يكونوا يَعرِفون اسمًا علَمًا لله تعالىٰ؛ إذ لم يكُنْ للهِ اسمٌ عندهم، وقد عُلِم بذلك أنَّهم كفَروا بإلاهيَّةِ فِرْعونَ[(٢)].

﴿سَٰجِدِينَ﴾ قائلين؛ فـ «قالوا» في موضعِ الحال مِن الضميرِ في ﴿سَٰجِدِينَ﴾، أو مِن «السحرة»، وعلىٰ التقديرينِ فهم ملتبِّسون بالسجودِ لله شكرًا علىٰ المعرفةِ والإيمان، والقولِ المنبِئِ عن التَّصديقِ الذي محَلُّه القلوبُ، ولـمَّا كان السجودُ أعظَمَ القُرْبِ - إذ أقرَبُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ -، بادَروا به متلبِّسين بالقولِ الذي لا بد منه عند القادرِ عليه؛ إذ الدخولُ في الإيمانِ إنَّما يدل عليه القولُ، وقالوا: «رب العالمين» وِفاقًا لقولِ موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)].

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾

ثم خَصُّوا مَن هداهم اللهُ علىٰ أيديهما؛ تصريحًا بالمرادِ، وتشريفًا لهما، فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٥٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٤٠).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٣٠).

وزادوا هذا القصدَ بيانًا بالإبدالِ مِن ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قولَهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لئلا يُتوهَّمَ المبالغةُ في وصفِ فِرْعونَ بأنَّه ربُّ جميعِ العالَمين[١].

لما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال لهم فِرْعونُ: إيَّاي تعنون؟ فلمَّا قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾، قال: إيَّاي تعنون؛ لأنِّي أنا الذي ربَّيتُ موسىٰ؟ فلمَّا قالوا: ﴿وَهَٰرُونَ﴾، زالت الشُّبْهة[٢].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

الاستفهامُ للإنكارِ والتهديد مَجازًا مرسَلًا مركَّبًا، والإخبارُ مستعمَلٌ كذلك أيضًا؛ لظهورِ أنَّه لا يَقصِدُ حقيقةَ الاستفهام، ولا حقيقةَ الإخبار؛ لأنَّ المخاطَبين صرَّحوا بذلك وعَلِموه، والضميرُ المجرور بالباء عائدٌ إلىٰ موسىٰ؛ أي: آمَنتم بما قاله؟ أو إلىٰ ربِّ موسىٰ[٣].

ولمَّا صرَّحوا بالذي آمَنوا به تصريحًا منَع فِرْعونَ أن يدلِّسَ معه بما يخيِّلُ به علىٰ قومِه، شرَع في تهديدِهم علىٰ وجهٍ يمكُرُ فيه بقومِه، ويلبِّسُ عليهم؛ إيقافًا لهم عن المبادرةِ إلىٰ الإيمان - كما بادَر السَّحَرةَ - إلىٰ وقتٍ ما؛ فاستأنَف الخبَرَ عنه سبحانه بقولِه مصرِّحًا باسمِه، غيرَ مُضمِرٍ له -كما في غيرِ هذه السورةِ-؛ لأنَّ مقصودَ السورةِ الإنذارُ، وهو أحسَنُ الناسِ بالمناداة عليه في ذلك المقامِ، وقصَّتُه مسُوقةٌ لبيانِ فِسْقِ الأكثر، وهو أفسَقُ أهلِ ذلك العصرِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٥٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٣٠).

اعلَمْ أنَّ فِرْعونَ لمَّا رأىٰ أنَّ أعلَمَ الناسِ بالسِّحر أقَرَّ بنبوَّةِ موسىٰ عليه السلام عند اجتماعِ الخَلْقِ العظيم، خافَ أن يصيرَ ذلك حُجَّةً قوية عند قومِه علىٰ صحةِ نبوَّة موسىٰ عليه السلام؛ فألقىٰ في الحالِ نوعينِ مِن الشُّبْهةِ إلىٰ أسماع العوام؛ لتصيرَ تلك الشبهةُ مانعةً للقوم مِن اعتقادِ صحة نبوَّة موسىٰ عليه السلام[1].

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

ولمَّا استتَبَّ له ما أراد مِن دقيقِ المكرِ، شرَع في تهديدِهم بما يَمنَعُ غيرَهم، وربما ردَّهم، فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

حذَف مفعولَ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ لقصدِ الإجمالِ في الوعيد؛ لإدخالِ الرعبِ، ثم بيَّنه بجملةِ ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾. ووقوعُ الجمعِ معرَّفًا بالإضافة يُكسِبُه العمومَ، فيعُمُّ[3].

لمَّا ظهَرتِ الحُجَّةُ، عاد إلىٰ عادةِ ملوك السَّوْءِ إذا غلبوا مِن تعذيبِ مَن ناوأهم، وإن كان محقًّا[4].

ثم إنَّه لم يقتصِرْ علىٰ هذا الوعيدِ المجمَل، بل فسَّره فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[5].

ثم عقَّبه بالتَّفصيلِ، فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[6].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣٨).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٣١).
(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٥٤).
(٤) البحر المحيط (٥/ ١٤١).
(٥) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣٩).
(٦) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦١).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾

ولمَّا كان حالًا يشوِّقُ النفوسَ إلىٰ جوابهم، استأنفه بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[١].

فُصِلت جملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ لوقوعِها في سياقِ المحاورة[٢].

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ للجوابِ عن سؤالٍ ينساقُ إليه الذِّهنُ، كأنَّه قيل: فماذا قال السَّحرةُ عندما سَمِعوا وعيدَ فِرْعونَ؛ هل تأثَّروا به، أو تصلَّبوا فيما هم فيه مِن الدِّين؟ فقيل: قالوا ثابتينَ علىٰ ما أحدَثوا مِن الإيمانِ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[٣].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾

ثم بيَّنوا أنَّ عقابَ فِرْعونَ لا غضاضةَ عليهم منه؛ لأنَّه لم يكُنْ عن جنايةٍ تَصِمُهم، بل كان علىٰ الإيمانِ بآياتٍ لمَّا ظهرتْ لهم[٤].

ثم حكىٰ تعالىٰ عن القومِ ما لا يجوز أن يقعَ مِن المؤمنِ عند هذا الوعيدِ أحسَنُ منه؛ وهو قولُهم لفِرْعونَ: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، فبيَّنوا أنَّ الذي كان منهم لا يوجِبُ الوعيدَ، ولا إنزالَ النِّقمة بهم، بل يقتضي خلافَ ذلك؛ وهو أن يتأسىٰ بهم في الإقرارِ بالحقِّ، والاحترازِ عن الباطلِ عند ظهور الحُجَّةِ والدليل[٥].

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٥٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٢).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٥٦).

(٥) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣٩).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

ولمَّا قَنِع فِرْعونُ في ذلك الوقتِ الذي بهرَتْ قومَهُ تلك المعجِزةُ الظاهرة بالانفصالِ علىٰ هذا الوجهِ الذي لم يدَعْ فيه حيلةً إلا خيَّل بها، وخلَص موسىٰ ﷺ بقومِه متمكِّنًا منهم بعضَ التَّمكُّن، وكان السياقُ لبيانِ أنَّ أكثرَ الخَلْقِ فاسقٌ: أخبَر تعالىٰ بما قال قومُ فِرْعونَ بعدما رأَوْا مِن المُعجِزِ القاهرِ دليلًا علىٰ ذلك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[1].

جملةُ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾، أو علىٰ جملةِ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾. وإنَّما عُطِفت ولم تُفصَلْ؛ لأنَّها خارجةٌ عن المحاوَرة التي بَيْنَ فِرْعونَ ومَن آمَن مِن قومِه بموسىٰ وآياته؛ لأنَّ أولئك لم يعرِّجوا علىٰ ذِكْرِ ملأِ فِرْعونَ، بل هي محاورَةٌ بَيْنَ ملأ فِرْعونَ وبَيْنَه في وقتٍ غيرِ وقت المحاورة التي جرَتْ بَيْنَ فِرْعونَ والسَّحَرةِ؛ فإنَّهم لمَّا رأَوْا قلةَ اكتراثِ المؤمنين بوعيدِ فِرْعونَ، ورأَوْا نهوضَ حُجَّتِهم علىٰ فِرْعونَ وإفحامه، وأنَّه لم يُحِرْ جوابًا: رامُوا إيقاظَ ذهنِه، وإسعارَ حميَّتِه؛ فجاؤوا بهذا الكلامِ المثيرِ لغضبِ فِرْعونَ[2].

تضمَّن قولُ الملأِ إغراءَ فِرْعونَ بموسىٰ وقومِه، وتحريضَه علىٰ قتلِهم وتعذيبهم؛ حتىٰ لا يكونَ لهم خروجٌ عن دِينِ فِرْعونَ، ويَعني بـ(قومه) مَن اتبعَه مِن بني إسرائيلَ، فيكونُ الاستفهامُ علىٰ هذا استفهامَ إنكارٍ وتعجُّب[3].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٥٧).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٤٣).

اعلَمْ أنَّ بعد وقوعِ هذه الواقعةِ لم يتعرَّضْ فِرْعونُ لموسىٰ، ولا أخذه، ولا حبَسه، بل خلَّىٰ سبيلَه، فقال قومُه له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا يَزيدُ مِن قلقِ بني إسرائيلَ لِما شمُّوا مِن رائحةِ الفرَجِ، استأنَف سبحانه الخبرَ عمَّا ثبَّتهم به موسىٰ عليه السلام قائلًا: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

جملةُ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ واقعةٌ جوابًا لقولِ قومه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ إلىٰ آخِرِها الذي أجابوا به عن وعيدِ فِرْعونَ، فكان موسىٰ عليه السلام معدودًا في المحاوَرةِ؛ ولذلك نزَل كلامُه الذي خاطَب به قومَه منزلةَ جوابٍ منه لفِرْعونَ؛ لأنَّه في قوَّةِ التصريحِ بقلَّةِ الاكتراثِ بالوعيد، وبدَفْعِ ذلك بالتوكُّلِ علىٰ الله(٣).

لمَّا توعَّدهم فِرْعونُ، جَزِعوا وتضجَّروا؛ فسكَّنهم موسىٰ عليه السلام، وأمَرهم بالاستعانةِ بالله وبالصبرِ، وسلَّاهم، ووعَدهم النصرَ، وذكَّرهم ما وعَد اللهُ بني إسرائيلَ مِن إهلاكِ القِبْطِ، وتوريثِهم أرضَهم وديارَهم(٤).

ثم حكىٰ تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام أنَّه قال لقومِه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الذي قاله الملأُ لفِرْعونَ والذي قال فِرْعونُ لهم قد عرَفه موسىٰ عليه السلام،

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٠).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٥٩).

(٤) البحر المحيط (٥/ ١٤٤).

ووصَل إليه؛ فعند ذلك قال لقومِه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

ولمَّا صمَّم فِرْعونُ علىٰ ما ذكَره مِن المَساءةِ لبني إسرائيلَ، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، ووعَدهم بالعاقبةِ، وأنَّ الدارَ ستَصيرُ لهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ ما كان مِن جوابِهم، أشار تعالىٰ أنَّ قلَقَهم كان وصَل إلىٰ حدٍّ لا صبرَ معه بقولِه مستأنِفًا: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾(٣).

﴿قَالُوٓاْ﴾ حكايةُ جوابِ قومِ موسىٰ إيَّاه؛ فلذلك فُصِلت جملةُ القولِ علىٰ طريقةِ المحاوَرة، وهذا الخبرُ مستعمَلٌ في الشِّكايةِ، واستثارتِهم موسىٰ ليدعوَ ربَّه أن يفرِّجَ كَرْبَهم(٤).

لمَّا سَمِعوا ما ذكَره فِرْعونُ مِن التهديدِ والوعيد، خافوا وفَزِعوا، وقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾؛ وذلك لأنَّ بني إسرائيلَ كانوا قبل مجيءِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مستضعَفِينَ في يدِ فِرْعونَ اللعينِ، فكان يأخذُ منهم الجِزْيةَ، ويستعملُهم في الأعمالِ الشاقَّة، ويَمنَعُهم مِن الترفُّهِ والتنعُّم، ويقتُلُ أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم،

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٠).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٧).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٦١).

فلمَّا بعَث اللهُ تعالىٰ موسىٰ عليه السلام، قَوِيَ رجاؤُهم في زوالِ تلك المَضارِّ والمتاعب، فلمَّا سَمِعوا أنَّ فِرْعونَ أعاد التهديدَ مرَّةً ثانية، عظُمَ خوفُهم وحزنُهم؛ فقالوا هذا الكلامَ[1].

﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ولمَّا رجَّاهم موسىٰ عليه السلام بذلك، أخبَر سبحانه أنَّه فعَل ما أخبَرهم به، فذكَر مقدِّماتِه، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[2].

هذا انتقالٌ إلىٰ ذِكْرِ المصائبِ التي أصاب اللهُ بها فِرْعونَ وقومَه، وجعَلها آياتٍ لموسىٰ عليه السلام؛ ليُلجِئَ فِرْعونَ إلىٰ الإذنِ لبني إسرائيلَ بالخروج، وقد وقَعتْ تلك الآياتُ بعد المعجِزةِ الكبرىٰ التي أظهَرها اللهُ لموسىٰ عليه السلام في مَجمَعِ السَّحرة، ويَظهَرُ أنَّ فِرْعونَ أغضىٰ عن تحقيقِ وعيدِه إبقاءً علىٰ بني إسرائيلَ؛ لأنَّهم كانوا يقومون بالأشغالِ العظيمة لفِرْعونَ[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن موسىٰ عليه السلام أنَّه قال لقومِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ ﴾، لا جرَمَ بدأ هاهنا بذِكْرِ ما أنزَله بفِرْعونَ وبقومِه مِن المِحَنِ حالًا بعد حالٍ، إلىٰ أن وصَل الأمرُ إلىٰ الهلاك؛ تنبيهًا للمكلَّفِين علىٰ الزَّجْرِ عن الكفر، والتمسُّكِ بتكذيبِ الرُّسل؛ خوفًا مِن نزولِ هذه المِحَنِ بهم، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[4].

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٢).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٦٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٣).

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ شروعٌ في تفصيلِ مَبادي الهلاكِ الموعود، وإيذانٌ بأنَّه تعالىٰ لم يُمهِلْهم بعد ذلك، ولم يكونوا في خفضٍ ودَعَةٍ، بل رُتِّبتْ أسبابُ هلاكهم، فتحوَّلوا مِن حالٍ إلىٰ حالٍ، إلىٰ أن حلَّ بهم عذابُ الاستئصال(١).

ثم بيَّن تعالىٰ ما أحَلَّ بفِرْعونَ وقومِه مِن الضَّراءِ لمَّا تأبَّىٰ عن إجابةِ موسىٰ، وإرسالِ قومِه معه، بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾(٢).

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

لمَّا لم يتذكَّروا ولا لانُوا، سبَّب عن أخذِهم قولَه معرِّفًا بغباوتِهم، معبِّرًا في الخيرِ بأداةِ التَّحقيق إشارةً إلىٰ أنَّه أغلَبُ مِن الشرِّ؛ حثًّا علىٰ الشكرِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾(٣).

الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ لتفريعِ هذا الخبرِ علىٰ جملة ﴿أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾؛ أي: فكان حالُهم إذا جاءتهم الحسنةُ إلخ... والمعنىٰ: فلم يتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كفرًا وغرورًا(٤).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّهم مع تلك المِحَنِ عليهم والشدائِد، لم يزدادوا إلا تمرُّدًا وكفرًا، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٣).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ١٧٠).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٨-٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٦٤).

(٥) محاسن التأويل (٥/ ١٧٠).

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الذي قالوه يدلُّ علىٰ سُوءِ المِزاج، وجَلافةِ الطِّباعِ بما لا يَقبلُ العلاج: أتبَعه ما هو شرٌّ منه؛ وهو أنَّهم جزَموا بأنَّه كلَّما أتاهم شيءٌ في المستقبَل، قابَلوه بالكفرِ، فقال: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ وَقَالُواْ ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ الآيةَ؛ فهم قابَلوا المصائبَ التي أصابهم اللهُ بها ليَذَّكَّروا بازديادِ الغُرور، فأَيِسوا مِن التذكُّر بها، وعانَدوا موسىٰ حين تحدَّاهم بها، فقالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ مِن أعمالِ سِحْرِك العجيبةِ ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: فلا تُتعِبْ نفسَك في السِّحر(٢).

الضميرُ في ﴿ وَقَالُواْ ﴾ عائدٌ علىٰ ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، لم يَزِدْهم الأخذُ بالجُدُوبِ ونقصِ الثمرات إلا طغيانًا وتشدُّدًا في كفرِهم وتكذيبِهم، ولم يكتفوا بنسبةِ ما يصيبُهم مِن السيئاتِ إلىٰ أنَّ ذلك بسببِ موسىٰ ومَن معه حتىٰ واجَهوه بهذا القولِ الدالِّ علىٰ أنَّه لو أتىٰ بما أتىٰ مِن الآياتِ، فإنَّهم لا يؤمِنون بها، وأتَوْا بـ ﴿مَهْمَا﴾ التي تقتضي العمومَ، ثم فسَّروا بـ ﴿ءَايَةٍ﴾ علىٰ سبيلِ الاستهزاء في تسميتِهم ذلك آيةً(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عنهم في الآيةِ الأُولىٰ أنَّهم لجهلِهم أسنَدوا حوادثَ هذا العالَمِ لا إلىٰ قضاءِ الله تعالىٰ وقَدَرِه، فحكىٰ عنهم في هذه الآيةِ نوعًا آخَرَ مِن أنواعِ الجهالةِ والضَّلالة؛ وهو أنَّهم لم يميِّزوا بَيْنَ المعجِزاتِ وبين السِّحر، وجعَلوا جملةَ الآياتِ - مثل انقلابِ العصا حيَّةً - مِن بابِ السِّحْرِ منهم، وقالوا لموسىٰ: إنَّا لا نَقبَلُ شيئًا منها البتَّةَ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٦٨).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٤٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٥).

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ شروعٌ في بيانِ بعضٍ آخرَ ممَّا أُخِذ به آلُ فِرْعونَ مِن فنونِ العذاب، التي هي في أنفسِها آياتٌ بيِّنات، وعدمِ ارْعِوائِهم مع ذلك عمَّا كانوا عليه مِن الكفرِ والعناد[١].

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

ولمَّا بارزوا بهذه العظيمةِ، استحقُّوا النَّكالَ؛ فسبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[٢].

والفاءُ في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ لتفريعِ إصابتِهم بهذه المصائبِ على عُتُوِّهم وعنادِهم[٣].

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

لمَّا كان هذا في الحقيقةِ نقضًا لِما أخذه اللهُ على العبادِ بعهدِ العقل، أتبَعه نقضًا حقيقيًّا، فقال مبيِّنًا لحالِهم عند كلِّ آيةٍ - ولعلَّه عبَّر بما يَشمَلُها، ولم ينُصَّ على التَّكرارِ؛ لأنَّ ذلك كافٍ فيما ذكَر مِن النقضِ والفِسق -: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٤).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٠-٤١).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٦٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٤٢).

﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ العذابُ؛ فالتعريفُ باللام هنا للعهدِ؛ أي: العذابُ المذكور؛ وهو ما في قولِه تعالىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، و﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ مِن أسماءِ الطاعون[(١)].

الظاهرُ أنَّ ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ هنا: هو ما كان أُرسِلَ عليهم مِن الطوفانِ، والجرادِ، والقُمَّلِ، والضَّفادعِ، والدَّمِ، فإن كان أريدَ الظاهرُ، كان سؤالُهم موسىٰ بعد وقوعِ جميعِها، لا بعدَ وقوعِ نوعٍ منها، ويحتمِلُ أن يكونَ المعنىٰ: ولمَّا وقَع عليهم نوعٌ مِن الرِّجْزِ، فيكونَ سؤالُهم قد تخلَّل بَيْنَ نوعٍ ونوع، ومعنىٰ ﴿وَقَعَ عَلَيۡهِمُ﴾: نزَل عليهم، وثبَت[(٢)].

إنَّه تعالىٰ بيَّن ما كانوا عليه مِن المناقَضةِ القبيحة؛ لأنَّهم تارةً يكذِّبون موسىٰ عليه السلام، وأخرىٰ عند الشدائدِ يَفزَعون إليه فزَعَ الأمَّةِ إلىٰ نبيِّها، ويَسألونه أن يَسألَ ربَّه رَفْعَ ذلك العذابِ عنهم؛ وذلك يقتضي أنَّهم سلَّموا إليه كونَه نبيًّا مجابَ الدعوةِ، ثم بعد زوالِ تلك الشدائدِ يعُودون إلىٰ تكذيبِه، والطعنِ فيه، وأنَّه إنَّما يصلُ إلىٰ مَطالبِه بسِحْرِه؛ فمِن هذا الوجهِ، يَظهَرُ أنَّهم يناقِضون أنفسَهم في هذه الأقاويلِ[(٣)].

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

جملةُ ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾ دالَّةٌ علىٰ أنَّ موسىٰ دعا الله برَفْعِ الطاعونِ؛ فارتفَع، وقد جاء ذلك صريحًا في التَّوراةِ، وحُذِف هنا للإيجاز[(٤)].

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٧١).
(٢) البحر المحيط (٥/ ١٥٢).
(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٧).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٧٣).

في الكـلامِ حـذفٌ دلَّ عليـه المعنـىٰ؛ وهـو فـدعَا موسـىٰ، فكشَـف عـنهم الرِّجْـزَ، وأسنَد تعالىٰ الكشفَ إليه؛ لأنَّه هو الكاشفُ حقيقةً، فلمَّا كـان مِن قـولِهم، أسنَدوه إلـىٰ موسىٰ، وهـو إسـنادٌ مجـازيٌّ، ولمَّـا كـان إخبـارًا مِـن اللهِ، أسـنَده تعـالىٰ إليـه؛ لأنَّه إسنادٌ حقيقيٌّ، ولمَّا كان الرِّجْزُ مِن جملةٍ أخرىٰ غيرِ مقولةٍ لهـم، حسُـنَ إظهـارُه دُونَ ضميرِه[١].

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ ﴾

لمَّا أخبَر أنَّهم فاجَؤوا النَّكْثَ وكـرَّروه، سبَّب عنه قولَـه: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾[٢].

هـذا محَـلُّ العِبْـرةِ مِـن القصـة؛ فهـو مفـرَّعٌ عليهـا تفريـعَ النَّتيجـةِ علـىٰ المقـدِّمات، والفَذْلكةِ علىٰ القصـة؛ فإنَّـه بعـد أن وصَـف عنـادَ فِرْعـونَ وملَئِـه، وتكـذيبَهم رسـالةَ موسىٰ، واقتراحَهم علىٰ موسىٰ أن يجيءَ بآيةٍ، ومشاهدتَهم آيةَ انقلابِ العصـا ثعبانًـا وتغييرِ لونِ يدِه، ورميَهم موسىٰ بالسِّحرِ وسُوءِ المَقصِد، ومعارَضةَ السَّـحرةِ معجـزةَ موسىٰ، وتغلُّبَ موسىٰ عليهم، وكيف أخَذ اللهُ آلَ فِرْعونَ بمصائبَ جعَلها آياتٍ علىٰ صدقِ موسىٰ، وكيف كابَروا وعانَدوا، حتىٰ أُلجِئوا إلىٰ أن وعَـدوا موسـىٰ بالإيمـانِ، وتسريحِ بني إسرائيلَ معه، وعاهَدوه علىٰ ذلك؛ فلمَّـا كشَـف عـنهم الرِّجْـزَ، نكَثـوا، فأخبَر اللهُ بأنَّ ذلك ترتَّب عليه استئصالُ المستكبِرين المعانِدين، وتحريـرُ المـؤمنين الذين كانوا مستضعَفِين[٣].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٥٣).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٧٤).

لمَّا كشَف عنهم العذابُ مِن قبلُ مرَّاتٍ وكرَّاتٍ، ولم يَمتنعوا عن كفرِهم وجهلِهم، ثم بلَغوا الأجلَ المؤقَّت: انتقَم منهم بأن أهلَكهم بالغرقِ(١).

ولمَّا لم يتَّعِظوا بما شاهَدوه ممَّا تقدَّم، أتَتْهم النِّقْمةُ القاضية؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾(٢).

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾

ولمَّا أخبَر عن إهلاكهم، عطَف عليه ما صنَع ببني إسرائيلَ، فقال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾. والمعنىٰ: فأخَذْناهم بالعقابِ الذي استحَقُّوه، وجازَيْنا بني إسرائيلَ بنِعْمةٍ عظيمة(٤).

لمَّا قال موسىٰ عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، كان كما ترَجَّىٰ موسىٰ؛ فأغرَق أعداءَهم في اليمِّ، واستخلَف بني إسرائيل في الأرضِ(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٨).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ١٧٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٧٦).

(٥) البحر المحيط (٥/ ١٥٤).

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ ما أراهم سبحانه مِن الأفعالِ الهائلة التي استخلَصهم بها مِن ذلك الجبَّارِ، شرَع يذكُرُ ما قابَلوه به مِن الجهلِ به سبحانه، وما قابَلهم به مِن الحِلْمِ، ثم ما أحَلَّ بهم بعد طُولِ المُهْلةِ؛ مِن ضربِ الذِّلَّةِ، والمَسْخِ بصورةِ القِرَدة، فقال عاطفًا علىٰ قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أو قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

لمَّا تمَّت العِبْرةُ بقصةِ بعثِ موسىٰ عليه السلام إلىٰ فِرْعونَ وملَئِه، وكيف نصَره اللهُ علىٰ عدوِّه، ونصَر قومَه بني إسرائيلَ، وأهلَك عدوَّهم؛ كشأنِ سُنَّةِ اللهِ في نصرِ الحقِّ علىٰ الباطلِ: استرسَل الكلامُ إلىٰ وصفِ تكوينِ أمَّةِ بني إسرائيلَ، وما يَحِقُّ أن يُعتبَرَ به مِن الأحوالِ العارضة لهم في خلالِ ذلك ممَّا فيه طُمَأنينةُ نفوسِ المؤمنين الصالحين في صالحِ أعمالهم، وتحذيرُهم ممَّا يَرمي بهم إلىٰ غضبِ الله فيما يُحقِّرون مِن المخالَفاتِ؛ لِما في ذلك كلِّه مِن التَّشابهِ في تدبيرِ اللهِ تعالىٰ أمورَ عبيدِه، وسُنَّتِه في تأييدِ رُسلِه وأتباعهم، وإيقاظِ نفوس الأمَّةِ إلىٰ مراقَبةِ خواطرِهم، ومحاسبةِ نفوسِهم في شكرِ النِّعْمةِ، ودَحْضِ الكفرانِ[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنواعَ نِعَمِه علىٰ بني إسرائيلَ؛ بأن أهلَك عدوَّهم، وأورَثهم أرضَهم وديارَهم: أتبَع ذلك بالنِّعْمةِ العظمىٰ؛ وهي أن جاوَز بهم البحرَ مع السَّلامةِ، ولمَّا بيَّن تعالىٰ في سائرِ السُّوَرِ كيف سيَّرهم في البحرِ مع السَّلامة؛ وذلك بأن فلَق

(١) نظم الدرر (٨/ ٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٧٩).

البحرَ عند ضربِ موسىٰ البحرَ بالعصا، وجعَله يبَسًا: بيَّن أنَّ بني إسرائيلَ لمَّا شاهَدوا قومًا يعكُفون علىٰ عبادةِ أصنامهم، جَهِلوا، وارتَدُّوا، وقالوا لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، ولا شكَّ أنَّ القومَ لمَّا شاهَدوا المعجِزاتِ الباهرةَ التي أظهَرها اللهُ تعالىٰ لموسىٰ علىٰ فِرْعونَ، ثم شاهَدوا أنَّه تعالىٰ أهلَكَ فِرعونَ وجنودَه، وخصَّ بني إسرائيلَ بأنواعِ السَّلامةِ والكرامة، ثم إنَّهم بعد هذه المواقفِ والمقامات يذكُرون هذا الكلامَ الفاسد الباطلَ: كانوا في نهايةِ الجهل، وغايةِ الخلاف[1].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروعٌ في قصةِ بني إسرائيلَ، وشرحِ ما أحدَثوه مِن الأمورِ الشنيعة بعد أن أنقَذهم اللهُ عَجَلَّ مِن مَلَكةِ فِرْعونَ، ومَنَّ عليهم مِن النِّعَم العظام الموجِبة للشُّكر، وأراهم مِن الآياتِ الكبار ما تَخِرُّ له شُمُّ الجبالِ؛ تسليةً لرسولِ الله ﷺ، وإيقاظًا للمؤمنين؛ حتىٰ لا يغفُلوا عن محاسَبةِ أنفسِهم، ومراقَبة أحوالهم[2].

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

ولمَّا استُفيد مِن كلامِه لهم غايةُ الإنكار عليهم، علَّل هذا الإنكارَ بقوله: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].

جملةُ ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ بمعنىٰ التعليلِ لمضمونِ جملة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ فلذلك فُصِلت عنها، وقد أُكِّدتْ وجُعِلت اسميةً لمثلِ الأغراض التي ذُكِرتْ في أختها، وقد عُرِّف المسنَدُ إليه بالإشارةِ؛ لتمييزِهم بتلك الحالةِ التي هم متلبِّسون بها

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٤٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٧١).

أكمَلَ تمييز، وللتَّنبيهِ علىٰ أنَّهم أحرياءُ بما يَرِدُ بعد اسمِ الإشارة مِن الأوصاف؛ وهي كونُهم مُتبَّرًا أمرُهم، وباطلًا عملُهم(١).

وواصَل تأنيبَهُ لهم، وإنكارَه الشديدَ عليهم، فقال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾

ولمَّا كان هذا استدلالًا علىٰ أنَّ مِثلَ هذه الأصنامِ التي مَرُّوا عليها لا تصلُحُ لأن تعبُدَ، كان ذلك غيرَ كافٍ لهم؛ لِما تقرَّر مِن جهلِهم؛ فربما ظنُّوا أنَّ غيرَها ممَّا سِوىٰ الله تجوزُ عبادتُه، فكأنَّه قيل: هذا لا يكفي جوابًا لمثلِ هؤلاء، فهل قال لهم غيرَ ذلك؟ فقيل: نعم؛ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

الاستفهامُ بقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ للإنكارِ والتَّعجُّبِ مِن طلَبِهم أن يَجعَلَ لهم إلهًا غيرَ الله، وقد أُولِيَ المستفهَمُ عنه الهمزةَ؛ للدَّلالةِ علىٰ أنَّ محَلَّ الإنكارِ هو اتخاذُ غيرِ الله إلهًا؛ فتقديمُ المفعولِ الثاني للاختصاصِ؛ للمبالغةِ في الإنكار؛ أي: اختصاص الإنكارِ ببَغْيِ غيرِ الله إلهًا(٤).

ما أحسَنَ ما خاطَبهم موسىٰ عليه السلام! بدَأهم أولًا بنسبتِهم إلىٰ الجهل، ثم ثانيًا أخبَرهم بأنَّ عُبَّادَ الأصنامِ ليسوا علىٰ شيءٍ، بل مآلُ أمرِهم إلىٰ الهلاك، وبطلانِ العمل، وثالثًا أنكَر وتعجَّب أن يقعَ هو عليه السلام في أن يبغيَ لهم غيرَ الله إلهًا؛ أي: أغيرَ المستحِقِّ

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٨٢).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٢٣٢).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٧١-٧٢).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٨٣).

للعبادةِ والألوهية أطلُبُ لكم معبودًا وهو الذي شرَّفكم واختصَّكم بالنِّعَمِ التي لم يُعطِها مَن سلَف مِن الأُمَمِ لا إلهَ غيرُه؟! فكيف أبغي لكم إلهًا غيرَه؟![1].

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ شروعٌ في بيانِ شؤون الله تعالىٰ الموجِبةِ لتخصيصِ العبادة به تعالىٰ، بعد بيانِ أنَّ ما طلَبوا عبادتَه ممَّا لا يمكِنُ طلبُه أصلًا؛ لكونِه هالكًا باطلًا؛ ولذلك وسَّط بينهما ﴿ قَالَ ﴾، مع كونِ كلٍّ منهما كلامَ موسىٰ عليه السلام[2].

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

ولمَّا أثبَت أنَّ الإلهيَّةَ لا تصلُحُ لغيره، وأنَّ غيرَه لم يكُنْ يَقدِرُ علىٰ تفضيلِهم، وكان المقامُ للعظمةِ، وكان كأنَّه قيل - إيذانًا بغِلَظِ أكبادِهم، وقلَّة فِطْنتهم، وسُوءِ مقابلتِهم للمنعِم -: اذكُروا ذلك؛ أي: تفضيلَه لكم باصطفاءِ آبائكم إبراهيمَ وإسحاق ويعقوب، وما تقدَّم له عندهم وعند أولادِهم مِن النِّعَم، لا سيَّما يوسف عليه السلام، الذي حكَّمه في جميعِ الأرض التي استذَلَّكم أهلُها: عطَف عليه إشارةً إليه قولَه - التفاتًا إلىٰ مظهرِ العظمةِ؛ تذكيرًا بعظمةِ مدخولِه -: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[3].

مِن تتمَّةِ كلامِ موسىٰ عليه السلام؛ كما يقتضيه السياقُ؛ والمعنىٰ: أأبتغي لكم إلهًا غيرَ الله في حالِ أنَّه فضَّلكم علىٰ العالَمين[4].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ١٥٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٦٨).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٧٢).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٨٤).

ثـم ذكَّـرهم بمـا امـتَنَّ اللهُ بـه علـيهم، فقـال: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[1].

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾

ولمَّا ذكَّرهم بنِعْمةِ إنجاء الأبدان، أتبعَها التَّذكيرَ بأكبرَ منها؛ إذ كانت لحفظِ الأديان، وصيانةِ جوهرةِ الإيمان، بما نصَب لهم مِن الشَّرعِ في التَّوراة، فقال معجِّبًا مِن حالِهم - إذ كان في الإنعامِ عليهم بنصبِ الشَّرعِ الهادي لهم مِن الضَّلالِ، واختصاصِ نبيِّهم بمزيدِ القُرْبِ بالمناجاة، وهم في اتخاذِ إلهٍ سِواه، لا نفعَ فيه أصلًا، ولا يَرضَىٰ قلبٌ أو عقلٌ أن يعبُدَه - عاطفًا له علىٰ ما سبَق تعجيبُه به منهم في قولِه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[2].

عَوْدٌ إلىٰ بقيةِ حوادثِ بني إسرائيلَ بعد مجاوَزتِهم البحرَ؛ فالجملةُ عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾[3].

ولمَّا أتمَّ اللهُ نِعْمتَه عليهم بالنجاةِ مِن عدوِّهم، وتمكينِهم في الأرض: أراد تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يُتِمَّ نعمتَه عليهم بإنزالِ الكتاب الذي فيه الأحكامُ الشرعية، والعقائدُ المَرْضيَّة؛ فواعَد

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٠٢).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٨٥).

موسىٰ ثلاثين ليلةً، وأتمَّها بعَشْرٍ، فصارت أربعينَ ليلةً؛ ليَستعدَّ موسىٰ، ويتهيَّأَ لوعدِ الله، ويكونَ لنزولِها موقعٌ كبير لديهم، وتشوُّقٌ إلىٰ إنزالها[1].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه مواعدتَه واحتياطَه في إصلاحِ قومه، شرَح أمره حالَ المواعَدةِ، وحالَهم بعد غَيْبتِه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن الفائدةَ التي لأجلِها حضَر موسىٰ عليه السلام الميقاتَ؛ وهي أن كلَّمه ربُّه[3].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

ولمَّا منَعه الرؤيةَ بعد طلبِه إيَّاها، وقابَل ذلك بمحاسنِ الأفعالِ والأقوال: تشوَّف السَّامعُ إلىٰ ما قوبِلَ به مِن الإكرام، فاستأنَف سبحانه الإخبارَ بما منَحه به - تسليةً له عمَّا منَعه، وأمرًا بشكرِه - بقولِه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٠٢).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٧٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٥١).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٧٩).

فُصِلت جملةُ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ لوقوعِ القول في طريقِ المحاوَرة والمجاوبة، والنداءُ للتأنيسِ، وإزالةِ الرَّوع. وتأكيدُ الخبر في قوله: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾؛ للاهتمامِ به؛ إذ ليس محلًّا للإنكار[1].

لمَّا طلَب الرؤيةَ، ومنَعه اللهُ منها: عدَّد اللهُ عليه وجوهَ نِعَمِه العظيمة التي له عليه، وأمَره أن يشتغلَ بشكرها، كأنَّه قال له: إن كنتُ قد منَعتُك الرؤيةَ، فقد أعطيتُك مِن النِّعَمِ العظيمة كذا وكذا؛ فلا يَضِيقُ صدرُك بسببِ منعِ الرؤية، وانظُرْ إلىٰ سائرِ أنواع النِّعَمِ التي خصَصْتُك بها، واشتغِلْ بشكرِها؛ والمقصودُ تسليةُ موسىٰ عليه السلام عن منعِ الرؤية[2].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتسليتِه عليه السلام مِن عدمِ الإجابةِ إلىٰ سؤال الرؤية، كأنَّه قيل: إن منَعتُك الرؤيا، فقد أعطيتُك مِن النِّعَمِ العظام ما لم أُعطِ أحدًا مِن العالَمين؛ فاغتنِمْها، وثابِرْ علىٰ شكرِها[3].

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾

ولمَّا انقضىٰ ما أنَّسَه سبحانه به، لفَت الكلامَ في الإخبارِ لنا عن عظيمِ ما آتاه، فقال مفصِّلًا لتلك الرسالة، ومبيِّنًا بعضَ ما كان مِن الكلامِ بقوله: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٥٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٠).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٨٠).

عطفٌ على جملةِ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ إلى آخِرِها؛ لأنَّ فيها: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، والذي آتاه هو ألواحُ الشريعةِ، أو هو المقصودُ مِن قوله: ﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾(١).

لمَّا بيَّن أنَّه خصَّ موسى عليه السلام بالرسالةِ، ذكَر في هذه الآيةِ تفصيلَ تلك الرسالةِ(٢).

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾

ولمَّا انقضى ذلك، كان كأنَّه قيل: وكيف يختارُ عاقلٌ ذلك؟ فكيف بمَن رأى الآياتِ، وشاهَد المعجِزات؟! فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾(٣).

يجوزُ أن تكونَ هذه الآيةُ تكملةً لِما خاطَب اللهُ به موسى وقومَه، فتكونَ جملةُ ﴿سَأَصْرِفُ﴾ إلخ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ بني إسرائيلَ كانوا يَهابون أولئك الأقوامَ ويَخشَون، فكأنَّهم تَساءلوا كيف تُرينا دارَهم وتَعِدُنا بها؟ وهل لا نَهلِكُ قبل الحُلولِ بها؟ فأُجيبوا بأنَّ اللهَ سيَصرِفُ أولئك عن آياتِه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٩٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٦٠-٣٥٩).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٨٢).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٠٣).

لمَّا ذكَر ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ذكَر ما يَفعَلُ بهم تعالىٰ مِن صرفِه إيَّاهم عن آياتِه؛ لِفسْقِهم، وخروجِهم عن طَوْرِهم إلىٰ وصفٍ ليس لهم، ثم ذكَر تعالىٰ مِن أحوالِهم ما استحَقُّوا به اسمَ الفِسق[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة قولَه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ذكَر في الآيةِ ما يعامِلُهم به، فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتحذيرِهم عن التَّكبُّرِ الموجِب لعدمِ التَّفكُّر في الآيات، التي هي ما كُتِب في ألواحِ التَّوراة مِن المواعظِ والأحكام، أو ما يعُمُّها وغيرها مِن الآياتِ التَّكوينيَّة، التي مِن جملتِها ما وُعِد إراءَته مِن دارِ الفاسقين[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر أحوالَ المتكبِّرين الذين أدَّاهم كِبْرُهم إلىٰ التَّكذيبِ في الدنيا، ذكَر أحوالَهم في الآخرةِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤].

يجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ إلىٰ آخرِ الآيات علىٰ الوجهينِ السابقين، ويجوزُ أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملة ﴿ذَٰلِكَ

(١) البحر المحيط (٥/ ١٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٦٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧١).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٨٤).

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ويجوزُ أن تكونَ تذييلًا معترِضًا بَيْنَ القصَّتينِ، وتكونَ الواوُ اعتراضيَّةً[(١)].

ذكَر تعالىٰ ما يؤُولُ إليه في الآخرةِ أمرُ المكذِّبين؛ فذكَر أنَّه يُحبِط أعمالَهم، ونبَّه بلقاءِ الآخرة علىٰ محَلِّ افتضاحِهم وجزائهم تهديدًا لهم، ووعيدًا بها، وأنَّها كائنةٌ لا محالةَ[(٢)].

لمَّا ذكَر ما لأجلِه صرَف المتكبِّرين عن آياتِه بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، بيَّن حالَ أولئك المكذِّبين؛ فقد كان يجوزُ أن يُظَنَّ أنَّهم يختلِفون في بابِ العقاب؛ لأنَّ فيهم مَن يعملُ بعضَ أعمال البِرِّ، فبيَّن تعالىٰ حالَ جميعِهم، سواءٌ كان متكبِّرًا أو متواضعًا، أو كان قليلَ الإحسانِ أو كان كثيرَ الإحسان، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

ثم بيَّن وعيدَ المكذِّبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾

ولمَّا كان ذلك كلُّه ممَّا يتعجَّب الموفَّقُ مِن ارتكابه، أعقَبه تعالىٰ مبيِّنًا ومصوِّرًا ومحقِّقًا لوقوعِه، ومقرِّرًا قولَه عطفًا علىٰ ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾،

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٠٧).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٧٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٦٧).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ١٨٣).

مبيِّنًا لإسراعِهم في الكفر: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾(١).

عطفٌ على جملةِ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ عَطْفَ قصةٍ على قصة، فذكَر فيما تقدَّم قصةَ المناجاة، وما حصَل فيها مِن الآياتِ والعِبَر، وذكَر في هذه الآيةِ ما كان مِن قومِ موسى في مدَّةِ مَغِيبه في المناجاةِ مِن الإشراك(٢).

هذا عَوْدٌ إلى قَصَصِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومِه مِن بني إسرائيلَ؛ فقد كان السياقُ مع موسى في جبلِ الطُّورِ، وطلَبِه الرؤيةَ، وتوبتِه مِن ذلك، ثم اعترَض السياقُ ببيانِ القاعدةِ العظيمة في تعليلِ هلاكِ العباد، وبيانِ سببه؛ وهو التَّكذيبُ بآياتِ الله المنزَّلة، والغفلةُ عنها، ثم عاد السياقُ لقَصَصِ موسى مع بني إسرائيلَ، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾(٣).

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا في سياقِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، فأنتج أنَّ مَن كذَّب على هذه الصفةِ، أُهلِكَ، فانتظَر السامعُ الإخبارَ بتعجيل هلاكهم: أخبَر بأنَّه منَعهم مِن ذلك، وحرَمهم المبادرةَ بالتوبة، ولمَّا اشتدَّ مِن تشوُّفِ السَّامع إليه، قدَّمه على سببِه؛ وهو رجوعُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم، وإنكارُه عليهم، ولأنَّ السياقَ في ذِكْرِ إسراعهم في الفِسْقِ لم يذكُرْ قَبولَ توبتهم؛ كما في البقرةِ، ولمَّا كان مِن المعلوم

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٠٩).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢٣٩).

أنَّهم تبيَّن لهم عن قُرْبٍ سُوءُ مرتكَبِهم؛ لكونِ نبيِّهم فيهم: عبَّر بما أفهَمَ أنَّ التَّقديرَ: فسُقِط في أيديهم، وعطَف عليه قولَه سائقًا مساقَ ما هو معروفٌ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(١).

كان مقتضىٰ الظاهرِ في ترتيبِ حكايةِ الحوادث أن يتأخَّرَ قولُه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآيةَ عن قولِه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًا﴾؛ لأنَّهم ما سُقِط في أيديهم إلا بعد أن رجَع موسىٰ، ورأَوْا فَرْطَ غضبِه، وسَمِعوا توبيخَه أخاه وإيَّاهم، وإنَّما خُولِف مقتضىٰ التَّرتيبِ تعجيلًا بذِكْرِ ما كان لاتخاذِهم العِجْلَ مِن عاقبةِ النَّدامة، وتبيُّنِ الضَّلالة؛ موعظةً للسامعين لكيلا يَعجَلوا في التَّحولِ عن سُنَّتهم حتَّىٰ يَتبيَّنوا عواقبَ ما هم متحوِّلون إليه(٢).

ثم أخبَر تعالىٰ عن حالِهم بعد انكشافِ الأمر لهم، وبيانِ خطئهم، فقال: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٣).

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِى مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِى وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِى فَلَا تُشۡمِتۡ بِىَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِى مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾

ولـمَّا أخبَر بالسَّببِ في تأخيرِ الانتقام عنهم مع مساواتِهم لِمَن أُوقِعتْ بهم النِّقْمةُ في موجِبِ الانتقام، أخبَر سبحانه بحالِ موسىٰ عليه السلام معهم عند رجوعِه إليهم؛

(١) نظم الدرر (٨/ ٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١١١).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢٤٠).

مِن الغضبِ لله، والتبكيتِ لِمَن خالَفه، مع ما اشتمَل عليه مِن الرحمةِ والتواضع، فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)].

جُعِل رجوعُ موسىٰ إلىٰ قومِه غضبانَ كالأمرِ الذي وقَع الإخبارُ عنه مِن قبلُ علىٰ الأسلوبِ المبيَّنِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾، وقولِه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾. فرجوعُ موسىٰ معلومٌ مِن تحقُّقِ انقضاءِ المدة الموعودِ بها، وكونُه رجَع في حالةِ غضبٍ مشعِرٌ بأنَّ اللهَ أوحىٰ إليه فأعلَمَه بما صنَع قومُه في مَغِيبه[(٢)].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروعٌ في بيانِ ما جرىٰ مِن موسىٰ عليه السلام بعد رجوعِه مِن الميقاتِ، إثرَ بيانِ ما وقَع مِن قومِه بعده[(٣)].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

ولمَّا تبيَّن له ما هو اللائقُ بمنصبِ أخيه الشَّريف؛ مِن أنَّه لم يقصِّرْ في دعائِهم إلىٰ اللهِ، ولا ونَىٰ في نهيِهم عن الضَّلال، ورأىٰ أنَّ ما ظهَر مِن الغضبِ مُرهِّبٌ لقومِه، وازعٌ لهم عمَّا ارتكَبوا: دعَا له ولنفسِه، مع الاعترافِ بالعجزِ، وأنَّه لا يسعُ أحدًا إلا العفوُ، وساقَ سبحانه ذلك مساقَ الجوابِ لسؤالٍ بقولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٨٧-٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١١٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٤).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٩٠).

جملةُ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي ﴾ جوابٌ عن كلامِ هارونَ؛ فلذلك فُصِلت[(١)].

لمَّا اعتذَر إليه أخوه، استغفَر لنفسِه، وله؛ قالوا: واستغفارُه لنفسِه بسببِ فَعْلتِه مع أخيه، وعجَلَتِه في إلقاءِ الألواح، واستغفارُه لأخيه مِن فَعْلتِه في الصبرِ لبني إسرائيلَ[(٢)].

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ اعتذار هارونَ عليه السلام، كأنَّه قيل: فماذا قال موسى عند ذلك؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[(٣)].

فنَدِم موسى عليه السلام على ما استعجَل مِن صُنْعِه بأخيه قبل أن يَعلَمَ براءتَه، ممَّا ظنَّه فيه مِن التقصيرِ، وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

ولمَّا كان السؤالُ له ولأخيه - وهما معصومانِ مِن الذُّنوبِ -، طوى ما يَتعلَّق بالمغفرةِ، وذكَر متعلِّقَ الرحمةِ، بخلافِ ما يأتي في السؤالِ له، وللسَّبْعينَ مِن قومِه؛ فإنَّه عكَس فيه ذلك، ولمَّا صحَّت براءةُ الخليفةِ، وأُشيرَ إلى أنَّه مع ذلك فقيرٌ إلى المغفرةِ: التفَتتِ النفسُ إلى حالِ المفسِدين، فقال مخبراً عن ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١١٨).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٨٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٣٠٣).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٩١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ هذا مِن تمامِ كلامِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبعد أن دعَا لأخيه بالمغفرةِ، أخبَر أنَّ اللهَ غَضِب علىٰ الذين عبَدوا العِجْلَ، وأنَّه سيَظهَرُ أثرُ غضَبِه عليهم، وستَنالهم ذِلَّةٌ في الدنيا؛ وذلك بوحيٍ تلقَّاه(١).

ثم شرَح حالَ مَن عبَد العِجلَ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر المُصِرِّين علىٰ المعصيةِ، عطَف عليه التَّائبينَ - ترغيبًا في مثلِ حالهم -، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ ﴾ الآيةَ، اعتراضٌ بأنَّهم إن تابوا وآمَنوا، يَغفِرِ اللهُ لهم؛ علىٰ عادةِ القرآن مِن تعقيبِ التهديدِ بالترغيب، والمغفرةُ ترجِعُ إلىٰ عدمِ مؤاخَذتهم بذُنوبِهم في عقابِ الآخرة، وإلىٰ ارتفاعِ غضبِ اللهِ عنهم في المستقبل(٣).

ثم نبَّه تعالىٰ عبادَه، وأرشَدهم إلىٰ أنَّه يَقبَلُ التوبةَ مِن أيِّ ذَنْبٍ كان - ولو كفرًا - بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٢٠).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ١٨٩).

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾

فلمَّا أُهلِكَ المُصِرُّ، وتاب الباقي، وصحَّت براءةُ أخية وبقاؤُه على رُتْبتِه مِن الأمرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المنكَرِ، والاجتهادِ في أمر الله: زال موجِبُ الغضَبِ؛ فأخبر سبحانه عمَّا يعقُبُه، فقال: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[1].

سكوتُ غضَبِه كان - واللهُ أعلم - بسببِ اعتذارِ أخيه، وكونِه لم يقصِّرْ في نهيِ بني إسرائيلَ عن عبادةِ العِجْلِ، ووعدِ الله إيَّاه بالانتقامِ منهم، وسكوتُ الغضبِ استعارةٌ؛ شبَّهَ خمودَ الغضبِ بانقطاعِ كلامِ المتكلم؛ وهو سكوتُه[2].

لمَّا بيَّن لنا ما كان منه مع الغضبِ، بيَّن في هذه الآيةِ ما كان منه عند سكوتِ الغضب[3].

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ شروعٌ في بيانِ بقيَّةِ الحكاية إثرَ ما بُيِّن تحزُّبُ القومِ إلى مُصِرٍّ وتائبٍ، والإشارةِ إلى مآلِ كلٍّ منهما إجمالًا[4].

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ﴾

ولمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكْرِ الوعدِ بالميقات، المقصودِ به سَعْيُ الكليمِ عليه السلام فيما يَهديهم إلى صراطِ الله، وذِكْرِ سعيهم فيما أضَلَّهم عن الطريق باتخاذِهم العِجْلَ، وكان ختامُ ذلك ما بدَا مِن موسى عليه السلام مِن الشفقةِ على أخيه، ثم على الكافَّةِ؛ بأخذِ

(١) نظم الدرر (٨/ ٩٢).
(٢) البحر المحيط (٥/ ١٨٥).
(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٧٤).
(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٦).

الألواح عند الفراغ ممَّا يجبُ مِن الغضبِ للهِ: رَدَّ الكلامَ علىٰ ذِكْرِ شيءٍ فعَله في الميقاتِ، مرادٍ به عِصمتُهم في صراطِ الله؛ بنقلِهم مِن علمِ اليقين إلىٰ عينِ اليقين، بل حقِّ اليقين؛ شفقةً عليهم، ورحمةً لهم؛ ليكونَ إخبارُهم عمَّا رأَوْا مؤيِّدًا لِما يُخبِرُ به، فيكونَ ذلك سببًا لحفظِهم مِن مثلِ ما وقَعوا فيه مِن عبادةِ العِجْلِ، ومع ذلك وقَع منهم العصيانُ بطلبِ ما لا ينبغي لهم مِن الرؤيةِ علىٰ وجهِ التعنُّت، فقال: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾(١).

عُطِفت جملةُ ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ ﴾ علىٰ جملةِ ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ﴾ عَطْفَ القصةِ علىٰ القصة؛ لأنَّ هذه القصةَ أيضًا مِن مواقعِ الموعظة والعِبْرة بَيْنَ العِبَرِ المأخوذةِ مِن قصةِ موسىٰ مع بني إسرائيلَ؛ فإنَّ في هذه عِبْرةً بعظمةِ الله تعالىٰ ورحمتِه، ودعاءِ موسىٰ بما فيه جِماعُ الخيراتِ، والبِشارةُ بمحمَّدٍ ﷺ، ومِلاكُ شريعتِه(٢).

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ شروعٌ في بيانِ كيفيَّةِ استدعاء التَّوبة، وكيفيَّةِ وقوعها(٣).

﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

وكأنَّه أحسَن العفوَ عنهم، فقال عاطفًا علىٰ سؤالِه فيه: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٢٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٧٦).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٠٦).

اعلَمْ أنَّ هذا مِن بقيةِ دعاءِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عند مشاهَدةِ الرَّجفة[١].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

ولمَّا كان اليهودُ ربما ادَّعَوْا ذلك مكابَرةً، أوضَح غايةَ الإيضاحِ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢].

هذا مِن بقيةِ خطابه تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه تبشيرٌ له ببعثةِ محمَّدٍ ﷺ، وذِكْرٌ لصفاتِه، وإعلامٌ له أيضًا أنَّه ينزِّلُ كتابًا يُسمَّىٰ الإنجيلَ، ومعنىٰ الاتِّباعِ: الاقتداءُ فيما جاء به اعتقادًا وقولًا وفعلًا، وجمَع هنا بَيْنَ الرسالةِ والنبوَّة؛ لأنَّ الرسالةَ في بني آدمَ أعظَمُ شرفًا مِن النبوَّة، أو لأنَّها بالنسبةِ إلىٰ الآدميِّ والملَكِ أعَمُّ، فبُدِئ به[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ مِن صفةِ مَن تُكتَبُ له الرحمةُ في الدنيا والآخرةِ: التقوىٰ، وإيتاءَ الزكاةِ، والإيمانَ بالآيات، ضَمَّ إلىٰ ذلك أن يكونَ مِن صفتِه اتِّباعُ ﴿ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٧٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٠٤).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٩٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٨٠).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ ما نظَمه تعالىٰ في أثناءِ هذه القِصَصِ مِن جواهرِ أوصاف هـذا النبيِّ الكريم - حثًّا علىٰ الإيمانِ به، وإيجابًا له علىٰ وجهٍ عُلِم منه أنَّه رسولُ الله إلىٰ كلِّ مكلَّفٍ، تقدَّم زمانُه أو تأخَّر -: أمَره سبحانه أن يصرِّحَ بما تقدَّم التلويحُ إليه، ويصرح بما أخَذ ميثاقَ الرُّسلِ عليه - تحقيقًا لعمومِ رسالته، وشمولِ دعوته - فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[(١)].

هـذه الجملـةُ معترِضـةٌ بَيْنَ قَصَـصِ بني إسـرائيلَ، جـاءت مستطرِدةً لمناسبةِ ذِكْرِ الرسولِ الأُمِّي؛ تذكيرًا لبني إسرائيلَ بما وعَد اللهُ به موسىٰ ﷺ، وإيقاظًا لأفهامِهم بأنَّ محمَّدًا ﷺ هو مصداقُ الصفاتِ التي علَّمها اللهُ موسىٰ ﷺ[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ لموسىٰ ﷺ صفةَ محمَّدٍ ﷺ، وأخبَر أنَّ مَن أدرَكه وآمَن به أفلَح: أمَر تعالىٰ نبيَّه بإشهارِ دعوتِه ورسالتِه إلىٰ الناسِ كافَّةً، والدعاءِ إلىٰ الإيمانِ بالله، ورسولِه، وكلماتِه، واتِّباعِه، ودعوةُ رسولِ الله ﷺ عامَّةٌ للإنسِ والجِن[(٣)].

لمَّا قال: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾، ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ مِن شرطِ حصولِ الرحمة لأولئك المتقين كونَهم متَّبِعينَ للرسولِ النبي الأُمِّيِّ: حقَّق في هذه الآيةِ رسالتَه إلىٰ الخَلْقِ بالكليةِ، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٣٩).

(٣) البحر المحيط (٥/ ١٩٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٨٣).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، لمَّا حُكِي في الكتابينِ مِن نعوتِ رسولِ الله ﷺ، وشرَفِ مَن يتَّبِعُه مِن أهلِهما، ونَيْلِهم لسعادةِ الدارينِ: أُمِر ﷺ ببيانِ أنَّ تلك السعادةَ غيرُ مختصَّةٍ بهم، بل شاملةٌ لكلِّ مَن يتَّبِعُه، كائنًا مَن كان؛ ببيانِ عمومِ رسالته للثَّقَلَينِ، مع اختصاصِ رسالةِ سائر الرُّسلِ عليهم السلام بأقوامهم(١).

لمَّا حُكِي ما في الكتابينِ مِن نُعوتِه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم، وشرَفِ مَن يتَّبِعُه علىٰ ما عرَفتَ: أُمِر ﷺ بأن يَصدَعَ بما فيه تبكيتٌ لليهودِ الذين حرَّموا اتِّباعَه، وتنبيهٌ لسائرِ الناسِ علىٰ افتراءِ مَن زعَم منهم أنَّه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم مرسَلٌ إلىٰ العربِ خاصَّةً(٢).

ولمَّا دعَا أهلَ التَّوراة مِن بني إسرائيلَ إلىٰ اتِّباعِه، وكان ربما توهَّم متوهِّمٌ أنَّ الحُكْمَ مقصورٌ عليهم: أتىٰ بما يدلُّ علىٰ العمومِ، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٣).

ذكَر أنَّ موسىٰ بشَّر به، وأنَّ عيسىٰ بشَّر به، ثم أمَره أن يقولَ بنفسِه: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٤).

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

ولمَّا كثُرَ عَدُّ مثالبِ بني إسرائيلَ، وختَم بتخصيصِ المتَّبِعِ لهذا النبيِّ الكريم بالهدايةِ، والرحمةِ المسبَّبةِ عنها، وكان فيهم المستقيمُ علىٰ ما شرَعه له ربُّه، المتمسِّكُ بما لَزِمه أهلُ طاعتِه وحِزْبِه، سواءٌ كان مِن صفاتِ النبيِّ ﷺ أو غيرِها، مع الإذعانِ لذلك كلِّه: نبَّه عليه عائدًا إلىٰ تتميمِ أخبارِهم، ثم ما وقَع في أيامِ موسىٰ عليه السلام

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٨٠).

(٢) روح المعاني (٥/ ٧٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٣٠٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٠٢).

وبعدها مِن شرارِهم؛ تعزيةً لهذا النبيِّ الكريم وتسليةً، وتطييبًا لنفسِه الزكيَّةِ وتأسيةً، فقال تعالى عاطفًا على ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾(١).

لمَّا أمَر بالإيمانِ بالله ورسولِه، وأمَر باتِّباعِه: ذكَر أنَّ مِن قومِ موسى مَن وُفِّق للهدايةِ، وعدَلَ ولم يجُرْ، ولم تكُنْ له هدايةٌ إلا باتِّباعِ شريعةِ موسى قبل مبعثِ رسولِ الله ﷺ، وباتِّباعِ شريعةِ رسول الله ﷺ بعد مبعثِه؛ فهذا إخبارٌ عمَّن كان مِن قومِ موسى بهذه الأوصافِ؛ فكان المعنى أنَّهم كلَّهم لم يكونوا ضُلَّالًا، بل كان منهم مهتدون(٢).

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ ﴾ كلامٌ مبتدأٌ لدفعِ ما عسى يُوهِمُه تخصيصُ كَتْبِ الرحمةِ والتقوى والإيمانِ بالآياتِ بمتَّبِعي رسولِ الله ﷺ مِن حرمانِ أسلاف قومِ موسى عليه السلام مِن كلِّ خيرٍ، وبيانِ أنَّ كلَّهم ليسوا كما حُكِيتْ أحوالُهم؛ بل منهم ﴿أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾(٣).

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾

ولمَّا مدَحهم، شرَع يذكِّرُهم شيئًا ممَّا أسبَغ عليهم مِن النِّعَمِ لأجلِ هؤلاء المهتدِين؛ مِن التَّكثيرِ بعد القِلَّة، والإعزازِ بعد الذِّلَّة؛ بجَعْلِهم ممَّن يُؤَمُّ استعطافًا لغيرِهم، ويذكُرُ

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٣١).

(٢) البحر المحيط (٥/ ١٩٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٨١).

بعض عقوباتِهم ترهيبًا، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ﴾ إلخ؛ فإنَّ ذلك التَّقطيعَ وقَع في الأمَّةِ الذين يَهدُون بالحقِّ(٢).

ثم عاد السياقُ إلىٰ قومِ موسىٰ يذكُرُ أحداثَهم؛ للعِظَةِ والاعتبار، وتقريرِ الحقِّ في توحيدِ الله تعالىٰ، وإثباتِ نبوَّةِ رسولِه، وتقريرِ عقيدةِ البعثِ والجزاءِ واليومِ الآخِر، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(٣).

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾

ولمَّا ذكَر ما حباهم في القِفَارِ، أتبعه إنعامَه عليهم عند الوصولِ إلىٰ الدار، فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٢).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢٥٠).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٣٥).

ثم بيَّن تعالىٰ ما أَمَر بني إسرائيلَ بعدما أنعم عليهم بتلك النِّعَم، وما خالَفوا فيه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(1).

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

ثم أخبَر عن الذين ظلَموا مِن بني إسرائيلَ، الذين أُمِروا بدخولِ القريةِ، ودخول البابِ سُجَّدًا؛ حيث بدَّلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

والجملةُ استئنافيةٌ، جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: فماذا فعَلوا بعد الأمرِ؟ فقيل: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

لمَّا أخبَر عن ثوابِ الممتثِلين، ناسَب أن يُخبِرَ عن جزاءِ المبدِّلين.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

ولمَّا فرَغ مِن هَتْكِ أستارِهم فيما عَمِلوه أيامَ موسىٰ عليه السلام وما يليها، أتبعه خِزْيًا آخَرَ أشدَّ ممَّا قبله؛ كان بعد ذلك بمدَّةٍ، لا يَعلَمُه أحدٌ إلا مِن جهتِهم، أو مِن اللهِ، وإذا انتفىٰ الأولُ، ثبَت الثاني، فقال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾(2).

---

(1) التهذيب في التفسير (ص: ٢٧٥٢).

(2) نظم الدرر (٨/ ١٣٧).

غُيِّر أسلوبُ الخبرِ عن بني إسرائيلَ هنا؛ فابتُدِئ ذِكْرُ هذه القصَّةِ بطلبِ أن يَسأَلَ سائلٌ بني إسرائيلَ الحاضرين عنها، فنَعلَمُ مِن ذلك أنَّ لهذه القِصَصِ الآتيةِ شأنًا غيرَ شأنِ القِصص الماضية، ولا أحسَبُ ذلك إلا مِن أجلِ أنَّ هذه القصَّةَ ليست ممَّا كُتِب في توراةِ اليهود، ولا في كُتُبِ أنبيائهم، ولكنَّها ممَّا كان مَرْويًّا عن أحبارِهم؛ ولذلك افتُتِحت بالأمرِ بسؤالهم عنها؛ لإشعارِ يهودِ العصرِ النبويِّ بأنَّ اللهَ أطلَع نبيَّه ﷺ عليها، وهم كانوا يكتُمونها؛ وذلك أنَّ الحوادثَ التي تكون مواعظَ للأمَّةِ فيما اجترحته مِن المخالَفاتِ والمعاصي تُبقِي لها عَقِبَ الموعظةِ أثرًا قد تُعيَّر الأمَّةُ به، ولكنَّ ذلك التعييرَ لا يؤبَهُ به في جانبِ ما يحصُلُ مِن النفعِ لها بالموعظةِ؛ فالأمَّةُ في خُوَيْصَّتِها لا يهتمُّ قادتُها ونُصَحاؤها إلا بإصلاحِ الحال، وإن كان في ذِكْرِ بعضِ تلك الأحوالِ غضاضةٌ عندها وامتعاضٌ، فإذا جاء حُكْمُ التاريخِ العام بَيْنَ الأُمَم، تناولتِ الأُمَمُ أحوالَ تلك الأمَّةِ بالحُكْمِ لها وعليها؛ فبَقِيتْ حوادثُ فلَتاتِها مَغمَزًا عليها، ومَعَرَّةً تُعيَّر بها. وكذلك كان شأنُ اليهود لمَّا أضاعوا مُلْكَهم ووطَنَهم، وجاوَروا أُمَمًا أخرى، فأصبَحوا يكتُمون عن أولئك الجِيرةِ مساوئَ تاريخِهم، حتى أرسَل اللهُ محمَّدًا ﷺ، فعلَّمه مِن أحوالِهم ما فيه معجِزةٌ لأسلافِهم، وما بَقِيَ مَعَرَّةً لأخلافِهم، وذلك تحدٍّ لهم، ووَخْزٌ على سُوءِ تَلَقِّيهم الدعوةَ المحمَّديةَ بالمكرِ والحسد[1].

الضميرُ في ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ عائدٌ على مَن بحضرةِ الرسول ﷺ مِن اليهودِ، وذُكِر أنَّ بعضَ اليهود المعارِضين للرسول ﷺ قالوا له: لم يكُنْ مِن بني إسرائيلَ عصيانٌ ولا معاندة لِما أُمِروا به، فنزَلتْ هذه الآيةُ موبِّخةً لهم، ومقرِّرةً كَذِبَهم، ومُعلِمةً ما جرى على أسلافِهم مِن الإهلاكِ والمَسْخِ، وكانت اليهودُ تكتُمُ هذه القصةَ؛ فهي

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٦).

ممَّا لا يُعلَم إلا بكتابٍ أو وحيٍ؛ فإذا أعلَمَهم بها مَن لم يَقرأْ كتابَهم، عُلِم أنَّه مِن جهةِ الوحيِ (١).

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

ولمَّا أخبرَ أنَّ الفِسْقَ ديدنُهم، أكَّده بقولِه عطفًا على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (٢).

جملةُ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾؛ والتَّقدير: واسألْ بني إسرائيلَ إذ ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ (٣).

ثم بيَّن تعالى تماديَهم في العدوانِ، وعدَمَ انزجارِهم عنه بعد العِظاتِ والإنذارات، بقولِه سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٤).

يُخبِرُ تعالى عن أهلِ هذه القريةِ أنَّهم صاروا إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فرقةٍ ارتكبتِ المحذورَ، واحتالوا على اصطيادِ السَّمكِ يومَ السبت؛ كما تقدَّم بيانُه في سورةِ البقرة، وفرقةٍ نهَتْ عن ذلك، وأنكرتْ واعتزَلتْهم، وفرقةٍ سكَتتْ؛ فلم تَفعَلْ ولم تَنهَ، ولكنَّها قالت للمنكِرةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (٥).

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٠٢).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٠).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٢١٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤).

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

ولمَّا تراجَعوا بهذا الكلامِ ليكونَ زاجرًا للعاصين، فلم يَرجِعوا: أخبَر أنَّه صدَق ظنُّهم بإيقاعِ الأمرَينِ معًا: العذابِ الشَّديد، والإهلاكِ، فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ﴾[(١)].

ضميرُ ﴿نَسُوا۟﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿قَوۡمًا﴾، والنسيانُ مستعمَلٌ في الإعراضِ المفضي إلىٰ النسيان[(٢)].

﴿فَلَمَّا عَتَوۡا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما هدَّدهم به مِن العذابِ الشديد، أتبَعه الهلاكَ، فقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[(٣)].

قولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنۡهُ﴾ بيان لإجمالِ العذاب البئيسِ، ويكونُ قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡا۟﴾ بمنزلةِ التَّأكيد لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾، وصِيغَ بهذا الأسلوبِ لتهويلِ النسيان والعُتُوِّ، ويكونُ المعنىٰ: أنَّ النسيانَ - وهو الإعراضُ - وقَع مقارِنًا للعُتُوِّ[(٤)].

ولعلَّه تعالىٰ قد عذَّبهم بعذابٍ شديد دُونَ الاستئصالِ؛ فلم يُقلِعوا عمَّا كانوا عليه، بل ازدادوا في الغَيِّ؛ فمسَخهم بعد ذلك[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٢).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٣).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٨٦).

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾

ولمَّا تبيَّن بما مضىٰ مِن جُرْأتِهم علىٰ المعاصي وإسراعِهم فيها استحقاقُهم لدوامِ الخِزْيِ والصَّغارِ، أخبَر أنَّه فعَل بهم ذلك علىٰ وجهٍ موجِبٍ للقطعِ بأنَّهم مرتبِكون في الضَّلال، مُرتكِبون سيِّئَ الأعمال، ما دام عليهم ذلك النَّكال، فقال: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[(١)].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ بعضَ مساوئ اليهودِ، تأثَّره[(٢)] ببيانِ أنَّه حكَم عليهم بالذُّلِّ والصَّغار إلىٰ يومِ القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾[(٣)].

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بالتَّأذُّنِ، كان كأنَّه قيل: فأسرَعْنا في عقابِهم بذُنوبِهم، وبعَثْنا عليهم مَن سامَهم سُوءَ العذابِ بالقتلِ والسَّبْيِ، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٤١).

(٢) أي: أتبعه.

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢١٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٤٥).

عطفُ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ؛ وهو عَوْدٌ إلىٰ قَصَصِ الإخبارِ عن أحوالهم؛ فيجوزُ أن يكونَ الكلامُ إشارةً إلىٰ تفرُّقِهم بعد الاجتماع، والتَّقطيعُ التَّفريقُ؛ فيكونَ محمودًا مثل ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾، ويكونَ مذمومًا؛ فالتَّعويل علىٰ القرينةِ، لا علىٰ لفظِ التَّقطيع[١].

ثم أخبَر تعالىٰ عن تبدُّدِهم في الأقطارِ بقوله: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[٢].

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾

ولمَّا كان العذابُ الذي وقَع التأذُّنُ بسببِه ممتدًّا إلىٰ يومِ القيامة، تسبَّب عنه قولُه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٣].

جملةُ ﴿فَخَلَفَ﴾ تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ إن كان المرادُ تقطيعَهم في بلادِ أعدائهم، وإخراجَهم مِن مملكتِهم، فتكونُ الآيةُ مشيرةً إلىٰ عودةِ بني إسرائيلَ إلىٰ بلادِهم[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٧).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٢١٤).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١٤٥-١٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٥٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن ما للمفسِدين مِن كونِهم قالوا علىٰ اللهِ غيرَ الحقِّ، فلا يُغفَرُ لهم: بيَّن ما للصالحين المذكورين في قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾، فقال عاطفًا علىٰ تقديرِه: أولئك حَبِطتْ أعمالُهم فيما درَسوا مِن الكتاب، ولا يُغفَرُ لهم ما أتَوْا مِن الفسادِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[(١)].

وقَعتْ جملةُ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلىٰ آخِرِها عَقِبَ التي قبلها؛ لأنَّ مضمونَها مقابِلُ حُكْمَ التي قبلها؛ إذ حصَل مِن التي قبلها أنَّ هؤلاء الخَلْفَ الذين أخَذوا عرَضَ الأدنىٰ قد فرَّطوا في ميثاقِ الكتاب، ولم يكونوا مِن المتَّقين، فعُقِّب ذلك ببشارةِ مَن كانوا ضدَّ أعمالهم؛ وهم الآخِذون بميثاقِ الكتاب، والعاملون ببشارتِه بالرُّسل، وآمَنوا بمحمَّدٍ ﷺ؛ فأولئك يَستكملون أجرَهم؛ لأنَّهم مصلِحون[(٢)].

ثم أثنىٰ تعالىٰ علىٰ مَن تمسَّك بكتابِه الذي يقُودُه إلىٰ اتِّباعِ رسولِه محمَّدٍ ﷺ، كما هو مكتوبٌ فيه، بقولِه سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[(٣)].

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الكتابُ أنَّه رهَّبهم مِن مخالفتِه، ورغَّبهم في مؤالفتِه، وكان عذابُ الآخرة مستقبَلًا وغائبًا، وكان ما هذا شأنُه يؤثِّرُ في الجامدين: أمَره أن يذكِّرَهم بترهيبٍ

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٤٨-١٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٦٤).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢١٥).

دُنْيويٍّ مضىٰ إيقاعُه بهم؛ ليأخذوا مواثيقَ الكتاب لغايةِ الجِدِّ، مع أنَّه لا يَعلَمُه إلا علماؤهم، فيكون علمُ الأُمِّيِّ له مِن أعلامِ نبوَّتِه الظاهرةِ، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(١)].

عاد الكلامُ إلىٰ العِبْرةِ بقِصَصِ بني إسرائيلَ مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ قصةَ رفعِ الطُّورِ عليهم مِن أمَّهاتِ قِصَصِهم، وليست مثلَ قصةِ القريةِ الذين اعتدَوْا في السَّبتِ، ولا مثلَ خبرِ إيذانهم بمَن يسُومُهم سُوءَ العذابِ؛ فضمائرُ الجمعِ كلُّها هنا مرادٌ بها بنو إسرائيلَ الذين كانوا مع موسىٰ؛ بقرينةِ المقام[(٢)].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه ألزَمهم أحكامَ الكتابِ علىٰ هذه الهيئةِ القاهرة الملجِئة القاسرة، التي هي مِن أعظَمِ المواثيقِ عند أهلِ الأخذ، وأنَّه أكَّد عليهم المواثيقَ في كثيرٍ مِن فصولِ الكتاب، وكان ذلك كلُّه خاصًّا بهم: أمَره أن يذكُرَ لهم أنَّه ركَّب لهم في عمومِ هذا النوعِ الآدميِّ مِن العقول، ونصَب مِن الأدلةِ الموضِحةِ للأمر إيضاحَ المشهودِ للشاهد: ما لو عذَّب تاركَه والمتهاوِنَ به، لكان تعذيبُه جاريًا علىٰ المناهجِ، ملائمًا للعقول، ولكنَّه لسَبْقِ رحمتِه وغلَبَةِ رأفته لم يؤاخِذْ بذلك حتىٰ ضَمَّ إليه الرُّسلَ، وأنزَل معهم الكتبَ، وأكثَرَ فيها مِن المواثيقِ، وزاد في الكشفِ والبيان، وإلىٰ ذلك الإشارةُ باسمِ الربِّ؛ فكأنَّ مَن عنده علمٌ أشَدُّ مَلامةً مِن الجاهل، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٤٩-١٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١٥١).

هذا كلامٌ مصروفٌ إلىٰ غيرِ بني إسرائيلَ؛ فإنَّهم لم يكونوا مشركين، فهذا انتقالٌ بالكلامِ إلىٰ مُحاجَّةِ المشركين مِن العربِ، وهو المقصودُ مِن السورةِ ابتداءً ونهايةً، فكان هذا الانتقالُ بمنزلةِ ردِّ العَجُزِ علىٰ الصدرِ؛ جاء هذا الانتقالُ بمناسبةِ ذِكْرِ العهدِ الذي أخَذ اللهُ علىٰ بني إسرائيلَ في وصيةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وهو ميثاقُ الكتاب، وفي يومِ رَفْعِ الطُّور، وهو عهدٌ حصَل بالخطابِ التكوينيِّ؛ أي: بجَعْلِ معناه في جِبلَّةِ كلِّ نسَمةٍ وفِطْرتِها؛ فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجُمَلِ السابقة عَطْفَ القصةِ علىٰ القصة، والمقصودُ به ابتداءً هم المشركون[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح قصةَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع توابعِها علىٰ أقصىٰ الوجوهِ، ذكَر في هذه الآيةِ ما يَجري مَجرىٰ تقريرِ الحُجَّةِ علىٰ جميعِ المكلَّفين[2].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ منصوبٌ بمُضمَرٍ معطوف علىٰ ما انتصَب به (إذ نتقنا)، مسُوقٌ للاحتجاجِ علىٰ اليهود بتذكيرِ الميثاق العامِّ المنتظِم للناس قاطبةً، وتوبيخِهم بنقضِه، إثرَ الاحتجاجِ عليهم بتذكيرِ ميثاق الطُّور[3].

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ١٧٣ ﴾

أنَّ الكفرةَ لو لم يؤخَذْ عليهم عهدٌ، ولا جاءهم رسولٌ مذكِّر بما تضمَّنه العهدُ مِن توحيدِ الله وعبادتِه: لكانت لهم حُجَّتانِ؛ إحداهما: كنَّا غافلين، والأخرىٰ: كنَّا أتباعًا لأسلافنا، فكيف نَهلِكُ والذَّنبُ إنَّما هو لِمَن طرَّقَ لنا وأضَلَّنا؟! فوقَعتِ الشهادةُ لتنقطِعَ عنهم الحُجَجُ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٦٥-١٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٩٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٨٩).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٢٠).

أو تحتجُّون أيضًا بحُجَّةٍ أخرىٰ، فتقولون: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل تنبيهًا علىٰ جلالةِ هذه الآياتِ: انظُرْ كيف فصَّلنا هذه الآياتِ هذه التَّفاصيلَ الفائقة، وأبرَزْناها في هذه الأساليبِ الرَّائقة، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2].

جملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ معترضةٌ بَيْنَ القصَّتَينِ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وتُسمَّىٰ واوَ الاستئناف؛ أي: مثلَ هذا التفصيلِ نفصِّلُ الآياتِ؛ أي: آياتِ القرآن[3].

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾

ولمَّا ذكَر لهم ما أخَذ عليهم في كتابِهم مِن الميثاقِ الخاصِّ الذي انسلَخوا منه، وأتبَعه الميثاقَ العامَّ الذي قطَع به الأعذارَ: أتبَعهما بيانَ ما يَعرِفونه مِن حالِ مَن انسلَخ مِن الآيات، فأسقَطه اللهُ مِن ديوانِ السعداء، فأمَره ﷺ أن يتلوَ عليهم؛ لأنَّه - مع الوفاءِ بتبكيتِهم - مِن أدلَّةِ نبوَّتِه الموجِبة عليهم اتِّباعَه، فذكَّرهم ما وقَع له في نَبْذِ العهدِ والانسلاخِ مِن الميثاق بعد أن كان قد أُعطيَ الآياتِ، وأُفرِغَ عليه مِن الرُّوحِ، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٠٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٠).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٥٦).

ومناسبتُها للتي قبلها: إشارةُ العِبْرةِ مِن حالِ أحدِ الذين أخَذ اللهُ عليهم العهدَ بالتوحيدِ والامتثال لأمر الله، وأمَدَّه اللهُ بعلمٍ يُعِينه علىٰ الوفاءِ بما عاهَد اللهَ عليه في الفطرةِ، ثم لم يَنفَعْه ذلك كلُّه حين لم يُقدِّرِ اللهُ له الهدىٰ المستمرَّ(١).

ولمَّا كان تعالىٰ قد ذكَر أخذَ الميثاقِ علىٰ توحيدِه تعالىٰ وتقريرِ ربوبيَّتِه، وذكَر إقرارَهم بذلك، وإشهادَهم علىٰ أنفسِهم: ذكَر حالَ مَن آمَن به، ثم بعد ذلك كفَر؛ كحالِ اليهودِ؛ كانوا مُقِرِّينَ منتظِرين بعثةَ رسول الله ﷺ لِما اطَّلَعوا عليه مِن كُتُبِ اللهِ المنزَّلة، وتبشيرِها به، وذِكْرِ صفاتِه، فلمَّا بُعِث، كفَروا به، فذُكِّروا أنَّ ما صدَر منهم هو طريقةٌ لأسلافِهم اتَّبَعوها(٢).

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ عطفٌ علىٰ المُضمَرِ العاملِ في «إذ أخذ»، واردٌ علىٰ نمطِه في الإنباءِ عن الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، والضلالةِ بعد الهدىٰ(٣).

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا السِّياق موهِمًا لِمَن لم يَرسَخْ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مستقلٌّ في الإغواءِ، نفىٰ ذلك؛ غَيْرةً علىٰ هذا المَقام في مَظهَرِ العظمةِ، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٣).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٢١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٢).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٥٩).

قولُه تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أفاد أنَّ تلك الآياتِ شأنُها أن تكونَ سببًا للهدايةِ والتَّزكية، لو شاء اللهُ له التَّوفيقَ وعصَمه مِن كيدِ الشيطان وفِتْنتِه، فلم ينسلِخْ عنها؛ وهذه عِبْرةٌ للموفَّقِين ليَعلَموا فضلَ اللهِ عليهم في توفيقِهم؛ فالمعنىٰ: ولو شِئْنا، لزاد في العملِ بما آتيناه مِن الآياتِ، فلَرفَعه اللهُ بعملِه[1].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ مناطِ ما ذُكِر مِن انسلاخِه مِن الآيات، ووقوعِه في مَهاوي الغَواية[2].

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

ولمَّا ظهَر بهذا أنَّ مثَلَ الكلبِ الذي اكتسَب مِن ممثُولِه مِن السُّوءِ والقذارة ما لا يَعلَمه حقَّ عِلْمِه إلا اللهُ تعالىٰ مثَلُ المكذِّبينَ بالآيات: أنتج ذلك قولَه تأكيدًا لذَمِّهم وزَجْرِهم: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[3].

جملةٌ مستأنَفة؛ لأنَّها جُعِلت إنشاءَ ذمٍّ لهم؛ بأن كانوا في حالةٍ شنيعة[4].

لما قال بعد تمثيلِهم بالكلبِ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وزجَر بذلك عن الكفرِ والتَّكذيب: أكَّده في بابِ الزَّجر بقوله تعالىٰ: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾[5].

﴿ سَآءَ مَثَلًا ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ كمال قُبْحِ حالِ المكذِّبين بعد بيانِ كونِه كحالِ الكلبِ، أو المنسلِخ[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٢).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١٦١).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٠٦).

(٦) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٤).

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨ ﴾

ولمَّا كان ذلك محَلَّ عجَبٍ ممَّن يَميلُ عن المنهجِ بعد إيضاحِه هذا الإيضاحَ الشافي، قال جوابًا لِمَن كأنَّه قال: فما لهم لا يؤمنون؟ مفصِّلًا لقولِه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾، فقال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1].

هذه الجملةُ تذييلٌ للقصة، والمثَلِ، وما أُعقِبا به مِن وصفِ حالِ المشركين؛ فإنَّ هذه الجملةَ تحصِّلُ ذلك كلَّه، وتَجري مجرىٰ المثل؛ وذلك أعلىٰ أنواعِ التَّذييل، وفيها تنويهٌ بشأنِ المهتدين، وتلقينٌ للمسلِمين للتَّوجُّهِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ بطلبِ الهداية منه، والعصمةِ مِن مزالقِ الضَّلال؛ أي: فالذين لم يهتدوا إلىٰ الحقِّ بعد أن جاءهم، دلَّتْ حالُهم علىٰ أنَّ اللهَ غَضِب عليهم، فحرَمهم التَّوفيقَ[2].

لمَّا تقدَّم ذِكْرُ المهتدِين والضَّالِّين، أخبَر تعالىٰ أنَّه هو المتصرِّفُ فيهم بما شاءَ مِن هدايةٍ وضَلالٍ[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف الضَّالِّين بالوصفِ المذكور، وعرَّف حالَهم بالمثَلِ المذكور: بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الهدايةَ مِن الله، وأنَّ الضَّلالَ مِن الله تعالىٰ[4].

لمَّا أُمِر النبيُّ ﷺ بأن يقُصَّ قَصَصَ المنسلِخِ علىٰ هؤلاء الضالِّين الذين مثَلُهم كمثَلِه؛ ليَتفكَّروا فيه، ويترُكوا ما هم عليه مِن الإخلادِ إلىٰ الضَّلالة، ويهتدوا إلىٰ الحقِّ: عُقِّب ذلك بتحقيقِ أنَّ الهدايةَ والضَّلالة مِن جهةِ الله ﷻ[5].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٠٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٤).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

ولمَّا انقَضَتْ هذه القِصَصُ فأسفَرتْ عن أنَّ أكثرَ الخَلْقِ هالكٌ، صرَّح بذلك، فقال مُقسِمًا - لأنَّه لا يَكاد يُصدَّق أنَّ الإنسانَ يكونُ أضَلَّ مِن البهائم - عاطفًا على ما تقديرُه: هؤلاء الذين قصَصْنا عليكم أخبارَهم ذرَأْناهم لجهنَّمَ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، والمناسبةُ أنَّ صاحبَ القصةِ المعطوفِ عليها انتقَل مِن صورة الهدى إلى الضَّلال؛ لأنَّ الله لمَّا خلَقه خلَقه ليكونَ مِن أهلِ جهنَّمَ، مع ما لها مِن المناسبةِ للتَّذييل الذي خُتِمتْ به القصةُ؛ وهو قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ الآية[2].

لمَّا ذكَر أنَّه هو الهادي وهو المُضِلُّ، أعقَبه بذِكْرِ مَن خُلِق للخُسْرانِ والنار، وذكَر مِن أوصافِهم ما ذكَر، وفي ضمنِه وعيدُ الكفار؛ والمعنى: لعذابِ جهنَّمَ[3].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ كلامٌ مستأنَف مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله بطريقِ التذييل[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٢).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٢٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٥).

علىٰ إثرِ ذِكْرِ الهدىٰ والضَّلال، وأنَّ المهتديَ مَن هداه الله، والضالَّ مَن أضلَّه الله: أخبَر تعالىٰ أنَّه قد خلَق لجهنَّمَ كثيرًا مِن الجِنِّ والإنس؛ علمًا منه تعالىٰ بأنَّهم يرفُضون هدايتَه، ويَتكبَّرون عن عبادتِه، ويحارِبون أنبياءَه ورسله، وأنَّ رَفْضَهم للهدايةِ وتكبُّرَهم عن العبادةِ عطَّل حواسَّهم؛ فلا القلبُ يَفقَهُ ما يقالُ له، ولا العينُ تُبصِر ما تراه، ولا الأُذُنُ تَسمَع ما تُخبَرُ به وتُحدَّثُ عنه؛ فأصبَحوا كالأنعام، بل هم أضَلُّ؛ لأنَّ الأنعامَ ما خرَجتْ عن الطريقِ الذي سِيقَتْ له، وخُلِقتْ لأجله، وأمَّا أولئك فقد خرَجوا عن الطريق الذي أُمِروا بسلوكِه، وخُلِقوا له؛ ألَا وهو عبادةُ اللهِ تعالىٰ وَحْدَه لا شريكَ له[1].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

ولمَّا أنتج هذا أنَّ لهم الأسماءَ السُّوءَىٰ، ولمعبوداتِهم أسوأَ منها: عطَف عليه - دفعًا لوَهْمِ مَن يَتوهَّم بالحُكْمِ بالضَّلالِ والذَّرْءِ لجهنَّمَ ما لا يَليق، وتنبيهًا علىٰ أنَّ الموجِبَ لدخولِ جهنَّمَ الغفلةُ عن ذِكْرِ اللهِ ودعائه - قولَه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2].

هذا خطابٌ للمسلمين، فتوسَّطه في خلالِ مَذامِّ المشركين؛ لمناسبةِ أنَّ أفظَعَ أحوالِ المعدودين لجهنَّمَ هو حالُ إشراكِهم بالله غيرَه؛ لأنَّ في ذلك إبطالًا لأخصِّ الصفاتِ بمعنىٰ الإلهيَّةِ؛ وهي صفةُ الوَحْدانيَّة، وما في معناها مِن الصفاتِ؛ نحوُ: الفَرْدِ، الصَّمَد، وينضوي تحت الشِّركِ تعطيلُ صفاتٍ كثيرة، ونشأ عن عنادِ أهلِ الشرك

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٢٦٥).
(٢) نظم الدرر (٨/ ١٧٥).

إنكارُ صفةِ الرحمن؛ فعقَّبتِ الآياتُ التي وصَفتْ ضلالَ إشراكِهم بتنبيهِ المسلمين للإقبالِ علىٰ دعاءِ الله بأسمائه الدَّالةِ علىٰ عظيمِ صفات الإلهيَّة، والدوامِ علىٰ ذلك، وأن يُعرِضوا عن شَغْبِ المشركين وجدالِهم في أسماءِ الله تعالىٰ[1].

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه ذرَأ كثيرًا مِن الجِنِّ والإنس للنار، ذكَر نوعًا منهم؛ وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦ﴾، وهم أشدُّ الكفارِ عِتِيًّا: أبو جهلٍ وأضرابُه، وأيضًا لمَّا نبَّه علىٰ أنَّ دخولَهم جهنَّمَ هو للغفلةِ عن ذِكْرِ اللهِ - والمخلِّصُ مِن العذابِ هو ذِكْرُ اللهِ -، أمَر بذِكْرِ اللهِ بأسمائه الحسنىٰ، وصفاتِه العُلَا، والقلبُ إذا غفَل عن ذِكْرِ اللهِ، وأقبَل علىٰ الدنيا وشهواتِها: وقَع في الحرصِ، وانتقَل مِن رغبةٍ إلىٰ رغبةٍ، ومِن طلبٍ إلىٰ طلبٍ، ومِن ظُلْمةٍ إلىٰ ظُلْمةٍ، وقد وجَدْنا ذلك بالذَّوْقِ، حتىٰ إنَّ أحدَهم ليصلِّي الصلواتِ كلَّها قضاءً في وقتٍ واحد، فإذا انفتَح علىٰ قلبه بابُ ذِكْرِ الله تعالىٰ، تخلَّصَ مِن آفاتِ الغفلة، وامتثَل ما أمَره الله به، واجتنَب ما نَهىٰ عنه[2].

لمَّا وصَف المخلوقين لجهنَّمَ بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَـٰفِلُونَ﴾، أمَر بعده بذِكْرِ اللهِ تعالىٰ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾، وهذا كالتَّنبيهِ علىٰ أنَّ الموجِبَ لدخولِ جهنَّمَ هو الغفلةُ عن ذِكْرِ الله[3].

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تنبيهٌ للمؤمنين علىٰ كيفيَّةِ ذِكْرِه تعالىٰ، وكيفيَّةِ المعاملة مع المُخِلِّينَ بذلك، الغافلين عنه سبحانه عمَّا يَليقُ به مِن الأمور، وما لا يَليق به، إثرَ بيانِ غفلتِهم التامَّة، وضلالتِهم الطامَّة[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤١٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٦).

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عن ذَرْءِ جهنَّمَ مِن القِبْلتَينِ، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ معرفةِ حالِ الباقين منهما، فقال مُصرِّحًا بالخبرِ عنهم، عاطفًا علىٰ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآيةَ؛ والمقصود: التَّنويهُ بالمسلمين في هَدْيِهم واهتدائهم، وذلك مقابَلة لحالِ المشركين في ضلالِهم؛ أي: أعرِضْ عن المشركين؛ فإنَّ اللهَ أغناك عنهم بالمسلمين[2].

لمَّا ذكَر أنَّه خلَق لجهنَّمَ كثيرًا مِن الجِنِّ والإنس، ذكَر هنا أنَّه خلَق للجَنَّةِ خَلْقًا آخرَ مِن الإنسِ والجِن؛ فذكَر صفاتِهم التي يستوجِبون بها الجنَّةَ؛ كما ذكَر صفاتِ أهلِ جهنَّمَ التي استوجَبوا بها جهنَّمَ[3].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحالِ مَن عدا المذكورين مِن الثَّقَلينِ، الموصوفين بما ذُكِر مِن الضَّلال، والإلحادِ عن الحقِّ[4].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢ ﴾

ولمَّا بيَّن حالَ الهادِين المَهْديِّين، وكان أصلُ السياقِ الضَّالِّين المضلِّين: أتبَعه بقيَّةَ الحديثِ عنهم علىٰ وجهٍ ملوِّحٍ بأنَّ علَّةَ الهدايةِ التَّوفيقُ، فقال عاطفًا علىٰ تقديره:

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٩٠).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢٦٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٧).

فنحن نُعلِي أمرَهم، ونطيِّبُ ذِكْرَهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[١].

لمَّا ذكَر حالَ الأمَّةِ الهادية العادلة، أعاد ذِكْرَ المكذِّبين بآياتِ الله تعالىٰ، وما عليهم مِن الوعيدِ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾، وهذا يتناولُ جميعَ المكذِّبين، ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ شروعٌ في تحقيقِ الحقِّ الذي به يَهدي الهادون، وبه يَعدِلُ العادلون، وحَمْلِ النَّاس علىٰ الاهتداءِ به علىٰ وجهِ التَّرهيب[٣].

﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣ ﴾

﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم ﴾؛ فهو داخلٌ في الاستقبالِ، وهو خروجٌ مِن ضميرِ التكلُّم بنونِ العظمةِ إلىٰ ضميرِ تكلُّم المفرَد[٤].

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ مِن أولِ السُّورة لإنذارِهم، وكان لا بد في صحةِ الإنذار مِن تصحيحِ الرسالة، وخُتِم بأمرِ الاستدراج، وكانوا قد واقَعوا مِن المعاصي ما لا يَجترئُ عليه إلا مطموسُ البصيرةِ، وكان عندهم أنَّ مَن قال: إنَّهم علىٰ حالٍ سيئ - مع ما هم فيه مِن النِّعَمِ الظاهرة - مجنونٌ، وكان التَّقديرُ دَلالةً علىٰ صحَّةِ

(١) نظم الدرر (٨/ ١٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤١٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٧).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٣٣).

الاستدراج: ألم يرَوْا أنَّهم يُقدِمون على ما لا يرضاه لنفسِه عاقلٌ؛ مِن عبادتِهم للحَجَر، وشَماختِهم عن أكمَلِ البشر، ووصفِه بالجنون، ووصفِهم أفضلَ الكلامِ بالسِّحْرِ والكذب، إلى غيرِ ذلك ممَّا يُغضِبُ مَن ليس النفعُ والضرُّ إلا بيدِه، وهو مع ذلك يوالي عليهم النِّعَم، ويَدفَع عنهم النِّقَم؛ هل ذلك إلا استدراجٌ؟!: قال منكِرًا عليهم عطفًا على ما أرشَد السِّياقُ - والعطفُ على غيرِ معطوفٍ عليه - إلى تقديرِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[(١)].

لمَّا كان تكذيبُهم بالآياتِ منبعِثًا عن تكذيبِهم مَن جاء بها، وناشئًا عن ظنٍّ أنَّ آياتِ الله لا يَجيءُ بها البشرُ، وأنَّ مَن يدَّعي أنَّه مرسَلٌ مِن اللهِ مجنونٌ: عقَّب الإخبارَ عن المكذِّبين ووعيدِهم بدعوتِهم للنَّظر في حالِ الرَّسول، وأنَّه ليس بمجنونٍ كما يزعُمون. والجملةُ مستأنَفةٌ، وهي ابتداءُ كلامٍ في مُحاجَّتهم، وتنبيهِهم بعد الإخبارِ عنهم بأنَّهم مستدرَجون، ومُملًى لهم[(٢)].

واعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بالَغ في تهديد المعرِضين عن آياته، الغافلين عن التأمُّلِ في دلائلِه وبيِّناتِه: عاد إلى الجوابِ عن شُبُهاتِهم، فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾[(٣)].

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسُوقٌ لإنكارِ عدم تفكُّرهم في شأنِه ﷺ، وجهلِهم بحقيقةِ حاله الموجِبةِ للإيمان به، وبما أُنزِل عليه مِن الآياتِ التي كذَّبوا بها[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٧٩-١٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٩٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤١٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٨).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

ولمَّا كان النَّظرُ في أمرِ النُّبوة مُفرَّعًا علىٰ تقريرِ أدلَّة التَّوحيد، وكان المقصودُ مِن الإنذارِ الرُّجوعَ عن الإلحادِ: قال منكرًا عليهم عدمَ النَّظرِ في دلائلِ التَّوحيد الرادِّ عن كلِّ حال سيِّئٍ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

تَرَقٍّ في الإنكارِ والتَّعجيب مِن حالِهم في إعراضِهم عن النَّظر في حالِ رسولهم إلىٰ الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن إعراضهم عن النَّظرِ فيما هو أوضَحُ مِن ذلك وأعَمُّ؛ وهو ملكوتُ السَّماواتِ والأرض، وما خلَق اللهُ مِن شيءٍ ممَّا هو آياتٌ مِن آياتِ وَحْدانيَّة اللهِ تعالىٰ، التي دعاهم الرسولُ ﷺ إلىٰ الإيمانِ بها[2].

لمَّا كان النظرُ في أمرِ النبوَّة مُفرَّعًا علىٰ تقريرِ دلائلِ التَّوحيد، لا جرَمَ ذكَر عقِيبَه ما يدلُّ علىٰ التَّوحيد، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ استئنافٌ آخَرُ مسُوقٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ بإخلالِهم بالتَّأملِ في الآياتِ التَّكوينيَّة المنصوبةِ في الآفاق، والأنفسِ الشَّاهدة بصحَّةِ مضمونِ الآيات المنزَّلة، إثرَ ما نعَىٰ عليهم إخلالَهم بالتَّفكُّرِ في شأنِه ﷺ[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٢٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٩).

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك كلُّه مِن أعجَبِ العجَبِ، كانت فَذْلكتُه قطعًا تعليلًا لِما قبله مِن إعراضِهم عمَّا لا ينبغي الإعراضُ عنه؛ دليلًا علىٰ أنَّ الأمرَ ليس إلا بيدِ مُنزِله سبحانه، قوله: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[(١)].

هذه الجملةُ تعليلٌ للإنكارِ في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾؛ لإفادةِ أنَّ ضَلالَهم أمرٌ قدَّر اللهُ دوامَه؛ فلا طمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم، ولمَّا كان هذا الحُكْمُ حاقًّا علىٰ مَن اتَّصف بالتَّكذيبِ، وعدمِ التَّفكُّرِ في حالِ الرسول ﷺ، وعدمِ النَّظرِ في ملكوتِ السماوات والأرضِ وما خلَق اللهُ، وفي توقُّعِ اقترابِ استئصالهم: كان المحكومُ عليهم بعدمِ الاهتداء فريقًا غيرَ معروفٍ للنَّاس، وإنَّما ينفردُ اللهُ بعلمِه، ويُطلِعُ عليه رسولَه عليه الصلاة والسلام، وينكشفُ بعضُ ذلك عند موتِ بعضِهم علىٰ الشِّرك؛ وهذه هي المسألةُ الملقَّبة بالموافاةِ عند علماءِ الكلام[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ عاد في هذه الآيةِ مرَّةً أخرىٰ إلىٰ نَعْتِ أحوالِ الضَّالِّين المكذِّبين، فقال: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾[(٣)].

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لِما قبله، منبِئٌ عن الطَّبْعِ علىٰ قلوبهم[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٢٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٠٠).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن التَّوحيدَ والنبوَّة، والقضاءَ والقَدَر: أتبَعه المَعادَ؛ لتكمُلَ المَطالبُ الأربعة، التي هي أمَّهاتُ مَطالِبِ القرآن، مبيِّنًا ما اشتمَل عليه هذا الكلامُ مِن تبلُّدِهم في العَمَه، وتلدُّدِهم[1] في أشراكِ الشُّبَه، بقولِه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، يُذكَر به شيءٌ مِن ضَلالِهم، ومحاوَلةِ تعجيزِهم النبيَّ ﷺ بتعيينِ وقتِ الساعة، ومناسبةُ هذا الاستئنافِ هي التَّعرُّضُ لتوقُّعِ اقترابِ أجلِهم في قولِه: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾، سواءٌ أُفسِّر الأجلُ بأجلِ إذهابِ أهل الشركِ مِن العربِ في الدنيا؛ وهو الاستئصالُ، أم فُسِّر بأجلِهم وأجلِ بقيَّةِ الناس؛ وهو قيامُ الساعة؛ فإنَّ الكلامَ علىٰ السَّاعةِ مناسبةٌ لكِلا الأجلَينِ[3].

اعلَمْ أنَّ في نَظْمِ الآيةِ وجهينِ: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا تكلَّم في التوحيدِ والنبوَّة والقضاء والقَدَر أتبَعه بالكلامِ في المعاد؛ لِما بيَّنَّا أنَّ المَطالبَ الكليةَ في القرآنِ ليست إلا هذه الأربعةَ. الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا قال في الآيةِ المتقدِّمة: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ باعثًا بذلك علىٰ المثابَرةِ إلىٰ التوبةِ والإصلاح: قال بعده: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(١) التلدد: التلفُّت والاضطراب.

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٨٥).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٠).

ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ ليَتحقَّقَ في القلوبِ أنَّ وقتَ الساعة مكتومٌ عن الخَلْقِ، فيَصيرَ ذلك حاملًا للمكلَّفين علىٰ المسارعةِ إلىٰ التوبة، وأداءِ الواجبات(١).

ثم لمَّا تقدَّم ذِكْرُ اقترابِ أجلِهم، عقَّبه سبحانه بذِكْرِ سؤالِهم عن السَّاعة، فقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، وقيل: هو استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ بعضِ طغيانهم وضَلالهم(٢).

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾

ولمَّا كان علمُ الغيبِ ملزومًا لجَلْبِ الخيرِ، ودفعِ الضَّير، وكانت الساعةُ أدَقَّ علمِ الغيب: أمَره بنفيِ هذا اللازم، فينتفي الأعمُّ، فينتفي بانتفائه الأخصُّ، وقدَّم النفعَ؛ لأنَّه أهَمُّ إلىٰ النفسِ، وليس في السِّياقِ ما يوجِبُ تأخيرَه، بخلافِ ما في سورةِ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال آمِرًا بإظهار ذُلِّ العبوديَّة: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

هذا ارتقاءٌ في التَّبرُّؤِ مِن معرفةِ الغيب، ومِن التَّصرُّف في العالَم، وزيادةٌ مِن التَّعليم للأمَّةِ بشيءٍ مِن حقيقةِ الرسالة والنبوَّة، وتمييزِ ما هو مِن خصائصها عمَّا ليس منها(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) روح المعاني (٥/ ١٢٢).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٦).

ووجهُ مناسبتِها لِما قبلها ظاهرٌ جدًّا؛ وهذا منه ﷺ إظهارٌ للعبوديَّة، وانتفاءٌ عمَّا يختصُّ بالرُّبوبيَّةِ مِن القدرةِ وعلمِ الغيب، ومبالَغةٌ في الاستسلام، فلا أملِكُ لنفسي اجتلابَ نفعٍ، ولا دَفْعَ ضرٍّ؛ فكيف أملِكُ علمَ الغيب؟![١].

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ شروعٌ في الجوابِ عن السُّؤال ببيانِ عَجْزِه عن علمِها، إثرَ بيانِ عجزِ الكلِّ عنه، وإبطالِ زعمِهم الذي بنَوْا عليه سؤالَهم مِن كونِه ﷺ ممَّن يَعلَمها، وإعادةُ الأمر لإظهارِ كمالِ العناية بشأنِ الجواب، والتَّنبيهِ علىٰ استقلالِه ومغايرتِه للأول، والتَّعرُّضُ لبيانِ عجزِه عمَّا ذُكِر مِن النفعِ والضرِّ لإثباتِ عجزِه عن علمِها بالطَّريقِ البُرْهانيِّ[٢].

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه السَّاعةَ هنا كما ذكَرها أولَ السورة بما لم يذكُرْه هناك مِن تهكُّمِهم واستهزائهم، وختَم هنا بحصرِ العلم والقدرة في اللهِ، الموجِبِ لتفرُّدِه بالإلهيَّة، وكان الذي جَرَّهم إلىٰ ذلك الاستهزاءِ إشراكَهم: ذكَر ما ذكَر قبلها أولَ السورة مِن ابتداءِ الخَلْقِ علىٰ وجهِ الحصرِ، المستلزِمِ لتمامِ القدرة، الموجِبِ لنفي الشريك، واعتقادِ القدرةِ علىٰ الساعةِ وغيرِها، والصِّدْقِ في كلِّ ما وقَع الإخبارُ به مِن أمرِها وغيرِه،

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٤٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٠٢).

الموجِبِ للاستقامةِ في قَبولِ بِشارته ونِذارتِه، والإقبالِ بالكليَّةِ علىٰ الخالقِ، فقال مقرِّرًا للتوحيد، مؤكِّدًا لأمرِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[١].

جملةٌ مستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا، عاد بها الكلامُ إلىٰ تقريرِ دليل التوحيد وإبطالِ الشرك مِن الذي سلَف ذِكْرُه في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآيةَ، وليست مِن القولِ المأمورِ به في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ لأنَّ ذلك المقُولَ قُصِدَ منه إبطالُ الملازمةِ بَيْنَ وصفِ الرسالة وعلمِ الرسولِ بالغيب، وقد تَمَّ ذلك؛ فالمناسبُ أن يكونَ الغرَضُ الآخَرُ كلامًا موجَّهًا مِن اللهِ تعالىٰ إلىٰ المشركين لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بفسادِ عقولهم في إشراكِهم، وإشراكِ آبائهم، ومناسبةُ الانتقالِ جريانُ ذِكْرِ اسمِ الله في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وضميرُ الخطابِ في ﴿خَلَقَكُم﴾ للمشركين مِن العربِ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذه الحُجَجِ والتذكيرِ، وإن كان حُكْمُ هذا الكلامِ يَشمَل جميعَ البشر، وقد صدَّر ذلك بالتذكيرِ بنعمةِ خَلْقِ النوع المبتدَأِ بخَلْقِ أصلِه - وهو آدمُ وزوجُه حوَّاءُ - تمهيدًا للمقصودِ[٢].

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه لمَّا تقدَّم سؤالُ الكفارِ عن الساعة ووقتِها، وكان فيهم مَن لا يؤمنُ بالبعثِ: ذكَر ابتداءَ خَلْقِ الإنسان وإنشائِه؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ الإعادةَ ممكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان ممكِنًا، وإذا كان إبرازُه مِن العدمِ الصِّرْفِ إلىٰ الوجودِ واقعًا بالفعلِ، فإعادتُه أحرىٰ أن تكونَ واقعةً بالفعل[٣].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢١٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٤١).

ثم بيَّن تعالىٰ عِظَمَ جنايةِ الكفرةِ في جَراءتِهم علىٰ الإشراكِ، بتذكيرِ مَبادئِ أحوالِهم المنافيةِ له، بقولِه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(١).

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

أنَّه تعالىٰ ذكَر ما أنعَم به عليهم مِن الخَلْقِ مِن نفسٍ واحدة، وجعَل أزواجَهم مِن أنفسهم ليأنَسوا بهنَّ، ثم إنشائِه إيَّاهم بعد الغِشْيانِ، متدرِّجين في أطوارِ الخَلْقِ مِن العدمِ إلىٰ الوجود، ومِن الضَّعْفِ إلىٰ القوَّة، ثم بيَّن إعطاءَهم المواثيقَ إن آتاهم ما يطلُبون، ووُلِد لهم ما يشتهون، ليكُونُنَّ مِن الشاكرين، ثم أخبَر عن غَدْرِهم، وكفرانِهم هذه النِّعَمَ التي امتَنَّ سبحانه بها عليهم، ونقضِهم ميثاقَهم في إفرادِه بالشكر، حيث أشرَكوا معه غيرَه في ذلك(٢).

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾

ولمَّا ذكَر عُلُوَّه سبحانه، شرَع يذكُرُ مِن أوصافِه - عبارةً وإشارةً - ما يدلُّ علىٰ ذلك، ويُقِيمُ الأدلةَ علىٰ عدمِ صلاحيَةِ ما أشرَكوا به للشَّركةِ بعَجْزِها؛ بأنَّها مِن جملةِ خَلْقِه، ولا تصرُّفَ لها تستحِقُّ به وجهًا مِن التعظيم، فقال منكِرًا علىٰ عُبَّادِها، دالًّا علىٰ أنَّ المرادَ الشِّركُ الحقيقيُّ، لا ما ذُكِر مِن قصةِ إبليسَ في تسبُّبِه في التسميةِ بعبدِ الحارث ونحوِه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٣).

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٣٤).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٢٣٥).

(٣) نظم الدرر (٨/ ١٩٢).

هذه الآياتُ كلامٌ معترِضٌ بَيْنَ الكلامينِ المسُوقينِ لتوبيخِ المشركين، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، مخاطَبٌ بها النبيُّ ﷺ والمسلمون؛ للتعجيبِ مِن عقولِ المشركين، وفيه تعريضٌ بالردِّ عليهم؛ لأنَّه يبلُغُ مسامعَهم(١).

ثم استأنَف تعالىٰ توبيخَ المشركين كافَّةً، واستقباحَ إشراكِهم، وإبطالَه بالكلية؛ ببيانِ شأنِ ما أشرَكوا به سبحانه، وتفصيلِ أحوالهِ القاضيةِ ببطلانِ ما اعتقَدوه في حقِّه، بقوله سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾(٢).

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾، فتكونُ صلةً ثانيةً(٣).

لمَّا بيَّن أنَّها لا تخلُقُ، ناسَب أن يبيِّنَ هنا أنَّها لا تنصُرُ مَن عبَدها.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

ولمَّا تبيَّن مِن هذا الاستفهامِ الإنكاريِّ المعجِّبِ مِن حالِهم في ضلالِهم في أسلوبِ الغَيْبةِ أنَّ مَن أشرَكوه ليس فيه نوعُ قابليَّةٍ لِما أهَّلوه؛ فإنَّ المعبودَ يجبُ أن يكونَ قادرًا، ومَن كان عاجزًا نوعَ عجزٍ كان مربوبًا، وكان للتنبيهِ بالخطابِ ما ليس له بالغَيْبةِ: أتبَع ذلك في أسلوبِه تعجيبًا آخَرَ منهم أشَدَّ مِن الأولِ؛ وذلك أنَّ معبوداتِهم التي أشرَكوا بها كما أنَّها لا تَفعَل شيئًا مِن تِلْقاءِ أنفسِها، لا تفعلُه عند دعاءِ الداعي،

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢١٥).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٢٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢١٧).

ولا تهتدي إليه، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾(١).

يجوزُ أن يكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾ زيادةً في التعجيبِ مِن حالِ المشركين؛ بذِكْرِ تصميمِهم علىٰ الشِّركِ علىٰ ما فيه مِن سَخافةِ العقول ووَهْنِ الدليلِ، بعد ذِكْرِ ما هو كافٍ لتزييفِه(٢).

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بيانٌ لعَجْزِهم عمَّا هو أدنىٰ مِن النصرِ المنفيِّ عنهم وأيسَرُ؛ وهو مجرَّدُ الدَّلالةِ علىٰ المطلوب، والإرشادِ إلىٰ طريقِ حصوله مِن غيرِ أن يحصِّلَه الطالبُ(٣).

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أثبَت بالآيةِ المتقدِّمة أنَّه لا قدرةَ لهذه الأصنامِ علىٰ أمرٍ مِن الأمور، بيَّن بهذه الآيةِ أنَّه لا عِلْمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ(٤).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

ولمَّا كان اتِّباعُ مَن يدَّعي أنَّه أعقَلُ الناسِ وأبعَدُهم عن النقائصِ وأعرَقُهم في معالي الأخلاقِ وأرفَعُهم عن سفسافِها لِمَن هذا سبيلُه أخزىٰ الخِزْيِ وأقبَحَ العارِ، وكانوا مع العلمِ بهذا الذي وُصِفتْ به معبوداتُهم يفعلون في الإشراكِ بهم وفي خوفِهم ورجائهم ما هو عينُ الجهلِ: كرَّر تبكيتَهم باتِّباعِهم في أسلوبٍ آخَرَ أوضَحَ ممَّا قبله في تبيينِ النقائص، والتنبيهِ علىٰ المعايبِ، مُلجِئٍ إلىٰ الاعترافِ أو التصريحِ بالعناد

(١) نظم الدرر (٨/ ١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢١٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٠٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣١).

أو الجنونِ، فقال مؤكِّدًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١).

هذه الجملةُ على الوجهِ الأول في كونِ المخاطَبِ بقولِه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآيةَ، النبيَّ ﷺ والمسلمين؛ أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا، انتقل به إلى مخاطَبة المشركين؛ ولذلك صُدِّر بحرفِ التوكيد؛ لأنَّ المشركين يُنكِرون مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديةِ، وفيه الالتفاتُ مِن الغَيْبةِ إلى الخطاب(٢).

هذه الجملةُ على سبيلِ التوكيد لِما قبلها في انتفاءِ كونِ هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ مِن نَفْعٍ أو ضرٍّ(٣).

ثم أكَّد اللهُ بيانَ أنَّها لا تصلُحُ للإلهيَّةِ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ولمَّا أثبَت عَجْزَهم، وأنَّهم أمثالُهم: دلَّ عليه وعلى أنَّهم دُونَهم بأسلوبِ إنكارٍ وتعجيب مفصِّلًا لبعضِ ما نفاه عنهم، فقال مقدِّمًا الأرجُلَ - لأنَّ أولَ ما يُخشَى مِن الشيءِ انتقالُه -: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ١٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٤٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٠).

(٥) نظم الدرر (٨/ ١٩٦).

تأكيدٌ لِما تضمَّنتْهُ الجملةُ قبلها مِن أمرِ التعجيز، وثبوتِ العَجْزِ؛ لأنَّه إذا انتفَتْ عن الأصنامِ أسبابُ الاستجابة، تحقَّق عَجْزُها عن الإجابةِ، وتأكَّد معنىٰ أمرِ التعجيز المُكنىٰ به عن عَجْزِ الأصنام، وعجزِ عبدَتِها[1].

ثم أبطَل أن يكونوا عبادًا أمثالكم، فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[2].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن الدليلِ في بيانِ أنَّه يقبُحُ مِن الإنسانِ العاقل أن يشتغِلَ بعبادةِ هذه الأصنامِ، وتقريرُه أنَّه تعالىٰ ذكَر في هذه الآيةِ أعضاءً أربعةً؛ وهي: الأرجُلُ، والأيدي، والأعيُنُ، والآذان، ولا شكَّ أنَّ هذه الأعضاءَ إذا حصَل في كلِّ واحدةٍ منها ما يَليق بها مِن القُوَىٰ المحرِّكة والمُدرِكة تكونُ أفضَلَ منها إذا كانت خاليةً عن هذه القُوَىٰ؛ فالرِّجْلُ القادرة علىٰ المشيِ واليدُ القادرة علىٰ البطشِ: أفضَلُ مِن اليدِ والرِّجْلِ الخاليتَينِ عن قوةِ الحركةِ والحياة، والعينُ الباصرة والأُذُنُ السامعة: أفضَلُ مِن العينِ والأُذُن الخاليتَينِ عن القوةِ الباصرة والسامعة، وعن قوةِ الحياة، وإذا ثبَت هذا، ظهَر أنَّ الإنسانَ أفضَلُ بكثيرٍ مِن هذه الأصنامِ؛ بل لا نسبةَ لفضيلةِ الإنسان إلىٰ فضلِ هذه الأصنام البتَّةَ، وإذا كان كذلك، فكيف يَليقُ بالأفضلِ الأكمل الأشرف أن يشتغلَ بعبادةِ الأخسِّ الأدوَنِ الذي لا يُحِسُّ منه فائدةً البتَّةَ؛ لا في جَلْبِ المنفعة، ولا في دفعِ المضرَّة[3].

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ تبكيتٌ إثرَ تبكيتٍ، مؤكِّد لِما يفيدُه الأمرُ التعجيزيُّ مِن عدمِ

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٢).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٢).

الاستجابة ببيانِ فِقْدانِ آلاتِها بالكلية؛ فإنَّ الاستجابةَ مِن الهياكلِ الجسمانية إنَّما تُتصوَّرُ إذا كان لها حياةٌ وقُوًى محرِّكةٌ ومُدرِكة، وما ليس له شيءٌ مِن ذلك، فهو بمَعزِل مِن الأفاعيلِ بالمرَّة، كأنَّه قيل: ألهُمْ هذه الآلاتُ التي بها تَتحقَّقُ الاستجابةُ حتىٰ يمكِنَ استجابتُهم لكم[1].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾

ثم قال مؤكِّدًا في مقابَلةِ إنكارِهم: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

هذا مِن المأمورِ بقوله، وفُصِلتْ هذه الجملةُ عن جملةِ ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾؛ لوقوعِها موقعَ العلة لمضمونِ التحدي في قوله: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ الآيةَ، الذي هو تحقُّقُ عَجْزِهم عن كيدِه؛ فهذا تعليلٌ لعدمِ الاكتراث بتألُّبِهم عليه، واستنصارِهم بشركائهم، ولثقتِهِ بأنَّه منتصِرٌ عليهم بما دلَّ عليه الأمرُ والنَّهيُ التعجيزيَّانِ[3].

لمَّا أحالهم علىٰ الاستنجادِ بآلهتهم في ضُرِّه، وأراهم أنَّ اللهَ هو القادرُ علىٰ كلِّ شيء: عقَّب ذلك بالاستنادِ إلىٰ الله تعالىٰ، والتوكلِ عليه، والإعلامِ أنَّه تعالىٰ هو ناصرُه عليهم، وبيَّن جهةَ نصرِه عليهم بأن أوحىٰ إليه كتابَه، وأعَزَّه برسالتِه، ثم أنَّه تعالىٰ يَتولَّىٰ الصالحين مِن عبادِه، وينصُرُهم علىٰ أعدائِه، ولا يخذُلُهم[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٤).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٥٣).

لمَّا بيَّن في الآياتِ المتقدِّمة أنَّ هذه الأصنامَ لا قدرةَ لها علىٰ النفعِ والضرِّ، بيَّن بهذه الآيةِ أنَّ الواجبَ علىٰ كلِّ عاقلٍ عبادةُ الله تعالىٰ؛ لأنَّه هو الذي يَتولَّىٰ تحصيلَ منافعِ الدِّينِ، ومنافعِ الدنيا؛ أمَّا تحصيلُ منافعِ الدِّين: فبسببِ إنزالِ الكتاب، وأمَّا تحصيلُ منافعِ الدنيا: فهو المرادُ بقولِه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١).

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾

ولما صوَّر بهذا جلالَه، وقرَّر عظَمتَه وكمالَه؛ باتصافِه بجميع الصفاتِ العُلَا التي منها القدرةُ التي تكُفُّهم عنه: كرَّر التنفيرَ عن أندادِهم في أسلوبٍ آخَرَ؛ تأكيدًا للمعنىٰ السابقِ بزيادةٍ بالغة في العَجْزِ؛ وهو تصويبُ النظرِ مِن غيرِ إبصار، مع أنَّ الأولَ للتقريع، وهذا الفرقُ بَيْنَ مَن يعبُدُ بحقٍّ ومَن يعبُدُ بباطلٍ؛ ليَرجِعوا عن غَيِّهم وعنادهم، فقال مبيِّنًا أنَّهم ليسوا في شيءٍ مِن صفاتِه، مصرِّحًا بنفيِ النُّصْرةِ التي أثبَتها له عنهم مع المواجهةِ بالخطاب الذي هو أفظَعُ في الجواب: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾(٢).

جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ عطفٌ علىٰ جملة ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾، وسلوكُ طريقِ الموصوليَّة في التعبيرِ عن الأصنام؛ للتنبيهِ علىٰ خطأ المخاطَبين في دعائهم إيَّاها مِن دُونِ الله مع ظهورِ عدم استحقاقِها للعبادة؛ بعَجْزِها عن نصرِ أتباعِها، وعن نصرِ أنفسها(٣).

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٣).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٩٨-١٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٤).

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، كرَّر سبحانه هذا لمزيدِ التأكيدِ والتقرير، ولِما في تكْرارِ التوبيخِ والتقريع مِن الإهانةِ للمشركين، والتنقُّص بهم، وإظهارِ سُخْفِ عقولِهم، وركاكةِ أحلامِهم[(١)].

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾

ولمَّا كان دعاءُ الجماعةِ أقرَبَ إلى السماعِ مِن دعاءِ الواحد، نسَق على ما قبله قولَه: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[(٢)].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ الآيةَ؛ أي: قُلْ للمشركين: وإن تَدْعوا الذين تَدْعون مِن دُونِ اللهِ إلى الهدى، لا يَسمَعوا[(٣)].

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

ولمَّا كان محصَّلُ أمرِهم الإعراضَ عمَّا أتاهم بالتكذيبِ، والإقبالَ على ما لم يأتِهم بالطلبِ والتعنُّتِ؛ كالسؤالِ عن الساعة، والأمرِ بالمنكَر مِن الشرك، وما يَلزمُ منه مِن مساوئِ الأخلاق، والنَّهيِ عن المعروفِ الذي هو التوحيدُ، وما يَتبعُه مِن محاسنِ الشرع؛ وذلك هو الجهلُ، وختَم ذلك بالإخبارِ بأنَّه سبحانه أصلَحَ له الدِّينَ بالكتاب، والدنيا بالحفظِ مِن كلِّ ما ينتاب، وكان حالُهم ربما كان مُوئِسًا مِن فلاحِهم، مُفتِّرًا عن دعائهم إلى صلاحِهم: كان الداعي لهم ﷺ كأنَّه قال: فما أصنَعُ

---

(١) فتح القدير (٢/ ٣١٧).

(٢) نظم الدرر (٨/ ١٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٥).

في أمرِهم؟ فأجابه بالتحذيرِ مِن مثلِ حالهم، والأمرِ بضِدِّ قَالِهم وفَعَالِهم، والإبلاغِ في الرِّفْقِ بهم، فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

أُشبِعتْ هذه السورةُ مِن أفانينِ قوارعِ المشركين، وعِظَتِهم، وإقامةِ الحُجَّة عليهم، وبعثِهم علىٰ التأمُّلِ والنظر في دلائلِ وَحْدانيَّةِ الله، وصِدْقِ رسوله ﷺ، وهُدَىٰ دِينِه وكتابِه، وفَضْحِ ضَلالِ المشركين، وفسادِ معتقَدِهم، والتشويهِ بشركائهم، وقد تخلَّل ذلك كلَّه التسجيلُ بمكابَرتِهم، والتعجيبُ منهم كيف يَركَبون رؤوسَهم، وكيف يَنأَوْن بجانبِهم، وكيف يُصِمُّون أسماعَهم، ويُغمِضون أبصارهم عمَّا دُعُوا إلىٰ سماعِه، وإلىٰ النظرِ فيه، ونُظِرتْ أحوالُهم بأحوالِ الأُمَمِ الذين كذَّبوا مِن قبلِهم، وكفَروا نِعْمةَ الله، فحَلَّ بهم ما حَلَّ مِن أصنافِ العذاب، وأنذَر هؤلاء بأن يحُلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك، ثم أعلَن باليأس مِن ارْعِوَائِهم، وبانتظارِ ما سيحُلُّ بهم مِن العذابِ بأيدي المؤمنين، وبتثبيتِ الرسولِ والمؤمنين، وتبشيرِهم، والثناءِ علىٰ ما هم عليه مِن الهدىٰ؛ فكان مِن ذلك كلِّه عِبْرةٌ للمتبصِّرِين، ومَسْلاةٌ للنبيِّ وللمسلمين، وتنويهٌ بفضلِهم، وإذ قد كان مِن شأنِ ذلك أن يُثِيرَ في أنفسِ المسلمين كراهيَةَ أهلِ الشِّرك، وتحفُّزَهم للانتقامِ منهم، ومجافاتَهم، والإعراضَ عن دعائهم إلىٰ الخيرِ: لا جرَمَ شرَع في استئنافِ غرضٍ جديد، يكونُ ختامًا لهذا الخوضِ البديع؛ وهو غرَضُ أمرِ الرسولِ والمؤمنين بقلَّةِ المبالاةِ بجَفاءِ المشركين وصلابتِهم، وبأن يسَعُوهم مِن عفوِهم، والدَّأَبِ علىٰ محاولةِ هَدْيِهم، والتبليغِ إليهم، بقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ الآيات(٢).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٦).

لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ اللهَ هو الذي يَتولَّاه، وأنَّ الأصنامَ وعابدِيها لا يَقدِرون علىٰ الإيذاءِ والإضرار: بيَّن في هذه الآيةِ ما هو المنهجُ القويم والصراطُ المستقيم في معاملةِ الناس، فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾[1].

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ بعد ما عُدَّ مِن أباطيلِ المشركين وقبائحِهم ما لا يطاقُ تحمُّلُه، أُمِر ﷺ بمَجامعِ مكارمِ الأخلاق، التي مِن جملتِها الإغضاءُ عنهم[2].

ثم أمَر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصفحِ عن المشركين إذا جادَلوه في شركائهم بعد هذا البيانِ، بقولِه سبحانه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[3].

لمَّا علَّم تعالىٰ رسولَه كيف يحاجُّ المشركين لإبطالِ باطلهم في عبادةِ غيرِ الله تعالىٰ، والإشراكِ به ﷻ: علَّمه في هذه الآيةِ أسمىٰ الآدابِ وأرفعَها، وأفضَلَ الأخلاقِ وأكملَها، فقال له: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4].

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

ولمَّا كان الشيطانُ بعداوتِه لبني آدمَ مجتهِدًا في التنفيرِ مِن هذه المحاسنِ، والترغيبِ في أضدادها، وكان النبيُّ ﷺ قد نُزِع منه حظُّ الشيطانِ؛ بطرحِ تلك العلَقةِ السوداء مِن قلبه؛ إذ شَقَّ جِبْرائيلُ عليه السلام صدرَه، وغسَل قلبه، وقال: «هذا حظُّ الشيطانِ منك»[5]؛ شرَع لأمَّتِه ما يَعصِمُهم منه عند نَزْغِه مخاطِبًا له بذلك؛ ليكونَ أدعىٰ لهم

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٨).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢٤٢).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٢٧٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٦٢).

إلىٰ القَبول، وأجدَرَ باشتدادِ الخوف المقتضي للفرارِ المُثمِر للنجاةِ؛ لأنَّهم إذا عَلِموا قَصْدَ الشيطانِ لِمَن نُزِع منه حظُّه وعُصِم مِن كلِّ مِحْنةٍ، عَلِموا أنَّه لهم أشدُّ قصدًا، وأعظَمُ كيدًا وصدًّا، فقال مؤكِّدًا بأنواعِ التأكيد إشارةً إلىٰ شدةِ قصدِ الشيطان للفتنةِ، وإفراطِه في ذلك؛ ليُبالَغَ في الحذَرِ منه، وإن كان قصدُه بذلك في محَلِّ الإنكار؛ لعِلْمِه بالعصمةِ؛ لذلك عبَّر بأداةِ الشك؛ إشارةً إلىٰ ضَعْفِ كيدِه للنبي ﷺ؛ لأنَّ الله تعالىٰ أعانه علىٰ قرينِه فأسلَم؛ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

لمَّا نزَلتْ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ الآيةَ، قال رسولُ الله ﷺ: «كيف والغضَبُ؟»[2]؛ فنزَلتْ، ومناسبتُها لِما قبلها ظاهرةٌ[3].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

ولمَّا كان لا يحصُلُ للنبي ﷺ إلا شيءٌ خفيف جدًّا؛ كما نبَّه عليه بالنَّزْغِ، وهو ليس بمحقَّقٍ؛ كما نبَّهتْ عليه أداةُ الشك، وكان لا يستعيذُ بالله إلا المتَّقون: فكان كأنَّه قيل: افعَلْ ذلك عند أولِ نَزْغِه؛ لتكونَ مِن المتَّقين: علَّله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ ٦٤٦).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٥٧).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٠٥).

هذا تأكيدٌ وتقرير للأمرِ بالاستعاذةِ مِن الشيطان، فتتنزلُ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ إلىٰ آخرِها منزلةَ التعليل للأمرِ بالاستعاذة مِن الشيطان إذا أَحَسَّ بنَزْغِ الشيطان؛ ولذلك افتُتحتْ بـ ﴿إِنَّ﴾ التي هي لمجرَّدِ الاهتمام، لا لردِّ تردُّدٍ أو إنكار؛ كما افتُتِحتْ بها سابقتُها في قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فيكونُ الأمر بالاستعاذةِ حينئذٍ قد عُلِّل بعلَّتَينِ: أُولاهما: أنَّ الاستعاذةَ بالله مَنْجاةٌ للرسولِ ﷺ مِن نَزْغِ الشيطان. والثانية: أنَّ في الاستعاذةِ بالله مِن الشيطانِ تذكُّرًا لواجبِ مجاهدةِ الشيطان، والتيقُّظِ لكيدِه، وأنَّ ذلك التيقُّظَ سُنَّةُ المتَّقين؛ فالرسولُ ﷺ مأمورٌ بمجاهدةِ الشيطان؛ لأنَّه مُتَّقٍ، ولأنَّه يبتهجُ بمتابعةِ سيرةِ سَلَفِه مِن المتقين[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ الرسولَ ﷺ قد يَنزَغُه الشيطانُ، وبيَّن أنَّ علاجَ هذه الحالةِ الاستعاذةُ بالله، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ حالَ المتَّقين يَزيدُ علىٰ حالِ الرسول ﷺ في هذا البابِ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ لا يحصُلُ له مِن الشيطانِ إلا النَّزْغُ، الذي هو كالابتداءِ في الوسوسة[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لِما قبله؛ ببيانِ أنَّ ما أُمِر به ﷺ مِن الاستعاذةِ بالله تعالىٰ سُنَّةٌ مسلوكة للمتَّقين، والإخلالُ بها دَيْدنُ الغاوين[(٣)].

ولمَّا كان العبدُ لا بد أن يغفُلَ ويَنالَ منه الشيطانُ، الذي لا يَزالُ مرابِطًا ينتظرُ غِرَّتَهُ وغَفْلَتَه: ذكَر تعالىٰ علامةَ المتَّقين مِن الغاوين[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣٠٨).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٣١٣).

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

ولمَّا وصَف المتقين الذين هم العلماءُ ملوِّحًا إلىٰ نُصْحِ وليِّهم لهم، وعُرِف مِن حالهم أنَّهم أعداءُ الشيطان، وعُرِف أنَّ أضدادَهم أولياؤُه: أتبعه وَصْفَ الجاهلين، وغِشَّ أوليائِهم لهم، والكلُّ غيرُ متَّقِين، فقال: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ عَطْفَ الضدِّ علىٰ ضده؛ فإنَّ الضِّديةَ مناسَبةٌ يحسُنُ بها عطفُ حالِ الضدِّ علىٰ ضدِّه، فلمَّا ذكَر شأنَ المتقين في دفعِهم طائفَ الشياطينِ، ذكَر شأنَ أضدادهم مِن أهلِ الشرك والضَّلال[2].

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر ما شرَعه مِن التعفُّفِ، وعدمِ التنطُّعِ والتكلف، وكان قد أخبَر أنَّ مِن عَمَهِهم تكلُّفَهم السؤالَ عن الساعةِ، والشياطينُ لا يَفترُون عن إغوائِهم: أخبَره عن مطلَقِ تكلُّفِهم؛ تعجُّبًا منهم، وإشهادًا لتماديهم مع إغواءِ شياطينهم، وأمَره ﷺ بما يجيبُهم به، فقال عاطفًا علىٰ ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٠٧).

معطوفـةٌ علـىٰ جملـةِ ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾، والمناسـبةُ أنَّ مقـالتَهم هـذه مِن جهالتِهم[١].

لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ شياطينَ الجِنِّ والإنس لا يقصِّرون في الإغواءِ والإضلال، بيَّن في هذه الآيةِ نوعًا مِن أنواعِ الإغواء والإضلال؛ وهـو أنَّهـم كـانوا يطلُبـون آيـاتٍ معيَّنةً ومعجِزاتٍ مخصوصة علىٰ سبيل التعنُّت[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ مِن أنواعِ إغوائهم لَجَاجَهم في طلبِ آياتٍ معيَّنة، وتعنُّتَهم في اقتراحِهـا، مـع أنَّ لـديهم المعجِـزةَ العظمـىٰ، والخارقـةَ الكـبرىٰ؛ وهـي القـرآنُ الكـريم، فقـال سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾[٣].

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ ﴾

ولـمَّا عظَّم اللهُ شأنَ القرآن، فكان التقديرُ: فآمِنوا به تُفلِحوا: عطَف عليه قولَه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[٤].

يؤذِنُ العطفُ بـأنَّ الخطـابَ بـالأمر في قولـه: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ ﴾، ﴿وَأَنصِتُواْ ﴾، وفي قولـه: ﴿لَعَلَّكُمۡ ﴾: تـابعٌ للخطـابِ في قولـه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ إلـخ؛ فقولُـه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ مِن جملةِ ما أُمِر الرسولُ ﷺ بأن يقولَه لهـم، وذلـك إعـادةُ تـذكيرٍ للمشركين - تصريحًا أو تعريضًا - بألا يُعرِضوا عن استماعِ القـرآن، وبـأن يتـأمَّلوه؛

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٨).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢٤٤).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٠٩).

ليَعلَموا أنَّه آيةٌ عظيمة، وأنَّه بصائرُ وهُدًىٰ ورحمةٌ لِمَن يؤمنُ به ولا يعانِدُ، وقد عُلِم مِن أحوالِ المشركين أنَّهم كانوا يَتناهَوْنَ عن الإنصاتِ إلىٰ القرآن[١].

لمَّا ذكَر أنَّ القرآنَ بصائرُ وهُدًىٰ ورحمةٌ، أمَر باستماعِه إذا شُرِع في قراءتِه، وبالإنصاتِ؛ وهو السكوتُ مع الإصغاءِ إليه؛ لأنَّ ما اشتمَل علىٰ هذه الأوصافِ مِن البصائرِ والهدىٰ والرحمة حَرِيٌّ بأن يُصغَىٰ إليه حتىٰ يحصُلَ منه للمنصِتِ هذه النتائجُ العظيمة، وينتفعَ بها، فيستبصرَ مِن العَمَىٰ، ويهتديَ مِن الضَّلال، ويُرحَمَ بها، والظاهرُ استدعاءُ الاستماعِ والإنصات إذا أُخِذ في قراءةِ القرآن، ومتىٰ قُرِئ[٢].

وبعد ذِكْرِ بيانِ حُجَجِ القرآنِ وأنواره، أمَر اللهُ تعالىٰ عبادَه المؤمنين إذا قُرِئ عليهم القرآنُ أن يَستمعوا ويُنصِتوا، وسواءٌ كان يومَ الجمعة علىٰ المِنبَر، أو كان في غيرِ ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٣].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ القرآنَ بصائرُ للناس وهُدًىٰ ورحمة، أمَر تعالىٰ بالإنصاتِ عند تلاوته؛ إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمدُه كفارُ قُرَيشٍ المشركون[٤].

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم الأمرُ بالذِّكرِ عند نَزْغِ الشيطان، ومرَّ إلىٰ أنْ أمَر بالاستماع لأعظَمِ الذِّكر، وكان التالي ربما بالَغ في الجهرِ ليكثُرَ سامِعُه، وربما أسَرَّ لئلا يوجِبَ علىٰ غيرِه

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٨).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٦١).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٢٨١).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٦).

الإصغاء: علَّمهم أدبَ القراءةِ، وأطلَق ذلك في كلِّ حالٍ؛ لأنَّه ربما فَهِم فاهمٌ الاقتصارَ على الذِّكرِ في حالةِ النَّزْغِ، ورُقِّيَ الخطابُ منهم إلى إمامِهم؛ ليكونَ أدعى لقَبولهم، مع الإشارة إلى أنَّه لا يكاد يقومُ بهذا الأمرِ حَقَّ قيامِه غيرُه ﷺ، فقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[(١)].

إقبالٌ بالخطابِ على النبي ﷺ فيما يختصُّ به بعد أن أُمِر بما أُمِر بتبليغِه مِن الآياتِ المتقدِّمة، والمناسبةُ في هذا الانتقالِ أنَّ أمرَ الناسِ باستماع القرآن يَستلزمُ أمرَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام بقراءةِ القرآن عليهم قراءةً جهريَّة يَسمَعونها، فلمَّا فرَغ الكلامُ مِن حظِّ الناسِ نحوَ قراءةِ الرسول عليه الصلاة والسلام، أقبَل على الكلامِ في حظِّ الرسولِ ﷺ مِن القرآنِ وغيره؛ وهو التذكُّرُ الخاص به، فأُمِر بأن يذكُرَ اللهَ ما استطاع، وكيفما تسنَّى له، وفي أوقاتِ النهار المختلِفة؛ فجملةُ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ معطوفةٌ على الجُمَلِ السابقة مِن قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ﴾ إلى هنا[(٢)].

لمَّا أمَرهم تعالى بالاستماعِ والإنصات إذا شُرِع في قراءةِ القرآن، ارتقى مِن أمرِهم إلى أمرِ الرسول ﷺ أن يذكُرَ ربَّه في نفسِه؛ أي: بحيث يراقِبُه ويذكُرُه في الحالةِ التي لا يشعُرُ بها أحدٌ؛ وهي الحالةُ الشريفة العُلْيا، ثم أمَره أن يذكُرَه دُونَ الجهرِ مِن القول؛ أي: يذكُرَه بالقولِ الخَفِيِّ الذي يُشعِرُ بالتذلُّلِ والخشوع مِن غيرِ صِياحٍ ولا تصويت شديدٍ؛ كما تُناجَى الملوكُ، وتُستجلب منهم الرغائبُ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٠٩-٢١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤١).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٦٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾، أعلَمَ أنَّ قارئًا يقرأ القرآنَ بصوتٍ عالٍ حتىٰ يمكِنَهم استماعُ القرآن، ومعلومٌ أنَّ ذلك القارئَ ليس إلا الرسولَ ﷺ، فكانت هذه الآيةُ جاريةً مجرىٰ أمرِ الله محمَّدًا ﷺ بأن يقرأَ القرآن علىٰ القومِ بصوتٍ عالٍ رفيع، وإنَّما أمَره بذلك ليحصُلَ المقصودُ مِن تبليغ الوحيِ والرسالة، ثم إنَّه تعالىٰ أردَف ذلك الأمرَ بأن أمَره في هذه الآيةِ بأن يذكُرَ ربَّه في نفسِه؛ والفائدةُ فيه: أنَّ انتفاعَ الإنسان بالذِّكر إنَّما يكمُلُ إذا وقَع الذِّكْرُ بهذه الصفةِ؛ لأنَّه بهذا الشرطِ أقرَبُ إلىٰ الإخلاصِ والتضرع[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦) ﴾

ثم علَّل الأمرَ بالمراقبةِ الدالَّة علىٰ أعظَمِ الخضوع بأنَّها وظيفةُ المقرَّبين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾[2].

تتنزَّلُ منزلةَ العِلَّةِ للأمرِ بالذِّكر؛ ولذلك صُدِّرتْ بـ﴿ إِنَّ ﴾ التي هي لمجردِ الاهتمامِ بالخبر، لا لردِّ تردُّدٍ أو إنكار؛ لأنَّ المخاطَبَ منزَّهٌ عن أن يتردَّدَ في خبرِ الله تعالىٰ، فحرفُ التوكيدِ في مثلِ هذا المقام يُغنِي غَناءَ فاءِ التفريع، ويفيدُ التعليلَ؛ كما تقدَّم غيرَ مرةٍ؛ والمعنىٰ: الحثُّ علىٰ تكرُّرِ ذِكْرِ اللهِ في مختلِفِ الأحوال؛ لأنَّ المسلمين مأمورون بالاقتداءِ بأهلِ الكمال مِن الملأ الأعلىٰ، وفيها تعريضٌ بالمشركين المستكبِرين عن عبادةِ الله بأنَّهم منحَطُّون عن تلك الدرجاتِ[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٤٢).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢١١-٢١٢).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٣).

لمَّا أمَر تعالىٰ بالذِّكر، ورغَّب في المواظَبةِ عليه: ذكَر مِن شأنِهم ذلك، فأخبَر عنهم بأخبارٍ ثلاثة: الأول: نفيُ الاستكبار عن عبادتِه؛ وذلك هو إظهارُ العبودية، ونفيُ الاستكبار هو الموجِب للطاعات؛ كما أنَّ الاستكبارَ هو الموجِب للعصيان؛ لأنَّ المستكبِرَ يرىٰ لنفسِه شُفوفًا ومَزيَّةً، فيَمنَعُه ذلك مِن الطاعةِ. الثاني: إثباتُ التسبيحِ منهم له تعالىٰ؛ وهو التنزيهُ والتطهير عن جميعِ ما لا يَلِيقُ بذاتِه المقدَّسة. والثالث: السجودُ له(١).

لمَّا رغَّب اللهُ رسولَه ﷺ في الذِّكر، وفي المواظَبةِ عليه: ذكَر عَقِيبَه ما يقوِّي دواعيَهُ في ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ ﴾(٢).

ثم ذكَر تعالىٰ ما يقوِّي دواعيَ الذِّكرِ، ويُنهِضُ الهِمَمَ إليه؛ بمدحِ الملائكة الذين يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفتُرُون، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾(٣).

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٤٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢٤٨).

سورة الأنفال

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾

موقعُ هذه الجملةِ وما عُطِف عليها موقعُ التعليل لوجوبِ تقوىٰ الله، وإصلاحِ ذاتِ بينهم، وطاعتِهم اللهَ ورسوله؛ لأنَّ ما تضمَّنتْهُ هذه الجُمَلُ التي بعد ﴿ إِنَّمَا ﴾ مِن شأنه أن يَحمِلَ المتَّصِفين به علىٰ الامتثال لِما تضمَّنتْهُ جُمَلُ الأمرِ الثلاثُ السابقة(١).

ثم أخبَر عنهم بموصولٍ وُصِل بثلاثِ مقاماتٍ عظيمة: مقامِ الخوف، ومقامِ زيادة الإيمان، ومقامِ التوكُّل(٢).

لمَّا قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، واقتضىٰ ذلك كونَ الإيمانِ مستلزِمًا للطاعة؛ شرَح ذلك في هذه الآيةِ مَزيدَ شرحٍ وتفصيل، وبيَّن أنَّ الإيمانَ لا يحصُلُ إلا عند حصولِ هذه الطاعاتِ، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآيةَ(٣).

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ جملةٌ مستأنَفة مسُوقةٌ لبيانِ مَن أريدَ بالمؤمنين؛ بذِكْرِ أوصافِهم الجليلة المستتبِعة لِما ذُكِر مِن الخصالِ الثلاث، وفيه مَزيدُ ترغيبٍ لهم في الامتثالِ بالأوامر المذكورة(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩ / ٢٥٤).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٧٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٥٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ٤).

لمَّا كان الإيمانُ قِسمَينِ: إيمانًا كاملًا يَترتَّبُ عليه المدحُ والثناءُ والفوزُ التامُّ، وإيمانًا دُونَ ذلك؛ ذكَر الإيمانَ الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

ولمَّا وصَفهم بالإيمانِ الحامل على الطاعةِ والتوكُّلِ الجامعِ لهم الدافعِ للمانع منها، منتقِلًا مِن عملِ الباطن إلى عملِ الظاهر، مبيِّنًا أنَّ هِمَّتَهم إنَّما هي العبادةُ والمكارمُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي لا يفتُرون عن تجديدِ ذلك؛ ولما كانت صلةً بين الخلق والخالق، أتبَعَها الوصلةَ بين الخلائق فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[2].

وَصْفُهم بأنَّهم الذين يُقِيمون الصلاةَ ويُنفِقون ممَّا رزَقهم اللهُ جاء بإعادةِ الموصول؛ وذلك للدَّلالةِ على الانتقالِ في وصفِهم إلى غرضٍ آخَرَ غيرِ الغرض الذي اجتُلِب الموصولُ الأول لأجلِه؛ وهو هنا غرَضُ محافظتِهم على رُكْنَيِ الإيمانِ؛ وهما: إقامةُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة؛ فلا علاقةَ للصلةِ المذكورة هنا بأحكامِ الأنفالِ، والرِّضا بقَسْمِها، ولكنَّه مجرَّدُ المدحِ[3].

الأحسَنُ أن يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةً لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ السابقةِ؛ حتى تدخُلَ في حيِّزِ الخبَرية، فيكونَ ذلك إخبارًا عن المؤمنين بثلاثٍ: الصفةِ القلبية، وعنهم بالصفةِ البَدَنية، والصفةِ المالية، وجمَع أفعالَ القلوب لأنَّها أشرَفُ، وجمَع في أفعالِ الجوارح بَيْنَ الصلاةِ والصدقةِ لأنَّهما عمودَا أفعال الجوارحِ[4].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣١٥).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٢٦٠).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٧١).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ مِن أعمالِهم الحسنةِ أعمالَ القلوب مِن الخشيةِ والإخلاص والتوكُّل، أعقَبه بأعمالِ الجوارح مِن الصلاةِ والصدقة، بقولِه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾

ولمَّا حقَّقوا إيمانَهم بأفعالِ القلوبِ والجوارح والأموال، فاستوفَوْا بذلك جميعَ شُعَبِ الدِّينِ؛ عظَّم سبحانه شأنهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾(٢).

جملةٌ مؤكِّدة لمضمونِ جملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ آخِرِها؛ ولذلك فُصِلتْ(٣).

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر هذه الصفاتِ الخَمْسَ، أثبَت للموصوفين بها أمورًا ثلاثة(٤).

لمَّا تقدَّمتْ ثلاثُ صفاتٍ: قلبيةٌ، وبدَنيَّة، وماليَّة؛ ترتَّب عليها ثلاثةُ أشياءَ؛ فقوبلت الأعمالُ القلبية بالدرجاتِ، والبَدَنيةُ بالغفرانِ، وقوبلت الماليةُ بالرِّزْقِ بالكريم؛ وهذا النوعُ مِن المقابَلةِ مِن بديعِ علمِ البيانِ(٥).

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٥٦).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٢١).
(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٢٦٠).
(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٥٢).
(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٧٢).

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾

ولمَّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا علىٰ النفسِ، وتركُ النزاعِ بعد الانتسابِ فيه أَشَدَّ؛ شرَع يذكُرُ لهم ما كانوا له كارِهينَ، ففعَله بهم، وأمَرهم به؛ لعلمِه بالعواقبِ، فحَمِدوا أثَرَه؛ ليكونَ أدعىٰ لتسليمِهم لأمرِه، وازدجارِهم بزَجْرِه؛ فشبَّه حالَ كراهتِهم لتَرْكِ مرادِهم في الأنفالِ بحالِ كراهتِهم لخروجِهم معه، ثم بحالِ كراهتِهم لِلقاءِ الجيش دُونَ العِيرِ، ثم إنَّهم رأَوْا أحسَنَ العاقبةِ في كِلا الأمرَينِ، فقال: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾(١).

تشبيهُ حالٍ بحالٍ، وهو متصِلٌ بما قبله بتقديرِ مبتدأٍ محذوف، هو اسمُ إشارةٍ لِما ذُكِر قبله؛ تقديرُه: هذا الحالُ كحالِ ما أخرَجك ربُّك مِن بيتِك بالحقِّ، ووجهُ الشَّبَهِ هو كراهيةُ المؤمنين في بادئِ الأمر لِما هو خيرٌ لهم في الواقع(٢).

قدَّم تعالىٰ - أمامَ هذه الغَزْوةِ الكبرىٰ المبارَكةِ - الصفاتِ التي علىٰ المؤمنين أن يقُومُوا بها؛ لأنَّ مَن قام بها، استقامت أحوالُه، وصلَحتْ أعمالُه، التي مِن أكبَرِها الجهادُ في سبيلِه، فكما أنَّ إيمانَهم هو الإيمانُ الحقيقيُّ، وجزاءَهم هو الحقُّ الذي وعَدهم اللهُ به؛ كذلك أخرَج اللهُ رسولَه ﷺ مِن بيتِه إلىٰ لقاءِ المشركين في بَدْرٍ بالحقِّ الذي يُحِبُّه اللهُ تعالىٰ، وقد قدَّره وقضَاه(٣).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ٢٦٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣١٥).

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾

ثم ذكَر دليلَ كراهتِهم، فقال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾[(١)].

وجملةُ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ حالٌ مِن ﴿فَرِيقًا﴾؛ فالضميرُ لفريقٍ باعتبارِ معناه؛ لأنَّه يدلُّ علىٰ جَمْعٍ، وصيغةُ المضارع لحكايةِ حالِ المجادَلةِ زيادةً في التعجيبِ منها[(٢)].

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾

ولمَّا لانُوا بهذا الخطابِ، وأقبلوا علىٰ الملِكِ التوَّابِ؛ أقبَلَ عليهم، فقال: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾[(٣)].

الأحسَنُ أن تكونَ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ معطوفًا علىٰ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ عَطْفَ المفرَدِ علىٰ المفرد، فيكونَ المعطوفُ مشبَّهًا به التشبيهَ المُفادَ بالكافِ[(٤)].

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ جميلِ صُنْعِ الله ﷻ بالمؤمنين مع ما بهم مِن قلَّةِ الحَزْمِ، وضَعْفِ الهمَّةِ، وقصورِ الرأيِ، والخوفِ والجَزَع[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ٢٦٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٢٤).

(٤) التحرير والتنوير (٩ / ٢٦٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ٦).

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

اللامُ في قوله: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ لامُ التعليلِ، وهي متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ أي: إنَّما أراد ذلك، وكوَّن أسبابَه بكلماتِه؛ لأجلِ تحقيقِه الحقَّ، وإبطالِه الباطلَ[١].

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ جملةٌ مستأنَفة، سِيقت لبيانِ الحِكْمةِ الداعيةِ إلىٰ اختيارِ ذاتِ الشَّوْكةِ، ونَصْرِهم عليها مع إرادتِهم لغيرِها[٢].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

يَتعلَّقُ ظرفُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ بفعلِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ إرادةَ اللهِ مستمِرٌّ تعلُّقُها[٣].

لمَّا عَلِموا أنَّه لا بد مِن القتال، شرَعوا في طلَبِ الغَوْثِ مِن اللهِ تعالىٰ، والدعاءِ بالنُّصرة[٤].

لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّه يُحِقُّ الحقَّ ويُبطِلُ الباطلَ، بيَّن أنَّه تعالىٰ نصَرهم عند الاستغاثةِ[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٧).

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٢٧٤).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٧٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٥٩).

ثم ذكَّرهم تعالىٰ التجاءَهم إليه، واستمدادَهم منه النَّصْرَ يومَ بَدْرٍ، وإمدادَه حينئذٍ بقولِـه سـبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(١).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

ولـمَّا كانت نُصْرةُ المسلمين في هذه الغزوةِ ظاهرةً جدًّا، قال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾؛ فالضميرُ المنصوب في قوله: ﴿جَعَلَهُ ﴾ عائدٌ إلىٰ القولِ الذي تضمَّنه ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم ﴾؛ أي: ما جعَل جوابَكم بهذا الكلامِ إلا ليبشِّرَكم، وإلا فقد كان يَكفيكم أن يَضمَنَ لكم النَّصْرَ دُونَ أن يبيِّنَ أنَّه بإمدادٍ مِن الملائكة(٣).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ كلامٌ مستأنَف لبيانِ أنَّ المؤثِّرَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالىٰ؛ ليَثِقَ به المؤمنون، ولا يَقنَطوا مِن النَّصْرِ عند فِقْدانِ أسبابِه(٤).

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

ولـمَّا ذكَر البُشْرىٰ والطُّمَأنينةَ بالإمداد، ناسَب أن يذكُرَ لهم أنَّه أتبَع القولَ الفعلَ، فألقىٰ في قلوبِهم -بعِزَّتِه وحِكْمتِه- الطُّمَأنينةَ والأمنَ والسَّكينة؛ بدليلِ النُّعاسِ الذي

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٦٠).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٣٢).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٦).

(٤) روح المعاني (٥/ ١٦٣).

غَشِيَهم في موضعٍ هو أبعَدُ الأشياءِ عنه؛ وهو موطنُ الجِلادِ[١]، ومصاوَلةِ الأنداد، والتيقُّظِ لمُخاتَلةِ[٢] أهلِ العناد، وكذا المطَرُ وأثَرُه، فقال مبدِلًا أيضًا مِن ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ أو معلِّقًا بالنَّصْرِ أو بما في الظَّرْفِ مِن رائحةِ الفعل، مصوِّرًا لعِزَّته وحِكْمتِه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[٣].

لقد أبدَع نَظْمُ الآياتِ في التنقُّل مِن قصَّةٍ إلىٰ أخرىٰ مِن دلائلِ عنايةِ الله تعالىٰ برسولِه ﷺ وبالمؤمنين، فقرَنها في زمانِها، وجعَل ينتقِلُ مِن إحداها إلىٰ الأخرىٰ بواسطةِ ﴿إِذْ﴾ الزمانية، وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّص، وهو مِن مبتكَراتِ القرآن فيما أحسبُ؛ ولذلك فالوجهُ أن يكونَ هذا الظَّرْفُ مفعولًا فيه لقولِه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾؛ فإنَّ إغشاءَهم النُّعاسَ كان مِن أسبابِ النَّصْرِ؛ فلا جرَمَ أن يكونَ وقتُ حصولِه ظَرْفًا للنَّصر[٤].

لمَّا ذكَر أنَّه استجاب دعاءَهم ووعَدهم بالنَّصْرِ، ذكَر عَقِيبَه وجوهَ النَّصر[٥].

ثم ذكَّرهم سبحانه بنِعَمٍ أخرىٰ جعَلها سببًا لنَصْرِهم، وللعنايةِ بهم، فقال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[٦].

---

(١) أي: القتال.

(٢) أي: مخادعة.

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٣٤).

(٤) التحرير والتنوير (٩ / ٢٧٧-٢٧٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦١).

(٦) محاسن التأويل (٥/ ٢٦٣).

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾

ولمَّا ذكَر حِكْمةَ الإمدادِ، وما تَبِعه مِن الآثارِ المثبِّتةِ للقلوبِ والأقدام؛ ذكَر ما أمَر به المَدَدَ مِن التثبيتِ بالقولِ والفعل، فقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وجعَل الخطابَ هنا للنبيِّ ﷺ تلطُّفًا به؛ إذ كانت هذه الآيةُ في تفصيلِ عملِ الملائكةِ يومَ بَدْرٍ، وما خاطَبهم اللهُ به، فكان توجيهُ الخطاب بذلك إلى النبيِّ ﷺ أَوْلى؛ لأنَّه أحَقُّ مَن يَعلَمُ مثلَ هذا العلمِ، ويحصُلُ العلمُ للمسلمين تبعًا له، وأنَّ الذي يُهِمُّ المسلمين مِن ذلك هو نَصْرُ الملائكةِ إيَّاهم، وقد حصَل الإعلامُ بذلك مِن آيةِ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، ولأنَّ النبيَّ ﷺ كان أول مَن استغاثَ اللهَ؛ ولذلك عُرِّف اللهُ هنا باسمِ الربِّ، وإضافتُه إلى ضميرِ النبي ﷺ ليوافِقَ أسلوبَ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، ولِما فيه مِن التَّنويه بقَدْرِ نبيِّه ﷺ؛ إشارةً إلى أنَّه فعَل ذلك لُطْفًا به، ورفعًا لشأنِه[2].

هذا أيضًا مِن تعدُّدِ النِّعَم؛ إذ الإيحاءُ إلى الملائكة بأنَّه تعالى معهم[3].

ثم أشار تعالى إلى نِعْمةٍ خفيَّةٍ أظهَرها تعالى لهم ليشكُروه عليها بقولِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٨٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٨٤).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٢٦٤).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم علَّل تسليطَهم عليهم بقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: التسليطُ العظيم ﴿ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(١).

جملةُ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ تعليلٌ؛ لأنَّ الباءَ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ باءُ السَّببية؛ فهي تُفيدُ معنىٰ التعليلِ؛ ولهذا فُصِلتِ الجملةُ(٢).

لمَّا ذكَر هذه الوجوهَ الكثيرة مِن النِّعَمِ علىٰ المسلمين، قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّه تعالىٰ ألقاهم في الخِزْيِ والنَّكال مِن هذه الوجوهِ الكثيرة بسببِ أنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه(٣).

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا ختَم الآيةَ ببيانِ السبب الموجِبِ لإهانةِ الذين كفَروا، وبما له مِن الوصفِ العظيم؛ أتبَعه ما يقولُ لهم؛ لبيانِ الحالِ عند ذلك بقولِه التفاتًا إليهم لمَزيدِ التبكيتِ والتوبيخ: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٤).

الخطابُ في ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ للمشركين الذين قُتِلوا، والذين قُطِعتْ بَنانُهم؛ أي: يقالُ لهم هذا الكلامُ حيث تُضرَب أعناقُهم وبَنانُهم؛ بأن يُلقَىٰ في نفوسِهم حينما يصابون: إنَّ إصابتَهم كانت لمُشاقَّتِهم اللهَ ورسولَه؛ فإنَّهم كانوا يَسمَعون توعُّدَ اللهِ

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ٢٨٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦٤).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٣٨-٢٣٩).

إِيَّاهم بالعذابِ والبطش، وكانوا لا يَخلُونَ مِن اختلاجِ[١] الشكِّ نفوسَهم، فإذا رأَوُا القتلَ الذي لم يألَفوه، ورأىٰ الواحدُ منهم نفسَه مضروبًا بالسيفِ ضَرْبًا لا يستطيعُ له دفاعًا؛ عَلِم أنَّ وعيدَ اللهِ تحقَّق فيه، فجاشَ[٢] في نفسِه أنَّ ذلك لمُشاقَّتِه اللهَ ورسولَه[٣].

لمَّا بيَّن أنَّ مَن يشاقِق اللهَ ورسوله فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب، بيَّن مِن بَعْدِ ذلك صفةَ عقابِه، وأنَّه قد يكونُ معجَّلًا في الدُّنيا، وقد يكون مؤجَّلًا في الآخرةِ، ونبَّه بقولِه: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ -وهو المعجَّلُ مِن القتلِ والأَسْرِ- علىٰ أنَّ ذلك يسيرٌ، بالإضافةِ إلىٰ المؤجَّلِ لهم في الآخرةِ؛ فلذلك سمَّاه ذَوْقًا؛ لأنَّ الذَّوْقَ لا يكونُ إلا تعرُّفَ طَعْمِ اليسيرِ؛ ليُعرَفَ به حالُ الكثيرِ[٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر إهانتَهم في الدُّنيا والآخرةِ بما حسَّر عليهم القلوبَ، حسُنَ أن يُتبِعَ ذلك نَهْيَ مَن ادَّعىٰ الإيمانَ عن الفرار منهم، وتهديدَ مَن نكَص عنهم بعد هذا البيانِ وهو يدَّعي الإيمانَ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾[٥].

لمَّا ذكَّر اللهُ المسلمين بما أيَّدهم يومَ بَدْرٍ بالملائكةِ والنَّصْرِ مِن عندِه، وأكرمهم بأنْ نصَرهم علىٰ المشركين الذين كانوا أشَدَّ منهم وأكثَرَ عَدَدًا وعُدَدًا، وأعقبه بأنْ

---

(١) أي: منازعة وشغل.

(٢) أي: هاج وتحرك.

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٢٨٤-٢٨٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦٤).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٤٠).

أعلَمَهم أنَّ ذلك شأنُه مع الكافرين به؛ اعترَض في خلالِ ذلك بتحذيرِهم مِن الوَهْنِ والفرار؛ فالجملةُ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾، وبين جملةِ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآيةَ، وفي هذا تدريبٌ للمسلمين على الشجاعةِ، والإقدام، والثَّباتِ عند اللقاء[1].

لمَّا أخبرَ أنَّه سيُلقِي الرُّعْبَ في قلوبِ الكفار، وأمَر مَن آمَن بضَرْبِ فوقِ أعناقِهم وبَنانِهم؛ حرَّضهم على الصبرِ عند مكافحةِ العدوِّ، ونهاهم عن الانهزامِ[2].

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

لمَّا نهى تعالى عن تَولِّي الأدبار، توعَّد مَن ولَّى دُبُرَهُ وقتَ لقاءِ العدوِّ[3].

ثم إنَّه تعالى لمَّا نهى عن هذا الانهزامِ، بيَّن أنَّ هذا الانهزامَ محرَّمٌ إلا في حالتينِ[4].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا تقدَّم إليهم في ذلك، علَّله بتقريرِ عِزَّتِه وحِكْمتِه، وأنَّ النَّصْرَ ليس إلا مِن عندِه؛ فمَن صَحَّ إيمانُه، لم يَتوقَّفْ عن امتثالِ أوامره، فقال مسبِّبًا عن تحريمِه الفرارَ وإن كان العدوُّ كثيرًا، تذكيرًا بما صنَع لهم في بَدْرٍ؛ ليُجرِيَهم على مثلِ ذلك، ومنعًا لهم مِن الإعجابِ بما كان على أيديهم في ذلك اليومِ مِن الخوارقِ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٨٦).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٩٢).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٩٢).
(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦٥).
(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٤٢).

الأظهرُ أنَّ الفاءَ فصيحةٌ ناشئة عن جملةِ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾، تُفصِحُ عن مقدَّرٍ قبلها، شرطٍ أو غيرِه، والأكثرُ أن يكونَ شرطًا، فتكونَ رابطةً لجوابِه؛ والتقديرُ هنا: إذا عَلِمتم أنَّ اللهَ أوحىٰ إلىٰ الملائكةِ بضَرْبِ أعناقِ المشركين وقَطْعِ أيديهم، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أنتم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[1].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ رجوعٌ إلىٰ بيانِ بقيَّةِ أحكامِ الواقعة وأحوالِها، وتقرير ما سبَق منها، والفاءُ جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ، يستدعيه ما مَرَّ مِن ذِكْرِ إمدادِه تعالىٰ، وأمرِه بالتثبيت، وغيرِ ذلك؛ كأنَّه قيل: إذا كان الأمرُ كذلك، فلم تقتُلوهم أنتم بقوَّتِكم وقُدْرتِكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[2].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ نَصْرَهم يومَ بَدْرٍ -مع قِلَّتِهم- كان بحَوْلِه تعالىٰ وقوَّتِه، فقال سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[3].

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلىٰ البلاءِ الحسَنِ، وهذه الإشارةُ لمجرَّدِ تأكيدِ المقصود مِن البلاءِ الحسَنِ، وأنَّ ذلك البلاءَ علَّةٌ للتوهينِ[4].

وقولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه بشارةٌ أخرىٰ مع ما حصَل مِن النَّصْرِ؛ أنَّه أعلَمَهم تعالىٰ بأنَّه مُضعِفٌ كيدَ الكافرين فيما يُستقبَل، مصغِّرًا أمرَهم، وأنَّهم كلُّ ما لهم في تَبارٍ[5] ودمارٍ[6].

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٩٣).
(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٣).
(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢٦٨).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٢٩٧).
(٥) أي: هلاك.
(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢).

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا تضمَّن ذلك إيقاعَ الإهانةِ بالكفار بهذه الوَقْعةِ، والوعدَ بإلزامِهم الإهانةَ فيما يأتي؛ كان ذلك مفصلًا للالتفاتِ إلىٰ تهديدِهم في قالبِ استجلائِهم، والاستهزاءِ بهم، وتفخيمِ أمرِ المؤمنين، فقال: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[(١)].

جمهورُ المفسِّرين جعَلوا الخطابَ موجَّهًا إلىٰ المشركين، فيكونُ الكلامُ اعتراضًا خوطب به المشركون في خلالِ خطاباتِ المسلمين بمناسبةِ قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، والخطابُ التفاتٌ مِن طريقِ الغَيْبةِ الذي اقتضاه قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[(٢)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان سبَبُ ما أحلَّه بالكفارِ - مِن الإعراضِ عن إجابتهم فيما قصَدوا مِن دعائهم، ومِن خِذْلانِهم في هذه الوَقْعةِ، وإيجابِ مثلِ ذلك لهم أبدًا - هو عصيانَهم الرسولَ، وتولِّيَهم عن قَبولِ ما يَسمَعونه منه مِن الرُّوحِ؛ حذَّر المؤمنين مِن مثلِ حالِهم بالتمادي في التنازُعِ في الغنيمةِ أو غيرِها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٩٨).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٤٧).

لمَّا أراهم اللهُ آياتِ لُطفِه وعنايتِه بهم، ورأَوْا فوائدَ امتثالِ أمرِ الرسول ﷺ بالخروج إلىٰ بَدْرٍ، وقد كانوا كارهين الخروجَ؛ أعقَب ذلك بأنْ أمَرهم بطاعةِ الله ورسولِه؛ شكرًا علىٰ نِعْمةِ النَّصْرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمرُهم به خيرٌ عواقبُه، وحذَّرهم مِن مخالَفةِ أمرِ الله ورسولِه ﷺ، وفي هذا رجوعٌ إلىٰ الأمرِ بالطاعة الذي افتُتحتْ به السُّورةُ[1].

لمَّا تقدَّم قولُه: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾، وكان الضميرُ ظاهرُه العَوْدَ علىٰ المؤمنين؛ ناداهم وحرَّكهم إلىٰ طاعةِ الله ورسولِه[2].

لمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّه مع المؤمنين، أمَرهم أن يقُومُوا بمقتضىٰ الإيمانِ الذي يُدرِكون به معيَّتَه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[3].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

لمَّا كان الكلامُ الصادر مِن اللهِ ورسوله مِن شأنِه أن يَقبَلَه أهلُ العقول، كان مجرَّدُ سماعِه مقتضِيًا عدمَ التولِّي عنه؛ فمَن تولَّىٰ عنه بعد أن سَمِعه فأمرٌ عجَبٌ، ثم زاد في تشويهِ التولِّي عن الرسولِ ﷺ بالتحذيرِ مِن التشبُّهِ بفئةٍ ذميمة، يقولون للرسولِ عليه الصلاة والسلام: سَمِعْنا، وهم لا يصدِّقونه، ولا يَعمَلون بما يأمرُهم ويَنهاهم[4].

ثم قال مؤكِّدًا لذلك: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[5].

وقولُه سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ تقريرٌ لِما قبله؛ أي: لا تكُونوا بمخالَفةِ الأمرِ والنَّهْيِ ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾؛ كالكفَرةِ والمنافقين الذين يدَّعون السماعَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٩ / ٣٠٢).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٩٨).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٣١٨).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).
(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦٩).
(٦) روح المعاني (٥/ ١٧٦).

﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ تقريرٌ للنَّهْيِ السابق، وتحذيرٌ عن مخالَفتِه؛ بالتنبيهِ على أنَّها مؤدِّيةٌ إلى انتظامِهم في سِلْكِ الكفرةِ(١).

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت حالُ مَن هذا شأنُه مشابِهةً لحالِ الأصَمِّ في عدَمِ السماع لعدَمِ الانتفاعِ به، والأبكَمِ في عدَمِ كلامِه لعدَمِ تكلُّمِه بما ينفعُ، والعادمِ للعقل في عدَمِ عقلِه لعدَمِ انتفاعِه به؛ قال معلِّلًا لهذا النَّهْيِ، معبِّرًا بأنسَبِ الأشياء لِما وصَفهم به: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾(٢).

جملةُ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ معترضةٌ، وسَوْقُها في هذا الموضعِ تعريضٌ بالذين ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ بأنَّهم يُشبِهون دوابَّ صمَّاءَ بَكْماءَ(٣).

لمَّا أخبَر تعالى أنَّ هؤلاء المشبَّهَ بهم لا يَسمَعون، أخبَر أنَّ شَرَّ الحيوانِ الذي يَدِبُّ الصُّمُّ، أو أنَّ شَرَّ البهائمِ؛ فجمَع بَيْنَ هؤلاء وبين جَمْعِ الدوابِّ، وأخبَر أنَّهم شرُّ الحيوانِ مطلقًا(٤).

ثم بيَّن تعالى سُوءَ حالِ المشبَّهِ بهم -مبالَغةً في التَّحذير، وتقديرًا للنَّهْيِ- بقولِه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٥).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٣٠٥).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣٠٠).

(٥) محاسن التأويل (٥/ ٢٧٣).

ثم أخبَر تعالىٰ أنَّ هذا الضَّرْبَ مِن بني آدمَ شرُّ الخَلْقِ والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان ذلك ربما دعا السَّامعَ إلىٰ أن يقولَ: ما للقادرِ لَمْ يُقبِلْ بمَن هذا شأنُه إلىٰ الخيرِ؟ أجاب بأنَّه جبَلهم مِن أولِ الأمر - وله أن يَفعَلَ في مِلْكِه ومُلْكِه ما يريدُ - جِبِلَّةً عريقةً في الفساد، وجعَل جواهرَهم شِرِّيرةً كجوهرِ العَقْربِ التي لا تَقبَلُ التَّأديبَ بوجهٍ، ولا تمُرُّ بشيءٍ إلا لَسَبَتْهُ[2]؛ فعَلِم سبحانه أنَّه لا خيرَ فيهم، فتركهم علىٰ ما عَلِم منهم؛ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3].

لمَّا كان «لو» حرفًا يُفيدُ امتناعَ حصولِ جوابه بسببِ حصولِ شرطِه، كان أصلُ معنىٰ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾: ولو كان في إدراكِهم خيرٌ يَعلَمُه الله، لقَبِلوا هَدْيَه، ولكنَّهم لا خيرَ في جِبِلَّةِ مَداركِهم، فلا يَعلَمُ اللهُ فيهم خيرًا؛ فلذلك لم يَنتفعوا بكلامِ الله؛ فهُمْ كمَن لا يَسمَع[4].

ثم أخبَر تعالىٰ بأنَّهم لا فَهْمَ لهم صحيح، ولا قَصْدَ لهم صحيح، لو فُرِض أنَّ لهم فَهْمًا، ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣).

(٢) أي: لدغته.

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٤٨).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠٧).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ مِن نكالِ الكافرين مسبَّبًا عن عدَمِ الاستجابة، أمَر المؤمنين بها -تحذيرًا مِن الكونِ مع الكفَرةِ في مثلِ حالهم، فيُحشَروا معهم في مآلِهم-، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[(١)].

إعادةٌ لمضمونِ قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، الذي هو بمنزلةِ النتيجة مِن الدليلِ، أو مقصدِ الخُطْبةِ مِن مقدِّمتِها؛ فافتتاحُ السُّورةِ كان بالأمرِ بالطاعة والتقوىٰ، ثم بيانِ أنَّ حقَّ المؤمنين الكُمَّلِ أن يَخافوا اللهَ ويُطِيعوه ويَمتثلوا أمرَه وإن كانوا كارهين، وضرَب لهم مثَلًا بكراهتِهم الخروجَ إلىٰ بَدْرٍ، ثم بكراهتِهم لقاءَ النَّفيرِ، وأوقَفهم علىٰ ما اجتنَوْهُ مِن بركاتِ الامتثال، وكيف أيَّدهم اللهُ بنَصْرِه، ونصَب لهم عليه أمَّارةَ الوعدِ بإمدادِ الملائكة لتَطمئنَّ قلوبُهم بالنَّصْرِ، وما لطَف بهم مِن الأحوالِ، وجعَل ذلك كلَّه إقناعًا لهم بوجوبِ الثَّباتِ في وجهِ المشركين عند الزحفِ، ثم عاد إلىٰ الأمرِ بالطاعة، وحذَّرهم مِن أحوالِ الذين يقولون: «سَمِعْنا» وهم لا يَسمَعون، وأعقَب ذلك بالأمرِ بالاستجابة للرسول إذا دعَاهم إلىٰ شيءٍ؛ فإنَّ في دَعْوتِه إيَّاهم إحياءً لنفوسهم[(٢)].

الأمرُ هنا بالاستجابةِ مؤكِّدٌ لِما سبَق مِن الأمرِ بالطاعة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٥١).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣١١).
(٣) فتح القدير (٢/ ٣٤١).

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان لمُجيبٍ ربما قال: ليس عليَّ إلا الإجابةُ في خاصَّةِ نفسي، وليس عليَّ تعريضُ نفسي للأذىٰ بالأخذِ علىٰ يدِ غيري؛ نبَّه سبحانه علىٰ أنَّ ذلك منابَذةٌ للدِّينِ، واجتثاثٌ له مِن أصله؛ لأنَّ تَرْكَ العاصي علىٰ عصيانِه كتَرْكِ الكافرِ علىٰ كفرانِه؛ وذلك موجِبٌ لعمومِ البلاء، ومَزيدِ القضاء، فقال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١).

عقَّب تحريضَ جميعِهم علىٰ الاستجابةِ المستلزِمَ تحذيرَهم مِن ضِدِّها بتحذيرِ المستجِيبين مِن إعراضِ المُعرِضين؛ ليَعلَموا أنَّهم قد يَلحَقُهم أذًىٰ مِن جرَّاءِ فعلِ غيرهم إذا هُمْ لم يقوِّموا عِوَجَ قومِهم؛ كيلا يَحسَبوا أنَّ امتثالَهم كافٍ إذا عصىٰ دَهْماؤُهم، فحذَّرهم فتنةً تَلحَقُهم، فتعُمُّ الظالمَ وغيرَه(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ كما حذَّر الإنسانَ أن يُحالَ بَيْنَه وبين قلبِه، فكذلك حذَّره مِن الفِتَنِ؛ والمعنىٰ: واحذَروا فتنةً إن نزَلتْ بكم لم تقتصِرْ علىٰ الظالمين خاصَّةً، بل تتعدَّىٰ إليكم جميعًا، وتصلُ إلىٰ الصالحِ والطالح(٣).

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن أشَدِّ العقابِ الإذلالُ، حذَّرَهُمُوهُ بالتذكيرِ بما كانوا فيه مِن الذُّلِّ؛ لأنَّه أبعَثُ علىٰ الشُّكر، وأزجَرُ عن الكفر، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٥٦).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣١٦).
(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦٩).

ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

عُطِف على الأمرِ بالاستجابةِ لله فيما يَدْعوهم إليه، وعلى إعلامِهم بأنَّ الله لا تَخفَى عليه نيَّاتُهم، وعلى التَّحذيرِ مِن فتنةِ الخلاف على الرسولِ ﷺ: تذكيرُهم بنِعْمةِ الله عليهم بالعِزَّةِ والنَّصر بعد الضَّعْفِ والقِلَّة والخوف؛ ليذكُروا كيف يسَّر اللهُ لهم أسبابَ النَّصْرِ مِن غيرِ مَظانِّها، حتى أوصَلهم إلى مكافَحةِ عدوِّهم، وأن يَتَّقيَ أعداؤُهم بأسَهم، فكيف لا يَستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كَثُروا وعَزُّوا وانتصَروا؛ فالخطابُ للمؤمنين يومئذٍ، ومجيءُ هذه الخطاباتِ بعد وصفِهم بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ هو الذي ساقَ لهم هذه الخَيْراتِ كلَّها، وأنَّه سيكونُ هذا أثَرَه فيهم كلَّما احتفَظوا عليه، كُفُوه مِن قَبْلِ سؤالِهم، ومِن قبلِ تسديدِ حالهم، فكيف لا يكونون بعد ترفُّهِ حالِهم أشَدَّ استجابةً، وأثبَتَ قلوبًا؟!(٢).

لمَّا أمَرهم بطاعةِ الله وطاعةِ الرسول ﷺ، ثم أمَرهم باتقاءِ المعصيةِ؛ أكَّد ذلك التكليفَ بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّن أنَّهم كانوا قبل ظهورِ الرسول ﷺ في غايةِ القِلَّةِ والذِّلَّة، وبعد ظهورِه صاروا في غايةِ العِزَّةِ والرِّفعة؛ وذلك يوجِبُ عليهم الطاعةَ، وتَرْكَ المخالَفة(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا ختَم الآيةَ بما هو في غايةِ النصيحةِ منه تعالى لهم مِن الإيواءِ والنَّصر والرِّزق الطيِّبِ المشارِ به إلى الامتنانِ بإحلالِ المَغنَمِ، وختَم ذلك بالحثِّ على الشُّكرِ؛ نهَانا

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٥٩).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣١٩).
(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٤).

عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامرِه بالغُلُولِ أو غيرِه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

استئنافُ خطابٍ للمؤمنين يحذِّرُهم مِن العصيانِ الخَفِيِّ، بعد أن أمَرهم بالطاعةِ والاستجابة للهِ ولرسوله ﷺ، حذَّرهم مِن أن يُظهِروا الطاعةَ والاستجابة في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطِنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنه، ومناسبتُه لِما قبله ظاهرةٌ، وإن لم تَسبِقْ مِن المسلمين خيانةٌ؛ وإنَّما هو تحذيرٌ(٢).

لمَّا ذكَر أنَّه رزَقهم مِن الطيِّباتِ، فهاهنا منَعهم مِن الخيانةِ(٣).

لمَّا ذكَّرهم تعالىٰ بإسباغِ نِعَمِه عليهم ليشكُروه، وكان مِن شُكْرِه الوقوفُ عند حدودِه؛ بيَّن لهم ما يُحذَرُ منها؛ وهو الخيانةُ(٤).

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان سبَبُ الخيانةِ -غالبًا- محبَّةَ المالِ أو الولَدِ، وكان سببُ التَّقاوُلِ المسبَّبِ عنه إنزالُ هذه السُّورةِ - كما سلَف بيانُه أولَها - الأموالَ مِن الأنفالِ، وكان مِن أعظَمِ الخيانةِ في الأنفالِ الغُلُولُ، وكان الحاملُ علىٰ الغُلولِ المِحْنةَ بحُبِّ جمعِ المال إمَّا استلذاذًا به، أو لإنفاقِه علىٰ محبوبٍ، وكان الولَدُ أعزَّ محبوبٍ؛ حسُنَ كلَّ الحُسْنِ إيلاءُ ذلك قولَهُ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٥).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٢٧٩).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٦١-٢٦٢).

ابتداءُ جملةِ ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بفعلِ ﴿اعْلَمُوا﴾ للاهتمامِ، وهذا تنبيهٌ علىٰ الحذَرِ مِن الخيانة التي يَحمِلُ عليها المرءَ حُبُّ المالِ؛ وهي خيانةُ الغُلُولِ وغيرُها؛ فتقديمُ الأموالِ لأنَّها مَظِنَّةُ الحَمْلِ علىٰ الخيانةِ في هذا المقامِ(١).

لمَّا كان الداعي إلىٰ الإقدامِ علىٰ الخيانةِ هو حُبَّ الأموالِ والأولاد، نبَّه تعالىٰ علىٰ أنَّه يجبُ علىٰ العاقلِ أن يحترزَ عن المَضارِّ المتولِّدةِ مِن ذلك الحُبِّ، فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنَّها تَشغَلُ القلبَ بالدُّنيا، وتَصِيرُ حجابًا عن خدمةِ المولىٰ(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم ما كانوا عليه قبل الهجرةِ مِن الضَّعْفِ، وامتَنَّ عليهم بما أعزَّهم به، وختَم هذه بالتحذيرِ مِن الأموالِ والأولاد الموقِعةِ في الرَّدىٰ، وبتعظيمِ ما عنده الحاملِ علىٰ الرَّجاء؛ تلَاها بالأمرِ بالتقوىٰ الناهيةِ عن الهوىٰ، بالإشارةِ إلىٰ الخوفِ مِن سطَواتِهِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه يجبُ الجَمْعُ بينهما، وبيَّن تعالىٰ أنَّه يَتسبَّبُ عنه الأمنُ مِن غيرِه في الأُولىٰ، والنجاةُ مِن عذابِهِ في الأخرىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٣).

لمَّا حذَّر عن الفتنةِ بالأموالِ والأولاد، رغَّب في التقوىٰ التي توجِبُ تَرْكَ الميلِ والهوىٰ في محبَّةِ الأموالِ والأولاد(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٥).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٦).

ولمَّا حذَّر تعالىٰ -فيمَا تقدَّم- عن الفتنةِ بالأموالِ والأولاد، بشَّر مَن اتَّقاه في الافتتانِ بهمـا وفي غيـرِه بقولِـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾(١).

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ ﴾

ولمَّا وعَد سبحانه بهذا الفضلِ العظيم والنبأِ الجسيم، ذكَّرهم مِن أحـوالِ داعيهم وقائدِهم وهاديهم ﷺ والتحية والإكرام بما يَدْعوهم إلىٰ ملازَمةِ أسبابه في سياقِ المخاطَبةِ له ﷺ؛ تذكيرًا بنِعمتِه، وإشارةً إلىٰ دوامِ نُصْرتِه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾(٢).

يجوز أن يكونَ عَطْفَ قصَّةٍ علىٰ قصَّة مِن قِصَصِ تأييدِ اللهِ رسولَه ﷺ والمؤمنين، فيكونَ ﴿إِذۡ﴾ متعلِّقًا بفعلٍ محذوف؛ تقديرُه: واذكُرْ إذ يمكُرُ بك الذين كفَروا؛ علىٰ طريقةِ نظائرِه الكثيرة في القرآن، ويجوز أن يكونَ عطفًا علىٰ قوله: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فهو متعلِّقٌ بفعلِ «اذكُروا» مِن قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾؛ فإنَّ المَكْرَ بالرسولِ ﷺ مَكْرٌ بالمسلمين، ويكون ما بينهما اعتراضًا(٣).

لمَّا ذكَّر المؤمنين نِعَمَه عليهم، ذكَّره ﷺ نِعَمَه عليه في خاصَّةِ نفسِه(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٨٠).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٣٢٧).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣٠٩).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر مَكْرَهم بالرسولِ ﷺ، ذكَر مَكْرَهم بما أُرسِلَ به، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

انتقالٌ إلىٰ ذِكْرِ بهتانٍ آخرَ مِن حِجاجِ هؤلاء المشركين، وهذا القولُ مقالةُ المتصدِّين للطَّعْنِ على الرسولِ ﷺ، ومُحاجَّتِه[2].

لمَّا حكىٰ مَكْرَهم في ذاتِ محمَّدٍ ﷺ، حكىٰ مَكْرَهم في دِينِ محمَّدٍ ﷺ[3].

ثم أخبَر تعالىٰ عن كُفْرِ قُرَيشٍ وعُتُوِّهم وتمرُّدِهم ودَعْواهم الباطلَ عند سماعِ آياتِه تعالىٰ بقولِه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4].

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك موضعَ عجَبٍ مِن عدَمِ إعجالِ الضُّلَّالِ بالعذاب، وإمهالِهم إلىٰ أن أوقَعَ بهم في غزوةِ بَدْرٍ، لا سيما مع قولِه: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾؛ بيَّن السرَّ في ذلك، وإن بالَغوا في استعجالِه، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ٣٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٨).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٢٨٢).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٦٩-٢٧٠).

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ثم بيَّن السرَّ في إمهالِهم؛ وهو أنَّه ما منَعه مِن الإسراعِ في إجابةِ دعائهم -كما فعَل في وَقْعةِ بَدْرٍ- إلا إجلالُ مقامِهِ ﷺ بين أظهُرِهم، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[(١)].

إذ كان هذا القولُ إنَّما يَلزمُ قائلَه خاصَّةً، ومَن شارَكه فيه، ونطَق به؛ مثل النَّضْرِ وأبي جهلٍ ومَن التزَم ذلك وشارَك فيه مِن أهلِ ناديهم، كانوا قد عرَّضوا أنفسَهم به إلىٰ تعذيبِ الله إيَّاهم؛ انتصارًا لنبيِّه وكتابِه، وكانت الآيةُ نزَلتْ بعد أن حَقَّ العذابُ علىٰ قائلي هذا القولِ؛ وهو عذابُ القتلِ المُهِين بأيدي المسلمين يومَ بَدْرٍ، وكان العذابُ قد تأخَّر عنهم زمَنًا اقتضته حِكْمةُ الله: بيَّن اللهُ لرسولِه ﷺ في هذه الآيةِ سببَ تأخُّرِ العذابِ عنهم حين قالوا ما قالوا، وأيقَظ النفوسَ إلىٰ حُلولِه بهم وهم لا يشعُرون؛ فقولُه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ كنايةٌ عن استحقاقِهم، وإعلامٌ بكرامةِ رسوله ﷺ عنده؛ لأنَّه جعَل وجودَه بين ظَهْرانَيِ المشركين مع استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العذاب عنهم، وهذه مكرمةٌ أكرَمَ اللهُ بها نبيَّه محمَّدًا ﷺ؛ فجعَل وجودَه في مكانٍ مانعًا مِن نزولِ العذاب علىٰ أهلِه؛ فهذه الآيةُ إخبارٌ عمَّا قدَّره اللهُ فيما مضىٰ[(٢)].

لمَّا علَّقوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليم علىٰ تقديرِ كينونة ما جاء به الرسولُ ﷺ حقًّا، أخبَر تعالىٰ أنَّهم مستحِقُّو العذابِ، لكنَّه لا يعذِّبُهم وأنت فيهم؛

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٧١).

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ٣٣٣).

إكرامًا له، وجريًا علىٰ عادتِه تعالىٰ مع مكذِّبِي أنبيائه؛ ألا يعذِّبَهم وأنبياؤُهم مقيمون فيهم عذابًا يستأصِلُهم فيه[(١)].

لمَّا حكىٰ هاتين الشُّبْهتَينِ، لم يذكُرِ الجوابَ عن الشُّبهةِ الأُولىٰ؛ وهو قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، ولكنَّه ذكَر الجوابَ عن الشُّبهةِ الثانيةِ؛ وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[(٢)].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ جوابٌ لكلمتِهم الشَّنعاءِ، وبيانٌ للموجِبِ لإمهالِهم، والتوقُّفِ في إجابةِ دعائهم[(٣)].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا كان هذا ليس نصًّا في استحقاقِهم العذابَ، قال تعالىٰ -عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: وَلَيُعذِّبَنَّهم اللهُ؛ إذ هاجَرْتَ عنهم، ولم يؤمِنوا فيَستغفروا-: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، وهو ارتقاءٌ في بيانِ أنَّهم أحِقَّاءُ بتعذيبِ اللهِ إيَّاهم بيانًا بالصراحة[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣١١).
(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٧٩).
(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩).
(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٧٢).
(٥) التحرير والتنوير (٩ / ٣٣٥).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّهم أهلٌ للعذابِ لولا المانعُ المتقدِّم بقولِه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كانوا يفعلون عند البيتِ ما يُنزَّهُ البيتُ عنه ممَّا هو غايةٌ في الجهلِ، قال مبيِّنًا لجهلِهم، واستحقاقِهم للنَّكال، وبُعْدِهم عن استحقاقِ وَلايتِه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[2].

معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ فمضمونُها سببٌ ثانٍ لاستحقاقِهم العذابَ، وموقعُها عقِبَ جملةِ ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ يجعلُها كالدليلِ المقرِّرِ لانتفاء وَلايتِهم للمسجدِ الحرام؛ لأنَّ مَن كان يفعلُ مثلَ هذا عند مسجدِ الله، لم يكُنْ مِن المتَّقين، فكان حقيقًا بسَلْبِ وَلايةِ المسجدِ عنه، فعُطِفتِ الجملةُ باعتبارها سببًا للعذاب، ولو فُصِلتْ باعتبارِها مقرِّرةً لسَلْبِ أهليَّةِ الوَلايةِ عنهم، لصحَّ ذلك، ولكن كان الاعتبارُ الأول أرجَحَ؛ لأنَّ العطفَ أدَلُّ عليه مع كونِ موقعِها يُفيدُ الاعتبارَ الثاني[3].

لمَّا نفىٰ عنهم أن يكونوا ولاةَ البيتِ، ذكَر مِن فعلِهم القبيحِ ما يؤكِّدُ ذلك، وأنَّ مَن كانت صَلاتُه ما ذكَر لا يستأهِلُ أن يكونوا أولياءَه[4].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٨٦).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٣٣٨).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣١٤).

لمَّا قال في حقِّ الكفارِ أنَّهم ما كانوا أولياءَ البيتِ الحرام، وقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ بيَّن بعده ما به خرَجوا مِن أن يكونوا أولياءَ البيتِ؛ وهو أنَّ صلاتَهم عند البيتِ وتقرُّبَهم وعبادتَهم إنَّما كان بالمُكَاءِ والتَّصْدِيَة(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه عن أحوالِ الكفارِ في الأعمالِ البَدَنيَّة، وكان غَلَبُهم مع كثرتِهم وقوَّتِهم مستبعَدًا؛ أخبَر بما يقرِّبُه مبيِّنًا لأعمالِهم الماليَّةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(٢).

لمَّا ذكَر صَدَّهم المسلمين عن المسجدِ الحرام الموجِبَ لتعذيبِهم، عقَّب بذِكْرِ محاوَلتِهم استئصالَ المسلمين، وصَدَّهم عن الإسلامِ؛ وهو المَعْنيُّ بسبيلِ الله، وجُعِلتِ الجملةُ مستأنَفةً غيرَ معطوفةٍ؛ اهتمامًا بها؛ أي: إنَّهم يُنفِقون أموالَهم - وهي أعَزُّ الأشياءِ عليهم- للصدِّ عن الإسلامِ، وأتىٰ بصيغةِ المضارع في ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلىٰ أنَّ ذلك دأبُهم، وأنَّ الإنفاقَ مستمِرٌّ لإعدادِ العُدَدِ لغَزْوِ المسلمين؛ فإنفاقُهم حصَل في الماضي، ويحصُلُ في الحالِ والاستقبال، وأشعَرتْ لامُ التعليل بأنَّ الإنفاقَ مستمِرٌّ؛ لأنَّه منُوطٌ بعلَّةٍ ملازِمةٍ لنفوسِهم؛ وهي بُغْضُ الإسلامِ، وصَدُّهم الناسَ عنه(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨٠).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٣٤٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أحوالَ هؤلاء الكفارِ في الطاعاتِ البَدَنيَّة، أتبَعها بشرحِ أحوالهم في الطاعاتِ المالية(١).

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر حَشْرَ الكافرين، ذكَر علَّتَه، فقال معلِّقًا بـ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(٢).

﴿ لِيَمِيزَ ﴾ متعلِّقٌ بـــ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾؛ لبيانِ أنَّ مِن حِكْمةِ حَشْرِهم إلىٰ جهنَّمَ أن يتميَّزَ الفريقُ الخبيثُ مِن الناسِ مِن الفريقِ الطيِّبِ في يومِ الحشر؛ لأنَّ العلَّةَ غيرَ المؤثِّرة تكون متعدِّدةً؛ فتمييزُ الخبيثِ مِن الطيِّبِ مِن جملةِ الحِكَمِ لحَشْرِ الكافرين إلىٰ جهنَّمَ(٣).

﴿ لِيَمِيزَ ﴾ متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾، والخبيثُ والطيِّبُ وصفانِ يصلُحانِ للآدميِّينَ وللمالِ(٤).

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن ضَلالَهم في عبادتِهم البدَنيَّةِ والمالية، وكان في كثيرٍ مِن العباراتِ السالفة القَطْعُ للذين كفَروا بلفظِ الماضي بالشقاءِ؛ كان ذلك موهِمًا لأن يرادَ مَن أوقَعَ الكفرَ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨١).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٧٨).
(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٣٤٢).
(٤) البحر المحيط (٥/ ٣١٧).

فِي الزمنِ الماضي وإن تاب، فيكونَ مؤيِّسًا مِن التوبةِ، فيكونَ موجِبًا للثَّبات علىٰ الكفر؛ قال تعالىٰ -متلطِّفًا بعباده، مرشِدًا لهم إلىٰ طريقِ الصواب، مبيِّنًا المَخلَصَ ممَّا هم فيه مِن الوبالِ في جواب مَن كأنَّه قال: أمَا لهم مِن حِيلَةٍ يتخلَّصون بها مِن الخَسارةِ؟-: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾[1].

جرىٰ هذا الكلامُ علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ الترهيبِ بالترغيب، والوعيدِ بالوعد، والعكس، فأنذَرهم بما أنذَر، وتوعَّدهم بما توعَّد، ثم ذكَّرهم بأنَّهم متمكِّنون مِن التدارُكِ وإصلاحِ ما أفسَدوا، فأمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بأن يقولَ لهم ما يَفتَحُ لهم بابَ الإنابةِ. والجملةُ استئنافٌ يصحُّ جعلُه بيانيًّا؛ لأنَّ ما تقدَّم بَيْنَ يديه مِن الوعيدِ وقلَّةِ الاكتراثِ بشأنهم وذِكْرِ خَيْبةِ مَساعيهم ممَّا يُثِيرُ في أنفُسِ بعضِهم والسامعين أن يَتساءلوا عمَّا إذا بَقِيَ لهم مَخلَصٌ يُنجيهم مِن ورطتِهم التي ارتبَقوا[2] فيها، فأمَرَ الرسولَ بأن يقولَ لهم هذا المقالَ ليُريَهم أنَّ بابَ التوبة مفتوحٌ، والإقلاعَ في مُكْنتِهم[3].

لمَّا ذكَر ما يحُلُّ بهم مِن حَشْرِهم إلىٰ النارِ، وجَعْلِهم فيها، وخُسْرِهم؛ تلطَّف بهم، وأنَّهم إذا انتهَوْا عن الكفرِ وآمَنوا، غُفِرتْ لهم ذُنوبُهم السالفة[4].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن صَلاتَهم في عباداتِهم البَدَنيَّة، وعباداتِهم المالية؛ أرشَدهم إلىٰ طريقِ الصواب، وقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٧٩).

(٢) أي: علِقوا.

(٣) التحرير والتنوير (٩ / ٣٤٤).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣١٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨٢).

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا أشار خَتْمُ الآيةِ إلىٰ قتالِهم إن أصرُّوا، وكان التَّقديرُ: فأقدِموا عليهم حيثما عادَوْكم إقدامَ اللُّيوثِ الجريئة غيرَ هائبين كثرتَهم ولا قوَّتَهم؛ فإنَّ الله خاذِلُهم؛ عطَف عليه قولَه مصرِّحًا بالمقصود: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾(1).

عَطْفٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ الآيةَ، ويجوز أن تكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، فتكون ممَّا يدخُلُ في حُكْمِ جوابِ الشرط؛ والتقديرُ: فإن يعُودُوا، فقاتِلوهم(2).

لمَّا بيَّن أنَّ هؤلاء الكفارَ إن انتهَوْا عن كفرِهم حصَل لهم الغفرانُ، وإن عادُوا فهُمْ متوعَّدون بسُنَّةِ الأوَّلينَ؛ أتبعه بأنْ أمَر بقتالِهم إذا أصَرُّوا، فقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾(3).

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا كان لهم حالَ اللقاءِ حالانِ: إسلامٌ وإقبال، وكفرٌ وإعراضٌ وإخلال، قال مبيِّنًا لحُكْمِ القِسمَينِ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾(4).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٩ / ٣٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٢٨١).

ثم وعَد بالنَّصْرِ والظَّفَرِ عليهم إن لم يَنتهوا بقولِه: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فإذا أعانكم مولاكم عليهم، وغلَبْتموهم، وغَنِمتم فيه؛ فلا تنسُبوا إلىٰ أنفسِكم فعلًا؛ بل اعلَموا أنَّه هو الفاعلُ وَحْدَه؛ لأنَّ جميعَ الأفعالِ متلاشِيةٌ بالنسبةِ إلىٰ فعلِه؛ فلا تَتنازعوا في المَغنَمِ تنازُعَ مَن أَخذه بقوَّتِه، وحازَه بقُدْرتِه؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)].

انتقالٌ لبيانِ ما أُجمِلَ مِن حُكمِ الأنفال الذي افتتَحتْهُ السُّورةُ، ناسَب الانتقالَ إليه ما جرىٰ مِن الأمرِ بقتال المشركين إن عادُوا إلىٰ قتالِ المسلمين، والجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ مَصرِفَ ما أحَلَّه لهذه الأمَّةِ وخصَّها به -وهو الغنائمُ- بقولِه سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٣)].

لمَّا أمَر اللهُ سبحانه بالقتال بقولِه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾، وكانت المقاتَلةُ مَظِنَّةَ حصولِ الغنيمةِ؛ ذكَر حُكْمَ الغنيمة[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠ / ٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٢٨٠).

(٤) فتح القدير (٢/ ٣٥٣).

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾

ولمَّا ذكَر لهم يومَ مُلْتقاهم، صوَّر لهم حالتَهم الموضِّحةَ للأمر، المبيِّنةَ لِما كانوا فيه مِن اعترافِهم بالعَجْزِ -تذكيرًا لهم بذلك؛ ردعًا عن المنازَعة، وردًّا إلى المطاوَعة-، فقال: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾(١).

﴿ إِذْ ﴾ بدلٌ مِن ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾؛ فهو ظرفٌ لـ ﴿ أَنزَلْنَا ﴾؛ أي: زمَنَ أنتم بالعُدْوةِ الدُّنيا، وقد أُريدَ مِن هذا الظَّرفِ وما أُضيفَ إليه تذكيرُهم بحالةٍ حَرِجةٍ كان المسلمون فيها، وتنبيهُهم لِلُطْفٍ عظيمٍ حَفَّهم مِن اللهِ تعالى، وهي حالةُ موقعِ جيشِ المسلمين مِن جيشِ المشركين، وكيف التقى الجيشانِ في مكانٍ واحد عن غيرِ ميعادٍ، ووجَد المسلمون أنفسَهم أمام عدوٍّ قوي العِدَّةِ والعُدَّةِ والمكانةِ مِن حُسْنِ المَوقِعِ(٢).

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) ﴾

ثم أتَمَّ سبحانه تصويرَ حالتِهم بقولِه مبيِّنًا ما أشار إليه مِن لُطْفِ تدبيره: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥-١٦).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٨٩).

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بدلٌ مِن قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فإنَّ هذه الرُّؤيا ممَّا اشتمَل عليه زمانُ كونِهم بالعُدْوةِ الدُّنيا؛ لوقوعِها في مدَّةِ نزولِ المسلمين بالعُدْوةِ مِن بَدْرٍ؛ فهو بدلٌ مِن بدلٍ(١).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثاني مِن النِّعَمِ التي أنعَمَ اللهُ بها على أهلِ بَدْرٍ(٢).

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا بيَّن ما نشأ عن رؤيتِه ﷺ مِن قِلَّتِهم، وما كان يَنشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ لو وقعتْ؛ لأنَّه ﷺ - لِما هو عليه مِن النَّصيحةِ والشَّفقةِ - كان يُخبِرُهم بما رأى كما أخبَرهم في غَزْوةِ أُحُدٍ بالبقَرِ المُذبَّحةِ؛ أتبَعه ما فعَل مِن اللُّطْفِ في رؤيتِهم بأنفسِهم يقظةً، فقال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثالث مِن النِّعَمِ التي أظهَرها اللهُ للمسلمين يومَ بَدْرٍ، والمرادُ أنَّ القليلَ الذي حصَل في النَّوْمِ تأكَّد ذلك بحصولِه في اليقَظةِ(٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا تقرَّر ذلك، وتمَّ على هذا السبيلِ الأحكَمِ والمنهاجِ الأقوَمِ؛ كان علَّةً لمضمونِ قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠ / ٢٢).
(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨٧).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٢٩٠).
(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨٨).
(٥) نظم الدرر (٨/ ٢٩٢).

لمَّا عرَّفهم اللهُ بنِعَمِه ودلائلِ عنايتِه، وكشَفَ لهم عن سِرٍّ مِن أسرارِ نصرِه إيَّاهم، وكيف خذَّل أعداءَهم، وصرَفهم عن أذاهم، فاستتَبَّ لهم النَّصْرُ مع قِلَّتِهم وكثرةِ أعدائهم؛ أقبَلَ في هذه الآيةِ علىٰ أن يأمُرَهم بما يهيِّئُ لهم النَّصْرَ في المواقعِ كلِّها، ويستدعي عنايةَ اللهِ بهم وتأييدَه إيَّاهم، فجمَع لهم في هذه الآيةِ ما به قِوامُ النَّصْرِ في الحروبِ. وهذه الجُمَلُ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾، وجملةِ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنواعَ نِعَمِه علىٰ الرسولِ ﷺ وعلىٰ المؤمنين يومَ بَدْرٍ، علَّمهم إذا التقَوْا بالفئةِ -وهي الجماعةُ مِن المحارِبينَ- نوعَينِ مِن الأدبِ: الأولُ: الثَّباتُ؛ وهو أن يوطِّنوا أنفسَهم علىٰ اللقاءِ، ولا يحدِّثوها بالتَّولِّي. والثاني: أن يذكُروا اللهَ كثيرًا[(٢)].

ثم أرشَدَ تعالىٰ عبادَه المؤمنين إلىٰ آدابِ اللقاء في ميدانِ الوَغَىٰ، ومبارَزةِ الأعداءِ، بقولِه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٣)].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم أمَرهم بأعمالٍ راجعةٍ إلىٰ انتظامِ جيشِهم وجماعتهم، وهي علائقُ بعضِهم مع بعضٍ، وهي الطاعةُ، وتَرْكُ التنازُعِ؛ فأمَّا طاعةُ اللهِ ورسولِه فتشمَلُ اتِّباعَ سائرِ أحكامِ القتالِ المشروعة بالتعيين؛ مثلُ: الغنائمِ، وكذلك ما يأمرُهم به الرسولُ ﷺ مِن آراءِ الحرب[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠ / ٢٩).
(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٨٩).
(٣) محاسن التأويل (٥/ ٣٠٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٠ / ٣٠).

لمَّا أمَرهم بالثَّباتِ في الآيةِ السابقة؛ ناسَب أن يبيِّنَ لهم هنا الأسبابَ المُعِينةَ على الثَّباتِ والنَّصْرِ.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم سبحانه ما أوجَبَ نَصْرَهم آمِرًا لهم بالثَّباتِ عليه، ذكَر لهم حالَ أعدائهم الذي أوجَبَ قَهْرَهم ناهيًا عنه؛ تعريضًا بحالِ المنازَعةِ في الأنفال، وأنَّها حالُ مَن يريدُ الدُّنيا، ويوشِكُ - إن تمادَتْ - أن تجُرَّ إلى مثلِ حالِ هؤلاء الذي محَطُّ نظَرِهم الدُّنيا، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[١].

جملةُ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ ﴾ معطوفةٌ على ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ ﴾ عَطْفَ نَهيٍ على نَهيٍ. ويصحُّ أن تكونَ معطوفةً على جملةِ ﴿ فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ عَطْفَ نَهيٍ على أمرٍ؛ إكمالًا لأسبابِ النجاحِ والفوزِ عند اللقاء؛ بأن يَتلبَّسوا بما يُدْنِيهم مِن النَّصْرِ، وأن يَتجنَّبوا ما يُفسِدُ إخلاصَهم في الجهاد[٢].

ولمَّا أمَر تعالى المؤمنين بالثَّباتِ والصَّبْرِ عند اللقاء، أمَرهم بالإخلاصِ فيه؛ بنَهْيِهم عن التشبُّهِ بالمشركين في انبعاثِهم للرِّياءِ، بقولِه سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠ / ٣٢).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٣٠٥).

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا كان بيَّن لهم فسادَ أعمالهم لفسادِ نيَّاتِهم تنفيرًا منها، زاد في التنفيرِ بالإشارة إلىٰ الأمرِ بدوام تذكُّرِها بعاطفٍ علىٰ غيرِ معطوفٍ عليه مذكورٍ، فقال: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾(١).

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ الآيةَ، وما بينهما اعتراضٌ، رُتِّب نَظْمُه علىٰ أسلوبه العجيبِ؛ ليقعَ هذا الظَّرْفُ عَقِب تلك الجُمَلِ المعترضة، فيكونَ له إتمامُ المناسبةِ بحكايةِ خروجهم وأحواله؛ فإنَّه مِن عجيبِ صُنْعِ اللهِ فيما عرَض للمشركين مِن الأحوالِ في خروجهم إلىٰ بَدْرٍ، ممَّا كان فيه سببُ نَصْرِ المسلمين، وليقعَ قولُه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم ﴾ عَقِب أمرِ المسلمين بما ينبغي لهم عند اللقاء، ليَجمَعَ لهم بَيْنَ الأمرِ بما ينبغي، والتحذيرِ ممَّا لا ينبغي، وتَرْكِ التشبُّهِ بمَن لا يُرتضىٰ، فيَتِمَّ هذا الأسلوبُ البديع المُحكَمُ الانتظامِ(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا مِن جملةِ النِّعَمِ التي خُصَّ أهلُ بَدْرٍ بها(٣).

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا استوفىٰ ما كان يقطعُ به في حقِّ أولئك ممَّا هو مِن أنفسِهم وممَّا هو مِن تزيينِ الشيطان، أبدَلَ منه ما كان يقطعُ به في حقِّهم مِن أهلِ الجهل باللهِ وبأيَّامِه الماضيةِ

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٠ / ٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩١).

وآثارِه عند أوليائه وأعدائه، فقال: ﴿ إِذْ يَـقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

يَتعلَّقُ ﴿ إِذْ يَـقُولُ ﴾ بأقربِ الأفعالِ إليه؛ وهو قولُه: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾، مع ما عُطِف عليه مِن الأفعالِ؛ لأنَّ ﴿ إِذْ ﴾ لا تقتضي أكثرَ مِن المقارنةِ في الزمان بَيْنَ ما تضافُ إليه وبَيْنَ متعلَّقِها، فتعيَّن أن يكونَ قولُ المنافقين واقعًا في وقتِ تزيين الشيطانِ أعمالَ المشركين، فيَتِمُّ تعليقُ وقتِ قول المنافقين بوقتِ تزيينِ الشيطانِ أعمالَ المشركين، وإنَّما تُطلَبُ المناسبةُ لِذكْرِ هذا الخبرِ عَقِب الذي وَلِيَه هو، وتلك هي أنَّ كلا الخبَرَينِ يَتضمَّن قوةَ جيشِ المشركين، وضَعْفَ جيشِ المسلمين، ويقينَ أولياءِ الشيطان بأنَّ النَّصرَ سيكون للمشركين علىٰ المسلمين؛ فالخبَرُ الأوَّلُ عن طائفةٍ أعانت المشركين بتأمينِهم مِن عدوٍّ يَخشَوْنَهُ فانحازت إليهم علَنًا؛ وذلك يستلزِمُ تقبيحَ ما أقحَمَ المسلمون فيه أنفسَهم إذ عمَدوا إلىٰ قتالِ قومٍ أقوياءَ، والخبَرُ الثاني عن طائفتَينِ شوَّهَتَا صنيعَ المسلمين؛ حمَّقَتَاهم ونسَبَتاهم إلىٰ الغرورِ، فأسَرُّوا ذلك ولم يبُوحُوا به، وتحدَّثوا به فيما بينهم، أو أسَرُّوه في نفوسِهم(٢).

﴿وَلَوْ تَـرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

ولـمَّا ذكَر ما سَرَّهم مِن حالِ أعدائهم المجاهِرين والمساتِرين في الدُّنيا مُرصِّعًا ذلك بجواهرِ الحِكَم، وبدائعِ الكَلِم، التي بملازمتِها تكونُ السعادةُ، وبالإخلالِ بها تحُلُّ الشقاوةُ؛ أتبَعه ما يسُرُّهم مِن حالِ أعدائهم عند الموتِ وبعده، فقال مخاطِبًا لِمَن لو كشفَ الغطاء لم يَزدَدْ يقينًا، حاديًا بتخصيصِه بالخطاب كلَّ سامعٍ علىٰ قوَّةِ اليقينِ

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٠١).

(٢) التحرير والتنوير (١٠ / ٣٧).

ليؤهَّلَ لمثلِ هذا الخطابِ حكايةً لحالِهم في ذاك الوقتِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾(١).

لمَّا وُفِّي وصفُ حالِ المشركين حَقَّه، وفُصِّلَتْ أحوالُ هزيمتهم ببَدْرٍ، وكيف أمكَنَ اللهُ منهم المسلمين، علىٰ ضَعْفِ هؤلاء وقوَّةِ أولئك، بما شاهَده كلُّ حاضرٍ، حتىٰ لَيُوقِنُ السامعُ أنَّ ما نال المشركين يومئذٍ إنَّما هو خِذْلانٌ مِن اللهِ إيَّاهم، وإيذانٌ بأنَّهم لاقُونَ هلاكَهم ما داموا مناوِئينَ للهِ ورسولِه ﷺ؛ انتقَل إلىٰ وصفِ ما لَقِيَه مِن العذابِ مَن قُتِل منهم يومَ بَدْرٍ، ممَّا هو مغيَّبٌ عن الناسِ؛ ليَعلَمَ المؤمنون، ويرتدِعَ الكافرون، والمرادُ بالذين كفَروا هنا الذين قُتِلوا يومَ بَدْرٍ، وتكونُ هذه الآيةَ مِن تمامِ الخبَرِ عن قومِ بَدْرٍ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أحوالَ هؤلاء الكفارِ، شرَح أحوالَ موتِهم، والعذابَ الذي يصلُ إليهم في ذلك الوقتِ(٣).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾

ولمَّا عذَّبوهم قولًا وفعلًا، علَّلوا لهم ذلك بقولِهم زيادةً في تأسيفِهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٤).

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ إلىٰ ما يشاهِدونه مِن العذابِ، وجِيءَ بإشارةِ البعيدِ؛ لتعظيمِ ما يشاهِدونه مِن الأهوالِ، والجملةُ مستأنَفةٌ لقصدِ التنكيلِ والتَّشفِّي(٥).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٣٠١-٣٠٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٠/ ٤١).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا بيَّن بما مضىٰ ما يوجِبُ الاجتماعَ عليه، والرجوعَ في كلِّ أمرٍ إليه، وبيَّن أنَّ مَن خالَف ذلك هلَك، كائنًا مَن كان؛ أتبَعه بما يبيِّنُ أنَّ هذا مِن العموم والاطِّراد بحيث لا يخُصُّ زمانًا دُونَ زمانٍ، ولا مكانًا سِوىٰ مكانٍ، فقال تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما أنزَله بأهلِ بدرٍ مِن الكفَّارِ عاجلًا وآجلًا -كما شرَحْناه-، أتبَعه بأنْ بيَّن أنَّ هذه طريقتُه وسُنَّتُه في الكلِّ(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ سَيْرَ المشركين المستمِرَّ وعادتَهم الدائمة مع ما أُرسِلَ به النبيُّ ﷺ كسَيْرِ الأُمَمِ السالفة مع رُسلِهم بقولِه تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٣).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الجملةُ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ أنَّ ما حلَّ بهم مِن العذاب بسببِ كفرِهم، لا بشيءٍ آخَرَ مِن جهةِ غيرِهم؛ بتشبيهِ حالهم بحالِ المعروفين بالإهلاك بسببِ جرائمِهم؛ لزيادةِ تقبيحِ حالهم، وللتنبيهِ علىٰ أنَّ ذلك سُنَّةٌ مطَّردةٌ فيما بَيْنَ الأُمَمِ المُهلَكة(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٠٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٣١٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ٢٨).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما له يُمهِلُهم ولا يعاجِلُهم بالأخذِ قبل النِّكايةِ في أوليائِه، وأهلِ وُدِّه وأصفيائه؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ، والإشارةُ إلىٰ مضمون قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ أي: ذلك المذكورُ بسببِ أنَّ اللهَ لم يكُ مُغيِّرًا إلخ. أي: ذلك الأخذُ بسببِ أعمالهم التي تسبَّبوا بها في زوالِ نِعْمتِهم(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليلِ ما يُفيد النَّظْمُ الكريم مِن كونِ ما حلَّ بهم مِن العذابِ منُوطًا بأعمالِهم السيِّئة، غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ(٣).

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾

تكريرٌ لقوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ المذكورِ قبله؛ لقصدِ التأكيدِ والتسميع، تقريرٌ للإنذارِ والتهديد، وخولِفَ بَيْنَ الجملتينِ تفنُّنًا في الأسلوب، وزيادةً للفائدة؛ بِذِكْرِ التكذيبِ هنا بعد ذِكْرِ الكفرِ هناك، وهما سببانِ للأخذِ والإهلاك(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠ / ٤٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٢٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٠ / ٤٦).

أنَّه تعالىٰ ذكَر مرَّةً أخرىٰ قولَه تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ذكَروا فيه وجوهًا كثيرة: الأول: أنَّ الكلامَ الثانيَ يَجري مَجرىٰ التفصيلِ للكلام الأول؛ لأنَّ الكلامَ الأول فيه ذِكْرُ أخذِهم، وفي الثاني ذِكْرُ إغراقِهم؛ وذلك تفصيلٌ. والثاني: أنَّه أُريدَ بالأولِ ما نزَل بهم مِن العقوبةِ في حالِ الموتِ، وبالثاني ما يَنزِلُ بهم في القبرِ في الآخرةِ[1].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ استئنافٌ آخَرُ -علىٰ ما ذكَره بعضُ المحقِّقين- مسُوقٌ لتقريرِ ما سِيقَ له الاستئنافُ الأول بتشبيهِ دَأْبِهم بدأبِ المذكورين، لكن لا بطريقِ التكريرِ المحض، بل بتغييرِ العنوان، وجَعْلِ الدَّأْبِ في الجانبينِ عبارةً عمَّا يلازِمُ معناه الأولَ مِن تغييرِ الحال، وتغييرِ النِّعْمة؛ أخذًا ممَّا نطَق به قولُه تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾[2].

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم علَّل اتصافَهم بالظُّلْمِ، أو استأنَف بيانًا له بقولِه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقَل به مِن الكلامِ علىٰ عمومِ المشركين إلىٰ ذِكْرِ كفَّارٍ آخَرين[4].

لمَّا وصَف كلَّ الكفار بقولِه: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾، أفرَد بعضَهم بمزيَّةٍ في الشرِّ والعِناد، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٦).
(٢) روح المعاني (٥/ ٢١٦).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٠٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٤٦).
(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٧).

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعدما شرَح أحوالَ المُهلَكِينَ مِن شرارِ الكفرةِ، شرَع في بيانِ أحوالِ الباقين منهم، وتفصيلِ أحكامهم[1].

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدَلًا مطابِقًا؛ فالذين عاهَدهم هم الذين كفَروا، فهم لا يؤمِنون[2].

ولمَّا ذكَر أنَّ مِن خصالِهم الكفرَ وعدمَ الإيمان، ذكَر هنا خَصْلةً لهم ثالثة؛ وهي: الخيانةُ في العهودِ، فلا يثبُتون علىٰ عهدٍ عاهَدوه، ولا قولٍ قالُوه.

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾

ولمَّا أيأسه مِن تَقْواهم بما اشتمَلوا عليه مِن تكريرِ النَّقْضِ الناشئ عن غايةِ الحسد، وصلابةِ الرِّقاب، وقساوةِ القلوب، والقساوةِ علىٰ الكفر؛ أمَره بما يُوهِنُ قُواهم، ويحُلُّ عُراهم؛ مِن إلباسِ اليأسِ بإنزالِ البأسِ؛ كما جرَتْ عادتُه سبحانه أنَّه يوصيه بالرِّفْقِ ببعضِ الناس؛ لعِلْمِه أنَّ عمَلَه يزكو لبُنْيانِه علىٰ أحسَنِ أساسٍ، فقال مؤكِّدًا لأجَلِّ ما جُبِل عليه ﷺ مِن محبَّةِ الرِّفْقِ: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٤٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣١٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ تارةً يرشِدُ رسولَه ﷺ إلىٰ الرِّفْقِ واللُّطْفِ في آياتٍ كثيرة، وتارةً يرشِدُ إلىٰ التغليظِ والتشديد؛ كما في هذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الذين ينقُضون عهدَهم في كلِّ مرَّةٍ، بيَّن ما يجبُ أن يعامَلوا به، فقال: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ ﴾[(١)].

ثم شرَع تعالىٰ في بيانِ أحكام الناقِضين، بعد تفصيلِ أحوالهم، بقولِه: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا أمَره بما يَفعَلُ بمَن تحقَّق نَقْضُه، أرشَده إلىٰ ما يفعلُ بمَن خافَ غَدْرَه، فقال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[(٣)].

عطفُ حُكْمٍ عامٍّ لمعاملةِ جميع الأقوام الخائنين بعد الحُكْمِ الخاصِّ بقومٍ معيَّنين الذين تلُوحُ منهم بوارقُ الغَدْرِ والخيانة، بحيث يبدو مِن أعمالهم ما فيه مخيلة بعدمِ وفائهم، فأمَره اللهُ أن يرُدَّ إليهم عَهْدَهم؛ إذ لا فائدةَ فيه وإذ هم ينتفعون مِن مسالَمةِ المؤمنين لهم، ولا ينتفِعُ المؤمنون مِن مسالَمتِهم عند الحاجةِ[(٤)].

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ بيانٌ لأحكامِ المشرِفين إلىٰ نَقْضِ العهدِ، إثْرَ بيانِ أحكام الناقِضين له بالفعل[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٧).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣١٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٥١).

(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ٣١).

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ ﴾

ولمَّا كان نَبْذُ العهدِ مَظِنَّةَ الخوفِ مِن تكثيرِ العدوِّ وإيقاظِه، وكان الإيقاعُ أَوْلىٰ بالخوف؛ أتبَع سبحانه ذلك ما يَجري عليه ويُسلِّي عن فَوْتِ مَن هرَب مِن الكفار في غزوةِ بَدْرٍ فلم يُقتَلْ ولم يؤسَرْ، فقال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما يَفعَلُ الرسولُ في حقِّ مَن يجدُه في الحربِ ويَتمكَّن منه، وذكَر أيضًا ما يجب أن يَفعَلَه فيمَن ظهَر منه نَقْضُ العهدِ؛ بيَّن أيضًا حالَ مَن فاتَه في يوم بَدْرٍ وغيرِه؛ لئلا يَبقَىٰ حسرة في قلبِه؛ فقد كان فيهم مَن بلَغ في أذيَّةِ الرسولِ ﷺ مَبلَغًا عظيمًا، فقال: لا تَحسَبَنَّ الذين كفَروا سبَقوا[2].

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ ﴾

ولمَّا كان هذا ربما أدىٰ إلىٰ تركِ المناصَبةِ والمحارَبة والمغالَبة اعتمادًا علىٰ الوعدِ الصادق المؤيَّد بما وقَع لهم في بَدْرٍ مِن عظيمِ النَّصْرِ مع نقصِ دعوىٰ العِدَّةِ والعُدَّةِ؛ أتبَعه ما يبيِّنُ أنَّ اللازمَ ربطُ الأسبابِ بمسبَّباتِها، وليَتبيَّنَ الصادقُ في دعوىٰ الإيمانِ مِن غيرِه، فقال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣١٣).
(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٨).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٣١٤).

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ علىٰ جملةِ ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾، أو علىٰ جملةِ ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾، فتُفيدُ مُفادَ الاحتراسِ عن مُفادِها؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾ يفيد توهينًا لشأنِ المشركين؛ فتعقيبُه بالأمرِ بالاستعداد لهم: لئلا يَحسَبَ المسلمون أنَّ المشركين قد صاروا في مُكْنتِهم، ويَلزمُ مِن ذلك الاحتراسِ أنَّ الاستعدادَ لهم هو سببُ جَعْلِ الله إيَّاهم لا يُعجِزون اللهَ ورسولَه؛ لأنَّ اللهَ هيَّأ أسبابَ استئصالِهم ظاهرَها وباطنَها[1].

لمَّا اتفَق في قصَّةِ بَدْرٍ أنْ قصَدوا الكفارَ بلا تكميلِ آلةٍ ولا عدَّةٍ، وأمَره تعالىٰ بالتَّشريدِ وبنَبْذِ العهدِ للناقِضين؛ كان ذلك سبيلًا للأخذِ في قتالِه، والتمالؤِ عليه؛ فأمرُه تعالىٰ للمؤمنين بإعدادِ ما قدَروا عليه مِن القوَّةِ للجهادِ والإعدادِ: الإرصادُ، وعلَّق ذلك بالاستطاعةِ لُطْفًا منه تعالىٰ[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أوجَبَ علىٰ رسوله ﷺ أن يُشرِّدَ مَن صدَر منه نَقْضُ العهدِ، وأن يَنبِذَ العهدَ إلىٰ مَن خافَ منه النَّقضَ؛ أمَره في هذه الآيةِ بالإعداد لهؤلاء الكفارِ[3].

﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾

ولمَّا كان ضمانُ النَّصرِ والخلف في النَّفقة موجِبًا لدوامِ المصادَمةِ والبُعْدِ مِن المسالَمة، أتبَعه قولَه أمرًا بالاقتصاد: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٥٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٩٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٣١٦).

انتقالٌ مِن بيانِ أحوال معاملةِ العدوِّ في الحربِ: مِن وفائهم بالعهدِ، وخيانتِهم، وكيف يحُلُّ المسلمون العهدَ معهم إن خافوا خيانتَهم، ومعاملتِهم إذا ظَفِروا بالخائنين، والأمرِ بالاستعداد لهم؛ إلىٰ بيانِ أحكامِ السَّلْمِ إن طلَبوا السَّلْمَ والمهادَنة، وكَفُّوا عن حالةِ الحربِ، فأمَر اللهُ المسلمين بألا يأنفوا مِن السَّلْمِ، وأن يُوافِقوا مَن سأَله منهم[(١)].

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما يُرهَبُ به العدوُّ مِن القوَّةِ والاستظهار، بيَّن بعده أنَّهم عند الإرهابِ إذا جنَحوا -أي: مالُوا- إلىٰ الصُّلْحِ، فالحُكْمُ قبولُ الصلح[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ جوازَ مصالَحةِ الكفار بقولِه: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٣)].

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

لمَّا كان طلَبُ السَّلْمِ والهُدْنةِ مِن العدوِّ قد يكون خديعةً حربيَّةً، ليغرُّوا المسلمين بالمصالَحة ثم يأخذوهم علىٰ غِرَّةٍ؛ أيقَظ اللهُ رسولَه لهذا الاحتمالِ، فأمَره بأن يأخذَ الأعداءَ علىٰ ظاهرِ حالهم، ويَحمِلَهم علىٰ الصِّدْقِ؛ لأنَّه الخُلُقُ الإسلاميُّ، وشأنُ أهلِ المروءة، ولا تكونُ الخديعةِ بمِثْلِ نكْثِ العهدِ، فإذا بعَث العدوَّ كُفْرُهم علىٰ ارتكابِ مثلِ هذا التسفُّلِ، فإنَّ اللهَ تكفَّلَ للوفيِّ بعهده أن يَقِيَهُ شرَّ خيانةِ الخائنين[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٥٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠٠).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٣١٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٦١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر في الآيةِ المتقدِّمة بالصُّلْحِ، ذكَر في هذه الآيةِ حُكْمًا مِن أحكامِ الصلح؛ وهو أنَّهم إن صالَحوا علىٰ سبيلِ المخادَعة، وجَب قَبولُ ذلك الصلحِ؛ لأنَّ الحُكْمَ يُبنَىٰ علىٰ الظاهرِ؛ لأنَّ الصلحَ لا يكون أقوىٰ حالًا مِن الإيمانِ، فلمَّا بنَيْنا أمرَ الإيمانِ علىٰ الظاهر لا علىٰ الباطنِ، فههنا أَوْلىٰ؛ ولذلك قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾، المراد مَن تقدَّم ذِكْرُه في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾[1].

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن كيف أيَّده بالمؤمنين، فقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولـمَّا صرَّح بأنَّ اللهَ كافيه، وكانت كفايةُ اللهِ للعبدِ أعظَمَ المقاصدِ؛ التفتَتِ الأنفسُ إلىٰ أنَّه هل يَكفيه مطلقًا، أو هو فعَل مع المؤمنين أيضًا مِثْلَ ذلك؟ فأتبَعها بقولِه معبِّرًا بوصفِ النُّبوةِ الذي معناه الرِّفْعةُ والاطلاعُ مِن جهةِ اللهِ علىٰ ما لا يَعلَمُه العبادُ؛ لأنَّه في سياقِ الإخبار ببعضِ المغيَّباتِ، والتَّصرُّفِ في الملكوتِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

استئنافٌ ابتدائيٌّ بالإقبالِ علىٰ خطابِ الرسول ﷺ بأوامرَ وتعاليمَ عظيمةٍ، مهَّد لقَبولِها وتسهيلِها بما مضىٰ مِن التَّذكيرِ بعجيبِ صُنْعِ الله، والامتنانِ بعنايتِه برسوله

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠١).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣١٩).

والمؤمنين، وإظهارِ أنَّ النَّجاحَ والخير في طاعتِه وطاعة الله، مِن أولِ السُّورة إلى هنا؛ فموقعُ هذه الآيةِ بعد التي قبلها كاملُ الاتساقِ والانتظام؛ فإنَّه لمَّا أخبره بأنَّه حَسْبُه وكافيه، وبيَّن ذلك بأنَّه أيَّده بنَصْرِه فيما مضى وبالمؤمنين؛ فقد صار للمؤمنين حظٌّ في كفايةِ اللهِ تعالى رسولَهُ ﷺ؛ فلا جرَمَ أنتَج ذلك أنَّ حَسْبَه اللهُ والمؤمنون، فكانت جملةُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كالفَذْلكةِ للجملة التي قبلها[1].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا وعَده بالنَّصرِ عند مخادَعةِ الأعداء، وعَده بالنَّصرِ والظَّفَرِ في هذه الآيةِ مطلقًا على جميعِ التَّقديرات، وعلى هذا الوجهِ، لا يَلزمُ حصولُ التَّكرارِ؛ لأنَّ المعنى في الآيةِ الأُولى: إن أرادوا خداعَك كفاك اللهُ أمرَهم؛ والمعنى في هذه الآيةِ عامٌّ في كلِّ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ والدُّنيا[2].

ولمَّا بيَّن تعالى كفايتَه لنبيِّه ﷺ عند مخادَعةِ الأعداء في الآيةِ المتقدِّمة، أعلَمَه بكفايتِه له في جميعِ أموره مطلقًا، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّهم كافُون مَكْفيُّون، وكان ذلك مشروطًا بفعلِ الكَيْسِ والحَزْمِ، وهو الاجتهادُ بحسَبِ الطاقةِ؛ أمَره بأن يأمرَهم بما يكونون به كافِينَ مِن الجِدِّ في القتال،

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠٣).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٣٢٠).

وعدمِ الهَيْبةِ للأبطال، في حالٍ مِن الأحوال، فقال معبِّرًا بالوصفِ النَّاظر إلىٰ جهةِ التلقِّي عن اللهِ ليَشتدَّ وثوقُ السَّامعِ لِما يَسمَعُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾[١].

لمَّا تكفَّل اللهُ له الكفايةَ، وعطَف المؤمنين في إسنادِ الكفاية إليهم؛ احتِيجَ إلىٰ بيانِ كيفيَّة كفايتِهم، وتلك هي الكفايةُ بالذَّبِّ عن الحَوْزةِ، وقتالِ أعداءِ الله؛ فالتعريفُ في ﴿ٱلْقِتَالِ﴾ للعهدِ، وهو القتالُ الذي يَعرِفونه؛ أعني: قتالَ أعداءِ الدِّين[٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ بعدما بيَّن كفايتَه إيَّاهم بالنَّصْرِ والإمداد، أمَر ﷺ بترتيبِ مبادئِ نَصْرِه وإمداده، وتكريرُ الخطابِ علىٰ الوجهِ المذكور لإظهارِ كمالِ الاعتناء بشأنِ المأمور به[٣].

ثم بيَّن أنَّه تعالىٰ وإن كان يَكفيك بنَصْرِه وبنصرِ المؤمنين، فليس مِن الواجبِ أن تتَّكِلَ علىٰ ذلك إلا بشرطِ أن تحرِّضَ المؤمنين علىٰ القتال؛ فإنَّه تعالىٰ إنَّما يَكفيك بالكفايةِ بشرطِ أن يحصُلَ منهم بَذْلُ النفسِ والمال في المجاهَدةِ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾[٤].

📖 ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ 📖

هذه الآيةُ نزَلتْ بعد نزولِ الآيةِ التي قبلها بمدَّةٍ. قال في «الكشَّاف»: «وذلك بعد مدَّةٍ طويلة». ولعلَّه بعد نزولِ جميعِ سورة «الأنفال»، ولعلَّها وُضِعتْ في هذا الموضعِ

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٣٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠٤).

لأنَّها نزَلتْ مفرَدةً غيرَ متصِلةٍ بآياتِ سورةٍ أخرىٰ، فجُعِل لها هذا الموضعُ؛ لأنَّه أنسَبُ بها؛ لتكونَ متصِلةً بالآية التي نسَختْ هي حُكْمَها، ولم أرَ مَن عيَّن زمَنَ نزولِها، ولا شك أنَّه كان قبل فتحِ مكَّةَ؛ فهي مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا محضًا؛ لأنَّها آيةٌ مستقلَّة[١].

قال عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: لمَّا نزَل التكليفُ الأول ضَجَّ المهاجِرون، وقالوا: يا ربِّ، نحن جِياعٌ، وعدوُّنا شِباعٌ، ونحن في غُرْبةٍ، وعدوُّنا في أهليهم، ونحن قد أُخرِجْنا مِن ديارِنا وأموالنا وأولادنا، وعدوُّنا ليس كذلك، وقال الأنصارُ: شُغِلْنا بعدوِّنا وواسَيْنا إخوانَنا؛ فنزَل التخفيفُ، وقال عِكْرمةُ: إنَّما أُمِر الرَّجُلُ أن يَصبِرَ لعشَرةٍ، والعشَرةُ لمائةٍ حالَ ما كان المسلمون قليلين، فلمَّا كثُروا خفَّف اللهُ تعالىٰ عنهم؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ: أيُّما رجُلٍ فرَّ مِن ثلاثةٍ فلم يفِرَّ، فإن فرَّ مِن اثنَينِ فقد فرَّ[٢].

لمَّا أوجَب على الواحدِ مقاوَمةَ العشَرةِ والثَّباتَ لهم، وثقُلَ ذلك عليهم؛ خفَّف عنهم بمقاوَمةِ الواحدِ الاثنَينِ[٣].

وبعد مشقَّةٍ في الآيةِ السابقة، أتىٰ التيسيرُ والتخفيف في هذه الآيةِ.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾

ولمَّا تقدَّم الأمرُ بالإثخانِ في ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾، ثم بإعدادِ القوة، ثم التحريضِ على القتال بعد الإعلامِ بالكفاية، ثم إيجابِ ثَباتِ الواحد لعشَرةٍ، ثم إنزالِ التخفيفِ إلىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٣) أنوار التنزيل (٣/ ٦٦).

اثنَينِ؛ كان ذلك مقتضِيًا للإمعانِ في الإثخان، فحسُنَ عتابُ الأحبابِ في اختيارِ غيرِ ما أفهَمَه هذا الخطابُ؛ لكونِ ذلك أقعَدَ في الامتنانِ عليهم بالعفوِ والغفران؛ بسببِ أنَّ أكثَرَهم مالَ إلىٰ فداءِ الأُسارىٰ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ استشارهم فيهم، فأشار أبو بكرٍ رضي الله عنه بالمفاداة، ومالَ معه الأكثَرُ، وأشار عُمَرُ رضي الله عنه بضَرْبِ أعناقهم، ورُوِيَ أنَّه قال ﷺ: «لو نزَل مِن السماءِ عذابٌ -أي: في هذا-، ما نجَا منه غيرُ عُمَرَ وسعدِ بنِ مُعاذٍ رضي الله عنهما»[1]، فقال تعالىٰ استئنافًا واستنتاجًا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

استئنافٌ ابتدائيٌّ مناسب لِما قبله، سواءٌ نزَل بعَقِبِه أم تأخَّر نزولُه عنه، فكان موقعُه هنا بسببِ موالاةِ نزوله لنزولِ ما قبله، أو كان وضعُ الآيةِ هنا بتوقيفٍ خاص، والمناسبةُ ذِكْرُ بعضِ أحكام الجهاد، وكان أعظَمُ جهادٍ مضىٰ هو جهادَ يومِ بَدْرٍ؛ لا جرَمَ نزَلتْ هذه الآيةُ بعد قضيةِ فداءِ أسرىٰ بدرٍ مشيرةً إليها، وعندي أنَّ هذا تشريعٌ مستقبَلٌ، أخَّره اللهُ تعالىٰ رفقًا بالمسلمين الذين انتصَروا ببدرٍ، وإكرامًا لهم علىٰ ذلك النَّصْرِ المُبينِ، وسدًّا لخَلَّتِهم[3] التي كانوا فيها؛ فنزَلتْ لبيانِ الأمرِ الأجدر فيما جرىٰ في شأنِ الأسرىٰ في وَقْعةِ بدرٍ[4].

واعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ تعليمُ حُكْمٍ آخَرَ مِن أحكامِ الغزوِ والجهاد في حقِّ النبيِّ ﷺ[5].

---

(١) عزاه الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ٣٩) للطبري، من طريق ابن إسحاق مقطوعًا.

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٢٩).

(٣) أي: حاجتهم.

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٢).

(٥) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٠٧).

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾

ولمَّا عُلِم مِن الآيةِ ما أشرتُ إليه، فكان كأنَّهم قالوا ﷺ: تقتضي عِزَّته وحِكْمته سبحانه مِن تطهيرِنا عمَّا تدنَّسْنا به؟ استأنَف تعالىٰ الجوابَ عن ذلك ممتنًّا غايةَ الامتنان، ومحذِّرًا مِن التَّعرُّضِ لمواقعِ الخسران، فقال: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وجملةُ ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ السابق يؤذِنُ بأنَّ مفاداةَ الأسرىٰ أمرٌ مرهوب تُخشَىٰ عواقبُه، فيَستثير سؤالًا في نفوسِهم عمَّا يُترقَّب مِن ذلك، فبيَّنه قولُه: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية[2].

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩ ﴾

ولمَّا ساقَ سبحانه هذه البِشارةَ في النِّذارةِ، سبَّب عنها قولَه: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

الفاءُ تؤذِنُ بتفريعِ هذا الكلامِ علىٰ ما قبله[4].

رُوي أنَّه لمَّا نزَلتِ الآيةُ الأُولىٰ، كَفَّ أصحابُ رسول الله ﷺ أيديَهم عمَّا أخَذوا مِن الفداء، فنزَلتْ هذه الآيةُ؛ فالمرادُ ممَّا غَنِمْتم إمَّا الفِدْية، وإمَّا مطلق الغنائم، والمرادُ بيانُ حُكْمِ ما اندرَج فيها مِن الفِدْيةِ، وإلا فَحِلُّ الغنيمةِ ممَّا عداها قد عُلِم سابقًا[5].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٣١).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٧).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٣٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٨).
(٥) روح المعاني (٥/ ٢٣١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا إباحةُ ما يؤخَذُ مِن الأسرىٰ مِن الفداءِ، وكان ما يؤخَذُ منهم تعظُمُ مشقَّتُه عليهم؛ أقبَلَ عليهم مستعطِفًا لهم ترغيبًا في الإسلام، فأقبَلَ علىٰ نبيِّه ﷺ بالأمر بمخاطَبتِهم تنبيهًا علىٰ أنَّهم ليسوا بأهلٍ لخطابِه سبحانه بما أبعَدوا أنفسَهم عنه مِن اختيارِهم الكونَ في زُمْرةِ الأعداءِ علىٰ الكون في عِدادِ الأولياء، فقال معبِّرًا بالوصفِ النَّاظر إلىٰ تلقِّي العلمِ ترغيبًا في التلقِّي منه ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو إقبالٌ علىٰ خطابِ النبيِّ ﷺ بشيءٍ يتعلق بحالِ سرائرِ بعضِ الأسرىٰ، بعد أن كان الخطابُ متعلِّقًا بالتحريضِ علىٰ القتال وما يَتبَعُه[2].

اعلَمْ أنَّ الرسولَ ﷺ لمَّا أخذ الفداءَ مِن الأُسارىٰ، وشَقَّ عليهم أخذُ أموالِهم منهم؛ ذكَر اللهُ هذه الآيةَ استمالةً لهم، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾[3].

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فإن صدَّقوك وقَبِلوا بُشرىٰ اللهِ وفَّىٰ اللهُ لهم، عطَف عليه قولَه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥١٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٣٣٥).

الضَّميرُ في ﴿يُرِيدُواْ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿مَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، وهذا كلامٌ خاطَب به اللهُ رسولَه ﷺ اطمئنانًا لنفسه، وليبلِّغَ مضمونَه إلىٰ الأسرىٰ؛ ليَعلَموا أنَّهم لا يَغلِبون اللهَ ورسوله، وفيه تقريرٌ للمِنَّةِ علىٰ المسلمين التي أفادها قولُه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، فكمَلَ ذلك الإذنُ والتَّطييب بالتَّهنئةِ والطَّمْأنة بأنْ ضَمِن لهم إن خانهم الأسرىٰ بعد رجوعِهم إلىٰ قومِهم ونكَثوا عهدَهم وعادُوا إلىٰ القتالِ بأنَّ اللهَ يُمكِنُ المسلمين منهم مرةً أخرىٰ، كما أمكَنَهم منهم في هذه المرَّةِ(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾

ولمَّا بيَّن للأسرىٰ أنَّ الخيرَ الذي لم يطَّلِعْ عليه مِن قلوبهم غيرُ الله لا ينفعُهم في إسقاطِ الفداء عنهم؛ لأنَّه لا دليلَ عليه، وكلُّ ما لا دليلَ عليه فحُكْمُه حُكْمُ العدَمِ؛ لأنَّ مبنىٰ الشرعِ علىٰ ما يمكِنُ المكلَّفَ معرفتُه؛ وهو الظواهرُ، وختَم بصِفتَيِ العلمِ والحِكْمةِ: شرَع يبيِّنُ الخبرَ الذي يفيدُ القُرْبَ الذي تنبني عليه المناصرةُ وكلُّ خيرٍ، فقال مُقسِّمًا أصحابَ النبيِّ ﷺ أربعةَ أقسام: قِسْمٌ جمَع الإيمانَ والهجرة أولًا والجهادَ، وقسمٌ آوىٰ، وقسمٌ آمَنَ ولم يهاجِرْ، وقسمٌ هاجَر مِن بعدُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٨١).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٣٦).

هذه الآياتُ استئنافٌ ابتدائيٌّ للإعلامِ بأحكام موالاةِ المسلمين للمسلمين الذين هاجَروا والذين لم يهاجِروا، وعدمِ موالاتهم للذين كفَروا، نشأَ عن قولِ العبَّاسِ بن عبد المطَّلِبِ حين أُسِرَ ببَدْرٍ أنَّه مسلمٌ، وأنَّ المشركين أكرَهوه على الخروجِ إلى بدر، ولعلَّ بعضَ الأسرى غيره قد قال ذلك، وكانوا صادقين، فلعلَّ بعضَ المسلمين عطَفوا عليهم وظَنُّوهم أولياءَ لهم، فأخبَر اللهُ المسلمين وغيرَهم بحُكْمِ مَن آمَنَ واستمَرَّ على البقاءِ بدارِ الشرك. قال ابنُ عطيَّةَ: «مقصدُ هذه الآيةِ وما بعدها: تبيينُ منازلِ المهاجِرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجِروا والكفَّار، والمهاجِرين بعد الحُدَيبيَةِ، وذِكْرُ نسَبِ بعضِهم عن بعضٍ»[١].

قسَّم اللهُ المؤمنين إلى المهاجِرين والأنصارِ والذين لم يهاجِروا؛ فبدأ بالمهاجِرين؛ لأنَّهم أصلُ الإسلام، وأولُ مَن استجابَ للهِ؛ فهاجَر قومٌ إلى المدينة، وقومٌ إلى الحبشة، وقومٌ إلى ابنِ ذي يَزَنَ، ثم هاجَروا إلى المدينةِ، وكانوا قدوةً لغيرِهم في الإيمان، وسببَ تقويةِ الدِّينِ «مَن سَنَّ سُنَّةً حسَنةً، فله أجرُها، وأجرُ مَن عَمِل بها إلى يومِ القيامة»[٢]، وثَنَّى بالأنصار؛ لأنَّهم ساوَوْهم في الإيمانِ، وفي الجهادِ بالنفسِ والمال، لكنَّه عادَل الهجرةَ الإيواءَ والنَّصْرَ، وانفرَد المهاجِرون بالسَّبْقِ، وذكَر ثالثًا مَن آمَن ولم يهاجِرْ ولم ينصُرْ، ففاتَهم هاتانِ الفضيلتان، وحُرِموا الوَلايةَ حتى يهاجِروا[٣].

ثم ذكَر تعالى أصنافَ المؤمنين، وقسَّمهم إلى مهاجِرين وأنصارٍ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٥٧).
(٤) محاسن التأويل (٥/ ٣٣١).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن شرطَ موالاةِ المسلم، بيَّن موالاةَ الكافر، وما يجبُ مِن مناظرتِهم ومباراتهم فيها، وأنَّه لا شرطَ لها غيرُ مطلَقِ الكفر؛ فإنَّه وإن اختلَفتْ أنواعُه وتباعَدتْ أنحاؤُه يَجمَعُه عداوةُ الله ووَلايةُ الشيطانِ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾(١).

هذا بيانٌ لحُكْمِ القِسْمِ المقابِلِ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ ﴾ وما عُطِف عليه، والواوُ للتَّقسيمِ والإخبار عنهم بأنَّ بعضَهم أولياءُ بعضٍ خبرٌ مستعمل في مدلولِه الكِنائيِّ؛ وهو أنَّهم ليسوا بأولياءَ للمسلمين(٢).

لمَّا عقَد الوَلايةَ بَيْنَ المؤمنين، أخبَر أنَّ الكفارَ حيث جمَعهم الكفرُ؛ فبعضُهم أولياءُ لبعضٍ؛ فلا يُوَالِيهم إلا كافرٌ مثلُهم(٣).

اعلَمْ أنَّ هذا الترتيبَ الذي اعتبَره اللهُ في هذه الآيةِ في غايةِ الحُسْنِ؛ لأنَّه ذكَر ههنا أقسامًا ثلاثة: فالأول: المؤمنون مِن المهاجِرين والأنصار، وهم أفضَلُ الناس، وبيَّن أنَّه يجبُ أن يُوالِيَ بعضُهم بعضًا. والقِسْمُ الثاني: المؤمنون الذين لم يهاجِروا، فهؤلاء بسببِ إيمانهم لهم فضلٌ وكرامةٌ، وبسببِ تَرْكِ الهجرةِ لهم حالةٌ نازلة؛ فوجَب أن يكونَ حُكْمُهم حُكْمًا متوسِّطًا بَيْنَ الإجلالِ والإذلال؛ وذلك هو أنَّ الوَلايةَ المثبَتةَ للقِسْمِ الأول تكونُ منفيَّةً عن هذا القسمِ، إلا أنَّهم يكونون بحيث لو

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٧).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٢٧).

استنصَروا المؤمنين واستعانوا بهم نصَروهم وأعانوهم، فهذا الحُكْمُ متوسِّطٌ بَيْنَ الإجلالِ والإذلال، وأمَّا الكفارُ فليس لهم البتَّةَ ما يوجِبُ شيئًا مِن أسبابِ الفضيلةِ؛ فوجَب كونُ المسلمين منقطِعين عنهم مِن كلِّ الوجوه، فلا يكونُ بينهم وَلايةٌ ولا مناصَرةٌ بوجهٍ مِن الوجوه؛ فظهَر أنَّ هذا الترتيبَ في غايةِ الحُسْنِ(١).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ ﴾

ولمَّا تقدَّمتْ أنواعُ المؤمنين: المهاجِرُ والناصر والقاعد، وذكَر أحكامَ موالاتهم؛ أخَذ يبيِّنُ تفاوُتَهم في الفضلِ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾(٢).

الأظهَرُ أنَّ هذه جملةٌ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾، وجملةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ ﴾ الآيةَ، والواوُ اعتراضيةٌ للتَّنويهِ بالمهاجِرين والأنصار، وبيانِ جزائهم وثوابهم، بعد بيانِ أحكامِ وَلايةِ بعضِهم لبعضٍ بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾، فليست هذه تكريرًا للأُولى، وإن تشابَهتْ ألفاظُها؛ فالأُولى لبيانِ وَلايةِ بعضِهم لبعضٍ، وهذه واردةٌ للثَّناءِ عليهم، والشَّهادة لهم بصدقِ الإيمان، مع وعدِهم بالجزاءِ(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥١٨).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٤٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٨٩).

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ عَوْدٌ لذِكْرِ المهاجِرين والأنصار؛ للثَّناءِ عليهم، والشَّهادة لهم، مع الموعدِ الكريم؛ فلا تَكْرارَ؛ لِما أنَّ مساقَ الأوَّلِ لإيجابِ التواصل بينهم، فذِكْرُهم هاهنا لبيانِ تعظيمِ شأنهم، وعلوِّ درجتهم[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ حُكْمَ المؤمنين في الدُّنيا، عطَف بذِكْرِ ما لهم في الآخرة، فأخبَر عنهم بحقيقةِ الإيمان؛ كما تقدَّم في أولِ السورة، وأنَّه سيجازيهم بالمغفرةِ والصَّفْحِ عن ذُنوبٍ إن كانت، وبالرِّزْقِ الكريم، وهو الحسَنُ الكثير الطيِّبُ الشريف، دائمٌ مستمر أبدًا، لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسأم ولا يُمَلُّ؛ لحُسْنِه وتنوُّعِه[٢].

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا حصَر المؤمنين حقًّا في الموصوفين، بيَّن أنَّ مَن ترَك ما هو عليه -مِن لزومِ دارِ الكفر، والقعودِ عن الجهاد-، لَحِقَ بمطلَقِ درجتِهم، وإن كانوا فيها أعلىٰ منه، فقال ذاكرًا القِسْمَ الرابع: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾[٣].

بعد أن منَع اللهُ وَلايةَ المسلمين للذين آمَنوا ولم يهجُروا بالصَّراحةِ ابتداءً، ونفَىٰ عن الذين لم يهاجِروا تحقيقَ الإيمان، وكان ذلك مثيرًا في نفوسِ السَّامعين أن يَتساءلوا: هل لأولئك تمكُّنٌ مِن تدارُكِ أمرِهم برَأْبِ هذه الثُّلْمةِ عنهم؟ ففتَح اللهُ بابَ التَّدارك بهذه الآيةِ: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾، فكانت هذه

(١) محاسن التأويل (٥/ ٣٣٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٩٩).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٤٨).

الآيةُ بيانًا، وكان مقتضىٰ الظاهرِ أن تكونَ مفصولةً غيرَ معطوفةٍ، ولكن عُدِل عن الفصلِ إلىٰ العطف تغليبًا لمقامِ التَّقسيمِ الذي استوعبته هذه الآياتُ [١].

ثم ذكَر أنَّ الأتباعَ لهم في الدُّنيا علىٰ ما كانوا عليه مِن الإيمانِ والعمل الصالح؛ فهُمْ معهم في الآخرةِ [٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٩٩).

سورة التوبة

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾

الفاءُ للتَّفريعِ على معنى البراءةِ؛ لأنَّها لمَّا أمَر اللهُ بالأذانِ بها كانت إعلامًا للمشركين، الذين هم المقصودُ مِن نقضِ العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضميرُ الخطابِ في فعلِ الأمر معلومٌ منه أنَّهم الموجَّهُ إليهم الكلامُ؛ وذلك التفاتٌ[(١)].

ولمَّا أعلَمَهم سبحانه بأنَّه رَدَّ إليهم عَهْدَهم، وكانوا مختلِطِين مع أهلِ الإسلام؛ جعَل لهم مَخلَصًا إن آثَروا البقاءَ على الشركِ، مع إعلامِهم بأنَّه لا خلاصَ لهم؛ لأنَّهم في قَبْضتِه، فقال مخاطِبًا لهم ولكلِّ مشركٍ مسبِّبًا عن البراءةِ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[(٢)].

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ هذا أمرٌ منه سبحانه بالسياحةِ بعد الإخبار بتلك البراءةِ؛ ومعنى الآيةِ: أنَّ اللهَ سبحانه بعد أن أَذِن بالنَّبْذِ إلى المشركين بعهدِهم، أباح للمشركين الضَّرْبَ في الأرضِ، والذَّهابَ إلى حيث يريدون، والاستعدادَ للحربِ هذه الأربعةَ الأشهُرَ، وليس المرادُ مِن الأمرِ بالسياحةِ تكليفَهم بها[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٠٥).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٧١).

(٣) فتح القدير (٢/ ٣٨٠).

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾

لمَّا أنزَل البراءةَ، أمَر بالإعلامِ بها في المَجمَعِ الأعظَمِ ليقطَعَ الحُجَجَ، فقال عاطفًا ظَهْرَةَ الجملةِ إلى مضمونها: للإخبار بوجوبِ الإعلام بما ثبَت بالجملةِ الأُولى المعطوفةِ عليها مِن البراءة: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، وموقعُ لفظِ ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ كموقعِ لفظِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ في التَّقدير، وهذا إعلامٌ للمشركين الذين لهم عَهْدٌ بأنَّ عَهْدَهم انتقضَ[2].

اعلَمْ أنَّ قولَه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ جملةٌ تامَّةٌ، مخصوصةٌ بالمشركين، وقولُه: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ جملةٌ أخرى تامَّة، معطوفةٌ على الجملةِ الأُولى، وهي عامَّةٌ في حقِّ جميع الناس؛ لأنَّ ذلك ممَّا يجب أن يَعرِفَه المؤمنُ والمشركُ مِن حيث كان الحُكْمُ المتعلِّق بذلك يلزمُهما جميعًا، فيجب على المؤمنين أن يَعرِفوا الوقتَ الذي يكون فيه القتالُ مِن الوقتِ الذي يحرُمُ فيه، فأمَر اللهُ تعالى بهذا الإعلامِ يومَ الحجِّ الأكبر، وهو الجَمْعُ الأعظم؛ ليصلَ ذلك الخبرُ إلى الكلِّ ويَشتهر[3].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٠٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٢٥).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤ ﴾

ولمَّا أعلَمَهم بالبراءةِ، وبالوقت الذي يُؤذَنُ بها فيه، وكان معنى البراءةِ منهم أنَّه لا عَهْدَ لهم؛ استثنى بعضَ المعاهَدِين، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ ﴾[1].

استثناءٌ مِن المشركين في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ومِن الذين كفروا في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ شأنَ الاستثناء إذا ورَد عَقِب جُمَلٍ أن يَرجِعَ إلى ما تحتويه جميعُها ممَّا يصلُحُ لذلك الاستثناءِ؛ فهو استثناءٌ لهؤلاء مِن حُكْمِ نقضِ العهد، ومِن حُكْمِ الإنذار بالقتال، المترتِّبِ على النَّقضِ؛ فهذا الفريقُ مِن المشركين باقون على حُرْمةِ عهدِهم، وعلى السِّلْمِ معهم[2].

ثم استثنى تعالى مِن ضربِ مدَّةِ التأجيل لِمَن له عَهْدٌ مطلَق بأربعةِ أشهُرٍ، ومَن له عهدٌ مؤقَّت بتأجيلِه إلى مدَّتِه المضروبة التي عُوهِدَ عليها، فقال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[3].

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ استدراكٌ مِن النَّبْذِ السَّابق الذي أُخِّر فيه القتالُ أربعةَ أشهُرٍ، كأنَّه قيل: لا تُمهِلوا النَّاكثين فوق أربعةِ أشهر، لكنِ الذين عاهَدتم ثم لم ينكُثوا عَهْدَهم، فلا تُجْرُوهم مُجرى النَّاكثين في المسارعةِ إلى قتالهم، بل أَتِمُّوا إليهم عَهْدَهم[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١١١).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٣٥١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٢).

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر أمرَ البراءةِ إثباتًا ونفيًا، أمَر بما يُصنَعُ بعد ما ضرَبه لهم مِن الأجلِ، فقال: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

تفريعٌ على قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، فإن كان المرادُ في الآيةِ المعطوف عليها بالأربعةِ الأشهُرِ أربعةً تبتدئ مِن وقتِ نزولِ «براءةَ»، كان قولُه: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ تفريعًا مرادًا منه زيادةُ قيدٍ على قيدِ الظَّرف مِن قولِ: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾؛ أي: فإذا انتهى أجلُ الأربعةِ الأشهُرِ وانسلَخ الأشهُرُ الحُرُمُ، فاقتُلوا المشركين إلخ؛ لانتهاءِ الإذنِ الذي في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، وإن كانت الأربعةُ الأشهُرُ مرادًا بها الأشهُرُ الحُرُمُ، كان قولُه: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ تصريحًا بمفهومِ الإذنِ بالأمنِ أربعةَ أشهُرٍ، المقتضي أنَّه لا أمْنَ بعد انقضاءِ الأربعة الأشهر(٢).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا سَدَّ عليهم طريقَ مخالَطتِهم ما لم يتَّصِفوا بالتَّوبة المدلولِ عليها بالشَّهيدين المذكورين سدًّا مُطلَقًا، وفتَحه عند الاتصافِ بها فتحًا مطلقًا؛ عطَف على ذلك

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١١٤).

طريقًا آخرَ وسَطًا مقيَّدًا، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾(١).

عطفٌ على جملةِ ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ لتفصيلِ مفهوم الشَّرط، أو عطفٌ على جملةِ ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لتخصيصِ عمومه؛ أي: إلا مشركًا استجارَك لمصلحةٍ: للسفارةِ عن قومه، أو لمعرفةِ شرائعِ الإسلام، وصِيغَ الكلامُ بطريقةِ الشَّرط لتأكيدِ حُكْمِ الجواب، وللإشارةِ إلى أنَّ الشأنَ أن تقعَ الرَّغبةُ في الجوار مِن جانبِ المشركين(٢).

إنَّه تعالى لمَّا أوجَبَ بعد انسلاخِ الأشهُرِ الحُرُمِ قَتْلَ المشركين، دَلَّ ذلك على أنَّ حُجَّةَ اللهِ تعالى قد قامت عليهم، وأنَّ ما ذكَره الرسولُ قبل ذلك مِن أنواعِ الدَّلائل والبينات كفى في إزاحة عُذْرِهم وعلَّتهم، وذلك يقتضي أنَّ أحدًا مِن المشركين لو طلب الدَّليلَ والحجَّة لا يُلتفت إليه، بل يطالَبُ إمَّا بالإسلامِ وإمَّا بالقتل، فلمَّا كان هذا الكلامُ واقعًا في القلب، لا جرَمَ ذكَر اللهُ هذه الآيةَ إزالةً لهذه الشبهة، والمقصودُ منه بيانُ أنَّ الكافرَ إذا جاء طالبًا للحجَّة والدَّليل، أو جاء طالبًا لاستماعِ القرآن؛ فإنَّه يجب إمهالُه، ويحرُمُ قتلُه، ويجب إيصالُه إلى مأمنِه، وهذا يدلُّ على أنَّ المقصودَ مِن شَرْعِ القتل قَبولُ الدِّينِ، والإقرارُ بالتوحيد، ويدلُّ أيضًا على أنَّ النَّظر في دِينِ الله أعلى المقامات، وأعلى الدرجات؛ فإنَّ الكافرَ الذي صار دَمُه مُهدَرًا لمَّا أظهَرَ مِن نفسِه كونَه طالبًا للنَّظر والاستدلال، زال ذلك الإهدارُ، ووجَب على الرسولِ أن يُبلِغَه مأمنَه(٣).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ شروعٌ في بيانِ حُكْمِ المتصدِّين لمبادئِ التوبة؛ مِن سماعِ كلام الله تعالى، والوقوفِ على شعائر الدِّين، إثر بيانِ حُكْمِ التائبين عن الكفرِ والمُصِرِّينَ عليه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٢٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٤).

لمَّا كان ما تقدَّم مِن قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أمرًا عامًّا في جميع الأحوال، وفي كلِّ الأشخاص منهم؛ ذكَر تعالىٰ أنَّ المصلحةَ إذا اقتضت تقريبَ بعضِهم جاز، بل وجَب ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

ولمَّا كان الأمرُ بالنَّبْذِ مظنَّةً لأن يُعجَبَ منه، عجَّب فقال: فمَن يتعجَّب منه؟ وأنكر عليه، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ، نشأ عن قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ثم عن قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وعن قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، التي كانت تدرُّجًا في إبطالِ ما بينهم وبين المسلمين مِن عهودٍ سابقة؛ لأنَّ ذلك يثيرُ سؤالًا في نفوسِ السَّامعين مِن المسلمين الذين لم يطَّلِعوا علىٰ دخيلةِ الأمر، فلعلَّ بعضَ قبائلِ العرب مِن المشركين يَتعجَّب مِن هذه البراءةِ، ويَسأل عن سببِها، وكيف أُنهيت العهودُ، وأُعلِنت الحرب، فكان المقامُ مقامَ بيانِ سببِ ذلك، وأنَّه أمران: بُعْدُ ما بَيْنَ العقائدِ، وسبقُ الغَدْرِ[3].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٢٩).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢١).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ شروعٌ في تحقيقِ حقيَّةِ ما سبَق مِن البراءةِ، وأحكامِها المتفرِّعة عليها، وتبيينِ الحِكْمةِ الداعية إلىٰ ذلك(١).

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا أنكَر سبحانه أن يكونَ للمشركين غيرِ المستثنَيْنَ عَهْدٌ، بيَّن السَّببَ الموجِبَ للإنكارِ مكرِّرًا أداةَ الإنكار تأكيدًا للمعنىٰ، فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢).

﴿كَيْفَ﴾ هذه مؤكدةٌ لـ ﴿كَيْفَ﴾ التي في الآيةِ قبلها، فهي معترضةٌ بَيْنَ الجملتينِ، وجملةُ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ إلخ يجوز أن تكونَ جملةً حاليَّةً، والواوُ للحال، ويجوز أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ إخبارًا عن دخائلِهم، وفي إعادةِ الاستفهام إشعارٌ بأنَّ جملةَ الحالِ لها مزيدُ تعلُّقٍ بتوجُّه الإنكارِ علىٰ دوامِ العهد للمشركين، حتَّىٰ كأنَّها مستقلَّةٌ بالإنكار، لا مجرَّدُ قيدٍ للأمر الذي توجَّهَ إليه الإنكارُ ابتداءً؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لذلك، وإلىٰ إنكارِ دوامه بالخصوصِ في هذه الحالةِ، وهي حالةُ ما يُبطِنونه مِن نيَّةِ الغَدْرِ إن ظهَروا علىٰ المسلمين، ممَّا قامت عليه القرائنُ والأمارات(٣).

﴿كَيْفَ﴾ تكريرٌ لاستنكارِ ما مَرَّ مِن أن يكونَ للمشركين عهدٌ حقيقٌ بالمراعاة عند الله سبحانه، وعند رسولِه ﷺ، وأمَّا ما قيل مِن أنَّه لاستبعادِ ثَباتِهم علىٰ العهدِ،

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٤).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٣).

فكما ترىٰ؛ لأنَّ ما يُذكَر بصددِ التَّعليل للاستبعادِ عينُ عدمِ ثَباتِهم علىٰ العهدِ، لا أنَّه شيءٌ يستدعيه، وإنَّما أعيدَ الاستنكارُ والاستبعاد تأكيدًا لهما، وتمهيدًا لتَعْدادِ العِلل الموجِبة لهما؛ لإخلال تخلل ما في البَيْن مِن الارتباط والتَّقريب، وحُذف الفعل المستنكر للإيذان بأنَّ النَّفسَ مستحضِرةٌ له، مترقِّبةٌ لورودِ ما يُوجِب استنكارَه، لا لمجرَّدِ كونِه معلومًا(١).

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ ﴾

ولمَّا دام ما ترىٰ مِن كشفِ سرائرهم، شرَع سبحانه يُقِيمُ لهم الدَّليلَ علىٰ فِسْقِهم وخيانتهم بتذكيرِهم ما بدا مِن بعضهم مِن النَّقض بعد أن أثبَتَ فيما مضىٰ أنَّهم شرعٌ واحدٌ، بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وفيما يأتي أنَّهم بعضهم مِن بعض، فقال معبِّرًا بما يفيد أنَّهم تمكَّنوا مِن ضدِّ الإيمان تمكُّنًا صار به كأنَّه في حَوْزتِهم: ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾(٢).

موقعُ هذه الجملةِ موقعُ الاستئناف الابتدائيِّ، المُشعِرِ استئنافُه بعجيبِ حالهم في صدِّ استقلاله بالأخبار، وهذه الآيةُ وصَف القرآنُ فيها المشركين بمثلِ ما وصَف به أهلَ الكتاب في سورةِ «البقرة»: مِن الاشتراءِ بآيات الله ثمنًا قليلًا، ثم لم يوصَفوا بمثلِ هذا في آيةٍ أخرىٰ نزَلتْ بعدها؛ لأنَّ نزولَها كان في آخرِ عهدِ المشركين بالشرك؛ إذ لم تطُلْ مدَّةٌ حتىٰ دخَلوا في دِينِ الله أفواجًا، سنةَ الوفودِ وما بعدها(٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٦).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٥).

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ بعَراقتِهم في الفسقِ، دلَّ عليه بأنَّ خيانتَهم ليست خاصَّةً بالمخاطَبين، بل عامَّةٌ لكلِّ مَن اتصَف بصفتِهم مِن الإيمان؛ فمدارُ خيانتهم على الوصفِ، فقال: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾[(١)].

يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ بدلَ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾؛ لأنَّ انتفاءَ مراعاةِ الإلِّ والذِّمة مع المؤمنين ممَّا يشتمِلُ عليه سُوءُ عملِهم، ويجوز أن تكونَ استئنافًا ابتُدئ به للاهتمامِ بمضمون الجملة، وقد أفادت معنًىٰ أعَمَّ وأوسع ممَّا أفاده قولُه: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾؛ لأنَّ إطلاقَ الحُكْمِ عن التقييد بشرطِ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ يفيد أنَّ عدمَ مراعاتِهم حَقَّ الحِلْفِ والعهدِ خُلُقٌ متأصِّل فيهم، سواءٌ كانوا أقوياءَ أم مستضعَفِين، وإنَّ ذلك لِسُوءِ طويَّتِهم للمؤمنين لأجلِ إيمانهم[(٢)].

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن ما أوجَب بُعْدَهم منهم ومعاداتَهم لهم، بيَّن ما يَصِيرون به أهلًا، فقال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)].

تفريعُ حُكْمٍ علىٰ حُكْمٍ لتعقيبِ الشِّدَّةِ باللِّين إن هم أقلَعوا عن عداوةِ المسلمين؛ بأن دخَلوا في الإسلام لقصدِ مَحْوِ أثرِ الحَنَقِ عليهم إذا هم أسلَموا أعقَبَ به جملةَ

(١) نظم الدرر (٨/ ٣٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٦).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٩٠).

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾؛ تنبيهًا لهم علىٰ أنَّ تدارُكَهم أمرَهم هيِّنٌ عليهم، وفرَّع علىٰ التوبةِ أنَّهم يَصِيرون إخوانًا للمؤمنين. ولمَّا كان المقامُ هنا لذِكْرِ عداوتِهم مع المؤمنين جُعِلتْ توبتُهم سببًا للأخوَّةِ مع المؤمنين، بخلافِ مقامِ قوله قبله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾؛ حيث إنَّ المعقَّبَ بالتوبةِ هنالك هو الأمرُ بقتالِهم والترصُّدِ لهم، فناسَب أن يُفرَّعَ علىٰ توبتِهم عدمُ التَّعرض لهم بسُوءٍ، وقد حصَل مِن مجموع الآيتينِ أنَّ توبتَهم توجِبُ أمْنَهم وأخوَّتَهم(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن حالَ مَن لا يرقُبُ في اللهِ إلًّا ولا ذِمَّةً، وينقُضُ العهدَ وينطوي علىٰ النفاق ويَتعدَّىٰ ما حُدَّ له، بيَّن مِن بعدُ أنَّهم إن أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ كيف حُكْمُهم، فجمَع ذلك الشيءَ بقولِه: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، وهو يفيدُ جملةَ أحكامِ الإيمان، ولو شُرِح لطال(٢).

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا بيَّن السَّببَ الموجِبَ لمجازاتهم بجنسِ عملهم، وهو البراءةُ منهم، وما يَتبَعُ ذلك، إلىٰ أن ختَم بتقديرِ توبتهم؛ رجَع إلىٰ قسيمِ قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ﴾، فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٣٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٩١).

لمَّا استوفى البيانَ لأصنافِ المشركين الذين أمَر اللهُ بالبراءةِ مِن عهدهم بقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وإنَّما كان ذلك لإبطانِهم الغَدْرَ، والذين أمَر بإتمامِ عهدهم إلى مدَّتِهم ما استقاموا على العهدِ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ الآياتِ، والذين يستجيبون؛ عطَف على أولئك بيانَ الذين يُعلِنون بنكْثِ العهد، ويُعلِنون بما يُسخِطُ المسلمين مِن قولهم، وهذا حالٌ مضادٌّ لحالِ قوله: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾(١).

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

ولمَّا نفى أيمانَهم بنَفْيِ إيمانهم، شرَع يُقيمُ الدَّليلَ على ذلك بأمورٍ ارتكَبوها، كلٌّ منها بسببٍ باعثٍ على الإقدامِ عليهم، ويحُثُّ على قتالِهم في صورةِ تعجيبٍ ممَّن يَتوانى فيه، فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾(٢).

تحذيرٌ مِن التواني في قتالِهم عدا ما استُثني منهم بعد الأمرِ بقتلِهم، وأَسْرِهم، وحصارهم، وسَدِّ مسالكِ النَّجْدةِ في وجوههم، وبعد أن أُثبِتتْ لهم ثمانيةُ خلالٍ تُغري بعدمِ الهوادةِ في قتالهم، فكانت جملةُ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ تحذيرًا مِن التَّراخي في مبادرتِهم بالقتال(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٩).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٣٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٣١).

لمَّا أمَر تعالىٰ بقتلِ أهل الكفر، أتبَع ذلك بالسَّببِ الذي يَبعَثُ علىٰ مقاتَلتِهم؛ وهو ثلاثةُ أشياءَ جمَعوها، وكلٌّ واحدٍ منها علىٰ انفرادِه كافٍ في الحضِّ علىٰ مقاتَلتِهم[1].

ثم حَضَّ علىٰ قتالِهم بتهييجِ قلوب المؤمنين وإغرائهم بقولِه سبحانه: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[2].

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾

ولمَّا بكَّت في التَّواني عنهم، وعَدهم بما يزيلُ خَشيتَهم منهم؛ بل يوجِبُ إقدامَهم عليهم، ورَغْبتَهم فيهم، فقال مصرِّحًا بما تضمَّنه الاستفهامُ الإنكاريُّ في ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ ﴾ مِن الأمرِ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾[3].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للعَوْدِ مِن غرضِ التَّحذير إلىٰ صريحِ الأمر بقتالهم الذي في قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾، وشأنُ مِثْلِ هذا العودِ في الكلام أن يكونَ باستئنافٍ؛ كما وقَع هنا[4].

قرَّرتِ الآياتُ قبل هذا أفعالَ الكفَرةِ المقتضيةَ لقتالهم، والحَضَّ علىٰ القتالِ، وجزم الأمر بالقتالِ في هذه، وتعذيبُهم بأيدي المؤمنين هو في الدُّنيا بالقتلِ والأَسْرِ والنَّهب؛ وهذه وعودٌ ثبَّتتْ قلوبَهم، وصحَّحتْ نيَّاتِهم[5].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٨١).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣٥٩).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٩٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ١٣٥).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٣٨٢).

لمَّا قال في الآية الأُولىٰ: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا ﴾، ذكَر عَقِيبه سبعةَ أشياءَ، كلُّ واحدٍ منها يوجِبُ إقدامَهم علىٰ القتال، ثم إنَّه تعالىٰ في هذه الآيةِ أعاد الأمرَ بالقتال، وذكَر في ذلك القتالِ خمسةَ أنواع مِن الفوائد، كلُّ واحدٍ منها يعظُمُ مَوقِعُه إذا انفرَد؛ فكيف بها إذا اجتمَعتْ؟![1].

ثم عزَم تعالىٰ علىٰ المؤمنين الأمرَ بالقتالِ لحِكْمتِه بقولِه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

﴿قَٰتِلُوهُمْ ﴾ تجريدٌ للأمرِ بالقتال بعد التوبيخ علىٰ تَرْكِه، ووعدٌ بنَصْرِهم، وبتعذيبِ أعدائهم وإخزائهم، وتشجيعٌ لهم[3].

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان الشِّفاءُ قد لا يراد به الكمالُ، أتبَعه تحقيقًا لكمالِه قولَه: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[4].

عطفُ فعلِ ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ علىٰ فعلِ ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يُؤذِنُ باختلافِ المعطوفِ والمعطوف عليه، ويكفي في الاختلافِ بينهما اختلافُ المفهومينِ والحالينِ، فيكونُ ذَهابُ غيظِ القلوب مساويًا لشفاءِ الصُّدور، فيحصُلُ تأكيدُ الجملةِ الأُولىٰ بالجملة الثانية، مع بيانِ متعلَّق الشفاء، ويجوز أن يكونَ الاختلافُ بالـمَاصَدَق[5] مع اختلاف المفهوم، فيكونَ المرادُ بشفاء الصدور ما يحصُلُ مِن المَسرَّةِ والانشراح بالنَّصْرِ، والمرادُ بذَهابِ الغيظ استراحتَهم مِن تَعَبِ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٥).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣٦٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٣٩٧).

(٥) مصطلح في علم المنطق؛ معناه: ما يصدق عليه المفهوم الكلي من الأفراد.

الغيظ، وتحرُّقِ الحقد. وضميرُ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فهُمْ موعودون بالأمرينِ: شفاءِ صدورهم مِن عدوِّهم، وذَهابِ غيظِ قلوبهم علىٰ نكْثِ الذين نكَثوا عَهْدَهم(١).

ثم ذكَر ما تسبَّب أيضًا عن النَّصْرِ مِن شفاءِ صدور المؤمنين وإذهابِ غيظِهم تتميمًا للنِّعم، فذكَر ما تسبَّب عن النَّصْرِ بالنسبة للكفار، وذكَر ما تسبَّب للمسلمين مِن الفرحِ والسُّرور بإدراكِ الثأر، ولم يذكُرْ ما نالوه مِن المغانمِ والمطاعم؛ إذ العرَبُ قومٌ جُبِلوا علىٰ الحميَّةِ والأنَفة، فرَغْبتُهم في إدراكِ الثأر وقتلِ الأعداء هي اللائقةُ بطباعِهم(٢).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ - لِما أرشَد إليه تقاعدُهم عن القتالِ، وإدخالُ ﴿أَمْ﴾ المرشِدُ إلىٰ أنَّ مدخولَه وسطُ الكلامِ؛ فإنَّ الابتداءَ له الألِفُ وَحْدَها -: وهل حَسِبْتم أنَّه تعالىٰ لا يَعلَمُ ذلك، أو لا يَقدِرُ علىٰ نصرِكم؟ بنىٰ عليه قولَه موبِّخًا لِمَن تثاقَل عن ذلك بنوعِ تثاقُلٍ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾(٣).

﴿أَمْ﴾ منقطِعةٌ لإفادةِ الإضراب عن غرضٍ مِن الكلام للانتقالِ إلىٰ غرضٍ آخرَ، والكلامُ بعد ﴿أَمْ﴾ المنقطِعةِ له حُكْمُ الاستفهام دائمًا؛ فقوله: ﴿حَسِبْتُمْ﴾ في قوَّةِ «أحَسِبْتم»، والاستفهامُ المقدَّر إنكاريٌّ، والخطابُ للمسلمين، علىٰ تفاوُتِ مراتبِهم في مدَّةِ إسلامِهم، فشَمِل المنافِقين؛ لأنَّهم أظهَروا الإسلامَ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٣٦).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٨٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٣٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ١٣٧).

اعلَمْ أنَّ الآياتِ المتقدِّمةَ كانت مرغِّبةً في الجهاد، والمقصودُ مِن هذه الآيةِ مزيدُ بيانٍ في الترغيب[(١)].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خطابٌ لِمَن شقَّ عليه القتالُ مِن المؤمنين أو المنافقين، و﴿ أَمْ ﴾ منقطِعةٌ، جيء بها للانتقالِ عن أمرِهم بالقتال إلىٰ توبيخِهم، أو مِن التوبيخِ السابق إلىٰ توبيخٍ آخرَ[(٢)].

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا حذَّرهم مِن اتخاذِ وليجةٍ مِن دُونه، شرَع يبيِّنُ أنَّ الوليجةَ التي يتَّخذها بعضُهم لا تصلح للعاطفةِ بما اتصَفتْ به مِن محاسنِ الأعمال، ما لم توضَعْ تلك المحاسنُ علىٰ الأساس الذي هو الإيمانُ المبيَّنُ بدلائلِه، فقال سائقًا له مساقَ جوابِ قائلٍ قال: إنَّ فيهم مِن أفعالِ الخير ما يدعو إلىٰ الكفِّ عنهم مِن عمارةِ المسجد الحرام وخِدْمتِه وتعظيمِه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾[(٣)].

هذا ابتداءُ غرضٍ مِن أغراض معاملة المشركين؛ وهو منعُ المشركين مِن دخولِ المسجد الحرام في العامِ القابل، وهو مرتبِطٌ بما تضمَّنتْهُ البراءةُ في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، ولِما اتصَل بتلك الآيةِ مِن بيان النبيِّ ﷺ الذي أرسَل به مع أبي بكرٍ الصِّدِّيق: «أنْ لا يحُجَّ بعد العامِ مشركٌ، ولا يطُوفَ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٧).

(٢) روح المعاني (٥/ ٢٥٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٠٠).

بالبيتِ عُرْيانٌ»[١]، وهو توطئةٌ لقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨][٢].

لمَّا ذكَر البراءةَ مِن المشركين، وأنواعًا مِن قبائحِهم توجب البراءةَ منهم؛ ذكَر أنَّهم موصوفون بصفاتٍ حميدة توجب انتفاءَ البراءةِ؛ منها: كونُهم عامِري المسجدِ الحرام[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بدأ السُّورةَ بذِكْرِ البراءةِ عن الكفار، وبالَغ في إيجابِ ذلك، وذكَر مِن أنواعِ فضائحِهم وقبائحهم ما يوجب تلك البراءةَ، ثم إنَّه تعالىٰ حكىٰ عنهم شُبَهًا احتَجُّوا بها في أنَّ هذه البراءةَ غيرُ جائزة، وأنَّه يجب أن تكونَ المخالطةُ والمناصَرة حاصلةً؛ فأولُها ما ذكَره في هذه الآيةِ؛ وذلك أنَّهم موصوفون بصفاتٍ حميدة، وخصالٍ مَرْضية، وهي توجِبُ مخالَطتَهم ومعاونتهم ومناصرتهم؛ ومِن جملةِ تلك الصفاتِ: كونُهم عامرين للمسجدِ الحرام[٤].

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم أهليَّةَ العِمارةِ، بيَّن مَن يصلُحُ لها، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٣٩).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٨٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٨).
(٥) نظم الدرر (٨/ ٤٠١).

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الاستئنافُ البيانيُّ؛ لأنَّ جملةَ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لمَّا اقتضت إقصاءَ المشركين عن العبادةِ في المساجد، كانت بحيث تثيرُ سؤالًا في نفوسِ السامعين أن يَتطلَّبوا مَن هم الأحقَّاءُ بأن يعمُروا المساجدَ، فكانت هذه الجملةُ مفيدةً جوابَ هذا السائلِ(١).

ثم ذكَر مَن هم عُمَّارُ مساجدِ الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾(٢).

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الكافرَ ليس له أن يشتغِلَ بعمارةِ المسجد، بيَّن أنَّ المشتغِلَ بهذا العملِ يجب أن يكونَ موصوفًا بصفاتٍ أربعةٍ(٣).

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه الصالحَ لذلك مِن غيرِه، أنكَر علىٰ مَن لم يفرِّقْ بَيْنَ الصِّنْفَينِ، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٤).

أنَّه لمَّا وقَع الكلامُ علىٰ أنَّ المؤمنين هم الأحِقَّاءُ بعمارةِ المسجد الحرام مِن المشركين، دلَّ ذلك الكلامُ علىٰ أنَّ المسجدَ الحرام لا يَحِقُّ لغيرِ المسلم أن يباشِرَ فيه عملًا مِن الأعمالِ الخاصة به، فكان ذلك مثارَ ظنٍّ بأنَّ القيامَ بشعائرِ المسجد الحرام مساوٍ للقيام بأفضلِ أعمال الإسلام(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤١).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٥/ ٥١٨).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٤١٦).

(٥) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٣).

لمَّا اختلَف بعضُ المسلمين، أو بعضُ المسلمين وبعضُ المشركين، في تفضيلِ عمارةِ المسجد الحرام بالبناءِ والصلاة والعبادةِ فيه وسِقاية الحاجِّ علىٰ الإيمانِ بالله والجهادِ في سبيله؛ أخبَر اللهُ تعالىٰ بالتفاوتِ بينهما، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم المساواةَ مِن غيرِ تصريحٍ بأهلِ الترجيح ليَشتدَّ التَّشوُّفُ إلىٰ التصريحِ فيكونَ أثبَتَ في النفس وأوقَرَ في القلبِ، كان كأنَّه قيل: فمَن الراجحُ؟ فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٢).

هذه الجملةُ مبيِّنةٌ لنَفْيِ الاستواءِ الذي في جملة ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾، ومفصِّلةٌ للجهاد الذي في قوله: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأنَّه الجهادُ بالأموالِ والأنفس، وإدماجٌ لبيانِ مزيَّةِ المهاجِرين مِن المجاهِدين(٣).

زادت هذه الآيةُ وضوحًا في الترجيحِ للمؤمنين المتصِفين بهذه الأوصافِ علىٰ المشركين المفتخِرين بالسِّقايةِ والعمارة، فطهَّروا أنفسَهم مِن دَنَسِ الشركِ بالإيمان، وطهَّروا أبدانَهم بالهجرةِ إلىٰ موطنِ الرسول ﷺ، وتَرْكِ ديارِهم التي نشَؤوا عليها، ثم بالَغوا بالجهادِ في سبيل الله بالمالِ والنفس المُعرَّضَينِ بالجهاد للتَّلَفِ(٤).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٣١).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤١٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٨).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣٨٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر ترجيحَ الإيمانِ والجهاد علىٰ السِّقايةِ وعمارة المسجد الحرام، علىٰ طريقِ الرمز، ثم أتبَعه بذِكْرِ هذا الترجيحِ علىٰ سبيلِ التصريح في هذه الآيةِ، فقال: إنَّ مَن كان موصوفًا بهذه الصفاتِ الأربعةِ كان أعظَمَ درجةً عند اللهِ ممَّن اتصَف بالسِّقاية والعمارة، وتلك الصفاتُ الأربعة هي هذه: فأولُها الإيمانُ، وثانيها الهجرةُ، وثالثها الجهادُ في سبيلِ الله بالمال، ورابعها الجهادُ بالنفس[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ مراتبَ فضلِ المؤمنين، إثر بيانِ عدمِ الاستواء وضَلالِ المشركين وظُلْمِهم، بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[(٢)].

📖 ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١﴾ 📖

ولمَّا بيَّن أنَّ جزاءَ أولئك الخلودُ في النار، بيَّن ما لهؤلاء، فقال مفسِّرًا لفوزِهم: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[(٣)].

بيانٌ للدرجةِ العظيمة التي في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ فتلك الدرجةُ هي عنايةُ الله تعالىٰ بهم بإدخالِ المَسرَّة عليهم، وتحقيقِ فوزهم، وتعريفِهم برِضْوانِه عليهم، ورَحْمتِه بهم، وبما أعَدَّ لهم مِن النعيمِ الدائم، ومجموعُ هذه الأمورِ لم يَمنَحْهُ غيرَهم مِن أهلِ السِّقاية والعِمارة، الذين وإن صلَحوا لأن يَنالوا بعضَ هذه المزايا، فهم لم يَنالوا جميعَها[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٣).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣٦٥).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤١٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٩).

ثم فسَّر الفوزَ بقولِه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

ثم صرَّح بخلودِهم فيها بلفظِ الخلود ليكونَ أقرَّ للنَّفسِ، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا فرَغ مِن العاطفةِ بمحاسنِ الأعمال، شرَع في العاطفةِ بالأنساب والأموال، وقدَّم الأولَ إشارةً إلى أنَّ المجانَسةَ في الأفعالِ مقدَّمةٌ على جميعِ الأحوال، ولمَّا كان محَطُّ الموالاةِ المناصَرةَ، وكانت النُّصْرةُ بالآباء والإخوان أعظَمَ مِن النُّصْرةِ بغيرهم؛ لأنَّ مرجعَها إلى كثرةِ الأعوان والأخدان؛ اقتصَر عليها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لافتتاحِ غرضٍ آخَرَ؛ وهو تقريعُ المنافقين ومَن يواليهم؛ فإنَّه لمَّا كان أولُ السُّورةِ في تخطيطِ طريقةِ معاملة المُظهِرين للكفر، لا جرَمَ تهيَّأ المقام لمِثْلِ ذلك بالنسبة إلى مَن أبطَنوا الكفرَ وأظهَروا الإيمان: المنافقين مِن أهل المدينة ومِن بقايا

(١) فتح القدير (٢/ ٣٩٣).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٤١٩).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٢٠).

قبائلِ العرب ممَّن عُرِفوا بذلك، أو لم يُعرَفوا وأطلَعَ اللهُ عليهم نبيَّه ﷺ، وحذَّر المؤمنين المطَّلِعين عليهم مِن بطانتِهم وذَوِي قرابتِهم ومخالطتِهم، وأكثرُ ما كان ذلك في أهلِ المدينة؛ لأنَّهم الذين كان معظمُهم مؤمنين خُلَّصًا، وكانت مِن بينهم بقيَّةٌ مِن المنافقين، وهم مِن ذَوِي قرابتهم؛ ولذلك افتُتح الخطابُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إشعارًا بأنَّ ما سيُلقَىٰ إليهم مِن الوصايا هو مِن مقتضياتِ الإيمان وشِعارِه[1].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ هذه الآيةِ أن يكونَ جوابًا عن شُبْهةٍ أخرىٰ ذكَروها في أنَّ البراءةَ مِن الكفار غيرُ ممكنةٍ، وتلك الشُّبهةُ أن قالوا: إنَّ الرجُلَ المسلم قد يكون أبوه كافرًا، والرجُلَ الكافر قد يكون أبوه أو أخوه مسلمًا، وحصولُ المقاطعةِ التامة بَيْنَ الرجُلِ وأبيه وأخيه كالمتعذِّرِ الممتنِع، وإذا كان الأمر كذلك، كانت تلك البراءةُ التي أمَر اللهُ بها كالشاقِّ الممتنِع المتعذِّر؛ فذكَر اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ ليُزِيلَ هذه الشُّبْهةَ[2].

﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كانت الأنفسُ مختلِفةَ الهِمَم، متباينةَ السَّجايا والشِّيم؛ كان هذا غيرَ كافٍ في التَّهديد لكلِّها، فأتبَعه تهديدًا أشَدَّ منه بالنسبة إلىٰ تلك النُّفوسِ، فقال منتقِلًا مِن أسلوبِ الإقبال إلىٰ مقامِ الإعراض المؤذِنِ بزواجرِ الغضبِ: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٩-١٥٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦-١٧).

كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[١].

ارتقاءٌ في التَّحذيرِ مِن العلائق التي قد تفضي إلىٰ التَّقصيرِ في القيام بواجباتِ الإسلام؛ فلذلك جاءت زيادةُ تفصيلِ الأصناف مِن ذوي القرابةِ، وأسبابِ المخالَطة التي تكون بَيْنَ المؤمنين وبين الكافرين، ومِن الأسباب التي تتعلَّق بها نفوسُ النَّاس، فيحُولُ تعلُّقُهم بها بينهم وبين الوفاء ببعضِ حقوقِ الإسلام؛ فلذلك ذُكِر الأبناءُ هنا؛ لأنَّ التَّعلُّقَ بهم أقوىٰ مِن التَّعلُّقِ بالإخوان، وذُكِر غيرُهم مِن قريبِ القرابة أيضًا[٢].

هذه الآيةُ تقتضي الحضَّ علىٰ الهجرةِ، وذكَر الأبناءَ لأنَّه ذكَر المحبَّةَ، وهم أعلَقُ بالنفس، بخلافِ الآية قبلها فلم يُذكَروا؛ لأنَّ المقصودَ منها الرأيُ والمشورة، وقدَّم الآباءَ لأنَّهم الذي يجب بِرُّهم وإكرامُهم وحبُّهم، وثَنَّىٰ بالأبناءِ لكونِهم أعلَقَ بالقلوب[٣].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ هي تقريرُ الجواب الذي ذكَره في الآية الأُولىٰ؛ وذلك لأنَّ جماعةً مِن المؤمنين قالوا: يا رسولَ الله، كيف يمكن البراءةُ منهم بالكليَّة؟ وإنَّ هذه البراءةَ توجِبُ انقطاعَنا عن آبائنا وإخوانِنا وعشيرتنا، وذَهابَ تجارتِنا، وهلاكَ أموالنا، وخرابَ ديارنا، وإبقاءنا ضائعين؛ فبيَّن تعالىٰ أنَّه يجب تحمُّلُ جميعِ هذه المَضارِّ الدُّنيوية ليَبقَىٰ الدِّينُ سليمًا، وذكَر أنَّه إن كانت رعايةُ هذه المصالحِ الدُّنيوية عندكم أَوْلىٰ مِن طاعةِ الله وطاعة رسوله ومِن المجاهَدةِ في سبيل الله، فتربَّصوا بما تُحِبُّون حتىٰ يأتيَ اللهُ بأمرِه؛ أي: بعقوبةٍ عاجلة أو آجلة، والمقصودُ منه الوعيد[٤].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٢).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٩١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ مقتضىٰ الإيمانِ تركُ الميلِ الطبيعي إذا كان مانعًا مِن محبَّةِ الله، ومحبَّةِ واسطةِ الوصول إليه، ومحبَّةِ ما يُعلِي دِينَه، بقولِه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾(١).

﴿ قُلْ ﴾ تلوينٌ للخطاب، وأمرٌ له ﷺ بأن يثبِّتَ المؤمنين، ويقوِّيَ عزائمَهم علىٰ الانتهاءِ عمَّا نُهُوا عنه مِن موالاةِ الآباءِ والإخوان، ويزهِّدَهم فيهم، وفيمَن يَجري مَجراهم مِن الأبناءِ والأزواج، ويَقطَعَ علائقَهم عن زخارفِ الدُّنيا وزينتِها علىٰ وجهِ التوبيخِ والترهيب(٢).

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان في بعضِ النُّفوس مِن الغرور بالكثرة ما يُكسِبُها سَكْرةً تُغفِلُها عن بعضِ مواقعِ القدرة، ساقَ قصَّةَ حُنَينٍ دليلًا علىٰ ذلك الذي أبهمه مِن التَّهديد جوابًا لسائلٍ كان كأنَّه قال: ما ذاك الأمرُ الذي يُتربَّص لإتيانِه، ويُخشىٰ مِن عظيمِ شانِه؟ فقيل: الذلُّ والهوان والافتقارُ والانكسار، فكأنَّه قيل: وكيف يكون ذلك؟ فقيل: بأن يُسلِّطَ القديرُ عليكم -وإن كنتم كثيرًا- أقوياءَ غيرَكم -وإن كانوا قليلًا ضعفاءَ- كما سلَّطكم -وقد كنتم كذلك- حتىٰ صِرْتم إلىٰ ما صِرْتم إليه: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٣٦٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٥٤).

ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾[(١)].

لمَّا تضمَّنتِ الآياتُ السَّابقة الحثَّ علىٰ قتالِ المشركين ابتداءً مِن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، وكان التمهيدُ للإقدام علىٰ ذلك مُدرَّجًا بإبطالِ حُرْمةِ عهدِهم -لشركِهم-، وبإظهارِ أنَّهم مضمِرون العزمَ علىٰ الابتداءِ بنقضِ العهود التي بينهم وبين المسلمين لو قُدِّر لهم النَّصْرُ علىٰ المسلمين؛ وآيةُ ذلك: اعتداؤُهم علىٰ خُزاعةَ أحلافِ المسلمين، وهَمُّهم بإخراجِ الرسول ﷺ مِن مكَّةَ بعد الفتحِ، حتىٰ إذا انتهىٰ ذلك التمهيدُ المدرَّجُ إلىٰ الحثِّ علىٰ قتالهم وضمانِ نَصْرِ اللهِ المسلمين عليهم، وما اتصَل بذلك ممَّا يُثِيرُ حماسةَ المسلمين؛ جاء في هذه الآيةِ بشواهدِ ما سبَق مِن نصرِ اللهِ المسلمين في مواطنَ كثيرة، وتذكيرٍ بمقارنةِ التأييد الإلهيِّ لحالةِ الامتثال لأوامره، وأنَّ في غزوةِ حُنَينٍ شواهدَ تَشهَدُ للحالينِ؛ فالكلامُ استئنافٌ ابتدائي لمناسبةِ الغرض السابق[(٢)].

لمَّا تقدَّم قولُه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، واستطرَد بعد ذلك بما استطرَد؛ ذكَّرهم تعالىٰ نَصْرَه إيَّاهم في مواطنَ كثيرةٍ، والمواطنُ مقاماتُ الحربِ ومواقِفُها[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة أنَّه يجب الإعراضُ عن مخالَطةِ الآباءِ والأبناء والإخوان والعشائر، وعن الأموالِ والتجارات والمساكن؛ رعايةً لمصالحِ الدِّين، ولمَّا عَلِم اللهُ تعالىٰ أنَّ هذا يشُقُّ جدًّا علىٰ النفوسِ والقلوب، ذكَر ما يدلُّ علىٰ أنَّ مَن ترَك الدُّنيا لأجلِ الدِّين، فإنَّه يوصلُه إلىٰ مطلوبه مِن الدُّنيا أيضًا، وضرَب تعالىٰ لهذا

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٤).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٩٢).

مثلًا؛ وذلك أنَّ عسكرَ رسولِ الله ﷺ في واقعةِ حُنَينٍ كانوا في غايةِ الكثرة والقوَّة، فلمَّا أُعجِبوا بكثرتِهم صاروا منهزِمين، ثم في حالِ الانهزام لمَّا تضرَّعوا إلىٰ اللهِ قوَّاهم حتىٰ هزَموا عسكرَ الكفارِ؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ الإنسانَ متىٰ اعتمَد علىٰ الدُّنيا فاتَهُ الدِّينُ والدُّنيا، ومتىٰ أطاع اللهَ ورجَّح الدِّينَ علىٰ الدُّنيا آتاه اللهُ الدِّينَ والدُّنيا علىٰ أحسَنِ الوجوه، فكان ذِكْرُ هذا تسليةً لأولئك الذين أمَرهم اللهُ بمقاطَعةِ الآباءِ والأبناء والأموالِ والمساكن لأجلِ مصلحة الدِّين، وتصبيرًا لهم عليها، ووعدًا لهم -علىٰ سبيلِ الرمز- بأنَّهم إن فعَلوا ذلك، فاللهُ تعالىٰ يوصلُهم إلىٰ أقاربِهم وأموالهم ومساكنِهم علىٰ أحسَنِ الوجوه؛ هذا تقريرُ النَّظم، وهو في غايةِ الحُسن[(١)].

لمَّا حرَّم اللهُ علىٰ المؤمنين موالاةَ الكافرين، ولو كانوا أقرباءَهم، وحذَّرهم مِن القعودِ عن الهجرة والجهاد، وكان الغالبُ فيمَن يقعُدُ عن ذلك إنَّما كان لجُبْنِه وخوفِه؛ أخبرَهم تعالىٰ في هذه الآياتِ الثلاثِ أنَّه ناصرُهم ومؤيِّدهم، فلا يقعُدُ بهم الجُبْنُ والخوف عن أداءِ الواجب مِن الهجرةِ والجهاد، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[(٢)].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ دالَّةٌ علىٰ التراخي الرُّتبي؛ فإنَّ نزولَ السَّكينةِ ونزولَ الملائكة أعظَمُ مِن النَّصرِ الأول يوم حُنَينٍ، علىٰ أنَّ التراخيَ الزَّمني مرادٌ؛ تنزيلًا لعِظَمِ الشِّدَّة وهولِ المصيبة منزلةَ طُولِ مدَّتها؛ فإنَّ أزمانَ الشِّدة تُخيَّل طويلةً وإن قصُرتْ[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٨).
(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٣٥٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الكثرةَ لا تنفعُ، وأنَّ الذي أوجَب النَّصْرَ ما كان إلا مِن اللهِ؛ ذكَر أمورًا ثلاثةً، فقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

ثم ذكَر أسبابَ النَّصْرِ، فقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ العذابَ جزاءُ الكافرين، بيَّن أنَّه يتوبُ علىٰ مَن يريد منهم، وهم كلُّ مَن عَلِم منه قابليةً للإيمان، وإن كان شديدًا في وصفِ الكفرانِ، فقال عاطفًا علىٰ ﴿وَعَذَّبَ ﴾: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرُّتبي، عطف علىٰ جملةِ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾؛ وهذا إشارةٌ إلىٰ إسلامِ هَوازِنَ بعد تلك الهزيمةِ[3].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم في الأمرِ والنَّواهي وبيانِ الحِكَمِ المرغِّبة والمرهِّبة ما لم يُبقِ لِمَن عنده أدنىٰ تمسُّكٍ بالدِّين شيئًا مِن الالتفات إلىٰ المفسِدين، بيَّن أنَّ العلَّةَ في

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٩).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٢٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٨).

مدافعتِهم وشديدِ مقاطعتهم أنَّهـم نَجَسٌ، وأنَّ المواضعَ - التي ظهَرتْ فيها أنوارُ عظَمتِه وجلالته، وأشرقت عليها شموسُ نبوَّتِه ورسالته، ولمَعتْ فيها بروقُ كِبْرِه، وجالت صوارمُ نَهْيِه وأمره - مواضعُ القدس، ومواطنُ الأنس، مَن دنَا إليها مِن غيرِ أهلها احترَق بنارها، وبهَرتْ بصَرَه أشعَّةُ أنوارها، فقال مُستخلِصًا ممَّا تقدَّم ومُستنتِجًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ للرُّجوع إلىٰ غرضِ إقصاءِ المشركين عن المسجدِ الحرام، المُفادِ بقولِه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ الآيةَ، جيء به لتأكيدِ الأمر بإبعادِهم عن المسجدِ الحرام مع تعليلِه بعلَّةٍ أخرىٰ تقتضي إبعادَهم عنه؛ وهي أنَّهم نَجَسٌ، فقد علَّل فيما مضىٰ بأنَّهم شاهدون علىٰ أنفسِهم بالكفر؛ فليسوا أهلًا لتعميرِ المسجد المبنيِّ للتَّوحيد، وعلَّل هنا بأنَّهم نَجَسٌ؛ فلا يعمُروا المسجدَ لطهارتِه(٢).

اعلَمْ أنَّ هذه هي الشُّبهةُ الثالثة التي وقَعتْ في قلوبِ القوم؛ وذلك لأنَّه ﷺ لمَّا أمَر عليًّا رضي الله عنه أن يقرأَ علىٰ مشركي مكَّةَ أولَ سُورةِ «براءة»، ويَنبِذَ إليهم عَهْدَهم، وأنَّ اللهَ بريءٌ مِن المشركين ورسولُه؛ قال أناسٌ: يا أهلَ مكَّةَ، ستَعلَمون ما تَلقَوْنَه مِن الشِّدة؛ لانقطاعِ السُّبل، وفَقْدِ الحمولاتِ؛ فنزَلتْ هذه الآيةُ لدفعِ هذه الشُّبهة، وأجاب اللهُ تعالىٰ عنها بقولِه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾؛ أي: فقرًا وحاجة، فسوف يُغنِيكم اللهُ مِن فضله؛ فهذا وجهُ النَّظم، وهو حسَنٌ موافِقٌ(٣).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٢١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ موالاةَ المشركين، مع عدمِ إفادتها التَّقويةَ المحصِّلة للنَّصرِ، تضُرُّ بسرَيانِ نجاسةِ بواطنهم إلىٰ بواطنِ المؤمنين الطَّاهرة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[1].

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾

ولـمَّا كان ذلك موضعَ تعجُّبٍ يكون سببًا لأن يقالَ: مِن أين يكونُ ذلك الغنىٰ؟ أجاب بقولِه: ﴿ قَٰتِلُواْ ﴾؛ أي: أهلَ الأموالِ والغنىٰ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ ﴾[2].

الظاهرُ أنَّ هذه الآيةَ استئنافٌ ابتدائيٌّ، لا تَتفرَّع علىٰ التي قبلها؛ فالكلامُ انتقالٌ مِن غرضِ نَبْذِ العهدِ مع المشركين وأحوالِ المعاملة بينهم وبين المسلمين إلىٰ غرضِ المعاملة بَيْنَ المسلمين وأهلِ الكتاب مِن اليهودِ والنصارىٰ؛ إذ كان الفريقانِ مسالِمَينِ المسلمين في أولِ بَدْءِ الإسلام، وكانوا يَحسَبون أنَّ في مدافَعةِ المشركين للمسلمين ما يَكفيهم أمرَ التصدي للطعنِ في الإسلام، وتَلاشي أمرِه، فلمَّا أخَذ الإسلامُ ينتشر في بلادِ العرب يومًا فيومًا، واستقَلَّ أمرُه بالمدينة؛ ابتدأ بعضُ اليهودِ يُظهِرُ إِحَنَهُ نحوَ المسلمين، فنشأ النفاقُ بالمدينة، وظاهَرتْ قُرَيظةُ والنَّضير أهلَ الأحزاب لمَّا غزَوُا المدينةَ، فأذهَبهم اللهُ عنها[3].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٣٧٤).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٣٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٦٢).

اعلَمْ أنَّه لمَّا ذكَر تعالىٰ حُكْمَ المشركين في إظهارِ البراءة مِن عهدِهم، وفي إظهارِ البراءة عنهم في أنفسهم، وفي وجوبِ مقاتَلتِهم، وفي تبعيدِهم عن المسجدِ الحرام، وعدمِ الخوف مِن الفاقةِ المتوهَّمة مِن انقطاعهم؛ ذكَر بعده حُكْمَ أهلِ الكتاب؛ وهو أن يُقاتَلوا إلىٰ أن يُسلِموا أو يُعطُوا الجِزْيةَ، منبِّهًا في تضاعيفِ ذلك علىٰ بعضِ طرق الإغناءِ الموعود علىٰ الوجهِ الكلي، مرشدًا إلىٰ سلوكه ابتغاءً لفضلِه، واستنجازًا لوعدِه[1].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا أمَر بقتالهم، ووصَفهم بما هو السَّببُ الباعث علىٰ ذلك؛ عطَف عليه بعضَ أقوالهم المبيحةِ لقتالهم، الموجِبةِ لنكالهم، فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾؛ والتَّقديرُ: ويقولُ اليهود منهم: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ، ويقول النصارىٰ منهم: المسيحُ ابنُ الله؛ تشنيعًا علىٰ قائليهما مِن أهلِ الكتاب بأنَّهم بلَغوا في الكفرِ غايتَه حتىٰ ساوَوُا المشركين[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكَم في الآيةِ المتقدِّمة علىٰ اليهود والنصارىٰ بأنَّهم لا يؤمنون بالله، شرَح ذلك في هذه الآيةِ؛ وذلك بأنْ نقَل عنهم أنَّهم أثبَتوا لله ابنًا، ومَن جوَّز ذلك في حقِّ الإله فهو في الحقيقةِ قد أنكَر الإله، وأيضًا بيَّن تعالىٰ أنَّهم بمنزلةِ المشركين في الشرك، وإن كانت طُرُقُ القولِ بالشرك مختلِفةً؛ إذ لا فَرْقَ بَيْنَ مَن يعبُدُ الصَّنمَ

(١) محاسن التأويل (٥/ ٣٧٨).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٣٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٦٧).

وبين مَن يعبُدُ المسيحَ وغيرَه؛ لأنَّه لا معنَىٰ للشركِ إلا أن يتَّخِذَ الإنسانُ مع الله معبودًا؛ فإذا حصَل هذا المعنىٰ فقد حصَل الشركُ، بل إنَّا لو تأمَّلْنا لعَلِمْنا أنَّ كُفْرَ عابدِ الوثَنِ أخفُّ مِن كفرِ النصارىٰ؛ لأنَّ عابدَ الوثَنِ لا يقول: إنَّ هذا الوثَنَ خالقُ العالَم وإلهُ العالَم، أمَّا النَّصارىٰ فإنَّهم يُثبِتون الحلولَ والاتحاد، وذلك كفرٌ قبيحٌ جدًّا؛ فثبَت أنَّه لا فَرْقَ بَيْنَ هؤلاء الحُلوليَّةِ وبين سائرِ المشركين[(١)].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ جملةٌ مبتدأةٌ، سِيقتْ لتقريرِ ما مرَّ مِن عدمِ إيمان أهلِ الكتابين بالله سبحانه، وانتظامِهم بذلك في سِلْكِ المشركين[(٢)].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

ثم زادهم جُرْأَةً عليهم بالإشارةِ إلىٰ ضَعْفِ مستنَدِهم حيث كان مخلوقًا مِثْلَهم بقولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[(٣)].

الجملةُ تقريرٌ لمضمونِ جملةِ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾؛ ليُبنَىٰ علىٰ التَّقريرِ زيادةُ التَّشنيع بقولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٢٧-٢٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٥٩).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٤١).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ١٦٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ وصَف اليهودَ والنصارىٰ بضَرْبٍ آخرَ مِن الشركِ بقولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[(١)].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ زيادةُ تقريرٍ لِما سلَف مِن كفرِهم باللهِ تعالىٰ، وفيه وصفُهم بنوعٍ آخرَ مِن الشركِ[(٢)].

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا وهَّىٰ سبحانه أمرَهم مِن جهةِ استنادهم، زاد توهيةً مِن جهةِ مرادهم بالإعلام بأنَّهم بقتالِهم لأهلِ الطَّاعة إنَّما يقاتِلون اللهَ، وأنَّه لا يُنفِذُ غرَضَهم، بل يريدُ غيرَ ما يريدون، ومِن المقرَّر أنَّه لا يكونُ إلا ما يريد، فقال مستأنِفًا أو معلِّلًا لِما مضىٰ مِن أقوالهم وأفعالهم: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾[(٣)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لزيادةِ إثارة غيظِ المسلمين علىٰ أهل الكتاب؛ بكشفِ ما يُضمِرونه للإسلام مِن الممالأة[(٤)]، والتَّألُّبِ علىٰ مناواةِ الدِّين، حين تحقَّقوا أنَّه في انتشارٍ وظهور، فثار حسَدُهم، وخَشُوا ظهورَ فضلِه علىٰ دِينِهم؛ فالضميرُ في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٠).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣٩٣).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٤٣).

(٤) أي: الاجتماع والتعاون.

(٥) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧١).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ منه بيانُ نوعٍ ثالثٍ مِن الأفعالِ القبيحة الصادرةِ عن رؤساءِ اليهود والنصارىٰ؛ وهو سعيُهم في إبطالِ أمرِ محمَّدٍ ﷺ، وجِدُّهم في إخفاءِ الدَّلائل الدَّالة علىٰ صحَّةِ شرعِه، وقوَّة دِينِه(١).

فلمَّا تبيَّن أنَّه لا حجَّةَ لهم علىٰ ما قالوه، ولا برهانَ لِما أصَّلوه، وإنَّما هو مجرَّدُ قولٍ قالوه، وافتراءٍ افترَوْهُ؛ أخبَر أنَّهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا أخبَر أنَّه مُعْلٍ لقولِه ومكمِّل، ومُبطِلٌ لقولهم مُسفِّل؛ علَّل ذلك بما حاصلُه أنَّه شأنُ الملوك؛ وهو أنَّهم إذا برَز لهم أمرُ شيءٍ، لم يَرضَوْا أن يرُدَّه أحدٌ؛ فإنَّ ذلك رُوحُ المُلْكِ الذي لا يُجازىٰ الطاعنُ فيه إلا بالهُلْكِ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(٣).

بيانٌ لجملةِ ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بأنَّه أرسَل رسولَه بهذا الدِّين، فلا يريد إزالتَه، ولا يجعلُ تقديرَه باطلًا وعبثًا، وفي هذا البيانِ تنويهٌ بشأنِ الرسول ﷺ بعد التَّنويه بشأنِ الدِّين(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن الأعداءِ أنَّهم يحاوِلون إبطالَ أمرِ محمَّدٍ ﷺ، وبيَّن تعالىٰ أنَّه يأبىٰ ذلك الإبطالَ، وأنَّه يُتِمُّ أمرَه؛ بيَّن كيفيَّةَ ذلك الإتمامِ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٢).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٣٥).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٤٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧٣).
(٥) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٢).

ثم بيَّن تعالىٰ هذا النُّورَ الذي قد تكفَّل بإتمامِه وحفظِه، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾(١).

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا حقَّر أمرَهم بتقسيمِ اعتمادِهم علىٰ رؤسائهم، وحالُهم معروفٌ في أنَّه لا نَفْعَ عندهم ولا ضرَّ، وأعلىٰ أمرَ أهلِ الله باجتماعهم عليه، وهو القادرُ علىٰ كلِّ شيء، وكان الإقبالُ علىٰ الدُّنيا أعظَمَ أمارةٍ علىٰ الخِذْلانِ، ولو أنَّه بحقٍّ، فكيف إذا كان بالباطلِ؟! أقبَلَ سبحانه وعزَّ شأنُه علىٰ أهلِ وُدِّه مستعطِفًا متلطِّفًا مناديًا باسمِ الإيمان الذي بنىٰ أمرَه في أولِ هذا الكتابِ علىٰ الإنفاقِ، لا علىٰ التحصيلِ، ولو كان بحقٍّ، فكيف إذا كان بباطلٍ؟! ويؤتون الزكاةَ، وممَّا رزَقْناهم يُنفِقون، منبِّهًا علىٰ سَفَهِ مَن ترَك مَن لا يَسألُه علىٰ بَذْلِ الهدىٰ والدعوةِ إلىٰ دِينِ الحق أجرًا، وهو سفيرٌ محضٌ، لا يَنطِقُ عن الهوىٰ، ولم يعتقِدْهُ رسولًا، واتخَذ مربوبًا مِثْلَه، وهو يأخذُ مالَه بالباطلِ، وذلك مقتضٍ لتحقيرِهم، لا لمطلَقِ تعظيمِهم، فضلًا عن الرُّتبةِ التي أنزلوهم بها، وأهَّلوهم لها، مع الترفُّع عليهم لقصدِ أكلِ أموالهم بالباطل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لتنبيهِ المسلمين علىٰ نقائصِ أهل الكتاب، تحقيرًا لهم في نفوسِهم، ليكونوا أشدَّاءَ عليهم في معاملتِهم، فبعد أن ذكَر تأليهَ عامَّتِهم لأفاضلَ مِن أحبارِهم

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٣٥).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٤٥).

ورهبانِهم المتقدِّمين -مثل عُزَيرٍ-؛ بيَّن للمسلمين أنَّ كثيرًا مِن الأحبارِ والرُّهبان المتأخِّرين ليسوا علىٰ حالِ كمالٍ، ولا يَستحقون المقامَ الدِّيني الذي يَنتحلونه، والمقصودُ مِن هذا التَّنبيهِ أن يَعلَمَ المسلمون تمالُؤَ الخاصةِ والعامة مِن أهل الكتاب علىٰ الضَّلالِ، وعلىٰ مناواةِ الإسلام، وأنَّ غرَضَهم مِن ذلك حبُّ الخاصةِ الاستيثارَ بالسيادةِ، وحبُّ العامةِ الاستيثارَ بالمزيَّةِ بَيْنَ العربِ[٣].

لمَّا ذكَر أنَّهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ذكَر ما هو كثيرٌ منهم؛ تنقيصًا مِن شأنهم، وتحقيرًا لهم، وأنَّ مِثْلَ هؤلاء لا ينبغي تعظيمُهم، فضلًا عن اتخاذِهم أربابًا؛ لِما اشتمَلوا عليه مِن أكلِ المال بالباطل، وصَدِّهم عن سبيلِ الله[٤].

لمَّا وصَف رؤساءَ اليهودِ والنصارىٰ بالتكبُّر والتجبُّر وادِّعاءِ الرُّبوبية والترفُّع علىٰ الخَلْقِ، وصَفهم في هذه الآيةِ بالطَّمعِ والحرص علىٰ أخذِ أموال الناس؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ المقصودَ مِن إظهارِ تلك الرُّبوبيةِ والتجبُّر والفخرِ أخذُ أموالِ الناس بالباطل[٥].

ثم بيَّن تعالىٰ حالَ الأحبارِ والرُّهبان في إغوائِهم لأراذلِهم، إثر بيانِ سُوءِ حالِ الأتباع في اتخاذِهم لهم أربابًا يُطيعونهم في الأوامرِ والنواهي، واتباعِهم لهم فيما يأتون وما يَذَرُون، بقولِه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾[٦].

---

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧٤).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٤١٠).

(٥) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٤).

(٦) محاسن التأويل (٥/ ٣٩٩).

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ دالًّا دلالةً واضحة علىٰ أنَّ هذا العذابَ يحصُلُ لهم ويقعُ بهم، فنُصِبَ بذلك قولُه: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾(١).

لمَّا كان المقصودُ مِن كسبِ الأموال حصولَ فرحٍ في القلب يظهرُ أثَرُه في الوجوه، وحصولَ شِبَعٍ ينتفخُ بسببِه الجَنْبانِ، ولُبْسَ ثيابٍ فاخرة يَطرَحونها علىٰ ظهورِهم؛ فلمَّا طلَبوا تزيُّنَ هذه الأعضاءِ الثلاثة، لا جرَمَ حصَل الكَيُّ علىٰ الجِباهِ والجُنوبِ والظُّهورِ(٢).

ثم بيَّن نوعَ العذابِ الأليم بقولِه: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم كثيرٌ ممَّا ينبني علىٰ التاريخ: الحجُّ في غيرِ موضعٍ، والأشهُرُ، وإتمامُ عَهْدِ مَن له مدَّةٌ إلىٰ مدَّتِه، والزكاةُ، والجِزْيةُ، وختَم ذلك بالكنزِ الذي لا يُطلَق شرعًا إلا علىٰ ما لم تؤدَّ زكاتُه، وكان مشركو العربِ - الذين تقدَّم الأمرُ بالبراءةِ منهم،

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٤٧).
(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٣٩).
(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٣٦٣).

والتَّأذينِ بهذه الآياتِ يومَ الحجِّ الأكبَرِ فيهم - قد أحدَثوا في الأشهُرِ - بالنَّسيءِ الذي أُمِروا أن ينادوا في الحجِّ بإبطاله - ما غيَّر السِّنينَ عن موضوعِها الذي وضَعها الله عليه، فضاهَوْا به فِعْلَ أهلِ الكتاب بالتَّديُّنِ بتحليلِ أكابرهم وتحريمِهم، كما ضاهىٰ أولئك قولَ أهلِ الشرك في البُنوَّةِ والأبوَّة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لإقامةِ نظام التَّوقيت للأمَّةِ علىٰ الوجهِ الحقِّ الصالح لجميع البشر، والمناسبِ لِما وضَع اللهُ عليه نظامَ العالَمِ الأرضي، وما يتَّصِلُ به مِن نظامِ العوالَم السَّماوية، بوجهٍ مُحكَمٍ لا مدخلَ لتحكُّماتِ الناس فيه، وليوضِّحَ تعيينَ الأشهُرِ الحُرُمِ مِن قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ بعد ما عقَبَ ذلك مِن التَّفاصيل في أحكامِ الأمن والحرب مع فِرَقِ الكفار مِن المشركين وغيرِهم؛ والمقصودُ: ضبطُ الأشهر الحُرُمِ، وإبطالُ ما أدخَله المشركون فيها مِن النَّسيءِ الذي أفسَد أوقاتَها، وأفضىٰ إلىٰ اختلاطِها، وأزالَ حُرْمةَ ما لَهُ حُرْمةٌ منها، وأكسَبَ حُرْمةً لِما لا حُرْمةَ له منها[2].

لمَّا ذكَر أنواعًا مِن قبائحِ أهل الشرك وأهل الكتاب، ذكَر أيضًا نوعًا منه؛ وهو تغييرُ العربِ أحكامَ الله تعالىٰ؛ لأنَّه حكَم في وقتٍ بحُكْمٍ خاص، فإذا غيَّروا ذلك الوقتَ، فقد غيَّروا حُكْمَ اللهِ[3].

اعلَمْ أنَّ هذا شرحُ النوعِ الثالث مِن قبائحِ أعمالِ اليهود والنصارىٰ والمشركين؛ وهو إقدامُهم علىٰ السعيِ في تغييرِهم أحكامَ الله؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ لمَّا حكَم في كلِّ

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٨٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤١٤).

وقتٍ بحُكْمٍ خاص، فإذا غيَّروا تلك الأحكامَ بسببِ النَّسيءِ؛ فحينئذٍ كان ذلك سعيًا منهم في تغييرِ حُكْمِ السَّنةِ بحسَبِ أهوائِهم وآرائهم، فكان ذلك زيادةً في كفرِهم وحَسْرتِهم(١).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ فيما تقدَّم إقدامَ الأحبارِ والرُّهبان علىٰ تغييرِ أحكام الله تعالىٰ إيثارًا لحظوظِهم، أتبعَه بما تجرأ عليه المشركون في نظيرِه مِن تغييرِ الأشهُرِ التي حرَّمها اللهُ تعالىٰ بغيرِها، وهو النَّسيءُ الآتي، وقوفًا مع شهواتِهم أيضًا، فنعىٰ عليهم سعيَهم في تغييرِ حُكْمِ السَّنةِ بحسَبِ أهوائهم وآرائهم ممَّا أوجَب زيادةَ كفرِهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾(٢).

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾

ولمَّا فُهِم مِن هذا إبطالُ النَّسيءِ لأنَّه فعلُ أهلِ الجاهلية، فلا تَقْوَىٰ فيه؛ كان كأنَّه قيل: أفما في النَّسيءِ تَقْوَىٰ؛ فإنَّ سببَه إنَّما هو الخوفُ مِن انتهاكِ حُرْمةِ اللهِ بالقتال في الشهر الذي حرَّمه؟ وذلك أنَّهم كانوا أصحابَ غاراتٍ وحروب، وكانوا يَحترمون الأشهُرَ الحُرُمَ عن القتالِ، حتىٰ لو رأىٰ الإنسانُ قاتِلَ أبيه لا مانِعَ منه، لم يَعرِضْ له،

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٠).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤٠٧).

فكان إذا جاء الشهرُ الحرام وهم محاربون، شَقَّ عليهم تَرْكُه، وكان يشُقُّ عليهم تركُ ذلك ثلاثةَ أشهُرٍ متوالية، فجعَلوا النَّسيءَ لذلك، فقيل تصريحًا بما أفهَمَه ما مضىٰ: ليس فيه شيءٌ مِن ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ لأنَّ ذلك كالمقدِّمة إلىٰ المقصودِ؛ وهو إبطالُ النَّسيءِ وتشنيعُه[2].

ثم بيَّن تعالىٰ ثمرةَ هذه المقدِّمةِ؛ وهو تحريمُ تغييرِ ما عُيِّن تحريمُه مِن الأشهر الحُرُمِ، وإيجابُ الحَذْوِ بها علىٰ ما سبَق في كتابه، ناعيًا علىٰ المشركين كُفْرَهم، بإهمالِهم ذلك، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

ولمَّا أوعَزَ سبحانه في أمرِ الجهاد، وأزاح جميعَ عِلَلِهم، وبيَّن أنَّ حُسْنَه لا يختصُّ به شهرٌ دُونَ شهرٍ، وأنَّ بعضَهم كان يُحِلُّ لهم ويحرِّمُ، فيَتَّبعونه بما يؤدي إلىٰ تحريمِ الشهر الحلال وتحليلِ الشهر الحرام بالقتال فيه؛ عاتَبهم اللهُ سبحانه علىٰ تخلُّفِهم

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٥٠-٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٨٨).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٠٨).

عن رسولِ الله ﷺ، الآمِرِ لهم بالنَّفْرِ في غزوةِ تبُوكَ عن أمرِه سبحانه، وكان ابتداؤها في شهرِ رجَبٍ سنةَ تِسْعٍ، فقال تعالىٰ علىٰ سبيلِ الاستعطاف والتَّذكير بنِعْمةِ الإيمان بعد خَتْمِ التي قبلها بأنَّه لا يَهدي الكافرين - الذي يعمُّ الحرب وغيره- الموجِبِ للجرأةِ عليهم؛ لأنَّ مَن لا هدايةَ له أعمىٰ، والأعمىٰ لا يخشىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١).

هذا ابتداءُ خطابٍ للمؤمنين للتَّحريضِ علىٰ الجهاد في سبيلِ الله، بطريقةِ العتاب علىٰ التباطؤِ بإجابةِ دعوةِ النَّفير إلىٰ الجهاد، والمقصودُ بذلك غزوةُ تبُوكَ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح معايبَ هؤلاء الكفاءِ وفضائحَهم، عاد إلىٰ الترغيبِ في مقاتَلتِهم، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ وتقريرُ الكلامِ: أنَّه تعالىٰ ذكَر في الآياتِ السابقة أسبابًا كثيرةً موجِبةً لقتالهم، وذكَر منافعَ كثيرةً تحصُلُ مِن مقاتَلتِهم، وذكَر أقوالَهم المنكَرة، وأعمالَهم القبيحة في الدِّين والدُّنيا، وعند هذا لا يَبقَىٰ للإنسانِ مانعٌ مِن قتالهم إلا مجرَّدُ أن يَخافَ القتلَ، ويُحِبَّ الحياةَ؛ فبيَّن تعالىٰ أنَّ هذا المانعَ خسيسٌ؛ لأنَّ سعادةَ الدُّنيا بالنسبةِ إلىٰ سعادةِ الآخرة كالقَطْرةِ في البحرِ، وتَرْكُ الخيرِ الكثير لأجلِ الشرِّ القليل جهلٌ وسَفَهٌ(٣).

ثم حرَّض تعالىٰ المؤمنين علىٰ قتالِ الكفَرة، إثر بيانِ طَرَفٍ مِن قبائحِهم الموجِبةِ لذلك، وأشار إلىٰ توجُّهِ العتابِ والمَلامةِ إلىٰ المتخلِّفينَ عنه، بقولِه

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٦٨-٤٦٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٥).
(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٧).

سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا كان طولُ الاستعطافِ ربما كان مَدْعاةً للخلافِ وتَرْكِ الإنصاف، توعَّدهم بقولِـه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

هذا وعيدٌ وتهديدٌ عُقِّب به الملامُ السَّابق؛ لأنَّ اللَّوْمَ وقَع علىٰ تثاقُلٍ حصَل، ولمَّا كان التثاقُلُ مفضيًا إلىٰ التخلُّفِ عن القتال، صرَّح بالوعيدِ والتهديد إن يعُودُوا لمِثْلِ ذلك التثاقلِ، فهو متعلِّقٌ بالمستقبَلِ؛ كما هو مقتضىٰ أداةِ الشرط؛ فالجملة مستأنَفةٌ لغرضِ الإنكار بعد اللَّوم، فإن كان هذا وعيدًا، فقد اقتضىٰ أنَّ خروجَ المخاطَبين إلىٰ الجهاد الذي استنفرَهم إليه الرسولُ ﷺ قد وجَب علىٰ أعيانِهم كلِّهم، بحيث لا يُغنِي بعضُهم عن بعضٍ؛ أي: تعيَّن الوجوبُ عليهم، فيحتمِلُ أن يكونَ التَّعيينُ بسبب تعيينِ الرسول ﷺ إيَّاهم للخروجِ بسببِ النَّفير العام، وأن يكونَ بسببِ كثرة العدوِّ الذي استُنفِروا لقتالِه، بحيث وجَب خروجُ جميعِ القادرين مِن المسلمين؛ لأنَّ جيشَ العدو كانوا مِثْلَيْ عَدَدِ جيشِ المسلمين[3].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤١٦).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٧١).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا رغَّبهم في الآيةِ الأُولىٰ في الجهاد بِناءً علىٰ التَّرغيبِ في ثواب الآخرة، رغَّبهم في هذه الآيةِ في الجهاد بِناءً علىٰ أنواعٍ أُخَرَ مِن الأمورِ المقوِّية للدَّواعي(١).

ثم توعَّد تعالىٰ مَن لم يَنفِرْ إلىٰ الغزوِ بقولِه سبحانه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا وصَف سبحانه نفسَه الأقدسَ بما هو له أهلٌ مِن شمولِ القدرة وعظيمِ البأس والقوَّة، أتبَع ذلك بدليلٍ يَتضمَّن أنَّ المستنفِرَ لهم - وهو نبيُّه ﷺ - غيرُ محتاجٍ إليه، ومتوقِّفٍ نَصْرُه عليهم؛ كما لم يَحتَجْ إليهم - بحياطةِ القادرِ له - فيما مضىٰ مِن الهجرةِ التي ذكَرها، وأنَّ نَفْعَ ذلك إنَّما هو لهم باستجلابِ ما وُعِدُوه، واستدفاعِ ما أُوعِدُوه في الدارينِ، المشارِ إلىٰ ذلك كلِّه بقولِه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ، وقولِه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ الآيةَ، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٨).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤١٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٧٢).

استئنافٌ بيانيٌّ لقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ نَفْيَ أن يكونَ قعودُهم عن النَّفيرِ مضرًّا باللهِ ورسوله يُثِيرُ في نفسِ السامع سؤالًا عن حصولِ النَّصْرِ بدُونِ نصيرٍ؛ فبيَّن بأنَّ اللهَ ينصُرُه كما نصَره حين كان ثانيَ اثنينِ لا جيشَ معه، فالذي نصَره حين كان ثانيَ اثنينِ قديرٌ علىٰ نصرِه وهو في جيشٍ عظيمٍ؛ فتبيَّن أنَّ تقديرَ قعودِهم عن النَّفير لا يضُرُّ اللهَ شيئًا[1].

اعلَمْ أنَّ هذا ذِكْرُ طريقٍ آخَرَ في ترغيبِهم في الجهادِ؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ أنَّهم إن لم يَنفِروا باستنفاره، ولم يَشتغلوا بنُصْرتِه؛ فإنَّ اللهَ ينصُرُه؛ بدليلِ أنَّ اللهَ نصَره وقوَّاه حالَ ما لم يكُنْ معه إلا رجلٌ واحد؛ فهَهنا أَوْلىٰ[2].

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾

ولمَّا بلَغتْ هذه المواعظُ مِن القلوب الواعية مبلغًا هيَّأها به للقَبولِ، أقبَلَ عليها سبحانه بالأمرِ، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

الخطابُ للمؤمنين الذين سبَق لَوْمُهم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فالنفيرُ المأمور به ما يُستقبَلُ مِن الجهادِ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٠٠-٢٠١).
(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٩).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٧٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٠٦).

ولمَّا توعَّد تعالىٰ مَن لا يَنفِرُ مع الرسول لتبُوكَ، وضرَب له مِن الأمثالِ ما فيه أعظَمُ مزدجرٍ؛ أتبَعه بهذا الأمرِ الجَزْمِ، فقال سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(١).

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾

ولمَّا كان هذا العتابُ مؤذِنًا بأنَّ فيهم مَن تباطأ عن الجهادِ اشتغالًا بنحوِ الأموال والأولاد، وكان ما اشتمَلتْ عليه هذه الآياتُ مِن الأوامرِ والزواجر والمواعظ جديرًا بأن يخفِّفَ كلَّ متثاقلٍ، وينشِّطَ كلَّ متكاسلٍ؛ تشوَّفتِ النُّفوسُ إلىٰ ما اتفق بعد ذلك، فأعلَمَ سبحانه به في أساليبِ البلاغة المخبِرةِ عن أحوالِ القاعدين وأقاصيصِ الجامدين، المُفهِمةِ أنَّ هناك مَن غلَب عليه الشقاءُ فلم يَنتفِعْ بالمواعظِ؛ فالتفَتَ مِن لُطْفِ الإقبالِ إلىٰ تبكيتِ المتثاقِلين بأسلوبِ الإعراض المؤذِنِ بالغضبِ المحقِّق للسُّخْطِ، المبيِّنِ لفضائحهم، المُبعثِرِ لقبائحهم، المُخرِجِ لهم ما دخَلوا فيه مِن عمومِ الدُّعاء باسمِ الإيمان، فقال: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾(٢).

استئنافٌ لابتداءِ الكلام علىٰ حالِ المنافقين وغزوةِ تَبُوكَ حين تخلَّفوا واستأذَن كثيرٌ منهم في التخلُّفِ، واعتلُّوا بعِلَلٍ كاذبةٍ، وهو ناشئٌ عن قوله: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، وانتقَل مِن الخطاب إلىٰ الغَيْبةِ؛

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٢٠).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٨٠).

لأنَّ المتحدَّثَ عنهم هنا بعضُ المتثاقِلين لا محالةَ؛ بدليلِ قوله بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ومِن هذه الآياتِ ابتدأ إشعارُ المنافقين بأنَّ اللهَ أطلَعَ رسولَه ﷺ علىٰ دخائلِهم[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بالَغ في ترغيبِهم في الجهادِ في سبيل الله، وكان قد ذكَر قولَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ عادَ إلىٰ تقريرِ كونهم متثاقِلين، وبيَّن أنَّ أقوامًا، مع كلِّ ما تقدَّم مِن الوعيدِ والحثِّ علىٰ الجهاد، تخلَّفوا في غزوةِ تبُوكَ، وبيَّن أنَّه ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾[(٢)].

ثم صرَف تعالىٰ الخطابَ عن المتخلِّفين، ووجَّهه إلىٰ رسولِ الله ﷺ، مُعدِّدًا لِما صدَر عنهم مِن الهَنَاتِ[(٣)] قولًا وفعلًا، مبيِّنًا لدناءةِ هَمِّهم في هذا الخَطْبِ، فقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[(٤)].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا بكَّتهم علىٰ وجهِ الإعراض لأجلِ التَّخلُّفِ والحَلِفِ عليه كذبًا، أقبَلَ إليه ﷺ بالعتابِ في لذيذِ الخطاب علىٰ الاسترسالِ في اللِّينِ لهم، والائتلاف، وأخذِ العفوِ،

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٥٦).

(٣) أي: الهفوات اليسيرة.

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٤٢٢).

وتَرْكِ الخلافِ إلىٰ هذا الحدِّ، فقال مُؤذِنًا بأنَّهم ما تخلَّفوا إلا بإذنِه ﷺ لأعذارٍ ادَّعَوْها كاذِبين فيها كما كذَبوا في هذا الحَلِفِ، مقدِّمًا للدُّعاءِ علىٰ العتابِ لشِدَّةِ الاعتناء بشأنِه واللُّطْفِ به ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن بقولِه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أنَّه تخلَّف قومٌ مِن ذلك الغزوِ، وليس فيه بيانُ أنَّ ذلك التَّخلُّفَ كان بإذنِ الرسول أم لا؟ فلمَّا قال بعده: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، دلَّ هذا علىٰ أنَّ فيهم مَن تخلَّف بإذنه[2].

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا فاتَهُ ﷺ معرفتُهم بهذا الطريقِ، شرَع العالِمُ بما في الضَّمائرِ يصفُهم له بما يُعوِّضُ عن ذلك، فقال علىٰ طريقِ الجواب للسُّؤال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

هذه الجملةُ واقعةٌ موقعَ البيانِ لجملة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وموقعَ التَّعليل لجملة ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، أو هي استئنافٌ بيانيٌّ لِما تُثيرُه جملةُ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، والاعتباراتُ متقارِبةٌ، ومآلها واحدٌ[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٨١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٥٧).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٨٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١١).

ثم أخبَر أنَّ المؤمنين باللهِ واليوم الآخِرِ لا يَستأذنون في تَرْكِ الجهادِ بأموالهم وأنفسهم؛ لأنَّ ما معهم مِن الرغبةِ في الخير والإيمان يَحمِلُهم علىٰ الجهادِ مِن غيرِ أن يحُثَّهم عليه حاثٌّ، فضلًا عن كونِهم يَستأذنون في تَرْكِه مِن غيرِ عذرٍ[1].

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر بالمتَّقين، عرَّف بغيرِهم علىٰ وجهِ الحصرِ، تأكيدًا لتحقيقِ صفة العلمِ بما أخبَر به سبحانه، فصار الاستئذانُ منفيًّا عن المؤمنين مرَّتينِ، فثبَت للمنافقين علىٰ أبلَغِ وجهٍ؛ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[2].

الجملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا نشأ عن تبرئةِ المؤمنين مِن أن يَستأذنوا في الجهاد؛ ببيانِ الذين شأنُهم الاستئذانُ في هذا الشَّأنِ، وأنَّهم الذين لا يؤمنون باللهِ واليوم الآخِرِ في باطنِ أمرهم؛ لأنَّ انتفاءَ إيمانهم يَنفي رجاءَهم في ثواب الجهاد؛ فلذلك لا يُعرِّضون أنفسَهم له، وأفادت ﴿ إِنَّمَا ﴾ القصرَ، ولمَّا كان القصرُ يُفِيدُ مُفادَ خبرَينِ: بإثباتِ شيءٍ ونفيِ ضدِّه، كانت صيغةُ القصر هنا دالَّةً باعتبارِ أحد مُفادَيْها علىٰ تأكيدِ جملة ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾، وقد كانت مُغْنيةً عن الجملةِ المؤكَّدة لولا أنَّ المرادَ مِن تقديم تلك الجملةِ التَّنويهُ بفضيلة المؤمنين؛ فالكلام إطنابٌ لقصدِ التَّنويه، والتَّنويهُ مِن مقاماتِ الإطناب[3].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٣٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٢).

ما زال السياقُ في الحديثِ عن غزوة تبُوكَ، وأحوالِ المأمورين بالنَّفيرِ فيها؛ فبعد أن عاتَب اللهُ تعالىٰ رسولَه ﷺ في إذنه للمتخلِّفين، أخبَره أنَّه لا يَستأذنه المؤمنون الصادقون في أن يَتخلَّفوا عن الجهادِ بأموالهم وأنفسهم، وإنَّما يَستأذنه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾(١).

﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ لأنَّ معنىٰ المعطوف عليها: أنَّهم لم يُريدوا الخروجَ إلىٰ الغزوِ، وهذا استدلالٌ علىٰ عدمِ إرادتِهم الخروجَ؛ إذ لو أرادوه لأعَدُّوا له عُدَّته، وهذا تكذيبٌ لزعمِهم أنَّهم تهيَّؤوا للغزو، ثم عرَضتْ لهم الأعذارُ، فاستأذَنوا في القعودِ؛ لأنَّ عدمَ إعدادِهم العُدَّةَ للجهاد دلَّ علىٰ انتفاءِ إرادتِهم الخروجَ إلىٰ الغزوِ(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ جليَّةَ شأنِ أولئك المنافقين المستأذِنين بأنَّهم لم يريدوا الخروجَ للجهاد حقيقةً؛ ولذلك خذَّلهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾(٣).

ثم بيَّن أنَّ المتخلِّفين مِن المنافقين قد ظهَر منهم مِن القرائن ما يبيِّنُ أنَّهم ما قصَدوا الخروجَ للجهاد بالكلية، وأنَّ أعذارَهم التي اعتذَروها باطلةٌ؛ فإنَّ العُذْرَ هو المانعُ الذي يَمنَع إذا بذَل العبدُ وُسْعَه، وسعىٰ في أسبابِ الخروج، ثم منَعه مانعٌ شرعي؛

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٣٧٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٤).
(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٢٧).

فهذا الذي يُعذَر، وأمَّا هؤلاء المنافقون، فلو ﴿أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾(١).

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما له ثبَّطهم وقد كنَّا قاصدين سفرًا بعيدًا وعدوًّا كثيرًا شديدًا؛ فنحن محتاجون إلىٰ الإسعاد(٢)، ولو بتكثيرِ السَّواد؟! قيل: و﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ لجملةِ ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ لبيانِ الحِكْمةِ مِن كراهيَةِ اللهِ انبعاثَهم؛ وهي إرادةُ اللهِ سلامةَ المسلمين مِن أضرارِ وجود هؤلاء بَيْنَهم؛ لأنَّهم كانوا يُضمِرون المكرَ للمسلمين، فيخرُجون مُرغَمِين، ولا فائدةَ في جيشٍ يغزو بدُونِ اعتقادِ أنَّه علىٰ الحق، وتعديةُ فعلِ «الخروج» بـ«في» شائعةٌ في الخروجِ مع الجيش(٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في هذه الآيةِ أنواعَ المفاسدِ الحاصلة مِن خروجِهم؛ وهي ثلاثةٌ(٥).

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٣٩).

(٢) أي: مشاركة الهم لإزالته.

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٩١).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٦).

(٥) مفاتيح الغيب (١٦/ ٦٣).

ثم بيَّن تعالىٰ سِرَّ كراهتِه لخروجهم بقولِه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[١].

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا أخبرَ سبحانه بذلك، وحَثَّ علىٰ قَبولِ أخبارهم بما وصَف به ذاتَه الأقدسَ مِن إحاطةِ العلم؛ شرَع يُقِيمُ الدَّليلَ علىٰ ما قال بتذكيرِهم بأشياءَ تقدَّمتْ مشاهدتُها منهم، فقال معلِّلًا لِما أخبَر به: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٢].

الجملةُ تعليلٌ لقوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾؛ لأنَّها دليلٌ بأنَّ ذلك دَيْدنٌ لهم مِن قبلُ؛ إذ ابتغَوُا الفتنةَ للمسلمين؛ وذلك يومَ أُحُدٍ؛ إذ انخزَلَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ ابنُ سَلُولَ ومَن معه مِن المنافقين بعد أن وصَلوا إلىٰ أُحُدٍ، وكانوا ثُلُثَ الجيشِ؛ قصَدوا إلقاءَ الخوفِ في نفوس المسلمين حين يرَوْنَ انخزالَ بعضِ جيشِهم[٣].

اعلَمْ أنَّ المذكورَ في هذه الآيةِ نوعٌ آخرُ مِن مكرِ المنافقين، وخُبْثِ باطنهم، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مِن قبلِ واقعةِ تبُوكَ[٤].

ثم برهَنَ تعالىٰ علىٰ ابتغائِهم الفتنةَ في كلِّ مرَّةٍ بقولِه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾[٥].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٢٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٦٥).

(٥) محاسن التأويل (٥/ ٤٢٩).

ثم ذكَر أنَّه قد سبَق لهم سوابقُ في الشرِّ، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[1].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا أجمَلَهم في هذا الحُكْمِ، وكان قد أشار إلىٰ أنَّ منهم مَن كان قد استأذَن في الخروجِ توطئةً للاعتذارِ عنه؛ شرَع يفصِّلُهم، وبدأ المفصَّلِين بمَن صرَّح بالاستئذان في القعود، فقال عاطفًا علىٰ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟﴾: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾[2].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما الفتنةُ التي سقَطوا فيها فأحاطت بهم جهنَّمُ بسببِها؟ قيل: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[3].

تَتنزَّلُ هذه الجملةُ منزلةَ البيانِ لجملة ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، وما بَيْنَ الجملتينِ استدلالٌ علىٰ كذبِهم فيما اعتذَروا به، وأظهَروا الاستئذانَ لأجلِه، وبيَّن هنا أنَّ تردُّدَهم هو أنَّهم

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٣٩).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٤٩٤).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٤٩٥).

يَخشَون ظهورَ أمرِ المسلمين؛ فلذلك لا يصارِحونهم بالإعراض، ويَوَدُّون خَيْبةَ المؤمنين؛ فلذلك لا يُحِبُّون الخروجَ معهم(١).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن كيدِ المنافقين، ومِن خُبْثِ بواطنهم؛ والمعنىٰ: إن تُصِبْكَ في بعضِ الغزوات حسَنةٌ -سواءٌ كان ظفَرًا أو كان غنيمةً أو كان انقيادًا لبعضِ ملوكِ الأطراف- يَسُؤْهم ذلك، وإن تُصِبْكَ مصيبةٌ -مِن نكبةٍ وشِدَّةٍ ومصيبةٍ ومكروهٍ- يَفرَحوا به، ويقولوا: قد أخَذْنا أمرَنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذرُ والتيقُّظ والعمل بالحزم، مِن قبلِ ما وقَع، وتولَّوا عن مقامِ التَّحدُّثِ بذلك والاجتماعِ له إلىٰ أهاليهم وهم فَرِحون مسرورون(٢).

ثم بيَّن عداوتَهم، زيادةً في تشهيرِ مساوئهم، بقولِه سبحانه: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾(٣).

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾

ولمَّا كان قولُهم هذا متضمِّنًا لتوهُّمِ القدرةِ علىٰ الاحتراس مِن القَدَرِ، قال تعالىٰ مُعلِمًا بجوابِهم، مخاطبًا للرَّأسِ لعلوِّ المقامِ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٦٦).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٣١).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٤٩٦).

تلقينُ جوابٍ لقولهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾، المُنبِئ عن فَرَحِهم بما ينالُ المسلمين مِن مصيبةٍ؛ بإثباتِ عدم اكتراثِ المسلمين بالمصيبة، وانتفاءِ حُزْنِهم عليها؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّ ما أصابهم ما كان إلا بتقديرِ الله، لمصلحةِ المسلمين في ذلك؛ فهو نفعٌ محضٌ؛ كما تدلُّ عليه تعديةُ فعلِ ﴿كَتَبَ﴾ باللام المؤذِنة بأنَّه كتَب ذلك لنفعِهم، وموقعُ هذا الجوابِ هو أنَّ العدوَّ يَفرَحُ بمُصابِ عدوِّه؛ لأنَّه يُنكِّدُ عدوَّه ويحزُنُه، فإذا عَلِموا أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَحزَنُ لِما أصابه، زال فَرَحُهم[(١)].

ثم أرشَد تعالىٰ إلىٰ جوابهم ببطلانِ ما بنَوْا عليه مَسَرَّتَهم بقولِه سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

ثم لمَّا قالوا هذا القولَ، أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يجيبَ عليهم بقولِه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٣)].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا تضمَّنَ ذلك أنَّ سرَّاءَهم وضرَّاءَهم لهم خيرٌ، مِن حيث إنَّ الرِّضا بمُرِّ القضاء موجِبٌ لإقبالِ القاضي علىٰ المَقْضيِّ عليه بالرأفةِ والرحمة؛ صرَّح بذلك في قولِه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٣).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤٣٢).

(٣) فتح القدير (٢/ ٤٢١).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٤٩٧).

تَتنزَّلُ هذه الجملةُ منزلةَ البيان لِما تضمَّنته جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ الآيةَ؛ ولذلك لم تُعطَفْ عليها، والمبيَّنُ هو إجمالُ ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾(١).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الجوابُ الثاني عن فَرَحِ المنافقين بمصائبِ المؤمنين؛ وذلك لأنَّ المسلمَ إذا ذهَب إلىٰ الغزوِ، فإن صار مغلوبًا مقتولًا فاز بالاسمِ الحسَنِ في الدُّنيا، والثوابِ العظيم الذي أعَدَّه اللهُ للشهداءِ في الآخرة، وإن صار غالبًا فاز في الدُّنيا بالمالِ الحلال، والاسمِ الجميل؛ وهي الرُّجوليَّةُ والشَّوكة والقوَّة، وفي الآخرةِ بالثواب العظيم. وأمَّا المنافقُ إذا قعَد في بيته، فهو في الحالِ قعَد في بيته مذمومًا، منسوبًا إلىٰ الجُبْنِ والفشل، وضَعْفِ القلب، والقناعةِ بالأمور الخسيسة مِن الدُّنيا، علىٰ وجهٍ يشارِكُه فيها النِّسْوانُ والصِّبيان والعاجزون مِن النساء، ثم يكونون أبدًا خائفين علىٰ أنفسِهم وأولادهم وأموالهم، وفي الآخرةِ إن ماتوا، فقد انتقَلوا إلىٰ العذابِ الدائم في القيامة، وإن أَذِن اللهُ في قتلِهم، وقَعوا في القتلِ والأَسْرِ والنَّهْبِ، وانتقَلوا مِن الدُّنيا إلىٰ عذابِ النار؛ فالمنافقُ لا يَتربَّص بالمؤمن إلا إحدىٰ الحالتينِ المذكورتين، وكلُّ واحدةٍ منهما في غايةِ الجلالةِ والرِّفعة والشَّرف، والمسلمُ يَتربَّص بالمنافقِ إحدىٰ الحالتينِ المذكورتين؛ أعني: البقاءَ في الدُّنيا مع الخِزْيِ والذُّلِّ والهوان، ثم الانتقالَ إلىٰ عذابِ القيامة، والوقوعَ في القتلِ والنَّهْبِ مع الخِزْيِ والذُّل، وكلُّ واحدةٍ مِن هاتينِ الحالتين في غايةِ الخساسةِ والدناءة(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٦٧).

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾

ولمَّا كان مِن جملةِ ما يصيبُهم منهم مِن العذابِ الإنفاقُ بتزكيةِ ما طهُرَ مِن أموالهم بالإعانة في سبيلِ الله خوفًا مِن اتهامِهم بالنفاق في أقوالِهم ليَفتدوا أنفسَهم به مِن السَّفرِ، قال: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾[1].

ابتداءُ كلامٍ هو جوابٌ عن قولِ بعضِ المستأذِنين منهم في التخلُّفِ: «وأنا أُعِينُك بمالي»[2]؛ رُوي أنَّ قائلَ ذلك هو الجدُّ بنُ قيسٍ، أحدُ بني سَلِمةَ، الذي نزَل فيه قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾، وكان منافقًا، وكأنَّهم قالوا ذلك مع شِدَّةِ شُحِّهم؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنَّ ذلك يُرضي النبيَّ ﷺ عن قعودِهم عن الجهاد[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ عاقبةَ هؤلاء المنافقين هي العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرة، بيَّن أنَّهم وإن أتَوْا بشيءٍ مِن أعمال البرِّ فإنَّهم لا يَنتفعون به في الآخرةِ، والمقصودُ بيانُ أنَّ أسبابَ العذاب في الدُّنيا والآخرةِ مجتمِعةٌ في حقِّهم، وأنَّ أسبابَ الراحةِ والخير زائلةٌ عنهم في الدُّنيا وفي الآخرة[4].

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٩٨).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٤٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٦٨).

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا علَّل بالعَراقةِ في الخروجِ عن الطاعة، بيَّنه في قوله: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾(١).

عطف علىٰ جملةِ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾؛ لأنَّ هذا بيانٌ للتَّعليل لعدمِ قَبولِ نفقاتهم بزيادةِ ذِكْرِ سببينِ آخَرينِ مانعينِ مِن قَبولِ أعمالهم، هما مِن آثارِ الكفر والفسوق؛ وهما: أنَّهم لا يأتون الصلاةَ إلا وهم كُسالىٰ، وأنَّهم لا يُنفِقون إلا وهم كارهون(٢).

ذكَر السببَ الذي هو بمفردِه مانعٌ مِن قَبولِ نفقاتهم؛ وهو الكفرُ، وأتبَعه بما هو ناشئٌ عن الكفرِ، ومستلزِمٌ له، وهو دليلٌ عليه(٣).

ثم بيَّن صفةَ فِسْقِهم وأعمالهم، فقال: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾(٤).

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا انتفىٰ عن أموالهم النفعُ الأُخْرويُّ الذي هو النفعُ، تسبَّب عن ذلك الزهدُ فيها، الموجِبُ لعدمِ الالتفات إليها، وعدمِ اعتقاد أنَّ فيها بركةً ودلالةً علىٰ خيرٍ، فقال

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٤٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٧).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٣٥).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٤٠).

- مبيِّنًا ما فيها مِن الفسادِ الذي يُظَنُّ أنَّه صلاحٌ-: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾(١).

تفريعٌ علىٰ مَذمَّةِ حالهم في أموالهم، وأنَّ وَفْرةَ أموالهم لا تُوجِبُ لهم طُمَأْنينةَ بالٍ؛ بإعلامِ المسلمين أنَّ ما يرَوْنَ بعضَ هؤلاء المنافقين فيه مِن متاعِ الحياة الدُّنيا لا ينبغي أن يكونَ محَلَّ إعجابِ المؤمنين، وأن يَحسَبوا المنافقين قد نالوا شيئًا مِن الحظِّ العاجل؛ ببيانِ أنَّ ذلك سببٌ في عذابهم في الدُّنيا(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قطَع في الآيةِ الأُولىٰ رجاءَ المنافقين عن جميعِ منافعِ الآخرة، بيَّن أنَّ الأشياءَ التي يظنُّونها مِن باب المنافع في الدُّنيا، فإنَّه تعالىٰ جعَلها أسبابَ تعظيمهم في الدُّنيا، وأسبابَ اجتماعِ المِحَنِ والآفات عليهم، ومَن تأمَّل في هذه الآياتِ، عرَف أنَّها مرتَّبةٌ علىٰ أحسَنِ الوجوه؛ فإنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن قبائحَ أفعالهم وفضائحَ أعمالهم، بيَّن ما لهم في الآخرةِ مِن العذاب الشديد، وما لهم في الدُّنيا مِن وجوهِ المحنة والبليَّة، ثم بيَّن بعد ذلك أنَّ ما يفعلونه مِن أعمالِ البِرِّ لا ينتفعون به يومَ القيامة البتَّةَ، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ما يظنُّون أنَّه مِن منافعِ الدُّنيا فهو في الحقيقة سببٌ لعذابِهم وبلائهم، وتشديدِ المحنة عليهم، وعند هذا يَظهَرُ أنَّ النفاقَ جالبٌ لجميعِ الآفات في الدِّين والدُّنيا، ومُبطِلٌ لجميعِ الخيرات في الدِّين والدُّنيا(٣).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ قبائحَ أفعالِ المنافقين، وما لهم في الآخرة مِن العذاب المهين، وعدَمَ قَبولِ نفقاتِهم؛ تأثَّره ببيانِ أنَّ ما يظنُّونه مِن منافعِ الدُّنيا هو في الحقيقة سببٌ لعذابهم وبلائهم، فينجلي تمامَ الانجلاءِ أنَّ النفاقَ مَهْواةُ الخَسارِ؛ لجَلْبه آفاتِ الدُّنيا

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٧١).

والآخرة، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾(١).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ولمَّا وضَّح بهذه الأمورِ منابَذتَهم للمؤمنين، وخروجَهم مِن رِبْقةِ الدِّين المصحِّح لوصفِهم بالفسقِ؛ أوضَحَ لَبْسًا آخرَ مِن أحوالهم يُقيمونه بالأيمانِ الكاذبة، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾(٢).

هذه الجملة معطوفةٌ على ما قبلها مِن أخبارِ أهل النفاق، وضمائرُ الجَمْعِ عائدةٌ إليهم، قُصِد منها إبطالُ ما يُموِّهون به على المسلمين مِن تأكيدِ كونِهم مؤمنين بالقَسَمِ على أنَّهم مِن المؤمنين(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن كونَهم مستجمِعين لكلِّ مَضارِّ الآخرة والدُّنيا، خائبين عن جميعِ منافعِ الآخرة والدُّنيا؛ عاد إلى ذِكْرِ قبائحهم وفضائحهم، وبيَّن إقدامَهم على الأيمانِ الكاذبة، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾(٤).

ثم ذكَر اللهُ سبحانه نوعًا آخرَ مِن قبائحِ المنافقين، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾(٥).

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٣٤).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٠١).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٧٤).

(٥) فتح القدير (٢/ ٤٢٢).

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ ﴾

فكأنَّه قيل: فما لهم يُقِيمون بَيْننا والمُبغِض لا يعاشِرُ مَن يُبغِضه؟! فقيل: لأنَّهم لا يجدون ما يَحمِيهم منكم، ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[1].

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾[2].

لمَّا ذكَر فَرْقَ المنافقين مِن المؤمنين، أخبَر بما هم عليه معهم ممَّا يوجِبُه الفَرْقُ؛ وهو أنَّهم لو أمكنَهم الهروبُ منهم لهرَبوا، ولكنَّ صُحْبتَهم لهم صحبةُ اضطرارٍ، لا اختيارٍ[3].

ثم أشار إلىٰ سببِ الخوف -وهو اضطرارُهم إلىٰ مساكنِهم مع ضَعْفِهم- بقولِه تعالىٰ: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[4].

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما سبَق مِن أنَّهم ليسوا مِن المسلمين، وأنَّ التجاءَهم إلىٰ الانتماء إليهم إنَّما هو للتقيَّةِ اضطرارًا[5].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٣١).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٣٧).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٤٣٤).

(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ٧٥).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر حالَ مَن يتخلَّف عن الجهاد، وربما بذَل مالَه فيه افتداءً لسَفَرِه؛ شرَع في ذِكْرِ مَن يشارِكُه في الإنفاقِ والنفاق ويخالِفُه، فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا شرحُ نوعٍ آخَرَ مِن قبائِحِهم وفضائحهم؛ وهو طَعْنُهم في الرسولِ ﷺ بسبب أخذِ الصَّدقات مِن الأغنياء، ويقولون: إنَّه يؤثِرُ بها مَن يشاءُ مِن أقاربِه وأهلِ مودَّته، وينسبونه إلىٰ أنَّه لا يُراعي العدلَ[2].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ عن حالِهم السَّيئِ الدنيء الذي لا يُجدِيهم في الدُّنيا، ويُهلِكُهم في الأخرىٰ؛ نبَّههم علىٰ ما هو الأصلحُ لهم مِن الحالِ الشريف السَّنيِّ، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[3].

جملةٌ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾، باعتبارِ ما تفرَّع عليها مِن قولِه: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾، عطفًا يُنبِئُ عن الحالةِ المحمودة بعد ذِكْرِ الحالةِ المذمومة[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٧٥).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٣٣).

ثم أرشَدهم اللهُ تعالىٰ إلىٰ ما كان ينبغي أن يكونوا عليه، فقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾(١).

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولـمَّا أخبَر عن لَمْزِهم في الصَّدقات، وقرَّر ما هو خيرٌ لهم إرشادًا إلىٰ النَّجاة؛ علَّل فِعْلَ رسولِ الله ﷺ فيها، وبيَّن أنَّه لا يفعل غيرَه؛ لأنَّه الحقُّ الذي لا يجوز في شرعِه الأكمَلِ غيرُه، لَمَزوا أو تركوا، زَهِدوا أو رَغِبوا؛ فقال مُعبرًّا بأداة القصرِ علىٰ ما ذكَرَ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢).

هـذه الآيـةُ اعـتراضٌ بـيْنَ جملـةِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾، وجملـةِ ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ﴾ الآيةَ، وهو استطرادٌ نشأ عن ذِكْرِ اللَّمْزِ في الصَّدقات، أُدمِجَ فيه تبيينُ مصارفِ الصَّدقات(٣).

اعلَمْ أنَّ المنافقين لـمَّا لَمَزوا الرسولَ ﷺ في الصَّدقات، بيَّن لهم أنَّ مَصرِفَ الصَّدقات هؤلاء، ولا تعلُّقَ لي بها، ولا آخُذُ لنفسي نصيبًا منها؛ فلم يَبقَ لهم طعنٌ في الرسولِ ﷺ بسببِ أخذِ الصَّدقات(٤).

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٣٨٣).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٣٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٧٧).

لمَّا ذكَر تعالىٰ لَمْزَهم في الصَّدقات، تأثَّره ببيانِ حَقِّيَّةِ ما فعَله رسولُ الله ﷺ مِن القِسْمةِ؛ إذ لم يَتجاوَزْ فيها مصارفَها المشروعة له، وهو عينُ العدلِ؛ وذلك أنَّه تعالىٰ شرَع قَسْمَها لهؤلاء، ولم يَكِلْهُ إلىٰ أحدٍ غيرِه، ولم يأخُذْ ﷺ منها لنفسه شيئًا؛ ففِيمَ اللَّمْزُ لقاسِمِها صلوات الله وسلامه عليه؟![1].

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١ ﴾

ولمَّا بيَّن الصِّنفينِ السَّالفين، وختَم أمرَهما بصفتَيِ العلمِ والحِكْمة؛ أتبعهما بصِنْفٍ آخَرَ يؤذي بما يجعلُه نقصًا في صفاتِ الرسول ﷺ؛ فيَلزمُ الطَّعنُ في علمِ مرسِلِه وحِكْمتِه، فقال: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾[2].

عطفٌ ذُكِر فيه خُلُقٌ آخَرُ مِن أخلاقِ المنافقين؛ وهو تعلُّلُهم علىٰ ما يعامِلُهم به النبيُّ ﷺ والمسلمون مِن الحذَرِ، وما يطَّلِعون عليه مِن فَلَتاتِ نفاقِهم، يزعمون أنَّ ذلك إرجافٌ مِن المرجِفِين بهم إلىٰ النبيِّ ﷺ، وأنَّه يُصدِّق القالَةَ فيهم، ويتَّهِمُهم بما يبلُغُه عنهم ممَّا هم منه بُرَآءُ، يَعتذرون بذلك للمسلمين، وفيه زيادةٌ في الأذىٰ للرسول ﷺ، وإلقاءُ الشَّكِّ في نفوسِ المسلمين في كمالاتِ نبيِّهم عليه الصلاة والسلام[3].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٣٦).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٤١).

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن جهالاتِ المنافقين؛ وهو أنَّهم كانوا يقولون في رسولِ الله ﷺ: إنَّه أُذُنٌ، على وجهِ الطَّعن والذَّم[(١)].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم علَّل ذلك باستهانتِهم باللهِ ورسوله، وأخبَر أنَّهم يَخشَون على دمائهم، فيُصلِحون ظواهرَهم حِفظًا لها بالأيمانِ الكاذبة، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

عدَل عن أسلوبِ الحكاية عنهم بكلمةِ ﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ ما حُكِيَ هنا حالٌ مِن أحوالِ جميعهم؛ فالجملة مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لإعلامِ الرسول ﷺ والمؤمنين بأنَّ المنافقين يَحلِفون الأيمانَ الكاذبة، فلا تغُرُّهم أيمانُهم؛ فضميرُ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ إلى ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾[(٣)].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن قبائحِ أفعال المنافقين؛ وهو إقدامُهم على اليمينِ الكاذبة[(٤)].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ حَلِفَهم هذا إنَّما هو لكراهةِ الخِزْيِ عند المؤمنين، وبيَّن مَن هو الأحقُّ بأن يُرضُوه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك في استفهامِ إنكارٍ وتوبيخٍ مبيِّنًا أنَّهم فرُّوا مِن خِزْيٍ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٨٩).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٤٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٩١).

مُنقَضٍ، فسقَطوا في خزيٍ دائمٍ، والخِزْيُ: استحياءٌ في هوانٍ، فقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

هذه الجملةُ تَتنزَّل مِن جملةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ منزلةَ التَّعليلِ؛ لأنَّ العاقلَ لا يَرضَىٰ لنفسه عملًا يؤُولُ به إلىٰ مثلِ هذا العذابِ، فلا يُقدِم علىٰ ذلك إلا مَن لا يَعلَمُ أنَّ مَن يحادد اللهَ ورسولَه، يَصِيرُ إلىٰ هذا المصيرِ السَّيئ(٢).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ أيضًا شرحُ أحوالِ المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تَبُوكَ(٣).

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا علَّل فعلَ المستهينين، أتبَعه تعليلَ أمرِ صِنْفٍ آخَرَ أخفَّ منهم نفاقًا بما عندهم ممَّا يُقارِبُ التَّصديقَ، فقال: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾(٤).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لذِكرِ حالٍ مِن أحوالِ جميعِ المنافقين؛ كما تقدَّم في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾؛ وهو إظهارُهم الإيمانَ بالمعجزاتِ، وإخبارُ اللهِ رسولَه ﷺ بالمغيَّبات(٥).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٩٢).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥١٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٤٧).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا وصَفهم بالنفاقِ، حقَّقه بعدمِ مبادرتِهم إلىٰ التَّوبة التي هي فعلُ المؤمنين، وباجترائهم علىٰ الإنكارِ مع كونِ السَّائل لهم مَن بلَغ الغايةَ في الجلالِ والوقار والكمال، فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾(١).

الظاهرُ أنَّها معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾، أو علىٰ جملةِ ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾، فيكون المرادُ بجملةِ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أنَّهم يَحلِفون إن لم تَسألْهم(٢).

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا حقَّق استهزاءَهم، أنتج قولَه: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾(٣).

لمَّا كان قولُهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ اعتذارًا عن مناجاتهم؛ أي: إظهارًا للعُذْرِ الذي تَناجَوْا مِن أجلِه، وأنَّه ما يحتاجُه المُتعَبُ؛ مِن الارتياحِ إلىٰ المَزْحِ والحديثِ في غير الجد، فلمَّا كشَف اللهُ أمرَ استهزائهم، أردَفه بإظهارِ قلَّة جدوىٰ اعتذارِهم؛ إذ قد تلبَّسوا بما هو أشنَعُ وأكبر ممَّا اعتذَروا عنه؛ وهو التباسُهم بالكفرِ بعد إظهارِ الإيمان؛ فجملةُ ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ مِن جملة القولِ الذي أُمِر الرسولُ ﷺ أن

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٤٩).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٥١٧).

يقولَه، وهي ارتقاءٌ في توبيخِهم، فهي متضمِّنةٌ توكيدًا لمضمون جملةِ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مع زيادةِ ارتقاءٍ في التَّوبيخ، وارتقاءٍ في مَثالبِهم بأنَّهم تلبَّسوا بما هو أشَدُّ؛ وهو الكفرُ؛ فلذلك قُطِعتِ الجملةُ عن التي قبلها، علىٰ أنَّ شأنَ الجُمَلِ الواقعة في مقامِ التَّوبيخ أن تُقطَعَ ولا تُعطَفَ؛ لأنَّ التَّوبيخَ يقتضي التَّعدادَ(١).

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أفعالًا وأقوالًا لطوائفَ مِن المنافقين - منهم مَن كان معه ﷺ في العسكرِ - هي في غايةِ الفساد، كان ذلك ربما اقتضىٰ أن يُسأَلَ عن المتخلِّفين لو خرَجوا ما كان يكونُ حالُهم؟ فقال جوابًا عن ذلك، واستدلالًا علىٰ أنَّ إجرامَ الذين لم يَعْفُ عنهم منهم خُلُقٌ لازمٌ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾(٢).

يظهرُ أن تكونَ هذه الآية احتراسًا عن أن يظُنَّ المنافقون أنَّ العفوَ المفروض لطائفةٍ منهم هو عفوٌ ينالُ فريقًا منهم باقين علىٰ نفاقِهم، فعقَّب ذلك ببيانِ أنَّ النفاقَ حالةٌ واحدةٌ، وأنَّ أصحابه سواءٌ؛ ليُعلَمَ بذلك أنَّ افتراقَ أحوالهم بَيْنَ عفوٍ وعذابٍ لا يكون إلا إذا اختلَفتْ أحوالُهم بالإيمانِ والبقاء علىٰ النفاق، ففصَل هاتِهِ الجملةَ عن التي قبلها: إمَّا لأنَّها كالبيانِ للطائفة المستحِقَّة العذابَ، وإمَّا أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا في حُكْمِ الاعتراض(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥١).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥١٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥٣).

اعلَمْ أنَّ هذا شرحُ نوعٍ آخَرَ مِن أنواعِ فضائحهم وقبائحهم؛ والمقصودُ بيانُ أنَّ إناثَهم كذكورهم في تلك الأعمالِ المنكَرة والأفعال الخبيثة، فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: في صفة النفاق(١).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

ولمَّا بيَّن كثيرًا مِن أحوالهم، فاشتدَّ التَّشوُّفُ إلىٰ مآلهم، وكان مقصودُها بإظهارِ الإيمان والاعتذارِ عن النَّقائض بتأكيدِ الأَيْمانِ إنَّما هو التقرُّبُ إلىٰ المؤمنين والتحبُّب طمَعًا في العيشِ في أكنافهم، وفَرَقًا مِن المعاجَلةِ بما يستحقُّون مِن إتلافهم؛ بيَّن أنَّ لهم علىٰ هذا الخداعِ العذابَ الدائم، والطَّردَ اللازم، وجمَع معهم المصارِحين بالكفر إعلامًا بأنَّهم إن لم يكونوا أعظَمَ عنادًا منهم، فهُمْ سواءٌ، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾(٢).

هذه الجملة إمَّا استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وإمَّا مبيِّنةٌ لجملة ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ لأنَّ الخلودَ في جهنَّمَ واللعنَ بيانٌ للمرادِ مِن نسيان الله إيَّاهم(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن مِن قبلُ في المنافقين والمنافقاتِ أنَّه نَسِيَهم -أي: جازاهم علىٰ تَرْكِهم التَّمسُّكَ بطاعةِ الله-، أكَّد هذا الوعيدَ، وضمَّ المنافقين إلىٰ الكفارِ فيه، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ولا شكَّ أنَّ النَّارَ المخلَّدة مِن أعظَمِ العقوبات(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٩٧).
(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٢١).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٩٨).

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

لمَّا كان حالُهم في الإقبالِ على العاجلة لكونها حاصلةً والإعراضِ عن العاقبة لأنَّها غائبةٌ مشابِهًا لحالِ مَن كان قبلهم مِن الأُمَمِ الخالية والقرون الماضية؛ بيَّن لهم ذلك، وختَم ببيانِ سُوءِ أحوالهم، وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالِهم، فقال مُلتفتًا إلى أسلوبِ الخطاب؛ لأنَّه أوقعُ في بابِ العتاب، وأقعَدُ في استجلابِ المصالح للمَتاب: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾[(١)].

هذا الخطابُ التفاتٌ عن ضمائرِ الغَيْبةِ الراجعة إلى المنافقين إلى خطابِهم لقصدِ التَّفريع والتَّهديد بالموعظة، والتَّذكيرِ عن الغُرورِ بما هم فيه مِن نِعْمةِ الإمهال؛ بأنَّ آخِرَ ذلك حَبْطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأن يَحِقَّ عليهم الخسرانُ[(٢)].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه بهذه الآيةِ تشابُهَهم في التَّمتُّعِ بالعاجل، وختَمها بهذا الختامِ المؤذِنِ بالانتقام؛ أتبعَ ذلك بتخويفِهم مِن مشابهتِهم فيما حَلَّ بطوائفَ منهم، مُلتفِتًا إلى مقامِ الغَيْبةِ؛ لأنَّه أوقعُ في الهَيْبة، فقال مُقرِّرًا لخسارتهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾[(٣)].

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٢٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٥٦).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٤٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شبَّه المنافقين بالكفار المتقدِّمين في الرَّغبة في الدُّنيا، وفي تكذيبِ الأنبياء، والمبالَغةِ في إيذائهم؛ بيَّن أنَّ أولئك الكفارَ المتقدِّمين منهم؛ فذكَر هؤلاء الطوائفَ الستَّةَ؛ فأولُهم: قومُ نوحٍ، واللهُ أهلَكَهم بالإغراق. وثانيهم: عادٌ، واللهُ تعالىٰ أهلَكهم بإرسالِ الرِّيح العقيم عليهم. وثالثهم: ثمودُ، واللهُ أهلَكهم بإرسالِ الصَّيحة والصاعقة. ورابعهم: قومُ إبراهيمَ، أهلَكهم اللهُ بسَلْبِ النِّعْمة عنهم. وخامسهم: قومُ شُعَيبٍ، وهم أصحابُ مَدْيَنَ، واللهُ تعالىٰ أهلَكهم بعذابِ يومِ الظُّلَّةِ. والمؤتَفِكاتُ: قومُ لوطٍ، أهلَكهم اللهُ بأن جعَل عاليَ أرضِهم سافلَها، وأمطَر عليهم الحجارةَ(١).

ثم وعَظ تعالىٰ المنافقين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّ المنافقين بعضُهم مِن بعضٍ، وما توعَّدهم به، وما استتبَعه مِن تهديدِهم بإهلاكِ مَن شابَهوه، وختَم بما سبَّب هلاكَهم مِن إصرارِهم وعدمِ اعتبارهم؛ عطَف ببيانِ حالِ المؤمنين؛ ترغيبًا في التَّوبةِ؛ طمعًا في مثلِ حالهم، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٩٩).
(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤٥٢).
(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٤٣).

هذه تُقابِلُ قولَه: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍ ﴾؛ لبيانِ أنَّ الطائفةَ التي ينالها العفوُ هي الملتحِقةُ بالمؤمنين؛ فالجملة معطوفةٌ على جملة ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍ ﴾، وما بَيْنَهما جُمَلٌ تسلسَلَ بعضُها عن بعضٍ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بالَغ في وصفِ المنافقين بالأعمالِ الفاسدة والأفعالِ الخبيثة، ثم ذكَر عَقِيبَه أنواعَ الوعيدِ في حقِّهم في الدُّنيا والآخرة؛ ذكَر بعده في هذه الآيةِ كَوْنَ المؤمنين موصوفين بصفاتِ الخير وأعمالِ البِرِّ، على ضدِّ صفاتِ المنافقين، ثم ذكَر بعده في هذه الآيةِ أنواعَ ما أعَدَّ اللهُ لهم مِن الثوابِ الدائم، والنعيمِ المقيم؛ فأمَّا صفاتُ المؤمنين فهي قوله: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾(٢).

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ بيانٌ لحُسْنِ حالِ المؤمنين والمؤمنات حالًا ومآلًا، إثر بيانِ قُبْحِ حالِ أضدادهم عاجلًا وآجلًا، والتعبيرُ عن نسبةِ هؤلاء بعضِهم إلى بعضٍ بالوَلايةِ، وعن نسبةِ أولئك بـ﴿مِن﴾ الاتصاليةِ؛ للإيذانِ بأنَّ نسبةَ هؤلاء بطريق القَرابة الدِّينية، المبنيَّةِ على المعاقَدةِ المستتبِعة للآثار؛ مِن المعونةِ، والنُّصرة، وغيرِ ذلك، ونسبةُ أولئك بمقتضى الطبيعةِ والعادة(٣).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾

ولمَّا ختَم الآيةَ بوصفِ العِزَّةِ والحِكْمة المناسبِ لافتتاحِها بالموالاة، وتعقيبِها بآية الجهاد، وذلك بعد الوعدِ بالرحمة إجمالًا؛ أتبعها بما هو أشدُّ التئامًا بها؛ بيانًا

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٦٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٠٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٨٢).

للرحمة، وتفصيلًا لها؛ ترغيبًا للمؤمنين بالإنعامِ عليهم بكلِّ ما رامَهُ المنافقون بنفاقهم في الحياةِ الدُّنيا، وزادهم بأنَّه دائمٌ، وأخبَر بأنَّ ذلك هو الفوزُ، لا غيرُه، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (١).

لمَّا أعقَب المنافقين بذِكْرِ ما وعَدهم به مِن نارِ جهنَّمَ، أعقَب المؤمنين بذِكْرِ ما وعَدهم به مِن نعيمِ الجِنان (٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الوعدَ في الآية الأُولىٰ علىٰ سبيل الإجمال، ذكَره في هذه الآيةِ علىٰ سبيل التَّفصيل؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ وعَد بالرحمة، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ تلك الرحمةَ هي هذه الأشياءُ (٣).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تفصيلٌ لآثارِ رحمتِه الأخرويَّة إثر ذِكْرِ رحمتِه الدُّنيويَّة، والإظهارُ في موقعِ الإضمار لزيادةِ التَّقرير، والإشعارِ بعِلِّيَّةِ وصفِ الإيمان لحصولِ ما تعلَّق به الوعدُ، وعدمُ التَّعرضِ لذِكْرِ ما مرَّ مِن الأمرِ بالمعروف وغيرِ ذلك للإيذان بأنَّه مِن لوازمِه ومستتبعاتِه (٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا ثبَتَتْ موالاةُ المؤمنين ومقاطعتُهم للمنافقين والكافرين، وكان ما مضىٰ مِن الترغيبِ والترهيب كافيًا في الإنابة، وكان مَن لم يَرجِعْ بذلك عظيمَ الطغيان، غريقًا في الكفران؛ أتبَع ذلك الأمرَ بجهادِهم بما يَليقُ بعنادهم، فقال آمرًا لأعظَمِ المتَّصِفين بالأوصاف المذكورة، مُفخِّمًا لمقداره بأجلِّ أفرادِ الأمرِ بالمعروف

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٤٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٦٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٠١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ٨٣).

والنهي عن المنكر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[(١)].

لمَّا أشعَر قولُه تعالىٰ في الآيةِ السابقة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ بأنَّ لهم عذابين -عذابًا أُخْرويًّا؛ وهو نارُ جهنَّمَ-، تعيَّن أنَّ العذابَ الثاني عذابٌ دنيويٌّ؛ وهو عذابُ القتل، فلمَّا أعقَب ذلك بشنائعِ المنافقين، وبضَرْبِ المَثَلِ لهم بالأُمَمِ البائدة؛ أمَر نبيَّه بجهادِ المنافقين[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف المنافقين بالصفاتِ الخبيثة، وتوعَّدهم بأنواعِ العقاب، وكانت عادةُ الله تعالىٰ في هذا الكتابِ الكريم جاريةً بذِكْرِ الوعدِ مع الوعيد؛ لا جرَمَ ذكَر عَقِيبه وَصْفَ المؤمنين بالصفاتِ الشريفة الطاهرةِ الطيبة، ووعَدهم بالثوابِ الرفيع، والدرجاتِ العالية، ثم عاد مرةً أخرىٰ إلىٰ شرحِ أحوال الكفار والمنافقين[(٣)].

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤ ﴾

ولمَّا أتىٰ بالدَّليلِ العامِّ علىٰ إجرامهم، أتبعه الدَّليلَ الخاص عليه، وهو أيضًا دليلٌ علىٰ دليلٍ، فقال: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٤٦-٥٤٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٦٥).
(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٠٣).
(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٤٧).

لمَّا كان معظَمُ ما أُخِذ علىٰ المنافقين هو كلماتٍ دالـةً علـىٰ الطَّعـنِ في الرسـول ﷺ، ونحوِ ذلك مِن دلائلِ الكفر، وكانوا إذا نُقِل ذلك عنهم تَنصَّلوا منه بالأَيْمانِ الكاذبة؛ عُقِّبَتْ آيةُ الأمرِ بجهادهم بالتَّنبيهِ علىٰ أنَّ ما يَتنصَّلون به تنصُّلٌ كاذبٌ، وأنْ لا ثقةَ بحَلِفِهم، وعلىٰ إثباتِ أنَّهم قالوا ما هو صريحٌ في كفرهم؛ فجملةُ ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا، يُثِيرُه الأمرُ بجهادهم مع مشاهدةِ ظاهرِ أحوالهم مِن التنصُّل ممَّا نُقِل عنهم، إن اعتُبِر المقصودُ مِن الجملة تكذيبَهم في حَلِفِهم(١).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ تدلُّ علىٰ أنَّ أقوامًا مِن المنافقين قالوا كلماتٍ فاسدةً، ثم لمَّا قيل لهم: إنَّكم ذكَرْتم هذه الكلماتِ، خافوا، وحلَفوا أنَّهم ما قالوا(٢).

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ استئنافٌ لبيانِ ما صدَر عنهم مِن الجرائمِ الموجِبة لِما مرَّ مِن الأمرِ بالجهاد، والغِلْظةِ عليهم، ودخولِ جهنَّمَ(٣).

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ولمَّا أقام سبحانه الدَّليلَ علىٰ ما ذُكِر بهذه الآيةِ التي ختَمها بأنَّه أغناهم مِن فضلِه، أتبَعها بإقامةِ الدَّليل عليها، وعلىٰ أنَّهم يَقبِضون أيديَهم، وعلىٰ اجترائهم علىٰ أقبحِ الكذبِ، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٦٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٠٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٨٤).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٥٢).

ثم يبيِّنُ تعالىٰ بعضَ مَن نقَم لإغناءِ الله تعالىٰ إيَّاه بما آتاه مِن فضلِه، ممَّن نكَث في يمينِه، وتولَّىٰ عن التوبةِ، بقولِه سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(١).

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

ثم بيَّن أنَّهم لم يَفُوا بما قالوا، بل ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

وحسَّن تعقيبَها بها أيضًا أنَّ في الأُولىٰ كفرانَ نِعْمةِ الغنىٰ مِن غيرِ عهدٍ، وفي هذه كفرانَها مع العهدِ؛ فهو تَرَقٍّ مِن الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، ودلَّ عظيمُ شأنِ العهد بتعظيمِ الجزاء علىٰ خيانتِه بقولِه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾(٢).

فلمَّا لم يَفُوا بما عاهَدوا اللهَ عليه، عاقَبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾(٣).

ثم بيَّن ما أورَثهم هذا البُخْلُ وخُلْفُ الوعدِ والكَذِبُ، فقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٥٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٥٣-٥٥٤).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٤٥).

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

ولمَّا كانت المعاهدةُ سببًا للإغناءِ في الظاهر، وكان ذلك ربما كان مظنَّةً لأن يَتوهَّم مَن لا عِلْمَ له أنَّ ذلك لخفاءِ أمرِ البواطن عليه سبحانه، وكان الحُكْمُ هنا واردًا على القلبِ بالنفاق الذي هو أقبَحُ الأخلاقِ، مع عدمِ القدرةِ لصاحبه على التخلُّصِ منه؛ كان ذلك أدَلَّ دليلٍ على أنَّه تعالى أعلَمُ بما في كلِّ قلبٍ مِن صاحبِ ذلك القلبِ، فعقَّب ذلك بالإنكارِ على مَن لا يَعلَمُ ذلك، والتَّوبيخِ له والتَّقريع، فقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(١).

استئنافٌ لأجلِ التقرير، والكلامُ تقريرٌ للمخاطَب عنهم؛ لأنَّ كونَهم عالِمين بذلك معروفٌ لدى كلِّ سامع، والسرُّ ما يُخفِيه المرءُ مِن كلام، وما يُضمِر في نفسِه، فلا يطَّلِعُ عليه الناسُ(٢).

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ هذا استفهامٌ تضمَّن التوبيخَ والتقريع، وهو خطابٌ للمؤمنين على سبيلِ التقرير، وأنَّه تعالى فاضحُ المنافقين، ومُعلِمُ المؤمنين أحوالَهم التي يكتُمونها شيئًا فشيئًا، سِرَّهم ونَجْواهم، والظاهر أنَّ الآيةَ في جميعِ المنافقين؛ مَن عاهَد وأخلَفَ، وغيرِهم(٣).

ثم توعَّد مَن صدَر منهم هذا الصنيعُ بقولِه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٥٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٧٤).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٦٨).
(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٤٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّه لم يَكفِهم كفرانُ نِعْمةِ الغنىٰ مِن غيرِ معاهدةٍ حتىٰ ارتكَبوا الكفرانَ بمنعِ الواجب مع المعاهدة، أخبَر أنَّه لم يَكفِهم أيضًا ذلك حتىٰ تَعَدَّوْهُ إلىٰ عيبِ الكُرَماءِ الباذلين بصفةِ حُبِّهم لربِّهم ما لم يوجِبْهُ عليهم، فقال تعالىٰ مُعبِّرًا بصيغةٍ تصلُحُ لجميعِ ما مضىٰ مِن أقسامِهم -إفهامًا لأنَّهم كلَّهم كانوا متخلِّقين بذلك، وإن لم يقُلْهُ إلا بعضُهم-: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ مِن أعمالِهم القبيحة؛ وهو لَمْزُهم مَن يأتي بالصَّدقاتِ طوعًا وطبعًا[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ مِن مساوئِ المنافقين نوعًا آخرَ -وهو لَمْزُهم المتصدِّقين- بقولِه سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(٣)].

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠ ﴾

ولمَّا كان ﷺ معروفًا بكثرةِ الاحتمال، وشِدَّة اللِّينِ المشيرِ إليه ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ للمبالغةِ في استجلابِهم، والحرصِ علىٰ نجاةِ جميعِ الخَلق، فكان معروفًا بالاستغفارِ لهم: تارةً علىٰ وجهِ الخصوص بسؤالهم عند اعتذارِهم

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١١٠).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٦١).

وحَلِفِهم، وتارةً على وجهِ العموم عند استغفاره لجميع المسلمين؛ أخبَره تعالىٰ مِن عاقبةِ أمره بما يُزهِّده فيهم؛ ليُعرِضَ عنهم أصلًا ورأسًا؛ لأنَّهم تجاوَزوا حقَّ الله في تَرْكِ الجهاد، ومنعِ الصَّدقة، وحقَّه ﷺ في لَمْزِه في الصَّدقات، ووصفِه بما يَجِلُّ عنه: إلىٰ حقوقِ المجاهِدين، الذين هو سبحانه خليفتُهم في أنفسِهم وأهليهم وأموالِهم، مع ما سبَق في علمِه للمنافقين مِن أنَّه لا يَغفِرُ لهم، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ ليس متصِلًا بالكلام السَّابق؛ وإنَّما كان نزولُه لسببٍ حدَث في أحوالِ المنافقين المحكيَّةِ بالآيات السَّالفة، فكان مِن جملةِ شرحِ أحوالهم وأحكامهم[2].

ثم بيَّن استحالةَ المغفرة لهم، وإن بُولِغَ في الاستغفارِ بقولِه تعالىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[3].

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

ولمَّا علَّل سبحانه عدمَ المغفرة بفِسْقِهم، وأتىٰ بالظاهرِ موضعَ المضمر -إشارةً إلىٰ اتصافِهم به، وتعليقًا للحُكْمِ بالوصف-؛ علَّل رسوخَهم في الفسقِ بعد أن قدَّم أنَّ المنافقين بعضُهم مِن بعضٍ -فهُمْ كالجسدِ الواحد- بقولِه: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٥٦-٥٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٧٦).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٦٣).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٥٦-٥٥٧).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهذه الآيةُ تشير إلىٰ ما حصَل للمنافقين عند الاستنفارِ لغزوةِ تبُوكَ، فيكون المرادُ بالمخلَّفين خصوصَ مَن تخلَّف عن غزوةِ تبُوكَ مِن المنافقين؛ ومناسبةُ وقوعها في هذا الموضعِ: أنَّ فرَحَهم بتخلُّفِهم قد قَوِيَ لمَّا استغفَر لهم النبيُّ ﷺ، وظَنُّوا أنَّهم استغفَلوه، فقضَوْا مأربَهم، ثم حصَّلوا الاستغفارَ؛ ظنًّا منهم بأنَّ معاملةَ الله إيَّاهم تَجري علىٰ ظواهرِ الأمور[1].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما ظهَر مِن النفاقِ والهُزْءِ مِن الذين خرَجوا معه إلىٰ غزوةِ تبُوكَ مِن المنافقين، ذكَر حالَ المنافقين الذين لم يخرُجوا معه، وتخلَّفوا عن الجهاد، واعتذَروا بأعذارٍ وعِلَلٍ كاذبة حتىٰ أَذِن لهم، فكشَف اللهُ للرسول ﷺ عن أحوالهم، وأعلَمه بسُوءِ فعالِهم؛ فأنزَل اللهُ عليه: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الآيةَ؛ أي: عن غزوةِ تبُوكَ[2].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ مِن قبائحِ أعمال المنافقين؛ وهو فرَحُهم بالعقودِ، وكراهتُهم الجهادَ[3].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ نوعٍ آخرَ مِن مساوئِ المنافقين -وهو جعْلُهم الفرحَ مكانَ الحُزْنِ، والكراهةَ مكانَ الرِّضا- بقولِه سبحانه: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٠).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٧٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١١٣).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٤٦٦).

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا كان غايةُ السُّرور الضَّحكَ، وكان اللازمُ لهم في الآخرة البكاءَ في دارِ الشَّقاء، الذي هو غايةُ الحُزْنِ لهم، فيها زفيرٌ وشهيقٌ، وهم يَصطرخون فيها؛ قال تعالىٰ مُهدِّدًا لهم، مسبِّبًا عن قبيحِ ما ذكَر مِن فعلِهم، مُخبِرًا في صورةِ الأمر إيذانًا بأنَّه أمرٌ لا بد مِن وقوعه: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[(١)].

تفريعُ كلامٍ على الكلامِ السابق مِن ذِكْرِ فرحهم، ومِن إفادة قوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مِن التَّعريض بأنَّهم أهلها وصائرون إليها[(٢)].

ثم أخبَر تعالىٰ عن عاجلِ أمرِهم وآجلِه؛ مِن الضَّحكِ القليل، والبكاءِ الطَّويل، المؤدِّي إليه أعمالُهم السَّيئة، التي مِن جملتِها ما ذُكِر مِن الفرحِ، بقولِه سبحانه: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا كان المسرورُ بشيءٍ الكارهُ لضدِّه الناهي عنه لا يفعل الضدَّ إلا تكلُّفًا، ولا قَلْبَ له إليه، وكان هذا الدِّينُ مبنيًّا على العِزَّةِ والغنىٰ؛ أتبَع ذلك بقولِه مسببًا عن فَرَحِهم بالتَّخلُّفِ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨١).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٦٨).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٦٤).

الفاءُ للتَّفريع علىٰ ما آذَنَ به قولُه: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾؛ إذ فُرِّع علىٰ الغضبِ عليهم وتهديدِهم عقابٌ آخرُ لهم؛ بإبعادِهم عن مشاركةِ المسلمين في غزواتِهم(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن مخازيَ المنافقين وسُوءَ طريقتهم، بيَّن بعدُ ما عرَّف به الرسولَ أنَّ الصلاحَ في ألا يستصحبَهم في غزَواته؛ لأنَّ خروجَهم معه يُوجِب أنواعًا مِن الفساد(٢).

ولمَّا جلَّىٰ سبحانه ما جلَّىٰ مِن أمرهم، فرَّع عليه قولَه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾(٣).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه الكلامَ في الاستغفارِ وتعليله إلىٰ أن ختَم بإهانة المتخلِّفين، وكان القتلُ المسبَّب عن الجهاد سببًا لتركِ الصلاة علىٰ الشهيدِ تشريفًا له؛ جعَل الموتَ الواقع في القعود المَرْضيِّ به عن الجهاد سببًا لتَرْكِ الصلاة إهانةً لذلك القاعدِ، فقال عاطفًا علىٰ ما أفهمتْ جملةُ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآيةَ -مِن نحوِ: فلا تستغفِرْ لهم أصلًا-: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١١٤).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٦٩).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٦٥).

لمَّـا انقضـىٰ الكـلامُ علـىٰ الاسـتغفارِ للمنـافقين، الناشـئِ عـن الاعتـذار والحَلِـفِ الكاذبينِ، وكان الإعـلامُ بـأنَّ اللهَ لا يغفـرُ لهـم مشُـوبًا بصـورةِ التَّخيير في الاستغفار لهـم، وكـان ذلـك يُبقِـي شـيئًا مِـن طَمَعِهـم في الانتفـاعِ بالاستغفار؛ لأنَّهـم يَحسَـبون المعاملةَ الربَّانية تَجري علىٰ ظواهرِ الأعمال والألفاظ؛ تهيَّأ الحالُ للتَّصريحِ بالنهي عن الاستغفارِ لهم، والصلاة علىٰ موتاهم؛ فإنَّ الصلاةَ علىٰ الميِّتِ استغفارٌ[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أمَر رسولَه ﷺ بـأن يسعىٰ في تخذيلِهم وإهـانتهم وإذلالهـم؛ فالـذي سبَق ذِكْرُه في الآيةِ الأُولىٰ -وهو منعُهم مِن الخروجِ معه إلىٰ الغزَوات- سببٌ قـويٌّ مِن أسبابِ إذلالهم وإهانتهم، وهذا الذي ذكَره في هذه الآيةِ -وهو منعُ الرسول مِن أن يصلِّيَ علىٰ مَن مات منهم- سببٌ آخرُ قويٌّ في إذلالهم وتخذيلهم[(٢)].

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولمَّا كان ابنُ أُبَيٍّ سببَ النهيِ عن الاستغفار لهم، وكان ابنُه عبدُ الله بنُ عبد الله مِن خيارِ المؤمنين، وخُلَّصِ المحسِنين، وكـان لـبعضِ المنـافقين أبنـاءٌ مثلُـه، وكـان مِـن طبعِ البشَرِ أن يذكُرَ في كثيرٍ مِن مَقالِه غِلَظًا مـا يَنـدَمُ عليـه، وكـان شـديدَ الوقـوف لِمـا حَفَّ بـه مِـن العلائقِ البدَنيَّـة، وشَمِله مِـن العوائقِ بالأوهـام النفسـانيَّة مـع أوهامـه وعوائقه، قاصرًا علىٰ قيودِه وعلائقه، فكان لإعادةِ الكلام وتكريـرِه وترديـده ومزيـدِ تقريـره تأكيـدٌ في النفـوس، وتعزيـةٌ وتثبيـتٌ في القلـوب؛ كـرَّر آيـةَ الإعجـابِ لهـذه الأسبابِ؛ لأنْ يكونَ حُكمُها علىٰ بالٍ مِن المخاطَبِ لا ينساه؛ لاعتقادِ أنَّ العمـلَ بـه

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١١٥).

مهمٌّ جدًّا، يفتقرُ إلىٰ فضلِ عنايةٍ، وأنَّ ذلك شبيهٌ بما أوهَم صاحبُه، فهو يتكلمُ فيه، ثم ينتقلُ إلىٰ غيرِه لغرضٍ صحيح، ثم يَرجِعُ إليه في أثناءِ حديثِه؛ لشِدَّةِ اهتمامِه به؛ تنبيهًا علىٰ ذلك، ولا يَرجِعُ إليه إلا علىٰ غايةِ ما يكون مِن حُسْنِ الربط، وبراعةِ التناسب. وعطفُها بالواوِ دُونَ الفاء؛ لأنَّ ذلك ليس مسبَّبًا عمَّا قبله؛ كما سبَق في الآيةِ الأُولىٰ؛ أي: لا تستغفِرْ لهم، ولا تُصَلِّ عليهم، ولا يُعجِبْكَ قولُهم مستعطِفِين لك في طلبِ محبَّتِك، وإن زَخْرَفوه وأكَّدوه بالأَيْمانِ التي اتخَذوها جُنَّةً: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[١].

ومناسبةُ ذِكرِ هذا الكلامِ هنا: أنَّه لمَّا ذكَر ما يدلُّ علىٰ شقاوتِهم في الحياة الآخرة، كان ذلك قد يُثيرُ في نفوسِ الناس أنَّ المنافقين حصَّلوا سعادةَ الحياة الدُّنيا بكثرةِ الأموال والأولاد، وخَسِروا الآخرةَ، وربما كان في ذلك حَيْرةٌ لبعضِ المسلمين أن يقولوا: كيف مَنَّ اللهُ عليهم بالأموالِ والأولاد وهم أعداؤُه وبُغَضاءُ نبيِّه؟! وربما كان في ذلك أيضًا مَسْلاةٌ لهم بَيْنَ المسلمين؛ فأعلَمَ اللهُ المسلمين أنَّ تلك الأموالَ والأولاد وإن كانت في صورةِ النِّعْمة فهي لهم نِقْمةٌ وعذابٌ، وأنَّ اللهَ عذَّبهم بها في الدُّنيا؛ بأنْ سلَبهم طُمَأنينةَ البالِ عليها[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ دوامَ غضبِه عليهم لا يُنافي إعطاءَهم الأموالَ والأولاد بقولِه سبحانه: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٦).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٧٣).

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾

ولمَّا افتُتحت قصَّتُهم بأنَّ المتقين لا يَتوقَّفون في الانتدابِ إلىٰ الجهاد علىٰ أمرٍ جديدٍ ولا استئذانٍ، بل يكتفون بما سبَق مِن عمومِ الحثِّ عليه والنَّدب إليه، فيبادِرون إليه الطرفَ، ولا يحاذِرون الحَتْفَ، وأنَّ مِن المنافقين مَن يستأذن في الجهادِ جاعلًا استئذانَه فيه بابًا للاستئذان في التَّخلُّف عنه، ومنهم مَن يصرِّحُ بالاستئذانِ في القعودِ ابتداءً مِن غير تستُّرٍ، وعقَّب ذلك بالنهيِ عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم، ثم مَرَّ في ذِكْرِ أقسامهم وما لَزِمهم مِن فضائحِهم وآثامهم، إلىٰ أن ختَم القصَّةَ بأنَّ أموالهم إنَّما هي لِفِتْنتِهم لا لرحمتِهم، ولِمِحْنتِهم لا لِمِنْحتِهم؛ أتبَع ذلك بدليلِه مِن أنَّهم لا يَتوصَّلون بها إلىٰ جهادٍ، ولا يَتوسَّلون إلىٰ دار المَعاد، فقال عاطفًا علىٰ ما أفهَمَه السياقُ مِن نحوِ أن يقالَ لأنَّهم لا يفعلون بها خيرًا، ولا يكسِبون أجرًا: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾(١).

هذا عطفُ غرضٍ علىٰ غرضٍ، قُصِد به الانتقالُ إلىٰ تقسيمِ فِرَقِ المتخلِّفين عن الجهاد مِن المنافقين وغيرِهم، وأنواعِ معاذيرِهم ومراتبِها في القَبول(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن في الآياتِ المتقدِّمة أنَّ المنافقين احتالُوا في رُخْصةِ التخلُّف عن رسول الله ﷺ، والقعودِ عن الغزوِ، وفي هذه الآيةِ زاد دقيقةً أخرىٰ؛ وهي أنَّه متىٰ نزَلَتْ آيةٌ مشتمِلةٌ علىٰ الأمرِ بالإيمان وعلىٰ الأمرِ بالجهاد مع الرسول، استأذَن أولو

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٧).

الثَّرْوةِ والقُدْرةِ منهم في التَّخلُّف عن الغزوِ، وقالوا لرسول الله ﷺ: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾؛ أي: مع الضُّعفاءِ مِن الناسِ والساكنين في البلدِ[1].

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧﴾

استئنافٌ قُصِد منه التَّعجيبُ مِن دناءةِ نفوسهم، وقلَّةِ رُجْلتِهم[2]؛ بأنَّهم رَضُوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعًا للنساء، وفي اختيارِ فعلِ ﴿رَضُواْ﴾ إشعارٌ بأنَّ ما تلبَّسوا به مِن الحالِ مِن شأنه أن يَتردَّدَ العاقلُ في قَبوله[3].

﴿رَضُواْ﴾ استئنافٌ لبيانِ سُوءِ صنيعِهم، وعدمِ امتثالهم لكِلا الأمرينِ[4].

﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨﴾

ولمَّا افتتَح القصَّةَ بمدحِ المتَّقين لمسابقتِهم إلى الجهاد مِن دُونِ استئذانٍ، ختمها بذلك، وذكَر ما أُعِدَّ لهم، فقال مُعلِمًا بالغِنى عنهم بمَن هو الخيرُ المحض تبكيتًا لهم وتقريعًا: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١١٨).

(٢) أي: الرجولة.

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩١).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٥٧٠-٥٧١).

افتتاحُ الكلام بحرفِ الاستدراك يؤذِنُ بأنَّ مضمونَ هذا الكلامِ نقيضُ مضمونِ الكلام الذي قبله أصلًا وتفريعًا، فلمَّا كان قعودُ المنافقين عن الجهاد مُسبَّبًا علىٰ كفرِهم بالرسول ﷺ، كان المؤمنون علىٰ الضدِّ مِن ذلك، وابتُدِئ وصفُ أحوالهم بوصفِ حالِ الرسول؛ لأنَّ تعلُّقَهم به واتباعَهم إيَّاه هو أصلُ كمالِهم وخيرهم، فقيل: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ ﴾(١).

لمَّا ذكَر أنَّ أولئك المنافقين اختاروا الدَّعَةَ، وكَرِهوا الجهادَ، وفَرُّوا مِن القتال، وذكَر ما أثَّر ذلك فيهم مِن الطَّبْعِ علىٰ قلوبهم؛ ذكَر حالَ الرسولِ والمؤمنين في المثابرةِ علىٰ الجهاد، وذلك ما لهم مِن الثواب، و﴿ لَٰكِنِ ﴾ وَضْعُها أن تقعَ بَيْنَ متنافِيَينِ، ولمَّا تضمَّن قولُ المنافقين: ﴿ذَرْنَا﴾، استئذانَهم في القعود؛ كان ذلك تصريحًا بانتفاءِ الجهاد، فكأنَّه قيل: رَضُوا بكذا ولم يجاهِدوا، ولكنِ الرَّسولُ والذين آمَنوا معه جاهَدوا(٢).

لمَّا شرَح حالَ المنافقين في الفرار عن الجهاد، بيَّن أنَّ حالَ الرسول والذين آمَنوا معه بالضدِّ منه؛ حيث بذَلوا المالَ والنفس في طلبِ رضوان الله، والتقرُّبِ إليه(٣).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ذَمَّ المنافقين، بيَّن ثناءَ المؤمنين، وما لهم في آخرتِهم، فقال: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٩٠).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٨٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١١٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٧).

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

ثم بيَّن الإفلاحَ الأعظم بقوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ ينشأ عن الإخبار بـ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾(٢).

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ استئنافٌ لبيانِ كونِهم مُفلِحِين(٣).

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

ولمَّا ختَم قِصصَ أهلِ المَدَرِ بذمِّ أُولي الطَّوْلِ منهم بتخلُّفهم، وكان ذَمُّهم إنَّما هو لكونِهم قادرين علىٰ الخروجِ في ذلك الوجهِ، وقدَّمهم لكثرةِ سماعهم للحِكْمة، وكان أهلُ الوبَرِ أقدرَ النَّاسِ علىٰ السَّفرِ؛ لأنَّ مبنىٰ أمرِهم علىٰ الحِلِّ والارتحال، فهم أجدَرُ بالذمِّ؛ لأنَّهم في غايةِ الاستعداد لذلك: تلاهم بهم، فقال: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٧١).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٩١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩١).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٧٢).

عُطِفت جملةُ ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ على جملةِ ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، وما بينهما اعتراضٌ؛ فالمراد بالمُعذِّرين: فريقٌ مِن المؤمنين الصادقين مِن الأعرابِ؛ كما تدلُّ عليه المقابَلةُ بقولِه: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أحوالَ المنافقين الذين كانوا في المدينةِ، ابتدأ في هذه الآيةِ بشرحِ أحوال المنافقين مِن الأعراب في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾[(٢)].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٩١﴾

ولمَّا كان مِن القاعدين مِن أهلِ المَدَرِ والوَبَرِ مَن له عُذْرٌ، استثناهم سبحانه، وساقَ ذلك مَساقَ النتيجةِ مِن المقدِّمات الظاهرة، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

استئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ ينشأ عن تهويلِ القعود عن الغزوِ، وما توجَّه إلىٰ المخلَّفين مِن الوعيدِ؛ استيفاءً لأقسامِ المخلَّفين مِن مَلُومٍ ومعذورٍ، مِن الأعراب أو مِن غيرهم، وإعادةُ حرفِ النَّفي في عطفِ الضُّعفاء والمرضىٰ لتوكيدِ نفيِ المؤاخذة عن كلِّ فريقٍ بخصوصه[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٩٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٠).

(٣) نظم الدرر (٨/ ٥٧٢-٥٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٩٤).

لَمَّا ذكَر حالَ مَن تخلَّف عن الجهادِ مع القدرة عليه، ذكَر حالَ مَن له عُذْرٌ في تركِه[(١)].

لَمَّا بيَّن الوعيدَ في حقِّ مَن يُوهِمُ العُذْرَ، مع أنَّه لا عُذْرَ له؛ ذكَر أصحابَ الأعذارِ الحقيقية، وبيَّن أنَّ تكليفَ الله تعالىٰ بالغزوِ والجهاد عنهم ساقطٌ[(٢)].

ثم بيَّن تعالىٰ الأعذارَ التي لا حرَجَ علىٰ مَن قعَد معها عن القتال؛ فذكَر منها ما هو لازمٌ للشَّخص لا ينفكُّ عنه، وما هو عارضٌ عَنَّ له بسببِ مرضٍ شغَله عن الخروجِ في سبيل الله، أو بسبب عَجْزِه عن التَّجهُّز للحرب، وبدأ بالأولِ فقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾[(٣)].

لَمَّا ذكَر المعتذِرين، وكانوا علىٰ قسمينِ: قِسْمٌ معذور في الشرع، وقسمٌ غيرُ معذور؛ ذكَر ذلك بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾[(٤)].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم عطَف علىٰ ذلك قولَه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾[(٥)].

معطوفٌ علىٰ ما قبله، وهم مندرِجون في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾، وذُكِروا علىٰ سبيلِ نفيِ الحرَجِ عنهم، وأنَّهم بالَغوا في تحصيلِ ما

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٨٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢١).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٧٦).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٣٤٧).

(٥) نظم الدرر (٨/ ٥٧٣).

يخرُجون به إلىٰ الجهادِ حتىٰ أفضىٰ بهم الحالُ إلىٰ المسألةِ، والحاجةِ لبَذْلِ ماءِ وجوههم في طلبِ ما يَحمِلهم إلىٰ الجهاد، والاستعانةِ به حتىٰ يجاهِدوا مع الرسول ﷺ، ولا يفُوتَهم أجرُ الجهاد[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الضُّعفاءَ والمرضىٰ والفقراء، بيَّن أنَّه يجوز لهم التخلُّفُ عن الجهاد بشرطِ أن يكونوا ناصحِينَ للهِ ورسوله، وبيَّن كونَهم محسِنِين، وأنَّه ليس لأحدٍ عليهم سبيلٌ؛ ذكَر قِسْمًا رابعًا مِن المعذورين، فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

ثم ذكَر العُذْرَ الراجعَ إلىٰ المال، لا إلىٰ البدَنِ، فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[3].

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ولمَّا نفىٰ السَّبيلَ عمَّن وصَفه، كَرَّ علىٰ ذَمِّ مَن انتفىٰ عنه هذا الوصفُ، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾[4].

لمَّا نفَتِ الآيتانِ السابقتان أن يكونَ سبيلٌ علىٰ المؤمنين الضُّعفاءِ والمرضىٰ والذين لا يَجِدون ما يُنفِقون والذين لم يجدوا حَمُولةً، حصَرتْ هذه الآيةُ السَّبيلَ في كونه

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٨٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٢).

(٣) فتح القدير (٢/ ٤٤٦).

(٤) نظم الدرر (٨/ ٥٧٤).

علىٰ الذين يَستأذنون في التَّخلُّفِ وهم أغنياءُ، وهو انتقالٌ بالتخلُّصِ إلىٰ العودة إلىٰ أحوالِ المنافقين؛ كما دَلَّ عليه قولُه بعدُ: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٩٤]؛ فالقصرُ إضافيٌّ بالنسبةِ للأصناف الذين نُفِيَ أن يكونَ عليهم سبيلٌ، وفي هذا الحصرِ تأكيدٌ للنفيِ السابق؛ أي: لا سبيلَ عقابٍ إلا علىٰ الذين يَستأذنونك وهم أغنياءُ[١].

ثم أثبَتَ في حقِّ المنافقين ما نفَاه في حقِّ المحسِنين؛ فدَلَّ لأجلِ المقابلة أنَّ هؤلاء مُسِيئون[٢].

لمَّا قال في الآيةِ الأُولىٰ: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، قال في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى﴾ مَن كان كذا وكذا[٣].

ثم رَدَّ تعالىٰ المَلامةَ علىٰ المستأذِنين في القعودِ وهم أغنياءُ بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٤].

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾

ثم شرَع يُخبِرُ عن أشياءَ تقعُ منهم عند الرجوعِ دلالةً علىٰ أنَّ هذا كلامُه، وأنَّه عالِمٌ بالمغيَّباتِ؛ كلِّيِّها وجُزْئيِّها، يَعلَم ما كان، وما يكون، وما لم يكُنْ لو كان كيف كان

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٥).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٨٩).
(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٣).
(٤) محاسن التأويل (٥/ ٤٧٩).

يكونُ، فقال مُبيِّنًا لعدمِ عِلْمِهم: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لأنَّ هذا الاعتذارَ ليس قاصرًا على الذين يَستأذنون في التخلُّفِ؛ فإنَّ الإذنَ لهم يُغنيهم عن التبرُّؤِ بالحَلِفِ الكاذب؛ فضميرُ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ عائدٌ إلى أقرَبِ مُعادٍ؛ وهو قولُه: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ فإنَّهم فريقٌ مِن المنافقين، فهُمُ الذين اعتذَروا بعد رجوعِ الناس مِن غزوة تبُوكَ، وجُعِل المسنَدُ فعلًا مضارعًا لإفادةِ التجدُّدِ والتَّكرير[(٢)].

ثم أخبَر تعالى عمَّا سيتصدَّون له عند القُفولِ مِن تلك الغزوةِ بقولِه سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ووقَع ترتيبُهم للاعتذارِ على الأسهلِ فالأسهلِ على ثلاثِ مراتب: الأُولى: مطلَقُ الاعتذار؛ وقد مضى ما فيها. الثانية: تأكيدُ ذلك بالحَلِفِ للإعراض عنهم، فقال سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٦-٧).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٠).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢).

الجملة مستأنَفةٌ ابتدائيةٌ، تَعْدادٌ لأحوالهم، ومعناها ناشئٌ عن مضمونِ جملة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ تنبيهًا علىٰ أنَّهم لا يَرعَوُون عن الكذِبِ ومخادَعةِ المسلمين، فإذا قيل لهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾، حلَفوا علىٰ أنَّهم صادقون؛ ترويجًا لخداعهم، وهذا إخبارٌ بما سيُلاقي به المنافقون المسلمين قبل وقوعِه، وبعد رجوعِ المسلمين مِن الغزوِ(١).

لمَّا حكىٰ عنهم في الآيةِ الأُولىٰ أنَّهم يَعتذرون، ذكَر في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدون تلك الأعذارَ بالأَيْمانِ الكاذبة(٢).

ثم أخبَر تعالىٰ عمَّا سيُؤكِّدون به معاذيرَهم مِن أَيْمانِهم الفاجرة بقولِه سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٣).

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

ثم ذكَر المرتبةَ الثالثة: الحَلِفَ للرِّضا عنهم، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٤).

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّهم إذا حلَفوا لأجلِ أن يُعرِضَ عنهم المسلمون، فلا يَلُومونهم؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّن طلَبَهم

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٨).
(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٤).
(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٠).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٣).

رضَا المسلمين، وقد فرَّع اللهُ علىٰ ذلك أنَّه إن رَضِي المسلمون عنهم وأعرَضوا عن لَوْمِهم، فإنَّ اللهَ لا يَرضَىٰ عن المنافقين، وهذا تحذيرٌ للمسلمين مِن الرِّضا عن المنافقين بطريقِ الكناية؛ إذ قد عَلِم المسلمون أنَّ ما لا يُرضِي اللهَ لا يكونُ للمسلمين أن يَرضَوْا به[1].

لمَّا بيَّن في الآيةِ أنَّهم يَحلِفون باللهِ ليُعرِضَ المسلمون عن إيذائهم، بيَّن أيضًا أنَّهم يَحلِفون ليَرضَىٰ المسلمون عنهم، ثم إنَّه تعالىٰ نهىٰ المسلمين عن أن يَرضَوْا عنهم[2].

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

ولمَّا رتَّب سبحانه الاستئذانَ في القعودِ والرِّضا بما فيه مِن الدَّناءةِ على عدمِ الفقهِ تارةً، والعلمِ أخرىٰ، وختَم بصِنْفِ الأعراب؛ بيَّن أنَّ الأعرابَ أَوْلىٰ بذلك؛ لكونِهم أعرَقَ في هذا الوصفِ، وأجرَأَ علىٰ الفِسْقِ؛ لبُعْدِهم عن مَعدِنِ العلم، وصرفِهم أفكارَهم في غيرِ ذلك مِن أنواع المخازي؛ لتحصيلِ المال، الذي كلَّما دارُوا عليه طارَ عنهم فأبعَدَ، فهُمْ لا يَزالون في هَمِّه، قد شغَلهم ذلك عن كلِّ همٍّ، وهم يَحسَبون أنَّهم يُحسِنون صُنْعًا، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾[3].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، رجَع به الكلامُ إلىٰ أحوالِ المعذِّرين مِن الأعرابِ والذين كذَبوا اللهَ ورسولَه منهم، وما بَيْنَ ذلك استطرادٌ، دعا إليه قَرْنُ الذين كذَبوا اللهَ

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٤).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٤).

ورسولَه في الذِّكْرِ مع الأعراب، فلمَّا تَقضَّىٰ الكلامُ علىٰ أولئك، تخلَّص إلىٰ بقيَّةِ أحوال الأعراب، وللتَّنبيهِ علىٰ اتصال الغرَضينِ وقَع تقديمُ المسنَدِ إليه -وهو لفظُ الأعراب-؛ للاهتمامِ به مِن هذه الجهة، ومِن وراءِ ذلك تنبيهُ المسلمين لأحوالِ الأعراب؛ لأنَّهم لبُعْدِهم عن الاحتكاكِ بهم والمخالطة معهم قد تَخفَىٰ عليهم أحوالُهم، ويظُنُّون بجميعهم خيرًا[(١)].

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ منافقي الأعرابِ أشَدُّ رِجْسًا، فلا يُغتَرُّ بحَلِفِهم، وإن لم يُكذِّبْهم الوحيُ، فقال: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر ﷻ أحوالَ المنافقين بالمدينة، ذكَر مَن كان خارجًا منها ونائيًا عنها مِن الأعراب[(٣)].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾

ولمَّا أثبَتَ هذا الوصفَ لهذا الصِّنْفِ، بيَّن أنَّ أفرادَه انقسموا إلىٰ مَن ثبَت علىٰ ما هو الأليَقُ بحالهم، وقِسْمٌ نزَع إلىٰ ما هو الأليق بأهلِ المَدَرِ؛ كما انقسَم أهلُ المَدَرِ إلىٰ مثلِ ذلك، وبدأ بالخبيثِ لأنَّه الأصلُ فيهم، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٠).
(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤٨١).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٣١).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٤-٥).

هذا فريقٌ مِن الأعراب يُظهِر الإيمانَ، ويُنفِق في سبيل الله، وإنَّما يفعلون ذلك تقيَّةً وخوفًا مِن الغزوِ، أو حبًّا للمَحمَدة، وسلوكًا في مَسلَكِ الجماعة، وهم يُبطِنون الكفرَ، وينتظرون الفرصةَ التي تمكِّنُهم مِن الانقلاب علىٰ أعقابهم، وهؤلاء وإن كانوا مِن جملةِ منافقي الأعراب، فتخصيصُهم بالتَّقسيم هنا منظورٌ فيه إلىٰ ما اختَصُّوا به مِن أحوالِ النفاق[1].

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ شروعٌ في بيانِ تشعُّبِ جنسِ الأعراب إلىٰ فريقينِ، وعدمِ انحصارِهم في الفريقِ المذكور؛ كما يَتراءىٰ مِن ظاهرِ النَّظْمِ الكريم، وشرحٌ لبعضِ مَثالبِ هؤلاء المتفرِّعة علىٰ الكفرِ والنفاق بعد بيانِ تَماديهم فيهما[2].

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

هؤلاء هم المؤمنون مِن الأعراب، وفَّاهم اللهُ حَقَّهم مِن الثناءِ عليهم، وهم أضدادُ الفريقينِ الآخرينِ المذكورين في قولِه: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾، وقولِه: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾، ذكَر مقابلَه؛ وهو مَن يتَّخِذُ ما يُنفِق مَغنَمًا، وذكَر هنا الأصلَ الذي يترتَّب عليه إنفاقُ المال في القُرُبات؛ وهو الإيمانُ باللهِ واليوم الآخِر؛ إذ جزاءُ ما يُنفَق إنَّما يَظهَر ثوابُه الدائم في الآخرةِ، وفي قصَّةِ أولئك

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٥).

اكتفى بذِكْرِ نتيجةِ الكفر وعدم الإيمان؛ وهو اتخاذُه ما يُنفِقُ مغرمًا، وتربُّصه بالمؤمنين الدوائرَ(١).

ثم نوَّه تعالى بمؤمِني الأعرابِ الصَّادقين بقولِه سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر القِسْمَ الصالح منهم، وكانوا متفاوِتين: فمنهم السابقُ، وأكثرُهم التابعُ اللاحق؛ أتبَعه السابقين على وجهٍ شاملٍ حاصرٍ لصِنْفَي البادي والحاضر؛ إشارةً إلى أنَّه وإن أخَّره أصلُه فقد قدَّمه وصفُه، بحيث ساوى أهلَ الكمال في مطلَقِ الانخراطِ في ملكِهم، والفوزِ بدرجتِهم؛ لإحسانِه في اتباعهم؛ ترغيبًا لأهلِ القُدْرة والرحمة في اتباعِ أهلِ الرِّضوان والنِّعْمة، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣).

عُقِّب ذِكْرُ الفِرَقِ المتلبِّسة بالنَّقائص على تفاوتٍ بينها في ذلك بذِكْرِ القدوةِ الصالحة، والمَثَلِ الكامل في الإيمانِ والفضائل والنُّصْرة في سبيل الله؛ ليَحتذي مُتطلِّبُ الصلاحِ حَذْوَهم، ولئلا يخلوَ تقسيمُ القبائلِ الساكنة بالمدينة وحوالَيْها

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٩٣).
(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٣).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٧).

وبوادِيها عن ذِكْرِ أفضلِ الأقسام؛ تنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراءُ الفِرَقِ وأحوالِها؛ فالجملةُ عطفٌ على جملةِ ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾(١).

لمَّا بيَّن تعالى فضائلَ الأعرابِ المؤمنين المتصدِّقِين وما أُعِدَّ لهم مِن النعيم؛ بيَّن حالَ هؤلاء السابقين وما أُعِدَّ لهم، وشتَّانَ ما بَيْنَ الإعدادَينِ والثَّناءَينِ(٢).

ولمَّا بيَّن تعالى فضيلةَ مؤمني الأعرابِ بما تقدَّم، تأثَّره ببيانِ مَن هم فوقهم بمنازلَ مِن الفضيلةِ والكرامة بقولِه سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٣).

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

ولمَّا استوفى الأقسامَ الأربعة: قِسْمَي الحضَرِ وقِسْمَي البَدْوِ، ثم خلَط بَيْنَ قِسْمَينِ منهم تشريفًا للسَّابق وترغيبًا للَّاحق؛ خلَط بَيْنَ الجميع على وجهٍ آخَرَ، ثم ذكَر منهم فِرَقًا؛ منهم مَن نجَّز الحُكْمَ بجزائِه بإصرارٍ أو مَتابٍ، ومنهم مَن أخَّر أمرَه إلى يوم الحساب، وابتدأ الأقسامَ بالمستور عن غيرِ عِلْمِه؛ ليَعلَمَ أهلُ ذلك القسمِ أنَّه سبحانه عالمٌ بالخفايا، فلا يَزالوا أذلَّاءَ خوفًا ممَّا هدَّدهم به، فقال مُصرِّحًا بما لم يَتقدَّمِ التَّصريحُ به مِن نفاقِهم: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٧).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٤).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٨).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ شرَح أحوالَ منافقي المدينة، ثم ذكَر بعده أحوالَ منافقي الأعراب، ثم بيَّن أنَّ في الأعراب مَن هو مؤمنٌ صالحٌ مُخلِصٌ، ثم بيَّن أنَّ رؤساءَ المؤمنين مَن هم؟ وهم السابقون المهاجرون والأنصار، فذكَر في هذه الآيةِ أنَّ جماعةً مِن حولِ المدينة موصوفون بالنفاق، وإن كنتم لا تَعلَمون كونَهم كذلك، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾؛ وهم: جُهينةُ، وأسلَمُ، وأشجَعُ، وغِفارُ، وكانوا نازلِينَ حولها[١].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ شروعٌ في بيانِ أحوالِ منافقي أهل المدينة ومَن حولها مِن الأعراب بعد بيانِ حالِ أهل البادية منهم[٢].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر هذا القسمَ المارد الجافيَ، ثنَّىٰ بمقابلةِ اللَّيِّنِ الصافي؛ وهي الفِرْقةُ التي نجَّز المَتابَ عليها، والنَّظَرَ بعينِ الرحمة إليها، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

الأظهر أنَّ جملةَ ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾؛ أي: وممَّن حولكم مِن الأعراب منافقون، ومِن أهل المدينة آخَرون أذنبوا بالتخلُّف، فاعترَفوا بذُنوبهم بالتَّقصير؛ فقوله: ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ إيجازٌ؛ لأنَّه يدلُّ علىٰ أنَّهم أذنَبوا، واعترَفوا بذُنوبهم، ولم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالذُّنوب بصيغةِ الجمع

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٣٠).
(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٧).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١٠).

يقتضي أنَّها أعمالٌ سيئةٌ في حالةِ الإيمان، وكذلك التَّعبيرُ عن ارتكابِ الذُّنوب بخَلْطِ العملِ الصالح بالسَّيئ(١).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ حالَ المنافقين المتخلِّفين عن الغَزاةِ رغبةً عنها وتكذيبًا وشكًّا، بيَّن حالَ المذنِبين الذين تأخَّروا عن الجهادِ كسلًا وميلًا إلىٰ الراحة، مع إيمانِهم وتصديقهم بالحقِّ، فقال عزَّ شأنُه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾

ولمَّا كان مِن شأنِ الرِّضوان قَبولُ القُرْبان، أمَره ﷺ -تطهيرًا لهم، وتطييبًا لقلوبهم- بقولِه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾(٣).

لمَّا كان مِن شرطِ التَّوبة تدارُكُ ما يمكِنُ تداركُه ممَّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغزوِ مشتمِلًا علىٰ أمرينِ؛ هما: عدمُ المشاركةِ في الجهاد، وعدمُ إنفاقِ المال في الجهاد؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لطريقِ تدارُكِهم ما يمكِنُ تداركُه ممَّا فات؛ وهو نفعُ المسلمين بالمال؛ فالإنفاقُ العظيم علىٰ غزوةِ تبُوكَ استنفَد المالَ المُعَدَّ لنوائبِ المسلمين، فإذا أُخِذ مِن المخلَّفين شيءٌ مِن المال، انجبَر به بعضُ الثَّلْمِ الذي حَلَّ بمالِ المسلمين؛ فهذا وجهُ مناسبةِ ذِكْرِ هذه الآيةِ عَقِب التي قبلها(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢١).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٨).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٢).

ثم أمَر تعالىٰ رسولَه صلوات الله عليه أن يأخذَ مِن أموالهم التي تقدَّموا إليه -أن يَتصدَّقَ بها عنهم كفارةً لذُنوبهم- بقولِه ﷻ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾

ولمَّا ساقَ توبتَهم سبحانه في حَيِّزِ ﴿عَسَى﴾، وكان الأصلُ فيها التَّرجيةَ في المحبوب، والإشفاقَ في المكروه، وأمَر سبحانه بالأخذِ مِن أموالهم لذلك، وكان إخراجُ المال شديدًا على النُّفوس، لا سيَّما في ذلك الزمانِ؛ كان ربما استوقَف الشَّيطانُ مَن لم يَرسَخْ قَدَمُه في الإيمانِ عن التوبة، وما يَترتَّب عليها مِن الصَّدقةِ؛ لعدمِ الجزمِ بأنَّها تُقبَل؛ فأتبَع ذلك سبحانه بقولِه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

جملةُ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن التَّعليل بقولِه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ مَن يَسأل عن مُوجِبِ اضطرابِ نفوسهم بعد أن تابوا، فيكون الاستفهامُ تقريرًا مشُوبًا بتعجيبٍ مِن تردُّدهم في قَبول توبتهم[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن القومِ الذين تقدَّم ذِكْرُهم أنَّهم تابوا عن ذُنوبِهم، وأنَّهم تصدَّقوا، وهناك لم يذكُرْ إلا قولَه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وما كان ذلك صريحًا في قَبول التوبة؛ ذكَر في هذه الآيةِ أنَّه يَقبَلُ التوبةَ، وأنَّه يأخذُ الصَّدقاتِ؛ والمقصود ترغيبُ مَن لم يتُبْ في التوبةِ، وترغيبُ كلِّ العصاةِ في الطاعة[4].

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٩٢).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٣٩).

ثم هيَّج إلىٰ التوبةِ والصدقة اللَّتينِ كلٌّ منهما يحُطُّ الذُّنوبَ، ويمحِّصُها ويَمحَقها، وإخبارٌ بأنَّ كلَّ مَن تاب إليه تاب عليه، ومَن تصدَّقَ تقبَّلَ منه(١).

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ولمَّا أمَره مِن تطهيرهم بما يُعيدُهم إلىٰ ما كانوا عليه قبل الذَّنْبِ، عطَف علىٰ قولِه: ﴿ خُذْ ﴾ قولَه -تحذيرًا لهم مِن مثلِ ما وقَعوا فيه-: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ ﴾، الذي هو في قوَّةِ إخبارهم بأنَّ اللهَ يَقبَلُ التوبةَ، وقُلْ لهم: اعمَلوا؛ أي: بعد قَبول التوبة؛ فإنَّ التوبةَ إنَّما ترفَع المؤاخذةَ بما مضىٰ؛ فوجَب علىٰ المؤمنِ الرَّاغب في الكمال بعد توبتِهِ أن يَزيدَ مِن الأعمالِ الصالحة؛ ليجبُرَ ما فاتَه مِن الأوقاتِ التي كانت حقيقةً بأن يُعمِّرَها بالحسنات، فعمَّرها بالسَّيئات، فإذا ورَدتْ عليها التوبةُ، زالت السَّيئات، وأصبَحتْ تلك المدَّةُ فارغةً مِن العملِ الصالح؛ فلذلك أُمِروا بالعمل عَقِب الإعلام بقَبول توبتِهم؛ لأنَّهم لمَّا قُبِلتْ توبتُهم، كان حقًّا عليهم أن يدُلُّوا علىٰ صِدْقِ توبتِهم، وفَرْطِ رغبتِهم في الارتقاء إلىٰ مراتبِ الكمال؛ حتىٰ يَلحَقوا بالذين سبقوهم(٣).

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ زيادةُ ترغيبٍ لهم في العملِ الصالح الذي مِن جملتِه التوبةُ، وللأوَّلِينَ في الثَّباتِ علىٰ ما هم عليه(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٩٥).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٠٠).

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر القِسْمَينِ المُنجَّزَ عذابُهم ومَثابُهم، ذكَر المؤخَّر أمرُهم؛ وهو القسمُ الظالم لنفسه، فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

هذا فريقٌ آخَرُ عُطِف خبَرُه على خبَرِ الفِرَقِ الآخَرين، والمرادُ بهؤلاء: مَن بَقِي مِن المخلَّفِين لم يتُبِ اللهُ عليه، وكان أمرُهم موقوفًا إلى أن يقضيَ اللهُ بما يشاء(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى قسَّم المتخلِّفين عن الجهادِ ثلاثةَ أقسامٍ: القسم الأول: المنافقون الذين مرَدُوا على النفاق. القسم الثاني: التَّائبون؛ وهم المرادون بقولِه: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾، وبيَّن تعالى أنَّه قَبِلَ توبتَهم. والقسم الثالث: الذين بقُوا موقوفين؛ وهم المذكورون في هذه الآيةِ. والفَرْقُ بَيْنَ القسمِ الثاني وبين هذا الثالثِ: أنَّ أولئك سارَعوا إلى التوبة، وهؤلاء لم يُسارِعوا إليها(٣).

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ذكَر سبحانه ثلاثةَ أقسامٍ في المتخلِّفين: الأول: المنافقون الذين مرَدُوا على النفاق. والثاني: التائبون المعترِفون بذُنوبهم. الثالث: الذين بَقِيَ أمرُهم موقوفًا في تلك الحالِ، وهم المُرْجَوْنَ لأمرِ الله؛ مِن أرجَيْتُه وأرجَأْتُه: إذا أخَّرْتَه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٤).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٦).
(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٤٤).
(٤) فتح القدير (٢/ ٤٥٥).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر الذين أقامهم في مُقامِ الخطَرِ، أتبَعه تعيينَ طائفةٍ مِن القسمِ الأول المستورِ، الموصوفِ بالمُرُودِ[1]؛ فألحَقَ بهم الضَّرَرَ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾[2].

هذا كلامٌ علىٰ فريقٍ آخَرَ مِن المؤاخَذين بأعمالٍ عَمِلوها، غَضِب اللهُ عليهم مِن أجلِها، وهم فريقٌ مِن المنافقين بنَوْا مسجدًا حول قُبَاءَ لغرضٍ سيِّئٍ؛ ليَنصرِفَ إخوانُهم عن مسجدِ المؤمنين، ويَنفرِدوا معهم بمسجدٍ يخُصُّهم؛ فالجملة مستأنَفةٌ ابتدائيةٌ، علىٰ قراءةِ مَن قرأها غيرَ مفتتحةٍ بواو العطف، وقرأها البقيةُ بواو العطف في أولها، فتكونُ معطوفةً علىٰ التي قبلها؛ لأنها مثلُها في ذكر فريقٍ آخرَ مثل مَن ذُكر فيما قبلها. وعلىٰ كلتا القراءتين فالكلامُ جملةٌ إثر جملة[3].

لمَّا ذكَر طرائقَ ذميمةً لأصنافِ المنافقين أقوالًا وأفعالًا، ذكَر أنَّ منهم مَن بالَغ في الشَّرِّ حتىٰ ابتنىٰ مَجمَعًا للمنافقين، يُدبِّرون فيه ما شاؤوا مِن الشَّر، وسمَّوه مسجدًا[4].

ما زال السياقُ في فضحِ المنافقين، وإغلاقِ أبوابِ النفاق في وجوهِهم؛ حتىٰ يتوبوا إلىٰ اللهِ تعالىٰ، أو يَهلِكوا وهم كافرون، فقال تعالىٰ ذاكرًا فريقًا منهم:

---

(١) أي: الذين مردوا علىٰ النفاق؛ أي استمروا وعتوا.

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٥).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٥٠٢).

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم قال ناهيًا عن إجابتِهم إلىٰ ما أرادوا به مِن التَّلبيسِ إنتاجًا عن هذا الكلامِ الذي هو أمضىٰ مِن السِّهامِ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[2].

ثم نهىٰ اللهُ سبحانه رسولَه صلىٰ الله عليه وآله وسلم عن الصلاةِ في مسجدِ الضِّرار، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[3].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا بطريقِ الإشارة والتَّلويح أنَّ التَّأسيسَ مثلُ ابتداءِ خَلْقِ الحيوان، فمَن جُبِل مِن أولِ مرَّةٍ جِبِلَّةَ شرٍّ لا يصلُحُ للخير أبدًا، ولا يَقبلُه؛ ذكَره علىٰ سبيلِ التصريح، فسبَّبَ عمَّا مضىٰ قولَه ممثِّلًا الباطلَ ببناءٍ علىٰ حَرْفِ وادٍ واهٍ جدًّا علىٰ شَفِير جهنَّمَ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[4].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٤٢٤).
(٢) نظم الدرر (٩/ ١٨).
(٣) فتح القدير (٢/ ٤٥٩).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٠).

تفريعٌ على قوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزيادةِ بيانِ أحقِّيَّةِ المسجدِ المؤسَّس على التقوى بالصلاة فيه[1].

ثم أشار إلى فضلِ مسجدِ التقوى على مسجدِ الضِّرارِ بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[2].

ثم فاضَل بَيْنَ المساجدِ بحسَبِ مقاصدِ أهلها وموافقتِها لرِضاه، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

ولمَّا كان ما تقدَّم غيرَ قاطعٍ في إخرابه -لِما ثبَت للمساجد مِن الحُرْمةِ-، استأنَف الإخبارَ عن أنَّه لا يُعَدُّ في عِدادِ المساجد بوجهٍ، وإنَّما هو في عِدادِ بيوتِ الأصنام؛ فهو واجبُ الإعدام، فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾[4].

جملةُ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾ يجوز أن تكونَ مستأنَفةً لتَعْدادِ مساوئِ مسجدِ الضِّرار بذِكْرِ سُوءِ عواقبِه بعد أن ذكَر سُوءَ الباعث عليه، وبعد أن ذكَر سُوءَ وَقْعِه في الإسلام؛

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٣٣).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٥٠١).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٥١).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢١).

بأنْ نهىٰ اللهُ رسولَه ﷺ عن الصلاة فيه، وأمَره بهدمِه؛ لأنَّه لمَّا نهاه عن الصلاة فيه، فقد صار المسلمون كلُّهم مَنْهيِّينَ عن الصلاةِ فيه؛ فسُلِب عنه حُكْمُ المساجدِ؛ ولذلك أمَر رسولُ الله ﷺ بهدمِه[(١)].

لمَّا أمَر بتخريبِ ذلك المسجدِ، ظَنُّوا أنَّه إنَّما أمَر بتخريبه لأجلِ الحسَدِ، فارتفَع أمانُهم عنه، وعظُمَ خوفُهم منه في كلِّ الأوقات، وصاروا مرتابِينَ في أنَّه هل يترُكُهم علىٰ ما هم فيه، أو يأمر بقتلِهم ونَهْبِ أموالهم؟[(٢)].

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾

ولمَّا تقدَّم الإنكارُ علىٰ المتثاقِلين عن النَّفْرِ في سبيلِ الله، ثم الجَزْمُ بالأمرِ بالجهاد بالنفس والمال، وكان أمرُه تعالىٰ كافيًا للمؤمنِ الذي صدَّق إيمانَه بالإسلام في امتثالِه لذلك في مَنشَطِه ومَكرَهِه، وكان كثيرٌ منهم قد فعلوا بتثاقُلِهم ما يَقدحُ في إيمانِهم طمعًا في سَتْرِه بمعاذيرِهم وأيمانِهم؛ اقتضىٰ المقامُ تبكيتَ المتثاقِلين، وتأنيبَ المنافقين، علىٰ وجهٍ مُهتِّكٍ لأستارهم، مُكشِّفٍ لأسرارهم، فلمَّا استوفىٰ تعالىٰ في ذلك أقسامَهم، ونكَّس ألويتَهم وأعلامَهم، وختَمهم بهذه الطائفةِ التي ظهَر فيها امتثالُه ﷺ؛ بأنْ هَدَّ مسجدَهم، وحرَّقه بالنار، وأزال بنيانَه وفرَّقه، وقَدَّ أديمَه عن جديدِ الأرضِ ومزَّقه؛ أتبَع ذلك سبحانه بتذكيرِ المؤمنين ما أمَرهم به؛

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٣٥-٣٦).
(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٤٩).

ليفعلوا فيه ما فعَله رسولُ الله ﷺ فيما أُمِر به، فساقَ مساقَ الجواب لسؤال مَن كأنَّه قال: لقد طال المدىٰ، وعظُمَ الخَطْبُ في هذه السُّورةِ في إبانةِ الفضائح، وهَتْكِ السرائر، وإظهارِ القبائح، فلِمَ فعَل ذلك وقد جرَتْ عادتُه بالأمرِ بالسَّتر وأخذِ العفو؟

قولـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ للتَّنويهِ بأهل غزوةِ تَبُوكَ؛ وهم جَيْشُ العُسْرةِ؛ ليكونَ توطئةً وتمهيدًا لذِكْرِ التوبةِ علىٰ الذين تخلَّفوا عن الغزوةِ وكانوا صادقين في أَيْمانِهم، وإنباءِ الذين أضمَروا الكفرَ نفاقًا بأنَّهم لا يتوبُ اللهُ عليهم، ولا يستغفِرُ لهم رسولُه ﷺ. والمناسبةُ ما تقدَّم مِن ذِكْرِ أحوالِ المنافقين الذين تسلسَلَ الكلامُ عليهم ابتداءً، وما تولَّد علىٰ ذلك مِن ذِكْرِ مختلِفِ أحوالِ المخلَّفين عن الجهاد، واعتلالِهم، وما عقَبَ ذلك مِن بناءِ مسجد الضِّرار(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَع في شرحِ فضائحِ المنافقين وقبائحهم لسببِ تخلُّفِهم عن غزوة تَبُوكَ، فلمَّا تمَّم ذلك الشَّرحَ والبيان، وذكَر أقسامَهم، وفرَّع علىٰ كلِّ قسمٍ ما كان لائقًا به؛ عادَ إلىٰ بيانِ فضيلةِ الجهاد وحقيقتِه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٢-٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٥٠).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ ترغيبٌ للمؤمنين في الجهادِ؛ ببيانِ فضيلته إثر بيانِ حالِ المتخلِّفين عنه، ولقد بُولِغ في ذلك على وجهٍ لا مزيدَ عليه؛ حيث عُبِّر عن قَبولِ الله تعالىٰ مِن المؤمنين أنفسَهم وأموالهم التي بذلوها في سبيلِه تعالىٰ وإثابتِه إيَّاهم بمقابلَتِها الجنَّةَ: بالشراءِ على طريقةِ الاستعارة التبعيَّة، ثم جُعِل المَبيعُ الذي هو العُمْدةُ والمقصدُ في العَقْدِ أنفُسَ المؤمنين وأموالَهم، والثَّمَنُ الذي هو الوسيلةُ في الصَّفقةِ الجنَّةَ[(١)].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

ولمَّا ثبَتتِ المعاقَدةُ وأحكامُها، وصَف المعاقِدين على طريقِ المدح للحثِّ على أوصافهم، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٢)].

أسماءُ الفاعلِينَ هنا أوصافٌ للمؤمنين مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكان أصلُها الجَرَّ، ولكنَّها قُطِعتْ عن الوصفيَّة، وجُعِلتْ أخبارًا لمبتدأٍ محذوف، هو ضميرُ الجَمْعِ؛ اهتمامًا بهذه النُّعوت اهتمامًا أخرَجها عن الوصفيَّة إلى الخبَريَّة، ويُسمَّىٰ هذا الاستعمالُ نعتًا مقطوعًا، وما هو بنعتٍ اصطلاحيٍّ، ولكنَّه نعتٌ في المعنىٰ[(٣)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٠٥).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٦).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٤٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ أنَّه ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفاتِ التسعة(١).

ثم وصَف تعالىٰ المؤمنين الذين اشترىٰ منهم أنفسَهم وأموالهم بقولِه: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾

ولمَّا كثُرتْ في هذه السُّورةِ الأوامرُ بالبراءة مِن أحياءِ المشركين، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءة مِن أمواتِ المنافقين بالنَّهْيِ عن الدعاء لهم؛ جاءت هذه الآيةُ مشيرةً إلىٰ البراءةِ مِن كلِّ مشرك، فوقَع التَّصريحُ بعدها بما أشارت إليه؛ وذلك أنَّه لمَّا ثبَت بهذه الآيةِ في تقديمِ الجارِّ أنَّ المبايَعةَ وقَعتْ علىٰ تخصيصِ الجَنَّة بالمؤمنين، وأنَّه تعالىٰ أوفَىٰ مَن عاهَد؛ ثبَت أنَّه لا يجوز أن يدخُلَ غيرُهم الجَنَّةَ، وأنَّ غيرَهم أصحابُ النار؛ لأنَّه قد عُلِم أنَّ الآخرةَ داران: جَنَّةٌ ونارٌ، ولمَّا ثبَت هذا كلُّه، عُلِم قطعًا عِلْمَ النتيجةِ مِن المقدِّماتِ الصحيحة: أنَّه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٥٢).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٥١٠).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٢٩).

استئنافٌ نُسِخ به التَّخييرُ الواقع في قوله تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾؛ فإنَّ في ذلك تسويةً بَيْنَ أن يستغفِرَ النبيُّ ﷺ لهم وبَيْنَ ألَّا يستغفِرَ في انتفاءِ أهَمِّ الغرضين مِن الاستغفار؛ وهو حصولُ الغفران[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن مِن أولِ هذه السُّورةِ إلىٰ هذا الموضعِ وجوبَ إظهارِ البراءة عن الكفار والمنافقين مِن جميعِ الوجوه، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تجب البراءةُ عن أمواتهم، وإن كانوا في غايةِ القُرْبِ مِن الإنسان؛ كالأبِ والأمِّ، كما أوجَبتِ البراءةَ عن أحيائهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مقاطعتِهم علىٰ أقصىٰ الغايات، والمنعِ مِن مواصلتِهم بسببٍ مِن الأسبابِ[2].

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾

ولمَّا أنكَر أن يكونَ لهم ذلك، وكان الخليلُ عليه السلام المأمورُ بالاقتداءِ به واللزومِ بملَّتِه قد استغفَر لأبيه؛ بيَّن أنَّه كان أيضًا قبل العلمِ بما في نفس الأمر مِن استحقاقِه للتَّأبيد في النار، فقال دالًّا بواوِ العطف علىٰ أنَّ التَّقديرَ: فما استغفَر لهم بعد العلمِ أحدٌ مِن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[3].

معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية، وهي مِن تمامِ الآية باعتبار ما فيها مِن قوله: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾؛ إذ كان شأنُ ما لا ينبغي لنبيِّنا محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام ألا ينبغيَ لغيره مِن الرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّ معظَمَ أحكامهم متَّحِدةٌ، إلا ما خُصَّ

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٤٣-٤٤).
(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٥٧).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٠).

به نبيُّنا مِن زيادةِ الفضل؛ وهذه مِن مسألةِ «أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شرعٌ لنا»؛ فلا جرَمَ كان ما ورَد مِن استغفارِ إبراهيمَ قد يُثِيرُ تعارضًا بَيْنَ الآيتينِ؛ فلذلك تصدَّىٰ القرآنُ للجواب عنه[(١)].

في تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلها وجوه: الأول: أنَّ المقصودَ منه ألا يتوهَّم إنسانٌ أنَّه تعالىٰ منَع محمَّدًا ﷺ مِن بعضِ ما أَذِن لإبراهيمَ فيه. والثاني: أن يقالَ: إنَّا ذكَرْنا في سببِ اتصال هذه الآيةِ بما قبلها المبالَغةَ في إيجابِ الانقطاع عن الكفار؛ أحيائِهم وأمواتِهم، ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الحُكْمَ غيرُ مختصٍّ بدِينِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، بل المبالَغةُ في تقريرِ وجوب الانقطاع كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ عليه السلام، فتكون المبالغةُ في تقريرِ وجوبِ المقاطعة والمبايَنة مِن الكفار أقوىٰ. الثالث: أنَّه تعالىٰ وصَف إبراهيمَ عليه السلام في هذه الآيةِ بكونه حليمًا؛ أي: قليلَ الغضب، وبكونه أوَّاهًا؛ أي: كثيرَ التوجُّعِ والتفجُّع عند نزولِ المَضارِّ بالناس. والمقصود أنَّ مَن كان موصوفًا بهذه الصفاتِ، كان مَيْلُ قلبِه إلىٰ الاستغفارِ لأبيه شديدًا، فكأنَّه قيل: إنَّ إبراهيمَ مع جلالةِ قَدْرِه، ومع كونِه موصوفًا بالأَوَّاهيَّة والحَلِيميَّة؛ منَعه اللهُ تعالىٰ مِن الاستغفارِ لأبيه الكافر؛ فَلَأَنْ يكونَ غيرُه ممنوعًا مِن هذا المعنىٰ كان أَوْلىٰ[(٢)].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾

ولمَّا كان الاستغفارُ للمشركين أمرًا عظيمًا، وكان فيه نوعُ وَلايةٍ لهم؛ أظهَرَ سبحانه للمؤمنين ما مَنَّ عليهم به مِن عدمِ المؤاخَذة بالإقدام عليه؛ تهويلًا لذلك، وقطعًا لِما

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٥٨-١٥٩).

بَيْنَ أَوْجِ الإيمانِ وحضيضِ الكفران بكلِّ اعتبارٍ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ لاعتذارٍ عن النبيِّ وإبراهيمَ عليهما الصلاة والسلام في استغفارِهما لِمَن استغفَرَا لهما مِن أُولي القربىٰ: كأبي طالبٍ وآزَرَ، ومِن الأمَّةِ: كعبدِ اللهِ بن أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ؛ بأنَّ فِعْلَهما ذلك ما كان إلا رجاءً منهما هُدَىٰ مَن استغفَرَا له، وإعانةً له إن كان اللهُ يريده، فلمَّا تبيَّن لهما الثابتُ علىٰ كفرِه: إمَّا بموتِه عليه، أو باليأسِ مِن إيمانِه؛ ترَكَا الاستغفارَ له؛ وذلك كلُّه بعد أن أبلَغَا الرسالةَ، ونصَحَا لِمَن استغفَرَا له؛ ولأجلِ هذا المعنىٰ مهَّد اللهُ لهما الاعتذارَ مِن قبلُ بقولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(٢).

لمَّا بيَّن أنَّه لا يُستغفر للمشركين ولو كانوا أُولي قُربَىٰ، كان في هذه الآيةِ وفي التي بعدها تبايُن ما بَيْنَ القرابةِ حتىٰ مُنِعوا مِن الاستغفار لهم؛ فمُنِع رسولُ الله ﷺ مِن الاستغفار لعَمِّه أبي طالبٍ، وهو الذي تولَّىٰ تربيتَه ونَصْرَه وحِفْظَه إلىٰ أن مات، ومُنِع إبراهيمُ مِن الاستغفار لأبيه وهو أصلُ نشأتِه ومُربِّيه، وكذلك مُنِع المسلمون مِن الاستغفار للمشركين؛ أقرباءَ وغيرَ أقرباءَ، فكأنَّه قيل: لا تَعجَبْ لتبايُنِ هؤلاء؛ هذا خليلُ الله، وهذا حبيبُ الله، والأقرباءُ المختصون بهم المشركون أعداءُ الله؛ فإضلالُ هؤلاء لم يكُنْ إلا بعد أن أرشَدَهم اللهُ إلىٰ طريقِ الحقِّ بما ركَز فيهم مِن حُجَجِ العقول التي أغفَلوها، وتبيينِ ما يَتَّقُونَ بطريقِ الوحي، فتظافَرتْ عليهم الحُجَجُ العقليةُ والسمعية، ومع ذلك لم يؤمِنوا، ولم يتَّبِعوا ما جاءت الرُّسُلُ به

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٤٧).

عن الله تعالىٰ؛ ولذلك ختَمها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فيُضِلُّ مَن يشاء، ويَختصُّ بالهداية مَن يشاء[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا منَع المؤمنين مِن أن يَستغفروا للمشركين، والمسلمون كانوا قد استغفَروا للمشركين قبل نزولِ هذه الآيةِ؛ فإنَّهم قبل نزولِ هذه الآيةِ كانوا يَستغفرون لآبائهم وأمَّهاتِهم وسائرِ أقربائهم ممَّن مات على الكفرِ، فلمَّا نزَلتْ هذه الآيةُ، خافوا بسببِ ما صدَر عنهم قبل ذلك مِن الاستغفارِ للمشركين، وأيضًا فإنَّ أقوامًا مِن المسلمين الذين استغفَروا للمشركين، كانوا قد ماتوا قبل نزولِ هذه الآيةِ؛ فوقَع الخوفُ عليهم في قلوبِ المسلمين أنَّه كيف يكون حالُهم؛ فأزال اللهُ تعالىٰ ذلك الخوفَ عنهم بهذه الآيةِ، وبيَّن أنَّه تعالىٰ لا يؤاخِذُهم بعملٍ إلا بعد أن يبيِّنَ لهم أنَّه يجبُ عليهم أن يَتَّقُوه ويَحترزوا عنه؛ فهذا وجهٌ حسَنٌ في النَّظم[٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ هذا مِن تتمَّةِ ما تقدَّم مِن تأكُّدِ مبايَنةِ المشركين، والبراءةِ منهم، وتركِ الاستغفار لهم؛ وذلك لأنَّهم حقَّتْ عليهم الكلمةُ؛ حيث قامت عليهم الحجَّةُ بإبلاغِ الرسولِ إليهم ما يَتَّقُون، ودلالتِه إيَّاهم على الصراطِ السَّويِّ، فضَلُّوا عنه، فأضَلَّهم الله، واستحَقُّوا عقابه[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

ثم علَّل عِلْمَه بكل شيءٍ بأنَّ قُدْرتَه شاملةٌ؛ فهو قادرٌ علىٰ نُصْرةِ مَن يريد، والانتقامِ ممَّن يريد؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يُحِبَّ إلا فيه، ولا يُبغِضَ إلا فيه، ولا يَهتمَّ بعداوةِ أحدٍ

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٥١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦٠).

(٣) محاسن التأويل (٥/ ٥١٧).

ممَّن عاداه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(١).

تذييلٌ ثانٍ في قوةِ التَّأكيد لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ ولذلك فُصِل بدُونِ عطفٍ؛ لأنَّ ثبوتَ مُلْكِ السماوات والأرض لله تعالىٰ يقتضي أن يكونَ عليمًا بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ تخلُّفَ العلمِ عن التعلُّق ببعضِ المتملَكات يُفضِي إلىٰ إضاعةِ شؤونها؛ فافتتاحُ الجملةِ بـ﴿إِنَّ﴾ مع عدمِ الشَّك في مضمونِ الخبَرِ يُعيِّن أنَّ ﴿إِنَّ﴾ لمجردِ الاهتمام، فتكونُ مفيدةً معنىٰ التَّفريع بالفاء والتعليل(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ عِلْمَه بكلِّ شيءٍ، فهو يَعلَم ما يصلُحُ لكل أحدٍ، وما هُيِّئ له في سابقِ الأزل؛ ذكَر ما دلَّ علىٰ القدرةِ الباهرة؛ مِن أنَّه له مُلْكُ السماوات والأرض، فيَتصرَّف في عبادِه بما شاء، ثم ذكَر مِن أعظَمِ تصرُّفاتِه الإحياءَ والإماتة؛ أي: الإيجادَ والإعدام(٣).

أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بالبراءةِ مِن الكفار، بيَّن أنَّه له مُلْكُ السماوات والأرض، فإذا كان هو ناصرًا لكم، فهم لا يَقدِرون علىٰ إضراركم، وأيضًا لمَّا أمَر بهذه التَّكاليفِ الشَّاقة، كأنَّه قال: وجَب عليكم أن تَنقادوا لحُكْمي وتكليفي؛ لكوني إلهكَم، ولكونِكم عبيدًا لي(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٤٨).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٥١٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦١).

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

ولمَّا أشار إلىٰ أنَّه هو وليُّهم، أحياهم برُوحٍ منه مبينٍ لهم ما يُصلِحهم، وأنَّه لا وليَّ لهم غيرُه؛ أقام الدَّليلَ علىٰ ذلك بقولِه: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾(١).

انتقالٌ مِن التَّحريضِ علىٰ الجهاد، والتَّحذير مِن التَّقاعس، والتَّوبيخ علىٰ التخلُّف، وما طرأ علىٰ ذلك التَّحريضِ مِن بيانِ أحوال الناس تجاه ذلك التَّحريضِ، وما عقبَه مِن أعمالِ المنافقين والضُّعفاء والجبناء: إلىٰ بيانِ فضيلةِ الذين انتدَبوا للغزوِ، واقتحَموا شدائدَه؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ(٢).

لمَّا تقدَّم الكلامُ في أحوالِ المنافقين مِن تخلُّفِهم عن غزوةِ تبُوكَ، واستطرَد إلىٰ تقسيمِ المنافقين إلىٰ أعرابٍ وغيرهم، وذكَر ما فعلوا مِن مسجدِ الضِّرار، وذكَر مبايَعةَ المؤمنين اللهَ في الجهاد، وأثنىٰ عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُبايِنوا المشركين، حتىٰ الذين ماتوا منهم بتركِ الاستغفار لهم؛ عاد إلىٰ ذِكرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غزوة تبُوكَ، وهذه شِنْشِنَةُ(٣) كلامِ العربِ؛ يَشرَعون في شيءٍ، ثم يذكُرون بعده أشياءَ مناسِبةً، ويُطِيلون فيها، ثم يعُودُون إلىٰ ذلك الشيءِ الذي كانوا شرَعوا فيه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٤٩).

(٣) أي: عادة.

(٤) البحر المحيط (٥/ ٥١٦).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا استقصىٰ في شرحِ أحوال غزوة تبُوكَ، وبيَّن أحوالَ المتخلِّفين عنها، وأطال القولَ في ذلك علىٰ الترتيبِ الذي لخَّصناه في هذا التفسيرِ؛ عاد في هذه الآيةِ إلىٰ شرحِ ما بَقِيَ مِن أحكامها؛ ومِن بقيَّةِ تلك الأحكامِ: أنَّه قد صدَر عن رسولِ الله ﷺ نوعُ زَلَّةٍ جاريةٍ مَجرىٰ تَرْكِ الأَوْلىٰ، وصدَر أيضًا عن المؤمنين نوعُ زَلَّةٍ، فذكَر تعالىٰ أنَّه تفضَّل عليهم، وتاب عليهم في تلك الزَّلَّاتِ، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[١].

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن فيما تقدَّم مراتبَ الناسِ في أيام غزوة تبُوكَ، مؤمنِهم ومنافِقِهم، والمُنفِّقِ لها طوعًا أو كَرْهًا، والمرغِّبِ فيها أو عنها، والمتخلِّفِ نفاقًا أو كسلًا، وأنبأ عمَّا لَحِق كلًّا مِن الوعدِ والوعيد، وميَّز الصادقين مِن غيرهم؛ ختَم بفِرْقةٍ منهم كانوا تخلَّفوا مَيْلًا للدَّعَةِ، وهم صادقون في إيمانهم، ثم نَدِموا فتابوا وأنابوا، وعَلِم اللهُ صِدْقَ توبتِهم، فقَبِلها، ثم أنزَل توبتهم في هذه الآيةِ[٢].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

ولمَّا صرَّح بالتَّوبةِ علىٰ مَن قارَب الزَّيغَ، وخلَط معهم أهلَ الثَّبات إشارةً إلىٰ أنَّ كلَّ أحدٍ فقيرٌ إلىٰ الغنيِّ الكبير، وليكونَ اقترانُهم بأهل المعالي، وجعَلهم في حيِّزِهم تشريفًا لهم وتأنيسًا لئلا يَشتدَّ إنكارُهم؛ أتبَعه التَّوبةَ علىٰ مَن وقَع منه الزَّيغُ، فقال -غيرَ مُصرِّحٍ بالزَّيغ؛ تعليمًا للأدبِ، وجبرًا للخواطرِ المنكسرة-: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[٣].

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦١).
(٢) محاسن التأويل (٥/ ٥١٨).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٨).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ معطوفٌ ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ بإعادةِ حرفِ الجرِّ؛ لبُعْدِ المعطوفِ عليه؛ أي: وتابَ علىٰ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا، وهؤلاء فريقٌ له حالةٌ خاصَّةٌ مِن بَيْنِ الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تَبُوكَ غير الذين ذُكِروا[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾

ولمَّا كان الذي نالوا به الإقبالَ مِن مولاهم عليهم - ممَّا وصَفهم به مِن الضِّيق وما معه - هو التَّقوىٰ والصِّدْقَ في الإيمانِ، كما كان ما يجدُه الإنسانُ في نفسه ممَّا الموتُ عنده والقذفُ في النار أحَبُّ إليه مِن التَّلفُّظِ به صريحَ الإيمانِ بشَهادةِ المصطفىٰ ﷺ؛ رغَّب سبحانه في الصِّدق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

الظاهر أنَّ هذه الآيةَ خاتِمةٌ للآيِ السابقة، وليست فاتحةَ غرضٍ جديد؛ فهذه الآيةُ بمنزلةِ التَّذييل للقصَّة؛ فإنَّ القصَّةَ مشتمِلةٌ علىٰ ذِكْرِ قومٍ اتَّقَوُا اللهَ، فصدَقوا في إيمانِهم وجهادِهم، فرَضِيَ اللهُ عنهم؛ وذِكرِ قومٍ كذَبوا في ذلك، واختلَقوا المعاذيرَ، وحلَفوا كذبًا، فغَضِب اللهُ عليهم؛ وقومٍ تخلَّفوا عن الجهاد، وصدَقوا في الاعتراف بعدمِ العُذْرِ، فتاب اللهُ عليهم؛ فلمَّا كان سببُ فوزِ الفائزين في هذه الأحوالِ كلِّها هو الصِّدْقَ، لا جرَمَ أمَر اللهُ المؤمنين بتَقْواه، وبأن يكونوا في زُمْرةِ الصَّادقين، مِثْلَ أولئك الصادقين الذين تضمَّنتهم القصَّةُ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٥١).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٤١).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٥٤).

هو خطابٌ للمؤمنين، أُمِروا بكونهم مع أهلِ الصِّدق بعد ذِكْرِ قصَّةِ الثلاثة الذين نفَعهم صِدْقُهم، وأزاحهم عن رِبْقةِ النفاق، واعترَضتْ هذه الجملةُ تنبيهًا على رتبةِ الصِّدق، وكفى بها أنَّها ثانيةٌ لرتبةِ النُّبوة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩][(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا حكَم بقَبول توبةِ هؤلاء الثلاثة، ذكَر ما يكون كالزاجرِ عن فعلِ ما مضى؛ وهو التَّخلُّفُ عن رسولِ الله ﷺ في الجهاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفةِ أمرِ الرسول، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ يعني: مع الرسولِ وأصحابه في الغزَوات، ولا تكونوا متخلِّفين عنها، وجالسين مع المنافقين في البيوت[(٢)].

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾

ولمَّا كان ما نالهم مِن الأهوال إنَّما نالهم بتخلُّفِهم عن أشرَفِ الخَلْقِ، والذي التفَتَ بهم إلى مرابعِ الإقبال إنَّما هو الصدقُ؛ قال تعالى ناهيًا بصيغةِ الخبرِ ليكونَ أبلَغَ، جامعًا إليهم مَن كان على مثلِ حالهم في مُطلَقِ التَّخلُّف: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[(٣)].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٥٢١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦٦).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٤٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لإيجابِ الغزوِ علىٰ أهل المدينة ومَن حَوْلهم مِن أهلِ باديتِها الحافِّين بالمدينة إذا خرَج النبيُّ ﷺ للغزوِ؛ فهذا وجوبٌ عينيٌّ علىٰ هؤلاء، شرَّفهم اللهُ بأنْ جعَلهم جُنْدَ النبيِّ ﷺ، وحرَسَ ذاتِه(١).

لمَّا أمَر المؤمنين بتقوىٰ الله، وأمَر بكينونتهم مع الصادقين، وأفضَلُ الصادقين رسولُ الله ﷺ، ثم المهاجِرون والأنصار؛ اقتضىٰ ذلك موافقةَ الرسولِ وصُحْبته أنَّىٰ توجَّه مِن الغزَواتِ والمَشاهد، فعُوتب العتابَ الشديد مَن تخلَّف عن الرسولِ في غزوةٍ، واقتضىٰ ذلك الأمرُ نصيحتَه، وبَذْلَ النفوسِ دُونَه(٢).

لمَّا أمَر بقولِه: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بوجوبِ الكونِ في موافقةِ الرسول ﷺ في جميع الغزَواتِ والمَشاهد؛ أكَّد ذلك فنهىٰ في هذه الآيةِ عن التخلُّفِ عنه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾(٣).

ولمَّا أوجَب تعالىٰ الكونَ مع الصادقين، أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ النَّفْرَ مع رسولِ الله ﷺ واجبُ كفايةٍ؛ فلا يجوز تخلُّفُ الجميع، ولا يَلزمُ النَّفْرُ للناس كافةً، فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٥٥).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٥٢٢).
(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦٩).
(٤) محاسن التأويل (٥/ ٥٢٦).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

ولمَّا كانت المشقَّةُ بالإنفاقِ العائدِ ضَرَرُه إلىٰ المال، ووطء مطلقِ الأرض الذي قد لا يَلزمُ منه وصولٌ إلىٰ ما يَغِيظُ العدوَّ، دُونَ المشقَّةِ الحاصلة في النَّفس بالظَّمأِ وما معه مِن فعلِ ما يَغِيظُ العدوَّ وينقُصُه؛ قدَّم ذلك علىٰ قولِه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، وهو انتقالٌ مِن عدادِ الكُلَفِ التي تصدُرُ عنهم بلا قصدٍ في سبيلِ الله إلىٰ بعضِ الكُلَف التي لا تخلو عن استشعارِ مَن تحلُّ بهم بأنَّهم لَقُوها في سبيل الله؛ فالنَّفقةُ في سبيل الله لا تكون إلا عن قصدٍ يَتذكَّر به المُنفِق أنَّه يسعىٰ إلىٰ ما هو وسيلةٌ لنَصْرِ الدِّين، والنَّفقةُ الكبيرة أدخَلُ في القصدِ؛ فلذلك نبَّه عليها وعلىٰ النَّفقةِ الصَّغيرة؛ ليُعلَمَ بذِكْرِ الكبيرةِ حُكْمُ النَّفقة الصَّغيرة؛ لأنَّ العلَّةَ في الكبيرة أظهرُ، وكان هذا الإطنابُ في عَدِّ مناقبِهم في الغزوِ لتصويرِ ما بذَلوه في سبيل الله[٢].

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

ولمَّا تواترت النَّواهي للمتخلِّفين، وتواصلت الزَّواجرُ، وتعاظَم التَّبكيتُ والتَّهديد؛ طارت القلوبُ، وأشفَقتِ النُّفوس، فكان ذلك مظنَّةَ ألا يَتخلَّفَ بعدها أحدٌ عن

(١) نظم الدرر (٩/ ٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٥٧-٥٨).

رسولِ الله ﷺ وعمَّن يقومُ مقامَه، فيَتمكَّن حينئذٍ الأعداءُ مِن الأموال والذَّراريِّ والعيال؛ فأتبَع ذلك قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾(١).

كان غالبُ ما تقدَّم مِن هذه السُّورةِ تحريضًا علىٰ الجهاد، وتنديدًا علىٰ المقصِّرين في شأنه، وانتهىٰ الكلامُ قبل هذا بتبرئةِ أهلِ المدينة والذين حولهم مِن التَّخلُّفِ عن رسول الله ﷺ؛ فلا جرَمَ كانت قوَّةُ الكلام مؤذِنةً بوجوبِ تمحُّضِ المسلمين للغزو، وإذ قد كان مِن مقاصدِ الإسلام بَثُّ علومِه وآدابه بَيْنَ الأمَّة، وتكوينُ جماعاتٍ قائمة بعِلْمِ الدِّين وتثقيفِ أذهان المسلمين؛ كي تصلُحَ سياسةُ الأمَّة علىٰ ما قصَده الدِّينُ منها؛ مِن أجلِ ذلك عُقِّب التَّحريضُ علىٰ الجهاد بما يبيِّنُ أنْ ليس مِن المصلحةِ تمحُّضُ المسلمين كلِّهم لأن يكونوا غزاةً أو جُنْدًا، وأنْ ليس حظُّ القائمِ بواجب التَّعليم دُونَ حظِّ الغازي في سبيل الله مِن حيث إنَّ كلَيْهما يقومُ بعمَلٍ لتأييدِ الدِّين؛ فهذا يؤيِّدُه بتوسُّعِ سلطانه وتكثيرِ أتباعه، والآخَرُ يؤيده بتثبيتِ ذلك السلطان وإعدادِه لأن يصدُرَ عنه ما يَضمَن انتظامَ أمره، وطُولَ دوامه، وإذ قد كانت الآيةُ السابقة قد حرَّضتْ فريقًا مِن المسلمين علىٰ الالتفافِ حول رسول الله ﷺ في الغزوِ لمصلحة نشرِ الإسلام، ناسَب أن يُذكَرَ عَقِبها نَفْرُ فريقٍ مِن المؤمنين إلىٰ رسولِ الله ﷺ للتَّفقُّه في الدِّينِ ليكونوا مرشِدين لأقوامِهم الذين دخَلوا في الإسلام(٢).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّ كِلَا النَّفِيرَينِ هو في سبيلِ الله، وإحياءِ دِينِه: هذا بالعلمِ، وهذا بالقتال(٣).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٥٨-٥٩).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٥٢٦).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ فيما تقدَّم خطرَ التخلُّفِ عن الرسول في الجهاد، وشدَّد الوعيدَ علىٰ المتخلِّفين التَّاركين للنَّفير؛ دفَع ما يُتوهَّم مِن وجوبِ النَّفْرِ علىٰ الجميع، وفيه ما فيه مِن الحرَجِ، والإخلالِ بأمرِ المَعاش؛ بأنَّ وجوبَه كِفائيٌّ، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

ولمَّا عُلِمتِ المقاصدُ، وتهيَّأتِ القلوبُ لقَبول الفوائد، وأُمِر بالإنذار بالفقه، وكان مِن الناس مَن لا يَرجِعُ إلا بشديدِ البأس؛ أقبَلَ علىٰ الكلِّ مخاطبًا لهم بأدنىٰ أسنانِ القلوب ليَتوجَّه إلىٰ الأدنىٰ، ويَتناولَ الأعلىٰ منه مِن بابِ الأَوْلىٰ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

الجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ تكملةً للأمر بما يَتعيَّن علىٰ المسلمين في ذيولِ غزوة تَبُوكَ، وفي توجيهِ الخطاب للذين آمَنوا دُونَ النبيِّ إيماءٌ إلىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يغزو بعد ذلك، وأنَّ أجَلَه الشريفَ قد اقترَب(٣).

لمَّا حَضَّ تعالىٰ علىٰ التفقُّهِ في الدِّين، وحرَّض علىٰ رحلةِ طائفةٍ مِن المؤمنين فيه؛ أمَر تعالىٰ المؤمنين كافةً بقتالِ مَن يَلِيهم مِن الكفارِ؛ فجمَع مِن الجهادِ: جهادَ الحُجَّة، وجهادَ السَّيف(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٥٢٨).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٦٣).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٥٢٧).

ولمَّا أمَر تعالىٰ في صدرِ السُّورةِ بالبراءةِ مِن مشركي العرب وقتالِهم، ثم شرَح أحوالَ المنافقين ومَخازيهم؛ أشار إلىٰ خاتمتِها بما يطابِقُ فاتحتَها بذلك، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

ولمَّا ذكر الطائفة الحاضَّة بصيغةِ «لولا» علىٰ النَّفرِ مع رسول الله ﷺ، الآمِرة بجهادِ الكفار والغِلْظة عليهم، وكان لا يَحمِلُ علىٰ ذلك إلا ما أشار إليه خَتْمُ الآيةِ السالفة مِن التقوىٰ بتجديدِ الإيمان كلَّما نزَل شيءٌ مِن القرآن، وكان قد ذكَر سبحانه المخالِفين لأمرِ الجهاد بالتخلُّف دُونَ أمرِ الإيمان حين قال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾؛ التفَتَ إلىٰ ذلك ليذكُرَ القِسْمَ الآخَرَ؛ وهو القاعدُ عن الإيمان، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾(٢).

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، وهذا عَوْدٌ إلىٰ بيانِ أحوال المنافقين، وما بَيْنهما اعتراضاتٌ(٣).

لمَّا استطرَد مِن سَفَرِ الغزوِ وتأنيبِ المتخلِّفين عن الرسول إلىٰ سفرِ التفقُّه في الدِّين، ثم أمَر بقتالِ مَن يَلي مِن الكفار والغِلْظةِ عليهم؛ عاد إلىٰ ذِكْرِ مَخازي المنافقين؛ إذ

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٥٣٠).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٥٠).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٦٤).

هم الذين نزَل معظَمُ السُّورةِ فيهم، وكان في الآيةِ قبلها إشارةٌ إلىٰ الغِلْظةِ علىٰ الكفار، وهم منهم (١).

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

ارتقي في الجوابِ عن مقصدِهم مِن الإنكار بأنَّ السُّورةَ ليست منفيًّا عنها زيادةٌ في إيمانِ بعضِ الناس فقط، بل الأمرُ أشدُّ؛ إذ هي زائدةٌ في كفرِهم؛ فالقِسْمُ الأول -المؤمنون- زادَتْهم إيمانًا، وأكسَبتْهم بُشرَىٰ، فحصَل مِن السُّورة لهم نفعانِ عظيمان، والقسمُ الثاني ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (٢).

ثم جمَع للمنافقين أمرينِ مقابلين للأمرينِ المذكورين في المؤمنين، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: المنافقين ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، والمرادُ مِن الرِّجس: إمَّا العقائدُ الباطلة، أو الأخلاقُ المذمومة، فإن كان الأولَ، كان المعنىٰ: أنَّهم كانوا مكذِّبين بالسُّوَرِ النازلةِ قبل ذلك، والآن صاروا مكذِّبين بهذه السُّورةِ الجديدة، فقد انضَمَّ كفرٌ إلىٰ كفر، وإن كان الثانيَ، كان المرادُ: أنَّهم كانوا في الحسَدِ والعداوة واستنباطِ وجوهِ المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاقُ الذَّميمة بسببِ نزولِ هذه السُّورة الجديدة. والأمر الثاني: أنَّهم يموتون علىٰ كفرِهم، فتكونُ هذه الحالةُ كالأمرِ المضادِّ للاستبشار الذي حصَل في المؤمنين، وهذه الحالةُ أسوأُ وأقبَحُ مِن الحالة الأُولىٰ؛ وذلك لأنَّ الحالةَ الأُولىٰ عبارةٌ عن ازديادِ الرَّجاسة، وهذه الحالةُ عبارةٌ عن مداومةِ الكفر، وموتِهم عليه (٣).

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٥٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٦٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧٤).

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ تسبيبًا عمَّا جزَم به مِن الحُكْمِ بعَراقتِهم في الرِّجس وازديادِهم منه: أفلا يرَوْنَ إلىٰ تَماديهم في النفاق وثباتِهم عليه؟ عطَف عليه تقريرَهم بعذابِ الدُّنيا والإنكارِ عليهم في قوله: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ إلىٰ آخِرِه؛ فهي مِن تمام التَّفصيل[(٢)].

لمَّا ذكَر أنَّهم بموتِهم علىٰ الكفر رائحون إلىٰ عذابِ الآخرة، ذكَر أنَّهم أيضًا في الدُّنيا لا يخلُصون مِن عذابِها[(٣)].

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الذين في قلوبهم مرضٌ يموتون وهم كافرون، وذلك يدلُّ علىٰ عذابِ الآخرة؛ بيَّن أنَّهم لا يتخلَّصون في كلِّ عامٍ مرةً أو مرتين عن عذاب الدُّنيا[(٤)].

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما يحدُثُ منهم مِن القول استهزاءً، أتبَعه تأكيدًا لزيادةِ كفرِهم، وتوضيحًا لتصويرِه ما يحدُثُ مِن فعلِهم استهزاءً مِن الإيمانِ والتَّغامز بالعيون،

(١) نظم الدرر (٩/ ٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٦٧).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٥٣٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧٥).

فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، والظاهر أنَّ المقصودَ عطفُ جملةِ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ على جملةِ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾؛ وإنَّما أُعيدت جملةُ الشَّرط لبُعْدِ ما بَيْنَ الجملةِ المعطوفة وجملةِ الجزاء[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن مخازي المنافقين؛ وهو أنَّه كلَّما نزَلتْ سورةٌ مشتمِلة علىٰ ذِكْرِ المنافقين وشرحِ فضائحهم، وسَمِعوها؛ تأذَّوْا مِن سماعها، ونظَر بعضُهم إلىٰ بعض نظرًا مخصوصًا دالًّا علىٰ الطَّعن في تلك السُّورةِ، والاستهزاء بها، وتحقير شأنها، ويحتمِلُ ألا يكونَ ذلك مختصًّا بالسُّورةِ المشتمِلة علىٰ فضائحِ المنافقين؛ بل كانوا يَستخفُّون بالقرآن، فكلَّما سَمِعوا سورةً، استهزَؤوا بها، وطعَنوا فيها، وأخذوا في التَّغامزِ والتَّضاحك علىٰ سبيلِ الطَّعن والهُزْءِ، ثم قال بعضُهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟[(٣)].

ثم بيَّن أحوالَهم عند نزولها وهم في مَحفِلِ تبليغِ الوحي إثر بيانِ مقالتهم وهم غائبون عنه بقولِه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٦٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧٦).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٥٣٢).

ثم ذكَر اللهُ سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزولِ السُّورة بعد ذِكْرِه لِما كانوا يقولونه، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾(1).

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾

ولمَّا أُمِر ﷺ أن يُبلِّغَ هذه الأشياءَ الشاقَّة جدًّا مِن أمرِ هذه السُّورة، وكان مِن المعلوم أنَّه لا يَحمِلُ ذلك إلا مَن وفَّقه اللهُ تعالىٰ، وأمَّا المنافقون فيكرَهون ذلك، وكان انصرافهم دالًّا علىٰ الكراهةِ؛ عرَّفهم أنَّ الأمرَ كان يقتضي توفُّرَ دواعيهم علىٰ محبَّةِ هذا الداعي لهم، المقتضي لملازمتِه والبُعْدِ عمَّا يفعلونه به مِن الانصرافِ عنه، وأنَّ أحوالَه الداعيةَ لهم إلىٰ محبَّتِه أعظَمُ مِن أحوالِ آبائهم التي أوجَبتْ لهم منهم مِن المحبَّةِ وعليهم مِن الحقوقِ ما هم مفتخِرون بالتلبُّسِ به، والمغالاة فيه، وأنَّ كلَّ ما يحصُلُ بهذا القرآنِ مِن العِزِّ والشَّرف في الدُّنيا فهو لكلِّ مَن آمَن به، فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(2).

كانت هذه السُّورةُ سُورةَ شِدَّةٍ وغِلْظة علىٰ المشركين وأهلِ الكتاب والمنافقين مِن أهل المدينة ومِن الأعراب، وأمرًا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاءً علىٰ المقصِّرين في شأنه، وتخلَّل ذلك تنويهٌ بالمتَّصِفين بضدِّ ذلك؛ مِن المؤمنين الذين هاجَروا والذين نصَروا واتَّبعوا الرسولَ ﷺ في ساعة العُسْرة، فجاءت خاتمةُ هذه السُّورة آيتينِ بتذكيرهم بالمنَّةِ ببَعْثةِ محمَّدٍ ﷺ، والتَّنويهِ بصفاتِه الجامعة

---

(1) فتح القدير (٢/ ٤٧٥).
(2) نظم الدرر (٩/ ٥٥-٥٦).

للكمال؛ فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وفي وقوعِها آخِرَ السُّورة ما يُكسِبُها معنَىٰ التَّذييل والخلاصة(١).

لمَّا بدأ السُّورةَ ببراءةِ اللهِ ورسولِه مِن المشركين، وقَصَّ فيها أحوالَ المنافقين شيئًا فشيئًا؛ خاطَب العربَ علىٰ سبيل تَعْدادِ النِّعَم عليهم، والمَنِّ عليهم بكونِه جاءهم رسولٌ مِن جنسهم، أو مِن نسَبِهم، عربيًّا قُرَشيًّا، يبلِّغُهم عن الله، متَّصِفٌ بالأوصافِ الجميلة؛ مِن كونه يَعِزُّ عليه مشقَّتُهم في سُوءِ العاقبة مِن الوقوع في العذاب، ويَحرِصُ علىٰ هُدَاهم، ويَرأَفُ بهم، ويَرحَمهم(٢).

لمَّا أمَر رسولَه ﷺ أن يبلِّغَ في هذه السُّورة إلىٰ الخَلْقِ تكاليفَ شاقَّةً شديدة صعبةً يعسُرُ تحمُّلُها، إلا لِمَن خَصَّه اللهُ تعالىٰ بوجوهِ التوفيق والكرامة؛ ختَم السُّورةَ بما يوجب سهولةَ تحمُّلِ تلك التكاليف؛ وهو أنَّ هذا الرسولَ منكم، فكلُّ ما يحصُلُ له مِن العِزِّ والشَّرف في الدُّنيا فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فإنَّه بحالٍ يشُقُّ عليه ضرَرُكم، وتعظُمُ رَغْبتُه في إيصالِ خير الدُّنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيبِ المشفِق، والأبِ الرَّحيم في حقِّكم، والطبيبُ المشفِق ربما أقدَمَ علىٰ علاجاتٍ صعبة يعسُرُ تحمُّلُها، والأبُ الرَّحيم ربما أقدَم علىٰ تأديباتٍ شاقَّة، إلا أنَّه لمَّا عُرِف أنَّ الطبيبَ حاذق، وأنَّ الأبَ مشفِق؛ صارت تلك المعالَجات المؤلِمة متحمَّلةً، وصارت تلك التأديباتُ جاريةً مَجرىٰ الإحسان(٣).

ثم بيَّن تعالىٰ ما امتَنَّ به علىٰ المؤمنين مِن بَعْثةِ خاتَم النبيِّين بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٧٠).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٥٣٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧٧).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ٥٣٣).

ثم ختَم اللهُ سبحانه هذه السُّورةَ بما يُهوِّنُ عنده بعضَ ما اشتمَلتْ عليه مِن التَّكاليفِ الشاقَّة، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

ثم أقبَلَ عليه مسلِّيًا له، مقابِلًا لإعراضِهم إن أعرَضوا بالإعراض عنهم والبراءةِ منهم، ملتفِتًا إلىٰ أوَّلِ السُّورةِ الآمرِ بالبراءة مِن كلِّ مخالِف، قائلًا مسبِّبًا عن النصيحة بهذه الآيةِ التي لا يشُكُّ عاقلٌ في مضمونها: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(2).

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ للتَّفريع علىٰ إرسالِ النبي ﷺ صاحبِ هذه الصفات إليهم؛ فإنَّ صفاتِه المذكورةَ تقتضي مِن كلِّ ذي عقلٍ سليم مِن العربِ الإيمانَ به، واتِّباعَه؛ لأنَّه مِن أنفسِهم، ومحبٌّ لخيرهم، رؤوفٌ رحيمٌ بمَن يتَّبِعه منهم، فتفرَّع عليه أنَّهم محقوقون بالإيمان به، فإن آمنوا فذاك، وإن لم يؤمنوا فإنَّ اللهَ حسيبُه وكافيه، وقد دلَّ الشَّرطُ علىٰ مقابِلِه؛ لأنَّ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يدلُّ علىٰ تقديرِ ضدِّه؛ وهو: إن أذعَنوا بالإيمان(3).

واعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآية بيانُ أنَّ الكفار لو أعرَضوا ولم يَقبَلوا هذه التَّكاليفَ، لم يدخُلْ في قلبِ الرسول حُزْنٌ ولا أَسَفٌ؛ لأنَّ اللهَ حَسْبُه وكافيه في نصرِه علىٰ الأعداء(4).

---

(1) فتح القدير (٢/ ٤٧٦).
(2) نظم الدرر (٩/ ٦٠).
(3) التحرير والتنوير (١١/ ٧٣).
(4) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧٩).

سورة يونس

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

ولمَّا كان كونُه مِن عندِ الله -مع كونه حكيمًا- موجِبًا لقَبوله بادئَ بَدْءٍ، والسُّرورِ به؛ لِما تقرَّر في العقول وجُبِلتْ عليه الفِطَرُ مِن أنَّه تعالىٰ الخالقُ الرازق، كاشفُ الضُّر، ومدبِّرُ الأمر؛ كان ذلك موضعَ أن يقالَ: ما كان حالُ مَن تُلِيَ عليهم؟ فقيل: لم يؤمنوا، فقيل: ما شُبْهتُهم؟ هل قدَروا علىٰ معارضتِه والطَّعنِ في حِكْمتِه؟ فقيل: لا! بل تعجَّبوا مِن إنزاله علىٰ محمَّدٍ ﷺ وليس بأكثرِهم مالًا، ولا بأقدمِهم سنًّا، فرجَع حاصلُ تعجُّبهم إلىٰ ما قاله تعالىٰ إنكارًا عليهم؛ فإنَّه لو أرسَل ذا سِنٍّ قالوا مثلَ ذلك، وهل مثلُ ذلك محلُّ العجَبِ؟! ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

الجملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ جملةَ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بما فيها مِن إبهامِ الداعي إلىٰ التَّوقفِ علىٰ آيات الكتاب الحكيم تُثِيرُ سؤالًا عن ذلك الدَّاعي، فجاءت هذه الجملةُ تبيِّنُ أنَّ وجهَ ذلك هو استبعادُ الناسِ الوحيَ إلىٰ رجُلٍ مِن الناس استبعادَ إحالةٍ، وجاءت علىٰ هذا النَّظْمِ الجامع بَيْنَ بيانِ الداعي وبين إنكارِ السَّبب الذي دعا إليه، وتجهيلِ المتسبِّبين فيه، ولك أن تجعلَه استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّه

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٦٥-٦٦).

مبدأُ الغرضِ الذي جاءت له السُّورةُ؛ وهو الاستدلالُ علىٰ صِدْقِ الرسول ﷺ، وإثباتِ البعث[١].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

ثم شرَع سبحانه يُقِيمُ الدليلَ علىٰ بطلانِ قولهم مِن أنَّه - مع ما تضمَّنه مِن البعث - سِحْرٌ، وعلىٰ حقيقةِ أنَّه مِن عندِه مِن غيرِ شُبْهةٍ، وعلىٰ أنَّ الرسالةَ لا عجَبَ فيها؛ لأنَّه سبحانه خلَق الوجودَ كلَّه، وهو نافذُ الأمر فيه، وقد ابتلىٰ مَن فيه مِن العقلاء ليرُدَّهم إليه ويحاسِبَهم؛ فإنَّه لم يخلُقْهم سُدًىٰ؛ لأنَّه حكيمٌ؛ فلا بدَّ مِن رسولٍ يُخبِرهم بما يُرضِيه وما يُغضِبه؛ لتقومَ بذلك الحجَّةُ، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للاستدلالِ علىٰ تفرُّد الله تعالىٰ بالإلهيَّة؛ وإنَّما أُوقِعَ هنا لأنَّ أقوىٰ شيءٍ بعَث المشركين علىٰ ادعاءِ أنَّ ما جاء به النبيُّ سِحْرٌ هو أنَّه أبطَل الشركاءَ لله في الإلهيَّة، ونفاها عن آلهتِهم التي أشركوا بها؛ فلا جرَمَ أنْ أُعقِبَ إنكارُ إحالتهم ذلك بإقامةِ الدليل علىٰ ثبوته[٣].

مناسبةُ هذه لِما قبلها: أنَّ مَن كان قادرًا علىٰ إيجادِ هذا الخَلْقِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ العظيمينِ، وهو ربُّكم الناظر في مصالحِكم؛ فلا يُتعجَّبُ أن يَبعَثَ إلىٰ خَلْقِه مَن

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٨٣).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٦٨).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٨٧).

يحذِّرُ مِن مخالفته، ويبشِّرُ علىٰ طاعته؛ إذ ليس خَلْقُهم عبثًا، بل علىٰ ما اقتضته حِكْمتُه، وسبقت به إرادتُه؛ إذ القادرُ العظيم قادرٌ علىٰ ما دُونَه بطريقِ الأَوْلىٰ[١].

لمَّا حكىٰ عن الكفار أنَّهم تعجَّبوا مِن الوحيِ والبَعْثة والرسالة، ثم إنَّه تعالىٰ أزال ذلك التعجُّبَ بأنَّه لا يبعُدُ البتَّةَ في أن يَبعَثَ خالقُ الخَلْقِ إليهم رسولًا يبشِّرُهم علىٰ الأعمالِ الصالحة بالثواب، وعلىٰ الأعمالِ الباطلة الفاسدة بالعقاب؛ كان هذا الجوابُ إنَّما يَتِمُّ ويكمُلُ بإثبات أمرين: أحدهما: إثباتُ أنَّ لهذا العالَمِ إلهًا قاهرًا قادرًا نافذَ الحُكْمِ بالأمر والنهيِ والتكليف. والثاني: إثباتُ الحشرِ والنَّشر والبعث والقيامة؛ حتىٰ يحصُلَ الثوابُ والعقاب اللذان أخبَر الأنبياءُ عن حصولهما؛ فلا جرَمَ أنَّه سبحانه ذكَر في هذا الموضعِ ما يدلُّ علىٰ تحقيقِ هذين المطلوبين[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ بطلانَ تعجُّبهم، وما بنَوْا عليه، وحقَّق فيه حقِّيَّةَ ما تعجَّبوا منه، وصحَّةَ ما أنكَروه؛ بالتَّنبيهِ علىٰ بعضِ ما يدلُّ عليها مِن شؤونِ الخَلْقِ والتَّقدير، ويُرشِدهم إلىٰ معرفتِها بأدنىٰ تذكيرٍ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[٣].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّه هو الذي بدأ الخَلْقَ، تقرَّر بذلك أنَّه قادرٌ علىٰ إعادته، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٤].

(١) البحر المحيط (٦/ ١١).
(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ١٨٨).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٥).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٧١).

وقَع أمرُهم بعبادته عَقِب ذِكْرِ الجزاء إنذارًا وتبشيرًا؛ فالجملة كالدليل على وجوبِ عبادته، وهي بمنزلةِ النتيجة الناشئة عن إثباتِ خَلْقِه السماواتِ والأرضَ؛ لأنَّ الذي خلَق مِثْلَ تلك العوالم مِن غيرِ سابقِ وجودٍ لا يُعجِزُه أن يُعِيدَ بعضَ الموجودات الكائنة في تلك العوالَم خَلْقًا ثانيًا، وممَّا يشير إلى هذا قولُه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ فبَدْءُ الخَلْقِ هو ما سبَق ذِكْرُه، وإعادتُه هي ما أفاده قولُه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ ولذلك فُصِلتْ عن التي قبلها؛ لِما بَيْنَهما مِن شِبْهِ كمالِ الاتصال، على أنَّها يجوز كونُها خبرًا آخَرَ عن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، أو عن قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا ذكَر الدلائلَ الدالة على إثباتِ المبدأ، أردَفه بما يدلُّ على صحةِ القولِ بالمَعاد[(٢)].

فلمَّا ذكَر حُكْمَه القَدَريَّ: وهو التدبيرُ العام، وحُكْمَه الدِّينيَّ: وهو شرعُه، الذي مضمونُه ومقصوده عبادتُه وحده لا شريكَ له؛ ذكَر الحُكْمَ الجزائيَّ: وهو مجازاتُه على الأعمالِ بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[(٣)].

📖 ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ 📖

ثم شرَع سبحانه يقرِّرُ أمر بَدْئِه للخَلق وإعادتِه في سياقٍ مذكِّرٍ بالنِّعم التي يجب شكرُها، ويُسمِّي المُعرِضَ عن شكرِه كافرًا، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ١٩٤).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٥٧).

وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ أيضًا؛ فضميرُ ﴿ هُوَ ﴾ عائدٌ إلىٰ اسمِ الجلالة في قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وهذا استدلالٌ آخرُ علىٰ انفراده تعالىٰ بالتصرُّف في المخلوقات، وهذا لونٌ آخرُ مِن الاستدلال علىٰ الإلهيَّة، ممزوجٌ بالامتنانِ علىٰ المحجوجين به؛ لأنَّ الدليلَ السابق كان متضمِّنًا لعظيمِ أمر الخَلْقِ وسَعةِ العلم والقدرة بذِكْرِ أشياءَ ليس للمخاطَبين حظٌّ في التمتُّع بها(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الدلائلَ علىٰ ربوبيَّتِه مِن إيجادِ هذا العالَمِ العُلْويِّ والسُّفْلي؛ ذكَر ما أودَع في العالَمِ العُلْويِّ مِن هذينِ الجوهرينِ النَّيِّرينِ المُشرِقَينِ(٣).

لمَّا ذكَر الدلائلَ الدالة علىٰ الإلهيَّة، ثم فرَّع عليها صحةَ القولِ بالحشر والنشر؛ عادَ مرَّةً أخرىٰ إلىٰ ذِكْرِ الدلائلِ الدالة علىٰ الإلهيَّة(٤).

ثم نبَّه تعالىٰ للاستدلالِ علىٰ وَحْدتِه في ربوبيَّته بآثارِ صُنْعِه في النَّيِّرينِ، إثر الاستدلال بما مرَّ مِن إبداعِ السماوات والأرض، بقولِه سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٥).

لمَّا قرَّر ربوبيَّتَه وإلهيَّتَه، ذكَر الأدلةَ العقلية الأُفقيَّةَ الدالة علىٰ ذلك، وعلىٰ كمالِه في أسمائه وصفاته(٦).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٩٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ١٤).

(٤) مفاتيح الغيب (١٦/ ٢٠٧).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٧).

(٦) تفسير السعدي (١/ ٣٥٨).

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾

ولمَّا أشار سبحانه إلىٰ الاستدلالِ علىٰ فَناءِ العالم بتغيُّره، وإلىٰ القُدْرةِ علىٰ البعث بإيجادِ كلٍّ مِن الملَوَيْنِ[1] بعد إعدامِه، وفيما خلقَ الله من أحوالِ السحاب والأمطار، وما يحدثُ من الخسف والزلازل والمعادن والنبات والحيوانات وغير ذلك من أحوال لا يحيطُ البشرُ بإحصائها؛ قال: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾؛ أي أن مَن نظر في هذا الاختلاف وتأمَّل تغيُّرَ الأجرام الكبار؛ كان جديرًا بأن يخاف من أن تتغير أحوالُه وتضطربَ أمورُه؛ فيتقي الله[2].

استدلالٌ آخَرُ علىٰ انفرادِ الله تعالىٰ بالخَلْقِ والتقدير، وهو استدلالٌ بأحوالِ الضَّوء والظُّلمة، وتعاقُبِ الليل والنهار، وفي ذلك عِبْرةٌ عظيمة، وهو بما فيه مِن عطفِ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أعَمُّ مِن الدليل الأول؛ لشمولِه ما هو أكثرُ مِن خَلْقِ الشمس والقمر، ومِن خَلْقِ الليل والنهار، ومِن كلِّ ما في الأرضِ والسماء ممَّا تبلُغُ إليه معرفةُ الناس في مختلِفِ العصور، وعلىٰ تفاوُتِ مقاديرِ الاستدلال مِن عقولهم[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ استدَلَّ علىٰ التوحيدِ والإلهيَّات أولًا: بتخليقِ السماوات والأرض، وثانيًا: بأحوالِ الشمس والقمر، وثالثًا: في هذه الآيةِ بالمنافعِ الحاصلة مِن اختلاف الليل والنهار[4].

---

(١) أي: الليل والنهار.

(٢) نظم الدرر (٩/ ٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٩٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٠).

ثم ذكَر سبحانه المنافعَ الحاصلة مِن اختلافِ الليل والنهار، وما خلَق في السماواتِ والأرض مِن تلك المخلوقاتِ، فقال: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧﴾

ولمَّا أُشيرَ بالآيةِ إلىٰ انقراض الدُّنيا بأنَّ الحادثَ لا ثباتَ له، وقام الدليلُ القطعيُّ علىٰ المَعاد؛ ناسَب تعقيبُها بعَيْبِ مَن اطمأنَّ إليها في سياقٍ مُبينٍ أنَّ سببَ الطُّمَأنينة إنكارُ الطُّمَأنينة اعتقادًا أو حالًا، ولمَّا كان ختم تلك بـ ﴿يَتَّقُونَ﴾، لاحَ أنَّ ثَمَّ مَن يَتَّقي ومَن لا يَتَّقي، ولمَّا كان الغُرورُ أكثرَ، بدأ به تنفيرًا عن حاله؛ لأنَّ درءَ المفاسد أَوْلىٰ مِن جلبِ المصالح، فقال مؤكدًا لأجلِ إنكارهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾[2].

هذا استئنافُ وعيدٍ للذين لم يؤمِنوا بالبعث، ولا فكَّرُوا في الحياة الآخرة، ولم ينظُروا في الآيات؛ نشأ عن الاستدلالِ علىٰ ما كفَروا به مِن ذلك؛ جمعًا بَيْنَ الاستدلالِ المناسب لأهل العقول وبَيْنَ الوعيدِ المناسب للمُعرِضين عن الحق؛ إشارةً إلىٰ أنَّ هؤلاء لا تَنفَعُهم الأدلةُ؛ وإنَّما ينتفع بها الذين يَعلَمون ويَتَّقُون، وأمَّا هؤلاء فهم سادِرُون في غُلَوائِهم[3] حتىٰ يُلاقُوا العذابَ[4].

(١) فتح القدير (٢/ ٤٨٤).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٧٧).
(٣) أي: ذاهبون في غلوهم.
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٩٨).

اعلَمْ أنَّه لمَّا أقام الدلائلَ القاهرة علىٰ صحةِ القول بإثباتِ الإلـه الرَّحيم الحكيم، وعلىٰ صحةِ القول بالمَعادِ والحشر والنَّشر؛ شرَع بعده في شرحِ أحوالِ مَن يكفُرُ بها، وفي شرحِ أحوال مَن يؤمِن بها، فأمَّا شرحُ أحوالِ الكافرين، فهو المذكور في هذه الآيةِ(١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أُعقِبَ ذلك باسمِ الإشارة لزيادةِ إحصاء صفاتهم في أذهانِ السامعين، ولِما يؤذِنُ به مجيءُ اسمِ الإشارة مبتدأً عَقِب أوصافٍ مِن التنبيهِ علىٰ أنَّ المشارَ إليه جديرٌ بالخبَرِ مِن أجلِ تلك الأوصاف(٢).

لمَّا وصَفهم بهذه الصفاتِ الأربعة، قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا انقضىٰ هذا القِسْمُ حالًا ومآلًا، أتبَعه سبحانه القسمَ الآخر بقولِه مؤكدًا لإنكارِ الكفار هدايتَهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٠).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٠٠).
(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٢).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٧٩).

جاءت هذه الجملةُ مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا لتكونَ أحوالُ المؤمنين مستقلَّةً بالذِّكر، غيرَ تابعةٍ في اللَّفظِ لأحوال الكافرين؛ وهذا مِن طُرُقِ الاهتمام بالخبر، ومناسبةُ ذِكْرِها: مقابلةُ أحوالِ الذين يكذِّبون بلقاءِ الله بأضدادها؛ تنويهًا بأهلها، وإغاظةً للكافرين[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أحوالَ المنكِرين والجاحدين في الآيةِ المتقدِّمة، ذكَر في هذه الآيةِ أحوالَ المؤمنين المُحِقِّين، واعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر صفاتِهم أولًا، ثم ذكَر ما لهم مِن الأحوالِ السَّنية والدرجاتِ الرفيعة ثانيًا[(٢)].

فلمَّا ذكَر عقابَهم، ذكَر ثوابَ المُطِيعين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[(٣)].

﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾

ولمَّا كان الواجبُ علىٰ العباد أولًا تنزيهَه تعالىٰ عن النقائصِ التي أعظمُها الإشراكُ، وكان مَن فعَل ذلك سَلِم مِن غوائلِ الضَّلال، فرَبِح نفسَه، فعرَف ربَّه؛ أشار إلىٰ التَّسليكِ في ذلك بقولِه: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٠١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٥٨).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٧٨).

جملةُ ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ وما عُطِف عليها أحوالٌ مِن ضمير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(١).

ثم ذكَر المرتبةَ الثانية مِن مراتبِ سعاداتهم، ودرجاتِ كمالاتهم، فقال: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾(٢).

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لمَّا أُشيرَ في الآيةِ السابقة إلىٰ تنزُّهه تعالىٰ وعلوِّه وتفرُّدِه بنعوت الكمال، ودلَّ بخَتْمِها بالحمدِ علىٰ إحاطتِه، وبـ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ علىٰ تمامِ قُدْرتِه، وحُسْنِ تدبيرِه في ابتدائه وإعادته؛ أُتبِعتْ بما يدلُّ علىٰ ذلك مِن لُطْفِه في معاملته مِن أنَّه لا يفعلُ شيئًا قبل أوانه؛ لأنَّ الاستعجالَ مِن سماتِ الاحتياج؛ فإنَّه تعالىٰ يفعلُ فِعْلَ مَن ينظُرُ في أدبارِ الأمور؛ فلا يفعلُ إلا ما هو في غايةِ الإحكام؛ فهو لا يعاجِلُ العصاةَ، بل يُمهِلُهم ويُسبِغُ عليهم النِّعَمَ، وهم في حالِ عصيانهم له أضَلُّ مِن النَّعَمِ، يطلُبون خيراتِه ويَستعجلونه بها: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٣).

مجيءُ حرفِ العطف في صدرِ هذه الآية يقتضي في علمِ البلاغة خَصُوصيةً لعطفِها علىٰ ما قبلها، ومزيدَ اتصالها بما قبلها؛ فتعيَّن إيضاحُ مناسبةِ موقعها، والظاهرُ أنَّ

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٥).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٨٠-٨١).

المشركين كانوا مِن غُرورِهم يَحسَبون تصرُّفاتِ الله كتصرفات الناس؛ مِن الاندفاعِ إلىٰ الانتقام عند الغضب اندفاعًا سريعًا، ويَحسَبون الرُّسلَ مبعوثينَ لإظهارِ الخوارق، ونِكاية المعارِضين لهم، ويُسَوُّون بَيْنهم وبين المُشَعْوِذِين والمُتحَدِّينَ بالبطولةِ والعجائب، فكانوا لمَّا كذَّبوا النبيَّ ﷺ ورَكِبوا رؤوسَهم ولم تُصِبْهم بأثرِ ذلك مصائبُ مِن عذابٍ شامل أو مُوتَانٍ عامٍّ، ازدادوا غُرورًا بباطلهم، وإحالةً[(١)] لكونِ الرسولِ ﷺ مرسَلًا مِن قِبَلِ الله تعالىٰ؛ فهذه الجملة معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآيةَ، فحيث ذُكِر عذابُهم الذي هم آيِلون إليه، ناسَب أن يبيِّنَ لهم سببَ تأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا؛ لتُكشَفَ شُبْهةُ غُرورهم، وليَعلَمَ الذين آمنوا حِكْمةً مِن حِكَمِ تصرُّفِ الله في هذا الكونِ[(٢)].

أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف الكفارَ بأنَّهم لا يرجُون لقاءَ الله ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾، وكانوا عن آياتِ الله غافلين؛ بيَّن أنَّ مِن غفلتِهم أنَّ الرسولَ متىٰ أنذَرهم استعجَلوا العذاب جهلًا منهم وسفَهًا[(٣)].

ولمَّا بيَّن تعالىٰ وعيدَه الشديد، أتبعه بما دلَّ علىٰ أنَّ مِن حقِّه أن يَتأخَّرَ عن هذه الحياةِ الدنيوية؛ لأنَّ حصولَه في الدُّنيا كالمانعِ مِن بقاء التَّكليف، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٤)].

---

(١) أي: استبعادًا.

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٠٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٨).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٩).

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ دأبَهم استعجالُهم بالخير، وكان منه استكشافُ الضُّر؛ بيَّن أنَّ حالَهم عنده الاعترافُ، وشُكْرَهم على النَّجاة منه الإنكارُ؛ فدأبُهم الطُّغيانُ والعَمَهُ؛ وذلك في غايةِ المنافاة لِما يَدَّعونه مِن رجاحةِ العقول، وأصالةِ الآراء، وسلامةِ الطباع؛ فالحاصلُ أنَّ الإنسانَ عند البلاء غيرُ صابرٍ، وعند الرجاءِ غيرُ شاكرٍ، فكأنَّه قيل: فإذا مَسَّ الإنسانَ منهم الخيرُ، كان في غفلةٍ بالفرَحِ والأشَرِ[(١)] والمرح؛ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٢)].

لمَّا بيَّن في الآيةِ السابقة وجهَ تأخيرِ عذاب الاستئصال عنهم، وإرجاءِ جزائهم إلى الآخرة؛ بيَّن في هذه الآيةِ حالَهم عندما يمَسُّهم شيءٌ مِن الضُّر، وعندما يُكشَف الضُّرُّ عنهم[(٣)].

لمَّا استدعَوْا حلولَ الشرِّ بهم، وأنَّه تعالىٰ لا يفعلُ ذلك بطلبهم، بل يتركُ مَن يرجو لقاءَه يَعمَهُ في طغيانِه؛ بيَّن شِدَّةَ افتقارِ الناس إليه، واضطرارِهم إلى استمطارِ إحسانِه؛ مُسيئِهم ومُحسِنِهم، وأنَّ مَن لا يرجو لقاءَه مضطرٌّ إليه حالةَ مسِّ الضُّرِّ له، فكلٌّ يَلجأ إليه حينئذٍ، ويُفرِده بأنَّه القادرُ على كشفِ الضُّر[(٤)].

---

(١) أي: المرح والبطر.

(٢) نظم الدرر (٩/ ٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٠٩).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٢٠).

في كيفيَّةِ النَّظم وجهان: الأول: لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّه لو أنزَل العذابَ علىٰ العبد في الدُّنيا، لهلَك، ولقُضِيَ عليه؛ فبيَّن في هذه الآيةِ ما يدلُّ علىٰ غايةِ ضعفِه، ونهايةِ عَجْزِه؛ ليكونَ ذلك مؤكِّدًا لِما ذكَره مِن أنَّه لو أنزَل عليه العذابَ، لماتَ. الثاني: أنَّه تعالىٰ حكىٰ عنهم أنَّهم يَستعجلون في نزولِ العذاب، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم كاذبون في ذلك الطَّلَبِ والاستعجال؛ لأنَّه لو نزَل بالإنسان أدنىٰ شيءٍ يَكرَهه ويؤذيه، فإنَّه يَتضرَّع إلىٰ اللهِ تعالىٰ في إزالتِه عنه، وفي دفعِه عنه؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّه ليس صادقًا في هذا الطلب(١).

ثم بيَّن اللهُ سبحانه أنَّهم كاذبون في استعجالِ الشَّر، ولو أصابهم ما طلَبوه، لأظهَروا العَجْزَ والجزَعَ، فقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾(٢).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان محطَّ نظَرِهم الدُّنيا، وكان هذا صريحًا في الإمهالِ للظالمين، والإحسانِ إلىٰ المجرِمين؛ أتبعَه بقولِه تعالىٰ -مُهدِّدًا لهم، رادعًا عمَّا هم فيه مِن اتباعِ الزينة، مؤكِّدًا لأنَّهم يُنكِرون أنَّ هلاكهم لأجلِ ظُلْمِهم-: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾(٣).

عاد الخطابُ إلىٰ المشركين بمناسبةِ التَّماثل بَيْنهم وبين الأُمَمِ قبلهم في الغُرور بتأخيرِ العذاب عنهم حتَّىٰ حَلَّ بهم الهلاكُ فجأةً، والجملة معطوفةٌ علىٰ جملةِ

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٨-٢١٩).
(٢) فتح القدير (٢/ ٤٨٧).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٨٥).

﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ بما تضمَّنته مِن الإنذارِ بأنَّ الشرَّ قد يَنزِلُ بهم، ولكنَّ عذابَ الله غيرُ مُعجَّلٍ، فضرَب لهم مثَلًا بما نزَل بالأُمَم مِن قبلِهم، فقضىٰ إليهم بالعذابِ أجلَهم وقد كانوا يَعرِفون أُممًا منهم أصابهم الاستئصالُ؛ مثلُ: عادٍ، وثمودَ، وقومِ نوحٍ[(١)].

ثم ذكَّرهم تعالىٰ بعظيمِ قُدْرته ممَّا وصَل إليهم مِن نبأِ الأقدمين لِيَتَّقُوه بقولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[(٢)].

ثم ذكَر سبحانه ما يجري مَجرىٰ الرَّدْعِ والزَّجر عمَّا صنَعه هؤلاء، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾[(٣)].

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾

ولمَّا صرَّح بأنَّ ذلك عامٌّ لكل مجرمٍ، أتبَعه قولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، وحرفُ ﴿ثُمَّ﴾ مؤذِنٌ ببُعْدِ ما بَيْنَ الزَّمَنينِ؛ أي: ثم جعلْناكم تخلُفونهم في الأرض. وكونُ حرفِ ﴿ثُمَّ﴾ هنا عاطفًا جملةً علىٰ جملةٍ يقتضي التراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ جَعْلَهم خلائفَ أهمُّ مِن إهلاكِ القرون قبلهم؛ لِما فيه مِن المنَّةِ عليهم، ولأنَّه عوَّضهم بهم[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١١٢).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ١٠).

(٣) فتح القدير (٢/ ٤٨٨).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٨٦).

(٥) التحرير والتنوير (١١/ ١١٤).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّ مَن قضىٰ بشقاوته لا يَتأتَّىٰ إيمانُه بآيةٍ مِن الآيات حتىٰ تَنزِلَ به سَطْوتُه، وتُذيقَه بأسَه ونِقْمتَه، وكان القرآن أعظَمَ آيةٍ أُنزلت إلىٰ الناس لِما لا يخفىٰ؛ أُتبِعَ بقولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾(١).

حُكِي في هذه الآيةِ أسلوبٌ آخَرُ مِن أساليبِ تكذيبهم النبيَّ ﷺ أن يكونَ القرآنُ مُوحًىٰ إليه مِن اللهِ تعالىٰ، فهم يَتوهَّمون أنَّ القرآنَ وضَعه النبيُّ ﷺ مِن تِلْقاءِ نفسه؛ ولذلك جعَلوا مِن تكذيبِهم أن يقولوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ إطماعًا له بأن يؤمِنوا به، مغايِرًا أو مُبدَّلًا، إذا وافَق هواهم(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ هو النوعُ الثالث مِن شُبُهاتِهم وكلماتهم التي ذكَروها في الطَّعن في نبوَّةِ النبي ﷺ، حكاها اللهُ تعالىٰ في كتابه، وأجاب عنها. واعلَمْ أنَّ مَن وقَف علىٰ هذا الترتيبِ الذي نذكره، عَلِم أنَّ القرآنَ مرتَّبٌ علىٰ أحسَنِ الوجوه(٣).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ التفاتٌ مِن خطابِهم إلىٰ الغَيْبةِ؛ إعراضًا عنهم، وتوجيهًا للخطابِ إلىٰ رسول الله ﷺ بتعديدِ جناياتهم المضادَّةِ لِما أُريدَ منهم بالاستخلافِ مِن تكذيبِ الرسول، والكفرِ بالآياتِ البينات، وغيرِ ذلك؛ كدأبِ مَن قَبْلَهم مِن القرونِ المُهلَكة(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٢٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٢٨).

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ ما دفَع به مَكْرَهم في طعنِهم، أتبَعه بعُذْرِه ﷺ في الإبلاغِ علىٰ وجهٍ يدلُّ قطعًا علىٰ أنَّه كلامُ الله، وما تلاه إلا بإذنه، فيَجتثُّ طَعْنَهم مِن أصله، ويُزيلُه بحذافيره، فقال: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

هذا جوابٌ عن لازمِ اقتراحهم وكنايتِه عن رميِهم الرسولَ ﷺ بالكذب عن الله فيما ادَّعىٰ مِن إرسالِه، وإنزال القرآن عليه؛ كما تقدَّم في الجوابِ قبله، ولكونه جوابًا مستقلًّا عن معنًىٰ قصَدوه مِن كلامهم، جاء الأمرُ به مفصولًا عن الأول، غيرَ معطوفٍ عليه؛ تنبيهًا علىٰ استقلاله، وأنَّه ليس بتكملةٍ للجوابِ الأول[2].

اعلَمْ أنَّا بيَّنَّا فيما سلَف أنَّ القومَ إنَّما التمَسوا منه ذلك الالتماسَ؛ لأجلِ أنَّهم اتَّهموه بأنَّه هو الذي يأتي بهذا الكتابِ مِن عندِ نفسِه علىٰ سبيلِ الاختلاق والافتعال، لا علىٰ سبيلِ كونه وحيًا مِن عندِ الله؛ فلهذا المعنىٰ احتَجَّ النبيُّ ﷺ علىٰ فساد هذا الوَهْمِ بما ذكَره اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ[3].

ولمَّا بيَّن بطلانَ ما اقترَحوا الإتيانَ به واستحالتَه، أشار إلىٰ تحقيقِ حقيَّة القرآن، وكونِه مِن عندِه تعالىٰ بقولِه: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٢٥).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١١).

ثم أكَّد سبحانه كونَ هذا القرآنِ مِن عندِ الله، وأنَّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم إنَّما يُبلِّغ إليهم منه ما أمَره اللهُ بتبليغه، لا يَقدِرُ علىٰ غيرِ ذلك، فقال: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

لمَّا أقام الحجَّةَ عليهم بأنَّ ذلك مِن عندِ الله، وأنَّه ما يكونُ له أن يأتيَ به مِن تلقاءِ نفسه؛ فرَّع عليه أنَّ المفتريَ علىٰ الله كذبًا والمكذِّبين بآياته كِلاهما أظلَمُ الناس، لا أحدَ أظلَمُ منهما؛ وذلك مِن مجاراةِ الخَصْمِ ليعثُر، يُخيَّل إليه مِن الكلام أنَّه إنصافٌ بينهما، فإذا حصحَصَ المعنىٰ، وُجِد انصبابُه علىٰ الخَصْمِ وَحْدَه[2].

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلها ظاهرٌ؛ وذلك لأنَّهم التمَسوا منه قرآنًا يذكُره مِن عندِ نفسه، ونسَبوه إلىٰ أنَّه إنَّما يأتي بهذا القرآنِ مِن عندِ نفسه، ثم إنَّه أقام البرهانَ القاهر الظاهر علىٰ أنَّ ذلك باطلٌ، وأنَّ هذا القرآنَ ليس إلا بوحيِ الله تعالىٰ وتنزيلِه؛ فعندَ هذا قال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[3].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصَّة؛ فهذه قصَّةٌ أخرىٰ مِن قِصَصِ أحوال كفرِهم؛ أنْ قالوا: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ حين

(١) فتح القدير (٢/ ٤٩٠).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٣).
(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٢٦).

تُتلَىٰ عليهم آياتُ القرآن، ومِن كفرِهم أنَّهم يعبُدون الأصنامَ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. والمناسبةُ بَيْنَ القصَّتَينِ: أنَّ في كلتيهما كفرًا أظهَروه في صورةِ السُّخْريَّةِ والاستهزاء، وإيهامِ أنَّ العُذْرَ لهم في الاسترسالِ علىٰ الكفر[(١)].

اعلَمْ أنَّا ذكَرْنا أنَّ القومَ إنَّما التمَسوا مِن الرسول ﷺ قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ، أو تبديلَ هذا القرآنِ؛ لأنَّ هذا القرآنَ مشتمِلٌ علىٰ شَتْمِ الأصنام التي جعَلوها آلهةً لأنفسهم؛ فلهذا السببِ ذكَر اللهُ تعالىٰ في هذا الموضعِ ما يدلُّ علىٰ قُبْحِ عبادةِ الأصنام؛ ليبيِّنَ أنَّ تحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حقٌّ، وطريقٌ متيقَّنٌ[(٢)].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أخرىٰ لهم نشَأتْ عنها جنايتُهم الأُولىٰ، معطوفةٌ علىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ الآيةَ، عَطْفَ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ[(٣)].

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا بيَّن شرارتَهم بعبادةِ غيرِ الله، وختَم بتنزيهه وكماله؛ بيَّن أنَّ هذا الدِّينَ الباطل حادثٌ، وبيَّن نزاهتَه وكمالَه؛ ببيانِ أنَّ النَّاس كانوا أولًا مجتمِعين علىٰ طاعته، ثم خالَفوا أمره، فلم يَقطَعْ إحسانَه إليهم؛ بل استمَرَّ في إمهالِهم مع تَماديهم في سُوءِ أعمالهم علىٰ ما سبَق في علمِه، ومضىٰ به قضاؤُه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٣١).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٩٣).

جملةٌ معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿ وَيَعۡبُدُونَ ﴾، وجملةِ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ ﴾ [يونس: ٢٠]، ومناسبةُ الاعتراض: قولُه: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ ﴾؛ لأنَّ عبادةَ الأصنام واختراعَ صفةِ الشفاعة لها هو مِن الاختلاف الذي أحدَثه ضُلَّالُ البشَرِ في العقيدةِ السَّليمة التي فطَر اللهُ الناسَ عليها في أولِ النَّشأة؛ فهي ممَّا يَشمَله التَّوبيخُ الذي في قوله: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الدلالةَ علىٰ فسادِ عبادة الأصنام، ذكَر الحاملَ علىٰ ذلك؛ وهو الاختلافُ الحادث بَيْنَ الناس، والظاهرُ عمومُ الناس(٢).

لمَّا أقام الدلالةَ القاهرة علىٰ فسادِ القول بعبادة الأصنام، بيَّن السببَ في كيفيةِ حدوث هذا المذهبِ الفاسد، والمقالةِ الباطلة، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْ ﴾(٣).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنَّ التَّوحيدَ والإسلام ملَّةٌ قديمةٌ كان عليها الناسُ أجمَعُ، فطرةً وتشريعًا، بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾(٤).

﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠ ﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾؛ فبعد أن ذكَر افتراءَهم في جانبِ الإلهيَّة، نفىٰ بُهْتانَهم في جانبِ النُّبوة(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٧).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٢٨).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٥).

(٥) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٩).

اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ هو النوعُ الرابع مِن شُبُهاتِ القوم في إنكارِهم نبوَّته؛ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ القرآنَ الذي جئتَنا به كتابٌ مشتمِلٌ على أنواعٍ مِن الكلمات، والكتابُ لا يكون مُعجِزًا، ألَا ترى أنَّ كتابَ موسى وعيسى ما كان مُعجِزةً لهما؟! بل كان لهما أنواعٌ مِن المعجزات دلَّت على نُبوَّتهما سِوى الكتاب، وأيضًا فقد كان فيهم مَن يَدَّعي إمكانَ المعارضة، وإذا كان الأمرُ كذلك، لا جرَمَ طلَبوا منه شيئًا آخرَ سِوى القرآن ليكونَ مُعجِزةً له، فحكى اللهُ تعالى عنهم ذلك بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فأمَر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقولَ عند هذا السُّؤال: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[1].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أخرى لهم، معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾، وصيغةُ المضارعِ لاستحضار صورةِ مقالتهم الشَّنعاء، والدَّلالةِ على الاستمرار، والقائلون أهلُ مكَّةَ[2].

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا كان طلَبُهم محرِّكًا لنفوس الخيِّرين إلى ترجِّي إجابةِ سؤالهم، أتبَعه سبحانه بما يبيِّنُ أنَّ ذلك غيرُ نافعٍ لهم؛ لأنَّه محضُ تعنُّتٍ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٣٠).
(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٣٣).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٩٥).

لمَّا حكىٰ تمرُّدَ المشركين، بيَّن هنا أنَّهم في ذلك لاهُونَ ببطَرِهم، وازدهائِهم[١] بالنِّعْمة والدَّعَة، فأنساهم ما هم فيه مِن النِّعْمةِ أن يَتوقَّعوا حدوثَ ضدِّه، فتفنَّنوا في التَّكذيبِ بوعيد الله أفانينَ الاستهزاء[٢].

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا طلَبوا مِن رسول الله ﷺ آيةً أُخرىٰ سِوىٰ القرآن، وأجاب الجوابَ الذي قرَّرناه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ ذكَر جوابًا آخرَ، وهو المذكورُ في هذه الآية[٣].

ثم أكَّد تعالىٰ ما هم عليه مِن العنادِ واللَّجاج، مشيرًا إلىٰ أنَّهم لا يُذعِنون، ولو أُجيبوا لمُقترَحِهم، بما يُعهَد منهم مِن عدولِهم عنه تعالىٰ بعد كشفِهم ضُرَّهم إلىٰ الإشراك، بقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم أخَذ سبحانه يبيِّنُ ما يتَّضِحُ به أَسْرَعِيَّةُ[٥] مكرِه في مثالٍ دالٍّ علىٰ ما في الآية قبلها مِن نقلِه سبحانه لعباده مِن الضرِّ إلىٰ النِّعمة، ومِن سرعة تقلُّبهم، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ

---

(١) أي: استخفافهم.

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٣٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٣٠).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٦).

(٥) أي: كونه أسرع.

عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ إلىٰ آخرِها؛ لأنَّ البَغْيَ في الأرض اشتمَل عليه المكرُ في آيات الله[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، كان هذا الكلامُ كلامًا كليًّا لا ينكشفُ معناه تمامَ الانكشاف إلا بذِكْرِ مثالٍ كامل، فذكَر اللهُ تعالىٰ لنقلِ الإنسان مِن الضرِّ الشديد إلىٰ الرحمة مثالًا، ولِمَكْرِ الإنسان مثالًا؛ حتىٰ تكونَ هذه الآيةُ كالمفسِّرة للآية التي قبلها؛ وذلك لأنَّ المعنىٰ الكليَّ لا يصل إلىٰ أفهامِ السامعين إلا بذِكْرِ مثالٍ جليٍّ واضح يكشف عن حقيقةِ ذلك المعنىٰ الكليِّ[3].

ثم بيَّن تعالىٰ نوعًا مِن أنواعِ مكرهم في آيةِ إنجائهم مِن لُجَجِ البحرِ بقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[4].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ جنايةٍ أُخرىٰ لهم مبنيَّةٍ علىٰ ما مرَّ آنفًا مِن اختلافِ حالهم حسَبَ اختلافِ ما يعتريهم مِن السَّراء والضَّراء[5].

لمَّا ذكَر تعالىٰ القاعدةَ العامة في أحوالِ الناس عند إصابةِ الرحمة لهم بعد الضرَّاءِ، واليُسْرِ بعد العسرِ؛ ذكَر حالةً تؤيد ذلك؛ وهي حالُهم في البحرِ عند اشتداده،

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٣٢).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٦).

(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٣٤).

والخوفِ مِن عواقبه، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾(١).

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا أعلَمَ سبحانه أنَّهم أكَّدوا هذا الوعدَ هذا التأكيدَ، أتبعه بيانَ أنَّهم أسرَعوا في نقضِه غايةَ الإسراع، فقال: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾(٢).

لمَّا حكىٰ عنهم هذا التضرُّعَ الكامل، بيَّن أنَّهم بعد الخلاصِ مِن تلك البليَّةِ والمحنةِ أقدَموا في الحالِ علىٰ البَغْيِ في الأرض بغيرِ الحق(٣).

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان السياقُ لإثباتِ البعث وتخويفِهم به، وكانوا يُنكِرونه ويَعتقدون بقاءَ الدُّنيا، وأنَّها إنَّما هي أرحامٌ تَدفَع وأرضٌ تبلَع، دائمًا بلا انقضاءٍ، فهي دارٌ يُرضَىٰ بها فيُطمأنُّ إليها، وللتنفير مِن البَغْيِ والتعزُّزِ بغير الحق، وكانت الأمثالُ أجلىٰ لمحال الأشكال؛ قال تعالىٰ ممثِّلًا لمتاعها، قاصرًا أمرَها علىٰ الفَناء؛ ردًّا عليهم في اعتقادِ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٦١).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٣٥).

دوامها من غير بعث: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾[1].

هذه الآيةُ تتنزَّلُ منزلةَ البيانِ لجملةِ ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، المؤذِنةِ بأنَّ تمتُّعهم بالدُّنيا ما هو إلا لمدَّةٍ قصيرة، فبيَّنتْ هذه الآيةُ أنَّ التمتُّعَ صائرٌ إلىٰ زوال، وأطنَبتْ فشبَّهتْ هيئةَ التمتُّعِ بالدُّنيا لأصحابها بهيئةِ الزَّرعِ في نضارتِه، ثم في مصيرِه إلىٰ الحصد[2].

لمَّا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ضرب مثلًا عجيبًا غريبًا للحياة الدُّنيا، يذكِّرُ مَن يَبغِي فيها علىٰ سرعةِ زوالها وانقضائها، وأنَّها بحالِ ما تغُرُّ وتسُرُّ، تضمحِلُّ ويؤُولُ أمرُها إلىٰ الفَناء[3].

ثم بيَّن تعالىٰ شأنَ الدُّنيا، وقِصَرَ مدةِ التَّمتع بها، وقُرْبَ زمانِ الرُّجوع الموعود بقولِه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[4].

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه هذه الآياتِ التي حذَّر فيها مِن أنواع الآفات، بيَّن أَّن الدارَ التي رَضُوا بها واطمأنُّوا إليها دارُ المصائب، ومَعدِن الهلكاتِ والمعاطب، وأنَّها ظلٌّ زائلٌ؛ تحذيرًا منها، وتنفيرًا عنها: بيَّن تعالىٰ أنَّ الدارَ التي دعا إليها سالِمةٌ مِن كلِّ

(١) نظم الدرر (٩/ ١٠١).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٤١).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٣٦).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ١٧).

نصَبٍ وهمٍّ ووصَبٍ، ثابتةٌ بلا زوال، فقال تعالىٰ ترغيبًا في الآخرة وحثًّا عيها: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

الجملة معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾؛ أي: نفصِّلُ الآياتِ التي منها آيةُ حالةِ الدُّنيا وتقضِّيها، وندعو إلىٰ دارِ السلام دارِ الخُلد، ولمَّا كانت جملةُ ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ تذييلًا، وكان شأنُ التذييل أن يكونَ كاملًا جامعًا مستقلًّا، جُعِلتِ الجملةُ المعطوفة عليها مِثْلَها في الاستقلال، فعُدِل فيها عن الإضمارِ إلىٰ الإظهار؛ إذ وُضِع قولُه: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ ﴾ موضعَ «ندعو»؛ لأنَّ الإضمارَ في الجملة يجعلها محتاجةً إلىٰ الجملةِ التي فيها المُعاد(٢).

لمَّا ذكَر مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا وما يؤُولُ إليه مِن الفَناءِ والاضمحلال، وما تضمَّنَه مِن الآفاتِ والعاهات؛ ذكَر تعالىٰ أنَّه داعٍ إلىٰ دارِ السلامة والصحة والأمن؛ وهي الجَنَّةُ؛ إذ أهلُها سالمون مِن كلِّ مكروه(٣).

لمَّا نفَّر الغافلين عن الميلِ إلىٰ الدُّنيا بالمثَلِ السابق، رغَّبهم في الآخرةِ بهذه الآيةِ(٤).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ الدُّنيا وسرعةَ تَقضِّيها، رغَّب في الجَنَّةِ ودعا إليها، وسمَّاها دارَ السلام؛ أي: مِن الآفاتِ والنَّقائص؛ لذِكْرِ الدُّنيا بما يقابلُه مِن كونها مَعرِضًا للآفاتِ كما مرَّ، فقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٤٤).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٣٨).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ١٩).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا أعلَمَ بالدعوةِ بالهداية بالبيان، وأفهَمَ ختمُ الآيةِ بقولِه: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: بما يخلُقُ في قلبه مِن الهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ مِن الناس مَن يَهديه ومنهم مَن يُضِلُّه، وأنَّ الكلَّ فاعلون لِما يشاء؛ كان موضع أن يقالَ: هل هم واحدٌ في جزائه كما هم واحدٌ في الانقيادِ لمراده؟ فقيل: لا، بل هم فريقانِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(١).

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لأنَّ الهدايةَ بمَن يشاءُ تفيدُ مَهْديًّا وغيرَ مَهْديٍّ؛ ففي هذه الجملةِ ذِكْرُ ما يشتملُ عليه كِلا الفريقين(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا دعَا عبادَه إلىٰ دار السلام، ذكَر السَّعاداتِ التي تحصُلُ لهم فيها، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣).

ثم قسَّم سبحانه أهلَ الدعوةِ إلىٰ قسمين، وبيَّن حالَ كلِّ طائفةٍ، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٤).

ولمَّا دعا إلىٰ دارِ السلام، كأنَّ النفوسَ تشوَّقتْ إلىٰ الأعمالِ الموجِبة لها، الموصلة إليها؛ فأخبَر عنها بقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٢٤٠).

(٤) فتح القدير (٢/ ٤٩٨).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٣٦٢).

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن حالَ الفضلِ فيمَن أحسَنَ، بيَّن حالَ العدلِ فيمَن أساء، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾، وعبَّر في جانبِ المُسيئين بفعلِ ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ دُونَ فعلِ «أساؤوا» الذي عبَّر به في جانبِ الذين أحسَنوا؛ للإشارةِ إلى أنَّ إساءتهم مِن فعلِهم وسعيِهم؛ فما ظلَمهم اللهُ، ولكنْ أنفسَهم يَظلِمون[(٢)].

لمَّا ذكَر ما أعَدَّ للذين أحسَنوا وحالَهم يومَ القيامة ومآلَهم إلى الجنَّة، ذكَر ما أعَدَّ لأضدادِهم وحالَهم ومآلهم[(٣)].

لمَّا أخبَر تعالى عن حالِ السُّعداء الذين يضاعِفُ لهم الحسناتِ، ويزدادون على ذلك؛ عطَف بذِكْرِ حالِ الأشقياء، فذكَر عدلَه تعالى فيهم، وأنَّه يُجازيهم على السَّيئةِ بمثلِها، لا يَزيدهم على ذلك[(٤)].

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه مآلَ الفريقينِ، نبَّه على بعضِ مقدِّماتِ ذلك، المانعةِ أن يَشفَعَ أحدٌ مِن غيرِ إذنِه، بقولِه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٤٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٣).

(٥) نظم الدرر (٩/ ١٠٦).

لمَّا ذكَر في الجملتينِ السابقتين ما يختصُّ به كلُّ فريق مِن الفريقينِ مِن الجزاء وسِماته، جاءت هذه الجملةُ بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفريقين، ثم بتفصيلِ حالةٍ يمتاز بها المشركون؛ ليحصُلَ بذلك ذِكْرٌ فظيع مِن أحوالِ الذين بلَغوا الغايةَ في كسبِ السيئات، وهي سيئةُ الإشراك الذي هو أكبرُ الكبائر، وبذلك حصَلتِ المناسبةُ مع الجملة التي قبلها المقتضيةِ عَطْفَها عليها، والمقصودُ مِن الخبَرِ هو ذِكْرُ حشرِهم جميعًا، ثم ما يقع في ذلك الحشرِ مِن افتضاحِ الذين أشرَكوا[1].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن شرحِ فضائحِ أولئك الكفار؛ فالضميرُ في قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ عائدٌ إلى المذكورِ السابق؛ وذلك هو قولُه: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾، فلمَّا وصَف اللهُ هؤلاء الذين يحشُرُهم بالشركِ والكفر، دلَّ على أنَّ المرادَ مِن قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ الكفارُ، وحاصلُ الكلام: أنَّه تعالى يحشُرُ العابدَ والمعبود[2].

ثم بيَّن تعالى ما يَنالُ المشركين يومَ الحشر مِن التَّوبيخِ والخِزْيِ بقولِه سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾[3].

﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾

ولمَّا نفَوْا ذلك، عطَفوا عليه مُسبِّبينَ عنه قولَهم: ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾[4].

جملةُ ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ مؤكَّدةٌ بالقَسَمِ؛ ليُثبِتوا البراءةَ ممَّا أُلصِقَ بهم، وجوابُ القسم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾، وليس قولُهم: ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ قَسَمًا على

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٤٩).
(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٤٣).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢٠).
(٤) نظم الدرر (٩/ ١٠٨).

كلامهم المتقدِّم؛ لأنَّ شأنَ القَسَمِ أن يكونَ في صدرِ الجملة، وعُطِفتْ جملةُ القسم بالفاء للدَّلالة على أنَّ القسمَ متفرِّعٌ على الكلام المتقدِّم؛ لأنَّ إخبارَهم بنفيِ أن يكونوا يعبدونهم خبرٌ غريبٌ مخالِفٌ لِما هو مشاهَدٌ، فناسَب أن يُفرَّع عليه ما يحقِّقُه ويبيِّنه مع تأكيدِ ذلك بالقَسَم[(١)].

ولمَّا تنازَعوا، استشهَد الشركاءُ بالله تعالى[(٢)].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا أخبَر عن حالِ المشركين، تشوَّفتِ النفسُ إلى الاطلاعِ على حالِ غيرهم، فقال مستأنِفًا مُخبِرًا عن كِلا الفريقينِ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[(٣)].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تذييلٌ وفَذْلكةٌ للجُمَلِ السابقة مِن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إلى هنا، وهو اعتراضٌ بَيْنَ الجُمَلِ المتعاطِفة، والإشارةُ إلى المكانِ الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: في ذلك المكانِ الذي نحشُرُهم فيه[(٤)].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ كالتتمَّةِ لِما قبلها[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٥٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥١).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١١١).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٥٣).

(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٤٦).

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّ شركاءَهم مربوبون مقهورون، لا قدرةَ لهم إلا على ما يُقدِرُهم اللهُ عليه، وأنَّه وَحْدَه المولى الحقُّ، وبانت بذلك فضائحُهم؛ أتبعه ذِكْرَ الدلائلِ على فسادِ مذهبهم، فوبَّخهم بأنْ وجَّه السؤالَ إليهم عمَّا هم معترفون بأنَّه مختصٌّ به، ويدلُّ قطعًا على تفرُّدِه بجميعِ الأمر الموجِب مِن غيرِ وَقْفةٍ لاعتقادِ تفرُّدِه بالإلهيَّة، فقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

انتقالٌ مِن غرضٍ إلى غرضٍ في أفانينِ إبطالِ الشرك، وإثباتِ توحُّدِ الله تعالى بالإلهيَّة، وهذه الجملةُ تَتنزَّل منزلةَ الاستدلالِ لقوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّها برهانٌ على أنَّه المستحِقُّ للوَلاية[2].

لمَّا بيَّن فضائحَ عبدَةِ الأوثان، أتبعَها بذِكْرِ الدلائلِ على فسادِ مذهبهم بما يوبِّخُهم، ويحُجُّهم بما لا يمكِنُ إلا الاعترافُ به؛ مِن حالِ رزقِهم وحواسِّهم، وإظهارِ القدرةِ الباهرة في الموت والحياة[3].

ثم احتجَّ على المشركين على وَحدانيَّته باعترافِهم بربوبيَّته وَحْدَه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٥٥).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥٢).

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٢٢).

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ثم علَّل إنكارَ عدمِ تَقْواهم بقولِه: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[(١)].

الفاءُ للتَّفريع على الإنكارِ الذي في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؛ فالمفرَّعُ مِن جملةِ المقول، واسمُ الإشارة عائدٌ إلى اسمِ الجلالة؛ للتَّنبيه على أنَّ المشارَ إليه جديرٌ بالحُكْمِ الذي سيُذكَر بعد اسمِ الإشارة مِن أجلِ الأوصاف المتقدِّمة على اسمِ الإشارة؛ وهي كونُه الرازقَ، الواهبَ الإدراكِ، الخالقَ، المدبِّر؛ لأنَّ اسمَ الإشارة قد جمَعها[(٢)].

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا كانوا جديرين عند تقريرِهم بهذه الآيةِ وإقرارِهم بمضمونها بأن يقولوا: سلَّمْنا فأسلَمْنا ولا نُصرَف عن الحقِّ أبدًا، فلم يقولوا؛ كانوا حقيقِينَ بأن يقالَ لهم: حقَّتْ عليكم كلمةُ الله؛ لفِسْقِكم، وزوَغانِكم عن الحقِّ، فقيل: هل خُصُّوا بذلك؟ فقيل: بل ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(٣)].

تذييلٌ للتَّعجيبِ مِن استمرارهم على الكفر بعد ما ظهَر لهم مِن الحُجَج والآيات، وتأييسٌ مِن إيمانِهم بإفادة أنَّ انتفاءَ الإيمان عنهم بتقديرٍ مِن الله تعالى عليهم؛ فقد ظهَر وقوعُ ما قدَّره مِن كلمتِه في الأزل، والكافُ الدَّاخلة قبل اسمِ الإشارة كافُ التشبيهِ، والمشبَّهُ به هو المشارُ إليه؛ وهو حالُهم وضَلالهم؛ أي: كما شاهَدْتَ حقَّتْ كلمةُ ربِّك؛ يعني: أنَّ فيما شاهَدْتَ ما يبيِّنُ لك أنْ قد حقَّتْ كلمةُ ربِّك عليهم أنَّهم لا يؤمنون[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١١٣).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٥٨).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١١٤).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٥٩).

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا عُلِم أنَّهم معترفون بأمرِ الهداية وما يَتبَعُها مِن الرزقِ والتَّدبير، أعاد سبحانه السُّؤالَ عنها مقرونةً بالإعادة؛ تنبيهًا لهم على ما يَتعارفونه مِن أنَّ الإعادةَ أهوَنُ؛ فإنكارُها مع ذلك إمَّا جمودٌ أو عنادٌ، وإنكارُ المسلَّماتِ كلِّها هكذا، وسَوْقُه على طريقِ الاستفهام أبلَغُ وأوقع في القلب، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(١).

استئنافٌ على طريقةِ التَّكرير لقوله قبله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذا مقامُ تقريرٍ وتعديدِ الاستدلال، وهو مِن دواعي التَّكرير، وهو احتجاجٌ عليهم بأنَّ حالَ آلهتهم على الضدِّ مِن صفاتِ الله تعالى؛ فبعد أن أقام عليهم الدَّليلَ على انفرادِ الله تعالى بالرزقِ وخَلْقِ الحواسِّ وخلق الأجناس وتدبيرِ جميع الأمور، وأنَّه المستحِقُّ للإلهيَّة بسببِ ذلك الانفرادِ؛ بيَّن هنا أنَّ آلهتَهم مسلوبةٌ مِن صفاتِ الكمال، وأنَّ اللهَ متصِفٌ بها، وإنَّما لم يُعطَفْ لأنَّه غرضٌ آخرُ مستقِلٌّ، وموقعُ التَّكرير يَزيده استقلالًا(٢).

لمَّا استفهَمهم عن أشياءَ مِن صفاتِ الله تعالى واعترَفوا بها، ثم أنكَر عليهم صَرْفَهم عن الحقِّ وعبادةِ الله؛ استفهَم عن شيءٍ هو سببُ العبادة؛ وهو: إبداءُ الخَلْقِ، وهم يُسلِّمون ذلك(٣).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٦٠).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٥٤).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الحجَّةُ الثانية، وتقريرُها ما شرَح اللهُ تعالىٰ في سائرِ الآيات مِن كيفيَّةِ ابتداء تخليق الإنسان مِن النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وكيفيَّةِ إعادته، ومِن كيفيَّةِ ابتداءِ تخليق السماوات والأرض، فلمَّا فصَّل هذه المقاماتِ، لا جرَمَ اكتفىٰ تعالىٰ بذِكْرِها هاهنا علىٰ سبيلِ الإجمال(١).

ثم احتجَّ أيضًا علىٰ حَقِّيَّةِ التوحيدِ وبطلانِ الشرك بما هو مِن خصائصه تعالىٰ؛ مِن بَدْءِ الخَلْقِ وإعادته، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(٢).

ما زال السياقُ في حِجاجِ المشركين لبيانِ الحقِّ لهم، ودعوتِهم إلىٰ اتباعه، فيقول تعالىٰ لرسوله ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركين: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(٣).

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فلمَّا فرَغ ممَّا يَتعلَّق بأحوالِ الجسد، أمَره أن يَسألَهم عن غايةِ ذلك؛ والمقصودُ منه أحوال الرُّوحِ في الهداية التي هي سبب السَّعادة إمعانًا في الاستدلالِ بالمخلوق علىٰ الخالق علىٰ وجهٍ مشيرٍ إلىٰ التَّفضيل، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٤٨).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٢٣).
(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٤٧١).
(٤) نظم الدرر (٩/ ١١٦-١١٧).

هـذا تكريـرٌ آخـرُ بعـد قولـه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وهذا استدلالٌ بنقصانِ آلهتهم عن الإرشادِ إلىٰ الكمال النَّفسانيِّ بنشرِ الحقِّ، وبأنَّ اللهَ تعالىٰ هو الهادي إلىٰ الكمالِ والحق، ومجموعُ الجملتين مفيدٌ قَصْرَ صفةِ الهداية إلىٰ الحقِّ علىٰ الله تعالىٰ دُونَ آلهتِهم قَصْرَ إفرادٍ(١).

لمَّا بيَّن تعالىٰ عَجْزَ أصنامهم عن الإبداءِ والإعادة اللذينِ هما مِن أقوىٰ أسبابِ القدرة وأعظَمِ دلائلِ الألوهية، بيَّن عَجْزَهم عن هذا النوعِ مِن صفاتِ الإله؛ وهو: الهدايةُ إلىٰ الحق، وإلىٰ مناهجِ الصواب(٢).

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ احتجاجٌ آخَرُ علىٰ ما ذُكِر، جيء به إلزامًا غِبَّ إلزامٍ وإفحامًا إثْرَ إفحامٍ، وفصَّله إيذانًا بفضلِه واستقلاله في إثباتِ المطلوب كما في سابقه(٣).

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ باعتبارِ عطفِ تلك علىٰ نظيرتَيْها المذكورتينِ قبلها؛ فبعد أن أمَر اللهُ رسولَه بأن يحُجَّهم فيما جعلوهم آلهةً وهي لا تصرُّفَ ولا تدبيرَ ولا هدايةَ لها، أعقَب ذلك بأنَّ عبادتهم إيَّاها اتباعٌ لظنٍّ باطل؛ أي: لوَهْمٍ ليس فيه شُبْهةُ حقٍّ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٦٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٥).

(٣) روح المعاني (٦/ ١٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٦٤).

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ كلامٌ مبتدأٌ غيرُ داخلٍ في حيِّزِ الأمر، مسُوقٌ مِن قِبَلِه تعالىٰ لبيانِ عدمِ فَهْمِهم لمضمونِ ما أفحَمَهم وألقَمَهم الحجَرَ مِن البرهانِ النيِّرِ الموجِب لاتباع الهادي إلىٰ الحقِّ، الناعي عليهم بُطْلانَ حُكْمِهم، وعدم تأثُّرهم مِن ذلك لعدمِ اهتدائهم إلىٰ طريقِ العلم أصلًا أنَّ ما يتَّبِعُ أكثرُهم في معتقداتِهم ومحاوراتهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ واهيًا مِن غيرِ التفاتٍ إلىٰ فردٍ مِن أفراد العلم، فضلًا عن أن يسلُكوا مسالكَ الأدلةِ الصحيحة الهادية إلىٰ الحق، المبنيَّة علىٰ المقدِّمات اليقينيَّة الحقَّة، فيَفهَموا مضمونها، ويَقِفوا علىٰ صحَّتِها وبطلانِ ما يخالِفها مِن أحكامِهم الباطلة، فيحصُلَ التَّبكيتُ والإلزام(١).

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا قدَّم في هذه السُّورةِ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وأتىٰ فيها ردًّا عليهم ووعظًا لهم مِن الآيات البالغة في الحِكْمة حدًّا يتجاوز قُوىٰ البشرِ، ويَضمحلُّ دُونَه مِن الخَلْقِ القدرُ، وكان آخِرَ ذلك التَّنبيهُ علىٰ أنَّ شركاءَهم لا يهتدون إلا إنْ هداهم الهادي، فضلًا عن أن يُهدَوْا، وإقامةُ الدَّليل علىٰ أنَّ مذاهبَهم ليست مستنِدةً إلىٰ علمٍ، بل هي تابعةٌ للهوىٰ؛ أتبَع ذلك دليلًا قطعيًّا في أمرِ القرآن؛ مِن أنَّه لا يصحُّ أصلًا أن يؤتىٰ به مِن دُونِ أمرِه سبحانه؛ ردًّا لقولهم: إنَّه مفترًىٰ؛ لأنَّه مِن وادي ما ختَم به هذه الآياتِ مِن اتباعِهم للظُّنون؛ لأنَّه لا سنَدَ لهم في ذلك، بل ولا شُبْهةَ أصلًا، وإنَّما هو مجرَّدُ هوًىٰ، بل وأكثَرُهم عالِمٌ بالحقِّ في أمره، فنفىٰ ذلك بما يُزيح الظُّنون، ويَدمَغ الخصومَ ولا يدَعُ شُبْهةً لمفتون، وأثبَت أنَّه هو الآيةُ الكبرىٰ،

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٤٤).

والحقيقُ بالاتباعِ لأنَّه هُدىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

لمَّا كان الغرضُ الأول في هذه السُّورةِ إبطالَ تعجُّبِ المشركين مِن الإيحاءِ بالقرآن إلىٰ النبيِّ ﷺ، وتبيينَ عدمِ اهتدائهم إلىٰ آياتِه البيِّنات الدالة علىٰ أنَّه مِن عندِ الله، وكيف لم ينظُروا في أحوالِ الرسول الدالَّةِ علىٰ أنَّ ما جاء به وحيٌ مِن الله، وكيف سألوه مع ذلك أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِه أو يبدِّلَ آياتِه بما يوافِق أهواءَهم، ثم انتقَل بعد ذلك إلىٰ سؤالهم أنْ تُنزَّلَ عليه آيةٌ أخرىٰ مِن عندِ الله غيرُ القرآن، وتخلَّل ذلك كلَّه وصفُ افترائهم الكذبَ في دعوَىٰ الشركاءِ لله، وإقامةُ الأدلة علىٰ انفرادِ الله بالإلهيَّة وعلىٰ إثباتِ البعث، وإنذارُهم بما نال الأُمَمَ مِن قبلِهم، وتذكيرُهم بنِعَمِ الله عليهم وإمهالِهم، وبيانُ خطَئِهم في اعتقادِ الشرك اعتقادًا مبنيًّا علىٰ سُوءِ النظرِ والقياس الفاسد؛ لا جرَمَ عاد الكلامُ إلىٰ قولِهم في القرآن بإبطالِ رأيِهم الذي هو مِن الظنِّ الباطل أيضًا بقياسِهم أحوالَ النُّبوةِ والوحيِ بمقياسِ عاداتهم؛ كما قاسُوا حقيقةَ الإلهيَّة بمثلِ ذلك، فقارَعتْهم هذه الآيةُ بذِكْرِ صفاتِ القرآن في ذاتِه، الدالَّةِ علىٰ أنَّه حقٌّ مِن الله، وتحدَّتْهم بالإعجازِ عن الإتيانِ بمثلِه(٢).

ثم بيَّن تعالىٰ حَقِّيَّةَ هذا الوحيِ المنزَّل، رجوعًا إلىٰ ما افتُتحت به السُّورةُ مِن صِدْقِ نبوَّةِ المنزَّلِ عليه، ودلائلِها في آياتِ الله الكونيَّة، والمنبِئة عن عظيمِ قُدْرته، وجليلِ عنايته، بهدايةِ بَرِيَّته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١١٩-١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٦٧).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٢٥).

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ ﴾ شروعٌ في بيانِ رَدِّهم للقرآنِ الكريم إثر بيانِ رَدِّهم للأدلةِ العقليَّة المندرِجة في تضاعيفِه(١).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا موضعَ أن يُذعِنوا لأنَّ هذا القرآنَ ليس إلا مِن عندِ الله، وبأمرِه قطعًا؛ كان كأنَّه قيل: أَرَجَعُوا عن غيِّهم فآمَنوا واستقاموا ﴿ أَمْ ﴾ استمَرُّوا علىٰ ضلالهم ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؟!(٢).

﴿ أَمْ ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن النفيِ إلىٰ الاستفهامِ الإنكاري التَّعجيبي، وهو ارتقاءٌ بإبطالِ دَعْواهم أن يكونَ القرآنُ مفترًىٰ مِن دُونِ الله، ولمَّا اختَصَّتْ ﴿ أَمْ ﴾ بعطفِ الاستفهام، كان الاستفهامُ مقدَّرًا معها حيثما وقَعتْ؛ فالاستفهامُ الذي تُشعِر به ﴿ أَمْ ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ إنكاري؛ والمعنىٰ: بل أيقولون: افتراه بعد ما تبيَّنَ لهم مِن الدلائلِ علىٰ صِدْقِه وبراءته مِن الافتراء؟!(٣).

لمَّا نفىٰ تعالىٰ أن يكونَ القرآنُ مفترًىٰ، بل جاء مصدِّقًا لِما بَيْنَ يديه مِن الكتبِ وبيانًا لِما فيها؛ ذكَر أعظَمَ دليلٍ علىٰ أنَّه مِن عندِ الله؛ وهو الإعجازُ الذي اشتمَل عليه، فأبطَل بذلك دَعْواهم افتراءَه(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٤٥).
(٢) نظم الدرر (٩/ ١٢٢).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٠).
(٤) البحر المحيط (٦/ ٥٨).

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا أقام الدليلَ على أنَّ القرآنَ كلامُه، وكان الدليلُ إنَّما مِن شأنه أن يُقامَ على مَن عرَض له غلَطٌ أو شُبهةٌ، وكان قولُهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لا عن شُبْهة، وإنَّما هو مجرد عنادٍ؛ نبَّه سبحانه على ذلك، وعلى أنَّه إنَّما أقام الدليلَ لإظهار عنادهم، لا لأنَّ عندهم شُبْهةً في كونه حقًّا، بالإضرابِ عن قولهم، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(1).

﴿بَلْ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ لبيانِ كُنْهِ تكذيبهم، وأنَّ حالَهم في المبادرةِ بالتَّكذيب قبل التأمُّل أعجَبُ مِن أصلِ التكذيب؛ إذ إنَّهم بادَروا إلى تكذيبِه دُونَ نظرٍ في أدلةِ صحَّتِه التي أشار إليها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(2).

ثم إنَّه تعالى ذكَر السببَ الذي لأجلِه كذَّبوا القرآنَ، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾(3).

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن إظهارِ بطلان ما قالوا في حقِّ القرآنِ العظيم بالتَّحدي إلى إظهاره؛ ببيانِ أنَّه كلامٌ ناشئٌ عن جهلِهم بشأنه الجليل(4).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٧١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٥٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٤٦).

ولمَّا بانَ عَجْزُهم، تبيَّن أنَّ ما قالوه باطلٌ، لا حظَّ له مِن الحجَّةِ، والذي حمَلهم علىٰ التكذيبِ بالقرآن المشتمِل علىٰ الحقِّ الذي لا حَقَّ فوقه: أنَّهم لم يُحِيطوا به علمًا(١).

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه تكذيبَهم، كان ذلك ربما أيأسَ مِن إذعانِهم وتصديقهم، وآذَنَ باستئصالِهم؛ لتكمُلَ المشابَهةُ للأوَّلين، وكان ﷺ شديدَ الشَّفقة عليهم، والحرصَ علىٰ إيمانهم، فأتبَعه تعالىٰ بقولِه بيانًا لأنَّ عِلْمَه بانقسامهم أوجَبَ عدمَ استئصالهم، عاطفًا علىٰ ﴿كَذَّبُواْ﴾: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ عن تكذيبهم بأنَّه دُونَ الإحاطةِ بعلمِ ما كذَّبوا به يقتضي أنَّ تكذيبَهم به ليس عن بصيرةٍ وتأمُّل، وما كان بهاتِه المثابةِ كان حالُ المكذِّبين فيه متفاوِتًا حتىٰ يبلُغَ إلىٰ أن يكونَ تكذيبًا مع اعتقادِ نفيِ الكذبِ عنه؛ ولذلك جاء موقعُ هذه الآيةِ عَقِب الأخرىٰ موقعَ التخصيصِ للعامِّ في الظاهر، أو البيانِ للمجمَلِ مِن عدمِ الإحاطة بعلمِه(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة قولَه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكان المرادُ منه تسليطَ العذابِ عليهم في الدُّنيا؛ أتبَعه بقولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٦٤).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٤).

وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ منبِّهًا علىٰ أنَّ الصَّلاحَ عنده تعالىٰ كان في هذه الطائفةِ المتبقِّية دُونَ الاستئصال، مِن حيث كان المعلومُ أنَّ منهم مَن يؤمِنُ به(١).

ما زال السياقُ في تقريرِ نبوَّةِ النبي ﷺ؛ قال تعالىٰ في خطابِ رسولِه ليُسلِّيَه ويُصبِّره علىٰ عدمِ إيمان قومِه مع ظهورِ الأدلة وقوَّةِ البراهين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا قسَّمتْهم هذه الآيةُ قسمينِ، وتُلِيتْ بذِكْرِ القسمِ الثاني بالواو؛ عُرِف أنَّه معطوفٌ علىٰ مَطْويِّ القسمِ الأول، فكان كأنَّه قيل: فإن صدَّقوك، فقل: اللهُ وَلِيُّ هدايتِكم، وَلِيْ مِثْلُ أجورِكم بنسبتي فيها فضلًا مِن ربِّي: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

لمَّا كان العلمُ بتكذيبِهم حاصلًا ممَّا تقدَّم مِن الآيات، تعيَّن أنَّ التَّكذيبَ المفروض هنا بواسطةِ أداةِ الشَّرط هو التكذيبُ في المستقبَل؛ أي: الاستمرار علىٰ التكذيب؛ وذلك أنَّ كلَّ ما تبيَّن به صِدْقُ القرآن هو مُثبِتٌ لصدقِ الرسول ﷺ الذي أتىٰ به؛ أي: إن أصَرُّوا علىٰ التَّكذيبِ بعد ما قارَعْتَهم به مِن الحجَّةِ، فاعلَمْ أنَّهم لا تَنجَعُ فيهم الحُجَجُ، وأعلِنْ لهم بالبراءةِ منهم كما تبرَّؤوا منك(٤).

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٥٦).
(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٤٧٥).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١٢٦).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٥).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا قسَّمهم إلىٰ هذينِ القِسْمينِ، قسَّم القسمَ الأخير إلىٰ قسمينِ، فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١).

لمَّا سبَق تقسيمُ المشركين بالنسبةِ إلىٰ اعتقادهم في الأصنام إلىٰ مَن يتَّبِعُ الظنَّ ومَن يوقِنُ بأنَّ الأصنامَ لا شيءَ، وتقسيمُهم بالنسبة لتصديقِ القرآن إلىٰ قسمينِ: مَن يؤمِن بصدقِه ومَن لا يؤمن بصدقِه؛ كمَّل في هذه الآيةِ تقسيمَهم بالنسبة للتلقِّي مِن النبيِّ ﷺ إلىٰ قسمينِ: قسم يحضُرون مجلسَه ويَستمعون إلىٰ كلامه، وقسم لا يَحضرون مجلسه وإنَّما يَتوسَّمونه وينظُرون سَمْتَه، وفي كِلا الحالينِ مسلكٌ عظيم إلىٰ الهدىٰ لو كانوا مهتدين؛ فإنَّ سماعَ كلامِ النبيِّ ﷺ وإرشادِه يُنِيرُ عقولَ القابلين للهداية؛ فلا جرَمَ أنْ كان استمرارُ المشركين علىٰ كفرِهم مع سماعهم كلامَ النبيِّ ﷺ أو رؤيةِ هَدْيِه مؤذِنًا ببلوغهم الغايةَ في الضلالة، ميئوسًا مِن نفوذِ الحقِّ إليهم، وليس ذلك لقصورِ كلامه عن قوَّةِ الإبلاغِ إلىٰ الاهتداء، كما أنَّ التوسُّمَ في سَمْتِه الشريف ودلائلِ نبوَّتِه الواضحة في جميعِ أحواله كافٍ في إقبالِ النفس عليه بشَرَاشِرِها(٢)، فما عُدِم انتفاعُ الكفار الذين يعاينون ذاتَه الشريفة بمعايَنتِها إلا لشِدَّةِ بُغْضِهم إيَّاه وحسَدِهم، وقد أفاد سياقُ الكلام أنَّهم يَستمعون إليه وينظُرون إليه ولا يَنتفعون(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ في الآيةِ الأُولىٰ قسَّم الكفارَ إلىٰ قسمينِ: منهم مَن يؤمن به، ومنهم مَن لا يؤمن به، وفي هذه الآيةِ قسَّم مَن لا يؤمن به قسمين: منهم مَن يكون في غايةِ البُغْضِ له والعداوة له ونهايةِ النُّفْرةِ عن قَبولِ دِينِه، ومنهم مَن لا يكون كذلك(٤).

(١) نظم الدرر (٩/ ١٢٧).
(٢) أي: بأثقالها.
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٧).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٥٧).

ثم أشار إلىٰ أنَّهم ممَّن طُبِع علىٰ قلوبهم بقولِه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر الفريقَ الأول، ذكَر هنا الفريقَ الثاني.

ثم ذكَر انسدادَ الطريقِ الثاني -وهو طريقُ النظرِ- فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا كان التَّقدير: إذا عَلِمتَ ذلك، فخفِّفْ عنك بعضَ ما أنت فيه؛ فإنَّك لا تَقدِرُ علىٰ إسماعِهم ولا هدايتهم؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أراد ما هم عليه منهم؛ لاستحقاقِهم ذلك؛ لظُلْمِهم أنفسَهم؛ علَّله بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

تذييلٌ، وشَمِل عمومَ الناس المشركين الذين يَستمعون ولا يهتدون، وينظُرون ولا يَعتبِرون؛ والمقصود مِن هذا التَّذييلِ التَّعريضُ بالوعيدِ بأنْ سيَنالُهم ما نال جميعَ الذين ظلموا أنفسَهم بتكذيبِ رُسُلِ الله، وعمومُ الناسِ الأولُ علىٰ بابه، وعمومُ الناس الثاني مرادٌ به خصوصُ الناسِ الذين ظلموا أنفسَهم؛ بقرينةِ الخبَرِ، وإنَّما حسُنَ الإتيانُ في جانبِ هؤلاء بصيغةِ العموم تنزيلًا للكثرةِ منزلةَ الإحاطة؛ لأنَّ ذلك غالبُ حالِ الناس في ذلك الوقتِ[4].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٢٨).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٦٥).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٠).

لمَّا ذكَر تعالىٰ هؤلاء الأشقياءَ، ذكَر تعالىٰ أنَّه لا يَظلِمُهم شيئًا؛ إذ قد أزاح عِلَلَهم ببَعْثةِ الرُّسلِ، وتحذيرِهم مِن عقابه، ولكنْ هم ظالِمُو أنفسِهم بالكفرِ والتكذيب[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ ذِكْرُ هذا عَقِب ما تقدَّم مِن عدمِ الاهتداءِ بالأسماع والأبصار؛ لبيانِ أنَّ ذلك لم يكُنْ لأجلِ نقصٍ فيما خلَقه اللهُ لهم مِن السمعِ والعقل والبصَرِ والبصيرة؛ بل لأجلِ ما صار في طبائعِهم مِن التعصُّبِ والمكابَرة للحق، والمجادَلة بالباطل، والإصرارِ علىٰ الكفر؛ فهُمُ الذين ظلموا أنفسَهم بذلك، ولم يَظلِمْهم اللهُ شيئًا مِن الأشياء[٢].

﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥ ﴾

ولمَّا كان في هذه الآياتِ ما ذُكِر مِن أفانينِ جدالِهم في أباطيلهم وضَلالهم، وكان فعلُ ذلك - ممَّن لا يَرىٰ حَشْرًا ولا جزاءً ولا نعيمًا وراءَ نعيمِ هذه الدار- فِعْلَ فارغِ السرِّ، مستطيلٍ للزمان، آمِنٍ مِن نوازلِ الحَدَثان؛ حسُنَ تعقيبُه بأنَّهم يَرون يومَ الحشر مِن الأهوال ما يَستقصرون معه مدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا؛ فقد خَسِروا إذَنْ دُنْياهم بالنزاع، وآخرتَهم بالعذابِ الذي لا يُستطاع، وليس له انقطاعٌ، فقال تعالىٰ مهدِّدًا لهؤلاء الكفارِ الذين يعاندون فلا يَسمَعون ولا يُبصِرون: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾[٣].

عطفٌ علىٰ ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ ﴾ عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصَّة؛ عودًا إلىٰ غرضٍ مِن الكلام بعد تفصيلِه وتفريعه، وذَمِّ المسُوقِ إليهم

(١) البحر المحيط (٦/ ٦٢).
(٢) فتح القدير (٢/ ٥١٠).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١٣١).

وتقريعِهم؛ فإنَّه لمَّا جاء فيما مضىٰ ذِكْرُ يومِ الحشر إذ هو حينُ افتضاحِ ضَلالِ المشركين ببراءة شركائهم منهم؛ أتبَع ذلك بالتَّقريعِ علىٰ عبادتِهم الأصنامَ مع وضوحِ براهينِ الوَحْدانيَّة لله تعالىٰ، وإذ كان القرآنُ قد أبلَغهم ما كان يَعصِمُهم مِن ذلك الموقفِ الذَّليل لو اهتدَوْا به، أتبَع ذلك بالتَّنويه بالقرآن، وإثباتِ أنَّه خارجٌ عن طَوْقِ البشر، وتسفيهِ الذين كذَّبوه وتفنَّنوا في الإعراض عنه، واستُوفي الغرضُ حقَّه، عاد الكلامُ إلىٰ ذِكْرِ يومِ الحشر مرَّةً أخرىٰ؛ إذ هو حينُ خيبةِ أولئك الذين كذَّبوا بالبعث؛ وهم الذين أشركوا، وظهَر افتضاحُ شِرْكِهم في يومِ الحشر، فكان مِثْلَ رَدِّ العَجُزِ علىٰ الصَّدْرِ[1].

لمَّا ذكَر أولئك الأشقياءَ، أتبَعه بالوعيدِ، ووصفِ حالِهم يوم القيامة[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف هؤلاء الكفارَ بقلَّةِ الإصغاء وتركِ التدبُّر، أتبَعه بالوعيدِ، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[3].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا كان إخبارُ الصادقِ بهلاك الأعداء مُقِرًّا للعينِ، وكانت مشاهَدةُ هلاكهم أقرَّ لها؛ عطَف علىٰ قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٨١).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٦٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٥٩).

(٤) نظم الدرر (٩/ ١٣٢).

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان في هذه الآيةِ التَّهديدُ بالعذاب إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرة غيرَ مُعيَّنٍ له ﷺ واحدةً منهما، أتبَعها بما هو صالحٌ للأمرينِ بالنسبة إلىٰ كلِّ رسولٍ إشارةً إلىٰ أنَّ أحوالَ الأُمَم علىٰ غيرِ نظام؛ فلذلك لم يَجزَمْ بتعيينِ واحدة مِن الدارينِ للجزاء، وجعَل الأمرَ منوطًا بالقسطِ؛ ففي أيِّ دارٍ كان أحكَمَ جعَله فيها، فقال تعالىٰ -دالًّا علىٰ أنَّه نشَر ذِكْرَ الإسلام؛ وهو الإيمانُ بالله وملائكته وكتبِه ورسوله واليوم الآخر مِن عهدِ آدمَ عليه السلام إلىٰ آخرِ الدهر علىٰ وجهٍ لم يحصُلْ له اندراسٌ في دهرٍ مِن الدهور؛ فمَن ترَكه استحَقَّ العذابَ، سواءٌ كان ممَّن بَيْنَ عيسىٰ ومحمَّدٍ عليهما الصلاة والسلام أم لا، فلا تغترَّ بما يقال مِن غيرِ هذا-: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾، وهي بمنزلةِ السَّبب لمضمونِ الجملة التي قبلها، وهذه بيَّنتْ أنَّ مجيءَ الرسول للأمَّةِ هي منتهىٰ الإمهال، وأنَّ الأمَّةَ إن كذَّبتْ رسولَها استحَقَّتِ العقابَ علىٰ ذلك؛ فهذا إعلامٌ بأنَّ تكذيبَهم الرسولَ هو الذي يجُرُّ عليهم الوعيدَ بالعقاب[(٢)].

لمَّا بيَّن حالَ الرسول ﷺ في قومه، بيَّن حالَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم؛ تسليةً له، وتطمينًا لقلبِه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٦٦-٦٧).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم في هذه الآياتِ تهديدُهم بالعذاب في الدُّنيا أو في الآخرة، حكىٰ سبحانه جوابَهم عن ذلك، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١).

لمَّا بيَّنتِ الآيةُ السَّالفة أنَّ تعجيلَ الوعيدِ في الدُّنيا لهم وتأخيرَه سواءٌ عندَ الله تعالىٰ؛ إذ الوعيدُ الأتمُّ هو وعيدُ الآخرة؛ أُتبِعتْ بهذه الآيةِ حكايةً لتهكُّمِهم علىٰ تأخيرِ الوعيد(٢).

اعلَمْ أنَّ هذه الشُّبْهةَ الخامسة مِن شُبُهاتِ منكِري النبوَّة؛ فإنَّه ﷺ كلَّما هدَّدهم بنزولِ العذاب ومرَّ زمانٌ ولم يَظهَرْ ذلك العذابُ، قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، واحتجُّوا بعدمِ ظهورِه علىٰ القَدْحِ في نبوَّتِه ﷺ(٣).

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا تضمَّن قولُهم هذا استعجالَه ﷺ بما يَتوعَّدهم به، أمَرَه بأن يَتبرَّأَ مِن القدرةِ علىٰ شيءٍ لم يُقدِرْهُ اللهُ عليه بقولِه: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٤).

ثم إنَّه تعالىٰ أمره بأن يجيبَ عن هذه الشُّبْهةِ بجوابٍ يَحسِمُ المادةَ؛ وهو قولُه: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٨).
(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٦٢).
(٤) نظم الدرر (٩/ ١٣٤).
(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٦٢).

لمَّا استعجَلوا النبيَّ ﷺ بالعذاب، قال اللهُ له: قُلْ لهم يا محمَّـدُ: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[١].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠﴾

ولمَّا كان جُلُّ قصدِهم بذلك الاستهزاءَ، وكان وقوعُـه أمرًا ممكنًا، وكـان مِن شأنِ العاقل أن يبعُدَ عن كلِّ خطَرٍ ممكن؛ أمَره ﷺ بجوابٍ آخَرَ حذَف منه واوَ العطف لئلا يظنَّ أنَّه لا يكفي في كونِه جوابًا إلا بضمه إلىٰ ما عُطِف عليه، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[٢].

هـذا جـوابٌ ثـانٍ عـن قـولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ باعتبـارِ مـا يَتضـمَّنه قولُهم مِن الوعد بأنَّهم يؤمنون إذا حَقَّ الوعدُ الذي توعَّدَهم به[٣].

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾

عُطِفتْ جملةُ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ بحرفِ المُهْلةِ للدلالةِ علىٰ التراخي الرُّتْبي؛ كما هـو شأنُ ﴿ثُمَّ﴾ في عطفِها الجُمَلَ؛ لأنَّ إيمـانَهم بالعـذابِ الـذي كـانوا يُنكِرون وقوعَـه حين وقوعِه بهم أغرَبُ وأهَمُّ مِن استعجالهم به[٤].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٥٠).
(٢) نظم الدرر (٩/ ١٣٥-١٣٦).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٩١).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٩٣).

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ إنكارٌ لإيمانهم بنزولِ العذاب بعد وقوعِه حقيقةً، داخلٌ مع ما قبله مِن إنكارِ استعجالهم به بعد إتيانِه حُكْمًا تحت القولِ المأمور به[١].

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ولمَّا كان ما ذُكِر هو العذابَ الدُّنْيوي، أتبَعه ما بعده إعلامًا بأنَّه لا يُقتصر عليه في جزائهم، فقال: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[٢].

معطوفةٌ على جملةِ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ الآيةَ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرُّتبي؛ فهذا عذابٌ أعظَمُ مِن العذابِ الذي في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾[٣].

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا انقضى ما اشتملت عليه الآيةُ مِن التَّهديدِ وصادعِ الوعيد، أخبَر تعالى أنَّهم صاروا إلى ما هو جديرٌ بسامعِ ذلك؛ مِن النزولِ عن ذلك العنادِ إلى مبادئِ الانقياد، بقولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٥٣).
(٢) نظم الدرر (٩/ ١٣٨).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٩٤).
(٤) نظم الدرر (٩/ ١٣٩).

هذا حكايةُ فنٍّ مِن أفانينِ تكذيبهم؛ فمرَّةً يَتظاهرون باستبطاءِ الوعد استخفافًا به، ومرةً يُقبِلون على الرسولِ في صورة المُستفهِم الطالب فيَسألونه: أهذا العذابُ الخالد -أي عذابُ الآخرة- حقٌّ؟! فالجملة معطوفةٌ على جملة ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾[(١)].

اعلَمْ أنَّه سبحانه أخبَر عن الكفار بقولِه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، وأجاب عنه بما تقدَّم، فحكى عنهم أنَّهم رجَعوا إلى الرسول مرَّةً أخرى في عينِ هذه الواقعةِ، وسألوه عن ذلك السؤالِ مرَّةً أخرى، وقالوا: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾[(٢)].

ثم حكى اللهُ سبحانه عنهم بعد هذه البياناتِ البالغة، والجواباتِ عن أقوالهم الباطلة: أنَّهم استفهَموا تارةً أخرى عن تحقُّقِ العذاب، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾[(٣)].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

ولمَّا أخبَرهم بحقيقتِه، أخبَرهم بما يكون منهم مِن الظُّلْمِ أيضًا عند معايَنتِه بالسَّماح ببَذْلِ جميعِ ما في الأرض حيث لا ينفعُ البذلُ بعد تَرْكِ المأمور به، وهو مِن أيسَرِ الأشياء وأحسَنِها، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٦٤).

(٣) فتح القدير (٢/ ٥١٤).

(٤) نظم الدرر (٩/ ١٣٩-١٤٠).

الأظهر أنَّ هذه الجملةَ مِن بقيَّةِ القولِ؛ فهي عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إعلامًا لهم بهَوْلِ ذلك العذاب عساهم أن يَحذَروه؛ ولذلك حذف المتعلِّق الثاني لفعلِ «افتدت»؛ لأنَّه يقتضي مَفْديًّا به ومَفْديًّا منه؛ أي: ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ مِن العذاب[1].

لمَّا ذكَر العذابَ وأقسَمَ علىٰ حقيقتِه، وأنَّهم لا يُفلِتون منه؛ ذكَر بعضَ أحوالِ الظالمين في الآخرة[2].

ما زال السياقُ في بيانِ أنَّ ما وعَد اللهُ تعالىٰ به المشركين مِن العذاب هو آتٍ لا محالةَ إن لم يؤمِنوا، وإنَّه عذابٌ لا يطاقُ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[3].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾

ولمَّا كان السَّببُ الحامل لملوك الدُّنيا علىٰ الكذبِ والجَوْرِ والظُّلْمِ العَجْزَ أو طلَبَ التزيُّدِ في المُلك، أشار إلىٰ تنزُّهِه عن ذلك بقولِه مؤكِّدًا -سَوْقًا لهم مساقَ المنكِر؛ لأنَّ فِعْلَهم في عبادةِ الأصنام فعلُ مَن يُنكِرُ مضمونَ الكلام-: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٩٧).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٧٢).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٤٨٢).

(٤) نظم الدرر (٩/ ١٤١).

تـذييلُ تنهيـةٍ للكـلامِ المتعلِّـق بصِـدْقِ الرسـول والقـرآن ومـا جـاء بـه مِـن الوعيـد وترقُّبِ يومِ البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين، وقـد اشـتمَل هـذا التـذييلُ علىٰ مجمَلِ تفصيلِ ذلك الغرض، وعلىٰ تعليلِه بأنَّ مَن هذه شؤونُه لا يَعجِزُ عـن تحقيـقِ ما أخبَر بوقوعه[١].

جملةُ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مسُوقةٌ لتقريرِ كمال قُدْرتِه؛ لأنَّ مَن ملَك ما في السماواتِ والأرضِ تصرَّف بـه كيـف يشـاء، وغلَّـب غيـرَ العقـلاءِ لكـونِهم أكثَـرَ المخلوقات. قيل: لمَّا ذكَر سبحانه افتداءَ الكفارِ بمـا في الأرض لـو كـان لهـم ذلـك، بيَّن أنَّ الأشياءَ كلَّها لله، وليس لهم شيءٌ يَتمكَّنون مِن الافتداءِ به. وقيـل: لمَّـا أقسَـمَ علىٰ حَقِّيَّةِ ما جاء به النبيُّ صلىٰ الله عليه وآلـه وسـلم، أراد أن يُصحِبَ ذلـك بـدليلِ البرهان البيِّن بأنَّ ما في العالَمِ علىٰ اختلافِ أنواعه مُلْكُه، يَتصرَّف به كيف يشاء[٢].

﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّه لا شيءَ خارجٌ عن مُلْكِه، وأنَّـه تـامُّ القـدرة: لأنَّـه لا منجِّـيَ مِـن عذابِـه، شاملُ العلم: لقضائِه بالعدل، صادقُ الوعد: لأنَّه لا حامِلَ له علىٰ غيرِه، وثبَت تفرُّدُه بأنَّه يحيي ويميتُ؛ ثبَت أنَّه قادرٌ علىٰ الإعـادةِ كمـا قـدَر علىٰ الابتـداء، فثبَـت أنَّـه لا يكون الردُّ إلا إليه؛ فنبَّه علىٰ ذلك بقولِه: ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣].

ثم إنَّه أكَّد هذه الدلائلَ، فقال: ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٩٨).
(٢) فتح القدير (٢/ ٥١٥).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١٤٢-١٤٣).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٦٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

ولمَّا ثبَت أنَّ ذلك كلَّه حقٌّ مباينٌ للسِّحرِ الذي مَبْناه على التَّخييل، أقبَلَ على الذين تقدَّم الإخبارُ عنهم في أولِ السُّورة في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أنَّهم قالوا: إنَّه سِحرٌ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

استئنافٌ أو اعتراضٌ، يجوز أن يكونَ لابتداءِ غرضٍ جديد؛ وهو خطابُ جميعِ الناس بالتعريف بشأنِ القرآن وهَدْيِه، بعد أن كان الكلامُ في جدالِ المشركين والاحتجاج عليهم بإعجازِ القرآن على أنَّه مِن عندِ الله، وأنَّ الآتيَ به صادقٌ فيما جاء به مِن تهديدِهم وتخويفهم مِن عاقبةِ تكذيبِ الأُمَمِ رُسُلَها، وما ذُيِّل به ذلك مِن الوعيدِ وتحقيقِ ما تُوُعِّدوا به؛ فالكلام الآنَ منعطِفٌ إلى الغرضِ المفتتَحِ بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾، فعاد الكلامُ إلى خطابِ جميع الناس لِما في القرآن مِن المنافعِ الصالحة لهم[2].

لمَّا ذكَر الأدلَّةَ على الألوهيَّةِ والوَحْدانيَّة والقدرة، ذكَر الدَّلائلَ الدالة على صحَّةِ النُّبوَّة، والطريقِ المؤدي إليها؛ وهو القرآنُ، والمتَّصِفُ بهذه الأوصافِ الشَّريفة هو القرآنُ[3].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠٠).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٧٤).

لمَّا بيَّن صحَّةَ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ بطريقِ المعجزة، ففي هذه الآيةِ بيَّن صحَّةَ نبوَّتِه بالطريق الثاني، وهذا الطريقُ طريقٌ كاشفٌ عن حقيقةِ النُّبوَّة، معرِّفٌ لماهيَّتِها[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التفاتٌ ورجوعٌ إلىٰ استمالتِهم نحوَ الحق، واستنزالِهم إلىٰ قَبولِه واتباعه، غِبَّ تحذيرِهم مِن غوائلِ الضَّلال بما تُلِيَ عليهم مِن القوارعِ الناعية عليهم سُوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنَّ جميعَ ذلك مسُوقٌ لمصالحِهم ومنافعهم[٢].

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ولمَّا ثبَت ذلك، حثَّهم عليه؛ لبُعْدِه عن السِّحْرِ؛ بثَباتِه وعدمِ القدرة علىٰ زَلْزلتِه، فضلًا عن إزالته، وبأنَّه شفاءٌ وموعظةٌ وهُدًىٰ ورحمةٌ؛ فهو جامعٌ لمراتبِ القُرْبِ الإلهيِّ كلِّها، وزهَّدهم فيما هم عليه مقبلون مِن الحُطَام؛ لمشاركتِه للسِّحْرِ في سرعةِ التَّحوُّل والتَّبدُّل بالفَناءِ والاضمحلال؛ فهو أهلٌ للزُّهدِ فيه، والإعراضِ عنه، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣].

يَتفرَّع علىٰ كونِ القرآن هُدًىٰ ورحمةً للمؤمنين تنبيهُهم إلىٰ أنَّ ذلك فضلٌ مِن الله عليهم، ورحمةٌ بهم، يَحِقُّ لهم أن يَفرَحوا بهما، وأن يقدُرُوا قَدْرَ نِعْمتِهما، وأن يَعلَموا أنَّها نِعْمةٌ تفُوقُ نِعْمةَ المال التي حُرِم منها أكثَرُ المؤمنين، ومُنِحَها أكثَرُ المشركين؛ فكانت الجملةُ حقيقةً بأن تُفتتَحَ بفاءِ التَّفريع[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٥٥).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠٣).

ثم أَمَر تعالىٰ بالفرَحِ بذلك، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ولمَّا وصَف القرآنَ العظيم بالشفاء وما معه، المقتضي لاستقامةِ المناهج وسَدادِ الشَّرائع ووضوحِ المذاهب، وأشار إلىٰ أنَّ العاقلَ ينبغي له أن يخُصَّه بالفرحِ لبقاءِ آثاره وما يدعو إليه، وزهَّده فيما يَجمَعون لفَنائه، ولأنَّه يدعو إلىٰ رذائلِ الأخلاق، فيحُطُّ مِن أَوْجِ المعالي؛ أشار إلىٰ أنَّهم كما خبَطوا في الفرَحِ فخَصُّوه بما يَفنَىٰ مُعرِضين عمَّا يَبقَىٰ، فكذلك خبَطوا في طريقِ الجمع، بأنْ حرَّموا بعضَ ما أحَلَّه، فمنَعوا أنفسهم ما هم به فَرِحون دُونَ أمرٍ مِن الله تعالىٰ، فنقَصوا بذلك حَظَّهم في الدُّنيا بهذا المنعِ، وفي الآخرةِ بكَذِبهم علىٰ رَبِّهم في تحريمه؛ حيث جعَلوه شرعًا مرضيًّا، وهو في غايةِ الفساد، والبُعْدِ عن الصَّواب، والقصورِ عن مَراقي السَّداد، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(٢).

استئنافُ أُمِر النبيُّ ﷺ بأن يقولَه للمشركين، وافتتاحُه بـ﴿قُلْ﴾ لقصدِ توجُّهِ الأسماع إليه، ومناسبةُ وقوعه عَقِب ما تقدَّم: أنَّ الكلامَ المتقدِّم حكىٰ تكذيبَهم بالقرآن، وادعاءَهم أنَّه مفترًىٰ، وأنَّه ليس بحقٍّ، ثم إبطالَ أن يكونَ القرآنُ مفترًىٰ علىٰ الله؛ لأنَّه اشتمَل علىٰ تفصيلِ الشريعة، وتصديقِ الكتب السَّالفة، ولأنَّه أعجزَ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٦٦).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٤٧).

مكذِّبيه عن معارَضتِه، فلمَّا استوفى ذلك بأوضَحِ حُجَّةٍ، وبانت لقاصدِ الاهتداءِ المَحجَّةُ؛ لا جرَمَ دالَتِ[١] النَّوْبةُ إلىٰ إظهارِ خَطَلِ عقولهم، واختلالِ تكذيبهم؛ فإنَّه بعد أن كان تكذيبًا بما لم يُحِيطوا بعلمِه، فقد ارتبكَوا في دِينِهم بما يَلزَمهم منه مماثَلةُ الحالة التي أنكَروها؛ فإنَّهم قد وضَعوا دِينًا، فجعَلوا بعضَ أرزاقهم حلالًا لهم، وبعضَها حرامًا عليهم، فإن كان ذلك حقًّا بزعمِهم، فمَن الذي أبلَغهم تلك الشرائعَ عن الله؟ ولماذا تَقبَّلوها عمَّن شرَعها لهم ولم يكذِّبوه وهم لا يستطيعون أن يَلتزموا ذلك؟ وإن كان ذلك مِن تلقاءِ أنفسهم، فقد افترَوْا على اللهِ، فلَزِمهم ما ألصَقوه بالنبي ﷺ، فعَلِق بهم، وبرَّأ اللهُ منه رسولَه؛ فهذا الاستدلالُ مِن الطَّريق المسمىٰ بالقلبِ في علمِ الجدَلِ[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وكان المرادُ بذلك كتابَ الله المشتمِلَ علىٰ التَّحليل والتَّحريم؛ بيَّن فسادَ شرائعِهم وأحكامهم مِن الحلالِ والحرام مِن غيرِ مستنَدٍ في ذلك إلىٰ وحيٍ[٣].

لمَّا ذكَر الدلائلَ الكثيرة علىٰ صحَّةِ نبوَّةِ نفسه، وبيَّن فسادَ سؤالاتِهم وشُبُهاتهم في إنكارها؛ أتبَع ذلك ببيانِ فسادِ طريقتهم في شرائعِهم وأحكامهم، وبيَّن أنَّ التمييزَ بَيْنَ هذه الأشياءِ بالحِلِّ والحُرْمة، مع أنَّه لم يَشهَدْ بذلك لا عقلٌ ولا نقلٌ: طريقٌ باطل، ومنهجٌ فاسد؛ والمقصودُ إبطالُ مذاهبِ القوم في أديانهم وفي أحكامهم، وأنَّهم ليسوا علىٰ شيءٍ في بابٍ مِن الأبواب[٤].

---

(١) أي: تحولت.

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٧٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٧١).

ثـم بـيَّن تعـالىٰ أنَّ مِـن فضـلِه علـىٰ النـاس تبيينَ الحـرامِ مِـن الحـلال علـىٰ ألسنةِ الرُّسلِ؛ لئلا يَفترُوا عليه الكذبَ بتحريمِ ما أحَلَّ أو عكسِه، كما فعَل المشركون، بقولِه سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾[1].

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا كان قد مضىٰ مِن أدلَّةِ المَعادِ ما صيَّره كالشمس، وكان افتراؤُهم قد ثبَت بعدمِ قُدْرتِهم علىٰ مستنَدٍ بإذنِ الله لهم في ذلك؛ قال مشيرًا إلىٰ أنَّ القيامةَ ممَّا هو معلومٌ لا يسُوغُ إنكارُه: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾؛ فهو كلامٌ غيرُ داخلٍ في القولِ المأمور به، ولكنَّه ابتداءُ خطابٍ لجميعِ الناس[3].

وهذه الجملةُ الاستفهاميَّة المتضمِّنة لتعظيمِ الوعيد لهم غيرُ داخلةٍ تحت القول الذي أمَر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقولَه لهم، بل مبتدَأةٌ مسُوقةٌ لبيانِ ما سيحُلُّ بهم مِن عذابِ الله[4].

ثم بيَّن وعيد هذا الافتراء بقولِه: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[5].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٣٦).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٤٨-١٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢١٠).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥١٨).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٣٦).

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

ولمَّا وصَف القرآنَ بما وصَفه به مِن الشفاء وما معه بعد إقامةِ الدليل على إعجازه، وأشار إلى أنَّ ما تدَيَّنوا به في غايةِ الخَبْطِ، وأنَّه مع كونه كذبًا يقدِرُ كلُّ واحدٍ على تغييرِه بأحسَنَ منه؛ لكونِه غيرَ مبنيٍّ على الحِكْمة، وختَم ذلك بتهديدِهم على افتراءِ الكذب في شرعِ ما لم يأذَنْ به، مع ادعائهم أنَّ القرآنَ مفترًى وهم عاجزون عن معارَضتِه، وبأنَّهم لم يشكُروه على نِعَمِه التي أجَلُّها تخصيصُهم بهذا الذِّكْرِ الحكيم والشرعِ القويم، وكان قد أكثَرَ في ذلك كلِّه مِن الأمرِ له ﷺ بمحاجَّتِهم: قال تعالى -تسليةً له ﷺ، وتقويةً لهمَّتِه، وزيادةً في تهديدهم، عطفًا على ما تقديرُه: فقد أنزَلْتُ إليهم على لسانك ما هو شرَفٌ لهم، ونِعْمةٌ عليهم، وهو في غايةِ البُعْدِ عن مطلَقِ الكذب؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ منه في أحكَمِ مواضعِه وأحسَنِها، لا يَتطرَّق إليه الباطلُ بوجهٍ، وهم يقابِلون نِعْمتَه بالكفر-: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[(١)].

معطوفةٌ على جملةِ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ عَطْفَ غرضٍ على غرضٍ؛ لأنَّ فصلَ الغرضِ الأول بالتَّذييل دليلٌ على أنَّ الكلامَ قد نُقِل إلى غرضٍ آخَرَ، وذلك الوعدُ بالثواب للرسول ﷺ على ما هو قائمٌ به مِن تبليغِ أمر الله وتدبيرِ شؤون المسلمين وتأييدِ دِينِ الإسلام، وبالثوابِ للمسلمين على اتباعِهم الرسولَ ﷺ فيما دعَاهم إليه[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٤٩-١٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢١١).

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر جملةً مِن أحوالِ الكفار ومذاهبِهم والردِّ عليهم، ومحاوَرةِ الرسول ﷺ لهم، وذكَر فضلَه تعالىٰ علىٰ الناس، وأنَّ أكثَرَهم لا يشكُرُه علىٰ فضلِه؛ ذكَر تعالىٰ اطِّلاعَه علىٰ أحوالهم، وحالِ الرسول ﷺ معهم في مجاهَدتِه لهم، وتلاوةِ القرآن عليهم، وأنَّه تعالىٰ عالِمٌ بجميعِ أعمالهم، واستطرَد مِن ذلك إلىٰ ذِكْرِ أولياءِ الله تعالىٰ؛ ليُظهِرَ التفاوتَ بَيْنَ الفريقينِ: فريقِ الشيطان، وفريقِ الرحمن[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أطال الكلامَ في أمرِ الرسول ﷺ بإيرادِ الدلائل علىٰ فسادِ مذاهبِ الكفار، وفي أمرِه بإيراد الجوابِ عن شُبُهاتِهم، وفي أمرِه بتحمُّلِ أذاهم، وبالرِّفْقِ معهم؛ ذكَر هذا الكلامَ ليحصُلَ به تمامُ السَّلْوةِ والسرور للمطيعين، وتمامُ الخوفِ والفزع للمذنِبين؛ وهو كونُه سبحانه عالِمًا بعملِ كلِّ واحد، وبما في قلبِه مِن الدواعي والصوارف؛ فإنَّ الإنسانَ ربما أظهَرَ مِن نفسِه نُسُكًا وطاعةً وزهدًا وتَقْوَىٰ، ويكونُ باطنه مملوءًا مِن الخبثِ، وربما كان بالعكس مِن ذلك، فإذا كان الحقُّ سبحانه عالِمًا بما في البواطنِ، كان ذلك مِن أعظَمِ أنواعِ السرور للمطيعين، ومِن أعظَمِ أنواعِ التَّهديد للمذنِبين[(٢)].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّه سبحانه شاملُ العلم، وعُلِم أنَّه كاملُ القدرة بعد أن تقدَّم أنَّهم فريقان: صادقٌ في أمره، ومُفْترٍ عليه، وأنَّه متفضِّلٌ علىٰ الناس بعدمِ المعاجَلة، والتأخيرِ إلىٰ القيامة، وخوَّف المفتريَ عواقبَ أمرِه عاجلًا وآجلًا، ورجَّىٰ المطيعَ؛ كان موضعَ أن

(١) البحر المحيط (٦/ ٧٨).
(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٧٢).

يقالَ: ليتَ شِعْري ماذا يكون تفصيلُ حالِ الفريقينِ في الدارَينِ على الجزم؟ فأجيب بأنَّ الأولياءَ فائزون، والأعداءَ هالكون؛ ليُشمِّرَ كلُّ مطيعٍ عن ساعدِ جِدِّه، ويبذُلَ غايةَ جهدِه، في لَحاقِ المخلِصين، وتَحامي جانبِ المفترين، بقولِه تعالى مؤكِّدًا لاعتقادهم أنَّهم يُهلِكون حِزْبَ الله، وإنكارِهم غايةَ الإنكار أن يفُوتُوهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

استئنافٌ للتَّصريح بوعدِ المؤمنين، المعرَّض به في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ، وبتسليةِ النبيِّ ﷺ على ما يُلاقيه مِن الكفارِ مِن أذًى وتهديدٍ؛ إذ أعلَنَ اللهُ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين بالأمنِ مِن مخافةِ أعدائهم، ومِن الحزنِ مِن جرَّاءِ ذلك، ولمَّح لهم بعاقبةِ النَّصْرِ، ووعَدهم البشرى في الآخرةِ وعدًا لا يَقبَل التغييرَ ولا التخلُّف تطمينًا لنفوسهم؛ كما أشعَرَ به قولُه عَقِبه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّا بيَّنَّا أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ ممَّا يُقوِّي قلوبَ المطيعين، وممَّا يَكسِر قلوبَ الفاسقين، فأتبَعه اللهُ تعالى بشرحِ أحوال المخلِصين الصادقين الصِّدِّيقين، وهو المذكورُ في هذه الآيةِ(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ بيانٌ على وجهِ التَّبشير والوعد لِما هو نتيجةٌ لأعمالِ المؤمنين، وغايةٌ لِما ذُكِر قبله مِن كونِه تعالى مهيمِنًا على نبيِّه ﷺ وأمَّته في كلِّ ما يأتون وما يَذَرُون، وإحاطةِ علمِه سبحانه بجميعِ ما في السماء والأرض، وكونِ الكلِّ

(١) نظم الدرر (٩/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢١٥-٢١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٧٥).

مُثبتًا في الكتابِ المُبين، بعدما أُشيرَ إلىٰ فظاعةِ حالِ المفترين علىٰ اللهِ تعالىٰ يومَ القيامة وما سيعتريهم مِن الهَوْلِ إشارةً إجماليةً علىٰ طريقِ التَّهديد والوعيد(١).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ثم فسَّرهم بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾(٢).

ثم ذكَر وَصْفَهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾(٣).

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم الخوفَ والحزنَ، زادهم فقال مبيِّنًا لتولِّيهِ لهم بعد أن شرَح تولِّيهم له: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾(٤).

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ استئنافٌ جِيءَ به في موضعِ التَّعليل لنفيِ حزنِهم والخوفِ عليهم في قولٍ، وفي آخَرَ جِيءَ به بيانًا لِما أَوْلاهم سبحانه مِن خيراتِ الدارينِ بعد أن أخبَر ﷻ بإنجائهم مِن شرورِهما ومَكارِهِهما، وكأنَّه علىٰ هذا قيل: هل لهم وراءَ ذلك مِن نِعْمةٍ وكرامةٍ؟ فقيل: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٥٨).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٥٣).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٦٨).

(٤) نظم الدرر (٩/ ١٥٤).

(٥) روح المعاني (٦/ ١٤٢).

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّمتِ البشرىٰ بنفي الخوفِ والحزن معًا عن الأولياءِ، عُلِم أنَّ المعنىٰ: هذه البشرىٰ للأولياءِ، وأنت رأسُهم فلا تَخَفْ، فعطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(١).

الجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَطْفَ الجُزْئيِّ علىٰ الكليِّ؛ لأنَّ الحزنَ المذكورَ هنا نوعٌ مِن أنواعِ الحزن المنفيِّ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولأنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام مِن أولياءِ الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون(٢).

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا أورَدوا أنواعَ الشُّبهات التي حكاها اللهُ تعالىٰ عنهم فيما تقدَّم مِن هذه السُّورةِ، وأجاب اللهُ عنها بالأجوبةِ التي فسَّرناها وقرَّرناها؛ عدَلوا إلىٰ طريقٍ آخَرَ؛ وهو أنَّهم هدَّدوه وخوَّفوه، وزعَموا: أنَّا أصحابُ التَّبعِ والمال، فنسعىٰ في قهرِك وفي إبطالِ أمرك، واللهُ سبحانه أجاب عن هذا الطريقِ بقولِه: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾(٣).

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يَلْقاه مِن جهتِهم مِن الأذيَّةِ الناشئة عن مقالاتِهم الموحِشة، وتبشيرٌ له ﷺ بأنَّه ﷻ ينصُرُه ويُعِزُّه عليهم، إثْرَ بيانِ أنَّ له ولأتباعِه أمنًا مِن كلِّ محذورٍ، وفوزًا بكل مطلوبٍ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٢٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٧٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٦١).

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا خُتِمتْ بعمومِ سمعِه وعلمِه بعد قَصْرِ العِزَّةِ عليه، كان كأنَّه قيل: إنَّ العِزَّةَ لا تَتِمُّ إلا بالقدرةِ، فأثبَتَ اختصاصَه بالمُلْكِ الذي لا يكون إلا بها، فقال مؤكِّدًا لِما يَستلزمه إشراكُهم مِن الإنكارِ لمضمونِ هذا الكلامِ: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[1].

المقصودُ بتوجيهِ هذا الكلامِ هم المشركون؛ لتأييسِهم مِن كلِّ احتمالٍ لانتصارهم على النبيِّ ﷺ والمسلمين؛ فإنَّ كثيرًا منهم حين يَفهَمُ ما في الآياتِ الخَمْسِ السابقة مِن قولهم: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ إلى هنا مِن التَّصريح بهوانِ شأنِهم عندَ اللهِ وعند رسوله، ومِن التَّعريض باقترابِ حلولِ الغلَبةِ عليهم: يخامِرُهم بعضُ الشَّك في صِدْقِ الرسول، وأنَّ ما توعَّدهم به حقٌّ، ثم يغالِطون أنفسَهم ويُسَلُّون قلوبَهم بأنَّه إن تحقَّقَ ذلك، سيجدُون مِن آلهتهم وَساطةً في دفعِ الضرِّ عنهم، ويقولون في أنفسهم: لمثلِ هذا عبَدْناهم، وللشفاعةِ عند الله أعدَدْناهم؛ فسِيقَ هذا الكلامُ لقطعِ رجائهم منهم بالاستدلالِ على أنَّهم دُونَ ما يُظَنُّ بهم[2].

لمَّا ذكَر أنَّ العِزَّةَ له تعالى -وهي القهرُ والغلَبة-، ذكَر ما يناسِبُ القهرَ؛ وهو كونُ المخلوقاتِ مِلْكًا له تعالى، و﴿مَن ﴾ الأصلُ فيها أن تكونَ للعقلاء، وهنا هي شاملةٌ

(١) نظم الدرر (٩/ ١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٢٤).

لهم ولغيرِهم علىٰ حُكْمِ التَّغليب، وحيث جيء بـ﴿مَا﴾ كـان تغليبًا للكثرةِ؛ إذ أكثَرُ المخلوقاتِ لا تَعقِل(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثم أثبَتَ سبحانه اختصاصَه بشيءٍ جامعٍ للعلمِ والقدرة تأكيدًا لاختصاصه بالعِزَّة، وتفرُّدِه بالوَحْدانيَّة، وأنَّ مَن أشرَكَ به خارصٌ لا عِلْمَ له بوجهٍ؛ لكثرةِ الدَّلائل علىٰ وَحْدانيَّته ووضوحِها، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٢).

جملةٌ معترِضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وجملةِ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، جاءت مجيءَ الاستدلال علىٰ فسادِ ظَنِّهم وخَرْصِهم بشواهدِ خَلْقِ الليل والنهار المُشاهَدِ في كلِّ يومٍ مِن العُمُرِ مرَّتينِ وهم في غفلةٍ عن دلالتِه؛ وهو خَلْقُ نظامِ النهار والليل(٣).

لمَّا ذكَر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، احتجَّ عليه بهذه الآيةِ؛ والمعنىٰ: أنَّه تعالىٰ جعَل الليلَ ليزُولَ التعبُ والكلالُ بالسكون فيه، وجعَل النهارَ مضيئًا لتهتدوا به في حوائجِكم بالإبصار(٤).

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٨٣).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٢٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٨٠).

ثم نبَّه تعالىٰ علىٰ انفرادِه بالقدرة الكاملة، والنِّعْمة الشاملة؛ ليدُلَّ علىٰ توحُّدِه سبحانه باستحقاقِ العبادة، بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾[1].

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا لم يكُنْ شُبْهةٌ علىٰ ادِّعاءِ الولدِ لله سبحانه، ولا لهم اطلاعٌ عليه بوجهٍ؛ ساقَ قولَه: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[2].

بيانٌ لجملةِ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلىٰ آخرِها، وفي هذا البيانِ إدماجٌ بحكايةِ فنٍّ مِن فنونِ كفرِهم مغايرٍ لادعاءِ شركاءَ لله؛ لأنَّ هذا كفرٌ خفيٌّ مِن دِينِهم، ولأنَّ الاستدلالَ علىٰ إبطاله مغايرٌ للاستدلالِ علىٰ إبطالِ الشركاء[3].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن الأباطيلِ التي حكاها اللهُ تعالىٰ عن الكفارِ؛ وهي قولُهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ حكايةَ قولِ مَن يقول: الملائكةُ بناتُ الله، ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ قولَ مَن يقول: الأوثانُ أولادُ الله، ويحتمِلُ أن يكونَ قد كان فيهم قومٌ مِن النصارىٰ قالوا ذلك، ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا استنكَر هذا القولَ، قال بعده: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾[4].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٢٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٨٠).

ثم شرَع في نوعٍ آخرَ مِن أباطيلهم بقولِه تعالىٰ: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾(١).

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

ولمَّا قدَّم أنَّ قولَهم كذبٌ، وبكَّتهم عليه مواجَهةً؛ أتبَعه بما يشير إلىٰ أنَّهم أهلٌ للإعراضِ في سياقٍ مُهدِّدٍ علىٰ الكذب، فقال مُعرِضًا عن خطابهم، مؤكِّدًا لأنَّ اجتراءهم علىٰ ذلك دالٌّ علىٰ التَّكذيبِ بالمؤاخَذة عليه: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(٢).

استئنافٌ افتُتح بأمرِ النبي ﷺ أن يقولَ لتنبيهِ السامعين إلىٰ وعيِ ما يَرِدُ بعد الأمرِ بالقول بأنَّه أمرٌ مهمٌّ بحيث يُطلَب تبليغُه؛ وذلك أنَّ المقولَ قضيةٌ عامةٌ يحصُلُ منها وعيدٌ للذين ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ علىٰ مقالتِهم تلك، وعلىٰ أمثالها؛ فذلك كلُّه افتراءٌ علىٰ الله؛ لأنَّهم يقولونه علىٰ أنَّه دِينٌ، وماهيَّةُ الدِّين أنَّه وضعٌ إلهيٌّ؛ فهو منسوبٌ إليه، ويحصُلُ مِن تلك القضيةِ وعيدٌ لأمثالِ المشركين مِن كلِّ مَن يفتري علىٰ الله ما لم يقُلْهُ؛ فالمقولُ لهم ابتداءً هم المشركون(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن بالدليلِ القاهر أنَّ إثباتَ الولدِ لله تعالىٰ قولٌ باطل، ثم بيَّن أنَّه ليس لهذا القائلِ دليلٌ علىٰ صحَّةِ قوله؛ فقد ظهَر أنَّ ذلك المذهبَ افتراءٌ علىٰ الله، ونسبةٌ لِما لا يَلِيقُ به إليه؛ فبيَّن أنَّ مَن هذا حالُه، فإنَّه لا يُفلِحُ البتَّةَ(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر (٩/ ١٦٠).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٣٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٨٢).

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠ ﴾

ثـم بـيَّن عـدمَ الفـلاح بقولـه: ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾[1].

جملةُ ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القضاءَ عليه بعدمِ الفلاح يَتوجَّه عليه أن يَسألَ سائلٌ: كيف نراهم في عِزَّةٍ وقدرةٍ علىٰ أذىٰ المسلمين وصَدِّ الناس عن اتباعِ الرسول ﷺ؟! فيُجاب السائلُ بأنَّ ذلك تمتيعٌ في الدُّنيا لا يُعبأُ به؛ وإنَّما عدمُ الفلاح مظهرُه الآخرةُ؛ فـ ﴿ مَتَٰعٌ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ يُعلَم مِن الجملةِ السابقة؛ أي: أمرُهم متاعٌ[2].

ولمَّا نفىٰ عنهم الفلاحَ، وكان لهم حظٌّ مِن إفلاحهم في الدُّنيا لحظوظٍ فيها مِن مالٍ وجاهٍ وغيرِ ذلك، قيل: متاعٌ قليل جوابٌ علىٰ تقديرِ سؤالٍ؛ كأنَّ قائلًا قال: كيف لا يُفلِحون وهم في الدُّنيا مُفلِحون بأنواعٍ ممَّا يَتلذَّذون به؟! فقيل: ذلك متاعٌ في الدُّنيا، أو لهم متاعٌ في الدُّنيا زائلٌ لا بقاءَ له، ثم يَلقَوْنَ الشَّقاءَ المؤبَّد في الآخرة[3].

ثـم بيَّن سبحانه أنَّ هـذا الافتراءَ وإن فاز صاحبُه بشيءٍ مِن المطالبِ العاجلة، فهو متاعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ثم يَتعقَّبه الموتُ والرُّجوع إلىٰ الله، فيُعذِّب المفتري عذابًا مُؤبَّدًا[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٣٣).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٨٥).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥٢٤).

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾

ولمَّا تقدَّم سؤالُهم الإتيانَ بما يَقترحون مِن الآيات، ومضَتِ الإشارةُ إلىٰ أنَّ تسييرَهم في الفُلْكِ مِن أعظَمِ الآيات، وإن كانوا لإلْفِهم له قد نَسُوا ذلك، وتناسَجتِ الآيُ كما سلَف إلىٰ أن بيَّن هذا أنَّ متاعَ المفترينَ الكذبَ قليلٌ؛ تخويفًا مِن شديدِ السَّطوة، وعظيمِ الأخذ: عقَّب ذلك بقصَّةِ قومِ نوحٍ؛ لأنَّهم كانوا أطوَلَ الأُمَمِ الظالمة مدَّةً، وأكثَرَهم عدَّةً، ثم أُخِذوا أشدَّ أخذٍ، فزالت آثارُهم، وانطمست أعلامُهم ومنارهم، فصاروا كأنَّهم لم يكونوا أصلًا، ولا أظهَروا قولًا ولا فعلًا، فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ مسلِّيًا لنبيِّه ﷺ وأصحابِه رضي الله عنهم؛ لأنَّ المصيبةَ إذا عمَّتْ خفَّتْ، وتخويفًا للكفار ليَرجِعوا أو يُخِفُّوا مِن أذاهم: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾[1].

انتقالٌ مِن مُقارَعة المشركين بالحُجَج الساطعة علىٰ بطلانِ دِينِهم، وبالدلائلِ الواضحة علىٰ تفنيدِ أكاذيبهم وتكذيبِهم، وما تخلَّل ذلك مِن الموعظةِ والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب؛ إلىٰ التَّعريضِ لهم بذِكْرِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المماثلةِ أحوالُها لأحوالهم؛ استقصاءً لطرائقِ الحِجاج علىٰ أصحابِ اللَّجاج؛ فإنَّ نوحًا عليه السلام مع قومِه مَثَلٌ لحالِ محمَّدٍ ﷺ مع المشركين مِن قومه في ابتداءِ الأمر وتطوُّره؛ ففي ذِكْرِ عاقبةِ قوم نوحٍ عليه السلام تعريضٌ للمشركين بأنَّ عاقبتَهم كعاقبةِ أولئك، أو أنَّهم إنَّما يمتعون قليلًا، ثم يؤخَذون أَخْذةً رابيةً[2].

(١) نظم الدرر (٩/ ١٦١-١٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٣٤).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الدلائلَ علىٰ وَحْدانيَّتِه، وذكَر ما جرىٰ بَيْنَ الرسولِ وبين الكفار؛ ذكَر قَصصًا مِن قَصص الأنبياء، وما جرىٰ لهم مع قومِهم مِن الخلاف، وذلك تسلية للرسول ﷺ، وليَتأسَّىٰ بمَن قبله مِن الأنبياء، فيَخِفَّ عليه ما يَلقَىٰ منهم مِن التكذيبِ وقِلَّةِ الاتِّباع، وليَعلَمَ المتلوُّ عليهم هذا القَصصُ عاقبةَ مَن كذَّب الأنبياءَ، وما منَح اللهُ نبيَّه مِن العلمِ بهذا القَصصِ وهو لم يطالِعْ كتابًا، ولا صَحِب عالِمًا، وأنَّها طِبق ما أخبَر به. فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ اللهَ أوحاه إليه، وأعلَمَه به، وأنَّه نبيٌّ لا شكَّ فيه[(١)].

لمَّا بالَغ سبحانه في تقريرِ البراهين الواضحة، ودفعِ الشُّبْهة المنهارة؛ شرَع في ذِكْرِ قَصص الأنبياء؛ لِما في ذلك مِن التَّسليةِ لرسول الله - صلىٰ الله عليه وآله وسلم -، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[(٢)].

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾

ثم سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[(٣)].

الفاءُ لتفريعِ الكلام علىٰ الكلام؛ فجملةُ الشَّرطِ وجوابُه مفرَّعتانِ علىٰ الجملتين السابقتين، ولمَّا كان تَولِّيهم عن دَعْوتِه قد وقَع واستمَر، تعيَّن أنَّ جَعْلَ التَّولي في

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٨٦).

(٢) فتح القدير (٢/ ٥٢٤).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٦٤).

جملةِ الشَّرط مرادٌ به ما كان حصَل ليُرتَّب عليه جوابُ الشَّرط الذي هو شيءٌ قد وقَع أيضًا، وإنَّما قُصِد إقرارُهم به قطعًا لتعلُّلاتِهم، واستقصاءً لقطعِ معاذيرِهم[(١)].

ثم بيَّن لهم أنَّ كلَّ ما أتىٰ به إليهم مِن الإعذارِ والإنذار وتبليغِ الشَّريعة عن الله ليس هو لطمَعٍ دُنْيويٍّ، ولا لغرضٍ خسيسٍ، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا لم يرُدَّهم كلامُه هذا عن غَيِّهم، سبَّب عنه قولَه مُخبِرًا بتماديهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ الكلماتِ التي جرَتْ بَيْنَ نوحٍ وبين أولئك الكفارِ، ذكَر ما إليه رجَعتْ عاقبةُ تلك الواقعةِ[(٤)].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

ولمَّا لم يكُنْ في قَصصِ مَن بَيْنَه وبين موسىٰ عليهما السلام ممَّا يناسِبُ مقصودَ هذه السُّورةِ إلا ما شارَكوا فيه قومَ نوحٍ مِن أنَّهم لم تنفَعِ الآياتُ مَن أُريدت شَقاوتُه منهم، ذكَره

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٤٠).
(٢) فتح القدير (٢/ ٥٢٦).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١٦٥).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٨٦).

سبحانه طاويًا لِما عداه، فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[(١)].

﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ بَعْثةَ رُسُلٍ كثيرين إلىٰ أُمَمٍ تلقَّوْهم بمثلِ ما تَلقَّىٰ به نوحًا قومُه أعجَبُ مِن شأنِ قومِ نوحٍ؛ حيث تمالأت تلك الأُمَمُ علىٰ طريقةٍ واحدة مِن الكفر[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ طرَفًا مِن قصَّةِ نوحٍ عليه السلام، وأبرَز فيها مظهرَ التوكُّل علىٰ الله تعالىٰ مِن نوحٍ ليُقتَدىٰ به، ومظهرَ نصرةِ الله تعالىٰ لأوليائه، وهزيمتِه أعداءَه؛ ذكَر هنا سُنَّةً مِن سُنَنِه في خَلْقِه؛ وهي: أنَّه بعَث مِن بعدِ نوحٍ رُسُلًا كثيرين إلىٰ أُمَمِهم، فجاؤوهم بالحُجَج والبراهين علىٰ صِدْقِهم، وصحَّةِ ما جاؤوا به ودعَوْا إليه مِن توحيدِ الله، فما كان أولئك الأقوامُ ليؤمنوا بما كذَّب به مَن سبَقهم مِن أمَّةِ نوحٍ[(٣)].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ بَعْثةَ موسىٰ وهارونَ عليهما السلام كانت أعظَمَ مِن بَعْثةِ مَن سبَقهما مِن الرُّسل، وخُصَّت بعثةُ موسىٰ وهارونَ بالذِّكر؛ لأنَّها كانت انقلابًا عظيمًا وتطوُّرًا جديدًا في تاريخِ الشرائع، وفي نظامِ الحضارة العقليَّة والتشريعيَّة؛ فإنَّ الرُّسلَ الذين كانوا قبل موسىٰ إنَّما بُعِثوا في أُمَمٍ مستقلَّةٍ، وكانت أديانُهم مقتصِرةً علىٰ الدعوةِ إلىٰ إصلاحِ العقيدة، وتهذيبِ النفوس، وإبطالِ ما عظُمَ مِن مفاسدَ في المعاملات، ولم تكُنْ شرائعَ شاملةً لجميعِ ما يُحتاج إليه مِن نُظُمِ الأمَّة، وتقريرِ

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٤٤).

(٣) أيسر التفاسير (٢/ ٤٩٥).

حاضرها ومستقبلها، فأمَّا بعثةُ موسىٰ فقد أتت بتكوينِ أمَّةٍ، وتحريرِها مِن استعبادِ أمَّة أخرىٰ إيَّاها، وتكوينِ وطنٍ مستقل لها، وتأسيسِ قواعدِ استقلالها، وتأسيسِ جامعةٍ كاملة لها، ووضعِ نظامِ سياسة الأمَّة، ووضعِ سياسةٍ يدبِّرون شؤونها، ونظامِ دفاعٍ يَدفَع المعتدِينَ عليها مِن الأُمَم، ويمكِّنُها مِن اقتحامِ أوطانِ أُمَمٍ أخرىٰ، وإعطاءِ كتابٍ يشتمِلُ علىٰ قوانينِ حياتها الاجتماعية مِن كثيرِ نواحيها؛ فبَعْثةُ موسىٰ كانت أولَ مظهرٍ عامٍّ مِن مظاهرِ الشرائع لم يَسبِقْ له نظيرٌ في تاريخ الشرائع، ولا في تاريخِ نظام الأُمَم، وهو مع تفوُّقِه علىٰ جميعِ ما تقدَّمه مِن الشرائع قد امتاز بكونِه تلقينًا مِن اللهِ المطَّلِعِ علىٰ حقائقِ الأمور(١).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ عطفٌ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ عَطْفَ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

لمَّا رأَوُا المعجزاتِ التي هي حقٌّ ثابتٌ، وليست بتخيُّلاتٍ وتمويهاتٍ، وعَلِموا أنَّ موسىٰ صادقٌ فيما ادَّعاه؛ تدرَّجوا مِن مجرَّدِ الإباءِ المنبعِث عن الاستكبار إلىٰ البُهْتانِ المنبعِث عن الشُّعور بالمغلوبيَّة(٢).

ولمَّا أخبَر سبحانه باستكبارهم، بيَّن أنَّه تسبَّب عنه طعنُهم في معجزاته مِن غيرِ تأمُّلٍ، بل بغايةِ المبادرة والإسراع؛ بما أشعَرتْ به الفاءُ والسِّياق، فقال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥٠).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٧٠).

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾

فلمَّا قالوا، كان كأنَّه قيل: فماذا أجابهم؟ فأخبر أنَّه أنكرَ عليهم، بقولِه: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[1].

جملةُ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ مجاوَبةٌ منه عن كلامِهم، ففُصِلتْ مِن العطفِ علىٰ الطريقة التي استخرَجْناها في حكايةِ الأقوال[2].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ تنساق إليه الأذهانُ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم موسىٰ حينئذٍ؟ فقيل: قال علىٰ طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التوبيخي: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[3].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾

فلمَّا أنكَر عليهم عليه السلام ما ظهَر به الفرقُ الجليُّ بَيْنَ ما أتىٰ به في كونِه أثبَتَ الأشياء وبَيْنَ السِّحْرِ لأنَّه لا ثباتَ له أصلًا، عدَلوا عن جوابه إلىٰ الإخبار بما يَتضمَّن أنَّهم لا يُقرُّون بحَقِّيَّتِه؛ لأنَّه يَلزمُ عن ذلك تركُ ما هم عليه مِن العلوِّ وهم لا يتركونه، وأوهَموا الضعفاءَ أنَّ مرادَه عليه السلام الاستكبارُ؛ معلِّلين لاستكبارِهم عن اتباعه بما دلَّ علىٰ أنَّهم لا مانعَ لهم منه إلا الكِبْرُ، فقال تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٧١).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٤٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٦٨).

(٤) نظم الدرر (٩/ ١٧٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن فِرْعونَ وقومِه أنَّهم لم يَقبَلوا دعوةَ موسىٰ ﷺ، وعلَّلوا عدمَ القَبول بأمرينِ: الأول: قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾. والسبب الثاني في عدمِ القَبول: قولُه: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ مسُوقٌ لبيانِ أنَّه ﷺ ألقَمَهم الحجَرَ، فانقطَعوا عن الإتيانِ بكلامٍ له تعلُّقٌ بكلامه ﷺ، فضلًا عن الجوابِ الصحيح، واضطُرُّوا إلىٰ التشبُّث بذيلِ التقليد، الذي هو دأبُ كلِّ عاجزٍ محجوج، ودَيْدنُ كلِّ معانِدٍ لَجُوج، علىٰ أنَّه استئنافٌ وقَع جوابًا عمَّا قبله مِن كلامِه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا لموسىٰ ﷺ عندما قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عن المُحاجَّةِ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾

ولمَّا لبَّسوا بوصفِه بما هم به متَّصِفون، أرادوا الزيادةَ في التَّلبيس بما يُوهِم أنَّ ما أتىٰ به سِحْرٌ تمكِنُ معارَضتُه إيقافًا للناس عن اتِّباعِه، فقال تعالىٰ حكايةً -عطفًا علىٰ قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾-: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾(٣).

جملةُ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فهذه الجملةُ في حُكْمِ جوابٍ ثانٍ لحرفِ «لَمَّا»، حُكِي أولًا ما تلقَّىٰ به فِرْعونُ وملَؤُه دعوةَ موسىٰ ومعجِزتَه مِن منعِ أن يكونَ ما جاء به تأييدًا مِن عندِ الله، ثم حُكِي ثانيًا ما تلقَّىٰ به فِرْعونُ خاصةً تلك الدعوةَ مِن محاولةِ تأييد قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ ليُثبِتوا

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٨٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٦٩).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٧٣).

أنَّهم قادرون علىٰ الإتيان بمثلِها، ممَّا تحصيلُ أسبابه مِن خصائصِ فِرْعونَ؛ لِما فيه مِن الأمرِ لخاصة الأمَّةِ بالاستعدادِ لإبطالِ ما يُخشَىٰ منه[(١)].

ولمَّا ادَّعَوْا أنَّ ما جاء به موسىٰ عليه السلام هو سِحْرٌ، أخذوا في معارَضتِه بأنواعٍ مِن السِّحر؛ ليَظهَرَ لسائرِ الناس أنَّ ما أتىٰ به موسىٰ مِن بابِ السِّحر[(٢)].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فامتثَلوا أمره وجمَعوهم، دلَّ علىٰ قُرْبِ اجتماعهم بالفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾، عُطِف مجيءُ السَّحرةِ وقولُ موسىٰ لهم علىٰ جملةِ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ بفاء التَّعقيب؛ للدلالة علىٰ الفَوْرِ في إحضارهم، وهو تعقيبٌ بحسَبِ المتعارَفِ في الإسراع بمثلِ الشيء المأمور به، والمعطوفُ في المعنىٰ محذوفٌ؛ لأنَّ الذي يعقُبُ قولَه: ﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ ﴾ هو إتيانُهم بهم، ولكن ذلك لقلَّةِ جَدْواه في الغرضِ الذي سِيقت القصَّةُ لأجله، حُذِف استغناءً عنه بما يقتضيه ويدلُّ عليه دلالةً عقلية ولفظية مِن قوله: ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ علىٰ طريقةِ الإيجاز؛ والتقدير: فأتَوْهُ بهم، فلمَّا جاؤوا قال لهم موسىٰ: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾[(٤)].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ عطفٌ علىٰ مقدَّرٍ يستدعيه المقامُ، قد حُذِف إيذانًا بسرعةِ امتثالهم لأمرِ فِرْعونَ[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥٣).
(٢) البحر المحيط (٦/ ٩٢).
(٣) نظم الدرر (٩/ ١٧٤).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥٣-٢٥٤).
(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٦٩).

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

وقد طُوِيَ ذِكْرُ صورةِ سِحْرِهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الغرضَ مِن العبرةِ في هذه الآيةِ وصفُ إصرار فِرْعونَ وملَئِه على الإعراضِ عن الدعوة، وما لَقِيَه المستضعَفون الذين آمَنوا بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن اعتلاءِ فِرْعونَ عليهم، وكيف نصَر اللهُ رسولَه والمستضعَفِين معه، وكيف كانت لهم العاقبةُ الحسنىٰ، ولِمَن كفَروا عاقبةُ السَّوْءِ؛ ليكونوا مَثَلًا للمكذِّبين بمحمَّدٍ ﷺ؛ ولذلك لم يُعرِّجْ بالذِّكر إلا علىٰ مقالةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رأىٰ سِحْرَهم، الدالَّةِ علىٰ يقينِه بربِّه ووعدِه، وبأنَّ العاقبةَ للحق، وذلك أهَمُّ في هذا المقامِ مِن ذِكْرِ اندحاضِ سِحْرِهم تجاهَ معجزةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأجل هذا لم يُذكَرْ مفعولُ ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾؛ لتنزيلِ فعلِ ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾ منزلةَ اللازم؛ لعدمِ تعلُّقِ الغرضِ ببيان مفعوله(١).

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

جملةُ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ أي: سيُبطِله ويُحِقُّ الحقَّ(٢).

ثم عطَف عليه بيانَ إصلاحِه عمَلَ المصلِحين، فقال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١١ / ٢٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥٧).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٧٥).

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

ولمَّا حكىٰ سبحانه أنَّ موسىٰ عليه السلام أبانَ ما أبان مِن بطلانِ السِّحْرِ وكونِه إفسادًا، فثبَت ما أتىٰ به لمخالفتِه له؛ أخبَر تعالىٰ - تسليةً للنبي ﷺ، وفَطْمًا عن طلبِ الإجابة للمقترَحات - أنَّه ما تسبَّب عن ذلك في أولِ الأمر عَقِب إبطالِ سِحْرِهم مِن غيرِ مُهْلةٍ إلا إيمانُ ناسٍ ضعفاءَ غيرِ كثيرٍ، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[(١)].

تفريعٌ علىٰ ما تقدَّم مِن المحاورة؛ أي: فتفرَّع علىٰ ذلك أنَّ فِرْعونَ وملأَه لم يؤمنوا بموسىٰ؛ لأنَّ حَصْرَ المؤمنين في ذُرِّيةٍ مِن قومِ موسىٰ يفيد أنَّ غيرَهم لم يؤمنوا، وهو المقصودُ، فكانت صيغةُ القصرِ في هذا المقامِ إيجازًا؛ والتَّقدير: تفرَّع علىٰ ذلك تصميمٌ علىٰ الإعراض[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن فيما تقدَّم ما كان مِن موسىٰ عليه السلام مِن المعجزاتِ العظيمة، وما ظهَر مِن تلقُّف العصا لكلِّ ما أحضَروه مِن آلاتِ السِّحر، ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّهم مع مشاهَدةِ المعجِزات العظيمة ما آمَن به منهم إلا ذُرِّيةٌ مِن قومه، وإنَّما ذكَر تعالىٰ ذلك تسليةً لمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه كان يَغتمُّ بسببِ إعراضِ القوم عنه، واستمرارِهم علىٰ الكفر، فبيَّن أنَّ له في هذا البابِ بسائرِ الأنبياء أسوةً؛ لأنَّ الذي ظهَر مِن موسىٰ عليه السلام كان في الإعجازِ في مرأىٰ العينِ أعظَمَ، ومع ذلك فما آمَن به منهم إلا ذُرِّيةٌ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٥٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٨٨).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ ﴾

ولمَّا ذكَر خوفَهم وعُذْرَهم، أتبَعه ما يُوجِب طُمَأنينتَهم؛ وهو التوكلُ على الله الذي مَن راقَبه تلاشى عنده كلُّ عظيمٍ، فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾(١).

عطَف بقيَّةَ القصَّة على أولِها؛ فهو عطفٌ على جملةِ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾، وهذا خطابُ موسى عليه السلام لجميعِ قومه، وهم بنو إسرائيلَ الذين بمِصْرَ، وهو يدلُّ على أنَّه خاطَبهم بذلك بعد أن دعَاهم وآمَنوا به؛ كما يؤذِنُ به قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، والغرضُ منه تثبيتُ الذين آمَنوا به في حضرة فِرْعونَ على توكُّلِهم، وأمرُ مَن عداهم الذين خافَ ذُرِّيتُهم أن يؤنِّبوهم على إظهارِ الإيمان بألَّا يجبِّنوا أبناءَهم، وألَّا يَخشَوا فِرْعونَ؛ ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾(٢).

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ ﴾

وقد كان صادقُ إيمانِهم مع نورِ الأمر النَّبويِّ الذي واجَههم به نبيُّهم مسرعًا بهم إلى التجرُّدِ عن التَّخوُّفِ والمصانَعة، وإلى عَقْدِ العزمِ على التوكل على الله؛ فلذلك بادَروا بجوابِه بكلمةِ ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ مشتمِلةً على خَصُوصيةِ القصرِ المقتضي تجرُّدَهم عن التوكّل على غيرِ الله تعالى(٣).

أجابوا موسى عليه السلام بما أمَرهم به مِن التوكل على الله؛ لأنَّهم كانوا مخلِصين في إيمانِهم وإسلامهم(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٦٣).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٩٦).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا أمَرهم بذلك، قَبِلوا قولَه؛ ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[(١)].

📖 ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ 📖

ثم سألوا ما فيه صلاحُهم، فطلَبوا النَّجاةَ مِن القوم الكافرين[(٢)].

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ دعاءٌ منهم بالإنجاء مِن سُوءِ جوارهم، وشُؤْمِ مصاحَبتِهم، بعد الإنجاءِ مِن ظُلْمِهم[(٣)].

ولمَّا قدَّموا التضرُّعَ إلىٰ الله سبحانه في أن يصُونَ دِينَهم عن الفساد، أتبَعوه بسؤالِ عصمةِ أنفسِهم، فقالوا: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[(٤)].

📖 ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ 📖

ولمَّا أجابوه إلىٰ إظهارِ الاعتماد عليه سبحانه، وفوَّضوا الأمورَ إليه؛ أتبَعه ما يَزيدهم طُمَأنينةً مِن التوطُّنِ في أرضِ العدو؛ إشارةً إلىٰ عدمِ المبالاة به؛ لأنَّه رُوي أنَّه كانت لهم متعبَّداتٌ يجتمعون فيها، فلمَّا بُعِث موسىٰ عليه السلام أخربَها فِرْعونُ، فأمَر اللهُ تعالىٰ أن تُجعَلَ في بيوتهم؛ لئلا يطَّلِعَ عليهم الكفَرةُ، فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١ / ٢٦٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٧١).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥٣٠).

(٥) نظم الدرر (٩/ ١٧٨).

يجوز أن يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ ﴾، ويجوز أن يكونَ عطفَ قصَّةٍ علىٰ قصَّةٍ؛ أي: علىٰ مجموعِ الكلام السابق؛ لأنَّ مجموعَ قصصِه هي حكايةُ أطوارٍ لقصَّةِ موسىٰ وقومه[(١)].

اعلَمْ أنَّه لمَّا شرَح خوفَ المؤمنين مِن الكافرين، وما ظهَر منهم مِن التوكُّلِ علىٰ الله تعالىٰ؛ أتبعَه بأنْ أمَر موسىٰ وهارونَ باتخاذِ المساجد، والإقبالِ علىٰ الصلوات[(٢)].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولمَّا ختَم ببشارةِ مَن دلَّ علىٰ إيمانِهم إسلامُهم بفعلِ ما يدلُّ علىٰ هوانِ أمرِ العدو، وكان هلاكُ الشانئِ مِن أعظَمِ البشائر، وكان ضَلالُ فِرْعونَ وقومِه بالزينة والمال إضلالًا لغيرهم؛ سأل موسىٰ عليه السلام إزالةَ ذلك كلِّه للراحة مِن شرِّه، فقال تعالىٰ حاكيًا عنه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[(٣)].

عطَف بقيَّةَ ما جرىٰ في القصَّة ممَّا فيه عِبْرةٌ وموعظةٌ، وهذا مقدِّمةٌ لخبَرِ خروج موسىٰ عليه السلام ومَن معه مِن أرضِ مِصْرَ؛ فهذه المقدِّمةُ لتعريفِ كرامة موسىٰ عليه السلام علىٰ ربِّه بأنِ استجاب له دعاءه، وأنفَذ برسالتِه مرادَه تعالىٰ مِن إنقاذِ بني إسرائيل مِن

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٦٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٩١).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٧٩).

الاستعباد، ومهَّد موسىٰ لدعائه تمهيدًا يدلُّ علىٰ أنَّ ما سأله مِن الله لزَجْرِ فِرْعونَ وملَئِه إنَّما هو لمصلحةِ الدِّين، لا للانتقامِ منه لقومِه ولنفسه، فسأل اللهَ سَلْبَ النِّعْمةِ عن فِرْعونَ وملئه، وحلولَ العذاب بهم؛ لخَضْدِ(١) شوكتِهم، وتذليلِ تجبُّرهم؛ ليَرجِعوا عن ضَلالهم، ويسهُلَ قَبولُهم الإيمانَ(٢).

لمَّا بالَغ موسىٰ عليه السلام في إظهارِ المُعجِزات وهم مُصِرُّون علىٰ العناد، واشتدَّ أذاهم عليه وعلىٰ مَن آمَن معه، وهم لا يَزيدون علىٰ عرضِ الآيات إلا كفرًا، وعلىٰ الإنذار إلا استكبارًا، أو عَلِم بالتَّجرِبة وطُولِ الصُّحبة أنَّه لا يجيءُ منهم إلا الغَيُّ والضَّلال، أو عَلِم ذلك بوحيٍ مِن الله تعالىٰ؛ دعَا اللهَ تعالىٰ عليهم بما عَلِم أنَّه لا يكون غيرُه(٣).

اعلَمْ أنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا بالَغ في إظهارِ المُعجِزات الظاهرة القاهرة، ورأىٰ القومَ مُصِرِّين علىٰ الجحودِ والعناد والإنكار؛ أخذ يدعو عليهم، ومِن حقِّ مَن يدعو علىٰ الغيرِ أن يذكُرَ أولًا سببَ إقدامِه علىٰ تلك الجرائمِ، وكان جُرْمُهم هو أنَّهم لأجلِ حُبِّهم الدُّنيا ترَكوا الدِّينَ؛ فلهذا السببِ قال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾(٤).

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة اتخاذَ المساجدِ والاتجاهَ للقِبْلة، ناسَب أن يبيِّنَ هنا ما كان يدعو به موسىٰ عليه السلام في قُنوتِه في الصلاة.

---

(١) أي: إزالتها.

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٦٧).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٩٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٩٢).

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه عن دعائه عليه السلام، أخبَر بإجابتِه بقولِه مستأنفًا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

جوابٌ مِن الله لكلام موسىٰ عليه السلام، جرىٰ علىٰ طريقةِ حكاية المحاوَرات؛ ألَّا تُعطَفَ جُمَلُها؛ كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ (٢).

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

ولمَّا أمَر بالتَّأني الذي هو نتيجةُ العلم، عطَف علىٰ ذلك الإخبارِ بالاستجابة قولَه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ (٣).

معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ عَطْفَ الغرضِ علىٰ التَّمهيد؛ أي: أمَرْناهما باتخاذِ تلك البيوتِ تهيئةً للسَّفر، ومجاوَزةِ البحر (٤).

لمَّا أجاب دعاءَهما، أمَر بني إسرائيلَ بالخروج مِن مِصْرَ في الوقتِ المعلوم، ويسَّر لهم أسبابَه، وفِرْعونُ كان غافلًا عن ذلك، فلمَّا سَمِع أنَّهم خرَجوا وعزَموا علىٰ مفارقةِ مملكته، خرَج علىٰ عَقِبِهم (٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٧٢).

(٣) نظم الدرر (٩/ ١٨٣).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٧٤).

(٥) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٩٥).

ثم ذكَر كيفيَّةَ إغراقِ فِرْعونَ وجنودِه بعد إجابةِ دعوة موسىٰ وأخيه عليهما السلام.

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٩١ ﴾

ثم زاده تعالىٰ ذلًّا بالإيئاسِ مِن الفلاح بقولِه علىٰ لسانِ الحال، أو جِبْريلَ عليه السلام، أو مَلَكِ الموت، أو غيرِه مِن الجنود عليهم السلام: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

مقولٌ لقولٍ حُذِف لدلالةِ المقام عليه؛ تقديره: قال اللهُ، وهو جوابٌ لقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾؛ لأنَّه قصَد بقولِه ذلك طلَبَ الإنجاءِ مِن الغرَقِ اعترافًا لله بالرُّبوبيَّة، فكأنَّه وجَّه إليه كلامًا، فأجابه اللهُ بكلامٍ[2].

ولمَّا أحسَّ بالغرَقِ، لاذَ إلىٰ الإيمان يَبغِي النَّجاةَ، فقيل له: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ٩٢ ﴾

ثم أكَّده -بدلَ شماتةِ الأعداء به الذين كانوا عنده أقلَّ شيءٍ وأحقَره- بقولِه مسبِّبًا عمَّا تضمَّنه ذلك الإنكارُ مِن الإذلالِ بالإهلاك؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الماءَ أحاط به وصار يرتفع قليلًا قليلًا حتَّىٰ امتدَّ زمانُ التَّوبيخ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٧٧).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٥٨).

(٤) نظم الدرر (٩/ ١٨٥).

ولمَّا كان في قلوبِ بني إسرائيلَ مِن الرُّعْبِ العظيم مِن فِرْعونَ، كأنَّهم لم يصدِّقوا بإغراقه، وشَكُّوا في ذلك؛ فأمَر اللهُ البحرَ أن يُلقِيَه علىٰ نَجْوةٍ[١] مرتفِعة ببدَنِه؛ ليكونَ لهم عِبْرةً وآية[٢].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ عاقبةَ أمرِ فِرْعونَ وقومه، وأنَّهم لم يَنتفعوا بما جاءهم مِن البيناتِ، مع ما كان فيها مِن جليِّ البيان، وفي بعضها مِن الشَّدائد والامتحان، حتىٰ كان آخِرَها أنَّه لمَّا رأىٰ مبدأَ الهلاك مِن انفراقِ البحر، لم يَزَعْهُ[٣] عن لَجَاجِه؛ غفلةً منه عن عاقبتِه، وختَمها بالإخبارِ بكثرة الغفلة؛ إشارةً إلىٰ أنَّ هذا الخُلُقَ في غيرِ القِبْطِ أيضًا: أتبَع ذلك ذِكْرَ خاتمةِ أمرِ بني إسرائيلَ فيما خوَّلهم فيه بعد الإنجاء مِن النِّعَم، المقتضي للعلمِ القطعيِّ بأنَّه لا إلهَ غيرُه، وأنَّ مَن خالَفه كان علىٰ خطَرِ الهلاك، وأنَّهم -مع مشاهَدتهم الآياتِ الآتيةَ بسببهم إلىٰ فِرْعونَ- آتاهم مِن الآياتِ الخاصَّة بهم المنجزة -لصِدْقِ وعدِه سبحانه لآبائهم- ما فيه غايةُ الإحسان إليهم، والإكرام لهم، وأنَّهم كانوا تحت يد فِرْعونَ علىٰ طريقٍ واحدٍ، ليس بينهم خلافٌ، وما اختلَفوا فصاروا فِرَقًا في الاعتقاداتِ وأحزابًا في الديانات حتىٰ جاءهم العلمُ الموضَّح مِن الله، فكان المقتضِي لاجتماعهم علىٰ اللهِ مفرِّقًا لهم علىٰ سبيلِ الشيطان؛ لخُبْثِ سرائرهم، وسُوءِ ضمائرهم؛ وقوفًا مع الشاهدِ الزائل، وجمودًا مع المحسوس الفاني، ونسيانًا للغائبِ

---

(١) المكان المرتفع.
(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٧٢).
(٣) أي: لم يحجزه.

الثابت والمعلومِ المتيقَّن؛ كلُّ ذلك لأنَّا قضَيْنا به، فالأمر تابعٌ لِما نريد، لا لِما يأمر به وينَهَىٰ عنه، فكان أعظَمَ زاجرٍ عن طلبِ الآيات، وظنٍّ أنَّها توجِبُ له الردَّ علىٰ الغوايـاتِ، فقـال تعـالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١).

لمَّا ضرَب اللهُ مثَلَ السَّوْءِ، أتبَعه بمثَلِ الصلاح بحالِ الذين صدَّقوا الرسولَ واتبَعوه، وكيف كانت عاقبتُهم الحسنىٰ؛ ليظهر الفَرق بَيْنَ مصيرَيِ فريقينِ جاءهم رسولٌ: فآمَن به فريق، وكفَر به فريق؛ ليكونَ ذلك ترغيبًا للمشركين في الإيمان، وبشارةً للمؤمنين مِن أهلِ مكَّة(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما جرىٰ لِفِرْعونَ وأتباعِه مِن الهلاك، ذكَر ما أحسَنَ به لبني إسرائيلَ، وما امتَنَّ به عليهم؛ إذ كان بنو إسرائيلَ قد أُخرِجوا مِن مساكنهم خائفين مِن فِرْعونَ، فذكَر تعالىٰ أنَّه اختار لهم مِن الأماكنِ أحسَنَها(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر ما وقَع عليه الخَتْمُ في واقعةِ فِرْعونَ وجنوده، ذكَر أيضًا في هذه الآيةِ ما وقَع عليه الختمُ في أمرِ بني إسرائيلَ(٤).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، سِيقَ لبيانِ النِّعم الفائضةِ عليهم إثر نِعْمةِ الإنجاء علىٰ وجهِ الإجمال، وإخلالِهم بشكرِها، وأداءِ حقوقها(٥).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ١٨٨-١٨٩).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٨١).
(٣) البحر المحيط (٦/ ١٠٤).
(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٩٨).
(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٧٤).

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ -مِن آيات هذه السُّورةِ المبيِّنة أنَّ مَن أُريدت شقاوتُه لا ينفعه مشاهَدةُ الآيات- سببًا لنفيِ الشَّك عنها، وإثباتِ اليقين بمضامينها بما سلَف مِن الأدلةِ علىٰ تلك المضامينِ، إلىٰ أن ختَم ذلك بذَمِّ مَن عَمِل عمَلَ الشاكِّ بعد أن جاء ما يوجِبُ اليقينَ مِن العلم، وكان ﷺ -كما مضىٰ في آخرِ التي قبلها- أشفقَ الخَلْقِ، لا سيَّما علىٰ العربِ، لا سيَّما علىٰ قومِه منهم، وكانت الوصيَّةُ قد برَزتْ مِن الجَنابِ الإلهيِّ له بما يوافِقُ طَبْعَه مِن بذلِ الجُهْدِ في ملاطَفتِهم؛ كان ذلك جديرًا بأن يحرِّكَ طَبْعَ البشر لتَمنِّي الإجابةِ لِما يقترحون، وكان طلبُ ذلك بعد الفطامِ عنه مِن أفعال الشَّك في الجملة، فأُريدَ صرفُ النفس عنه بالكليَّة، ولو بالخطورِ في البال، فقيل مسبِّبًا عمَّا قبله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(١).

تفريعٌ علىٰ سياق القِصَصِ التي جعلها اللهُ مثلًا لأهل مكَّةَ، وعظةً بما حلَّ بأمثالهم؛ انتقَل بهذا التَّفريعِ مِن أسلوبٍ إلىٰ أسلوبٍ، كلاهما تعريضٌ بالمكذِّبين؛ فالأسلوبُ السابق تعريضٌ بالتحذير مِن أن يحُلَّ ما حلَّ بالأُمَم المماثِلة لهم، وهذا الأسلوب المُوالي تعريضٌ لهم بشَهادةِ أهل الكتاب علىٰ تلك الحوادثِ، وما في الكتبِ السابقة مِن الإنباءِ برسالة محمَّد ﷺ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٨٤).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر مِن قبلُ اختلافَهم عندما جاءهم العلمُ، أورَد علىٰ رسولِ الله ﷺ في هذه الآيةِ ما يقوِّي قلبَه في صحَّةِ القرآن والنُّبوَّة، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[1].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

ولمَّا نُهِي عن ذلك، لم يَبقَ ممَّا اقتضته القسمةُ العقليَّة إلا العنادُ ممَّن يمكِنُ منه؛ كما فعَل بنو إسرائيلَ بعد مجيءِ العلم، فأتبَعه النَّهيَ عن مثلِ حالهم بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

اعلَمْ أنَّ فِرَقَ المكلَّفين ثلاثةٌ: إمَّا أن يكونَ مِن المصدِّقين بالرسول، أو مِن المتوقِّفين في صِدْقِه، أو مِن المكذِّبين، ولا شكَّ أنَّ أمرَ المتوقِّفِ أسهَلُ مِن أمر المكذِّب؛ لا جرَمَ قد ذكَر المتوقِّفَ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، ثم أتبَعه بذِكْرِ المكذِّب، وبيَّن أنَّه مِن الخاسرين[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ مِن هذه الآياتِ وما كان مِن طرازِها قاضيًا بأنَّه لا تُغنِي الآياتُ عنهم، صرَّح به قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

لمَّا سبَق التَّعريضُ إلىٰ المشركين الشَّاكين في صِدْقِ النبي ﷺ، والاستشهادُ عليهم في صِدْقِه بشَهادةِ أهل الكتاب؛ أعقَب ذلك بأنَّهم مِن زُمْرةِ الفِرَق الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ الله ألا يؤمنوا؛ فهم لا تُجدِي فيهم الحُجَّةُ؛ لأنَّهم أهلُ مكابَرة، وليسوا طالبينَ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٩٩).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٠٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٢).

(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٠٧).

للحق؛ لأنَّ الفطرةَ التي فُطِرت عليها عقولُهم غيرُ قابلةٍ لحقائقِ الإيمان، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء مِن الآياتِ هم ممَّن عَلِم اللهُ أنَّهم لا يؤمنون، تلك أماراتُهم(١).

ثم إنَّه تعالىٰ لمَّا فصَّل هذا التَّفصيلَ، بيَّن أنَّ له عبادًا قضىٰ عليهم بالشَّقاء فلا يَتغيَّرون، وعبادًا قضىٰ لهم بالكرامة فلا يَتغيَّرون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ شروعٌ في بيانِ سرِّ إصرارِ الكفرة علىٰ ما هم عليه مِن الكفرِ والضَّلال(٣).

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

ثم بيَّن أنَّهم لا يؤمنون البتَّةَ، ولو جاءتهم الدَّلائلُ التي لا حدَّ لها ولا حصرَ؛ وذلك لأنَّ الدَّليلَ لا يَهدِي إلا بإعانةِ الله تعالىٰ، فإذا لم تحصُلْ تلك الإعانةُ، ضاعت تلك الدَّلائلُ(٤).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا موضعَ أن يقالَ: إنَّما تُطلَب الآياتُ لِما يُرجَىٰ مِن تسبُّبِ الإيمان عنها، تسبَّب عنه أن يُجابَ بقولِه تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٨٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٧٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٢).

(٥) نظم الدرر (٩/ ٢٠٨).

الفاءُ لتفريعِ التَّغليط علىٰ امتناعِ أهلِ القرىٰ مِن الإيمان بالرُّسلِ قبل أن يَنزِلَ بهم العذابُ علىٰ الإخبار بأنَّ الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ الله ألا يؤمِنوا لا يؤمنون حتىٰ يَرَوُا العذابَ؛ فإنَّ أهلَ القرىٰ مِن جملةِ الذين حقت عليهم الكلمةُ بألا يؤمنوا، والغرضُ مِن ذِكرِ أهلِ القرىٰ التَّعريضُ بالمقصود، وهم أهلُ مكَّةَ؛ فإنَّهم أهلُ قريةٍ، فكان ذلك كالتَّخلُّص بالتَّعريض إلىٰ المخصوصين به، وللإفضاءِ به إلىٰ ذِكْرِ قومِ يونُسَ؛ فإنَّهم أهلُ قريةٍ[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن مِن قبلُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، أتبَعه بهذه الآيةِ؛ لأنَّها دالةٌ علىٰ أنَّ قومَ يونُسَ آمَنوا بعد كفرِهم، وانتفَعوا بذلك الإيمانِ[(٢)].

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لتقريرِ ما سبَق مِن استحالةِ إيمانِ مَن حَقَّتْ عليهم كلمتُه تعالىٰ لسُوءِ اختيارهم مع تمكُّنهم مِن التَّدارك، فيكون الاستثناءُ الآتي بيانًا لكونِ قوم يونُسَ عليه السلام ممَّن لم يَحِقَّ عليه الكلمةُ؛ لاهتدائهم إلىٰ التَّدارُكِ في وقته[(٣)].

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ ربما أوجَب اعتقادَ أنَّ إيمانَ مثلِ أولئك مُحالٌ، جاءت هذه الآيةُ في مقامِ الاحتراس منه مع البيانِ لأنَّ حِرْصَ الرسول ﷺ علىٰ إيمانهم لا يَنفَع، ومبالَغته في إزالة الشُّبهات وتقرير الدلائل لا تفيدُ إلا بمشيئةِ الله تعالىٰ لتوفيقِهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وَحْدَه كافيًا، لآمَنوا بهذا السُّورة؛ فإنَّها أزالت شُبُهاتِهم،

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٨٨).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ١٧٦).

وبيَّنتْ ضلالاتهم، وحقَّقتْ بقصَّتَيْ نوحٍ وموسىٰ عليهما السلام ضَعْفَهم ووَهْنَ مدافعاتِهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتسليةِ النبيِّ ﷺ علىٰ ما لَقِيَه مِن قومه، وهذا تذييلٌ لِما تقدَّم مِن مشابَهةِ حالِ قُرَيشٍ مع النبي ﷺ بحالِ قومِ نوحٍ وقوم موسىٰ وقوم يونُس، وهذه الجملةُ كالمقدِّمة الكليَّة للجملة التي بعدها(٢).

لمَّا كان أحرَصَ الناسِ علىٰ هدايتهم، وأسعىٰ في وصولِ الخير إليهم والفوزِ بالإيمان منهم، وأكثَرَ اجتهادًا في نجاةِ العالَمين مِن العذاب؛ أخبَره تعالىٰ أنَّه خلَق أهلًا للسعادة وأهلًا للشَّقاوة، وأنَّه لو أراد إيمانَهم كلِّهم لفعَل، وأنَّه لا قُدْرةَ لأحدٍ علىٰ التصرُّف في أحد؛ والمقصودُ بيانُ أنَّ القدرةَ القاهرة والمشيئةَ النافذة ليست إلا له تعالىٰ(٣).

اعلَمْ أنَّ هذه السُّورةَ مِن أولها إلىٰ هذا الموضعِ في بيانِ حكايةِ شُبُهاتِ الكفار في إنكارِ النُّبوَّة مع الجواب عنها، وكانت إحدىٰ شُبُهاتهم أنَّ النبيَّ ﷺ كان يهدِّدُهم بنزولِ العذاب مع الكافرين، ويَعِدُ أتباعَه أنَّ الله ينصُرُهم ويُعلِي شأنَهم ويقوِّي جانبَهم، ثم إنَّ الكفارَ ما رأوا ذلك، فجعَلوا ذلك شُبْهةً في الطَّعن في نبوَّته، وكانوا يبالِغون في استعجالِ ذلك العذابِ علىٰ سبيل السُّخريَّة، ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى بيَّن أنَّ تأخيرَ الموعودِ به لا يَقدَح في صحَّةِ الوعد، ثم ضرَب لهذا أمثلةً؛ وهي واقعةُ نوحٍ وواقعةُ موسىٰ عليهما السلام مع فِرْعونَ، وامتدَّت هذه البياناتُ إلىٰ هذه المقامات، ثم في هذه الآيةِ

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٠٩).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٢).
(٣) البحر المحيط (٦/ ١٠٨).

بيَّن أنَّ جِدَّ الرسولِ في دخولهم في الإيمان لا ينفعُ، ومبالَغتَه في تقريرِ الدلائل وفي الجواب عن الشُّبهات لا تفيد؛ لأنَّ الإيمانَ لا يحصُلُ إلا بتوفيقِ الله تعالىٰ ومشيئته، وإرشادِه وهدايته، فإذا لم يحصُلْ هذا المعنىٰ، لم يحصُلِ الإيمان(١).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الإيمانَ وضدَّه كلاهما بمشيئةِ الله وتقديره، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(٢).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

عطفٌ علىٰ جملة ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾؛ لتقريرِ مضمونها؛ لأنَّ مضمونَها إنكارُ أن يَقدِرَ النبيُّ ﷺ علىٰ إلجاءِ الناس إلىٰ الإيمان؛ لأنَّ اللهَ هو الذي يَقدِر علىٰ ذلك(٣).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تقريرٌ وتأكيد لِما تضمَّنه الكلامُ السابق مِن أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ لأحدٍ إلا بإرادة الله وقضائه(٤).

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

ولمَّا تقرَّر ما مضىٰ مِن النهيِ عن الإصغاء إليهم في طلبِ الآيات، وخُتِم بتعليقِ الأمر بمجرَّدِ المشيئة؛ كان كأنَّه قيل: فماذا يقال لهم إذا طلبوا؟ فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٤).

(٢) فتح القدير (٢/ ٥٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٤).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٥١١).

(٥) نظم الدرر (٩/ ٢١١).

استئنافٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، قسَّم الناسَ إلىٰ قسمينِ: مؤمنين، وكافرين؛ أي: فادعُهم إلىٰ النظرِ في دلائلِ الوَحْدانية، والإرشادِ إلىٰ تحصيلِ أسباب الإيمان، ودفعِ غِشاواتِ الكفر؛ وذلك بالإرشادِ إلىٰ النظَرِ والاستدلال بما هو حَوْلَ الإنسان مِن أحوالِ الموجودات وتصاريفِها الدالة علىٰ الوَحْدانيَّة؛ مثل: أجرامِ الكواكب، وتقاديرِ مَسيرِها، وأحوالِ النُّور والظُّلمة، والرِّياح والسَّحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآياتِ السالفة أنَّ الإيمانَ لا يحصُلُ إلا بتخليقِ الله تعالىٰ ومشيئته، أمَر بالنظَرِ والاستدلال في الدلائلِ، فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢).

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾

ثم هدَّدهم بقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾(٣).

تفريعٌ علىٰ جملة ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ باعتبارِ ما اشتمَلتْ عليه مِن ذِكْرِ النُّذر؛ فهي خطابٌ مِن الله تعالىٰ لرسولِه ﷺ؛ أي: يَتفرَّع علىٰ انتفاءِ انتفاعِهم بالآيات والنُّذر، وعلىٰ إصرارِهم أن يَسأَلَ عنهم: ماذا ينتظرون؟ ويجاب بأنَّهم ما يَنتظرون إلا مِثْلَ ما حلَّ بمَن قَبْلَهم ممَّن سِيقَتْ قِصَصُهم في الآياتِ الماضية(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٥).
(٢) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٦).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٢١٢).
(٤) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٧).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فإنَّا كنَّا في أيامِ الذين خلَوْا نوقِعُ الرِّجْسَ بالمكذِّبين، عطَف عليه بيانًا لِما كان يفعلُ بالرُّسلِ وأتباعهم إذا أهلَكَ الظالمين قولَه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾؛ لأنَّ مِثْلَ تلك الأيامِ يومُ عذابٍ، ولمَّا كانوا مهدَّدين بعذابٍ يحُلُّ بموضعٍ فيه الرسولُ ﷺ والمؤمنون، عجَّل اللهُ البشارةَ للرسول ﷺ والمؤمنين بأنَّه ينجيهم مِن ذلك العذابِ بقُدْرتِه؛ كما أنجى الرُّسلَ مِن قبلِه(٢).

لمَّا أمَر الرسولَ في الآيةِ الأُولى أن يُوافِقَ الكفارَ في انتظار العذاب، ذكَر التَّفصيلَ، فقال: العذابُ لا يَنزِل إلا على الكفار، وأمَّا الرسولُ وأتباعه فهم أهلُ النَّجاة(٣).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)﴾

ولمَّا تقدَّم الفِطامُ عن الميلِ لِمَن يطلُبُ الآياتِ، وكان طلَبُهم لها إنَّما هو على وجهِ الشك، وإن لم يكُنْ على ذلك الوجهِ، فإنَّه فعلُ الشَّاكِّ غالبًا، وتقدَّمت أجوبةٌ لهم، وخُتِم ذلك بتهديدِهم وبشارةِ المؤمنين الموجِبةِ لثَباتِهم؛ ناسَبه كلَّ المناسبة أن أُتبِعتِ الأمرَ بجوابٍ آخرَ دالٍّ على ثباته ﷺ، وأنَّه مُظهِرٌ دِينَه، رَضِي مَن رَضِي، وسَخِط مَن سَخِط؛ لأنَّ البيانَ قد وصَل إلى غايته في

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢١٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٧).

قولــه تعــالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

هــذه الجملــةُ متصِــلة المعنــىٰ بجملــة ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ إذ المقصودُ مِن النظرِ المأمور به هنالك النظرُ للاستدلال علىٰ إثباتِ الوَحْدانيَّة؛ فإنَّ جحودَهم إيَّاها هو الذي أقدَمَهم علىٰ تكذيبِ الرسول ﷺ في قوله: إنَّ الله بعثه بإثباتها، وأبطَل الإشراكَ، فلمَّا أمَرهم بالنظرِ المؤدي إلىٰ إثباتِ انفراده تعالىٰ بالإلهيَّة، أعقَبه بأن يُخبِرَهم بأنَّهم إن استمَرُّوا علىٰ الشك فيما جاء به الرسولُ ﷺ، فإنَّ الرسولَ ﷺ ثابتٌ علىٰ ما جاء به، وأنَّ دلائلَ صحَّةِ دِينِه بيِّنةٌ للناظرين(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الدلائلَ علىٰ أقصىٰ الغايات، وأبلَغِ النهايات؛ أمَر رسولَه ﷺ بإظهارِ دِينِه، وبإظهار المبايَنةِ عن المشركين؛ لكي تزُولَ الشكوكُ والشُّبهات في أمرِه، وتخرُجَ عبادةُ الله مِن طريقةِ السرِّ إلىٰ الإظهار، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾(٣).

بعد أن بيَّن تعالىٰ طريقَ الهدىٰ وطريقَ الضَّلال، وأنذَر وحذَّر، وواعَد وأوعَد في الآياتِ السابقة بما لا مزيدَ عليه؛ أمَر رسولَه هنا أن يواجِهَ المشركين مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِهم بالتقريرِ التالي، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٢١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٠٨).

(٤) أيسر التفاسير (٢/ ٥١٤).

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ولا يَمنَع مِن ذلك كونُ المعطوفِ بصيغة الأمر؛ لأنَّ المقصودَ مِن «أن» الدلالةُ على المصدر، وذلك لا يختلِفُ بالخَبَرِيَّة والإنشائية، أو يكون المعطوفُ عليه في معنى الإنشاء، كأنَّه قيل: كُنْ مؤمنًا ثم أَقِمْ؛ والمعنى: أنَّ اللهَ سبحانه أمَره بالاستقامةِ في الدِّين والثَّبات فيه، وعدمِ التزلزل عنه بحالٍ مِن الأحوال(١).

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولمَّا نهاه عن الشرك، أكَّده بما هو كالتَّعليل له بما يَلزمُه مِن العبثِ بالخضوع لِما لا ضُرَّ فيه ولا نفع بقولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

عطفٌ على ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ولم يؤكِّدِ الفعلُ بنونِ التوكيد لئلا يَمنَعَ وجودُها مِن حذفِ حرف العلَّة بأنَّ حَذْفَه تخفيفٌ وفصاحةٌ، ولأنَّ النَّهيَ لمَّا اقترَن بما يومئ إلى التَّعليل كان فيه غُنْيةٌ عن تأكيده؛ لأنَّ الموصولَ في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ يومئ إلى وجهِ النَّهيِ عن دعائك؛ إذ دعاءُ أمثالها لا يَقصِدُه العاقلُ(٣).

ولمَّا نهى عن الشركِ في الآية السابقة، نهى هنا عن صورةٍ مِن صُوَرِ الشرك؛ وهي دعاءُ غيرِ الله تعالى.

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥٤٢).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٢١٧).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٤).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

ثم قال تعالىٰ عاطفًا علىٰ قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ لقصدِ التَّعريضِ بإبطال عقيدة المشركين أنَّ الأصنامَ شُفَعاءُ عند الله، فلمَّا أبطَلتِ الآيةُ السابقة أن تكونَ الأصنامُ نافعةً أو ضارَّةً، وكان إسنادُ النَّفع أو الضُّر أكثَرَ ما يقعُ علىٰ معنىٰ صدورهما مِن فاعلهما ابتداءً، ولا يَتبادَرُ مِن ذلك الإسنادِ معنىٰ الوَساطةِ في تحصيلهما مِن فاعلٍ، عُقِّبت جملةُ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بهذه الجملةِ؛ للإعلام بأنَّ إرادةَ اللهِ النفعَ أو الضُّرَّ لأحدٍ لا يستطيع غيرُه أن يَصرِفَه عنها، أو يَتعرَّضَ فيها(٢).

لمَّا تقدَّم قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فأخَّر الضرَّ، ناسَب أن تكونَ البَداءةُ بجملةِ الشرط المتعلِّقة بالضر، وأيضًا فإنَّه لمَّا كان الكفارُ يُتوقَّع منهم الضرُّ للمؤمنين، والنفعُ لا يُرجَىٰ منهم؛ كان تقديمُ جملةِ الضرِّ آكَدَ في الإخبار، فبُدِئ بها(٣).

لمَّا نهىٰ تعالىٰ عن عبادةِ الأوثان، ووصَفها بأنَّها لا تنفعُ ولا تضُرُّ؛ بيَّن أنَّه سبحانه هو الضارُّ النافع، الذي إن أصاب بضرٍّ لم يَقدِرْ علىٰ كشفِه إلا هو وَحْده، دُونَ كلِّ أحد،

(١) نظم الدرر (٩/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٥).

(٣) البحر المحيط (٦/ ١١٣).

فكيف بالجمادِ الذي لا شعورَ به؟! وكذلك إن أراد بخيرٍ لم يرُدَّ أحدٌ ما يريده مِن فضلِه وإحسانه، فكيف بالأوثان؟! فهو الحقيقيُّ إذًا بأن تُوجَّهَ إليه العبادةُ دُونَها[١].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ولمَّا كثُرتْ في هذه السُّورةِ الأوامرُ والنواهي والأجوبةُ بسبب ما يَقترحونه علىٰ وجهِ التعنُّت، وختَم بأنَّ مَن دعا غيرَه كان راسخًا في الظُّلْمِ لا مُجِيرَ له منه؛ ختَم ذلك بجوابٍ مُعلِم بأنَّ فائدةَ الطاعة ليست راجعةً إلا إليهم، وضررَ النُّفور ليس عائدًا إلا عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[٢].

استئنافٌ ابتدائيٌّ هو كذيلٍ لِما مضىٰ في السُّورة كلِّها، وحوصلةٍ لِما جرىٰ مِن الاستدلالِ والمجادَلة والتَّخويف والتَّرغيب؛ ولذلك جاء ما في هذه الجملةِ كلامًا جامعًا، وموادَعةً قاطعةً[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قرَّر الدَّلائلَ المذكورة في التوحيدِ والنُّبوَّة والمَعاد، وزيَّن آخِرَ هذه السُّورةِ بهذه البياناتِ الدالة علىٰ كونِه تعالىٰ مستبِدًّا بالخَلْقِ والإبداع، والتكوينِ والاختراع؛ ختَمها بهذه الخاتمةِ الشريفة العالية[٤].

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٦٨).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢١٩).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١٠).

ثم ختَم هذه السُّورةَ بما يُستدلُّ به على قضائه وقَدَرِه، فقال: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾(١).

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾

ولمَّا كان أكثرُ ذلك وعظًا لهم وتذكيرًا، ختَمه بأمرِه ﷺ بما يفعلُه في خاصَّةِ نفسه، أجابوا أو لَمْ يُجيبوا، فقال عطفًا على قولِه: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾(٢).

عطفٌ على ﴿ قُلۡ ﴾؛ أي: بلِّغِ الناسَ ذلك القولَ، ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾(٣).

ثم إنَّه تعالى ختَم هذه الخاتمةَ بخاتمةٍ أخرى لطيفةٍ، فقال: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾(٤).

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥٤٣).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٣١٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١١).

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات